NURUOSMANIYE KÜTÜPHANESİ

Kısmı: Nuruosmaniye

Yeni Kayıt No: 2918

Eski Kayıt No: 3423

Tasnif No.

٣٤٢٣

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وقف أكرم السلاطين من طبقات الملوك وأبهى الخواقين بحسن السيرة والسلوك
السلطان ابن السلطان السلطان أبو المواهب عثمان خان ابن السلطان
مصطفى خان أدام الله أيام خلافته وأقام بصحبته في تواريخ
وأنا الداعي الفقير الحاج إبراهيم حنيف المفتش بأوقاف
الحرمين المحترمين
عفي عنه

١١٩ نجی مجلدده حضرت علی رضی الله عنهنك وصيتی
واردر

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد مولانا وآله وصحبه قال سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى
ولي الدين قاضي المسلمين ابي زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي ادام الله ايامه
واعز احكامه وسدد نقضه وابرامه وختم بالصالحات اعماله بفضله وكرمه انه
ولي ذلك والقادر عليه وهو على كل شيء قدير الحمد لله الذي له العزة والجبروت
وبيده الملك والملكوت وله الاسماء الحسنى والنعوت العالم فلا يعزب عنه
ما يظهره النجوى او يخفيه السكوت القادر فلا يعجزه شيء في السموات والارض ولا يفوت
انشانا من الارض نسما واستعمرنا فيها اجيالا واما ويسر لنا منها ارزاقا وقسما
تكنفنا الارحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الايام والوقوت
وتعتورنا الاجال التي خط علينا كتابها الموقوت وله البقاء والثبوت
وهو الحي الذي لا يموت والصلوة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي
المكتوب في التورية والانجيل المنعوت الذي تمخض لفصاله الكون قبل ان تتعاقب الاحاد
والسبوت ويتباين زحل والبهموت وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت
وعلى آله واصحابه الذين لهم في صحبته واتباعه الاثر البعيد والصيت والشمل الجميع
في مظاهرته ولعدوهم الشمل الشتيت صلى الله عليه وعليهم ما اتصل للاسلام جده المبخوت
وانقطع بالكفر حبله المبتوت وسلم كثيرا **اما بعد** فان فن التاريخ من الفنون التي
يتداولها الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة
والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال
اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول والسوابق من القرون الاول
تنمق لها الاقوال وتصرف فيها الامثال وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال
وتودي لنا شان الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال واتسع للدول
فيها النطاق والمجال وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال
وباطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع و

اسم مؤلف

واسبابها عميق فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق وجدير بان يعد في علومها وخليق
وان فحول المورخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها وسطروها في
صحايف الدفاتر واودعوها وخلطها المتطفلون بدسايس من الباطل وهموا فيها او ابتدعوها
وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الاثار الكثير
ممن بعدهم واتبعوها واودوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال
ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح
في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق في الادميين
وسليل والتطفل على الفنون عريض طويل ومرعى الجهل بين الانام وبيل
والحق لا يقاوم سلطانه والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه والناقل انما هو
يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صحفات الصواب ويصقل
هذا وقد دون الناس في الاخبار واكثروا وجمعوا تواريخ الامم والدول في العالم وسطروا
والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة واستفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتاخرة
هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الانامل ولا حركات العوامل مثل ابن اسحق
والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي
وغيرهم من المشاهير المتميزين عن الجماهير وان كان في كتب المسعودي والواقدي
من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ومشهور بين الحفظة الثقات الا ان الكافة
اختصوهم بقبول اخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع اثارهم والناقد
البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم فللعمران طبايع في احواله ترجع
اليها الاخبار وتحمل عليها الروايات والاثار ثم ان اكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج
والمسالك لعموم الدولتين صدر الاسلام في الافاق والممالك وتناولها البعيد
من الغايات في المآخذ والمتارك ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والامم
والامر العمم كالمسعودي ومن نحا منحاه وجاء بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد
ووقف في العموم والاحاطة عن الشاو البعيد فقيد شوارد عصره واستوعب اخبار
افقه وقطره واقتصر على احاديث دولته ومصره كما فعل ابن حيان مورخ الاندلس
والدولة الاموية بها وابن الرقيق مورخ افريقية والدولة التي كانت بالقيروان
ثم لم يات من بعد هؤلاء الا مقلد وبليد الطبع والعقل او متبلد ينسج على ذلك
المنوال ويحتذي بالمثال ويذهل عما احالته الايام من الاحوال واستبدلت
به من عوايد الامم والاجيال فيجلبون الاخبار عن الدول وحكايات الوقايع في العصور
الاول صورا قد تجردت من موادها وصفاحا انتضيت من اغمادها ومعارف

تستنكر للجهل بطارفها وتلادها انما هي حوادث لم تعلم اصولها وانواع لم تعتبر اجناسها
ولا تحققت فصولها يكررون في موضوعاتها الاخبار المتداولة باعيانها اتباعا
لمن عني من المتقدمين بشانها ويغفلون امر الاجيال الناشية في ديوانها
بما اعوز عليهم ترجمانها فتستعجم صحفهم عن بيانها ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا
اخبارها نسقا محافظين على نقلها وهما او صدقا لا يتعرضون لبدايتها ولا يذكرون
السبب الذي رفع من رايتها واظهر من آيتها ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر
متطلعا بعد الى مبادي الاحوال ومراتبها مفتشا عن اسباب تزاحمها او تعاقبها باحثا
عن المقنع في تباينها او تناسبها حسبما نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب ثم جاء اخرون
بافراط الاختصار وذهبوا الى الاكتفاء بالاسماء الملوك والامصار مقطوعة
عن الانساب والاخبار موضوعة عليها اعدادا ايامهم بحروف الغبار كما فعله ابن رشيق
في ميزان العمل ومن اقتفى هذا الاثر من الهمل وليس يعتبر لهولاء مقال ولا يعد لهم ثبوت
ولا انتقال لما اذهبوا بالفوايد واخلوا بالمذاهب المعروفة للمورخين والعوايد
ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الامس واليوم نبهت عين القريحة
من سنة الغفلة او النوم وسمت التصنيف من نفسي وانا المفلس احسن السوم
فانشات في التاريخ كتابا رفعت عن احوال الناشية من الاجيال حجابا وفصلته
في الاخبار والاعتبار بابا بابا وابديت فيه لاولية الدول والعمران عللا واسبابا
وبنيته على اخبار الجيلين الذين عمروا المغرب في هذه الاعصار وملؤوا اكناف الضواحي
منه والامصار وما كان لهم من الدول الطوال والقصار ومن سلف لهم من
الملوك والانصار وهما العرب والبربر اذ هما الجيلان اللذان عرف بالمغرب
ماواهما وطال فيه على الاحقاب مثواهما ولا يعرف اهله من اجيال الادميين سواهما
وطال فيه على الاحقاب مثواهما حتى لا يكاد يتصور عنه مثواهما فهذبت مناحيه
تهذيبا وقربته لافهام العلماء والخاصة تقريبا وسلكت في تبويبه وترتيبه مسلكا غريبا
واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة واسلوبا وشرحت فيه
من احوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك
بعلل الكواين واسبابها ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع
من التقليد يدك وتقف على احوال ما بعدك من الايام والاجيال ما قبلك
ورتبته على مقدمة وثلثة كتب **المقدمة في فضل علم التاريخ** وتحقيق
مذاهبه والالماع بمغالط المورخين **الكتاب الاول** في العمران وذكر
ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش

والصنايع

والصنايع والعلوم ولذلك من العلل والاسباب **الكتاب الثاني**
في اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدا الخليقة الى هذا العهد وفيه الالمام ببعض
من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس
وبني اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك **الكتاب الثالث**
في اخبار البربر ومن اليهم من زناتة وذكر اوليتهم واجيالهم وما كان لهم بديار المغرب
خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره وقضاء الفرض
والسنة في مطافه ومزاره والوقوف على اثاره في دواوينه واسفاره فافدت
ما نقص من اخبار ملوك العجم بتلك الديار ودول الترك فيما ملكوه من الاقطار
واتبعت بها ما كتبته في تلك الاسطار وادرجتها في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال
من امم النواحي وملوك الامصار منهم والضواحي سالكا سبيل الاختصار والتلخيص
مقتديا بالمرام السهل من العويص داخلا من باب الاسباب على العموم الى الاخبار
على الخصوص فاستوعب اخبار الخليقة استيعابا وذلل من الحكم النافرة صعابا و
اعطى لحوادث الدول عللا واسبابا واصبح للحكمة صوانا وللتاريخ جرابا ولما كان
مشتملا على اخبار العرب والبربر من اهل المدر والوبر والالمام بمن عاصرهم من الدول
الكبر وافصح بالذكرى والعبر في مبتدا الاحوال وما بعدها من الخبر **سميته**
كتاب العبر وديوان المبتدا المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر و
من عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ولم اترك شيا من اولية الاجيال والدول
وتعاصر الامم الاول واسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل
وما يعرض في العمران من دولة وملة ومدينة وحلة وعزة وذلة وكثرة وقلة وعلم
وصناعة وكسب واضاعة واحوال متقلبة مشاعة وبدو وحضر وواقع ومنتظر
الا واستوعبت جمله واوضحت براهينه وعلله فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته
من العلوم الغريبة والحكم المحجوبة القريبة وانا من بعدها موقن بالقصور بين اهل العصور
معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء راغب من اهل اليد البيضاء والمعارف
المتسعة الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء والتغمد لما يعثرون عليه
بالاصلاح والاغضاء فالبضاعة بين اهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة والحسنى
من الاخوان مرتجاة والله اسال ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه وهو حسبي ونعم الوكيل

المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بما يعرض للمورخين من المغالط والاوهام وذكر شي من اسبابها

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة شريف الغاية اذ هو يقفنا على احوال

الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم
حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا فهو محتاج الى مآخذ
متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وينكبان
به عن المزلات والمغالط لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم اصول العادة
وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس الغائب
منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد
عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمورخين والمفسرين وائمة النقل المغالط في حكايات
الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها
باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر
والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط سيما في احصاء
الاعداد والاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب ومطية
الهذر ولا بد من ردها الى الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير
من المورخين في جيوش بني اسرائيل وان موسى عليه السلام احصاهم في التيه بعد
ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستمائة الف
او يزيدون ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من
الجيوش فلكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق
عما فوقها تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش
البالغة الى هذا العدد يبعد ان يقع بينها زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها و
بعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين وثلاثا او ازيد فكيف يقتتل هذان
فريقان او تكون غلبة احد الصفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالآخر والحاضر يشهد
لذلك فالماضي اشبه بالآتي من الماء بالماء ولقد كان ملك الفرس ودولتهم
اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه
بلادهم واستيلائه على امرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو
من بعض عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت
ممالكهم بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب اوسع من ممالك بني اسرائيل
بكثير ومع ذلك فلم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه واعظم ما كانت
جموعهم بالقادسية مائة وعشرين الفا كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في
اتباعهم اكثر من مائتي الف وعن عائشة والزهري ان جموع رستم سيف قال وكانوا
في اتباعهم اكثر من مائتي الف وعن عائشة والزهري ان جموع رستم التي زحف بها

لسعد

لسعد بالقادسية انما كانوا ستين الفا كلهم متبوع وايضا فلو بلغ بنو اسرائيل
مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم فان العمالات والممالك
في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها حسبما نبين في
فصل الممالك من الكتاب الاول والقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين
من الشام وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وايضا فالذي بين
موسى واسرائيل انما هو ثلثة اباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن
قاهث بفتح الهاء او كسرها ابن لاوي بكسر اللام او فتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا
نسبه في التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط
واولادهم حين اتوا الى يوسف عليه السلام سبعين نفسا وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا
مع موسى عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة يتداولهم ملوك القبط من الفراعنة
ويبعد ان يتشعب النسل في اربعة اجيال الى مثل ذلك العدد وان زعموا ان عدد
تلك الجيوش انما كان في زمن سليمان عليه السلام ومن بعده فبعيد ايضا اذ ليس بين
سليمان واسرائيل الا احد عشر ابا فانه سليمان بن داود بن ايشا بن عوفيذ ويقال
عوفذ ابن باعز ويقال بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب ويقال حميناذب
بن رام ابن حصرون ويقال حسرون بن بارس ويقال بيرس بن يهوذا بن يعقوب
ولا يتشعب النسل في احد عشر من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الا الى المئين والالاف
فربما يكون واما ان يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر
المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا والذي ثبت في الاسرائيليات
ان جنود سليمان عليه السلام كانت اثني عشر الفا خاصة وان مقرباته كانت الفا واربع
مائة فرس مرتبطة على ابوابه هذا هو الصحيح من اخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة
منهم وفي ايام سليمان كان عنفوان دولتهم واتساع ملكهم هذا وقد نجد الكافة من اهل
العصر اذا افاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم او قريبا منه وتفاوضوا في
الاخبار عن جيوش المسلمين او النصارى واخذوا في احصاء اموال الجبايات وخرج
السلطان ونفقات المترفين وبضائع الاغنياء الموسرين توغلوا في العدد وتجاوزوا
حدود العوائد وطاوعوا وساوس الاغراب فاذا استكشف اصحاب الدواوين
عن عساكرهم واستنبطت احوال اهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليت عوائد المترفين
في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز
على اللسان والغفلة عن المعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها
في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع

الكذب لسانه ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الحق وحسبك بها صفقة خاسرة

ومن الاخبار الواهية للمؤرخين

ما ينقلونه كافة في اخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب انهم كانوا يغزون من قرارهم
باليمن الى افريقية والبربر من بلاد المغرب وان افريقش بن قيس بن صيفي من اعاظم
ملوكهم الاول وكان لعهد موسى عليه السلام او قبله بقليل غزا افريقية واثخن في البربر
وانه الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وانه قال ما هذه البربرة فاخذ هذا الاسم
عنه ودعوا به من يومئذ وانه لما انصرف عن المغرب حجز بها هنالك قبائل من حمير فاقاموا
بها واختلطوا باهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني و
المسعودي وابن الكلبي والبيهقي الى ان صنهاجة وكتامة من حمير وياباه نسابة
البربر وهو الصحيح وذكر المسعودي ايضا ان ذا الاذعار من ملوكهم قبل افريقش وكان على عهد
سليمان عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده
وانه بلغ وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع وكذلك يقولون
في تبع الآخر وهو اسعد ابو كرب وكان على عهد يستاسب من ملوك الفرس الكينية
انه ملك الموصل واذربيجان ولقي الترك فهزمهم واثخن فيهم ثم غزاهم ثانية وثالثة
كذلك وانه بعد ذلك اغزى ثلثة من بنيه الى بلاد فارس والى بلاد الصغد من امم
الترك وراء النهر والى بلاد الروم فملك الاول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة
الى الصين فوجد اخاه الثاني الذي غزا الى الصغد قد سبقه اليها فاثخنا في بلاد الصين
ورجعا جميعا بالغنائم وتركوا ببلاد التبت قبائل من حمير فهم بها لهذا العهد وبلغ الثالث
الى قسطنطينية فحاصرها ودوخ بلاد الروم ورجع وهذه الاخبار كلها بعيدة من
الصحة عريقة في الوهم والغلط واشبه باحاديث القصاص الموضوعة وذلك
ان ملك التبابعة انما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء وجزيرة العرب
يحيط بها البحر من ثلث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس الهابط منه الى البصرة
من المشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس من اعمال مصر من جهة المغرب كما تراه
في مصور الجغرافيا فلا يجد السالك من اليمن الى المغرب طريقا من غير السويس طريقا
والمسلك هنالك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما ويبعد
ان يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير ان تصير من اعماله هذا ممتنع في العادة
وقد كان بتلك الاعمال العمالقة وكنعان بالشام والقبط بمصر ثم ملك العمالقة مصر
وملك بنو اسرائيل الشام ولم ينقل ان التبابعة قط حاربوا احدا من هؤلاء الامم ولا ملكوا
شيئا من تلك الاعمال وايضا فالشقة من اليمن الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة

للعساكر كثيرة فاذا ساروا في غير اعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والنعم وانتهاب
البلاد فيما يمرون عليه ولا يكفي ذلك للازودة والعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم
من ذلك من اعمالهم ولا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وان يمروا في طريقهم كلها باعمال
قد ملكوها ودوخوها لتكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهؤلاء الامم
من غير ان تهيجهم فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك ايضا ابعد واشد امتناعا فدل
على ان هذه الاخبار واهية او موضوعة واما وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع
قط ذكره في المغرب على كثرة سالكه ومن يقص طرقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل
جهة وهو على ما ذكروه من الغرابة تتوفر الدواعي على نقله واما غزوهم بلاد المشرق وارض
الترك وان كانت طريقه اوسع من مسالك السويس الا ان الشقة هنا ابعد
وامم فارس والروم معترضون فيها دون الترك ولم ينقل قط ان التبابعة ملكوا
بلاد فارس ولا بلاد الروم وانما كانوا يحاربون فارس على حدود ارض العراق وبلاد
العرب ما بين البحرين والحيرة المتاخمة بينهما في الاعمال وقد وقع ذلك بين ذي الاذعار
منهم وكيقاوس من ملوك الكينية وبين تبع الاصغر ابو كرب ويستاسف منهم
ايضا ومع ملوك الطوائف بعد الكينية والساسانية من بعدهم فمجاوزة التبابعة ارض
فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت ممتنع عادة من اجل الامم المعترضة دونهم والحاجة الى الازودة
والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالاخبار بذلك واهية مدخولة وهي لو كانت صحيحة
النقل لكان ذلك قادحا فيها فكيف وهي لم تنقل من وجه صحيح وقول ابن اسحق في خبر يثرب
والاوس والخزرج ان تبعا الآخر سار الى المشرق محمول على العراق وبلاد فارس واما بلاد
الترك والتبت فلا يصح غزوهم اليها بوجه لما تقرر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتامل
الاخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها باحسن وجه والله الهادي الى الصواب

فصل

وابعد من ذلك واعرق منه في الوهم ما يتناقله المفسرون
في تفسير سورة الفجر عند قوله تعالى الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد فيجعلون
لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بانها ذات العماد اي الاساطين وينقلون انه كان
لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك
لشداد ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لابنين مثلها فبنى مدينة ارم
في صحارى عدن في مدة ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة
قصورها الذهب والفضة واساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر
والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها باهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة
بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم

من المفسرين وينقلون ان عبد الله بن قلابة من الصحابة خرج في طلب ابل له شردت
عليها وحمل ما قدر عليه وبلغ خبره الى معوية فاحضره وقص عليه فبعث عن كعب الاخبار
وقص عليه فقال هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك احمر اشقر قصير
على حاجبه خال وفي عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فابصر ابن قلابة فقال هذا والله
هذا ذلك الرجل انتهى وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض
وصحاري عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا
والركاب والادلاء تنقص طرقه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها
احد من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انها درست فيما درس من الاثار لكان
اشبه الا ان ظاهر كلامهم انها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على ان قوم
عاد ملكوها وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غائبة عن الحس وانما يعثر عليها اهل الرياضة
او السحر مزاعم كلها شبيهة بالخرافات والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته
صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد من انها صفة ارم وحملوا العماد على الاساطين
فتعين ان يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد ارم على الاضافة من غير
تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي اشبه بالاقاصيص الموضوعة واقرب
الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات والا فالعماد هي عماد الخيام وان اريد
بها الاساطين فلا بدع في وصفهم بانهم اهل بناء واساطين على العموم بما اشتهر
من قوتهم لا انه بناء خاص في مدينة معينة او غيرها وان اضيفت كما في قراءة ابن
الزبير فعلى اضافة الفصيلة الى القبيلة كما تقول قريش كنانة والياس مضر وربيعة
نزار من غير تنوين الى هذا المحمل البعيد الذي يجلب لتوجيه امثال هذه الحكايات
الواهية التي تنزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ومن الحكايات المدخولة للمورخين
ما ينقلونه كافة عن سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر بن يحيى
بن خالد مولاه وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر اذن لهما في عقد النكاح دون
الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة لما شغفها
من حبه حتى واقعها زعموا انها في حالة سكر فحملت ووشى بذلك الى الرشيد فاستغضب
وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وابويها وجلالها وانها بنت عبد الله
ابن عباس ليس بينها وبينه الا اربعة رجال هم اشراف الدين وعظماء الملة من بعده والعباسة
بنت محمد المهدي بن عبد الله ابي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي ابي الخلفاء
ابن عبد الله ترجمان القران ابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم بنت خليفة
اخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته

واقامة

واقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة العروبية
وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فاين يطلب الصون
والعفاف اذا ذهب عنها او اين توجد الطهارة والزكاء اذا فقد من بيتها او كيف
تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس
او بولاء جدها من عمومة الرسول صلى الله عليه وسلم واشراف قريش وغايته ان جذبت
دولتهم بضبعه وضبع ابيه واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الاشراف وكيف يسوغ
من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم ابائه ولو نظر المتامل في ذلك
نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف
لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولج في تكذيبه واين
قدر العباسة والرشيد من الناس وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة
واحتجانهم اموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه
على امره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه فعظمت اثارهم وبعد
صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها
عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد
من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا
فيها اهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان ابيهم يحيى من كفالة هرون ولي
عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلبه على امره وكان يدعوه يا ابت
فتوجه الايثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت
نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الامال وتخطت اليهم من اقصى
التخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وتسربت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة
اموال الجباية وافاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن وكسبوا
من بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم واسنوا لعفاتهم
الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر
الممالك حتى اسفوا البطانة واحقدوا الخاصة واغصوا اهل الولاية فكشفت لهم وجوه
المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان
بنو قحطبة اخوال جعفر من اعظم الساعين عليهم لم يعطفهم لما وقر في صدورهم عواطف
الرحم ولا وزعتهم اواصر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف
من الحجر والانفة وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة وانتهى بها الاصرار
على شانهم الى كبائر المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن ابن الحسن ابن علي

بن ابي طالب اخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى
هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على امان الرشيد بخطه وبذل لهم
فيه الف الف درهم على ما ذكره الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله
بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله
حرما لدماء اهل البيت بزعمه ودالة على السلطان في حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشي
اليه ففطن وقال اطلقته فابدى له وجه الاستحسان واسرها في نفسه فاوجد السبيل
بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم و .. عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم
وبدارهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين ايامهم ومن تامل اخبارهم واستقصى سير الدولة
وسيرهم وجد ذلك محقق الاثر ممهد الاسباب وانظر ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضة
الرشيد عم جده داود بن علي في شان نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء في كتاب
العقد في محاورة الاصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تتفهم انما قتلتهم الغيرة
والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحيل به اعداؤهم من البطانة
فما دسوه من المغنين من الشعراء احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم
وهو قوله ليت هندا انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مما تجد واستبدت
مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد وان الرشيد لما سمعها قال اي والله عاجز
حتى بعثوا بامثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم باس انتقامه نعوذ من غلبة الرجال
وسوء الحال واما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان
فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء واين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة
من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاورته للفضيل
بن عباس ولابن السماك والعمري ومكاتبته سفيان وبكائه من مواعظهم
ودعائه بمكة طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات
وشهود الصبح لاول وقتها حكى الطبري وغيره انه كان يصلي كل يوم مائة ركعة نافلة
وكان يغزو عاما ويحج عاما ولقد زجر ابن ابي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له
بمثل ذلك في الصلوة لما سمعه يقرأ وما لي لا اعبد الذي فطرني قال والله لا ادري
لم فما تمالك الرشيد ان ضحك ثم التفت اليه مغضبا وقال يا ابن ابي مريم في الصلوة
ايضا اياك واياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما وايضا فقد كان
من العلم وا .. جه بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين كذلك ولم يكن بينه وبين
جده ابي جعفر بعيد زمن انما خلفه غلاما وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين قبل
الخلافة وبعدها وهو القائل لمالك حين اشار عليه بتاليف الموطا يا ابا عبد

الله

الله انه لم يبق على وجه الارض اعلم مني ومنك واني قد شغلتني الخلافة فضع انت
للناس كتابا ينتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر ووطئه للناس
توطئة قال مالك فوالله لقد علمني التصنيف يومئذ ولقد ادركه ابنه المهدي
ابو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ودخل عليه
يوما وهو بمجلسه يباشر الخياطين في ارقاع القمصان من ثياب عياله فاستنكف
المهدي من ذلك وقال يا امير المؤمنين علي كسوة هذا العيال عامنا هذا من عطائي فقال
لك ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالانفاق من اموال المسلمين فكيف يليق بالرشيد
على قرب العهد من هذا الخليفة وابوته وما ربي عليه من هذه السير في اهل بيته والتخلق
بها ان يعاقر الخمر او يجاهر بها وقد كانت حال الاشراف من العرب الجاهلية في اجتناب
الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد
واباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد
واوصاف الكمال ونزعات العرب وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل
بن بختيشوع الطبيب حين احضر له السمك في مائدته فحماه عنه ثم امر صاحب المائدة
بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس خادمه حتى عاينه يتناوله فاعد ابن
بختيشوع للاعتذار ثلث قطع من السمك في ثلثة اقداح خلط احدها باللحم المعالج بالتوابل
والبقول والبوارد والحلوا وصب على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمرا صرفا وقال في الاول
والثاني هذا طعام امير المؤمنين ان خلط السمك بغيره او لم يخلطه وقال في الثالث
هذا طعام ابن بختيشوع ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا انتبه الرشيد واحضره للتوبيخ
احضر الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط واماع ووجد الآخرين قد فسدا وتغيرت رائحتهما
فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك ان حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت
معروفة عند بطانته واهل مائدته ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس ابي نواس لما بلغه من انهماكه
في المعاقرة حتى تاب واقلع واما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب اهل العراق
وفتاويهم فيها معروفة واما الخمر الصرف فلا سبيل الى اتهامه بها ولا تقليد الاخبار
الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من اكبر الكبائر عند اهل الملة ولقد كان اولئك
القوم كلهم بمنجاة من خنث السرف والخنث في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم
لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج
عن الاباحة الى الحظر وعن الحلية الى الحرمة ولقد اتفق المورخون الطبري والمسعودي وغيرهم
على ان جميع من سلف من خلفاء بني امية وبني العباس انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من
الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وان اول خليفة احدث الركوب

بحلية الذهب هو المعتز المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم ايضا
في بسطهم فما ظنك بشاربهم ويتبين ذلك باكثر من هذا اذا فهمت طبيعة الدولة في اولها
البداوة والغضاضة كما نشرح في مسائل الكتاب الاول ان شاء الله تعالى
او قريبا منه ما ينقلونه عن يحيى ابن اكثم قاضي المامون وصاحبه وانه كان يعاقر
المامون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى افاق وينشدون على لسانه
يا سيدي وامير الناس كلهم قد جار في حكمه من كان يسقيني اني غفلت عن الساقي
فصيرني كما تراني سليب العقل والدين وحال ابن اكثم والمامون في ذلك
من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن محظورا عندهم واما السكر فليس من شانهم
وصحابته للمامون انما كانت خلة في الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من
فضائل المامون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة ان يوقظ
يحيى بن اكثم وثبت انهما كانا يصليان الصبح جميعا فاين هذا من المعاقرة وايضا فيحيى بن اكثم
كان من اهل الحديث ولقد اثنى عليه ابن حنبل واسمعيل القاضي وخرج عنه الترمذي وذكر
المزي الحافظ ان البخاري روى عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ينبزه
المجان بالميل الى الغلمان بهتانا على الله وفرية على العلماء ويستندون في ذلك الى اخبار
القصاص الواهية التي لعلها من افتراء اعدائه فانه كان محسدا في كماله وخلته للسلطان
وكان مقامه من العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس
فقال سبحان الله سبحان الله من يقول هذا وانكر ذلك انكارا شديدا وقيل لاسمعيل
ما كان يقال فقال معاذ الله ان تزول عدالة مثله بتكذيب باغ وحاسد وقال كان يحيى
ابن اكثم ابرا الى الله من ان يكون فيه شيء مما كان يرمى به من امر الغلمان ولقد كنت
اقف على سرائره فاجده شديد الخوف لله لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي
بما رمي به وذكره ابن حبان في الثقات وقال لا يشتغل بما يحكى عنه لان اكثرها لا يصح عنه

ومن امثال هذه الحكايات

ما نقله ابن عبد ربه صاحب العقد من حديث الزنبيل في سبب اصهار المامون الى الحسن
ابن سهل في ابنته بوران وانه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد بزنبيل مدلى
من بعض السطوح بمعالق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاقتعده وتناول المعالق
فاهتزت وذهب به صعدا الى مجلس شانه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد
آنيته وجمال رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وان امراة برزت له
من خلل الستور رائعة الجمال فتانة المحاسن فحيته ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها
الخمر الى الصباح ورجع الى اصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعثه الى الاصهار

الى ابيها

ابيها واين هذا كله من حال المامون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء
الراشدين من ابائه واخذه بسير الخلفاء الاربعة اركان الملة ومناظرته للعلماء
وحفظه لحدود الله في صلواته واحكامه فكيف تصح عنه احوال الفساق المستهترين
في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان السمر سبيل عشاق الاعراب واين
ذلك من منصب بنت الحسن ابن سهل وشرفها وما كان بدار ابيها من الصون والعفاف
وامثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المورخين معروفة وانما يبعث على وضعها والحديث
بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المروات ويتعللون بالقوم فيما ياتونه من طاعة
لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهجون باشباه هذه الاخبار وينقرون عنها عند تصفحهم
لاوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا من احوالهم وصفات الكمال اللائقة
بهم المشهورة عنهم لكان خيرا لهم لو كانوا يعلمون ولقد عذلت يوما بعض الامراء من
ابناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار وقلت له ليس هذا من شانك
ولا يليق بمنصبك فقال لي افلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس
المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تاسيت بابيه او اخيه او ما رايت كيف
قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي واعرض

ومن الاخبار الواهية

ما يذهب اليه الكثير من المورخين في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة من نفيهم
عن اهل البيت صلوات الله عليهم والطعن في نسبهم الى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق
يعتمدون في ذلك على احاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفا اليهم
بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشمات بعدوهم حسبما نذكر بعض هذه الاحاديث
في اخبارهم ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وادلة الاحوال التي اقتضت
خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبدا
دولة الشيعة ان ابا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره
وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه ابي القاسم خشيا على انفسهما فهربا من المشرق محل الخلافة
واجتازا بمصر وانهما خرجا من الاسكندرية في زي التجار ونمي خبرهما الى عيسى النوشري
عامل مصر والاسكندرية فسرح في طلبهما الخيالة حتى اذا ادركا خفي حالهما على تابعهما بما لبسوا
به من الشارة والزي فافلتوا الى المغرب وان المعتضد اوعز الى الاغالبة امراء افريقية
بالقيروان وبني مدرار امراء سجلماسة باخذ الافاق عليهما واذكاء العيون في طلبهما
فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة
للخليفة هذا قبل ان تظهر الشيعة على الاغالبة بالقيروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور
دعوتهم بافريقية والمغرب ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بمصر والشام والحجاز

وقاسموا بني العباس في ممالك الاسلام شق الابلمة وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ويديلون من امرهم ولقد اظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الامير البساسيري من موالي الديلم المتغلبين على خلفاء بني العباس في مغاضبة جرت بينه وبين امراء العجم وخطب لهم على منابرها حولا كريتا وما زال بنو العباس يغصون بمكانهم ودولتهم وملوك بني امية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله لدعي في النسب يكذب في انتحال الامر واعتبر حال القرمطي اذ كان دعيا في نسبه كيف تلاشت دعوته وتفرق اتباعه وظهر سريعا على خبثهم ومكرهم فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال امرهم ولو كان امر العبيديين كذلك لعرف ولو بعد مهلة فمهما تكن بامرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم فقد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم ومصلاه وموطن الرسول ومدفنه وموقف الحجيج ومهبط الملائكة ثم انقرض امرهم وشيعتهم في ذلك كله على اتم ما كانوا عليه من الصاغية اليهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل بن جعفر الصادق ولقد خرجوا مرارا بعد ذهاب الدولة ودروس اثرها داعين الى بدعتهم هاتفين باسماء صبيان من اعقابهم يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الائمة ولو ارتابوا في نسبهم لما ركبوا اعناق الاخطار في الانتصار لهم فصاحب البدعة لا يلبس في امره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما ينتحله والعجب من القاضي ابي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين يجنح الى هذه المقالة المرجوحة ويرى هذا الراي الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد في الدين والتعمق في الرافضية فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم وليس اثبات نسبهم بالذي يغني عنهم من الله شيئا في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شان ابنه انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسئلني ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها يا فاطمة اعملي فلن اغني عنك من الله شيئا ومتى عرف امرء قضية او استيقن امرا وجب عليه ان يصدع به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر خروجهم مرة بعد اخرى فلاذت رجالاتهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون كما قيل فلو تسئل الايام ما اسمي ما درت واين مكاني ما عرفن مكاني حتى لقد سمي محمد بن اسمعيل الامام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرا عليه من المتغلبين فتوصل شيعة ال العباس بذلك عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الراي الفائل الى المستضعفين من خلفائهم واعجب به اولياؤهم وامراء دولتهم المتولون لحروبهم مع الاعداء يدفعون

به عن انفسهم وسلطانهم معرة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر والحجاز من البربر الكتاميين شيعة العبيديين واهل دعوتهم ولقد اسجل القضاة ببغداد بنفيهم من هذا النسب المرتضى وابن الطحاوي ومن العلماء ابو حامد الاسفرايني والقدوري والصيمري وابن الاكفاني والابيوردي وابو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وغيرهم من اعلام الائمة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ثلثين واربع مائة وكانت شهادتهم على ذلك السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه والحق من ورائه وكتاب المعتضد في شان عبيد الله الى ابن الاغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة اصدق شاهد واوضح دليل على صحة نسبهم فالمعتضد اقعد بنسب اهل البيت من كل احد والدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتلتمس فيه ضوال الحكم وتحدى اليه ركائب الروايات والاخبار وما نفق فيها نفق عند الكافة فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الابريز الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقود وماجت بسماسرة البغي والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحثه وملتمسه **ومثل** هذا وابعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضوان الله عليهم وصلواته وسلامه الامام بعد ابيه بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظنن في الحمل المخلف عن ادريس الاكبر انه لراشد مولاهم قبحهم الله وابعدهم ما اجهلهم اما يعلمون ان ادريس الاكبر كان اصهاره في البربر وانه منذ دخل المغرب الى ان توفاه الله عز وجل عريق في البدو وان حال البادية في كل ذلك غير خافية اذ لا مكامن لهم يتأتى فيها الريب واحوال حرمهم اجمعين بمرأى من جاراتهن ومسمع من جيرانهن لتلاصق الجدران وتطامن البناء وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشد يتولى خدمة الحرم اجمع من بعد مولاه بمشهد من اوليائهم وشيعتهم ومراقبة من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب الاقصى عامة على بيعة ادريس الاصغر من بعد ابيه واتوه طاعتهم عن رضى واصفاق وبايعوه على الموت الاحمر وخاضوا دونه بحار المنايا في حروبه وغزواته ولو حدثوا انفسهم بمثل هذه الريبة او قرعت اسماعهم ولو من عدو كاشح او منافق مرتاب لتخلف عن ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من بني العباس اقتالهم ومن بني الاغلب عمالهم كانوا بافريقية وولاتهم وذلك انه لما فر ادريس الاكبر الى المغرب من وقعة فخ اوعز الهادي

الى الاغالبة ان يقعدوا له بالمراصد ويذكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص
الى المغرب فتم امره وظهرت دعوته وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من واضح
مولاهم وعاملهم على الاسكندرية من دسيسة التشيع للعلوية وادهانه في نجاة ادريس
الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالي ابيه للتحيل في قتل ادريس فاظهر اللحاق به
والبراءة من بني العباس مواليه فاشتمل عليه ادريس وخلطه بنفسه وناوله
الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به ووقع خبر مهلكه من بني العباس بموقع لما رجوه
من قطع اسباب الدعوة العلوية بالمغرب واقتلاع جرثومتها ولم يتأد اليهم خبر الحمل
المخلف لادريس فلم يكن الا كلا ولا واذا بالدعوة قد عادت والشيعة بالمغرب
قد ظهرت ودولتهم بادريس بن ادريس تجددت فكان ذلك عليهم انكى من وقع
السهام وكان الفشل والهرم قد نزل بدولة المغرب عن ان يسموا الى القاصية فلم يكن
منتهى قدرة الرشيد على ادريس الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر
عليه الا التحيل في اهلاكه بالسموم فعند ذلك فزعوا الى اوليائهم من الاغالبة
بافريقية في سد تلك الفرجة من ناحيتهم وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع
تلك العروق قبل ان تشج منهم يخاطبهم بذلك المامون ومن بعده من خلفائهم فكان
الاغالبة عن برابرة المغرب الاقصى اعجز ولمثلها من الزبون على ملوكهم احوج لما طرق الخلافة
من انتزاء المماليك العجم على سدتها وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم احكامها طوع
اغراضهم في رجالها وجباياتها واهل خططها وساير نقضها وابرامها كما قال شاعرهم خليفة
في قفص بين وصيف وبغا يقول ما قالا له كما تقول الببغا فخشي هؤلاء الاغالبة الامراء
بوادر السعايات وتلووا بالمعاذير فطورا باحتقار المغرب واهله وطورا بالارهاف
بشان ادريس الخارج به ومن قام مقامه من اعقابه يخاطبونهم بتجاوزه حدود
التخوم من عمله وينفذون سكته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحاله وتهويلا
باشتداد شوكته وتعظيما لما دفعوا اليه من مطالبته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة
ان الجئوا اليه وطورا يطعنون في نسب ادريس بمثل ذلك الطعن الكاذب
تخفيضا لشانه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعد المسافة وافن عقول من خلف
من صبية بني العباس ومماليكهم العجم في القبول من كل قائل والسمع لكل ناعق ولم يزل هذا
هذا دابهم حتى انقضى امر الاغالبة فقرعت هذه الكلمة الشنعاء اسماع الغوغاء وصر عليها
بعض الطاعنين اذنه واعتدها ذريعة لكل من خلفهم عند المنافسة وما لهم قبحهم الله
والعدول عن مقاصد الشريعة ولا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس
ولد على فراش ابيه والولد للفراش على ان تنزيه اهل البيت عن هذا من عقائد الايمان

فالله

فالله سبحانه قد اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ففراش ادريس طاهر من الدنس
ومنزه عن الرجس بحكم القران ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء باثمه وولج الكفر من بابه وانما اطنبت
في هذا الباب سدا لابواب الريب ودفعا في صدر الحاسد لما سمعته اذناي من قائله
المعتدي عليهم القادح في نسبهم بفريته وينقله بزعمه عن بعض مورخي المغرب ممن انحرف
عن اهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والا فالمحل منزه عن ذلك معصوم منه ونفي
العيب حيث يستحيل العيب عيب لكني جادلت عنهم في الحيوة الدنيا وارجو ان يجادلوا عني
يوم القيامة **ولتعلم** ان اكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة لاعقاب ادريس
هذا من منتم الى اهل البيت او دخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب دعوى شرف عريض على
الامم والاجيال من اهل الافاق فتعرض التهمة ولما كان نسب بني ادريس هؤلاء بمواطنهم
من فاس وساير ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع احد
في دركه اذ هو نقل الامة والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدهم ادريس
مختط فاس ومؤسسها بين بيوتهم ومسجده لصق محلتهم ودروبهم وسيفه منتضى براس
المأذنة العظمى من قرار بلدهم وغير ذلك من اثاره التي جاوزت اخبارها حدود التواتر
مرات وكادت تلحق بالعيان فاذا نظر غيرهم من اهل هذا النسب الى ما اتاهم الله من امثالها
وما عضد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن انه بمعزل
عن ذلك وانه لا يبلغ مد احدهم ولا نصيفه وان غاية امر المنتمين الى البيت الكريم ممن لم يحصل
له امثال هذه الشواهد ان تسلم لهم حالهم لان الناس مصدقون في انسابهم وبون
ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص بريقه وود كثير منهم
لو يردونهم عن شرفهم ذلك سوقة ووضعاء حسدا من عند انفسهم فيرجعون الى العناد
وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هذا الطعن القائل والقول المكذوب تعللا بالمساواة في
الظنة والمشابهة في تطرق الاحتمال وهيهات لهم ذلك فليس في المغرب فيما نعلمه من اهل
هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ اعقاب ادريس هذا من ال
الحسن وكبراؤهم لهذا العهد بفاس بنو عمران من ولد يحيى الجوطي بن محمد العدام بن القاسم بن
ادريس وهم نقباء اهل البيت هنالك والساكنون ببيت جدهم ادريس
ولهم السيادة على اهل المغرب كافة حسبما نذكرهم عند ذكر الادارسة ان شاء الله وهم بنو عمران
بن محمد بن الحسن بن يحيى بن عبد الله بن محمد على بن محمد بن يحيى بن ابرهيم بن يحيى الجوطي والنقيب
لهذا العهد منهم محمد بن محمد بن عمران **ويلحق بهذه المقالات**
الفاسدة والمذاهب الفائلة ما يتناوله ضعفة الراي من فقهاء المغرب من القدح
في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة والتلبيس فيما اتاه من القيام

بالتوحيد الحق والنعي على اهل البغي قبله وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون
اتباعه من انتسابه في اهل البيت وانما حمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده
على شانه فانهم لما راوا من انفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز
عنهم بانه متبوع الراي مسموع القول موطوء العقب نفسوا ذلك عليه وغضوا منه
بالقدح في مذاهبه والتكذيب لمدعياته وايضا فكانوا يونسون من ملوك لمتونة
اعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كانوا عليه من السذاجة وانتحال الديانة فكان
لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره
في قومه فاصبحوا بذلك شيعة لهم وحربا لعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم
والتثريب عليهم والمناصبة لهم تشيعا للمتونة وتعصبا لدولتهم ومكان الرجل غير
مكانهم وحاله على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على الدولة ما نقم من احوالها وخالف
اجتهاده فقهاءهم فنادى في قومه ودعى الى جهادهم بنفسه فاقتلع الدولة من اصولها
وجعل عاليها سافلها اعظم ما كانت قوة واشد شوكة واعز انصارا وحامية وتساقطت
في ذلك من اتباعه نفوس لا يحصيها الا خالقها قد بايعوه على الموت ووقوه بانفسهم
من الهلكة وتقربوا الى الله باتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة
حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحاله من التقشف والحصر
والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع حتى
الولد الذي ربما تجنح اليه النفوس وتخادع عن تمنيه فليت شعري ما الذي قصد بذلك ان لم يكن
وجه الله وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم امره وانفسحت
دعوته سنة الله التي قد خلت في عباده واما انكارهم نسبه في اهل البيت فلا تعضده
حجة لهم مع انه ان ثبت انه ادعاه وانتسب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لان الناس
مصدقون في انسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير اهل جلدتهم كما هو الصحيح
حسبما ياتي في الفصل الاول من هذا الكتاب والرجل قد راس سائر المصامدة ودانوا
باتباعه والانقياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم امر الله في دعوته فاعلم ان هذا
النسب الفاطمي لم يكن امر المهدي يتوقف عليه ولا اتبعه الناس بسببه وانما كان
اتباعهم له بعصبية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان
النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقي عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم
فيكون النسب الاول كانه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب
الاول في عصبيته اذ هو مجهول عند اهل العصابة ومثل هذا واقع كثيرا اذا كان النسب
الاول خفيا وانظر قصة عرفجة وجرير في رياسة بجيلة وكيف كان عرفجة من الازد ولبس

جلده

جلده بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضي الله عنهم كما هو مذكور تفهم منه
وجه الحق والله الهادي للصواب **وقد** كدنا نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب
في هذه المغالط فقد زلت اقدام كثير من الاثبات والمورخين الحفاظ في مثل هذه الاحاديث
والآراء وعلقت بافكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس
وتلقوها هم ايضا كذلك من غير بحث ولا روية واندرجت في محفوظاتهم حتى صار
فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتبكا وعد من مناحي العامة فاذن يحتاج صاحب
هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع
والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة
بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف
وتعليل المتفق منه والمختلف والقيام على اصول الدول والملل ومبادي ظهورها واسباب
حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل
حادث واقفا على اصول كل خبر وحينئذ يعرض خبره المنقول على ما عنده من القواعد والاصول
فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه وما استكبر
القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما
وامثالهم من علماء الامة وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة و
استخف العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل
عليه فاختلط المرعي بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى الله عاقبة
الامور **ومن الغلط في التاريخ** الذهول عن تبدل
الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوي
شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد
من اهل الخليقة وذلك ان احوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على
وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال
الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع في الآفاق
والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده وقد كانت
في العالم امم الفرس الاولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط
وكانوا على احوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم
واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واحوال اعتمارهم تشهد
بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك
الاحوال وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها او يشابهها والى ما يباينها ويباعدها

ثم جاء الاسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة اخرى وصارت
الى الكثرة متعارف لهذا العهد يأخذه الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب
وايامهم وذهب الاسلاف الذين شيدوا عزهم ومهدوا ملكهم وصار الامر
في ايدي سواهم من العجم مثل الترك بالمشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال
فذهبت بذهابهم امم وانقلبت احوال وعوايد نسي شانها واغفل امرها والسبب
الشايع في تبدل الاحوال والعوايد ان عوايد كل جيل تابعة لعوايد سلطانه كما يقال
العامة على دين الملك واهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر
فلا بد وان ينزعوا الى عوايد من قبلهم وياخذون الكثير منها ولا يغفلون عن عوايد
جيلهم مع ذلك فيقع في عوايد الدولة بعض المخالفة لعوايد الجيل الاول فاذا جاءت
دولة اخرى من بعدهم ومزجت من عوايدهم وعوايدها خالفت ايضا بعض الشيء
وكانت للاولى اشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة
فما دامت الامم والاجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوايد
والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير مامون
تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن مرامه فربما يسمع السامع كثيرا من
اخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابها فيجريها لاول وهلة على
ما عرف ويقيسها على ما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في مهواة من الغلط

فمن هذا الباب

ما ينقله المورخون من احوال الحجاج وان اباه كان من المعلمين مع ان التعليم لهذا
من جملة الصنايع المعاشية البعيدة من اعتزاز اهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين
منقطع الجذم فيتشوف الكثير من المستضعفين اهل الحرف والصنايع المعاشية الى نيل
الرتب التي ليسوا لها باهل ويعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع
وربما انقطع حبلها من ايديهم فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف ولا يعلمون استحالتها في حقهم
وانهم اهل حرف وصنايع للمعاش وان التعليم صدر الاسلام والدولتين لم يكن
كذلك ولم يكن العلم بالجملة صناعة انما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين
على جهة البلاغ فكان اهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون
كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي
اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم والاسلام دينهم قاتلوا عليه
وقتلوا واختصوا به من بين الامم وتشرفوا فيحرصون على تعليم ذلك وتفهيمه للامة
ولا تصدهم عنه لائمة الكبر ولا يزعهم عاذل الانفة ويشهد لذلك بعث النبي صلى الله

عليه

عليه وسلم كبار اصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرايع
الدين بعث في ذلك من اصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الاسلام ووشجت
عروق الملة حتى تناولها الايام البعيدة من ايدي اهلها واستحالت بمرور الايام احوالها
وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقايع وتلاحقها فاحتيج في ذلك
الى قانون يحفظه من الخطاء وصار العلم ملكة يحتاج الى التعلم فاصبح من جملة الصنايع والحرف
كما ياتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل اهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان
فدفع للعلم من قام به من سواهم واصبح حرفة للمعاش وشمخت انوف المترفين واهل
السلطان عن التصدي للتعليم واختص انتحاله بالمستضعفين وصار منتحله محتقرا عند
اهل العصبية والملك والحجاج ابن يوسف كان ابوه من سادات ثقيف واشرافهم
ومكانهم من العصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقران
على ما هو الامر عليه لهذا العهد من انه حرفة للمعاش وانما كان على ما وصفناه من الامر الاول
في الاسلام **فمن هذا الباب** ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ اذا سمعوا
احوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر فتترامى بهم
وساوس الهمم الى مثل تلك الرتب يحسبون ان الشان في خطة القضاء لهذا العهد
على ما كانوا عليه من قبل ويظنون بابن ابي عامر حاجب هشام المستبد عليه وابن
عباد من ملوك الطوايف باشبيلية اذا سمعوا ان اباءهم كانوا قضاة انهم مثل
القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوايد كما نبينه
في فصل القضاء من الكتاب الاول وابن ابي عامر وابن عباد كانا من قبايل العرب
القايمين بالدولة الاموية بالاندلس واهل عصبيتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن
نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد بل انما كان القضاء
في الامر القديم لاهل العصبيات من قبيل الدولة ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب
وانظر خروجهم بالعساكر في الصوايف وتقليدهم عظايم الامور التي لا تقلد الا لمن له
الغناء فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هي عليه واكثر ما يقع
في هذا الغلط ضعفاء البصاير من اهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبية في
مواطنهم منذ اعصار بعيدة لفناء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة اهل العصبية
من البربر فبقيت انسابهم العربية محفوظة والذريعة الى العز من التناصر والعصبية
مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبدهم القهر ورئموا المذلة
يحسبون ان انسابهم مع مخالطة الدولة هي التي تكون بها الغلب والتحكم فتجد اهل

الحرف منهم والصنايع متصدين لذلك ساعين في نيله فاما من باشر احوال القبايل
والعصبة ودولهم بالعدوة المغربية وكيف يكون التغلب بين الامم والعساكر
فقل ان يغلطون في ذلك او يخطئون في اعتباره ومن هذا الباب
ايضا ما يسلكه المورخون عند ذكر الدول ونسق ملوكها فيذكرون اسمه ونسبه
وامه واباه ونساءه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره وكل ذلك تقليدا
للمورخين بالدولتين من غير نظر والمورخون لذلك العهد كانوا يضعون تواريخهم
لاهل الدولة وابناؤها متشوفون الى سير سلفهم ومعرفة احوالهم ليقتفوا على اثار
سلفهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط
والمراتب لارباب صنايعهم وذويهم والقضاة ايضا كانوا من اهل عصبية الدولة
وفي عداد الوزراء كما ذكرناه فيحتاجون الى ذكر ذلك كله واما حين تباينت
الدول وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصة
ونسب الدول بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الامم ويقصر
عنها فما الفائدة للمصنف لهذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب
والقاضي والوزير والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها اصولهم ولا انسابهم
ولا مقاماتهم انما حملهم على ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المولفين الاقدمين
والذهول عن تحري الاعراض من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت
اثارهم وعفت على الملوك اخبارهم كالحجاج والبرامكة وبني سهل بن نوبخت
وكافور الاخشيدي وابن ابي عامر وامثالهم فغير نكير الالماع باباءهم والاشارة الى احوالهم
لانتظامهم في عداد الملوك ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا في هذا الفصل
بها وهي ان التاريخ انما هو ذكر الاخبار الخاصة بعصر او جيل فاما ذكر الاحوال العامة
للافاق والاجيال والاعصار فهو اس للمورخ تنبني عليه اكثر مقاصده وتتبين به
اخباره وقد كان الناس يفردونه بالتاليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج
الذهب شرح فيه احوال الامم والافاق لعهده في عصر الثلثين والثلثماية غربا وشرقا
وذكر نحلهم وعوايدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق
شعوب العرب والعجم فصار اماما للمورخين يرجعون اليه واصلا يعولون في تحقيق
الكثير عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون
غيرها من الاحوال لان الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال ولا عظيم تغير واما لهذا
العهد وهو اخر المائة الثامنة فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهدوه

وتبدلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القدم بمن طرا فيه من لدن المائة الخامسة
من اجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما بقي
من البلدان لملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون
الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران
ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل
من حدها واوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها وانتقص
عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست السبل
والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن
وكاني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكانما نادى
لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة والله وارث
الارض ومن عليها واذا تبدلت الاحوال جملة فكانما تبدل الخلق من اصله وتحول
العالم باسره وكانه خلق جديد ونشاة مستانفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد
من يدون احوال الخليقة والاجيال والعوايد والافاق والنحل التي تبدلت لاهلها
ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون اصلا يقتدي به من ياتي من المورخين
من بعده وانا ذاكر في كتابي هذا ما امكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا او مندرجا
في اخباره وتلويحا لاختصاص قصدي في التاليف بالمغرب واحوال اجياله وامه وذكر
ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على احوال المشرق وامه وان الاخبار
المتناقلة لا توفي كنه ما اريده منه والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته
وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع انه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء احواله وفوق
كل ذي علم عليم ومرد العلم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب
ومن كان في عونه تيسرت عليه المذاهب وانجحت له المساعي والمطالب ونحن
اخذون بعون الله فيما رمناه من اغراض التاليف والله المسدد والمعين وعليه
التكلان وقد بقي علينا ان نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغة العرب
اذا عرضت في كتابنا هذا واعلم ان الحروف في النطق كما ياتي شرحه بعد هي كيفيات
للاصوات الخارجة من الحنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة واطراف
اللسان مع الحلق والحنك والاضراس او بقرع الشفتين ايضا فتتغاير كيفيات
الاصوات بتغاير ذلك القرع وتجي الحروف متمايزة في السمع وتتركب منها الكلمات
الدالة على ما في الضماير وليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف التي نطقت
بها العرب وهي ثمانية وعشرون حرفا كما علمت ونجد للعبرانيين حروفا ليست

في لغتنا وفي لغتنا ايضا حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير
هؤلاء من العجم ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم الموضوعة
باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع الف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر
الثمانية والعشرين فاذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملا عن
الدلالة الكتابية مغفلا عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي
يكتنفه من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغيير للحرف من اصله
ولما كان كتابنا مشتملا على اخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم
وبعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا الى بيانه
ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير واف بالدلالة عليه
فاصطلحت في كتابي هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه
ليتوسط القارئ بالنطق بين مخرجي ذلك الحرفين فتحصل تاديته وانما اقتبست ذلك
من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف فان النطق فيها بصاد
مفخم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل
ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت انا كل حرف يتوسط بين
حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم والقاف
مثل اسم بلكين فاضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة
القاف واحدة من فوق او اثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم
او القاف وهذا الحروف اكثر ما يجي في لغة البربر وما جاء من غيره فعلى هذا القياس
اضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم القارئ انه متوسط
فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه
لكنا قد صرفناه من مخرجه المخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى اله وصحبه

**الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب
والكسب والمعاش والعلوم والصنايع ونحوها ولذلك من العلل والاسباب**

اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم
وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات واصناف
التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشا عن ذلك من الملك والدول ومراتبها
وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنايع وسائر
ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال ولما كان الكذب متطرقا للخبر
بطبيعته وله اسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس
اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين
صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لراي او نحلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة
وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول
الكذب ونقله **ومن الاسباب** المقتضية للكذب في الاخبار الثقة بالناقلين
وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح **ومنها** الذهول عن المقاصد فكثير
من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع
في الكذب **ومنها** توهم الصدق وهو كثير وانما يجي في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين
ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع
فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه **ومنها** تقرب الناس
في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر
بذلك فتستفيض الاخبار بها على غير حقيقة والنفوس مولعة بحب الثناء والناس
متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل
ولا متنافسين في اهلها ومن الاسباب المقتضية له ايضا وهي سابقة على جميع
ما تقدم الجهل بطبايع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا
لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله فاذا كان السامع عارفا بطبائع
الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز
الصدق من الكذب وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا ما يعرض للسامعين
قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر
لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه
صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية

التي رآها وعمل تماثيلها من نحاس ومعدنه ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب
حين خرجت وعاينتها وتم له بناؤه في حكايات طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة
من قبل اتخاذ التابوت الزجاج ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ومن قبل أن الملوك
لا تحمل أنفسها على مثل هذا الغرر ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض
العقدة واجتماع الناس إلى غيره وفي ذلك تلافه لا ينتظرون به رجوعه من غيره
ذلك طرفة عين ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها إنما هي
قادرة على التشكل وما يذكر من كثرة الرؤس لها فإنما المراد به البشاعة والتهويل
لا أنه حقيقة وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية والقادح المحيل من طريق الوجود
أبين من هذا كله أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء
للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل
لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت
عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الآبار والمطامير العميقة المهوى إذا سخن
هواؤها بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها فإن المتدلي فيها يهلك لحينه وبهذا
السبب يكون موت الحوت إذا فارق البحر فإن الهواء لا يكفيه لتعديل رئته وهو
حار بإفراط والماء الذي يعدله بارد والهواء الذي خرج إليه حار فيستولي الحار على
روحه الحيواني ويهلك دفعة ومنه هلاك المصعوقين ونحو ذلك **وأمثال ذلك**
من الأخبار المستحيلة ما نقله المسعودي أيضا في تمثال الزرزور الذي برومة
تجتمع إليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون
زيتهم وانظر ما أبعد من ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت **ومنها**
ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلثين مرحلة
وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي
وهذه خرجت عن أن يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما نقله المسعودي
أيضا من مدينة النحاس وأنها مدينة كلها من نحاس بصحراء سجلماسة طرقها
موسى بن نصير في غزاته إلى المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد
من أسوارها إذا أشرف على الحائط صعق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث
مستحيل من خرافات القصاص وصحراء سجلماسة قد نفضها الركاب والأدلاء
ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر المدينة ثم أن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل
عادة مناف للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وأن المعادن غاية الموجود
منها أن يصرف في الآنية والخرثي وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة

والبعد

والبعد **وأمثال** كثيرة وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران وهو أحسن الوجوه
وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة
ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى نعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع وأما إذا كان
مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة
مدلول اللفظ أو تأويله أن تؤول بما لا يقبله العقل وإنما كان التعديل والتجريح هو
المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها متى
حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والعقل وأما الأخبار
عن الوقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب أن ينظر
في إمكان وقوعه وصار ذلك فيها أهم من التعديل مقدما عليه إذ فائدة الإنشاء مقتبسة
منه وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل
في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز
ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن
أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق
من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال
الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان لنا ذلك معيارا صحيحا يتحرى
به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه وهذا هو غرض هذا الكتاب
الأول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع هو العمران البشري
والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهو بيان ما يلحقه من الأحوال لذاته واحدة بعد
أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا **واعلم** أن الكلام
في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدى
إليه الغوص وليس من علم الخطابة الذي هو أحد الكتب المنطقية فإن موضوع الخطابة
إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه ولا هو أيضا
من علم السياسة المدنية إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل والمدينة بما يجب
بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف
موضوعه موضوع هذين الفنين اللذين ربما يشبهانه وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري
لم أقف لأحد من الخليقة على الكلام في منحاه ولا أدري ألغفلتهم عن ذلك وليس الظن
بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا فالعلوم كثيرة والحكماء في أمم
النوع الإنساني متعددون وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل فأين علوم الفرس
الذي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين

واهل بابل وما ظهر عليهم من آثارها ونتايجها وابن علوم القبط من قبلهم وانما وصل
الينا علوم امة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المامون باخراجها من لغتهم واقتداره
على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها ولم نقف على شيء من علوم غيرهم واذا كانت
كل حقيقة متعقلة طبيعية يصلح ان يبحث عنها عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب
ان يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لكن الحكماء لعلهم انما لاحظوا
في ذلك العناية بالثمرات وهذا ثمرته كما رايت في الاخبار فقط وان كانت مسائله
في ذاتها وباختصاصاتها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلهذا هجروه والله اعلم
وما اوتيتم من العلم الا قليلا وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض
لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع والمطلب مثل ما يذكره
الحكماء في اثبات النبوة من ان البشر متعاونون في وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم
والوازع ومثل ما يذكر في اصول الفقه في باب اثبات اللغات ان الناس محتاجون
الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وشان العبارات اخف ومثل
ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد ان الزنا مخلط للانساب مفسد
للنوع وان القتل مؤذن بخراب العمران المقتضي فساد النوع وغير ذلك من ساير المقاصد
الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما يعرض
له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثلة وكذلك ايضا يقع الينا القليل من مسائله
في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه فمن كلام الموبذ لبهرام بن بهرام
في حكاية البوم التي نقلها المسعودي ايها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة
والقيام لله بطاعته والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز
للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل والعدل
الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك ومن كلام
انوشروان بعينه الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة
بالعدل والعدل باصلاح العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء وراس الكل
بافتقاد الملك حال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها حتى يملكها ولا تملكه . . . .
وفي الكتاب المنسوب لارسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء
صالح منه الا انه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين ومختلط بغيره وقد اشار
في ذلك الكتاب الى هذه الكليات التي نقلناها عن الموبذان وانوشروان وجعلها
في الدايرة القريبة التي اعظم القول فيها وهي قوله العالم بستان سياجه الدولة
والدولة سلطان تحيا به السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك

نظام

نظام يعضده الجند الجند اعوان يكفلهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية عبيد
يكنفهم العدل العدل مالوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم يرجع الى اول الكلام

فهذه كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت اعجازها على صدورها
واتصلت في دايرة لا يتعين طرفها فخر بعثوره عليها وعظم فوايدها وانت اذا تاملت
كلامنا في فصل الملك والدول واعطيته حقه من التصفح والتفهم عثرت في اثنايه
على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفى مبينا باوعب بيان واوضح دليل وبرهان
اطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة الموبذان وكذلك تجد في كلام ابن
المقفع وما يستطرد في رسايله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير
مبرهنة كما برهناه انما يجليها في الذكر على منحى الخطابة في اسلوب الترسل وبلاغة الكلام
وكذلك حوم القاضي ابو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوبه على ابواب
تقرب من ابواب كتابنا ومسايله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا اصاب الشاكلة
ولا استوفى المسائل ولا اوضح الادلة انما يبوب الباب من المسئلة ثم يستكثر
من الاحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان
وحكماء الهند والماثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من اكابر الخليقة ولا يكشف
عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا انما هو نقل وترغيب شبيه

بالمواعظ وكانه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله
ونحن الهمنا الله الى ذلك الهاما واعثرنا عليه على علم جعلنا بين نكره وجهينة خبره فان كنت
قد استوفيت مسائله وميزت عن ساير الصنايع انظاره وانحاه فتوفيق من الله وهداية
وان فاتني شي في احصائه او اشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل
لاني نهجت له السبيل واوضحت الطريق والله يهدي بنوره من يشاء ونحن الان
نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من احوال العمران في الملك والكسب
والعلوم والصنايع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة
وتندفع بها الاوهام وترتفع الشكوك ونقول لما كان الانسان متميزا عن ساير
الحيوانات بخواص اختص بها فمنها العلوم والصنايع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن
الحيوانات وشرف بوصفه عن المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والسلطان
القاهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النحل
والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامي لا بفكر وروية ومنها السعي
في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب اسبابه لما جعل الله فيه من الافتقار
الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى اعطى كل شي خلقه ثم
هدى ومنها العمران وهو التساكن والتنازل في مصر او حلة للانس بالعشيرة واقتضاء
الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه ومن هذا العمران ما يكون
بدويا وهو الذي في الضواحي والجبال وفي الحلل المنتجعة للقفار واطراف الرمال ومنه
ما يكون حضريا وهو الذي يكون بالامصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها
والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الاحوال امور تعرض من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا
له فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول الاول في العمران البشري على الجملة
واصنافه وقسطه من الارض الثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية
الثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية الرابع في العمران
الحضري والبلدان والامصار الخامس في الصنايع والمعاش والكسب ووجوهه السادس
في العلوم واكتسابها وتعلمها وقدمت العمران البدوي لانه سابق على جميعها كما نبين
لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والامصار واما تقديم المعاش فلان المعاش
ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي او حاجي والطبيعي اقدم من الكمالي وجعلت الصنايع مع الكسب
لانها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران كما نبين بعد والله الموفق والمعين

الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات الاولى

في ان الاجتماع الانساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الانسان مدني بالطبع اي لا بد
له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيانه ان الله
سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه
بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل
حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه اقل ما يمكن فرضه
وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه
الاعمال الثلثة يحتاج الى مواعين والات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفخار
هب انه ياكله حبا من غير علاج فهو ايضا يحتاج في تحصيله حبا الى اعمال اخرى اكثر من هذه من الزراعة
والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه الى الات
متعددة وصنايع كثيرة اكثر من الاولى بكثير ويستحيل ان يوفي بذلك كله او ببعضه قدرة الواحد
فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر
الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا في الدفاع عن نفسه
الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع الحيوانية كلها وقسم القدر
بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة اكمل من حظ الانسان فقدرة الفرس
مثلا اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل
اضعاف من قدرته ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا
يختص بمدافعة ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان عوضا من ذلك كله الفكر
واليد فاليد مهيئة للصنايع بخدمة الفكر والصنايع تحصل له الالات التي تنوب
له عن الجوارح المعدة في ساير الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة
والسيوف النايبة عن المخالب الجارحة والتراس النايبة عن البشرات الجاسية الى غير
ذلك وغيره مما ذكر جالينوس في كتاب منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم
قدرته واحدا من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي
قدرته ايضا باستعمال الالات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنايع والمواعين
المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بابناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون
فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته
ولا يحصل له ايضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك
عن مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح
للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذا هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني
والا لم يكمل وجودهم وما اراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم وهذا هو معنى العمران

الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فنه الذي
هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية
انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس ايضا من الموضوعات
عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضله ان هذا الاجتماع اذا حصل
للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم
الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات
العجم عنهم بكافية في دفع العدوان بينهم لانها موجودة لجميعهم فلا بد من شي آخر يدفع عدوان
بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم
فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى
لا يصل احد الى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان
طبيعية لا بد لهم منها وقد توجد في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد
لما استقري فيها من الحكم والانقياد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها في خلقه
وجثمانه الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الالهام والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة
اعطى كل شي خلقه ثم هدى ويزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات
النبوة بالدليل العقلي وانها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايته
وانه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك وذلك الحكم يكون بشرع مفروض
من عند الله ياتي به واحد من البشر يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته
ليقع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف وهذه القضية
للحكماء غير طبيعية برهانية كما تراه اذ الوجود وحياة البشر قد تتم بدون ذلك بما يفرضه
الحاكم لنفسه او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته فاهل الكتاب
والمتبعون للانبيا قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب فانهم اكثر
اهل العالم ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والاثار فضلا عن الحياة وكذلك
هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة الى الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فوضى دون
وازع البتة فانه ممتنع وبهذا تبين لك غلطهم في وجوب النبوات وانه ليس بعقلي وانما
مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق ::

المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض

والاشارة الى بعض ما فيه من البحار والانهار والاقاليم انه قد تبين في كتب الحكماء
الناظرين في احوال العالم ان شكل الارض كروي وانها محفوفة بعنصر الماء كانها
عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما اراد الله تعالى من تكوين الحيوانات

فيها

فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سايرها وقد يتوهم من ذلك ان الماء
تحت الارض وليس بصحيح وانما التحت الطبيعي قلب الارض ووسط كرتها الذي هو
مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها والماء المحيط بها فهو
فوق وان قيل في شي منها انه تحت فبالاضافة الى جهة اخرى عنه وهذا الذي انحسر
عنه الماء من الارض هو النصف من سطح كرتها في شكل دايرة احاط العنصر المائي
بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط ويسمى ايضا البلاية بتفخيم اللام الثانية
ويسمى اوقيانوس اسما عجمية ويسمى البحر الاخضر والاسود ثم ان هذا المنكشف
من الارض للعمران فيه القفار والخلاء اكثر من عمرانه والخالي من جهة الجنوب منه
اكثر من جهة الشمال وانما المعمور منه قطعة اميل الى جانب الشمال على شكل مسطح كروي
ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كري مستقيم وراه
الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصري التي بينهما سد ياجوج وماجوج وهذه الجبال
مايلة الى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب الى عنصر الماء ايضا بقطعتين من الدايرة
المحيطة وهذا المنكشف من الارض قالوا هو مقدار النصف من الكرة او اقل والمعمور
مقدار ربعه وهو المنقسم بالاقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الارض بنصفين
من المغرب الى المشرق وهو طول الارض واكبر خط في كرتها كما ان منطقة البروج ودايرة
معدل النهار اكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلثماية وستين درجة والدرجة
من مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخا والفرسخ اثنا عشر الف ذراع في ثلثة اميال
لان الميل اربعة الاف ذراع والذراع اربعة وعشرون اصبعا والاصبع ست حبات
شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهرا لبطن وبين دايرة النهار التي تقسم الفلك
بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون
درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء اربعة وستون درجة والباقي
منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء
كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله ان شا الله تع ثم ان المخبرين عن هذا المعمور وحدوده
وما فيه من الامصار والمدن والجبال والانهار والقفار والرمال مثل بطليموس
في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب رجار من بعده قسموا هذا المعمور بسبعة اقسام
يسمونها الاقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في
العرض مختلفة في الطول فالاقليم الاول اطول مما بعده الى اخرها
فيكون السابع اقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشية من انحسار الماء عن كرة
الارض وكل واحد من هذه الاقاليم عندهم منقسم بعشرة اجزاء من المغرب الى المشرق

على التوالي وفي كل جزء الخبر عن احواله واحوال عمرانه وذكروا ان هذا البحر المحيط
يخرج منه من جهة المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي المعروف يبدا في خليج متضايق
في عرض اثني عشر ميلا او نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقا
وينفسح الى عرض ستمائة ونهايته في آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على الف
وستمائة وستين فرسخا من مبدائه وعليه هناك سواحل الشام وعليه
من جهة الجنوب سواحل المغرب اولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية
ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس
الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة
عامرة كبارها مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية قالوا ويخرج منه
في جهة الشمال بحران اخران من خليجين احدهما مسامت للقسطنطينية يبدا من هذا
البحر متضايقا في عرض رمية السهم ويمر ثلثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ثم ينفسح
في اربعة اميال ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة
عرضها ستة اميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية
الشرق فيمر بارض هرقلية وينتهي الى بلاد الخزرية على الف وثلثمائة ميل من فوهته
وعليه من الجانبين امم من الروم والترك وبرجان والروس والبحر الثاني من خليجي هذا البحر
الرومي وهو بحر البنادقة يخرج في بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل
انحرف في سمت الغرب الى بلاد البنادقة وينتهي الى بلاد انكلاية على الف ومائة ميل من مبدائه
وعلى ضفتيه من البنادقة والروم وغيرهم امم ويسمى خليج البنادقة قالوا وينساح
من هذا البحر المحيط ايضا من الشرق وعلى ثلثة عشر درجة في الشمال من خط الاستواء
بحر عظيم متسع يمر الى الجنوب قليلا حتى ينتهي الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغربا
الى ان ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى باب المندب منه
على اربعة الاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبدائه ويسمى البحر الصيني والهندي
والحبشي وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربرا التي ذكرها امرء القيس في شعره
وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة
وارض الواق واق وامم اخرى ليس بعدهم الا القفار والخلاء وعليه من جهة
الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف
وزبيد وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم البجة قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي
بحران اخران يخرج احدهما من نهايته عند باب المندب فيبدا متضايقا ثم
يمر مستبحرا الى ناحية الشمال ومغربا قليلا الى ان ينتهي الى مدينة القلزم في الجزء الخامس

من

من الاقليم الثاني على الف واربعمائة ميل من مبدئه وهو بحر القلزم وبحر السويس
وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن
ثم الحجاز وجدة ثم مدين وايلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد
وعيذاب وسواكن وزالع ثم بلاد البجة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي
عند العريش وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبله يرومون
خرق ما بينهما ولم يتم ذلك والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي يسمى الخليج الاخضر يخرج ما بين
السند والاحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغربا قليلا الى ان ينتهي الى الابلة من
سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على اربعمائة فرسخ واربعين
فرسخا من مبدائه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان
وفارس والابلة عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر
والاحقاف عند مبدئه وفيما بين بحر فارس والقلزم هي جزيرة العرب كانها دخلة
من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق
وتفضي الى العراق فيما بين الشام والبصرة على الف وخمسمائة ميل بينهما وهناك الكوفة و
القادسية وبغداد وايوان كسرى والحيرة ووراء ذلك امم الاعاجم من الترك والخزر
وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين وعمان
في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي قالوا
وفي هذا المعمور بحر اخر منقطع عن سائر البحار في ناحية الشمال وبارض الديلم يسمى
بحر جرجان طوله الف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه اذربيجان والديلم وفي شرقيه
ارض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه ارض الخزر واللان
جملة البحار المشهورة التي ذكرها اهل الجغرافيا قالوا وفي هذا الجزء المعمور انهار كثيرة اعظمها
اربعة انهار وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون فاما النيل فمبدؤه من جبل
عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقليم
الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الارض جبل اعلا منه تخرج منه عيون كثيرة فيصب
بعضها في بحيرة هنالك وبعضها في اخرى ثم تخرج انهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة
واحدة عند خط الاستواء على عشرة مراحل من الجبل ويخرج من هذه البحيرة نهران
يذهب احدهما الى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فاذا جاوزها
تشعب في شعب متقاربة يسمى كل منها خليجا وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية
ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه ويذهب الاخر منعطفا
الى الغرب ثم يمر على سمته الى ان يصب في البحر المحيط وهو نيل السودان واممهم كلهم

على ضفتيه واما الفرات فمبدؤه من بلاد ارمينية في الجزء السادس من الاقليم
الخامس ويمر جنوبا في ارض الروم الى ملطية الى منبج ثم بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة
الى ان ينتهي الى البطحاء التي بين البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر الحبشي وتنجلب
اليه في طريقه انهار كثيرة ويخرج منها انهار اخرى تصب في دجلة واما دجلة فمبدؤها
اعين ببلاد خلاط من ارمينية ايضا ويمر على سمت الجنوب بالموصل واذربيجان وبغداد
الى واسط فيفترق في خلجان تصب كلها في بحيرة البصرة وتفضي الى بحر فارس وهو
في الشرق على يمين الفرات وتنجلب اليه انهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين الفرات
ودجلة من اوله هي جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة اذربيجان
من عدوتي دجلة واما نهر جيحون فمبدؤه من بلخ في الجزء الثامن من الاقليم الثالث
من عيون هنالك كثيرة وتنجلب اليه انهار عظام ويذهب من الجنوب الى الشمال
فيمر ببلاد خراسان ويخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الاقليم الخامس
فيصب في بحيرة الجرجانية التي باسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في مثله واليها ينصب
نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان
وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخارى والترمذ وسمرقند ومن هنالك
الى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلجية وامم الاعاجم وذكر ذلك بطليموس
في كتابه والشريف في كتاب رجار وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال
والبحار والاودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ولان عنايتنا
في الاكثر انما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر وبالاوطان التي للعرب من المشرق
والله الموفق والمعين

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمرانا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك
نحن نرى بالمشاهدة والاخبار المتواترة ان الاول والثاني من الاقاليم المعمورة اقل
عمرانا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي
في الشرق منهما وامم هذين الاقليمين واناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة وامصاره
ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقفار فيها قليلة والرمال
كذلك او معدومة واممها واناسيها تجوز الحد من الكثرة وامصارها ومدنها تجاوز الحد
عددا والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله وقد ذكر
كثير من الحكماء ان ذلك لافراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس فلنوضح
ذلك ببرهانه ويتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جهة
الشمال الى الخامس والسابع فنقول ان قطبي الفلك الجنوبي والشمالي اذا كانا على

على الافق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي اعظم الدوائر المارة
من المغرب الى المشرق وتسمى دائرة معدل النهار وقد تبين في موضعه من الهيئة
ان الفلك الاعلى متحرك من المشرق الى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الافلاك
التي في جوفه قسرا وهذه الحركة محسوسة وكذلك تبين ان للكواكب في افلاكها حركة
مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب الى المشرق وتختلف آمادها باختلاف حركات
الكواكب في السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب بافلاكها توازيها كلها دائرة
عظيمة من الفلك الاعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر
برجا وهي على ما تبين في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين
من البروج هما اول الحمل واول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف
مائل عن معدل النهار الى الشمال وهو من اول الحمل الى آخر السنبلة ونصف مائل عنه الى الجنوب
وهو من اول الميزان الى آخر الحوت واذا وقع القطبان على الافق في جميع نواحي الارض
كان على سطح الارض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار من المغرب
الى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الاقليم الاول
من الاقاليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي يرتفع على آفاق
هذا المعمور بالتدريج الى ان ينتهي ارتفاعه الى اربع وستين درجة وهي التي بين القطب
ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرؤوس وصارت دائرة معدل النهار
على الافق وبقيت ستة من البروج فوق الارض الافق وهي الشمالية وستة تحت
الافق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الاربعة والستين الى التسعين ممتنعة لان الحر
والبرد لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل تكوين فاذا الشمس
تسامت الرؤوس على خط الاستواء في راسي الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة الى راس
السرطان والى راس الجدي ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار اربعا وعشرين
درجة ثم اذا ارتفع والى راس الجدي ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار اربع
القطب الشمالي عن الافق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس وعلت عليها البروج
الشمالية متدرجة في مقدار علوها الى راس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية عن الافق
كذلك الى راس الجدي لانحرافها الى الجانبين في افق الاستواء كما قلناه فلا يزال
الافق الشمالي يرتفع حتى يصير ابعد الشمالية وهو راس السرطان في سمت الرؤوس وذلك
حيث يكون عرض البلد اربعا وعشرين في الحجاز وما يليه وهذا هو الميل الذي اذا مال
راس السرطان عن معدل النهار في افق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي
حتى صار مسامتا فاذا ارتفع القطب اكثر من اربعة وعشرين نزلت الشمس

عن المسامتة ولا تزال في انخفاض الى ان يكون ارتفاع القطب اربعا وستين ويكون
انخفاض الشمس عن المسامتة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي عن الافق مثلها فينقطع
التكوين لافراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر ثم ان الشمس عند المسامتة
وما يقاربها تبعث الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا
منفرجة وحادة واذا كانت الزوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في
المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما قرب منها اكثر منه فيما بعد
لان الحر سبب الضوء والتسخين ثم ان المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في
السنة عند نقطتي الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا يكاد الحر يعتدل في اخر ميلها
عند راس السرطان والجدي الا وقد صعدت الى المسامتة فتبقى الاشعة القائمة
الزوايا تلح على ذلك الافق ويطول مكثها او يدوم فتشتعل الهواء حرارة وتفرط في
شدتها وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض اربعة
وعشرين فان الاشعة ملحة على الافق في ذلك الافق بقريب من الحاجة في خط الاستواء
وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لانه اذا افرط الحر جفت المياه والرطوبات
وفسد التكوين في المعدن والنبات والحيوان اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم
اذا مال راس السرطان عن سمت الرؤس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة
فيصير الحر الى الاعتدال او يميل عنه قليلا فيكون التكوين ويتزيد على التدريج الى ان يفرط
في شدته بقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد الا ان فساد
التكوين من جهة شدة الحر اعظم منه من جهة شدة البرد لان الحر اسرع تأثيرا في التجفيف
من تأثير البرد في الجمد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني قليلا وفي الثالث
والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء وفي السادس والسابع كثيرا لنقصان
الحر وان كيفية البرد لا تؤثر عند اولها في فساد التكوين كما يفعل الحر اذ لا تجفيف فيها
الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي
اكثر واوفر والله اعلم ومن هنا اخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه
واورد عليهم انه معمور بالمشاهدة والاخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر
انهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية انما اداهم البرهان الى ان فساد التكوين فيه
قوي بافراط الحر فالعمران فيه اما ممتنع او ممكن اقليا وهو كذلك فان خط الاستواء وما وراءه
وان كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا وقد زعم ابن رشد ان خط الاستواء معتدل
وان ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير
ممتنع من جهة فساد التكوين وانما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة

ان العنصر

ان العنصر المائي غمر وجه الارض هنالك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية
قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لان العمران متدرج ويأخذ
في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع واما القول بامتناعه في خط الاستواء
فيرده النقل المتواتر والله اعلم ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها
صاحب كتاب رجار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها الى اخره وهي مرسومة في الورقة
التالية لهذه الورقة نسأل الله تمام الخاتمة بخير بمنه وكرمه

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا

وهو على نوعين مفصل ومجمل فالمفصل هو الكلام في بلدان هذا المعمور وجباله وبحاره
وانهاره واحدا واحدا وسيأتي في الفصل بعد هذا واما المجمل فالكلام في انقسام المعمور
بالاقاليم السبعة وذكر عروضها وساعات نهارها وهو الذي تضمنه هذا الفصل فلنأخذ
في بيانه وقد تقدم لنا ان الارض طافية على الماء العنصري كالعنبة فانكشف لذلك
بعضها لحكمة الله في العمران والتكوين العنصري فيقال ان هذا المنكشف هو النصف
من سطح الارض والمعمور منه ربعه والباقي خراب وقيل المعمور سدسه فقط فالخلاء
من هذا المنكشف في جهتي الجنوب والشمال العمران بينهما متصل من المغرب الى المشرق
وليس بينه وبين البحر من الجهتين خلاء قالوا وفيه خط وهمي يمر من المغرب الى المشرق مسامتا
لدائر معدل النهار حيث يكون قطبا الفلك على الافق وهو اول العمران الى ما بعده
من الشمال قال بطليموس بل في جهة الجنوب عمران وقدره بعرض البلد كما يأتي وعند
اسحق بن الحسن الخازني ان وراء الاقليم السابع عمرانا اخر وقدره بعض بلده كما يذكر
وهو من ائمة هذه الصناعة ثم ان الحكماء قديما قسموا هذا المعمور في جهة الشمال الى الاقاليم السبعة
بخطوط وهمية اخذة من المغرب الى المشرق وعروضها مختلفة عندهم كما يأتي تفصيله
فالاقليم الاول منها ملاصق لخط الاستواء من جهة شماليه وليس في جنوبه الا تلك
العمارة التي اشار اليها بطليموس وبعدها القفار والرمال الى دائرة الماء المسماة بالبحر
المحيط ويليه من جهة الشمال الاقليم الثاني كذلك ثم الثالث ثم الرابع والخامس والسادس
وهو اخر العمران في جهة الشمال وليس وراءه الا الخلاء والقفار الى البحر المحيط ايضا الا ان الخلاء

في جهة الجنوب اكثر منه في جهة الشمال بكثير واما عروض هذه الاقاليم وساعات نهارها فاعلم ان قطبي الفلك يكونان في خط الاستواء على الافق من غربه الى شرقه والشمس تسامت روس اهله فاذا بعد العمران الى جهة الشمال ارتفع القطب الشمالي قليلا وانخفض الجنوبي مثله وبعدت الشمس عن دائرة معدل النهار الى سمته بمثل ذلك وصارت هذه الابعاد الثلثة متساوية يسمى كل واحد منها عرض البلد كما هو معروف عند اهل المواقيت وقد اختلف الناس في مقدار هذه العروض ومقدارها في الاقاليم فالذي عند بطليموس ان عرض المعمور كله سبعة وسبعون درجة ونصف درجة فعرض المعمور خلف خط الاستواء الى الجنوب منها احدى عشرة درجة وستة وستون درجة ونصف هي عرض الاقاليم الشمالية الى اخرها فعرض الاقليم الاول منها عنده ست عشرة درجة والثاني عشرون والثالث سبع وعشرون والرابع ثلث وثلثون والخامس ثمان وثلثون والسادس ثلث واربعون والسابع ثمان واربعون ثم قدروا الدرجة في الفلك بستة وستين ميلا وثلثي ميل من مسافة الارض فتكون اميال الاقليم الاول ما بين الجنوب والشمال الف ميل وسبعة وستون ميلا واميال الاقليم الثاني الفا ميل وثلثمائة ميل وثلثة وثلثون ميلا واميال الثالث الفا ميل وسبع مائة وتسعين والرابع الفين ومائة وخمسة وثمانين والخامس الفين وخمس مائة وعشرين والسادس الفين وثمان مائة واربعين والسابع ثلاثة الاف ومائة وخمسين ثم ان ازمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في اخر الاقليم الاول عند حلول الشمس براس الجدي لليل وبراس السرطان للنهار كل واحد منهما عند بطليموس الى ثنتي عشرة ساعة ونصف وينتهيان في آخر الاقليم الثاني الى ثلث عشرة ساعة ونصف وينتهيان في اخر الاقليم الثاني الى ثلث عشرة ساعة وفي اخر الاقليم الثالث الى ثلث عشرة ساعة ونصف وفي آخر الرابع الى اربع عشرة ساعة وفي آخر الخامس بزيادة نصف ساعة وفي الاخر السادس الى خمس عشرة ساعة وفي اخر السابع بزيادة نصف ساعة ويبقى للاقصر من النهار والليل ما يبقى من هذه الاعداد من جملة اربعة وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الاطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل اقليم يتزايد من اوله في ناحية الجنوب الى اخره في ناحية الشمال موزعة على اجزاء هذا البعد وعند اسحق ابن الحسن الخازني ان ارض العمران الذي وراء خط الاستواء ست عشرة درجة وخمسة وعشرون

دقيقة

دقيقة ولطول ليلة ونهاره ثلاث عشرة ساعة وعرض الاقليم الاول ساعاته مثل الذي وراء خط الاستواء وعرض الاقليم الثاني اربع وعشرون درجة وساعاته عند آخره ثلاث عشرة ساعة ونصف وعرض الثالث ثلثون درجة وساعاته اربع عشرة ساعة وعرض الرابع ست وثلثون درجة وساعاته اربع عشرة ساعة ونصف وعرض الخامس احدى واربعون درجة وساعاته خمس عشرة ساعة وعرض السادس خمس واربعون درجة وساعاته خمس عشرة ساعة ونصف وعرض السابع ثمان واربعون درجة ونصف وساعاته ست عشرة ساعة ثم ينتهي عرض العمران وراء السابع من عند آخره الى ثلاث وستين درجة وساعاته الى عشرين ساعة وعند غير اسحق الخازني من ائمة هذا البيان الى عرض الذي وراء خط الاستواء ست عشرة درجة وتسع وعشرون دقيقة وعرض الاقليم الاول عشرون درجة وخمس عشرة دقيقة والثاني سبع وعشرون درجة وثلث عشرة دقيقة والثالث ثلث وثلثون درجة وعشرون دقيقة والرابع ثمان وثلثون درجة ونصف درجة وعشرون دقيقة والخامس ثلث واربعون درجة والسادس سبع واربعون درجة وثلث وخمسون دقيقة وقيل فيه ست واربعون درجة وخمسون دقيقة والسابع احدى وخمسون درجة وثلث وخمسون دقيقة والعمران وراء السابع سبع وسبعون درجة وعند ابي جعفر الخازني من ائمتهم ايضا ان عرض الاقليم الاول من درجة الى عشرين وثلاث عشرة دقيقة والثاني الى سبع وعشرين وثلث عشرة دقيقة والثالث الى ثلث وثلثين وتسع وثلثين دقيقة والرابع الى ثمان وثلثين وثلاث وعشرين دقيقة والخامس الى ثلث واربعين وثمان وخمسين دقيقة والسادس الى سبع واربعين ودقيقتين والسابع الى خمس وخمسين واربعين دقيقة هذا ما حضرني من اختلافهم في العروض والساعات والامسال لهذه الاقاليم والله الخالق العليم خلق كل شيء فقدره تقديرا

فصل

والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طوله من المغرب الى المشرق بعشرة اجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبال والانهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الان نوجز القول في ذلك باختصار ونذكر مشاهير البلدان والانهار والامصار والجبال والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي الفه العلوي الادريسي الحمودي لملك صقلية من الفرنج وهو رجار بن رجار عندما كان نازلا عليه بصقلية بعدما كان خرج سلفه من امارة مالقة وكان تاليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتبا جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والعذري واسحق المنجم وبطليموس وغيرهم

ونبدأ منها بالاقليم الاول الى آخرها **الاقليم الاول** وفيه من جهة
غربية الجزاير الخالدات التي منها ابتدأ بطليموس باخذ اطوال البلاد وليست في بسيط
الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة اكبرها واشهرها ثلثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا
ان سفاين من الافرنج مرت بها في اواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا
وباعوا بعض اسراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان فلما تعلموا
اللسان العربي اخبروا عن حال جزيرتهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون
وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يلوحونها
الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة
ولا يوقف على مكان هذه الجزاير الا بالعثور لا بالقصد اليها لان سفر السفن في البحر
وانما هو بالرياح ومعرفة مهابها والى اين توصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد
التي في ممر ذلك المهب واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به
القلع محاذاة تحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين
الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حفافي البحر الرومي وفي عدوتيه مكتوبة كلها
في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب
الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها
يعتمدون في اسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لانها
ان غابت عن مرأى السواحل فقل ان تهتدي الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا
البحر وعلى صفح مائه من الابخرة المانعة للسفن في سيرها وهي لبعدها لا تدركها اضواء الشمس
المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف
على خبرها **فاما الجزء الاول** من هذا الاقليم ففيه مصب
النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر
المحيط فيصب عند جزيرة اوليل وعلى هذا النيل مدينة سلي وتكرور وغانة وكلها
لهذا العهد في ملكة اهل مالي من امم السودان والى بلادهم تسافر تجار المغرب الاقصى
وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وساير طوايف الملثمين ومفاوز يجولون
فيها وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون
في وجوههم واصداغهم واهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار
فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر
الا اناسي اقرب الى الحيوان العجم من الناطق ويسكنون الفيافي والكهوف وياكلون
العشب والحبوب غير مهياة وربما ياكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر وفواكه

بلاد

بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتيكورارين ووركلا
وكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح وقال صاحب
كتاب رجار انه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد
الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي
وفي شرقي هذه البلاد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض
الجبال هنالك ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه
ثم استولى عليه سلطان مالي واصبحت في ملكته وخربت لهذا العهد من اجل فتنة
وقعت هنالك نذكرها عند ذكر دولة اهل مالي في محلها من تاريخ البربر وفي جنوبي
بلد كوكو بلاد كانم من امم السودان وبعدهم ونكارة على ضفة النيل من شماليه
وفي شرقي بلاد ونكارة وكانم بلاد زغاي وتاجرة المتصلة بارض النوبة وفي الجزء الرابع
من الاقليم وفيها يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومي في الشمال
ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا
في ضبط هذه اللفظة فبعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة
ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من اهل
الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما
ستة اميال ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلثة انهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في اسفلها
جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه الى بلاد
السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرقي منه ذاهبا الى الشمال على بلاد الحبشة
والنوبة وفيما بينهما وينقسم في اعلى ارض مصر فيصب ثلثة من جداوله في البحر الرومي عند
الاسكندرية ودمياط ورشيد ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل ان يتصل بالبحر
وفي وسط هذا الاقليم الاول على هذا البحر بلاد النوبة والحبشة وبعض الواحات الى اسوان
وحاضرة بلاد النوبة بلاد دنقلة وهي غربي بلاد النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما
جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض
النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا مهولا فلا يمكن ان تسلكه المراكب
بل يحول الوسق من بلاد السودان فيحمل على الظهر الى بلاد اسوان قاعدة الصعيد
وكذا وسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل واسوان اثنتي
عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة
القديمة وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد ياتي من وراء
خط الاستواء ذاهبا الى ارض النوبة فيصب هنالك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم

فيه كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر
انه ليس من هذا النيل والى وسط هذا الاقليم في هذا الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي
يدخل من ناحية الصين ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران
الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة ينتهي الى الف جزيرة او فيما على سواحله
من جهة الشمال وليس منه في هذا الاقليم الاول الا طرف من بلاد الصين في جهة
الشرق وبلاد اليمن في الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين
من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال هما بحر القلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب
ويشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقها على سواحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد
الحجاز واليمامة وما اليها كما نذكر في الاقليم الثاني وما بعده فاما الذي على ساحل هذا
البحر من غربيه فبلد زالع من اطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة
ما بين جبل العلاقي الذي في اعلى الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي الى ارض
مصر وتحت بلد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب بضيق البحر الهابط
هنالك بمزاحمة جبل المندب الماثل في وسط البحر الهندي ممتدا مع ساحل اليمن الغربي
من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى ان يصير في عرض
ثلثة اميال ونحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس
قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك وقبالته من غربيه مجالات
البجة من امم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه تهايم اليمن على ساحله ومنها
بلد علي بن يعقوب وفي جهة الجنوب من جهة زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى
بربرا يتلو بعضها بعضا وينعطف مع جنوبيه الى اخر الجزء السادس ويليها هنالك
من جهة شرقيها بلاد الزنج وبعدها مدينة مقدشو وهي مدينة مستبحرة العمارة
بدوية الاحوال كثيرة التجار على ساحل البحر الهندي من جنوبه ثم يليها شرقا بلاد سفالة
على ساحله الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وعند مدخل هذا البحر المحيط واما جزاير
هذا البحر فكثيرة ومن اعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل وبها الجبل المشهور يقال
ليس في الارض اعلى منه وهي قبالة سفالة ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدا
من قبالة ارض سفالة وتذهب الى المشرق منحرفة بكثير الى الشمال الى ان تقرب
من سواحل اعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبها جزاير الواق واق
ومن شرقها جزاير السيلا جزاير اخرى في هذا البحر كثيرة العدد وفيها انواع الطيوب
والافاوه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد وعامة اهلها على دين
المجوسية وفيهم ملوك متعددون وبهذه الجزاير من احوال العمران عجايب

ذكرها

ذكرها اهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر وفي الجزء السادس من هذا
الاقليم بلاد اليمن كلها فمن جهة القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن وبعدها بلد
صعدة مقر الائمة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك
مدينة عدن وفي شماليها صنعا وبعدهما الى الشرق ارض الاحقاف وظفار
وبعدها ارض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس وهذه القطعة
من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من اجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف
بعدها قليل من التاسع واكثر منه من العاشر فيه اعالي بلاد الصين ومن مدنه الشهيرة
مدينة خانقو وقبالتها من جهة الشرق وجزاير السيلا وقد تقدم ذكرها وهذا اخر الكلام
في الاقليم الاول

الاقليم الثاني

وهو متصل
بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزاير الخالدات
التي مر ذكرها وفي الجزء الاول والثاني منه في الجانب الاعلى منهما ارض قمورية وبعدها
في جهة الشرق اعالي ارض غانة ثم مجالات زغاي من السودان وفي الجانب الاسفل
منهما صحراء نيسر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفاوز يسلك منها التجار ما بين بلاد
المغرب وبلاد السودان وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة
ما بين كدالة ولمتونة ومسوفة ولمطة ووتريكة وعلى سمت هذه المفاوز شرقا ارض فزان
ثم مجالات ازكار من قبائل البربر ذاهبة الى اعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق
وبعدها من هذا الجزء بلاد كوار من امم السودان ثم قطعة من ارض التاجوين وفي اسافل
هذا الجزء الثالث من جهة الشمال منه بقية ارض ودان وعلى سمتها شرقا ارض
وتسمى الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من اعلاه بقية ارض التاجوين ثم يعترض وسط
هذا الجزء بلاد الصعيد حافتي النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الاول الى مصبه في البحر
فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه
وعليه من اعلاه بلد اسنا وارمنت ويتصل كذلك حافتيه الى اسيوط وقوص ثم الى صول
ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون
والايسر عند دلاص وفيما بينهما اعالي ديار مصر وفي الشرق من المقطم صحارى عيذاب
ذاهبة في الجزء الخامس الى ان ينتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط
من البحر الهندي في الجنوب الى جهة الشمال وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء ارض الحجاز
من جبل يلملم الى بلد يثرب وفي وسط الحجاز بلد مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة
جدة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر وفي الجزء السادس
من غربيه بلاد نجد اعلاها في الجنوب جرش وتبالة الى عكاظ من الشمال وتحت

بلاد نجد من هذا الجزء بقية ارض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وجند وتحتها
ارض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق ارض سبا ومارب ثم ارض الشحر
وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر ويذهب
في هذا الجزء بانحراف الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من اعلاه
مدينة قلهات وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر
منها في آخر الجزء وفي الجزء السابع ثم في الاعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة
الاخرى في الجزء السادس ويغمر بحر الهند جانبه الاعلى كله وعليه هنالك بلاد السند
الى بلاد مكران منه ويقابلها بلاد الطوبران وهي من السند ايضا فيتصل السند
كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين ارض الهند ويمر فيه
نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب واول بلاد
الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهرا وتحتها الملتان بلد الصنم
المعظم عندهم ثم اسفل من السند الى بلد سجستان وفي جزء الثامن من غربيه بقية
بلاد بلهرا من الهند وعلى سمتها شرقا بلاد القندهار ثم بلاد منيبار في الجانب الاعلى
على ساحل البحر الهندي وتحتها في جانب الاسفل ارض كابل وبعدها شرقا بلاد القنوج
ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة وعند آخر الاقليم وفي الجزء التاسع ثم في الجانب
الغربي منه بلاد الهند الاقصى وتتصل فيه الى الجانب الشرقي فتتصل من اعلاه الى العاشر
وتبقى في اسفل ذلك الجانب قطعتين بلاد الصين فيها مدينة جيغون ثم تتصل
بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط

الاقليم الثالث

هو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الاول وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن
معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ويسكن هذا الجبل من البربر
امم لا يحصيهم الا خالقهم حسب ما يأتي ذكره وفي القطعة التي بين هذا الجبل والاقليم
الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة وتتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها
شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء تيسر المفازة التي ذكرناها في الاقليم
الثاني وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك
في هذه الناحية الغربية الى ان يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى
ان ينتهي وفي هذه الناحية منه امم المصامدة فسكسيوه عند البحر المحيط ثم
هنتاتة ثم تينملل ثم كدميوة ثم مسكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل صناكة
وهم صنهاجة ثم آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك من جوفيه
جبل اوراس وهو جبل كتامة وبعد ذلك امم اخرى من البرابرة نذكرهم في اماكنهم

ثم

ثم ان جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفيه
ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادلا وعلى البحر المحيط منها رباط اسفي
ومدينة سلا وفي الشرق عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر
كتامة وهذه هي التي تسمى المغرب الاقصى في عرف اهلها وعلى ساحل البحر المحيط منها
بلدا ارضيلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها
تلمسان وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لان هذا البحر الرومي
يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الجزء الرابع ويذهب مشرقا
فينتهي الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل
في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير
من بلاده سدي من طنجة الى القصر الصغير ثم سبتة ثم بلاد بادس ثم غساسة ثم
يتصل ببلد الجزائر من شرقها بلد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في الشرق عنها وفي آخر الجزء الاول
وعلى مرحلتين من هذا البحر وفي جنوب هذه البلاد ومرتفعا الى جنوب المغرب الاوسط
بلد اشير بجبل تيطري ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل اوراس المتصل
بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق والجزء الثاني من هذا الاقليم على
هيئة الجزء الاول يمر جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب الى شرق
فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله فالقطعة الجنوبية عن جبل
درن غربيها كله مفاوز وفي الشرقي منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا ارض ودان التي
بقيتها في الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن غربيها كله مفاوزة ما
بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل اوراس وتبسة والاربس وعلى ساحل البحر
بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد افريقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم
سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقفصة
ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت
هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبال دمر ونقرة
من قبائل هوارة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة
الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مثكود على البحر وفي جنوبها مجالات العرب في ارض
ودان والجزء الثالث من هذا الاقليم يمر فيه ايضا جبل درن الا انه ينعطف عند
آخره الى الشمال ويذهب على سمته الى ان يدخل البحر الرومي ويسمى هنالك طرف
اوثان والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه الى ان تضايق ما بينه وبين جبل
درن فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية ارض ودان ومجالات

العرب فيها ثم زويلة بن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء في الشرق وفيما بين
الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ثم اجدابية
ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلمية على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل
مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الاعلى من غربه
صحاري برنيق واسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر
طايفة منه ذاهبا الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار
تجول العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب احد الشعبين من النيل
الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة
الفيوم وعلى سمته شرقا ارض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر
بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية
من تحت مصر على شعبين آخرين من سطنوف وزفتى وينقسم الايمن منهما من طرنوط
بشعبين آخرين وتصب جميعا في البحر الرومي فعلى مصب الغربي من هذه الشعب بلد
اسكندرية وعلى مصب الوسط بلاد رشيد وعلى مصب الشرقي بلاد دمياط وبين
مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية اسافل الديار المصرية كلها محشوة عمرانا وفلحا
وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد الشام واكثرها على ما اصف وذلك ان بحر القلزم
ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في ممره من البحر الهندي الى الشمال
ثم ينعطف آخذا الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة تنتهي
في الطرف الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس جبال فاران ثم جبل
الطور ثم ايلة بلد مدين ثم الحوراء في آخره ومن هنالك ينعطف ساحله الى الجنوب في ارض
الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر
الرومي غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فتضايق ما بينهما
من هنالك وبقي شبه الباب مفضيا الى ارض الشام وفي غربي هذا الباب فحص التيه
ارض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني اسرائيل بعد خروجهم من مصر اربعين سنة كما قصه
القرآن وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طايفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم
الرابع كما ذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المضايق لبحر السويس بلد
العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم ينحط هذه القطعة
في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وعرقة وهنالك منتهى البحر الرومي
في جهة الشرق وعلى هذه القطعة اكثر سواحل الشام ففي شرقي عسقلان وبانحراف
يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ثم كذلك بلد عكا ثم صور ثم صيدا ثم عرقة ثم ينعطف

الشرق

البحر الى الشمال في الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا
الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى
الى ان يتجاوز هذا الجزء ويسمى جبل اللكام وكانه حاجز بين ارض مصر والشام ففي طرفه
عند ايلة العقبة التي يمر عليها الحاج من مصر الى مكة ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن
الخليل عليه السلام عند جبل الشراة متصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا
على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيما ودومة الجندل
وهي اسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل
الشراة وبحر القلزم صحراء تبوك وفي شماله جبل الشراة مدينة القدس عند جبل اللكام
ثم الاردن ثم طبرية وفي شرقها بلاد الغور الى اذرعات وحوران وعلى سمتها شرقا دومة
الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة
دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت
دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء وعند منقطع
جبل اللكام وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وعند
منقطع جبل اللكام وفي الشرق عن بعلبك وحمص وفي الجزء السادس من اعلاه
مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر
على بحر فارس وفي اسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض
الفرات وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان
والابلة في اسافل الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان والابلة في اسافل
الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد ان ينقسم بجداول كثيرة وتختلط
به جداول اخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان ويصب في بحر فارس وهذه
القطعة من البحر متسعة في اعلاه متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه متضايقة
للحد الشمالي منه وعلى عدوته الغربية اسافل البحرين وهجر والاحساء وفي غربيها
الخط والصمان وبقية ارض اليمامة وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من اعلاها
وهو من عند آخر الجزء من الشرق وعلى طرف قد امتد من هذا البحر مشرقا ووراءه الى الجنوب
وفي هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلد سيراف ونجيرم على ساحل
هذا البحر وفي شرقيه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودارابجرد ونسا واصطخر
والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف
البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتستر وجندي سابور والسوس ورامهرمز
وغيرها وارجان وهي حد بين فارس وخوزستان وفي شرقي بلاد خوزستان جبال

متصلة

الاكراد الى نواحي اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم ووراءها في ارض فارس تسمى الزموم

وفي الجزء السابع

ثم في الاعلى منه من المغرب بقية جبال القفص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودان والشيرجان وجيرفت ويزدشير والفهرج وتحت ارض كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله ثم في الشرق عن ارض كرمان وبلاد فارس ارض سجستان في الجنوب وارض كوهستان في الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان وفي وسط هذا الجزء المفازة العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن سجستان بست والطاق واما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء

وفي الجزء الثامن

من غربه وجنوبه مجالات الخلج من امم الترك متصلة بارض سجستان من غربها وبارض كابل الهند من جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند وفي آخر الغور من الشمال بلد استراباد ثم في الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد هراة اوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان وتنتهي خراسان هنالك الى جيحون وعلى هذا النهر من بلاد خراسان مدينة بلخ وفي شرقيها الترمذ ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وجان في حدود بدخشان مما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء عند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرباب فينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ثم يذهب على سمته الى ان يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كما نذكره ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة انهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وانهار اخرى من جبال البتم من شرقه ايضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ومن هذه الانهار الخمسة المدة نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال ويعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقا بانحراف الى الشمال الى ان يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه الا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبنى له بابا كسد ياجوج وماجوج فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فينفذ تحته في مدى بعيد الى ان يمر ببلاد الوخش ويصب في نهر جيحون

عند

عند حد بلخ ثم يمر بالترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الباميان من خراسان وفي العدوة الشرقية من هنالك من النهر بلاد الختل واكثرها جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى ان يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل به عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وانهار اخرى تصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال وانهار اخرى ونهر يخرج من جبال البتم من مبدئه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وفي على هذا النهر من غربيه بلد آمل من خراسان وفي شرقي النهر هنالك ارض الصغد واشروسنة من بلاد الترك وفي شرقيها ارض فرغانة ايضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك هذه تحوزها جبال البتم الى شمالها

وفي الجزء التاسع

في غربيه ارض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها من بلاد الهند وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء شمالا وفي اسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخلخية من الترك الى آخر الجزء شمالا ويتصل بها من غربها ارض فرغانة ومن شرقها ارض التغزغز من الترك الى آخر الجزء شرقا و

وفي الجزء العاشر

في الجنوب منه جميعا بقية الصين واسافله وفي الشمال بقية بلاد التغزغز ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك ايضا الى آخر الجزء وفي الشمال عن ارض خرخير بلاد كيماك من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستطيل لا منفذ منه اليها ولا مسلك والصعود الى اعلاه من خارجه صعب في الغاية وبالجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثير فيحتال اهل تلك الناحية في استخراجه بما يلهمهم الله اليه وهذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك امم لا تحصى وهم ظواعن رحالة اهل ابل وشاء وخيل وبقر للنتاج والركوب والاكل وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون يغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون منه الى بلاد خراسان والهند والعراق

الاقليم الرابع

يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الاول منه ويخرج في غربيه قطعة من البحر المحيط من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ويخرج من هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقا الى ان ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم وينفسح في ذهابه بتدريج الى ان يغمر الاربعة اجزاء واكثر الخامس واكثر عن جانبيه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما نذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي

ايضا وفيه جزاير كثيرة اعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ميورقة ثم منرقة ثم سردانية
ثم صقلية وهي اعظمها ثم بلبونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في اجزائها التي
وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند اخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث
من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء
من جوفيه ويمر مغربا الى ان ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج ايضا في اخر الجزء الرابع
شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية ثم يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم
الى آخر الاقليم ثم يفضي الى اخر الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر
نيطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس
كما ذكرنا في اماكنه وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم
الثالث ويبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين
وبعدها سبتة على البحر الرومي ثم تيطاوين ثم بادس ثم يغمر البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج
الى الثالث واكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج وهي كلها بلاد الاندلس الغربية
منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي واولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل
البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر
المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش ولبلة وقبالتها جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش
ولبلة اشبيلية ثم استجة وقرطبة ومرتلة ثم غرناطة وجيان وابدة ثم وادياش
وبسطة وتحت هذه شنترية وشلب على البحر المحيط غربا وفي الشرق عنها بطليوس
وماردة ويابرة ثم غافق وترجالة ثم قلعة رباح وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط
غربا على نهر تاجه وفي الشرق عنها شنترين وقورية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف
ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبل الشارات يبدأ من الغرب هنالك
ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماله فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه
وتحت هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية هذه غرب الاندلس واما شرق
الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها من بعد المرية قرطاجنة ثم لقنت ثم دانية ثم
بلنسية الى طركونة اخر الجزء وفي الشرق وتحتها شمالا لورقة وشقورة يتاخمان بسطة
وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة بلنسية شمالا ثم شقر ثم
طرطوشة تحت طركونة اخر الجزء ثم تحت هذه شمالا ايضا جنجالة ووبذة يتاخمان
لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق
عن مدينة سالم قلعة ايوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا والجزء
الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرتات

ومعناه

ومعناه جبل الثنايا والمسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ
من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب بانحراف
الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه
قطعة منه تفضي ثناياها الى البر المتصل وتسمى ارض غشكونية وفيه مدينة جرندة وقرقشونة
وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم اربونة وفي هذا البحر الذي غمر
الجزء جزاير كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه
جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان في دورها سبع مائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها
سرقوسة وبلرم وطرابنة ومازر ومسينة وهذه الجزيرة تقابل ارض افريقية وفيما بينهما
جزيرتا غودش ومالطة والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر
الا ثلث قطع من ناحية الشمال الغربية منها من ارض قلورية والوسطى من ارض
انكبردة والشرقية من بلاد البنادقة والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور ايضا
بالبحر كما مر وجزايره كثيرة واكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلبونس
في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب
والشرق منه والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين
الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الجزء الشمالي منها
الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو ثلث يمر الشمالي منها
الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها اسافل الشام ويمر في وسطها
جبل اللكام الى ان ينتهي الى آخر الشام فينعطف من هنالك ذاهبا الى القطر الشرقي الشمالي
ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ومن هنالك يخرج الى الاقليم ويجوز من عند منعطفه
قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق وتقوم من عند منعطفه من جهة الغرب جبال متصل
بعضها ببعض الى ان ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متاخر الى اخر الجزء من الشمال
وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الارمن وفي هذا الجزء قطعة
منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فاما الجهة الجنوبية التي قدمنا ان فيها اسافل
الشام وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي واخر الجزء من الجنوب الى الشمال
فعلى ساحل البحر منه بلد انطرسوس في اول الجزء من الجنوب متاخمة لعرقة وطرابلس
على ساحله من الاقليم وفي شمال انطرسوس جبلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة
ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم واما جبل اللكام المعترض بين البحر وبين آخر
الجزء فيكتنفه من بلاد الشام من اعلى الجزء جنوبا حصن الخوابي من غربيه وهو للحشيشية
الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى الحصين مصيات وهو

بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها في شرق الجبل معرة وفي شرقها المراغة وفي شمال
انطاكية المصيصة ثم اذنة ثم طرسوس اخر الشام ويحاذيها من غربي الجبل قنسرين
ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج اخر الشام
واما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد
للتركمان وسلطانها ابن عثمان وفي ساحل البحر الرومي منها بلد انطالية والعلايا واما بلاد
الارمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى اخر
الجزء شمالا ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه
فيمر نهر سيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف
هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر نهر سيحان
موازيا لنهر جيحان فيحاذي مرعش ويتجاوز جبال الدروب الى ارض الشام ثم يمر بعين زربة
ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال ومغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة
ومن مغربها واما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبها
بلد الرافقة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم شميساط وامد تحت
جبل السلسلة واخر الجزء من شماله وهو ايضا اخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه القطعة
نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد الارمن جنوبا الى ان يتجاوز
جبل السلسلة فيمر نهر الفرات في غربي شميساط وسروج ثم ينحرف الى الشرق فيمر بغرب
الرافقة ويخرج الى الجزء السادس وتمر دجلة في شرق امد وينعطف قريبا الى الشرق فتخرج
قريبا الى الجزء السادس وتمر دجلة في شرق قريبا الى الشرق فتخرج قريبا الى الجزء
السادس **والجزء السادس** من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق
منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق الى اخر الجزء ويعترض في العراق هنالك
جبل اصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من اخره في
الشمال يذهب مغربا الى ان يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء
الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين من غربيه وشرقيه ففي الغربية من جنوبها
مخرج الفرات من الخامس وفي شمالها مخرج دجلة منه واما الفرات فاول ما يخرج الى السادس
يمر بقرقيسيا ويخرج منه هنالك جدول الى الشمال ينساب في ارض الجزيرة ويغور
في نواحيها ويمر في قيسا غير بعيد ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بغرب الخابور الى غرب
الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك يمر جنوبا وتبقى صفين في غربيه ثم ينعطف شرقا
وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين ويخرج
جميعها في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك في شرقي الحيرة والقادسية

ويمر

ويمر الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها ثم الى الزاب والانبار
من جنوبها ثم يصب في دجلة عند بغداد واما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس
الى هذا الجزء يمر مشرقا على سمته ومحاذيا لجبل السلسلة المتصل بجبل العراق على سمته فيمر
بجزيرة ابن عمر من شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوبا
وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمته جنوبا وفي غرب
القادسية الى ان ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا الى ان
يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك
في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد وهي بلاد الجزيرة
ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته بغداد نهر اخر ياتي من الجهة الشرقية الشمالية عنه وينتهي
الى بلد النهروان قبالة بغداد شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم
الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جلولا وفي شرقها عند
الجبل بلد حلوان وصيمرة واما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدا من جبل الاعاجم
مشرقا الى اخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين وفي الجنوب من هذه القطعة
الصغرى بلد خونجان في الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه القطعة بلاد البهلوس
وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا
عند اخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد ارمينية قاعدتها المراغة والذي
يقابلها من جبل العراق يسمى جبل بارما وهو مساكن للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي
على دجلة من ورائه وفي اخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد اذربيجان ومنها تبريز و
البيلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطيعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر
وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربيه وجنوبه معظم بلاد البهلوس
وفيها همدان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث اصبهان ويحيط بها من الجنوب
جبل يخرج من غربيها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع
ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وانه محيط ببلاد البهلوس في القطعة
الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا
الجزء السابع فيحيط ببلاد البهلوس من شرقها وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف
في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا
الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل عند منعطفه واستدارته على بلد الري
في شرقيه ويبدا من منعطفه جبل اخر يمر غربا الى اخر الجزء ومن جنوبه هنالك قزوين
ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا الى الشرق والشمال الى وسط

الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر
طبرستان يدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه
ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقا وبانحراف
قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند
مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا
الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان وفي آخرها
عند هذا الجبل بلد استراباذ وحفافي هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور
من خراسان ففي جنوب الجبل وشرقي المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر
الجزء وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا وكل
هذه تحت الجبل وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزء بين الشمال
والشرق مفاوز معطلة

وفي الجزء الثامن

من هذا الاقليم
في غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب الى الشمال ففي عدوته الغربية زم وآمل من بلاد
خراسان والطاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية
منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج من هذا الجزء من غربيه ويحيط
بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمر الجبل في الاقليم الثالث بين هراة والجوزجان
حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء في الجنوب
منه بلاد بخارا ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم بلاد اسروسنة ومنها خجندة
آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند واسروسنة ارض ايلاق ثم في الشمال عن ايلاق
ارض الشاش ثم الى آخر الجزء شرقا وتأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك
القطعة بقية ارض فرغانة ويخرج من هذه القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش
يمر معترضا في الجزء الثامن الى ان يصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن
في شماله الى الاقليم الخامس ويختلط معه في ارض ايلاق نهر يأتي من الجزء التاسع الثالث
من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر
الشاش جبل جراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف مشرقا ومنحرفا الى الجنوب
حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بارض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش
وفرغانة هنالك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا
الجبل في وسط الجزء بلاد فاراب وبينه وبين ارض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة
وفي زاوية هذا الجزء بين الشمال والشرق ارض خجندة وفيها بلد اسبيجاب
وطراز

وفي الجزء التاسع

من هذا الاقليم ففي غربيه بعد

فرغانة

فرغانة والشاش ارض الخزلجية في الجنوب وارض الخلجية في الشمال وفي شرق الجزء كله
الى آخره ارض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة
من البحر المحيط هنالك وهو جبل ياجوج وماجوج وهذه الامم كلها من شعوب الترك

الاقليم الخامس

الجزء الاول منه اكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لان البحر المحيط من هذه
الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم
فاما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل المثلث متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها
ويحيط بها البحر من جهتين كانهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب
الاندلس منت ميور على البحر عند اول الجزء من الجنوب والمغرب وشلمنكة شرقا عنها
وفي جوفها سمورة وفي الشرق عن شلمنكة ابلة آخر الجنوب وارض قشتالة شرقا عنها
وفيها مدينة شقوبية وفي شمالها ارض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال ارض جليقية
الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط آخر الضلع الغربي بلد شنتياقوب ومعناه يعقوب
وفيها من بلاد شرق الاندلس مدينة تطيلة عند آخر الجزء في الجنوب وشرقا عن قشتالة
وفي شمالها وشرقها وشقة ثم بنبلونة على سمتها غربا وشمالا وفي غرب بنبلونة قسطالة
ثم ناجرة فيما بينها وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذيا للبحر وللضلع
الشمالي الشرقي منه على قرب ويتصل به ويطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق
الذي ذكرنا من قبل انه يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حاجزا على الاندلس
من جهة الشرق وتناياه ابواب لها تفضي الى بلاد غشكونية من امم الفرنج فمنها الى الاقليم
الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومي وجرندة وقرقشونة وراءها في الشمال
ومنها في الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن جرندة واما المنكشف في هذا الجزء من جهة
الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرتات وفيها
شرقا وفيها على البحر المحيط راس القطعة التي يتصل بها جبل البرتات بلد بيونة وفي
هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء ارض بيطو من الفرنج الى آخر الجزء

اخ

والجزء الثاني

في الناحية الغربية منه ارض غشكونية وفي شمالها
ارض بيطو وبرغش وقد ذكرناهما وفي شرق بلاد غشكونية قطعة من البحر الرومي دخلت
في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة
في جون من البحر وعلى راس هذه القطعة شمالا بلاد جنوه وعلى سمتها في الشمال جبل
منت جون وعلى شماله وعلى سمته ارض برغونة وفي المشرق عن طرف جنوه الخارج
من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه بلد نيش

وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الافرنجة ومسكن البابة بتركهم الاعظم
وفيها من المباني الضخمة والهياكل المهولة والكنايس العادية ما هو معروف الاخبار
ومن عجايبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس
وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد
رومة بلاد ابرصه الى آخر الجزء وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلد نابل
في الجانب الشرقي منه متصلة ببلاد قلورية من بلاد الفرنج وفي شمالها طرف
من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى
الى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة من جنوبه فيما بينه وبين البحر
المحيط ومن شماله بلاد انكلاية في الاقليم السادس **وفي الجزء الثالث**
من هذا الاقليم في غربه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يدخل جانب
من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت
الشمال الى هذا الجزء وفي شرقي البلاد قلورية بلاد انكبردة في جون بين خليج البنادقة
والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به
من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب
محاذيا لآخر الجزء الشمالي ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه
في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى ان ينتهي قبالة الخليج في شماله في بلاد انكلاية
من امم اللمانيين كما نذكر وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين الى الشمال
بلاد البنادقة فاذا ذهبا الى المغرب فبينهما بلاد جرواسيا ثم بلاد اللمانيين عند طرف
الخليج **وفي الجزء الرابع** من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه
من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر يخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين
منها طرف من البر في الجون بينهما وفي آخر الجزء شرقا خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف
الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى ان يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك
من قرب مشرقا الى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده
من الاقليم السادس كما نذكر وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال
وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت
عنه الاحاديث والقطعة التي بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء فيها
بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء
قطعة من ارض باطوس واظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان
وقاعدته برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الامم الى ان صارت للتركمان

وفي الجزء

وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه ارض باطوس وفي الشمال
عنها الى آخر بلاد عمورية وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات يخرج من جبل
هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط قبل فصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم
الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين
على سمته وقد مر ذكرهما وفي شرقيه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته
وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية بين الجنوب والشرق من هذا الجزء
وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين وقباقب الذي ذكرناه يقسم
هذا الجزء بقطعتين احدهما غربية جنوبية وفيها ارض باطوس كما قلناه واسافلها
الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه قباقب ارض عمورية كما قلناه
والقطعة الثانية شمالية شرقية جنوبية على الثلاث ففي الجنوب منها مبدأ الدجلة
والفرات وفي الشمال بلاد السلاقنة متصلة بارض عمورية من وراء الجبل قباقب
وهي عريضة وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية
قطيعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية **وفي الجزء السادس**
من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصلة الى ان تتجاوز وسط الجزء الى جانب
الشرق وفيها بلد ارزن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل وفي شرقي
ارزن مدينة خلاط ثم بردعة وفي جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية ومنها
تخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الاكراد المسمى
بارما وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتاخم بلاد ارمينية في هذا الجزء وفي هذا
الجزء وفي الاقليم الرابع من جهة الشرق فيها بلاد اذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا
بلد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من هذا الجزء السابع
ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان ويبدأ
من عند آخر هذه القطعة البحرية وفي الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب
الى الجزء الخامس وتمر فيه وتنعطف وتحيط ببلد ميافارقين وتخرج الى الاقليم الرابع
عند آمد وتتصل بجبل السلسلة في اسافل الشام ومن هنالك تتصل بجبل اللكام كما مر
وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالابواب تفضي من الجانبين ففي جنوبيها
بلاد الابواب متصلة في الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب
الابواب وتتصل بلاد الابواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلاد ارمينية وبينهما
في الشرق وبين بلاد اذربيجان الجنوبية بلاد الران متصلة الى بحر طبرستان
وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير وفي الزاوية الغربية

الغربية الشمالية منها وهي زاوية الجزء كله قطيعة ايضا من بحر نيطش الذي
يمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره وتحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير
وعليها منها بلاد اطرابزنده وتتصل من بلاد السرير بين جبال الابواب
والجهة الشمالية من الجزء الى ان ينتهي شرقا الى جبل حاجز بينها وبين ارض
الخزر وعند اخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من ارض الخزر تنتهي
الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء بين بحر طبرستان واخر الجزء شمالا

والجزء السابع

من هذا الاقليم غربيه كله معمور ببحر طبرستان وخرج من جنوبه في الاقليم الرابع القطعة
التي ذكرنا هنالك ان عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين وفي غربي تلك
القطعة متصلة بها القطيعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع وتتصل بها
من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقيه ايضا وتنكشف من هذا الجزء قطعة
عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر اتل في هذا الجزء وتبقى من هذا الجزء في
ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر في مجالات للغز من امم الترك ويقال لهم
الخوز كانه عرب وصارت خاده غينا وشددت الزاي ويحيط بهذه القطعة
جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى ما دون وسطه
فينعطف الى الشمال الى ان يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه الى بقيته
في الاقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل شياه ويذهب
مغربا الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا الى الجزء السادس
من الاقليم الخامس وهذا الطرف هو الذي اعترض في هذا الجزء بين ارض السرير
وارض الخزر واتصلت ارض الخزر في الجزء السادس والسابع حفافي هذا الجبل
المسمى جبل شياه كما ياتي

والجزء الثامن

من هذا الاقليم
الخامس كله مجالات للغز من امم الترك وفي الجهة الجنوبية الغربية بحيرة خوارزم
التي تصب فيها نهر جيحون ودورها ثلثمائة ميل وتصب فيها انهار كثيرة من ارض
هذه المجالات وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة غرغون ودورها اربع
مائة ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغان ومعناه جبل
الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل باخر الجزء وفي الجنوب من بحيرة غرغون
صلد لا ينبت فيه شي يسمى غرغون وبه سميت البحيرة وينحلب منه ومن جبل
مرغار شمالي البحيرة انهار لا ينحصر عددها فتصب فيها من الجانبين **وفي الجزء**
التاسع من هذا الاقليم بلاد اذكش من امم الترك في غرب بلاد الغز

وشرق

وشرق بلاد الكيماكية ويحفه من جهة الشرق اخر الجبل قوقايا المحيط بياجوج وماجوج
يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حين ينعطف اول دخوله من الجزء العاشر
وقد كان دخل اليه من اخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع احتف هنالك بالبحر المحيط
الى اخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون
نصفه واحاط من اوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم
الخامس فذهب فيه مغربا الى اخره وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة
مستطيلة الى المغرب فيها اخر بلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الاعلى
منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب على سمته الى الجزء التاسع من الاقليم
السادس وفيه السد هنالك كما نذكر وبقيت منه القطعة التي احاط بها جبل
قوقايا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد
ياجوج **وفي الجزء العاشر** من هذا الاقليم ارض ياجوج متصلة فيه كله
الا قطعة من البحر المحيط غمرت طرفا في شرقيه من جنوبه الى شماله والا القطعة التي
تفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقايا حين مر فيه وما سوى ذلك فكله ارض
ياجوج

الاقليم السادس

فالجزء الاول منه
غمر البحر الاكثر من نصفه واستدار مشرقا مع الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية
الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشفت قطعة من الارض
في هذا الجزء داخلة بين طرفين منه من البحر المحيط كالجون فيه وتنفسح طولا وعرضا
وهي كلها ارض برطانية وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الشرقية الجنوبية
من الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بيطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من
الاقليم الخامس **والجزء الثاني** من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه
وشماله فمن غربه في قطعة مستطيلة اكثر من نصفه الشمالي من شرق ارض برطانية
في الجزء الاول واتصلت بها القطعة القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه
وانفسحت الغربي منه بعض الشي وفيه هناك قطعة من جزيرة انكلطرة وهي
جزيرة عظيمة متسعة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع
وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمندية
وبلاد افلاندرش متصلين بها ثم بلاد افرنسة جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد
برغونية شرقا عنها وكلها لامم الافرنجة وبلاد اللمانيين في النصف الشرقي من الجزء
فجنوبه بلاد انكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم ارض لهريكة وشصونية وعلى قطعة
البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية ارض افريزه وكلها لامم اللمانيين ؎

وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد ونوابيه
في الجنوب بلاد وسصونيه في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكريه في الجنوب
وبلاد بلونيه في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ويمر مغربا
بانحراف الى الشمال الى ان يقف في بلاد شصونيه آخر النصف الغربي من
وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوبية ارض جثولية وتحتها
في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من اول الجزء غربا الى ان يقف
في النصف الشرقي وفي شرق ارض جثولية بلاد جرمانيه وفي الزاوية الجنوبية
الشرقية ارض القسطنطينية ومدينتها عند اخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند
مدفعه في بحر نيطش فيقع قطيعة من بحر نيطش في اعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء
ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسماه وفي الجزء الخامس من الاقليم السادس
ثم الناحية الجنوبية منه بحر نيطش متصل من الخليج آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته
شرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على الف وثلثمائة ميل من مبدائه في عرض
ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية منه بحر نيطش متصل من الخليج
اخر الجزء الرابع ويخرج على سمته شرقا فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على الف
وثلثمائة ميل من مبدائه في عرض ستمائة ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية
من هذا الجزء من غربها الى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل نيطش متصلة
بارض البيلقان من الاقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانيه وقاعدتها سنوبلي
على ساحل بحر نيطش وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غربا ارض برجان وشرقا
بلاد الروسيه وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسيه محيطة ببلاد برجان من شرقها
في هذا الجزء ومن شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا
الاقليم وفي الجزء السادس من غربه بقية بحر نيطش ينحرف قليلا الى الشمال
ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانيه وفي جنوبه ومنفسح الشمال
بالانحراف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس
وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل ارض الخزر وفي شرقها ارض برطاس وفي الزاوية
الشرقية الشمالية ارض بلغار وفي الزاوية الجنوبية الشرقية ارض بلنجر يجوزها
هنالك قطعة من جبل شياه كونه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده
ويذهب بعد مفارقته مغربا فيجوز هذه القطعة ويدخل الى الجزء السادس
من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبال الابواب وعليه من ناحيته بلاد الخزر
وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما حاذه جبل شياه

بعد

بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من ارض الخزر الى اخر الجزء غربا وفي شرقها
القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل شياه
في الناحية الغربية الشمالية ارض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء ارض
بسجرت وبجناك من امم الترك وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية
منه كلها ارض الخولخ من الترك وفي الناحية الشمالية غربا الارض المنتنة وشرقا
الارض التي يقال ان ياجوج وماجوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الارض
المنتنة مبداء نهر اتل من اعظم انهار العالم ومره في بلاد الترك ومصبه في بحر
طبرستان في الاقليم الخامس وفي الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف
يخرج من جبل في الارض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ثم على سمت
الغرب الى اخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى اخر الجزء السابع من الاقليم
فيمر في طرفه بين الجنوب والغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب
مغربا غير بعيد ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من السادس
ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة
بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس ثم
ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل شياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم
الخامس في الجزء السابع فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت
من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية والجزء التاسع من هذا الاقليم
في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجق وبلاد التركش منهم ايضا
جبل قوقايا وفي الشرق منه بلاد ماجوج يفصل بينهما جبل قوقايا المحيط وقد مر ذكره
يبدا من البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم في الشمال
ويفارقه مغربا وبانحراف الى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الاقليم الخامس
فيرجع الى سمته الاول في الشمال حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من جنوبه الى شماله
وبانحراف الى الغرب وفي وسطه هنا السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على سمته
الى الاقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه من الجنوب الى ان يلقى البحر
المحيط في شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا في الاقليم السابع الى الجزء
الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه وفي وسط هذا
الجزء التاسع هو السد الذي بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن
وقد ذكر عبيد الله بن خرداذبه في كتابه في الجغرافيا ان الواثق راى في منامه
ان السد انفتح فانتبه فزعا وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره

ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد الكتاب **والجزء العاشر** من هذا الاقليم بلاد ماجوج متصلة فيه الى اخره على قطعة هناك من البحر المحيط احاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق ..

الاقليم السابع

والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث ينحصر بجبل قوقايا المحيط بياجوج وماجوج فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلطرة التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطف بالخلاف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة سعته اثنى عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق **والجزء الثالث** من هذا الاقليم معمور اكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل ارض فلونيه التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وانها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة ويتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونيه وفي شمالها جزيرة برقاغه مستطيلة مع الشمال من الغرب الى الشرق **والجزء الرابع** من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من الغرب الى الشرق وجنوبه منكشف ففي غربه ارض فيمازك من الترك وفي شرقها بلاد طبست ثم ارض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائمة الثلوج عمرانها قليل وتتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس في الجزء الرابع والخامس منه **والجزء الخامس** من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وتنتهي في الشمال الى قطعة البحر المحيط التي تتصل بها جبل قوقايا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل ارض القمانية التي على قطعة بحر نيطش في الجزء السادس وتنتهي الى بحيرة طرمى من هذا الجزء وهي عذبة وتنجلب اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء التبارية التي من الترك الى اخره **والجزء السادس** في الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية وفي وسط الناحية بحيرة عثون عذبة تنجلب اليها انهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الزاوية

الجنوبية

الجنوبية الشرقية من هذه الجزء بقية ارض بلغار التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من ارض بلغار منعطف نهر اتل العطفة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس ومن شماله جبل قوقايا متصل من غربه الى شرقه **وفي الجزء السابع** من هذا الاقليم في غربه بقية ارض بجناك من امم الترك وكان مبدؤها في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس فوقه وفي الناحية الشرقية بقية ارض سجرت ثم بقية ارض المنتنة الى اخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقايا المحيط متصلا من غربه الى شرقه **وفي الجزء الثامن** من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الارض المنتنة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجايب خرق عظيم في الارض فسيح الاقطار بعيد المهوى ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان بالنهار والنيران بالليل تضيء وتخفى وربما رأى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقايا متصل من الغرب الى الشرق **وفي الجزء التاسع** من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجاق يجوز بها جبل قوقايا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا وفي وسطه هنالك سد ياجوج وماجوج وقد ذكرناه وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض ماجوج وراء جبل قوقايا على البحر قليلة العرض مستطيلة احاطت به من شرقه وشماله والجزء العاشر غمره الماء جميعه هذا آخر الكلام على الجغرافيا واقاليمها السبعة وفي خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات للعالمين

المقدمة الثالثة في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتاثير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالهم

قد بينا ان المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه الى الجانب الشمالي لافراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ولما كان الجانبان من الجنوب والشمال متضادين في البرد والحر وجب ان تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع اعدل العمران والذي حفافيه من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال والذي يليهما السادس والثاني بعيدان من الاعتدال والاول والسابع ابعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع

حية

والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه
الاقاليم الثلثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر اعدل اجساما
والوانا واخلاقا واحوالا فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم
واقواتهم وصنايعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة
ويتناغون في استجادة الالات والمواعين يذهبون في ذلك الى الغاية
وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس
والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف
في عامة احوالهم وهولاء اهل المغرب والشام والعراقين والسند والصين وكذلك
الاندلس ومن قرب من هولاء فتجدهم او قريبا منهم في هذه الاقاليم المعتدلة المتعدلة ولهذا
كان العراق والشام اعدل هذه كلها لانها وسط من جميع الجهات واما الاقاليم البعيدة
من الاعتدال مثل الاول والثاني والسادس والسابع فاهلها ابعد من الاعتدال في جميع
احوالهم فبناؤهم بالطين والقصب واقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من اوراق
الشجر يخصفونها عليهم او الجلود واكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وادمهم
غريبة التكوين مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير النقدين الشريفين من نحاس
او حديد او جلود يقدرونها للمعاملات واخلاقهم مع ذلك قريب من خلق الحيوانات
العجم حتى ينقل عن الكثير منهم من امم السودان اهل الاقليم الاول انهم يسكنون في الكهوف
والغياض وياكلون العشب وانهم متوحشون غير مستانسين وانهم ياكل بعضهم
وكذا الصقالبة والسبب في ذلك انهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض امزجتهم
واخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذا احوالهم
في الديانة ايضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بدين الا من قرب منهم
من جوانب الاعتدال وهو في الاقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين
بدين النصرانية قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل اهل مالي وكوكو والتكرور
المجاورين لارض المغرب الدائنين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به في
المائة السابعة ومثل من دان بالنصرانية من امم الصقالبة والافرنجة والترك
في الشمال ومن سوى هولاء من اهل تلك الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين
مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم وجميع احوالهم بعيدة من احوال الاناسي قريبة
من احوال البهائم ويخلق ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا بوجود اليمن وحضرموت
والاحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما اليها من جزيرة العرب في الاقليم الاول
والثاني فان جزيرة العرب كلها احاطت بها البحار من الجهات الثلث كما ذكرناه

فكان

فكان لرطوبتها اثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف
الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال برطوبة البحر وقد توهم بعض
النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح
اختصوا بلون السواد لدعوة كانت من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق
في عقبه ودعي نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وانما دعي
عليه بان يكون ولده عبيدا لولد اخوته لا غير وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة
عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك
ان هذا اللون شمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة
بالجنوب فان الشمس تسامت رؤسهم مرتين في كل سنة قريبة احداهما من الاخرى
فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود
جلودهم لافراط الحر ونظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال الاقليم السابع
والسادس شمل سكانهما ايضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال اذ
الشمس لا تزال بافقهم في دائرة مرأى العين او ما قرب منها ولا ترتفع الى المسامتة
ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض الوان اهلها
وتنتهي الى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش
الجلود وصهوبة الشعور وتوسطت بينهما الاقاليم الثلاثة الخامس والرابع والثالث
فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر والرابع ابلغها في الاعتدال
غاية النهاية في التوسط كما قدمناه فكان لاهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه
مزاج هوائهم وتبعه عن جانبيه الخامس والثالث وان لم يبلغا غاية التوسط لميل
هذا قليلا الى الجنوب الحار وهذا قليلا الى الشمال البارد الا انهما لم ينتهيا الى الانحراف
وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة واهلها كذلك في خلقهم وخلقهم فالاول والثاني للحر والسواد
والسادس والسابع للبرد والبياض ويسمى سكان الجنوب من الاقليمين الاول والثاني
باسم الحبشة والزنج والسودان اسماء مترادفة على الامة المتغيرة بالسواد وان كان
اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه
الاسماء لهم من جهة انتسابهم الى آدمي اسود لا حام ولا غيره وتجد من السودان
اهل الجنوب من يسكن الرابع المعتدل او السابع المنحرف الى البياض فتبيض الوان
اعقابهم على التدريج مع الايام وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع
بالجنوب فتسود الوان اعقابهم وفي ذلك دليل على ان اللون تابع لمزاج الهواء
قال ابن سينا في ارجوزته في الطب • بالزنج حر غير الاجساد • حتى كسى

جلودها سوادا • والصقالبة اكتسبت البياض حتى غدت جلودها بضاضا
فلم يسموا باعتبار الوانهم لان البياض كان لونا لاهل تلك اللغة الواضعة
للاسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا
سكانه من الترك والصقالبة والطغرغز والخزر واللان والكثير من الفرنجة وياجوج
وماجوج اسما متفرقة واجيالا متعددة مسميين باسماء متنوعة واما اهل الاقاليم
المتوسطة اهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية
للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنايع والعلوم والرياسات والملك
فكانت فيهم الرياسات والملك والدول والنبوات والشرايع والعلوم
والبلدان والامصار والمباني والغراسة والصنايع الفايقة وساير الاحوال
المعتدلة واهل هذه الاقاليم الذين وقفنا على اخبارهم مثل العرب والروم
وفارس وبني اسرائيل واليونانيين واهل السند والصين ولما راى النسابون
اختلاف هذه الامم بسماتها وشعايرها حسبوا ذلك لاجل الانساب فجعلوا
اهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في الوانهم فتكلفوا تلك
الحكاية الواهية وجعلوا اهل الشمال كلهم او اكثرهم من ولد يافث واكثر الامم المعتدلة
وهم اهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنايع والعلوم والشرايع والسياسة
والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق في انتساب هولاء فليس
ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لان تسمية اهل الجنوب بالسودان
والحبشان من اجل انتسابهم الى حام الاسود وما اداهم الى هذا الغلط الا اعتقادهم
ان التمييز بين الامم انما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجيل
او للامة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني اسرائيل والفرس ويكون
بالجهة والسمة كما للزنج والحبشان والصقالبة والسودان ويكون بالعوايد
والشعاير مع النسب كما للعرب ويكون بغير ذلك من احوال الامم وخواصهم
ومميزاتهم فتعميم القول من اهل جهة معينة من جنوب او شمال بانهم من ولد فلان المعروف
لما شملهم من لون او نحلة او سمة وجدت لذلك الاب انما هو من الاغاليط التي
اوقع فيها الغفلة عن طبايع الاكوان والجهات وان هذه كلها تتبدل في الاعقاب
ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا

المقدمة الرابعة في اثر الهواء في اخلاق البشر

قد راينا من اخلاق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم
مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح

في ذلك

في ذلك انه تقرر في موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح
الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهي انقباضه وتكاثفه وتقرر ان الحرارة
مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زايدة في كميته ولهذا نجد المنتشي من الفرح والسرور
ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها
سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجي طبيعة الفرح ولذلك نجد
المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوايها واتصلت حرارة الهواء بارواحهم
فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير فيهم بالغناء الناشي عن السرور
ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على امزجتهم
وفي اصل تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم
بالقياس الى ارواح اهل الاقليم الرابع اشد حرا فتكون اكثر تفشيا فتكون اسرع فرحا وسرورا
واكثر انبساطا ويجي الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا اهل البلاد البحرية لما كان
هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من اضواء بسيط البحر واشعته كانت حصتهم
من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد
يسيرا من ذلك في اهل البلاد الجزيرية من الاقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها
لانها عريقة في الجنوب عن الارياف والتلول واعتبر ذلك ايضا باهل مصر فانها مثل
عرض البلاد الجزيرية او قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب
حتى انهم لا يدخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة ماكلهم من اسواقهم ولما كانت
فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى
اهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف افرطوا في نظر العواقب حتى ان الرجل
منهم ليدخر اقوات سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه
مخافة ان يرزا شيا من مدخره وتتبع ذلك في الاقاليم والبلدان تجد في الاخلاق
اثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم وقد تعرض المسعودي للبحث عن
السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله فلم يات
فيه بشي اكثر من انه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي ان ذلك
لضعف ادمغتهم وما نشا عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان
فيه والله يهدي من يشاء •

المقدمة الخامسة في اختلاف احوال العمران في الخصب والجوع وما ينشا عن ذلك من الاثار في ابدان البشر واخلاقهم

اعلم ان هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد له الخصب ولا كل سكانها في رغد

من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة
والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطبيعة ووفور العمران وفيها الارض الحرة
التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل اهل الحجاز
واليمن ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب واطراف الرمال
فيما بين البربر والسودان فان هولاء يفقدون الحبوب والادم جملة وانما
اغذيتهم واقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب الجائلين في القفار فانهم وان كانوا
ياخذون الحبوب والادم من التلول الا ان ذلك في الاحايين وتحت ربقة
من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه الا الى سد الخلة او دونها
فضلا عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب احوالهم على الالبان وتعوضهم
من الحنطة احسن معاض وتجد مع ذلك هولاء الفاقدين للحبوب والادم من اهل
القفار احسن حالا في جسومهم واخلاقهم من اهل التلول المنغمسين في العيش فالوانهم
اصفى وابدانهم انقى واشكالهم اتم واحسن واخلاقهم ابعد من الانحراف واذهانهم اثقب
في المعارف والادراكات هذا امر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب
والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين واهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك
والله اعلم ان كثرة الاغذية ورطوباتها تولد في الجسم فضلات ردية بينا عنها بعد
اقطاره في غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الالوان
وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الاذهان والافكار بما يصعد
الى الدماغ من ابخرتها الردية فتجي البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة
واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والمها والنعام والزرافة
والحمر الوحشية والبقر مع امثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبة كيف
تجد بينها بونا بعيدا في صفاء اديمها وحسن رونقها واشكالها وتناسب اعضائها
وحدة مداركها فالغزال اخو المعز والزرافة اخو البعير والحمار والبقر اخو الحمار والبقر
والبون بينها ما رايت وما ذاك الا لاجل ان الخصب في التلول فعل في ابدان هذه
من الفضلات الردية والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها اثره والجوع لحيوان القفر
حسن في خلقها واشكالها ما شاء واعتبر ذلك في الادميين ايضا فانا نجد اهل الاقاليم
المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف اهلها غالبا
بالبلادة في اذهانهم والخشونة في اجسامهم وهذا شان البربر المنغمسين في الادم
والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير او الذرة مثل المصامدة
منهم واهل السوس وغمارة فتجد هولاء احسن حالا في عقولهم وجسومهم

وكذا

كذا اهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الادم والبر مع اهل الاندلس المفقود بارضهم
السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فتجد لاهل الاندلس من ذكاء العقول وخفة
الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا اهل الضواحي من المغرب بالجملة مع
اهل الحضر والامصار فان اهل الامصار وان كانوا مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين
في العيش الا ان استعمالهم اياها بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب
لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ماكلهم لحوم الضان والدجاج ولا يغبطون السمن من بين
الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في اغذيتهم ويخف ما تؤديه الى اجسامهم
من الفضلات الردية فلذلك تجد جسوم اهل الامصار الطف من جسوم البادية المخشنين في العيش
وكذا تجد المتعودين بالجوع من اهل البادية فانهم لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة
واعلم ان اثر هذا الخصب ليظهر في البدن في حال الدين والعبادة فنجد المتقشفين
من اهل البادية والحاضرة ممن ياخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ احسن دينا واقبالا
على العبادة من اهل الترف والخصب بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والامصار
لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالاكثار من اللحمان والادم ولباب البر ويختص
وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من اهل البوادي وكذلك نجد
حال اهل المدينة الواحدة في ذلك يختلف باختلاف حالها في الترف والخصب وكذلك
نجد هولاء المخصبين في العيش المنغمسين في النعيم لا من اهل البادية ولا من اهل الحاضرة
والامصار اذا نزلت بهم السنون واخذتهم المجاعات يسرع اليهم الهلاك اكثر من غيرهم
مثل برابرة المغرب واهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب اهل القفر و
الصحراء ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل اهل افريقية لهذا
العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت واهل الاندلس الذين غالب عيشهم
الذرة والزيت فان هولاء وان اخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال
من اولئك ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله اعلم
ان المنغمسين في الخصب المتعودين للادم والسمن خصوصا تكتسب معاهم من ذلك
رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز حدها فاذا خولف بها العادة
بقلة الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المالوف من الغذاء اسرع
الى المعاء اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف في الغاية ولهذا عد في المقاتل
فيسرع اليه المرض ويهلك صاحبه بسرعة والهالكون في المجاعات انما قتلهم الشبع
المعتاد السابق لا الجوع اللاحق واما المعتادون للعيش وترك الادم والسمن
فلا تزال رطوبتهم الاصلية واقفة عند حدها من غير زيادة وهي صالحة على جميع الاغذية

الصبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الاغذية يبس ولا انحراف فيسلمون م
في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الادم في الماكل واعتبر
هذا كله تعلم ان الاغذية وايلافها او تركها انما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء
ولايم تناوله كان له مالوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج
عن عرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع وما افرط في الانحراف فاما ما وجد
فيه التغذي والملاية فيصير غذاء مالوفا بالعادة فاذا اخذ الانسان نفسه باستعمال
اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى
به عن الحنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستغناء
عن الطعام كما ينقل عن اهل الرياضات فانا نسمع عنهم في ذلك اخبارا غريبة يكاد
ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فان النفس اذا الفت شيئا
صار من جبلتها وطبيعتها لانها كثيرة التلون فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج
والرياضة فقد حصل ذلك عادة وطبيعة لها وما يتوهمه الاطباء من ان الجوع
مهلك فليس على ما يتوهمونه الا اذا حملت عليه النفس دفعة وقطع عنها الغذاء
بالكلية فانه حينئذ ينحسم المعاء ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك واما اذا كان
ذلك تدريجا ورياضة باقلال الغذاء شيئا فشيئا كما يفعله المتصوفة فهو
بمعزل عن الهلاك وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فانه
اذا رجع الى الغذاء الاول دفعة خيف عليه الهلاك وانما يرجع به كما بدا
في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع اربعين يوما وصالا
واكثر وحضر اشياخنا في دولة السلطان ابي الحسن وقد رفع اليه امراتان
من اهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا انفسهما عن الاكل جملة منذ سنين
وشاع امرهما ووقع اختبارهما فصح شانهما واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا
ورأينا كثيرا من اصحابنا ايضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها
في بعض النهار او عند الافطار ويكون ذلك غذاءه واستدام ذلك خمس عشرة
سنة وغيرهم كثير ولا يستنكرون ذلك واعلم ان الجوع اصلح للبدن من اكثار
الاغذية بكل وجه لمن قدر عليه او على الاقلال منها وان له اثرا في الاجسام والعقول
في صفائها وصلاحها كما قلناه واعتبر ذلك باثار الاغذية التي تحصل عنها في الجسوم
فقد راينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشا
اجيالهم كذلك وهذا مشاهد في اهل البادية مع اهل الحضرة وكذا المتغذون
بالبان الابل ولحومها ايضا مع ما يؤثر في اخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة

على حمل الاثقال كما هو للابل وتنشا معاهم ايضا على نسبة معا الابل في الصحة
والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الاغذية ما ينال
غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل نضجه
والدرياس والفربيون ولا ينال معاهم منها ضرر وهي لو تناولها اهل الحضر
الرقيقة معاهم بما نشات عليه من تلطيف الاغذية لكان الهلاك اسرع اليهم
من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تاثير الاغذية في الابدان ما ذكره اهل
الفلاحة وشاهده اهل التجربة ان الدجاج اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر
الابل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها اعظم ما يكون ويستغنون
عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها
في غاية العظم وامثال ذلك كثير فاذا راينا هذه الاثار من الاغذية في الابدان
فلا شك ان للجوع اثارا في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التاثير
وعدمه فيكون تاثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات
المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله
محيط بعلمه

المقدمة السادسة في اصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة او بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

اعلم ان الله سبحانه اصطفى من البشر اشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته
وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويحجزونهم
ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه اليهم من المعارف
ويظهره على السنتهم من الخوارق الاخبار بوقوع الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل
الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم
الا واني لا اعلم الا ما علمني الله واعلم ان خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق
لما تبين لك عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر ان يوجد
لهم حالة الوحي غيبة عن الحاضرين مع غطيط كانها غشي او اغماء في راي العين وليست
منهما في شيء انما هي بالحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بادراكهم المناسب
لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ثم يتنزل الى المدارك البشرية اما بسماع دوي
من الكلام فيتفهمه او يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلي عنه
تلك الحال وقد وعى ما القي اليه قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحي احيانا يأتيني
مثل صلصلة الجرس وهو اشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل
لي الملك رجلا فيكلمني فاعي ما يقول ويدركه اثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر

عنه وفي الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة وقالت عائشة كان ينزل عليه
الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا وقال تعالى
انا سنلقي عليك قولا ثقيلا ولاجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون
يرمون الانبياء بالجنون ويقولون له رائي او تابع من الجن وانما لبس عليهم
بما شاهدوه من ظاهر تلك الحال ومن يضلل الله فما له من هاد **ومن علاماتهم**
ايضا انه يوجد لهم خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس فقبل
وهذا هو معنى العصمة وكانه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها كانها
منافية لجبلته وفي الصحيح انه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة
فجعلها في ازاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بازاره ودعي الى مجتمع وليمة
فيها عرس ولعب فاصابه غشي النوم الى ان طلعت الشمس ولم يحضر شيئا من شانهم
بل نزهه الله عن ذلك بجبلته حتى انه يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان صلى الله
عليه وسلم لا يقرب البصل ولا الثوم فقيل له في ذلك فقال اني اناجي من لا تناجون
وانظر لما اخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة بحال الوحي اول ما فجئه وارادت اختباره
فقالت اجعلني بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت انه ملك
وليس بشيطان ومعناه انه لا يقرب النساء وكذلك سالته عن احب الثياب اليه
ان ياتيه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعني ان الخضرة والبياض من الوان
الخير والملائكة والسواد من الوان الشر والشياطين وامثال ذلك **ومن علاماتهم**
ايضا دعاؤهم الى الدين والعبادة من الصلوة والصدقة والعفاف وقد استدلت
خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك ابو بكر ولم يحتاجا في امره
الى دليل خارج عن خلقه وحاله وفي الصحيح ان هرقل حين جاءه كتاب النبي صلى الله
عليه وسلم يدعوه الى الاسلام احضر من وجد ببلده من قريش وفيهم ابو سفيان
يسئلهم عن حاله فكان فيما سال ان قال بم يامركم فقال ابو سفيان بالصلوة و
الزكوة والصلة والعفاف الى اخر ما سال فاجابه فقال ان يكن ما تقول
حقا انه نبي وسيملك ما تحت قدمي هاتين والعفاف الذي اشار اليه هرقل العصمة
فانظر كيف اخذ من العصمة والدعاء الى الدين والعبادة دليلا على صحة النبوة ولم يحتج
الى معجزة فدل على ان ذلك من علامات النبوة **ومن علاماتهم** ان يكونوا ذوي
حسب في قومهم وفي الصحيح ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه وفي رواية اخرى
في ثروة من قومه استدركه الحاكم على الصحيحين وفي مسائلة هرقل لابي سفيان
كما هو في الصحيح قال كيف هو فيكم فقال ابو سفيان هو فينا ذو حسب فقال هرقل

و

والرسل تبعث في احساب قومها ومعناه ان تكون له عصبية وشوكة تمنعه
من اذى الكفار حتى يبلغ رسالات ربه ويتم مراد الله من اكمال دينه وملته
ومن علاماتهم ايضا وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي افعال يعجز البشر
عن مثلها فسميت لذلك معجزة وليست من جنس مقدور العباد وانما تقع في غير محل
قدرتهم وللناس في كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الانبياء خلاف فالمتكلمون
بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بانها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي وان كانت
افعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم الا ان المعجزة لا تكون من جنس افعالهم
وليس للنبي فيها عند الجميع الا التحدي بها باذن الله وهو ان يستدل بها النبي قبل
وقوعها على صدقه في مدعاه فاذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بانه صادق وتكون
دلالتها على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة مجموع الخارق والتحدي ولذلك كان
التحدي جزءا منها وعبارة المتكلمين صفة نفسها وهو واحد لانه معنى الذاتي عندهم
والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر اذ لا حاجة فيهما الى التصديق
فلا وجود للتحدي الا ان وجد اتفاقا وان وقع التحدي في الكرامة عند من يجيزها وكانت
لها دلالة فانما هي على الولاية وهي غير النبوة ومن هنا منع الاستاذ ابو اسحق وغيره
وقوع الخوارق كرامة فرارا من الالتباس بالنبوة عند التحدي بالولاية وقد اريناك
المغايرة بينهما وانه يتحدى بغير ما يتحدى به النبي فلا لبس على ان النقل عن الاستاذ
ليس صريحا وربما حمل على انكار ان تقع خوارق الانبياء لهم بناء على اختصاص كل
من الفريقين بخوارقه واما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم ان الخوارق ليست
من افعال العباد وافعالهم معتادة فلا خارق واما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو
محال اما عند الاشعرية فلان صفة نفس المعجزة التصديق والهداية فلو وقعت
بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذبا واستحالت
الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكنا واما عند
المعتزلة فلان وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله واما الحكماء
فالخارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل القدرة بناء على مذهبهم في الايجاب
الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الشروط والاسباب
الحادثة مستندة اخيرا الى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار وان النفس
النبوية لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر
له في التكوين والنبي عندهم مجبول على التصريف في الاكوان متى توجه اليها واستجمع
لها بما جعل الله له من ذلك والخارق عندهم يقع للنبي كان للتحدي او لم يكن وهو شاهد

عاصدقه من حيث دلالته على تصرف النبي في الاكوان الذي هو من خواص النفس النبوية
لا بانه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تنهض دلالتها قطعية كما هي
عند المتكلمين ولم يكن التحدي جزءا من المعجزة ولم يصح فارقا عن السحر والكرامة
وفارقها عندهم عن السحر ان النبي مجبول على افعال الخير مصروف عن افعال الشر
ولا يلم الشر بخوارقه والساحر على الضد وافعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها
عن الكرامة ان خوارق النبي مخصوصة كصعود السماء والنفوذ في الاجسام الكثيفة
واحياء الموتى وتكليم الملئكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك
كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وامثاله مما هو قاصر عن تصريف الانبياء
ويأتي النبي بمثل خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الانبياء وقد قرر ذلك
المتصوفة فيما كتبوه في طريقتهم ولقنوه عن مواجدهم واذا تقرر ذلك فاعلم
ان اعظم المعجزات واشرفها واوضحها دلالة القران الكريم المنزل على نبينا صلوات
الله عليه لان الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي
بالمعجزة شاهدة بصدقه وهذا ظاهر والقران هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز
فدلالته في عينه ولا يفتقر الى دليل اجنبي عنه كسائر الخوارق مع الوحي فهو اوضح
دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي
من الانبياء الا واوتي من الايات ما مثله امن عليه البشر وانما كان الذي اوتيته
وحيا اوحي الي فانا ارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيمة يشير الى ان المعجزة متى
كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان المصدق
لها لوضوحها اكثر المصدق المؤمن وهو التابع والامة والله تعالى اعلم ولنذكر
الان تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة الكهانة ثم الرؤيا
ثم شان العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول اعلم ارشدنا الله واياك
انا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والاحكام
وربط الاسباب بالمسببات واتصال الاكوان بالاكوان واستحالة بعض
الموجودات الى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته وابدا من ذلك
بالعالم المحسوس الجسماني واولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الارض
الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلا بعضها ببعض وكل واحد منها مستعد الى ان يستحيل
الى ما يليه صاعدا وهابطا ويستحيل بعض الاوقات والصاعد منها الطف مما قبله
الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهي الطف من الكل على طبقات اتصل بعضها
ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدي بعضهم

الى معرفة

الى معرفة مقاديرها واوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الاثار
فيها ثم انظر الى عالم التكوين ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة
بديعة من التدريج اخر افق المعادن متصل باول افق النبات مثل الحشائش وما لا بزر له
واخر افق النبات مثل النخل والكرم متصل باول افق الحيوان كالحلزون والصدف
ولم توجد لها الا قوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان اخر
افق منها مستعد بالاستعداد القريب لان يصير اول افق من الذي بعده
واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان
صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الكيس والادراك
ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك اول افق من الانسان بعده
وهذا غاية شهودنا ثم انا نجد في العوالم على اختلافها اثارا متنوعة ففي عالم الحس
اثار من حركة الافلاك والعناصر وفي عالم التكوين اثار من حركات النمو والادراك
تشهد كلها بان لها مؤثرا مباينا للاجسام فهو روحاني ومتصل بالمكونات لوجود
اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها
من موجود اخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها ايضا ويكون ذاته ادراكا
صرفا وتعقلا محضا وهو عالم الملئكة فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ
من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملئكة وقتا من الاوقات وفي لمحة من
اللمحات وذلك بعد ان تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها
اتصال بالافق الذي بعدها شان الموجودات المرتبة كما قدمناه فلها في الاتصال
جهتا العلو والسفل وهي متصلة بالبدن من اسفل منها ومكتسبة به المدارك الحسية
التي تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة بجهة الاعلاء منها بافق الملئكة
ومكتسبة فيه المدارك العلمية والغيبية فان عالم الحوادث موجود في تعقلاتهم
من غير زمان وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم في الوجود باتصال ذواته وقواه
بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان واثارها ظاهرة
في البدن وكانه وجميع اجزائه مجتمعة ومتفرقة الات للنفس وقواها اما الفاعلة
فالبطش باليد والمشي بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعا
واما المدركة وان كانت قوى الادراك مترتبة ومرتقية الى القوة العليا منها
وهي المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهر بالاته من البصر
والسمع وسائرها ترتقي الى الباطن واوله الحس المشترك وهي قوة تدرك
المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك

فارقت قوة الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يودي
الحس المشترك الى الخيال وهو قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجردا عن المواد
الخارجة فقط وآلة هاتين في تصرفهما البطن الاول من الدماغ مقدمه للاولى
ومؤخره للثانية ثم يرتقي الخيال الى الوهمية والحافظة فالوهمية لادراك المعاني
المتعلقة بالشخصيات كعداوة زيد وصداقة عمرو ورحمة الاب وافتراس الذيب
والحافظة لايداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي كالخزانة تحفظها الى وقت
الحاجة اليها وآلة هاتين القوتين في تصرفهما البطن المؤخر من الدماغ اوله للاولى
ومؤخره للاخرى ثم ترتقي جميعها الى قوة الفكر وآلته البطن الاوسط من الدماغ
وهو القوة التي تقع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل تتحرك النفس بها دائما
بما ركب فيها من النزوع الى ذلك لتتخلص من درك القوة والاستعداد الذي
للبشرية وتخرج الى الفعل في تعلقها متشبهة بالملاء الاعلى الروحاني وتصير في اول مراتب
الروحانيات في ادراكها بغير الالات الجسمانية فهي متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك
وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب
بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الاولى في ذلك والنفوس البشرية في ذلك
على ثلثة اصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فيقنع
بالحركة الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة
والوهمية على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية
والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدائه
ينتهي الى الاوليات ولا يتجاوزها وان فسدت فسد ما بعدها وهذا هو في الاغلب
نطاق الادراك البشري الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ اقدامهم
صنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو التعقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر
الى الات البدن بما جعل الله فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوليات
التي هي نطاق الادراك الاول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنة
وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبداها ولا من منتهاها وهذه مدارك الاولياء
اهل العلوم الدينية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة
في البرزخ صنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها الى الملئكة
من الافق الاعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملاء الاعلى
في افقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللمحة وهولاء هم الانبياء
صلوات الله عليهم جعل لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي

فطرة فطرهم عليها وجبلة صورهم فيها ونزههم على معالم البدن وعوايقه ما داموا
ملابسين لها بالبشرية بما ركب في غرايزهم من العصمة والاستقامة التي يحاذون
بها تلك الوجهة وركز في طبايعهم رغبة في العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها
فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤا بتلك
الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة فاذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم
وتلقوا من ذلك الملاء ما يتلقونه عاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها
لحكمة التبليغ للعباد فتارة يسمع دويا كانه رمز من الكلام ياخذ منه المعنى الذي
القي اليه فلا ينقضي الدوي الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي
اليه فيكلمه ويعي ما يقوله والتلقي من الملك والرجوع على المدارك البشرية وفهمه
ما القي عليه كله كانه في لحظة واحدة بل اقرب من لمح البصر لانه ليس في زمان بل كلها
تقع جميعا فيظهر كانها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحي في اللغة الاسراع
واعلم ان الاولى وهي حالة الدوي هي رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه
والثانية وهي حالة تمثل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الانبياء المرسلين ولذلك
كانت اكمل من الاولى وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي
لما ساله الحرث بن هشام وقال كيف ياتيك الوحي فقال احيانا ياتيني مثل صلصلة
الجرس وهو اشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال واحيانا يتمثل لي الملك رجلا
فيكلمني فاعي ما يقول وانما كانت الاولى اشد لانها كانت مبداء الخروج في ذلك
الاتصال من القوة الى الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك
البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه وعندما يتكرر الوحي ويكثر التلقي يسهل
ذلك الاتصال فعندما يعرج الى المدارك البشرية ياتي على جميعها وخصوصا الاوضح
منها وهو ادراك البصر وفي العبارة عن الوحي في الاولى بصيغة الماضي وفي الثانية
بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهي ان الكلام جاء مجيء التمثيل لحالتي الوحي فمثلت
الحالة الاولى بالدوي الذي هو في المتعارف غير كلام واخبر ان الفهم والوحي
يتبعه عقب انقضائه فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي
بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب
ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب العبارة بالمضارع المقتضي للتجدد واعلم
ان في حالة الوحي كلها على الجملة صعوبة وشدة قد اشار اليها القران قال تعالى انا
سنلقي عليك قولا ثقيلا وقالت عايشة كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت
كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد

عرقا ولذلك ما كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف
وسبب ذلك ان الوحي كما قررناه مفارقة البشرية الى المدارك الملكية وتلقي كلام
النفس فتحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها من افقها
الى ذلك الافق الاخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في قوله حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني
فقال اقرا فقلت ما انا بقارئ وكذا ثانية وثالثة كما في الحديث وقد يفضي الاعتياد
فيه بالتدريج شيئا فشيئا الى بعض السهولة بالقياس الى ما قبله ولذلك كان
تنزل نجوم القرآن وسوره وآياته حين كان بمكة اقصر منها وهو بالمدينة وانظر
الى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وانها نزلت كلها او اكثرها وهو يسير على ناقته
بعد ان كان بمكة ينزل عليه بعض السور من قصار المفصل في وقت وينزل الباقي
في وقت آخر وكذلك كان من آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول
بعد ان كانت الآيات تنزل بمكة مثل آيات سورة الرحمن والذاريات والمدثر
والضحى والعلق وامثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكي والمدني من السور
والآيات والله المرشد الى الصواب هذا محصل امر النبوة واما الكهانة
فهي ايضا من خواص النفس الانسانية وذلك انه قد تقدم لنا في جميع ما مر ان للنفس
الانسانية استعدادا للانسلاخ من البشرية الى الروحانية التي فوقها وانه
يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر انه
يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات
ولا من الافعال البدنية كلاما او حركة ولا بامر من الامور انما هي انسلاخ من البشرية
الى الملكية بالفطرة في لحظة اقرب من لمح البصر واذا كان ذلك وكان هذا الاستعداد
موجودا في الطبيعة البشرية فيعطي التقسيم العقلي ان هنا صنفا آخر من البشر
ناقصا عن رتبة الصنف الاول نقصان الضد عن ضده الكامل لان عدم الاستعانة
في ذلك الادراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما فاذن اعطى
تقسيم الوجود ان هنا صنفا آخر من البشر مفطورا على ان تتحرك قوته العقلية حركتها
الفكرية بالارادة عند ما يبعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها
بالجبلة عند ما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بامور جزئية محسوسة او متخيلة
كالاجسام الشفافة وعظام الحيوان وسجع الكلام وما سنح من طير او حيوان
يستديم ذلك الاحساس او التخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده
ويكون كالمشيع له وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الادراك هي الكهانة
ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها
في الجزئيات اكثر من الكليات ولذلك تكون متشبثة بها غافلة عن الكليات ولذلك ما تكون
المتخيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما في نوم
او يقظة وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المتخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ولا يقوى
الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشياطين وارفع
احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة
ليشتغل عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس
في قلبه عن تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الاجنبي ما يقذفه على لسانه فربما
صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتمم نقصه بامر اجنبي عن ذاته المدركة ومباين
لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به وربما يفزع
الى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه وتمويها على السائلين
واصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم ارفع سائر اصنافهم
وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى
الاضافة وقال لابن صياد حين سأله كاشفا عن حاله بالاخبار كيف يأتيك
هذا الامر قال يأتيني صادق وكاذب فقال خلط عليك الامر يعني ان النبوة من
خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لانها اتصال من ذات النبي بالملأ الاعلى
من غير مشيع ولا استعانة باجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة
بالتصورات الاجنبية كانت داخلة في ادراكه والتبست بالادراك الذي
توجه اليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع ان يكون نبوة
وانما قلنا ان ارفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معين السجع اخف من سائر
المعينات من المرئيات والمسموعات ويدل خفة المعين على قرب ذلك الاتصال
والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء وقد زعم بعض الناس ان هذه
الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شان رجم الشياطين بالشهب
بين يدي البعثة وان ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان
انما يتعرفون اخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم
من ذلك دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم
كما قررناه وايضا فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من اخبار
السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وايضا فانما كان
ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت
عليه وهذا هو الظاهر لان هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب

والسراج عند وجود الشمس لان النبوة هي النور الاعظم الذي يخفى معه كل
نور او يذهب **وقد زعم** بعض الحكماء انها انما توجد بين يدي النبوة ثم
تنقطع وهذا بين يدي كل نبوة وقعت لان وجود النبوة لابد له من وضع
فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها ونقص
ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك النوع يقتضيه ناقصة
الكاهن على ما قررناه فقبل ان يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص
ويقتضي وجود الكاهن اما واحدا او متعددا فاذا تم ذلك الوضع تم وجود النبي
بكماله وانقضت الاوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد وهذا
بناء على ان بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض اثره وهو غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي
ذلك الاثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض اجزائها فلا يقتضي شيئا لا انه يقتضي
ذلك الاثر ناقصا كما قالوه ثم ان هولاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم
عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لان لهم بعض الوجدان من امر النبوة
كما لكل انسان من امر النوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن باشد
ما للنائم ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب الا الوسواس المطامع
بانها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لامية ابن ابي الصلت فانه كان
يطمع ان يكون نبيا وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم فاذا وقع الايمان
وغلب وانقطعت تلك الاماني امنوا احسن ايمان كما وقع لطليحة الاسدي
وقارب بن الاسود وكان لهما في الفتوحات الاسلامية الاثار الشاهدة
بحسن الايمان **واما الرويا** فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية
لمحة من الصور الواقعات فانها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات
فيها موجودة بالفعل كما هو شان الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية
بان تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب
النوم كما نذكر فتقتبس بها علم ما تتشوف اليه من الامور المستقبلة وتعود به
الى مداركها فان كان ذلك الاقتباس ضعيفا غير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال
لتخلصه فيحتاج من اجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون هذا الاقتباس قويا
تستغني فيه عن المحاكاة فلا يحتاج الى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب
في وقوع هذه اللمحة للنفس انها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه
حتى تصير ذاتها تعقلا محضا ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة
بغير شيء من الالات البدنية الا ان نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة

اهل الافق الاعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره
فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه
عام للبشر على العموم وهو امر الرويا واما الذي للانبياء فهو الاستعداد بالانسلاخ
من البشرية الى الملكية المحضة التي هي اعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد
فيهم متكررا في حالات الوحي وهو عند ما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع
من الادراك شبيها بحال النوم شبها بينا وان كان حال النوم ادون منه
بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرويا بانها جزء من ستة واربعين جزءا
من النبوة وفي رواية ثلثة واربعين وفي رواية سبعين وليس العدد في جميعها
مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب بدليل ذكر السبعين
في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه بعضهم في رواية ستة واربعين
من ان الوحي كان مبداه بالرويا ستة اشهر وهي نصف سنة ومدة النبوة
كلها بمكة والمدينة ثلثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء من ستة
واربعين فكلام بعيد عن التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم
ومن اين لنا ان هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع ان ذلك انما يعطي
نسبة زمن الرويا من زمن النبوة ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة
واذا تبين لك هذا مما ذكرناه اولا علمت ان معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاول
الشامل للبشر الى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم
صلوات الله عليهم ثم ان هذا الاستعداد البعيد وان كان عاما في البشر فمعه
عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ومن اعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة
ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتتعرض
النفس عند ارتفاعه الى معرفة ما تتشوف اليه من عالم الحق فتدرك في بعض الاحيان
منه لمحة يكون فيها الظفر بالمقصود ولذلك ما جعلها الشارع من المبشرات فقال
لم يبق من النبوة الا المبشرات قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرويا الصالحة
يراها الرجل الصالح او ترى له **واما** سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما
اصفه لك وذلك ان النفس الناطقة انما ادراكها وافعالها بالروح الحيواني
الجسماني وهو بخار لطيف مركزه في التجويف الايسر من القلب على ما في كتب التشريح
لجالينوس وغيره وينبعث مع الدم في الشريانات والعروق فيعطي الحس والحركة
وسائر الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى الدماغ فيعدل من برده ويتم
افعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك وتعقل بهذا الروح البخاري

وهي متعلقة به بما اقتضته حكمة التكوين في ان اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف
هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار محلا لآثار الذات المباينة له في جسمانيته
وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة في البدن بواسطته وقد كنا قدمنا
ان ادراكها على نوعين ادراك بالظاهر وهو الحواس الخمس وادراك في الباطن
وهو بالقوى الدماغية وان هذا الادراك كله صارف لها عن ادراكها ما فوقها
من ذوات الروحانيات التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت الحواس
الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوهن والفشل بما يدركها من التعب والكلال
وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله طلب الاستجمام لتجدد الادراك على
الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانخناس الروح الحيواني من الحواس
الظاهرة كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن
من البرد بالليل فتطلب الحرارة الغريزية اعماق البدن وتذهب من ظاهره
الى باطنه فتكون مشيعة مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن ولذلك كان
ما كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل فاذا انخنس الروح عن الحواس
الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه
ورجعت الى الصور التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية واكثر
واكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريبا ثم ينزلها الى الحس
المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على انحاء الحواس الخمس وربما التفتت
النفس لفتة الى ذاتها الروحانية مع منازعة القوى الباطنة فتدرك بادراكها
الروحاني لانها مفطورة عليه وتقتبس من صور الاشياء التي صارت متعقلة
في ذاتها حينئذ ثم ياخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة او المحاكاة في
القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة الى التعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل
في صور الحافظة قبل ان تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي اضغاث الاحلام
وفي الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلث رؤيا من الله ورؤيا من الملك
ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلي من الله والمحاكاة
الداعية الى التعبير من الملك واضغاث الاحلام من الشيطان لانها كلها باطل
والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم
وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها احد بل كل
واحد من الاناسي فقد راى في نومه ما صدق له في يقظته مرارا غير مرة واحدة وحصل
له على القطع ان النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد واذا جاز ذلك في عالم

النوم

النوم فلا يمتنع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة
والله الهادي الى الحق

فصل

ووقوع ما يقع من ذلك للبشر انما هو
من غير قصد ولا قدرة عليه وانما تكون النفس متشوفة للشيء فيقع لها بتلك
اللمحة في النوم لا انها تقصد الى ذلك فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره
من كتب اهل الرياضات ذكر اسماء تذكر عند النوم فيكون عنها الرؤيا فيما يتشوف
اليه ويسمونها الحالومية وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومة سماها حالومة
الطباع التام وهي ان يقال عند النوم بعد فراغ السر وصحة التوجه هذه
الكلمات الاعجمية وهي تماغس بعدان يسواد وغداس نوفنا غادس ويذكر
حاجته فانه يرى الكشف عما يسئل عنه في النوم وحكي ان رجلا فعل ذلك بعد
رياضة ليال في ماكله وذكره فتمثل له شخص يقول له انا طباعك التام فسئل واخبره
عما يتشوف اليه وقد وقع لي انا بهذه الاسماء مراء عجيبة واطلعت بها على امور
كنت اتشوف اليها من احوالي وليس ذلك بدليل على ان القصد الى الرؤيا يحدثها
وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوي الاستعداد
كان اقرب لحصول ما يستعد له وللشخص ان يفعل من الاستعداد ما احب ولا يكون
دليلا على ايقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء فاعلم ذلك
وتدبره فيما تجد من امثاله والله الحكيم الخبير

فصل

ثم انا نجد في النوع الانساني
اشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن ساير
الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم
ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين
والناظرين في الاجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب
الحيوانات واكبادها وعظامها واهل الزجر في الطير والسباع واهل الطرق بالحصا
والحبوب من الحنطة والنواة وهذه كلها موجودة في عالم الانسان لا يسع احدا جحدها
ولا انكارها وكذلك المجانين تلقى على السنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك
النايم والميت لاول موته او نومه يتكلم بالغيب وكذلك اهل الرياضة من المتصوفة
لهم مدارك في الغيب على سبيل الكرامة معروفة ونحن الان نتكلم على هذه الادراكات
كلها ونبتدي منها بالكهانة ثم ناتي عليها واحدة واحدة الى اخرها ونقدم على ذلك
مقدمة في ان النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع الاصناف
التي ذكرناها وذلك انها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين ساير الروحانيات
كما ذكرناه قبل وانما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن واحواله وهذا امر مدرك لكل

احد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها
هو عين الادراك والتعقل فهي توجد اولا بالقوة مستعدة للادراك وقبول
الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشوها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها
بورود مدركاته المحسوسة عليها وما تنتزع هي من تلك الادراكات من المعاني
الكلية فتتعقل الصور مرة بعد اخرى حتى يحصل لها الادراك والتعقل صورة بالفعل
فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد
اخرى ولهذا تجد الصبي في اول نشوه لا يقتدر على الادراك الذي لها من ذاتها
لا في نوم ولا بكشف ولا بغيرهما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي
الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل
حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك ادراك بآلات الجسم تؤديه
اليها المدارك البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس
في البدن والحواس وشواغلها لان الحواس ابدا جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت
عليه اولا من الادراك الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب
عن البدن لحظة اما بالخاصية التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم او بالخاصية
الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق او بالرياضة مثل اهل الكشف من الصوفية
فتلتفت الى الذوات التي فوقها من الملأ الاعلى لما بين افقها وافقهم من الاتصال
في الوجود كما قررناه قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول
بالفعل وفيها صور الموجودات وحقايقها كما مر فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس
منها علوما وربما دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة
ثم تراجع الحس بما ادركت اما مجردا او في قوالبه فتخبر به هذا هو شرح استعداد النفس
لهذا الادراك الغيبي ولنرجع الى ما وعدنا به من بيان اصنافه فاما الناظرون في الاجسام
الشفافة من المرايا والطساس والمياه وقلوب الحيوانات واكبادها وعظامها
واهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان الا انهم اضعف رتبة فيهم في اصل
خلقهم لان الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار
المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها واشرفها البصر فيعكف به على المرئي البسيط حتى
يبدو له مدركه الذي يخبر به عنه وربما يظن ان مشاهدة هؤلاء لما يرونه في سطح
المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون في سطح المرآة الى ان تغيب عن
البصر ويبدو فيما بينهم وبين المرآة حجاب كأنه غمام تتمثل فيه صور هي
مدركاتهم فيشير اليهم بالمقصود فيما يتوجهون الى معرفته من نفي او اثبات

فيخبرون

فيخبرون بذلك على نحو ما ادركوه واما المرآة وما يدرك فيها من الصور
فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم بها هذا النوع الاخر من الادراك
وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفساني للحس كما هو
معروف ومثل ذلك للناظرين في قلوب الحيوان واكبادها وللناظرين
في الماء والطساس وامثال ذلك وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور
فقط ثم بالعزايم للاستعداد ثم يخبر عما ادرك ويزعمون انهم يرون متشخصة
في الهواء تحكي لهم احوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال والاشارة وغيبة هؤلاء
عن الحس اخف من الاولين والعالم ابو الغرايب واما الزجر وهو ما يحدث
من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طاير او حيوان والفكر فيه بعد
مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحدس والفكر فيما زجر فيه من مرئي او مسموع
وتكون قوته المتخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه او سمعه فيؤديه
ذلك الى ادراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم وعند ركود الحواس
تتوسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا
واما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد امزجتهم غالبا
وضعف الروح الحيواني فيها فتكون نفسه غير مستغرقة بالحواس ولا منغمسة فيها
بما شغلها في نفسها من الم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية اخرى
شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فاذا اصابه
ذلك التخبط اما لفساد مزاجه من فساد في ذاتها او لمزاحمة من النفوس الشيطانية
في تعلقه غاب عن حسه جملة فادرك لمحة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور
وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك
هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا
الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات الاجنبية كما قررناه ومن ذلك
يجيء الكذب في هذه المدارك واما العرافون فهم المتعلقون بهذا الادراك
وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي يتوجهون اليه
وياخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادي ذلك الاتصال
والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة هذا
تحصيل هذه الامور وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف
تحقيقا ولا اصابة ويظهر من كلام الرجل انه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف
فينقل ما سمع من اهله ومن غير اهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها

في نوع البشر فقد كان العرب يفزعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم فيها بالحق من ادراك غيبهم وفي كتب اهل الادب كثير من ذلك واشتهر في الجاهلية شق من انمار بن نزار وسطيح من مازن بن غسان وكان يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تاويلهما رويا ربيعة بن نصر وما اخبراه من ملك الحبشة لليمن وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة المحمدية في قريش وكذا رويا الموبذان التي اولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فاخبره بشان النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان في العرب منهم كثير وذكروهم في اشعارهم فقال • فقلت لعراف المدينة داوني • فانك ان داويتني لطبيب • وقال اخر جعلت لعراف اليمامة حكمه • وعراف نجد ان هما شفياني • فقالا شفاك الله والله مالنا بما حملت منك الضلوع يدان • وعراف اليمامة هو رياح بن عجلة • وعراف نجد الابلق الاسدي • ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوف اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادي النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كانه مجبول على النطق وغايته ان يسمعه ويفهمه وكذلك ما يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤسهم واوساط ابدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين انهم قتلوا من سجونهم اشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب امورهم في انفسهم فاعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة في كتاب الغاية في مثل ذلك ان ادميا اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه اربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشؤون راسه فيخرج من ذلك الدهن وحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير افعال السحرة لكن تفهم منه عجائب العالم الانساني ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا باماتة جميع القوى البدنية ثم محو اثارها التي تلونت بها النفس وذلك يحصل بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع انه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع بعد الموت وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء اهل الرياضة

السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرف في العوالم واكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا وخصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الجوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة واما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية من هذه المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل اذواق العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالذكر فبها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشات النفس على الذكر كانت اقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب او التصرف لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من اول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب واخسر بها صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من اثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجههم المعبود لا لشيء سواه وان حصل اثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يحفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ ابو اسحق الاسفرائني وابو محمد بن ابي زيد المالكي في اخرين فرارا من التباس المعجزة بغيرها والمعول عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف وقد ثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم عمر وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه يا سارية الجبل وهو سارية بن زنيم كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق ايام الفتوحات وتورط مع المشركين في معترك وهم بالانهزام وكان بقربه جبل يتحيز اليه فوقع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية بمكانه وراى شخصه هنالك والقصة معروفة ووقع مثله ايضا لابي بكر في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شان ما نحلها من اوسق التمر من حديقته ثم نبهها على جداده لتحوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وانما هما اخواك واختاك فقالت انما هي اسماء فمن الاخرى فقال ان ذا بطن بنت خارجة اراها جارية فكانت جارية وقع في الموطا في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين واهل الاقتداء الا ان المتصوفة يقولون

انه نقل في زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حاله بحضرة النبي حتى انهم يقولون ان المريد
اذا جاء الى المدينة النبوية سلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية
ويرشدنا الى الحق **فصل** ومن هؤلاء المريدين المتصوفة قوم
بهاليل معتوهون اشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت
لهم مقامات الولاية واحوال الصديقين وعلم ذلك من احوالهم من يفهم عنهم من اهل
الذوق مع انهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجايب لانهم لا يتقيدون
بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجايب وربما ينكر الفقهاء انهم
على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة
وهذا غلط فانه فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة
ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء
من مواهبه وهؤلاء القوم لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين
وانما فقد لهم العقل الذي يناط به التكليف وهو صفة خاصة للنفس وهي علوم
ضرورية للانسان يشتد بها نظره ويعرف حال معاشه واستقامة منزله وكانه
اذا ميز احوال معاشه لم يبق له عذر في قبول التكاليف لاصلاح معاده وليس من فقد
هذه الصفة بفاقد لنفسه ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل
التكليفي الذي هو معرفة المعاش ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله
عباده للمعرفة على شيء من التكاليف واذا صح ذلك فاعلم انه ربما التبس حال هؤلاء
بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ويلتحقون بالبهايم ولك في تمييزهم
علامات منها ان هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها اصلا من ذكر
وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف والمجانين لا تجد
لهم وجهة اصلا ومنها انهم يخلقون على البله من اول نشأتهم والمجانين يعرض
لهم الجنون بعد برهة من الدهر لعوارض بدنية طبيعية فاذا عرض لهم ذلك
وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم في الناس بالخير
والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين لا تصرف
لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد الى للصواب **فصل**
وقد يزعم بعض الناس ان هنا مدارك اخر للغيب من دون غيبة عن الحس
فمنهم المنجمون القائلون بالدلالة النجومية ومقتضى اوضاعها في الفلك واثارها
في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طبايعها بالتناظر ويتادى من ذلك
المزاج الى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء انما هو ظنون حدسية

وتخمينات

وتخمينات مبنية على التاثير النجومي وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد حدس
يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطلميوس ونحن نبين
بطلان ذلك في محله ان شاء الله تعالى وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين
وليس مما ذكرناه في شيء ومن هؤلاء قوم من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب
وتعرف الكاينات صناعة سموها خط الرمل نسبة الى المادة التي يضعون
فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة انهم صيروا من النقط اشكالا ذات اربع
مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيها فكانت
ستة عشر شكلا لانها ان كانت ازواجا كلها او افرادا فشكلان وان كان الفرد
فيها في مرتبة واحدة فقط فاربعة اشكال وان كان الفرد في مرتبتين فستة
اشكال ان كان الفرد في ثلث مراتب فاربعة اشكال جاءت ستة عشر شكلا
ميزوها باسمائها ونوعوها الى سعود ونحوس شان الكواكب وجعلوا لها ستة
عشر بيتا طبيعية بزعمهم وكانها البروج الاثني عشر التي للفلك والاوتاد الاربعة
وجعلوا لكل شكل بيتا وخطوطا ودلالة على صنف من عالم العناصر يختص به
واستنبطوا من ذلك فنا حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه الا ان احكام
النجامة مستندة الى دلالات طبيعية كما زعم بطلميوس وهذه انما دلالتها وضعية
وذلك ان بطلميوس انما تكلم في المواليد والقرانات التي هي عنده من اثار
الكواكب والاوضاع الفلكية في عالم العناصر وتكلم المنجمون من بعده في المسائل
باستخراج الضماير وتقسيمها على بيوت الفلك والحكم عليها باحكام ذلك البيت
النجومية وهي التي ذكر بطلميوس ح اعلم ان الضماير علوم نفسية ليست من عالم العناصر
فليست من عالم الكواكب ولا الاوضاع الفلكية ولا دلالة لها عليها نعم انه صار
لفن المسائل مدخل في صناعة النجامة من حيث الاستدلال بالكواكب والاوضاع
الا انه في غير مدلوله الطبيعي فلما جاء اهل الخط عدلوا عن الكواكب والاوضاع
استصعابا لمعاناة الارتفاع بالالات وتعديل الكواكب بالحسبان واستخرجوا
هذه الاشكال والخطوط وفرضوها ستة عشر بيتا من بيوت الفلك واوتاده
ونوعوها الى سعد ونحس وممتزج شان الكواكب السيارة واقتصروا على التدليس
من المناظرة ونزلوا الاحكام النجومية عليها كما في المسائل لان دلالة كل منهما غير طبيعية
كما قدمناه وانتحل هذه الصناعة كثير من البطالين للمعاش في المدن وصنفوا فيها
التصانيف المحصلة لقواعدها واصولها كما فعله الزناتي منهم وغيره وقد يكون من اهل
هذه الصناعة من يتعرض بها لادراك الغيب باشتغال الحس بالنظر في اشكال

تلك الخطوط فتعتريه حالة الاستعداد كما تعتري المفطورين على ذلك كما نذكره بعد
وهولاء اشرف اهل هذه الصناعة وهم على الجملة يزعمون ان اصل ذلك من النبوات
القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال او الى ادريس صلوات الله عليهما
شان الصنايع كلها وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون لذلك بقوله صلى الله عليه
وسلم كان نبي يخط فمن وافق خطه فذلك وليس في الحديث دليل على مشروعية خط
الرمل كما يزعمه بعضهم لان معنى الحديث كان نبي يخط فياتيه الوحي عند ذلك الخط
ولا استحالة في ان يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فانهم صلوات الله عليهم متفاوتون
في ادراك الوحي قال الله تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض فمنهم من ياتيه
الوحي ويكلمه الملك ابتداء من غير طلب ولا وجهة لذلك ومنهم من يتوجه فيما يعرض
له من امور البشر بسؤال الله عن مشكل وتكليف او نحو ذلك فيتوجه وجهة
ربانية يتعرض بها الكشف ما يريد من ذلك من الله ويعطي التقسيم هنا قسمان اخران
وجدان الوحي قد يكون وهو لا يستعد له بشيء من الاحوال كالذي ذكرناه وقد يكون
وهو مستعد ببعض الاحوال كما نقل في الاسرائيليات ان بعض الانبياء كان
يستعد لنزول الوحي بسماع الاصوات الطيبة الملحنة وهذا النقل وان لم يكن
متمكنا في الصحة الا انه غير بعيد فان الله تعالى يخص انبياءه ورسله بما يشاء واذا تقرر
ذلك وقد كنا قدمنا ان في اصحاب خط الرمل من يتعرض للكشف به باشغال
الحس بالنظر في تلك الخطوط والاشكال فيعتريه ريح الكشف الغيبي الوجداني بالتفرغ عن
الحس جملة ويفارق المدارك البشرية الى المدارك الروحانية وقدمنا تفسيرهما
وهذا نوع من الكهانة من انواع النظر في العظام والمياه والمرايا بخلاف من يقتصر
في ذلك منها على الامر الصناعي الذي يحصل به على الغيب بالحدس والتخمين وهو
لم يفارق المدارك الجسمانية بعد جائلا في مرامي الظنون فقد يكون شان
بعض الانبياء الاستعداد بالخط في مقامه النبوي لخطاب الملك كما يستعد
به من ليس بنبي للادراك الروحاني ومفارقة المدارك البشرية الا ان ادراكه
روحاني فقط وادراك النبي ملكي بالوحي من عند الله واما مقامات اهل صناعة
الخط في مدارك الحس والتخمين فحاشى للانبياء منها فانهم لا يشرعون التكلم بالغيب
ولا الخوض فيه لاحد من البشر وقوله في الصحيح فمن وافق خطه فذاك اي فهو
صحيح من بين الخط بما عضده من الوحي لذلك النبي الذي كانت عادته ان ياتيه
الوحي عند الخط وتكون الاشارة بذلك الى تعظيمه وعلو شانه في اتخاذ خطوط
الرمل بل لا نسبة بينه وبينها اذ كان فرع ذلك الوجه الذي كان للنبي يستعد به

للوحي

للوحي فياتي على وفاته واذا اخذ ذلك عن الخط مجردا من غير موافقة وحي فلا صحة
فيه وهذا معنى الحديث والله اعلم وليس فيه دلالة على مشروعية خط الرمل ولا جواز
انتحاله للتعرف الغيب كما هو شان اهله في المدن وان مال الى ذلك بعضهم بناء
على ان فعل النبي شريعة متبعة فيكون مشروعا على مذهب من يرى ان شرع من قبلنا
شرع لنا وليس هذا بمطابق لذلك فان الشرع انما هو للرسل المشرعين للامم
والحديث لم يدل على ذلك وانما دل على ان هذه الحالة قد تحصل لبعض الانبياء ويحتمل
ان يكون غير مشروع فلا يكون ذلك شرعا لا خاصا بامته ولا عاما لهم ولغيرهم
وانما يدل على انها حالة تقع لبعض الانبياء خاصة به فلا تتعداه للبشر وهذا اخر ما اردنا
تحقيقه هنا والله الملهم للصواب **فاذا ارادوا** استخراج مغيب بزعمهم عمدوا
الى قرطاس او رمل او دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب الاربعة
ثم كرروا ذلك اربع مرات فتجيء ستة عشر سطرا ثم يطرحون النقط ازواجا و
يضعون ما بقي من كل سطر زوجا كان او فردا في مرتبته على الترتيب فتجيء اربعة
اشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها اربعة اشكال اخرى من جانب
العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذي بازائه وما يجتمع فيهما من زوج
او فرد فتكون ثمانية اشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين
شكلا تحتهما باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مراتب الشكلين ايضا من زوج
او فرد فتكون اربعة اخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتهما
ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتهما ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول
شكلا يكون اخر الستة عشر ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته اشكاله من السعودة
والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على اصناف الموجودات
وساير ذلك تحكما غريبا وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها
التواليف واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتاخرين وهي كما رايت
تحكم وهوى **والتحقيق** الذي ينبغي ان يكون نصب فكرك ان الغيوب
لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من البشر المفطورين
على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمي المنجمون هذا الصنف
كلهم بالزهريين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في اصل مواليدهم
على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من اهل هذه
الخاصية وقصده بهذه الامور التي ينظر فيها من النقط والعظام او غيرها
اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة فهو من باب الطرق

بالحصا والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن
كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة فهذر من القول والعمل والله
يهدي من يشاء والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها اهل هذا الادراك
الغيبي انهم عند توجههم الى تعرف الكاينات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية
كالتثاؤب والتمطط ومبادي الغيبة عن الحس وتختلف ذلك بالقوة
والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من ادراك
الغيب في شيء وانما هو ساع في تنفيق كذبه **فصل** ومنهم طوايف
يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو مدارك
النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس
ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما هي مغالط يجعلونها
كالمصايد لاهل العقول المستضعفة ولست اذكر من ذلك الا ما ذكره المصنفون
وولع به الخواص فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو
مذكور في اخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف به الغالب من المغلوب
في المتحاربين من الملوك وهو ان يحسب الحروف التي في اسم احدهما بحساب
الجمل المصطلح عليه في حروف ابجد من الواحد الى الالف احادا وعشرات ومئين
والوفا فاذا حسب الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم
اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين
الباقيين من حساب الاسمين فان كانا مختلفين في الكمية وكانا معا زوجين
او فردين فصاحب الاقل منهما هو الغالب وان كان احدهما زوجا والاخر
فردا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معا زوجان
فالمطلوب هو الغالب وان كانا معا فردين فالطالب هو الغالب ونقل
هنالك بيتين وهما ارى الزوج والافراد يسمو اقلها واكثرها عند التخالف غالب
ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوي وعند استواء الفرد يغلب طالب
ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانونا معروفا عندهم في طرح
تسعة وذلك بان يجمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الاربع
وهي **ا** الدالة على الواحد و **ي** الدالة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات
و **ق** الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين و **ش** الدالة على الالف
وهي واحد في مرتبة الالاف وليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف
لان الشين هي اخر حروف ابجد ثم رتبوا هذه الحروف الاربعة على نسق

المراتب فكان منها كلمة رباعية وهي **ايقش** ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة
على اثنين في المراتب الثلاث واسقطوا مرتبة الالاف منها لانها كانت اخر حروف
ابجد فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب ثلثة حروف وهي **ب** الدالة
على اثنين في الاحاد و **ك** الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و **ر** الدالة
على اثنين في المئين وهي مائتان وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب
وهي **بكر** ثم فعلوا كذلك في الحروف الدالة على ثلثة فنشات عنها كلمة
جلس وكذلك الى اخر حروف ابجد وصارت تسع كلمات نهاية عدد الاحاد
وهي ايقش بكر جلس دمت هنث وصخ زعذ حفظ طضغ مرتبة على توالي
الاعداد ولكل كلمة منها عددها الذي في مرتبته فالواحد لكلمة ايقش والاثنان
لكلمة بكر والثلثة لكلمة جلس وكذلك الى التاسعة التي هي طضغ فيكون لها
فاذا ارادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في اي كلمة هو من هذه الكلمات
واخذوا عددها مكانه ثم يجمعون الاعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم
فان كانت على التسعة اخذوا ما فضل عنها والا اخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك
بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين كما قدمناه **والسر** في هذا القانون بين
وذلك ان الباقي في كل عقد من عقود الاعداد بعد طرح تسعة انما هو واحد فكأنه
يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت اعداد العقود كانها
احاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والالفين وكلها اثنان
وكذلك الثلثة والثلثون والثلثمائة والثلاثة الاف كلها ثلثة فوضعت
الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة على
اصناف العقود في كل كلمة من الاحاد والعشرات والمئين والالاف فيؤخذ
عدد كل كلمة عوضا من الحروف التي فيها وتجمع كلها الى اخرها كما قلناه هذا هو العمل
المتداول بين الناس فيها منذ الامر القديم وكان بعض من لقيناه من شيوخنا
يرون ان الصحيح فيها كلمات اخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ويفعلون
بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالاخرى سواء وهي هذه ارب يسقك جزلط
مدوص هف تحذن عش خع ثضظ تسع كلمات على توالي العدد وفيها الثلاثي
والرباعي والثنائي وليست جارية على اصل مطرد كما تراه لكن كان شيوخنا ينقلونها
عن شيخ المغرب في هذه المعارف من النجامة والسيميا واسرار الحروف وهو ابو العباس
ابن البناء ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم
اصح من العمل بكلمات ايقش والله اعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب

غير مستندة الى برهان ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو
الى ارسطو عند المحققين لما فيه من الاراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد
لك بذلك فتصفحه ان كنت من اهل الرسوخ **ومن هذه** القوانين الصناعية
لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة زايرجة العالم المعزوة الى ابي
العباس السبتي من اعلام المتصوفة بالمغرب كان في اخر المائة السادسة بمراكش
ولعهد يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صنعة وكثير
من الخواص يولعون بافادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز فيحرصون لذلك
على حل رموزه وكشف غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دايرة
عظيمة في داخلها دواير متوازية منها للافلاك وللعناصر وللمكونات وللروحانيات
ولغير ذلك من اصناف الكاينات والعلوم وكل دايرة مقسومة باقسام
فلكها اما البروج واما العناصر واما غيرهما وخطوط كل قسم مارة الى المركز ويسمونها
الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برسوم الزمام التي
هي اشكال الاعداد عند اهل الدواوين والحسبان بالمغرب لهذا العهد ومنها
برسوم الغبار المتعارفة الزايرجة وبين الدواير اسماء العلوم ومواضع
الاكوان وعلى ظهر الدواير جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولا وعرضا
يشتمل على خمسة وخمسين بيتا في العرض ومائة واحدى وثلثين في الطول جوانب
منه معمورة البيوت تارة بالعدد واخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت
ولا تعلم نسبة تلك الاعداد في اوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت
العامرة من الخالية وحفافي الزايرجة ابيات من عروض الطويل على روي اللام
المنصوبة يتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة
الا انها من قبيل الالغاز في عدم الوضوح والجلاء وفي بعض جوانب الزايرجة
بيت من الشعر منسوب لبعض اكابر اهل الحدثان بالمغرب وهو مالك
بن وهيب من علماء اشبيلية كان في الدولة اللمتونية ونص البيت سؤال
عظيم الخلق حزت فصن اذا غرايب شك ضبطه الجد مثلا وهو البيت
المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه الزايرجة وغيرها
فاذا ارادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل كتبوا ذلك
السؤال وقطعوه حروفا ثم اخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك
ودرجها وعمدوا الى الزايرجة ثم الى الوتر المكتنف فيها بالبرج الطالع
من اوله مارا الى المركز ثم الى المحيط الدايرة قبالة الطالع فياخذون جميع

الحروف

الحروف المكتوبة عليه من اوله الى اخره والاعداد المرسومة بينها ويصيرونها
حروفا بحساب الجمل وقد ينقلون احادها الى العشرات وعشراتها الى المئين
وبالعكس فيهما كما يقتضيه قانون العمل عندهم ويضعونها مع حروف السؤال
ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتنف بالبرج الثالث من الطالع من الحروف
والاعداد من اوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى المحيط ويفعلون في الاعداد
ما فعلوه في الاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم يقطعون حروف البيت
الذي هو اصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم
الذكر ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في اس البرج واسه عندهم
هو بعد البرج عن اخر المراتب عكس ما عليه الاس عند اهل صناعة الحساب فانه
عندهم البعد عن اول المراتب ثم يضربونه في عدد اخر يسمونه الاس الاكبر والدور
الاصلي ويدخلون بما يجتمع لهم من ذلك في بيوت الجدول على قوانين معروفة
واعمال مذكورة وادوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون اخرى
ويقابلون بما معهم من حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف
السؤال وما معها ثم يطرحون تلك الحروف باعداد معلومة يسمونها الادوار
ويخرجون في كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور ويعاودون ذلك بعدد
الادوار المعينة عندهم لذلك فيخرج اخرا حروف متقطعة وتولف على التوالي
فتصير كلمات منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل
ورويه وهو بيت مالك ابن وهيب المتقدم حسب ما يذكر ذلك كله في فصل
العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايرجة وقد راينا من الخواص يتهافتون على استخراج
الغيب منها بتلك الاعمال ويحسبون ان ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال
في توافق الخطاب دليل على مطابقة الواقع وليس كذلك بصحيح لانه قد مر لك
ان الغيب لا يدرك بامر صناعي البتة وانما المطابقة التي فيها بين الجواب
والسؤال من حيث الافهام والتوافق في الخطاب حتى يكون الجواب مستقيما او موافقا
للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تكسير الحروف المجتمعة من السؤال
والاوتار والدخول في الجدول بالاعداد المجتمعة من ضرب الاعداد المفروضة
واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح اخرى ومعاودة ذلك
في الادوار المعدودة ومقابلة ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير مستنكر
وقد يقع الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيقع له
معرفة المجهول منها فالتناسب بين الاشياء هو سر الحصول على المجهول

من المعلوم الحاصل للنفس وطريق حصوله سيما من اهل الرياضة فانها تفيد العقل قوة على القياس وزيادة في الفكر وقد مر لك تعليل ذلك غير مرة ومن اجل هذا المعنى ينسبون هذه الزايرجة لاهل الرياضة في الغالب فهذه منسوبة للسبتي ووقفت على اخرى منسوبة لسهل بن عبد الله ولعمري انها من الاعمال الغريبة والمعاياة العجيبة والجواب الذي يخرج منها فالسر في خروجه منظوما على ما يظهر لي انما هو المقابلة بحروف ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويدل عليه انا وجدنا اعمالا اخرى لهم في مثل ذلك اسقطوا فيه المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراه عند الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا العمل ونفوذه الى المطلوب فينكر صحتها ويحسب انها من التخيلات والايهامات وان صاحب العمل بها يثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين اثنا حروف السوال والاوتار ويفعل تلك الصناعة على غير نسبة ولا قانون ثم يجي بالبيت ويوهم ان العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد حمل عليه القصور عن فهم التناسب بين الموجودات والمعلومات والتفاوت بين المدارك والعقول ولكن من شان كل مدرك ان ينكر ما ليس في طوقه ادراكه ويكفينا في رد ذلك مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحدس القطعي بانها جاءت بعمل مطرد [illegible] قانون صحيح ولا مرية فيه عند من يباشر ذلك ممن له مزيد ذكاء وحدس واذا كان كثير من المعاياة في العدد والذي هو اوضح الواضحات يعسر على الفهم ادراكه لبعد النسبة فيه وخفائها فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسئلة من المعاياة يتضح لك بها شيء مما ذكرناه مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاء كل درهم ثلثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي اخذت واشتر بها طايرا ثم اشتر بالدراهم كلها طيورا بسعر ذلك الطاير فكم الطيور المشتراة فجوابه ان تقول هي تسعة لانك تعلم ان فلوس الدرهم ثلثة وعشرون وان الثلاثة ثمنها وان عدة اثمان الواحد ثمانية فكانك جمعت الثمن من كل درهم الى الثمن من الاخر فكان كله ثمن طاير فهي ثمانية طيور عدة اثمان الواحد ونزيد على الثمانية طايرا وهو المشترى بالفلوس الماخوذ اولا وعلى سعره اشتريت بالدراهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين اعداد المسئلة والوهم اول ما يلقى اليك هذه وامثالها انما يجعله من قبيل الغيب لا يمكن معرفته فظهر

ان التناسب بين الامور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا الظاهر في الواقعات الحاصلة في الوجود او العلم واما الكاينات المستقبلة اذا لم يعلم اسباب وقوعها ولا ثبت لنا خبر صادق عنه فهو غيب لا يمكن معرفته فاذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعة في هذه الزايرجة كلها انما هي في استخراج الفاظ الجواب من الفاظ السوال لانها كما رايته استنباط حروف على ترتيب تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو من تناسب بينها يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تيسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع الفاظه وتراكيبه على وقوع احد طرفي السوال من نفي او اثبات وليس هذا من المقام الاول بل انما يرجع الى مطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محجوبون وقد استاثر الله بعلمه والله يعلم وانتم لا تعلمون والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ورضي الله عن الصحابة اجمعين

الفصل الثاني في العمران البدوي والامم الوحشية وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتمهيدات

فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية

اعلم ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي فمنهم من ينتحل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهولاء القايمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هولاء بالبدو امرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجات معاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك

ثم اذا اتسعت احوال هولاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة
من الغنى والرفه دعاهم ذلك الى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة
واستكثروا من الاقوات والملابس والتانق فيها وتوسعة البيوت واختطاط
المدن والامصار للتحضر ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتجي عوائد الترف البالغة
مبالغها في التانق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة
في انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح واحكام
وضعها في تنجيدها والانتهاء بالصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها
فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون
في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس او فراش او انية
او ماعون ومن هولاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم
انمى وارفه من اهل البدو لان احوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على
نسبة واحدة فقد تبين ان اجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلناه

فصل في ان جيل العرب في الخليقة طبيعي

قد قدمنا في الفصل قبله ان اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام
على الانعام وانهم مقتصرون على الضروري من الاقوات والملابس والمساكن
وسائر الاحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي او كمالي
يتخذون البيوت من الشعر والوبر او الشجر او من الطين والحجارة غير منجدة انما هو
قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقد ياوون الى الغيران والكهوف
واما اقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج او بغير علاج البتة الا ما مسته النار فمن كان
معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به اولى من الظعن وهو لا سكان
المداشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه في السائمة
من الغنم والبقر فهم ظواعن في الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيوانهم و
اذ التقلب في الارض اصلح ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاء والبقر
ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة به وهولاء مثل البربر والترك
واخوانهم من التركمان والصقالبة واما من كان معاشهم في الابل فهم اكثر
ظعنا وابعد في القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا تستغني
الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب
فصل الشتاء في نواحيه فرارا من اذى البرد الى دفء هوائه وطلبا لمفاحص
النتاج في رماله اذ الابل اصعب الحيوان فصالا ومخاضا واحوجها في ذلك

الى دف

الى دفء فاضطروا الى ابعاد النجعة وربما ذادتهم الحامية عن التلول
ايضا فاوغلوا في القفار نفرة عن النصفة منهم والجزاء بعدوانهم فكانوا لذلك
اشد الناس توحشا وينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه
والمفترس من الحيوانات العجم وهولاء هم العرب وفي معناهم ظواعن البربر
وزناتة بالمغرب والتركمان والترك بالمشرق الا ان العرب ابعد نجعة واشد
بداوة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهولاء يقومون عليها وعلى الشاء
والبقر معها فقد تبين لك ان جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله الخلاق
العليم

فصل في ان البدو اقدم من الحضر وسابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدد لها

قد ذكرنا ان البدو هم المقتصرون على الضروري
في احوالهم العاجزون عما فوقه وان الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال
في احوالهم وعوائدهم ولا شك ان الضروري اقدم من الحاجي والكمالي
وسابق عليه وكان الضروري اصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبدو اصل للمدن
والحضر سابق عليها لان اول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي الى الترف
والكمال الا اذا كان الضروري حاصلا فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا
نجد التمدن غاية للبدوي يجري اليها وينتهي بسعيه اليها ومتى حصل على الرياش
الذي يحصل له به احوال الترف وعوائده عاج الى الدعة وامكن نفسه من قياد
المدينة وهكذا شان القبائل المتبدية كلهم والحضري لا يتشوف الى احوال
البادية الا لضرورة تدعوه اليها او لتقصير عن احوال مدينته ومما يشهد
لنا ان البدو اصل للحضر ومتقدم عليه انا اذا فتشنا اهل مصر من الامصار
وجدنا اولية اكثرهم من اهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وانهم
ايسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك
يدل على ان احوال الحضارة ناشئة عن احوال البداوة وانها اصل لها فتفهمه
ثم ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حي اعظم
من حي وقبيلة اعظم من قبيلة ومصر اوسع من مصر ومدينة اكثر عمرانا من مدينة
فقد تبين ان وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار واصل لها
بما ان وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متاخرة
عن عوائد الضرورة المعاشية

فصل في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول
ما يرد عليها وينطبع فيها من خير او شر قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة

فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه وبقدر ما يسبق اليها من احد الخلقين
يبعد عن الاخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه
عوايد الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب
الشر اذا سبقت اليه ايضا عوايده واهل الحضر لكثرة ما يعانونه من فنون
الملاذ وعوايد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها
قد تلوثت انفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق
الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب
الحشمة في احوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم وبين
كبرائهم واهل محارمهم لا يصدهم عنه وازع الحشمة لما اخذتهم به عوايد السوء
في التظاهر بالفواحش قولا وعملا واهل البدو وان كانوا مقبلين على الدنيا
مثلهم الا انه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من اسباب اللذات
والشهوات ودواعيها فعوايدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم
من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة الى اهل الحضر اقل بكثير فهم
اقرب الى الفطرة الاولى وابعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات
بكثرة العوايد المذمومة وقبحها فتحصل علاجهم عن علاج الحضر وهو ظاهر وقد توضح
فيما بعد ان الحضارة هي نهاية العمران وخروجه الى الفساد ونهاية الشر والبعد
عن الخير **فقد تبين** ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر والله يحب
المتقين ولا يعترض على ذلك بما ورد في حديث البخاري من قول الحجاج
لسلمة بن الاكوع وقد بلغه انه خرج الى سكنى البادية فقال له ارتددت ٤٠
على عقبيك تعربت فقال لا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذن لي في البدو
فاعلم ان الهجرة افترضت اول الاسلام على اهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله
عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه ويظاهرونه على امره ويحرسونه ولم تكن
واجبة على الاعراب اهل البادية لان اهل مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله
عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم من بادية الاعراب وقد كان
المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية حيث
لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث ابن ابي وقاص عند مرضه بمكة
اللهم امض لاصحابي هجرتهم ولا تردهم على اعقابهم ومعناه ان يوفقهم
لملازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدؤا بها وهو
من باب الرجوع على العقب في السعي الى وجه من الوجوه وقيل ان ذلك

كان خاصا بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية الى الهجرة لقلة المسلمين واما بعد
الفتح وحين كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله لنبيه بالعصمة من الناس فان الهجرة
ساقطة ح لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح قيل سقط انشاؤها عمن يسلم
بعد الفتح وقيل سقط وجوبها عمن اسلم وهاجر قبل الفتح والكل مجمعون على انها
بعد الوفاة ساقطة لان الصحابة افترقوا من يومئذ في الافاق وانتشروا
ولم يبق الا فضل السكنى بالمدينة وهو هجرة فقول الحجاج لسلمة حين سكن
البادية ارتددت على عقبيك تعربت نعى عليه ان ترك السكنى بالمدينة
بالاشارة الى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو قوله ولا تردهم على اعقابهم
وبقوله تعربت الى انه صار من الاعراب الذين لا يهاجرون واجاب
سلمة بانكار ما الزمه من الامرين وان النبي صلى الله عليه وسلم اذن له في البدو
ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمة وعناق ابي بردة او يكون الحجاج انما نعى
عليه ترك السكنى بالمدينة فقط لعلمه بسقوط الهجرة بعد الوفاة واجابه سلمة
بان اغتنامه لاذن النبي صلى الله عليه وسلم اولى وافضل فما آثره به واختصه
الا لمعنى علمه فيه وعلى كل تقدير فليس فيه دليل على مذمة البدو الذي عبر عنه
بالتعرب لان مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه
وحراسته لا لمذمة البدو فليس في النعي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل
على مذمة التعرب والله اعلم

فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب في ذلك ان الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة
وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا امرهم في المدافعة عن اموالهم وانفسهم
الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستناموا
الى الاسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم لا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم
صيد غارون امنون قد القوا السلاح وربيت على ذلك منهم الاجيال
وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على ابي مثواهم حتى صار ذلك
خلقا يتنزل منزلة الطبيعة واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي
وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة
عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم وانما يحملون
السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غرارا
في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتوجسون للنبات والهيعات
ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بانفسهم

قد صار لهم الباس خلقا والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داع او استنفرهم
صارخ واهل الحضر مهما خالطوهم في البادية او صاحبوهم في السفر عيال عليهم
لا يملكون معهم شيئا من امر انفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي
والجهات وموارد الماء ومشارع السبل وسبب ذلك ما شرحناه واصله ان الانسان
ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي الفه من الاحوال حتى صار
له خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة واعتبر ذلك في الادميين
تجده كثيرا صحيحا والله يخلق ما يشاء

فصل في ان معاناة اهل الحضر للاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم

وذلك انه ليس كل احد مالك امر نفسه اذ الرؤساء والامراء المالكون
لامر الناس قليل بالنسبة الى غيرهم فمن الغالب ان يكون الانسان في ملكة
غيره ولا بد فان كانت الملكة رفيقة وعادلة لا يعاني منها حكم ولا منع وصد
كان من تحت يدها مدلين بما في انفسهم من شجاعة او جبن واثقين بعدم
الوازع حتى صار لهم الادلال جبلة لا يعرفون سواها واما اذا كانت الملكة
واحكامها بالقهر والسطوة فتكسر حينئذ من سورة باسهم وتذهب المنعة منهم
لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة كما نبينه وقد نهى عمر سعدا رضي
الله عنهما عن مثلها لما اخذ زهرة بن حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة
وسبعين الفا من الذهب وكان اتبع الجالنوس يوم القادسية فقتله واخذ
سلبه فانتزعه منه سعد وقال لم تنتظرت في اتباعه اذني وكتب الى عمر
يستاذنه فكتب اليه عمر تعمد الى زهرة وقد صلى بما صلى به وبقي عليك ما بقي
من حربك فتكسر قرنه وتفسد قلبه وامضى له عمر سلبه واذا كانت الاحكام
بالعقاب فمذهبة للباس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه
يكسبه المذلة التي تكسر من سورة باسه بلا شك واما اذا كانت الاحكام تاديبية
وتعليمية واخذت من عهد الصبا اثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة
والانقياد فلا يكون مدلا بباسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب اهل البدو
اشد باسا ممن تاخذه الاحكام ونجد ايضا الذين يعانون الاحكام وملكتها من لدن
مرباهم في التاديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص
ذلك من باسهم كثيرا ولا يكادون يدافعون عن انفسهم عادية بوجه من الوجوه
وهذا شان طلبة العلم المنتحلين للقراءة والاخذ عن المشايخ والائمة الممارسين
للتعليم والتاديب في مجالس الوقار والهيبة فتفيهم هذه الاحوال وذهابها

بالمنعة

بالمنعة والباس ولا تستنكرن ذلك بما وقع في الصحابة من اخذهم باحكام
الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من باسهم بل كانوا اشد الناس باسا
لان الشارع صلوات الله عليه لما اخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم من انفسهم
لما تلا عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم صناعي ولا تاديب تعليمي انما هي
احكام الدين وادابه المتلقاة نقلا ياخذون انفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد
الايمان والتصديق فلم تزل سورة باسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها
اظفار التاديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا ادبه الله حرصا
على ان يكون الوازع لكل احد من نفسه ويقينا بان الشارع اعلم بمصالح العباد
ولما تناقص الدين في الناس واخذوا بالاحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة
يؤخذ بالتعليم والتاديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام
نقصت بذلك سورة الباس فيهم فقد تبين ان الاحكام السلطانية و
التعليمية مفسدة للباس لان الوازع فيها اجنبي واما الشرعية فغير مفسدة
لان الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر
في اهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتها في وليدهم وكهولهم
والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن احكام السلطان والتعليم والاداب
ولهذا قال محمد بن ابي زيد في كتابه في احكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب
ان يضرب احدا من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة اسواط نقله عن شريح
القاضي واحتج له شريح بما وقع في حديث بدء الوحي من شان الغط وانه كان
ثلاث مرات وهو ضعيف ولا يصلح شان الغط ان يكون دليلا على ذلك
لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

فصل في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل اهل العصبية

اعلم ان الله سبحانه ركب
في طبائع البشر الخير والشر كما قال الله تعالى وهديناه النجدين وقال فالهمها فجورها
وتقواها فالشر اقرب الخلال اليه اذا اهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء
بالدين وعلى ذلك الجم الغفير الا من وفقه الله ومن اخلاق البشر فيهم الظلم
والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع اخيه امتدت
يده الى اخذه الا ان يصده وازع كما قال والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم فاما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض
تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على ايدي من تحتهم من الكافة ان يمتد بعضهم
الى بعض او يعدو عليه فهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم

الا اذا كان من الحاكم بنفسه واما العدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه
سياج الاسوار عند الغفلة او الغرة ليلا او العجز عن المقاومة نهارا او يدفعه
ذياد الحامية من اعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة واما احياء
البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم
من الوقار والتجلة واما حللهم فانما يذود عنها من خارج حامية الحي من انجادهم
وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا
عصبية واهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نعرة
كل احد على نسبه وعصبيته اهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة
والنعرة على ذوي ارحامهم وقرباهم موجودة في الطباع البشرية وبها يكون
التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم واعتبر ذلك فيما حكاه القران
عن اخوة يوسف حين قالوا لابيه لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون
والمعنى انه لا يتوهم العدوان على احد مع وجود العصبية له واما المنفردون في انسابهم
فقل ان تصيب احدا منهم نعرة على صاحبه فاذا اظلم الجو بالشر يوم الحرب
تسلل كل احد منهم يبغي النجاة بنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون
من اجل ذلك على سكنى القفر لما انهم طعمة لمن يليهم من الامم سواهم واذا تبين
في السكنى التي تحتاج الى المدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل امر يحمل الناس
عليه من نبوة او اقامة ملك او دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم
بالقتال عليه لما في طباع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية
كما ذكرناه انفا فاتخذه اماما تقتدي به فيما نورده عليك من بعد والله الموفق

فصل في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وذلك ان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ومن صلتها النعرة على ذوي
القربى واهل الارحام ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة فان القريب يجد
في نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين
ما يصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان
النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الالتحام والاتحاد
كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد
النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي
نسبه بالامر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم
من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والحلف اذ نعرة

كل

كل احد على اهل ولائه وحلفه للانفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها
او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل
لحمة النسب او قريبا منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا
من انسابكم ما تصلون به ارحامكم بمعنى ان النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي
يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة وما فوق ذلك مستغنى عنه
اذ النسب امر وهمي لا حقيقة له ونفعه انما هو في هذه الوصلة والالتحام فاذا كان
ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلناه واذا كان انما يستفاد
من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته وصار الشغل به مجانا ومن اعمال
اللهو المنهي عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر
بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة
الوهم فيه عن النفس وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة
فيه والله اعلم

فصل في ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وذلك لما اختصوا به من نكد العيش
وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة
وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل ونتاجها ورعايتها والابل تدعوهم
الى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في رماله كما تقدم والقفر مكان
الشظف والسغب فصار لهم الفا وعادة وربيت فيه اجيالهم حتى تمكنت
خلقا وجبلة فلا ينزع اليهم احد من الامم ان يساهمهم في احوالهم ولا يانس
بهم احد من الاجيال بل لو وجد واحد منهم الفرار من حاله وامكنه ذلك لما تركه
فيؤمن عليهم لاجل ذلك اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظة
صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني اسد وهذيل
ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا اهل شظف ومواطن غير ذات زرع
ولا ضرع و وامن ارياف الشام والعراق ومعادن الادم والحبوب
كيف كانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيها شوب
واما العرب الذين كانوا بالتلول في معادن الخصب للمراعي والعيش
من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطي وقضاعة واياد فقد اختلطت
انسابهم واختلطت شعوبهم ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس
ما تعرف وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة
على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا للعرب فقط قال عمر تعلموا

النسب ولا يكونوا كنبط السواد اذا سئل احدهم عن اصله قال من قرية
كذا هذا الى ما لحق هولاء العرب اهل الارياف من الازدحام مع الناس
على البلد الطيب والمراعي الخصبة فكثر الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان
وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق
جند العواصم وانتقل ذلك الى الاندلس ولم يكن لاطراح العرب امر النسب
وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة
زائدة على النسب يتميزون بها عند امرائهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم
وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت
ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها وبقي ذلك في البدو
كما كان والله وارث الارض ومن عليها **فصل في اختلاط الانساب**
كيف يقع انه من البين ان بعضا من اهل الانساب يسقط
الى اهل نسب اخر بنزوع اليهم او حلف او ولاء او لفرار من قومه بجناية
اصابها فيدعى بنسب هولاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات
وساير الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب فكانه وجد لانه لا معنى لكونه من هولاء
او من هولاء الا جريان احكامهم واحوالهم عليه وكانه التحم بهم ثم انه قد يتناسى
النسب الاول بطول الزمان ويذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر وما زالت الانساب
تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين في الجاهلية والاسلام والعرب
والعجم وانظر خلاف الناس في نسب ال المنذر وغيرهم تتبين شيا من ذلك
ومنه شان بجيلة في عرفجة ابن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسالوه الاعفاء منه
وقالوا هو فينا نزيف اي دخيل ولصيق وطلبوا ان يولي عليهم جريرا فسأله عمر
عن ذلك فقال عرفجة صدقوا يا امير المؤمنين انا رجل من الازد اصبت
دما في قومي ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرفجة ببجيلة ولبس جلدتهم
ودعي بنسبهم حتى ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بوشايجه ولو غفلوا
عن ذلك وامتد الزمن خليقة ومثل هذا الكثير لهذا العهد ولما قبله من العهود
فصل في ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم
وذلك ان الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصبية
كما قدمناه فلا بد في الرياسة على القوم ان تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم
واحدة واحدة لان كل عصبية منهم اذا احست بغلب عصبية الرئيس
لهم اقروا بالاذعان والاتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية

فيهم

فيهم بالنسب انما هو ملصق زنيف وغايته التعصب له بالولاء والحلف
وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة وان فرضنا انه قد التحم بهم واختلط بهم
وتنوسي عهده الاول من الالصاق ولبس جلدتهم ودعي بنسبهم فكيف له
الرياسة قبل هذا الالتحام او لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون
متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية فالاولية التي
كانت لهذا الملصق قد عرف فيها التصاقه من غير شك ومنعه ذلك
الالتصاق من الرياسة عليهم حينئذ فكيف تنوقلت عنه وهو على حال الالصاق
والرياسة لا بد وان تكون موروثة عن مستحقها لما قلناه من التغلب بالعصبية
وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى انساب يلهجون
بها اما لخصوصية فضيلة كانت في اهل ذلك النسب من شجاعة او كرم او ذكر كيف
اتفق فينزعون الى النسب ويتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون
فيه انفسهم من القدح في رياستهم والطعن في شرفهم وهذا كثير في الناس
لهذا العهد **فمن ذلك** ما تدعيه زناتة جملة انهم من العرب ومنه ادعاء اولاد
رباب المعروفين بالحجازيين من بني عامر احدى شعوب زغبة انهم من بني سليم
ثم من الشريد منهم لحق جدهم ببني عامر نجارا يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم
حتى رأس عليهم ويسمونه الحجازي ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس
من توجين انهم من ولد العباس بن عبد المطلب رغبة في هذا النسب الشريف
وغلطا باسم العباس بن عطية ابي عبد القوي ولم يعلم دخول احد من العباسيين
الى المغرب لانه كان منذ اول دولتهم على دعوة العلويين اعدائهم من الادارسة
والعبيديين فكيف يسقط العباسي الى شيعة احد من العلويين وكذلك ما يدعيه
ابناء زيان ملوك بني عبد الواد انهم من ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر
في نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم الزناتية ابت القاسم اي بنو
القاسم ثم يدعون ان القاسم هذا هو القاسم بن ادريس او القاسم
ابن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه فر من مكان سلطانه
مستجيرا بهم فكيف تتم له الرياسة عليهم في باديتهم وانما هو غلط من قبل القاسم
فانه كثير الدوران في الادارسة فتوهموا ان قاسمهم من ذلك النسب وهم
غير محتاجين لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كان بعصبيتهم ولم يكن
بادعاء علوية ولا عباسية ولا شيء من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون
الى الملوك بمنازعهم ومذاهبهم ويشتهر حتى يبعد عن الرد وقد بلغني

عن يغمراسن بن زيان مؤثل سلطانهم انه لما قيل له ذلك انكره وقال بلغته الزناتية
ما معناه ان الدنيا والملك فتلناه بسيوفنا لا بهذا النسب واما نفعه في الآخرة
فمردود الى الله واعرض عن التقرب اليه بذلك ومن هذا الباب ما يدعيه
بنو سعد شيوخ بني يزيد من زغبة انهم من ولد ابي بكر الصديق وبنو سلامة
شيوخ بني يدللتن من توجين انهم من سليم وكذا الدواودة شيوخ
رياح انهم من اعقاب البرامكة وكذا بنو مهنا امراء لطي بالمشرق يدعون
فيما بلغنا انهم من اعقابهم وامثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء
هذه الانساب لما ذكرناه بل تعين ان يكونوا من صريح ذلك النسب واقوى
عصبياته فاعتبره واجتنب المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي
الموحدين بنسب العلوية فان المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرغة
قومه وانما راس عليهم بعد اشتهاره بالعلم والدين ودخول قبائل المصامدة
في دعوته وكان مع ذلك من اهل المنابت المتوسطة فيهم والله اعلم بالغيب والشهادة

فصل في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك ان الشرف والحسب انما هو بالخلال ومعنى البيت ان يعد الرجل
في ابائه اشرافا مذكورين يكون له بولادتهم اياه والانتساب اليهم تجلة
في اهل جلدته لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم والناس
في نشوهم وتناسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم الناس معادن خيارهم
في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا فمعنى الحسب راجع الى الانساب
وقد بينا ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة والتناصر
فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية والمنبت فيها زكي محمي تكون فائدة
النسب اوضح وثمرتها اقوى وتعديد الاشراف من الاباء زائد في فائدتها
فيكون الحسب والشرف اصيلا في اهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت
البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية لانه سرها ولا يكون للمنفردين
من اهل الامصار بيت الا بالمجاز وان توهموه فزخرف من الدعاوي واذا اعتبر
الحسب في اهل الامصار وجدت معناه ان الرجل منهم يعد سلفه في خلال الخير
ومخالطة اهل الخير مع الركون الى العافية ما استطاع وهذا مغاير لسر العصبية التي
هي ثمرة النسب وتعديد الاباء لكنه يطلق عليه حسب وبيت بالمجاز لعلاقة
ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه وليس

وليس حسبا على الاطلاق وقد يكون للبيت شرف اول بالعصبية والخلال ثم
ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ويختلطون بالغمار ويبقى في نفوسهم
وسواس ذلك يعدون به انفسهم من اشراف البيوتات وليسوا منها
في شيء لذهاب العصبية جملة وكثير من اهل الامصار الناشئين في بيوت العرب
او العجم لاول عهدهم موسوسون بذلك واول ما رسخ الوسواس في ذلك
لبني اسرائيل فانه كان لهم بيت من اعظم بيوت العالم بالمنبت اولا لما تعدد
في سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابرهيم عليه السلام الى موسى صاحب
ملتهم وشريعتهم ثم بالعصبية ثانيا وما اتاهم الله بها من الملك الذي وعدهم
به ثم انسلخوا من ذلك اجمع وضربت عليهم الذلة وكتب عليهم الجلاء في الارض
وانفردوا بالاستعباد والكفر الافا من السنين ثم ما زال هذا الوسواس مصاحبا
لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا
من سبط يهودا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ احقاب متطاولة
وكثير من اهل الامصار وغيرهم المنقطعين في انسابهم عن العصبية يذهب الى هذا
الهذيان وقد غلط ابو الوليد بن رشد في هذا لما ذكر الحسب في كتاب الخطابة
من تلخيص كتب المعلم الاول فقال والحسب هو ان يكون من قوم قديم نزلهم
بالمدينة ولم يتعرض لما ذكرناه وليت شعري ما الذي ينفعه قدم نزلهم بالمدينة
ان لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه وتحمل غيره على القبول منه فكانه
اطلق الحسب على تعديد الاباء فقط مع ان الخطابة انما هي استمالة من تؤثر استمالته
وهم اهل الحل والعقد واما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت اليه ولا يقدر
احد على استمالته ولا استمال هو واهل الامصار من الحضر بهذه المثابة الا ان ابن رشد
ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا انسوا احوالها فبقي في امر
البيت والحسب على الامر المشهور من تعديد الاباء على الاطلاق ولم يراجع فيه
حقيقته وسرها في الخليقة والله بكل شيء عليم

فصل في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك انا قدمنا لك ان الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبية
فاذا اصطنع اهل العصبية قوما من غير نسبهم واسترقوا العبدان والموالي والتحموا معهم
كما قلناه ضرب معهم اولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا
جلدتها كانها عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها كما قال
صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم وسواء كان مولى رق او مولى اصطناع وخلف

وليس نسب ولادته بنافع له في تلك العصبية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصبية
ذلك النسب مفقودة لذهاب سرها عند التحامه بهذا النسب الآخر وفقدانه
اهل عصبيتها فيصير من هولاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصبية
كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائه واصطناعهم لا يتجاوزه الى شرفهم
بل يكون ادون منهم على كل حال وهذا شان الموالي في الدول والخدمة كلهم فانهم
انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولايتها
الا ترى ان موالي الاتراك في دولة بني العباس وآل بني برمك من قبلهم
وبني نوبخت كيف ادركوا البيت والشرف وبنوا المجد والاصالة بالرسوخ
في ولاء الدولة فكان جعفر بن يحيى بن خالد من اعظم الناس بيتا وشرفا بالانتساب
الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب في الفرس وكذا موالي كل دولة وخدمها
انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعها
ويضمحل نسبه الاقدم ان كان من غير نسبها ويبقى ملغى لا عبرة به في اصالته ومجده
وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه اذ فيه سر العصبية التي بها البيت والشرف
فكان شرفه مشتق من شرف مواليه وبيته من بنائهم فلم ينفعه شرف الولادة
وانما بنى مجده نسب الولاء في الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون
نسبه الاول في لحمة عصبية ودولة فاذا ذهبت وصار ولاؤه واصطناعه في اخرى
لم ينفعه الاول لذهاب عصبيته وانتفع بالثاني لوجودها وهذا حال بني برمك
اذ المنقول انهم كانوا اهل بيت في الفرس من سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا
الى ولاء بني العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة
واصطناعهم وما سوى هذا فوهم توسوس به النفوس الجامحة ولا حقيقة
له والوجود شاهد بما قلناه واكرمكم عند الله اتقاكم

فصل

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء

اعلم ان العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من احواله فالمكونات
من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنة فاسدة
بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشأ
ثم تدرس وكذلك الصنائع وامثالها والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين
فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من الخليقة شرف متصل في آبائه
من لدن آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به
وحياطة على السر فيه واول كل شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرياسة

والشرف

والشرف الى الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه ان كل شرف وحسب
فعدمه سابق عليه شان كل محدث ثم ان نهايته في اربعة آباء من عقبه وذلك
ان باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي كون اسباب
ابقائه وابنه من بعده مباشر لابيه قد سمع منه ذلك واخذه عنه الا انه مقصر
في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاين له ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء
والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم
جملة واضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم ان ذلك البنيان
لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو امر وجب لهم منذ اول النشاة بمجرد انتسابهم
وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها
ولا سببها ويتوهم انه النسب فقط فيربا بنفسه عن اهل عصبيته ويرى الفضل
عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما اوجب ذلك الاستتباع من الخلال
التي منها التواضع لهم والاخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم لذلك فينقضون عليه
ويحتقرونه ويديلون منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك
العقب للاذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو
فروع هذا وتذوي فروع الاول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت
القبائل والامراء واهل العصبية اجمع ثم في بيوت اهل الامصار اذا انحطت
بيوت نشات بيوت اخرى من ذلك النسب ان يشا يذهبكم ويأت
بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو
في الغالب والا فقد يدثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى وينهدم
وقد يتصل امرها الى الخامس والسادس الا انه في انحطاط وذهاب واعتبار الاربعة
من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشر له ومقلد وهادم وهو اقل ما يمكن واعتبرت
الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم انما
الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق
ابن ابرهيم اشارة الى انه بلغ الغاية من المجد وفي التورية ما معناه انا الله
ربك طائق غيور مطالب بذنوب الآباء للبنين على الثوالث وعلى الروابع وهو
يدل على ان الاربعة الاعقاب غاية في الانساب والحسب ومن كتاب الاغاني
في اخبار عويف القوافي ان كسرى قال للنعمان هل في العرب قبيلة تتشرف على قبيلة
قال نعم قال باي شيء قال من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل
ذلك بكمال الرابع فالبيت من قبيلته وطلب ذلك فلم يجده الا في آل حذيفة

بن بدر الفزاري وهم بيت قيس وآل حاجب بن زرارة وآل ذي الجدين
بيت شيبان وآل الاشعث ابن قيس من كندة فجمع هولاء الرهط ومن تبعهم
من عشايرهم واقعد لهم الحكام العدول فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث
بن قيس لقرابته من النعمان ثم بسطام ابن قيس من شيبان ثم حاجب
بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا ونثروا فقال كسرى كلهم سيد
يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي المذكورة بالشرف في العرب
بعد بني هاشم ومعهم بيت بني الديان من بني الحرث بن كعب بيت
اليمن وهذا كله يدل على ان الاربعة آباء نهاية في الحسب والله اعلم

فصل في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب من سواها

اعلم انه لما كانت البداوة سببا للشجاعة كما قلناه في المقدمة الثالثة لا جرم كان
هذا الجيل الوحشي اشد شجاعة من الجيل الآخر فهم اقدر على التغلب وانتزاع ما في ايدي
سواهم من الامم بل الجيل الواحد تختلف احواله في ذلك باختلاف الاعصار
فكلما نزلوا الارياف وتفنقوا النعيم والفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم نقص
من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات
العجم بدواجن الظباء والبقر الوحشية والحمر اذا زال توحشها بمخالطة الادميين
واخصب عيشها كيف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيها وحسن اديمها
وكذلك الادمي المتوحش اذا انس والف وسببه ان تكون السجايا والطبائع
انما هو عن المألوفات والعوائد واذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام والبسالة
فمن كان من هذه الاجيال اعرق في البداوة واكثر توحشا كان اقرب الى التغلب
على سواه اذا تقاربا في العدد وتكافآ في القوة والعصابة وانظر في ذلك
شان مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين الى الملك والنعيم ومع ربيعة
المتوطنين ارياف العراق ونعمته لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون
الى خصب العيش وغضارة النعيم كيف ارهفت البداوة حدهم في التغلب
فغلبوهم على ما في ايديهم وانتزعوه منهم وهكذا كان حال بني طي وبني عامر بن صعصعة
وبني سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن
ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف امسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم
ولم تخلقها مذاهب الترف حتى صاروا اغلب على الامر منهم وكذا كل حي من العرب
يلي نعيما وعيشا خصيبا دون الحي الآخر فان الحي المتبدي يكون اغلب له واقدر
عليه اذا تكافآ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

فصل في ان الغاية التي تنتهي اليها العصبية هي الملك

وذلك لانا قدمنا ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر
يجتمع عليه وقدمنا ان الادميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع
الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض فلا بد ان يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية
والا لم تتم قدرته على ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو امر زائد على الرياسة لان الرياسة
انما هي سودد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في احكامه واما الملك فهو التغلب
والحكم بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة السودد والاتباع ووجد السبيل
الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية
التي تكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رايت ثم ان القبيل الواحد
وان كانت فيه بيوتات مفترقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية اقوى من جميعها
تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كانها عصبية واحدة كبرى والا وقع
الافتراق المفضي الى الاختلاف والتنازع ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
الارض ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب
على اهل عصبية اخرى بعيدة عنها فان كافاتها او مانعتها كانوا اقتالا وانظارا ولكل
واحد منها التغلب على حوزتها وقومها شان القبائل والامم المفترقة في العالم وان غلبتها
واستتبعتها التحمت بها ايضا وزادتها قوة في التغلب الى قوتها وطلبت غاية من
التغلب والتحكم اعلى من الغاية الاولى وابعد وهكذا دائما حتى تكافي بقوتها قوة الدولة
فان ادركت الدولة في هرمها ولم يكن لها ممانع من اولياء الدولة اهل العصبيات
استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك اجمع لها وان انتهت الى قوتها
ولم يقارن ذلك هرم الدولة انما قارن حاجتها الى الاستظهار باهل العصبيات
انتظمتها الدولة في اوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها وذلك ملك آخر
دون الملك المستبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس ولصنهاجة وزناتة
مع كتامة ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية فقد ظهر ان الملك
هو غاية للعصبية وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيل الملك اما بالاستبداد
او بالمظاهرة على حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك وان عاقها عن بلوغ
الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها الى ان يقضي الله بامره

فصل في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت
على النعمة بمقداره وشاركت اهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم

وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها
فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع احد في انتزاع امرها ولا مشاركتها
فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون
فيه من جبايتها ولم تسم امالهم الى شي من منازع الملك ولا اسبابه انما همهم
النعيم والكسب وخصب العيش والسكوت في ظل الدولة الى الدعة والراحة
والاخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس خاصة والاستكثار من ذلك
والتانق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعوا اليه من توابع
ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون
فيما اتاهم الله من البسطة وتنشا بنوهم واعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة
انفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبية
حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدهم
بتعاقبها الى ان تنقرض العصبية فياذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم
يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق
في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب واذا انقرضت
العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الامم
سواهم فقد تبين ان الترف من عوايق الملك والله يوتي ملكه من يشا

فصل في ان عوايق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد لسواهم

وسبب ذلك ان المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها
فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة
ومن عجز عن المدافعة فاولى ان يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر
ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام واخبرهم
بان الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا ان فيها قوما جبارين
وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها اي يخرجهم الله منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا
وتكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا
اذهب انت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما انسوا من انفسهم من العجز عن
المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الاية وما يوثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق
الانقياد وما رئموا من الذل للقبط احقابا حتى ذهبت العصبية منهم جملة
مع انهم لم يومنوا حق الايمان بما اخبرهم به موسى من ان الشام لهم وان العمالقة

الذين كانوا باريحا فريستهم بحكم من الله قدره لهم فاقصروا عن ذلك وعجزوا
تعويلا على ما علموا من انفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا
فيما اخبرهم به نبيهم من ذلك وما امرهم به فعاقبهم الله بالتيه وهو انهم اقاموا
في قفر من الارض ما بين الشام ومصر اربعين سنة لم ياووا فيها العمران ولا نزلوا
مصرا كما قصه القران لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم ولعجزهم عن
مقاومتهم كما زعموه ويظهر من مساق الاية ومفهومها ان حكمة ذلك التيه
مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا
به وافسدوا من عصبيتهم حتى نشا في ذلك التيه جيل اخر عزيز لا يعرف الاحكام
والقهر ولا يسام بالمذلة فنشات لهم بذلك عصبية اخرى اقتدروا بها
على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة اقل ما ياتي فيها
فناء جيل ونشاة جيل اخر سبحان الحكيم العليم وفي هذا اوضح دليل على شان
العصبية وانها التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وان من فقدها
عجز عن جميع ذلك

ويلتحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شان المغارم والضرائب

فان القبيل الغارمين ما اعطوا اليد لذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لان في المغارم
والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الابية الا اذا استهونته على القتل
والتلف وان عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصبيته
لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة او المطالبة وقد حصل له الانقياد للذل
والمذلة عايقة كما قدمناه ومنه في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم في شان الحرث
لما راى سكة المحراث في بعض دور الانصار فقال ما دخلت هذه دار قوم الا دخلهم
الذل فهو دليل صحيح على ان المغرم موجب للذلة هذا الى ما يصحب ذل المغارم
من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر ففي الصحيح ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يستعيذ من المغرم فسئل عن ذلك فقال ان الرجل اذا غرم
حدث فكذب ووعد فاخلف فاذا رايت القبيل بالمغارم في ربقة من الذل
فلا تطمعن لها بملك اخر الدهر ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم ان زناتة
بالمغرب كانوا شاوية يودون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو
غلط فاحش كما رايت اذ لو وقع ذلك لما استتبت لهم ملك ولا تمت لهم دولة
وانظر في ذلك ما قاله شهربراز ملك الباب لعبد الرحمن ابن ربيعة لما اطل
عليه وسال امانه على ان يكون له فقال انا اليوم منكم يدي في ايديكم وصغوي

معكم فمرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجئنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلوا بالحرب فتعدهنوا بالعدو وكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

فصل
في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك طبيعيا للانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشر باصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان لا للحيوان فاذن خلال الخير فيه هي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب للسياسة وقد ذكرنا ان المجد له اصل يبنى عليه ويتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشير وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال واذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال الحميدة لان وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الاعضاء وظهوره عريانا بين الناس واذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصا في اهل البيوت والاحساب فما ظنك باهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب وايضا فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد في الاحكام واحكام في خلقه وعباده انما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرايع واحكام البشر انما هي من الجهل والشيطان بخلاف قدرة سبحانه وقدرته فانه فاعل للخير والشر معا ومقدرهما اذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة واونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ احكام الله في خلقه فقد تهيا للخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية لذلك وهذا البرهان اوثق من الاول واصح مبنى فقد تبين ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وجدت له العصبية فاذا نظرنا في اهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والامم فقد وجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفا بالعهد وبذل الاموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل او ترك وحسن الظن بهم واعتقاد اهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر والمشايخ وتوقيرهم واجلالهم والانقياد للحق مع الداعي اليه وانصاف المستضعفين من انفسهم والتبذل في احوالهم

والتواضع

والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرايع والعبادات والقيام عليها وعلى اسبابها والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وامثال ذلك علمنا ان هذه خلق السياسة فقد حصلت لديهم واستحقوا بها ان يكونوا ساسة لمن تحت ايديهم او على العموم وانه خير ساقه الله اليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك انسب الخيرات والمراتب لعصبيتهم فعلمنا بذلك ان الله تاذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك اذا تاذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد اتاهم من الملك وجعل في ايديهم من الخير واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتتبعه في الامم السالفة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار اعلم ان من خلال الكمال الذي يتنافس فيها القبائل اولوا العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف واهل الاحساب واصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك ان اكرام القبائل واهل العصبيات والعشاير لمن يناهضهم في الشرف ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه امر طبيعي يحمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه او المخافة من قوم المكرم او التماس مثلها منه وامثال هؤلاء ممن ليس له عصبية تتقى ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شان كرامتهم ويتمحض القصد فيهم انه للمجد وانتحال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام اقتاله وامثاله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيلة ونظرائه واكرام الطارئين من اهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجاءة اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة والغرباء من مكارم الاخلاق ومن الترغيب ببعض الوجوه وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من اهل عصبية انتماؤهم للسياسة العامة وهي الملك وان الله قد تاذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها ولهذا فان اول من يذهب من القبيل اهل الملك اذا تاذن الله بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رايته قد ذهب من امة من الامم فاعلم ان الفضائل قد اخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال

الملك منهم واذا اراد الله بقوم سوأ فلا مرد له **فصل في انه اذا كانت**
الامة وحشية كان ملكها اوسع : وذلك لانهم اقدر على التغلب والاستبداد
كما قلناه او ستعباد الطوايف بقدرتهم على محاربة الامم سواهم ولانهم يتنزلوا
من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهولاء مثل العرب وزناته
ومن في معناهم من الاكراد والتركمان واهل اللثام من صنهاجة وايضا فهولاء
المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون اليه فنسبة الاقطار
والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد
ولا نقفوا عند حدود افقهم بل يطفرون الى الاقاليم البعيدة ويتغلبون
على الامم النائية وانظر ما يحكى في ذلك عن عمر رضي الله عنه لما بويع وقام يحرض
الناس على العراق فقال ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه
اهله الا بذلك اين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا في الارض التي
وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
واعتبر ذلك ايضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحمير كيف كانوا
يخطون فيما نقل من اليمن الى المغرب مرة والى العراق والهند اخرى ولم يكن
ذلك لغير العرب من الامم وكذا حال الملثمين بالمغرب لما نزعوا الى الملك طفروا
من الاقليم الاول ومجالاتهم منه في جوار السودان الى الاقليم الرابع والخامس
في ممالك الاندلس من غير واسطة وهذا شان هذه الامم الوحشية فلذلك تكون
دولهم اوسع نطاقا وابعد من مركزها نهاية والله مقدر الليل والنهار **فصل**
في ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من عوده
الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية والسبب في ذلك
ان الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من ساير الامم
سواهم فيتعين منهم المباشرون للامر الحاملون لسرير الملك ولا يكون ذلك
لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق بها نطاق المزاحمة وللغيرة التي تجدع
انوف كثير من المتطاولين للرتبة فاذا تعين اولئك القائمون بالدولة
انغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك
الجيل وانفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها وبقي الذين بعدوا عن الامر كبحوا
عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبنجاة من الهرم
لبعدهم عن الترف واسبابه فاذا استولت على الاولين الايام واباد غضراهم
الهرم وطبختهم الدولة واكل الدهر عليهم وشرب بما ارهف النعيم من حدهم

واشتقت

واشتقت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طريقة التمدن الانساني
والتغلب السياسي كدودة القز تنسج ثم تفنى بمركز نسجها في الانعكاس كانت حـ
عصبية الاخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارة غلبهم معلومة
فتسموا امالهم الى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس
عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم
وكذا يتفق فيهم مع من بقي ايضا منتبذا عنه من عشاير امتهم فلا يزال الملك ملجأ في الامة
الى ان تنكسر سورة العصبية منها او تفنى ساير عشايرها سنة الله في الحيوة الدنيا والآخرة
عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في الامم لما انقرض ملك عاد قام به من بعدهم
اخوانهم من ثمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم اخوانهم من حمير
ومن بعدهم اخوانهم التبابعة من حمير ايضا ومن بعدهم الاذواء كذلك ثم
جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس انقرض امر الكينية فملك من بعدهم الساسانية
حتى تأذن الله بانقراضهم اجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل
الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض امر مغراوة وكتامة الملوك
الاول منهم رجع الى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي
من شعوب زناته وهكذا سنة الله في عباده وخلقه واصل هذا كله انما يكون
بالعصبية وهي متفاوتة في الاجيال والملك يخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره
بعد فاذا انقرضت دولة فانما يتناول الامر منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم
التي عرف لها التسليم والانقياد واونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك
انما يوجد في النسب القريب منهم لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب
من ذلك النسب التي هي فيه او بعد حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل
ملة او ذهاب عمران او ما شاء الله من قدرته فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي
تأذن الله بقيامه بذلك التبديل كما وقع لمضر حين غلبوا على الامم والدول واخذوا
الامر من ايدي العالم بعد ان كانوا مكبوحين عنه احقابا **فصل**
في ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وساير
احواله وعوايده :
والسبب في ذلك ان النفس ابدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما لنظره
بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه او لما تغالط به من ان انقيادها ليس لغلب
طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل لها اعتقادا
فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء او لما تراه

والله اعلم من ان غلب الغالب لها ليس لعصبية ولا قوة باس انما هو مما تنتحله
من العوايد والمذاهب تغالط ايضا بذلك عن الغالب وهذا راجع الى الاول
فلذلك ترى المغلوب يتشبه بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه فى اتخاذها
واشكالها بل وفى ساير احواله وانظر ذلك فى الابناء مع ابائهم كيف تجدهم
متشبهين بهم دائما وما ذاك الا لاعتقادهم الكمال فيهم وانظر الى كل قطر من الاقطار
كيف يغلب على اهله زى الحامية وجند السلطان فى الاكثر لانهم الغالبون
لهم حتى انه اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسرى اليهم من هذا
التشبه والاقتداء حظ كبير كما فى الاندلس لهذا العهد مع امم الجلالقة فانك
تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من زيهم واحوالهم حتى فى رسم
التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر الناظر من ذلك
بعين الحكمة انه علامة الاستيلاء والامر لله وتامل من ذلك فى هذا السر قولهم العامة
على دين الملك فانه من بابه اذ الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به
لاعتقادهم الكمال فيه اقتداء الابناء باباءهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم

فصل فى ان الامة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها اسرع اليها الفناء

والسبب فيه والله اعلم ما يحصل فى النفوس من التكاسل اذا ملك امرها عليها
وصارت فى الاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل
والاعتمار انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط فى القوى الحيوانية فاذا ذهب
الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة
بالغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن
المدافعة عن انفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب
طعمة لكل اكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك اولم يحصلوا وفيه والله
اعلم سر اخر وهو ان الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى جعل له
والرئيس اذا غلب على رياسته وكبح عن مدا عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى
كبده وهذا موجود فى اخلاق الاناسى ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة وانها
لا تسافد اذا كانت فى ملكة الادميين فلا يزال هذا دابها ودأب هذا القبيل المملوك
امره عليه فى تناقص واضمحلال الى ان ياخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر
ذلك فى امة الفرس كيف كانت قد ملأت الدنيا كثرة ولما فنيت حاميتهم
فى ايام العرب بقى منهم كثير واكثر من الكثير يقال ان سعدا احصى من وراء
المداين فكانوا مائة الف وسبعة وثلثين منهم سبعة وثلثون الف رب

بيت

بيت ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم الا قليلا ودثروا
كان لم يكونوا ولا تحسبن ان ذلك لظلم نزل بهم او عدوان شملهم فملكة الاسلام
فى العدل ما علمت وانما هى طبيعة فى الانسان اذا غلب على امره وصار آلة لغيره ولهذا
فانما يذعن غالبا للرق امم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من عرض الحيوانات
العجم كما قلناه او من يرجو بانتظامه فى ربقة الرق حصول رتبة او افادة مال
او عز كما يقع للترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والافرنجة بالاندلس فان العادة
جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يانفون من الرق لما يؤملونه من الجاه والرتبة
واصطفاء الدولة والله اعلم

فصل فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط

وذلك انهم بطبيعة التوحش الذى فيهم اهل انتهاب وعيث
ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر
ولا يذهبون الى المزاحفة والمحاربة الا اذا دافعوا بذلك عن انفسهم فكل
معقل او مستصعب عليهم فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقبائل
الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لانهم لا يتسنمون اليهم
الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر واما البسائط متى اقتدروا
عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم وطعمة لاكلهم يرددون
عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى ان ينقرض عمرانهم والله قادر
على خلقه

فصل فى ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان اسرع اليها الخراب

والسبب فى ذلك انهم امة وحشية باستحكام عوايد التوحش
واسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن
ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة
له فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون
الذى به العمران ومناف له فالحجر مثلا حاجتهم اليه لنصبه اثافى للقدور فينقلونه
من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب ايضا انما حاجتهم اليه
ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك
فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو اصل العمران هذا فى حالهم على العموم
وايضا فطبيعتهم انتهاب ما فى ايدى الناس وان رزقهم فى ظلال رماحهم وليس
عندهم فى اخذ اموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت ايديهم الى مال
او متاع او ماعون انتهبوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك
بطلت السياسة فى حفظ اموال الناس وخرب العمران وايضا فانهم يكلفون

على اهل الاعمال من الصنايع والحرف اعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الاجر والثمن والاعمال كما سنذكره هي اصل المكاسب وحقيقتها واذا فسدت الاعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل وابذعر الساكن وفسد العمران وايضا فانهم ليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض انما همهم ما ياخذونه من اموال الناس نهبا او مغرما فاذا توصلوا الى ذلك وحصلوا عليه اعرضوا عما بعده من تسديد احوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن بعض وربما فرضوا العقوبات في الاموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شانهم وذلك ليس بمغن في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زايدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كانها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من ان وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم الا بها وتقدم ذلك اول الفصل وايضا فهم متنافسون في الرياسة وقل ان يسلم احد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في الاقل وعلى كره من اجل الحيا فتتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام فيفسد العمران وينتقض قال الاعرابي الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج واراد الثناء عنده عليه بحسن السياسة والعمران فقال تركته يظلم وحده وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس اجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ عهد المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسايطهم خرابا كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء ومشاهد القرى والمدائن والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك انهم لخلق التوحش الذي فيهم اصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع اهواؤهم

فاذا كان

فاذا كان الدين بالنبوة او الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي او الولي الذي يبعثهم على القيام بامر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق وياخذهم بمحمودها ويولف كلمتهم لاظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك اسرع الناس قبولا للحق والهدى بسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوايد وسوء الملكات فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

فصل في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك انهم اكثر بداوة من ساير الامم وابعد مجالا في القفر واغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شان عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي ان يكون السايس وازعا بالقهر والا لم تستقم سياسته وايضا فمن طبيعتهم كما قدمناه اخذ ما في ايدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض فاذا ملكوا امة من الامم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع باخذ ما في ايديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوايد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران وتبقى الامة كانها فوضى مستطيلة ايدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شان الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من انفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين امر السياسة بالشريعة واحكامها

المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم ملكهم وقوي
سلطانهم كان رستم اذا راى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول اكل عمر كبدي
يعلم الكلاب الادب ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة اجيال نبذوا
الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم وجهلوا شان عصبيتهم مع اهل
الدولة ببعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم
من اسم الملك الا انه للخلفاء وهم من جيلهم ولما ذهب امر الخلافة وانقطع
رسمها انقطع الامر من ايديهم جملة وغلب عليه العجم دونهم واقاموا بادية
في قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم انهم كان لهم
ملك في القديم وما كان لاحد من الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك ودول
عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في الاسلام
بني امية وبني العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى اصلهم
من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الاحيان غلب على الدول المستضعفة كما
المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته الا تخريب ما يستولون عليه
من العمران كما قدمناه والله خير الوارثين **فصل في ان البوادي
من القبائل والعصائب مغلوبون لاهل الامصار** قد تقدم لنا
ان عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور الضرورية
في العمران ليس كلها موجودا لاهل البدو وانما يوجد لديهم في مواطنهم امور
الفلح وموادها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط
وحداد وامثال ذلك مما يقيم ضرورات معاشهم في الفلح وغيره وكذا الدنانير
والدراهم مفقودة لديهم وانما بايديهم اعواضها من مغل الزراعة واعيان
الحيوان او فضلاته البانا واوبارا واشعارا واهابا مما يحتاج اليه اهل الامصار
اليهم في الحاجي والكمالي فهم محتاجون الى الامصار في الضروري بطبيعة وجودهم
فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم محتاجون
الى اهلها ومتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم
فان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن
ملك فلا بد فيه من رياسة ونوع استبداد من بعض اهله على الباقين والا
انتقض عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه اما طوعا ببذل
المال لهم ثم يبيح لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم
واما كرها ان تمت قدرته على ذلك ولو بالتضريب بينهم حتى يحصل له فريق

منهم يغالب به الباقين فيضطر الاخرون الى طاعته بما يتوقعون لذلك من
عمرانهم وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى نواح اخرى لان كل النواحي معمورة
بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الا طاعة المصر
واهله فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله القاهر فوق عباده

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد واله وصحبه
وسلم **الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدول والملك والخلافة
والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد
ومتممات فصل في ان الملك والدول العامة انما تحصل بالقبيل والعصبية**
وذلك انا قد قررنا في الفصل الاول ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية
لما فيها من النعرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك
منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية
والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا وقل ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب
عليه فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع
الا بالعصبية كما ذكرناه ايضا وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجملة ومتناسون
له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ اولها وطال امد مرباهم في الحضارة وتعاقبهم
فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله اول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة
قد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصبية لا يعرفون
كيف كان الامر من اوله وما لقي اولهم من المتاعب دونه وخصوصا اهل
الاندلس في نسيان هذه العصبية واثرها لطول الامد واستغنائهم في الغالب
عن قوة العصبية بالتلاشي في وطنهم وخلا من العصائب والله قادر على ما يشاء
**فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد يستغني صاحبها
عن العصبية** والسبب في ذلك ان الدول العامة في اولها يصعب على النفوس
الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للغرابة وان الناس لم يالفوا ملكها
ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في اهل النصاب المخصوص بالملك
في الدولة وتوارثوه واحدا بعد اخر في اعقاب كثيرين ودول متعاقبة
نسيت النفوس شان الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة
الرياسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم
على امرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا في امرهم الى كبير عصابة بل
كان طاعتها كتاب من الله لا يبدل ولا يعلم خلافه ولا مراء يوضع الكلام في الامامة

آخر الكلام في العقايد الايمانية لانه من جملة عقودها ويكون استظهارهم حينئذ
على سلطانهم ودولتهم المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشؤوا في ظل
العصبية وغيرها واما بالعصايب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها
ومثل هذا وقع لبني العباس فان عصبية العرب كانت فسدت لعهد
دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك انما كان بالموالي من العجم
والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم والاولياء على النواحي و
تقلص امر الدولة فلم يكن يعدو اعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم وملكوها وصار
الخلايف في حكمهم ثم انقرض امرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم
ثم انقرض امرهم وزحف آخر التتر فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة وكذا صنهاجة
بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة او ما قبلها واستمرت لهم الدولة
متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وساير ثغور افريقية وربما انتزى بتلك
الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم
لهم حتى تاذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في
المصامدة فمحوا آثارهم وكذا دولة بني امية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب
استولى ملوك الطوايف على امرها واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا
ممالك الدولة وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفه وبلغهم
شان العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بالقاب الملك ولبسوا شارته وامنوا
ممن ينقض ذلك عليهم او يغيره لان الاندلس ليست بدار عصايب ولا قبائل
كما سنذكره واستمر لهم ذلك كما قال ابن شرف مما يزهدني في ارض اندلس
اسماء معتصم فيها ومعتضد القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة
الاسد فاستظهروا على امرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الاندلس
من ارض العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر امرها في
الاستظهار بهم حين ضعفت عصبية العرب واستبد ابن ابي عامر على الدولة
فكان لهم دول عظيمة استبد كل واحد فيها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك
على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم يزالوا في سلطانهم ذلك حتى اجاز اليهم
البحر المرابطون اهل العصبية القوية من لمتونة فاستبدلوا بهم وازالوهم عن
مراكزهم ومحوا آثارهم ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم فبهذه
العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من اولها وقد ظن الطرطوشي ان حامية
الدول بالاطلاق هم الجند اهل العطاء المفروض مع الاهلة ذكر ذلك في كتابه

الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تاسيس الدول العامة في اولها وانما هو
مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام
الصبغة لاهله فالرجل انما ادرك الدولة عند هرمها وخلوق جدتها ورجوعها الى الاستظهار
بالموالي والصنايع ثم الى المستخدمين من ورايهم بالاجر على المدافعة فانه انما ادرك
دول الطوايف وذلك عند اختلال دولة بني امية وانقراض عصبيتها من العرب
واستبداد كل امير بقطره وكان في ايالة المستعين بن هود وابنه المظفر
اهل سرقسطة ولم يكن بقي لهم من امر العصبية شيء لاستيلاء الترف على العرب
منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ولم ير الا سلطانا مستبدا بالملك عن عشايره
قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينازع
فيه ويستعين على امره بالاجراء من المرتزقة فاطلق الطرطوشي القول في ذلك
ولم يتفطن لكيفية الامر منذ اول الدولة وانه لا يتم الا لاهل العصبية فتفطن انت
له وافهم سر الله فيه والله يوتي ملكه من يشاء **فصل في انه قد يحدث لبعض
اهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية** وذلك انه اذا كان لعصبيته
غلب كبير على الامم والاجيال وفي نفوس القائمين بامره من اهل القاصية اذعان
وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج وانتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتملوا عليه وقاموا بامره وظاهروه على شانه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله
الامر من يد اعياصه ولا يطمعون في شيء من مشاركته في سلطانه تسليما لعصبيته وانقيادا
لما استحكم له ولقومه من صبغة الغلب في العالم وعقيدة ايمانية استقرت في الاذعان
لهم فلو راموها معه او دونه لزلزلت الارض زلزالها وهذا كما وقع للادارسة
بالمغرب الاقصى والعبيديين بافريقية ومصر لما انتبذ الطالبيون
من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا الى طلبها من ايدي
آل العباس بعد ان استحكمت الصبغة لبني عبد مناف لبني امية اولا ثم لبني
هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بامرهم
البرابرة مرة بعد اخرى فاوربة ومغيلة للادارسة وكتامة وصنهاجة وهوارة
للعبيديين فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصايبهم امرهم واقتطعوا من ممالك
العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيديين
يمتد الى ان ملكوا مصر والشام والحجاز وقاسموهم في الممالك الاسلامية
شق الابلمة وهولاء البرابرة القائمون بالدولة مع ذلك كله مسلمون للعبيديين
مذعنون لملكهم وانما كانوا ينافسون في الرتبة عندهم لما حصل من صبغة
الملك لبني هاشم ولما استحكم من الغلب لقريش ومضر على ساير الامم فلم يزل

الملك في عقابهم الى انقراض دولة العرب باسرها والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين من نبوة او دعوة حق

وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصبية واتفاق الاهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم وسره والله اعلم ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما نبين لك بعد

فصل في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة الى قوة العصبية التي كانت لها من عددها

والسبب في ذلك كما قدمناه ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في اهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في امرهم لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عند جميعهم وهم مستميتون عليه واهل الدولة التي هم طالبوها وان كانوا اضعافهم فاغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وان كانوا اكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت الجيوش للمسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلثين الفا في كل معسكر وجيوش فارس مائة وعشرين الفا بالقادسية وجموع هرقل على ما قاله الواقدي اربع مائة الف فلم يقف احد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بايديهم واعتبر ذلك ايضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية او يشف عليهم الا ان الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها او الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها وكانوا اكثر عصبية منها واشد بداوة واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة لما كانت زناتة ابدا من المصامدة واشد توحشا وكان

وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها فغلبوا على زناتة اولا واستتبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداوة اشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه منهم والله غالب على امره

فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لما قدمناه من ان كل امر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية وفي الحديث كما مر ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم اولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم ان لا تخرق له العادة في الغلب بغير العصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ المتصوفة وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف ثار بالاندلس داعيا الى الحق وسمي اصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الامر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من امر الموحدين ولم يكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شانه فلم يلبث حين استولى الموحدون على المغرب فاذعن ودخل في دعوتهم وبايعهم من معقله بحصن اركش وامكنهم من ثغره وكان اول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين **ومن هذا الباب** احوال الثوار القائمين من العامة والفقهاء بتغيير المنكر فان كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على اهل الجور من الامراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتلبسون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون بانفسهم في ذلك للمهالك واكثرهم يهلكون في تلك السبيل مازورين غير ماجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما امر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من راى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه واحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمناه وهكذا كان حال الانبياء في دعوتهم الى الله بالعصائب والعشائر وهم المؤيدون من الله لو شاء بالكون كله لكنه انما اجرى الامور على مستقر العادة فاذا ذهب احد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقا قصر به الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك واما ان كان من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فاجدر ان تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لانه امر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك

في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة واول من ابتدا بهذه النزعة في الملة
ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وابطا المامون بخراسان
عن مقدم العراق ثم عهد لعلي بن موسى الرضي من ال الحسين فكشف بنو العباس
وجه النكير عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المامون والاستبدال منه
وبويع ابرهيم ابن المهدي فوقع الهرج ببغداد وانطلقت ايدي الدعرة
بها من الشطار والحربية على اهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلات
ايديهم من نهاب الناس وباعوها علانية في الاسواق واستعدا اهلها
الحكام فلم يعدوهم فتوافر اهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم
وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوش ودعى الناس الى الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر فاجابه خلق وقاتل اهل الدعارة وغلبهم واطلق يده فيهم
بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل اخر من سواد اهل بغداد يعرف
بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى اباحاتم وعلق مصحفا في عنقه ودعى الى الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم
فاتبعه سائر الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل
قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من اخاف المارة ومنع الخفارة
لاولئك الشطار وقال له خالد الدريوش انا لا اعيب على السلطان فقال له سهل
لكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة احدى
ومايتين وجهز ابرهيم بن المهدي اليه العساكر فغلبه واسره وانحل امره سريعا
وذهب ونجا بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين
ياخذون انفسهم باقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه في اقامته من العصبية
ولا يشعرون بمغبة امرهم ومال احوالهم والذي يحتاج من امثال هولاء اما المداواة
ان كانوا من اهل الجنون واما التنكيل بالقتل والضرب ان احدثوا هرجا واما
اذاعة السخرية منهم وعدهم في جملة الصفاعين وقد ينتسب بعضهم الى الفاطمي
المنتظر اما بانه هو او بانه داع له وليس مع ذلك على علم من امر الفاطمي ولا ما هو واكثر
المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين او مجانين او ملبسين يطلبون
بمثل هذه الدعوى رياسة امتلات بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل اليها بشيء
من اسبابها فيحسبون ان هذا من الاسباب البالغة بهم الى ما يؤملونه من ذلك
ولا يحسبون ما ينالهم من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة
وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لاول هذه المائة خرج بالسوس رجل من المتصوفة

يدعى التويزري عمد الى مسجد ماسة بساحل البحر هنالك وزعم انه الفاطمي المنتظر
تلبيسا على العامة هنالك بما ملا قلوبهم من الحدثان بانتظاره وان من ذلك
المسجد اصل دعوته فتهافت اليه طوائف من عامة البربر تهافت الفراش
حتى خشي رؤساهم اتساع نطاق الفتنة فدس اليه كبير المصامدة يومئذ عمر السكسيوي
من قتله في فراشه وكذلك خرج في غمارة لاول هذه المائة ايضا رجل يعرف
بالعباس وادعى مثل هذه الدعوى واتبعه الارذلون من سفهاء تلك القبائل
وغمارهم وزحف الى بادس من امصارهم فدخلها عنوة ثم قتل لاربعين يوما
من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين وامثال ذلك كثير والغلط فيه
من الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها واما ان كان التلبيس فاحرى ان لا يتم له
وان يبوء باثمه وذلك جزاء الظالمين **فصل في ان كل دولة لها
حصة من الممالك والاوطان لا تزيد عليها** والسبب في ذلك ان عصابة
الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصا على الممالك
والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء احكام
الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصائب كلهم
على الثغور والممالك فلابد من نفاد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون
ثغرا للدولة وتخما لوطنها ونطاقا لمركز ملكها فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة
على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعا لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور
ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة
وما كانت العصابة موفورة ولم ينفد عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي
بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والعلة
الطبيعية في ذلك ان قوة العصبية هي من سائر القوى الطبيعية وكل قوة
يصدر عنها فعل من الافعال فشانها ذلك في فعلها والدولة في مركزها اشد
مما تكون في الطرف والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية
عجزت وقصرت عما وراءه شان الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز
في الدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه ثم اذا ادركها الهرم والضعف
فانما تاخذ في التناقص من جهة الاطراف ولا يزال المركز محفوظا الى ان يتاذن
الله بانقراض الامر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز واذا غلب على الدولة من مركزها
فلا ينفعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها فان المركز كالقلب
الذي تنبعث منه الروح فاذا غلب القلب وملك انهزم جميع الاطراف

وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المداين فلما غلب المسلمون على المداين انقرض امر فارس اجمع ولم ينفع يزدجرد ما بقي بيده من اطراف ممالكه وبالعكس من ذلك وكذا الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون على الشام تحيزوا الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من ايديهم فلم يزل ملكهم متصلا بها الى ان تاذن الله بانقراضه وانظر ايضا شان العرب اول الاسلام لما كانت عصاباتهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق ومصر لاسرع ما تجاوزوا ذلك الى ما وراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم الى الاندلس فلما تفرقوا حصصا على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات اقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى امر الاسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تاذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

فصل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

والسبب في ذلك ان الملك انما يكون بالعصبية واهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة واقطارها وينقسمون عليها فما كان من الدول العامة قبيلها واهل عصابتها اكثر كانت اقوى واكثر ممالك واوطانا وكان ملكها اوسع لذلك واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما الف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة الف وعشرة الاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل الى من اسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا لطلب ما في ايدي الامم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح ملك فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم والترك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولوا على الاقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين قبلهم لما كان قبيل كتامة القائمين بدولة العبيديين اكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت دولتهم اعظم فملكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة لما كان عددهم اقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين

لقصور

لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ اول امرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد لزناتة بني مرين وبني عبد الواد لما كان عدد بني مرين لاول ملكهم اكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها واوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد اخرى يقال ان عدد بني مرين لاول ملكهم كانوا ثلاثة الاف وان عدد بني عبد الواد كانوا الفا الا ان الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من اعدادهم وعلى هذه النسبة في اعداد المتغلبين لاول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها واما طول امدها ايضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصبية فاذا كانت العصبية قوية كان المزاج تابعا لها وان كان امد العمر طويلا والعصبية انما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب الصحيح في ذلك ان النقص انما يبدا بالدولة من الاطراف فاذا كانت ممالكها كثيرة كانت اطرافها بعيدة عن مركزها وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر ازمان النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمانه فيكون امدها طويلا وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان امدها اطول الدول لا بنو العباس اهل المركز ولا بنو امية المستبدون بالاندلس ولم ينتقض امر جميعهم الا بعد الاربع مائة من الهجرة ودولة العبيديين كان امدها قريبا من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دونهم من لدن تقليد معد المعز امر افريقية لبلكين بن زيري سنة ثمان وخمسين وثلثمائة الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمس مائة ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهكذا نسب الدول في اعمارها على نسب القائمين بها سنة الله التي قد خلت في عباده

فصل في ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك اختلاف الاراء والاهواء وان وراء كل راي منها وهوى عصبية تمانع دونها فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وان كانت ذات عصبية لان كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ اول الاسلام ولهذا العهد فان ساكن هذه الاوطان من البربر اهل قبائل وعصائب فلم يغن فيهم الغلب الاول الذي كان لابن ابي سرح عليهم وعلى الفرنجة شيئا وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد اخرى وعظم الاثخان من المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة

قال ابن ابي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام
فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا معنى ما ينقل عن عمر ان افريقية
مفرقة لقلوب اهلها اشارة الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم
حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء اهل مدن وامصار فلما غلبهم المسلمون
على الامر وانتزعوه من ايديهم لم يبق فيها ممانع ولا مشاق والبربر قبائلهم بالمغرب
اكثر من ان تحصى وكلهم بادية واهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت
الاخرى مكانها والى دينها من الخلاف والردة فطال امر العرب في تمهيد الدولة
بوطن افريقية والمغرب وكذلك كان الامر بالشام لعهد بني اسرائيل كان فيه
من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط وادوم والارمن
والعمالقة واكريكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعا في
العصبية فصعب على بني اسرائيل تمهيد دولتهم ورسوخ امرهم واضطرب عليهم
الملك مرة بعد اخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه
ولم يكن لهم ملك موطد سائر ايامهم الى ان غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم اخر امرهم
عند الجلاء والله غالب على امره وبعكس هذا ايضا الاوطان الخالية من العصائب
يسهل تمهيد الدولة فيها ويكون سلطانها وادعا لقلة الهرج والانتقاض ولا تحتاج
الدولة فيها الى كثير من العصبية كما هو الشان في مصر والشام لهذا العهد اذ هي
خلو من القبائل والعصبيات كان لم يكن الشام معدنا لهم كما قلناه فملك مصر في غاية
الدعة والرسوخ لقلة الخوارج واهل العصائب انما هو سلطان ورعية ودولتها
قائمة بملوك الترك وعصائبهم يغلبون على الامر واحدا بعد واحد وينتقل الامر
فيهم من منبت الى منبت والخلافة مسماة للعباسي من اعقاب الخلفاء ببغداد
وكذا شان الاندلس لهذا العهد فان عصبية ابن الاحمر سلطانها لم تكن لاول
دولتهم بقوية ولا كانت لها كثرة وانما كانوا بيتا من بيوت العرب اهل الدولة
الاموية بقوا من ذلك القل وذلك ان اهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية
منهم وملكهم البربر من لمتونة والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطاتها عليهم فاشربت
القلوب بغضاءهم وتمراهم وامكن الموحدون السادة في اخر الدولة كثيرا من الحصون
للطاغية في سبيل الاستظهار به على شانهم من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان
بقي بها من اهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن
الحضارة والامصار بعض الشيء ورسخوا في الجندية مثل ابن هود وابن الاحمر وابن
مردنيش وامثالهم فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة الخلافة العباسية

بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا اليهم العهد واخرجوهم
واستقل ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الاحمر وخالف ابن هود
في دعوته فدعا هو لابن ابي حفص صاحب افريقية من الموحدين وقام بالامر
وتناوله بعصابة قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لاكثر منها
لقلة العصائب بالاندلس وانها سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك
على الطاغية بمن يجيز اليه من اعياص زناتة فصاروا معه عصبة على المثاغرة
والرباط ثم سمى لصاحب المغرب من ملوك زناتة امل في الاستيلاء على الاندلس
فصار اولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى ان تاثل امره ورسخ
والفته النفوس وعجز الناس عن مطالبته وورثه اعقابه لهذا العهد فلا تظنن
انه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان مبدؤه بعصابة الا انها قليلة وعلى قدر الحاجة
فان وطن الاندلس لقلة العصائب والقبائل فيه يغني عن كثرة العصبية في التغلب
عليهم والله غني عن العالمين **فصل في ان من طبيعة الملك الانفراد
بالمجد والتوغل في الترف وايثار الدعة والسكون** اما الانفراد بالمجد
فلان الملك كما قدمناه انما هو بالعصبية والعصبية متالفة من عصبيات
كثيرة تكون واحدة منها اقوى من الاخر كلها فتغلبها وتستولي عليها حتى تصيرها جميعا
في ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسره ان العصبية
للقبيل هي مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه ان العناصر
اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج اصلا بل لا بد ان يكون واحد منها غالبا على الكل
بغلبته عليها يقع الامتزاج وكذا تلك العصبيات لا بد ان تكون واحدة منها هي الغالبة
على الكل حتى تجمعها وتولفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع العصائب وهي
موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم اهل بيت ورياسة
فيهم ولا بد ان يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات
كلها لغلب منبته لجميعها واذا تعين له ذلك ومن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر
والانفة فيانف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم ويجي خلق
التاله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل
باختلاف الحكام لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فتجدع حينئذ انوف العصبيات
ويفلج شكائمهم عن ان يسموا الى مشاركته في التحكم ويقرع عصبيتهم عن ذلك
وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم في الامر لا ناقة ولا جملا فينفرد بذلك
المجد بكليته ويدفعهم عن مساهمته فيه وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة

وقد لا يتم الا للثاني او للثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها الا انه
امر لا بد منه في الدول سنة الله في عباده **واما التوغل في الترف**
فلان الامة اذا تغلبت وملكت ما بايدي اهل الملك قبلها كثر رياشها
ونعمتها فتكثر عوايدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته
وزينته ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوايدهم واحوالهم وتصير لتلك
النوافل عوايد ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال
في المطاعم والملابس والفرش والانية ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون
فيه غيرهم من الامم في اكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفارهة ويناغي خلفهم
في ذلك سلفهم الى اخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم
فيه الى ان يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة ان تبلغها بحسب قوتها وعوايد
من قبلها سنة الله في خلقه **واما ايثار الدعة والسكون** فلان الامة لا يحصل
لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها التغلب والملك واذا حصلت الغاية
انقضى السعي اليها عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فاذا حصل الملك اقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه واثروا الراحة
والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس
والمطاعم والانية والفرش ما استطاعوا ويالفون ذلك ويورثونه من بعدهم
اجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى ان يتاذن الله بامره **فصل في انه**
اذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة
اقبلت الدولة على الهرم وبيانه من وجوه الاول انها تقتضي الانفراد بالمجد
كما قلناه ومهما كان المجد مشتركا بين العصابة وكان سعيهم واحدا كانت
هممهم في التغلب على الغير والذب عن الحوزة اسوة في طموحها وقوة شكايمها
ومرماهم الى العز جميع فهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ويوثرون الهلكة
على فساده واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من اعنتهم واستاثر
بالاموال دونهم فتكاسلوا عن المجد وفشل ريحهم ورئموا المذلة والاستعباد ثم
ربي الجيل الثاني على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء اجرا من السلطان لهم على الحماية
والمعونة لا يجري في عقولهم سواه وقل ان يستاجر احد نفسه على الموت فيصير
ذلك وهنا في الدولة وخضدا من الشوكة وتقبل على مناحي الضعف والهرم
لفساد العصبية بذهاب الباس **الوجه الثاني** ان طبيعة الملك تقتضي الترف
كما قدمناه فتكثر عوايدهم وتزيد نفقاتهم على اعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم

فالفقير

فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه ثم يزداد ذلك في اجيالهم
المتاخرة الى ان يقصر العطاء كله عن الترف وعوايده وتمسهم الحاجة ويطالبهم
ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجدون وليجة عنها فيوقعون بهم
العقوبات وينتزعون ما في ايدي الكثير منهم يستاثرون به عليهم او يوثرون
به ابناءهم وصنايع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن اقامة احوالهم ويضعف
صاحب الدولة بضعفهم وايضا اذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصرا
عن حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان الى الزيادة
في اعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم والجباية مقدارها معلوم لا يزيد ولا ينقص
وان زادت بما يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا
فاذا وزعت الجباية على الاعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث
من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية عما كان قبل زيادة الاعطيات
ثم يعظم الترف وتكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا
ورابعا الى ان يعود العسكر الى اقل الاعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط
قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول او من هو تحت ايديها من العصائب
والقبائل ويتاذن الله فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته وايضا فالترف مفسد
للخلق بما يحصل في النفس من الوان الشر والسفسفة وعوايدها كما ياتي في فصل
الحضارة فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون
بما يناقضها من خلال الشر فتكون علامة على الادبار والانقراض بما جعل الله من ذلك
في خليقته وياخذ الدولة مبادي العطب وتتضعضع احوالها وتنزل بها امراض
مزمنة من الهرم الى ان يقضى عليها **الوجه الثالث** ان طبيعة الملك تقتضي
الدعة كما ذكرناه واذا اتخذوا الدعة والراحة مالفا وخلقا صار لهم ذلك طبيعة
وجبلة شان العوايد كلها وايلافها فتربى اجيالهم الحادثة في غضارة العيش
ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون عوايد البداوة
التي كان بها الملك من شدة الباس وتعود الافتراس وركوب البيداء وهداية
القفر فلا تفرق بينهم وبين السوقة من الحضر الا في الثقافة والشارة فتضعف
حمايتهم ويذهب باسهم وتنخضد شوكتهم ويعود وبال ذلك عليهم وعلى الدولة
بما تلبس به من ثياب الهرم ثم لا يزالون كذلك يتلونون بعوايد الترف
والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع احوالهم وينغمسون فيها
وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة وينسلخون عنها شيئا فشيئا وينسون

خلق البداوة التي كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية اخرى
ان كانت لهم واعتبر ذلك في الدول التي اخبارها في الصحف لديك تجد ما قلته
لك من ذلك صحيحا من غير ريبة وربما يحدث في الدولة اذا طرقها هذا الهرم بالترف
والراحة ان يتخير صاحب الدولة انصارا وشيعا من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة
فيتخذهم جندا يكونون اصبر على الحروب واقدر على معاناة الشدائد من الجوع
والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه يطرقها حتى ياذن الله
فيها بامره وهذا كما وقع في دولة الترك بالمشرق فان غالب جندها الموالي من الترك
فتتخير ملوكهم من المماليك المجلوبة اليهم فرسانا وجندا فيكونون اجرا على الحرب
واصبر على الشظف من ابناء المماليك الذين كانوا قبلهم وربوا في ماء النعيم والسلطان
وظله وكذلك في دولة الموحدين بافريقية فان صاحبها كثيرا ما يتخذ اجناده
من زناتة والعرب ويستكثر منهم ويترك اهل الدولة المتعودين للترف فتستجد
الدولة بذلك عمرا اخر سالما من الهرم والله وارث الارض ومن عليها **فصل**
في ان للدول اعمارا طبيعية كما للاشخاص اعلم ان العمر الطبيعي للاشخاص
على ما زعم الاطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة وهي سنو القمر الكبرى عند المنجمين
ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات فيزيد عن هذا وينقص منه فيكون اعمار بعض
اهل القرانات مائة تامة وبعضهم خمسين او ثمانين او سبعين على ما تقتضيه
ادلة القرانات عند الناظرين فيها واعمار اهل هذه الملة ما بين الستين الى السبعين
كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرون الا في الصور النادرة
وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شان نوح عليه السلام وقليل من قوم
عاد وثمود واما اعمار الدول ايضا وان كانت تختلف بحسب القرانات الا ان الدولة
في الغالب لا تعدو ثلثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون
اربعين الذي هو انتهاء النمو والنشو الى غايته قال تعالى حتى اذا بلغ اشده
بلغ اربعين سنة ولهذا قلنا ان عمر الشخص الواحد عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة
التيه الذي وقع لبني اسرائيل وان المقصود بالاربعين فيه فناء الجيل الاحياء
ونشاة جيل اخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على اعتبار الاربعين في عمر الجيل
التي هي عمر الشخص الواحد وانما قلنا ان عمر الدولة في الغالب لا يعدو ثلثة
اجيال لان الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف
العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية
محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون والجيل

الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة الى الحضارة ومن الشظف الى الترف
والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي
فيه ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء
وتونس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما ادركوا الجيل الاول
وباشروا احوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم الى المجد ومراميهم في المدافعة
والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية وان ذهب منه ما ذهب ويكونون
على رجاء من مراجعة الاحوال التي كانت للجيل الاول او على ظن من وجودها فيهم
واما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن ويفقدون
حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ الترف فيهم غايته بما تبنكوه
من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالا على الدولة من جملة النساء والولدان
المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة
والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة
يموهون بها وهم في الاكثر اجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء المطالب
لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة ح الى الاستظهار بسواهم من اهل
النجدة ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغنى حتى يتاذن الله
بانقراضها فتذهب الدولة بجملتها فهذه كما تراه ثلثة اجيال فيها يكون هرم الدولة
وتخلفها ولذلك كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في ان المجد والحسب انما هو
في اربعة اباء وقد اتيناك فيه ببرهان طبيعي ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات
فتامله فلن تعدو وجه الحق ان كنت من اهل الانصاف وهذه الاجيال الثلثة
اعمارها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب
قبله او بعده الا ان عرض لها عارض اخر من فقدان المطالب فيكون الهرم
حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد نا مدافعا
فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون وهذا العمر للدولة بمثابة
عمر الشخص من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة
الناس في المشهور ان عمر الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا
يصحح لك عدد الاباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين
الماضية اذا كنت قد استربت في عددهم وكانت السنون الماضية منذ اولهم
محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلثة من الاباء فان نفدت على هذا القياس
مع نفود عددهم فهو صحيح وان نقصت عنه فقد غلط عددهم بزيادة واحد

في عمود النسب وان زادت بمثله فقد سقط واحد وكذلك تاخذ عدد السنين
من عددهم اذا كان محصلا لديك صحيحا والله مقدر الليل والنهار

فصل

في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة

اعلم ان هذه الاطوار
طبيعية للدول فان الغلب الذي يكون به الملك انما هو بالعصبية وما يتبعها
من شدة الباس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالبا الا مع البداوة
فطور الدولة من اولها بداوة ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الاحوال
والحضارة انما هي تفنن في الترف واحكام الصنايع المستعملة في وجوهه ومذاهبه
من المطابخ والملابس والمباني والفرش والانية وسائر عوايد المنزل واحواله
فلكل واحد منها صنايع في استجادته والتانق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا
وتتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم باحوال
الترف وما تتلون به من العوايد فصار طور الحضارة للملك يتبع طور البداوة
ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك واهل الدول ابدا يقلدون في طور الحضارة
واحوالها للدولة السالفة قبلهم فاحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب ياخذون
ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم
وابنائهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكي انه قدم لهم المرقق
فكانوا يحسبونه رقاعا وعثروا على الكافور في خزاين كسرى فاستعملوه في عجينهم
ملحا وامثال ذلك فلما استعبدوا اهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم
وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك والقومة عليه افادوهم
علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش
والتفنن في احواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف
في الاحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة
والفرش والانية والغناء وسائر الماعون والخرثي وكذا احوالهم في ايام المباهاة
والولائم وليالي الاعراس فاتوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله الطبري
والمسعودي وغيرهما في اعراس المامون ببوران بنت الحسن بن سهل
وما بذل ابوها لحاشية المامون حين وافاه في خطبتها الى داره بفم
الصلح وركب اليها في السفين وما انفق في املاكها وما نحلها المامون
وانفق في عرسها تقف من ذلك على العجب فمنه ان الحسن بن سهل
نثر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المامون فنثر على الطبقة
الاولى منهم بنادق المسك ومكتوب فيها الرقاع بالضياع والعقار مسوغة

لمن حصلت يقع لكل واحد منهم ما اداه اليه البخت وفرق على الطبقة الثانية
بدر الدنانير في كل بدرة عشرة الاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم
كذلك بعد ان انفق في مقامة المامون بداره اضعاف ذلك
ومنه ان المامون اعطاها في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت
واوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وهو رطل وثلثان وبسط لها
فرشا كان الحصير منها منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت وقال
المامون حين راه قاتل الله ابا نواس كانه ابصر هذا حيث يقول في صفة
الخمر كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على ارض من الذهب واعد
بدار الطبخ لليلة الوليمة نقل مائة واربعين بغلا مدة عام كامل ثلث مرات
في كل يوم وفني الحطب ليلتين واوقدوا الجريد الاخضر يصبون عليه الزيت
واوعز الى النواتية باحضار السفن لاجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد
الى قصور الملك بمدينة المامون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدة
لذلك ثلثين الفا اجازوا الناس فيها اخريات نهارهم وكثير من هذا وامثاله
وكذلك عرس المامون ابن ذي النون بطليطلة نقله ابن بسام في كتاب
الذخيرة وابن حيان بعد ان كانوا كلهم في الطور الاول من البداوة عاجزين
عن ذلك جملة لفقدان اسبابه والقائمين على صنايعه في غضاضتهم وسذاجتهم
يقال ان الحجاج اولم في اختتان بعض ولده فاستحضر بعض الدهاقين يسأله
عن ولائم الفرس وقال اخبرني باعظم صنيع شهدته فقال له نعم ايها الامير شهدت
بعض مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعا احضر فيه صحاف الذهب على اخونة
الفضة اربعا على كل واحد ويحمله اربع وصايف ويجلس عليه اربع من الناس
فاذا طعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصايفها فقال الحجاج يا غلام انحر
الجزر واطعم الناس وعلم انه لا يستقل بهذه الابهة وكذلك كانت
ومن هذا الباب اعطية بني امية وجوائزهم فانها اكثرها الابل
اخذا بمذاهب العرب وبداوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس
والعبيديين ومن بعدهم ما علمت من احمال المال وتخوت الثياب واعداد
الخيل بمراكبها وهكذا كان شان كتامة مع الاغالبة بافريقية وبني طغج بمصر
وشان لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشان
زناتة مع الموحدين وهلم جرا تنتقل الحضارة من الدول السالفة الى الدول
الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني امية وبني العباس وانتقلت

حضارة بني امية بالاندلس الى ملوك العرب من الموحدين وزناتة لهذا
العهد وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك السلجوقية
ثم الى الترك بمصر والى التتار بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون
شانها في الحضارة اذ امور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع
الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع الملك ومقدار ما يستولى
عليه اهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله فاعتبره وتامله تجده
صحيحا في العمران والدول والله وارث الارض ومن عليها **فصل**
في ان الترف يزيد الدولة قوة الى قوتها ::
والسبب في ذلك ان القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل
والولد والعمومية فكثرت العصابات واستكثروا ايضا من الموالي والصنايع
وربيت اجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا بهم عددا الى عددهم
وقوة الى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فاذا ذهب الجيل الاول
والثاني واخذت الدولة في الهرم لم يستقل اولئك الصنايع والموالي بانفسهم
في تاسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من الامر شيء انما كانوا عيالا على اهلها
ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فتذهب وتتلاشى
ولا تبقى الدولة على حالها من القوة واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الاسلام
كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين الفا او ما يقاربها
من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغة في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة واستكثر
الخلفاء من الموالي والصنايع بلغ ذلك العدد الى اضعافه يقال ان المعتصم نازل
عمورية لما افتتحها في تسعمائة الف ولا يبعد مثل هذا العدد ان يكون صحيحا اذا اعتبرت
حاميتهم في الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا الى الجند الحاملين سرير الملك
والموالي والمصطنعين وقال المسعودي احصي بنو العباس بن عبد المطلب
خاصة ايام المامون للانفاق عليهم فكانوا ثلاثين الفا بين ذكران واناث
فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتي سنة واعلم ان سببه الرفه والنعيم
الذي حصل للدولة وربي فيه اجيالهم والا فعدد العرب لاول الفتح لم يبلغ
هذا ولا قريبا منه والله الخلاق العليم **فصل في اطوار الدولة وكيف**
تختلف احوال اهلها في البداوة باختلاف الاطوار ::
اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب
القائمون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور

الاخر لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة
واطوارها لا تعدو في الغالب خمسة الاول طور الظفر وغلب المدافع
والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب
الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة
عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لان ذلك هو مقتضى العصبية التي
وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها الطور الثاني طور الاستبداد على قومه
والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ويكون
صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنايع
والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له
في نسبه الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدهم عن موارده
ويردهم على اعقابهم ان يخلصوا اليه حتى يقر الامر في نصابه ويفرد اهل بيته
بما يبني من مجده فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الاولون في طلب
الامر او اشد لان الاولين دافعوا الاجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم
اهل العصبية باجمعهم وهذا يدافع الاقارب ولا يظاهره على مدافعتهم الا الاقل
من الاباعد فيركب صعبا من الامر الطور الثالث طور الفراغ والدعة
لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الاثار وبعد
الصيت فيستفرغ وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات
والقصد فيها وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والامصار المتسعة والهياكل
المرتفعة واجازة الوفود من اشراف الامم ووجوه القبائل وبث المعروف
في اهله هذا مع التوسعة على صنايعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه واعتراض
جنوده وادرار ارزاقهم وانصافهم في اعطياتهم لكل هلال حتى يظهر اثر ذلك
عليهم في ملابسهم وزيهم وشكتهم ايام الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب
الدول المحاربة وهذا الطور اخر اطوار الاستبداد من اصحاب الدولة لانهم في هذه
الاطوار كلها مستقلون بارائهم بانون لعزهم موضحون الطرق لمن بعدهم الطور
الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى اولوه سلما
لانظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من سلفه يتبع اثارهم حذو النعل
بالنعل ويقتفي طرقهم باحسن مناهج الاقتداء ويرى ان في الخروج عن تقليدهم فساد
امره وانهم ابصر بما بنوا من مجده الطور الخامس طور الاسراف والتبذير ويكون
صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم

على بطانتها وفي مجالسها واصطناع اخدان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم
عظيمات الامور حتى لا يستقلون بحملها ولا يعرفون ما ياتون ويذرون منها
مستفسد الكبار الاولياء من قومه وصنايع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا
عن نصرته مضيعا من جنده بما انفق اعطياتهم في شهواته وحجب عنهم وجه مباشرته
وتفقده فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون وفي هذا
الطور تحصل للدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص
منه ولا يكون لها معه برء الى ان تنقرض كما نبينه في الاحوال التي نسردها والله
خير الوارثين **ف فصل في ان اثار الدولة كلها على نسبة قوتها**
في اصلها والسبب في ذلك ان الاثار انما تحدث عن القوة التي كانت
بها اولا وعلى قدرها يكون الاثر فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة
فانما يكون على نسبة قوة الدولة في اصلها لانها لا تتم الا بكثرة الفعلة واجتماع
الايدي على العمل والتعاون فيه فاذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب
كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من افاق الدولة
واقطارها فتم العمل على اعظم هياكله الا ترى الى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القران
عنها وانظر بالمشاهدة ايوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس حتى انه اعتزم الرشيد
على هدمه وتخريبه فتكاءد عنه وشرع فيه ثم ادركه العجز وقصة استشارته يحيى
بن خالد في شانه معروفة فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع اخرى على هدمه
مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك بون ما بين الدولتين
وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني امية بقرطبة والقنطرة التي على واديها
وكذلك بناء الحنايا لجلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها واثار شرشال
بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الاثار الماثلة للعيان تعلم منه اختلاف الدول
في القوة والضعف **واعلم** ان تلك الافعال للاقدمين انما كانت
بالهندام وباجتماع الفعلة وكثرة الايدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل
والمصانع ولا تتوهم ما يتوهمه العامة ان ذلك لعظم اجسام الاقدمين
عن اجسامنا في اطرافها واقطارها فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما نجد
في الهياكل والاثار ولقد ولع القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد
وثمود والعمالقة في ذلك اخبارا عريقة في الكذب من اغربها ما يحكون
عن عوج بن عناق رجل من الكنعانيين الذين قاتلهم بنو اسرائيل بالشام
زعموا انه لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس ويزيدون

الى جهلهم باحوال البشر الجهل باحوال الكواكب لما اعتقدوا ان للشمس حرارة
وانها شديدة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحر هو الضوء وان الضوء فيما قرب
من الارض اكثر لانعكاس الاشعة من سطح الارض بمقابلة الاضواء فتتضاعف
الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الاشعة المنعكسة فلا حر هنالك
بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحب وان الشمس في نفسها لا حارة
ولا باردة انما هو جسم بسيط مضيء لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق
هو فيما ذكروه من العمالقة الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني اسرائيل عند
فتحهم الشام واطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريب من هياكلنا
يشهد لذلك ابواب بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل
المحافظة على اشكالها ومقادير ابوابها وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين
اهل عصره بهذا المقدار وانما مثار غلطهم في هذا انهم استعظموا اثار الامم
ولم يفهموا حال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك وبالهندام من الاثار
العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدتها بعظم هياكلها وليس الامر كذلك
وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعما لا مستند له الا التحكم وهو ان الطبيعة
التي هي جبلة للاجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام الكرة ونهاية القوة والكمال
فكانت الاعمار اطول والاجسام اقوى لكمال تلك الطبيعة فان طرق الموت
انما هو بانحلال القوى الطبيعية فاذا كانت قوية كانت الاعمار زايدة فكان
العالم في اول نشاته تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص لنقصان
المادة الى ان بلغ هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال
وانقراض العالم وهذا راي لا وجه له الا التحكم كما تراه وليس له علة طبيعية ولا سبب
برهاني ونحن نشاهد مساكن الاولين وابوابهم وطرقهم فيما احدثوه من البنيان
والهياكل والديار والمساكن كديار ثمود المنحوتة في الصلد من الصخر بيوتا صغارا
وابوابها ضيقة وقد اشار صلى الله عليه وسلم الى انها ديارهم ونهى عن استعمال
مياههم وطرح ما عجن به واهريق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم الا ان تكونوا
باكين لئلا يصيبكم ما اصابهم وكذلك ارض عاد ومصر والشام وساير بقاع
الارض شرقا وغربا والحق ما قررناه **ومن اثار الدول ايضا حالها في الاعراس**
والولايم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون وقد مر ذلك
كله **ومن اثارها ايضا** عطايا الدول وقد تكون على نسبتها ويظهر ذلك
ولو اشرفت على الهرم فان الهمم التي تكون لاهل الدولة تكون على نسبة

ملكهم وعليهم للناس والهم لاتزال مصاحبه لهم الى انقراض الدولة واعتبر ذلك
بجوائز ابن ذي يزن لوفد قريش كيف اعطاهم من ارطال الذهب والفضة
والاعبد والوصايف عشرا عشرا ومن كرش العنبر واحدة واضعف ذلك
بعشرة امثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد
فارس وانما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الارض
والغلب للامم في العراقين والمغرب وكان الصنهاجيون بافريقية ايضا
اذا اجاز الوفد من امراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال حملا
والكساء تخوتا مملوة والحملان جنايب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك
اخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا
معدما فانما هو الملك والولاية والنعمة اخر الدهر لا العطاء الذي يستنفد يوم او بعض
يوم واخبارهم في ذلك كثيرة مسطورة وهي كلها على نسبة الدول جارية هذا جوهر
الصقلبي الكاتب قائد جيش العبيديين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان
بالف حمل من المال ولا تنتهي اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط احمد بن محمد بن
عبد الحميد عمل بما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام المامون من جميع النواحي نقلته
من كتاب جراب الدولة غلات السواد سبعة وعشرون الف الف درهم مكررة
مرتين وسبع مائة الف درهم وثمانون الف درهم ابواب المال في السواد
اربعة عشر الف الف درهم مرتين وثمانون مائة الف درهم حرة ومن الحلل
النجرانية مائتا حلة ومن طين الختم مائتان واربعون رطلا كسكر احد عشر الف
الف درهم مرتين وستمائة الف درهم حرة كور دجلة عشرون الف
الف درهم مرتين وستمائة الف درهم حرة حلوان اربعة الاف الف درهم
مرتين وثمان مائة الف درهم الاهواز خمسة وعشرون الف درهم حرة
ومن السكر ثلثون الف رطل فارس سبعة وعشرون الف الف درهم مرتين
ومن ماء الورد ثلثون الف قارورة ومن الزبيب الاسود عشرون الف رطل
كرمان اربعة الاف الف درهم مرتين ومائتا الف درهم ومن المتاع اليماني خمس
مائة ثوب ومن التمر عشرون الف رطل ومن الكمون الف رطل مكران
اربع مائة درهم حرة السند وما يليه احد عشر الف الف درهم مكررة مرتين
وخمس مائة الف درهم ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلا سجستان
اربعة الاف درهم مرتين ومن الثياب المعينة ثلثمائة ثوب ومن الفانيد
عشرون الف رطل خراسان ثمانية وعشرون الف الف مرتين ومن نقر

الفضة

الفضة الفانقرة اثنان ومن البراذين اربعة الاف ومن الرقيق الف
ارس ومن المتاع سبعة وعشرون الف ثوب ومن الاهليلج ثلثة الاف
رطل جرجان اثنا عشر الف درهم مرتين ومن الابريسم الف شقة قومس
الف الف مرتين وخمس مائة الف ومن نقر الفضة الف طبرستان والرويان
ونهاوند ستة الاف الف مرتين وثلثمائة الف ومن الفرش الطبري ستمائة
قطعة ومن الاكسية مائتان ومن الثياب خمس مائة ثوب ومن المناديل
ثلثمائة ومن الجامات ثلثمائة الري اثنا عشر الف الف مرتين ومن العسل عشرون
الف رطل همدان احد عشر الف الف درهم مرتين وثمان مائة الف درهم
ومن رب الرمانين الف رطل ومن العسل اثنا عشر الف رطل ما بين البصرة
والكوفة عشرة الاف الف درهم مرتين وسبع مائة الف درهم ماسبذان
والرمان اربعة الاف الف درهم مرتين شهرزور ستة الاف الف درهم
مرتين الموصل وما اليها اربعة وعشرون الف الف درهم مرتين ومن العسل الابيض
عشرون الف رطل اذربيجان اربعة الاف الف درهم مرتين الجزيرة وما اليها
من اعمال الفرات اربعة وثلثون الف الف درهم مرتين الكرج ثلثمائة الف
درهم كيلان خمسة الاف الف درهم مرتين ومن الرقيق الف راس ومن العسل
اثنا عشر الف زق ومن البزاة عشرة ومن الاكسية عشرون ارمينية ثلثة عشر
الف الف درهم ومن البسط المحفورة عشرون ومن الرقم خمسة مائة وثمانون
رطلا ومن المالح السور ماهي عشرة الاف رطل ومن الطريخ عشرة الاف رطل
ومن البغالي مائتان ومن البزاة ثلثون قنسرين اربع مائة الف دينار ومن
الزبيب
الف حمل دمشق اربع مائة الف دينار وعشرون الف دينار الاردن
ستة وتسعون الف فلسطين ثلثمائة الف دينار وعشرة الاف دينار
ومن الزبيب ثلثمائة الف رطل مصر الفا الف دينار مرتين وتسع مائة
الف دينار وعشرين الف دينار برقة الف الف درهم مرتين افريقية
ثلثة عشر الف الف درهم مرتين ومن البسط مائة وعشرون اليمن ثلثمائة
الف دينار وسبعون الف دينار سوى المتاع الحجاز ثلثمائة الف دينار
انتهى واما الحجاز الاندلس فالذي ذكره الثقات من مورخيها ان الناصر
عبد الرحمن ثامن ملوك بني امية الملقب بلقب الخلافة خلف في بيوت
امواله خمسة الاف الف دينار مكررة مرتين يكون جملتها بالقناطير خمس مائة
قنطار ورايت في بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه

سبعة الاف قنطار من دنانير الذهب وخمس مائة قنطار في كل سنة
واما دولة العبيديين فرايت في تاريخ ابن خلكان عند ذكر الافضل امير الجيوش
ابن بدر الجمالي المستبد على خلفائهم بمصر انه لما قتل وجد في خزانته ستمائة الف الف
دينار مكررة مرتين ومائتان وخمسون اردبا من الدراهم وما يناسب
ذلك من ذخاير الفصوص واللالي والاقمشة والامتعة والمراكب والظهر
واما هذه الدولة الحادثة التي ادركناها فاعظمها دولة الترك بمصر وكان
استقل لها ايام الناصر محمد بن قلاون منهم وغلب عليه لاول دولته الاميران
بيبرس وسلار ثم خلعه بيبرس واستبد بكرسيه وسلار رديف له فلما انتزع
الناصر الملك من يده نكب بعد مدة رديفه سلار واستصفى ذخيرته فوقفت
على جريدة احصائها ومنها نقلت من الياقوت البهرمان والبلخش اربعة
ارطال ونصف ومن الزمرد من زنة مثقال الى درهم الف ومائة حبة
وخمسون حبة ومن الذهب العين الف الف دينار مكررة مرتين واربع
مائة الف دينار مرة وفسقية مملوة ذهبا حبيبا واكياس مملوة دراهم استخرجت
من بين حايطين ولم تعلم عدتها ومن الدراهم الفا الف مكررة مرتين واحد
وسبعون الفا ومن الحلي المصاغ اربعة قناطير الى ما يناسب ذلك من الاقمشة
والامتعة والمراكب والظهر والبغال والمواشي والمماليك والجواري والعقار
وبعدها دولة بني مرين بالمغرب الاقصى وقفت على جريدة في خزانة ملوكهم
بخط صاحب المال في دولة السلطان ابي سعيد منهم ان مخلفه كان ببيت
ماله سبع مائة قنطار ونيف من الدنانير الذهب وكان في موجوده ما سوى
ذلك ما يناسبه وكان للسلطان ابي الحسن ابنه من بعده اكثر من ذلك
ولما استولى على تلمسان وجد في ذخاير سلطانها ابي تاشفين من ملوك بني عبد
الواد ثلثمائة قنطار ونيف من الذهب ما بين مسكوك ومصاغ الى ما يناسب
ذلك مما سواه **واما ملوك افريقية** من ملوك الموحدين فادركت السلطان ابا بكر
تاسع ملوكهم وقد نكب قايده واتابك عساكره محمد بن الحكيم فاستصفى منه
اربعين قنطارا من الذهب ومكيلة مد من الفصوص واللالي ونهب من فرش
بيوته قريب من ذلك واستصفى له من العقار والمملكات مثله وحضرت
بمصر ايام الملك الظاهر ابي سعيد برقوق المستولي على دولة بني قلاون منهم
وقد نكب استاذ داره الامير محمود وصادره فاخبرني متولي مصادرته ان مبلغ
ما استصفى منه من الذهب الف الف دينار مكررة مرتين وستمائة الف

دينار

دينار مكررة مرة واما سوى ذلك والمراكب والظهر والانعام والغلات
فعلى نسبة ذلك فاعتبر ذلك في نسبة الدول بعضها من بعض ن الافضل
وجد له ستمائة الف الف دينار ذهبا ومائتان وخمسون اردبا من الفضة
وخمسون الف ثوب من الديباج وعشرون الف ثوب حرير وثلثون
راحلة احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب مجوهرة زنة اثني عشر الف دينار
ومائة مسمار ذهب زنة كل واحد مائة دينار وخمسمائة صندوق كسوة
خاص والخيل والبغال والابل والرقيق والجواميس والبقر والغنم وانواع العطار
ما لا يمكن حصره فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ولا تنكرن ما ليس
بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من امثاله فتضيق حوصلتك عن ملتقط
الممكنات فكثير من الخواص اذا سمعوا امثال هذه الاخبار عن الدول السالفة
بادر بالانكار وليس ذلك من الصواب فان احوال الوجود والعمران متفاوتة
ومن ادرك منها رتبة سفلى او وسطى فلا تحصر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا
ما ينقل لنا عن دولة بني العباس وبني امية والعبيديين وناسبنا الصحيح من ذلك
والذي لا نشك فيه بالذي نشاهده من هذه الدول التي هي اقل بالنسبة اليها
وجدنا بينها بونا وهو لما بينها من التفاوت في اصل قوتها وعمران ممالكها
فالاثار كلها جارية على نسبة الاصل في القوة كما قدمناه ولا يسعنا الانكار
ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق
بالمستفيض والمتواتر وفيها المعاين والمشاهد من اثار البناء وغيره فخذ من الاحوال
المنقولة مراتب الدول في قوتها او ضعفها وضخامتها او صغرها واعتبر ذلك
بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستطرفة وذلك انه ورد على المغرب لعهد
السلطان ابي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن
بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن
والهند ودخل مدينة دلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه
وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب
الى المغرب واتصل بالسلطان ابي عنان وكان يحدث عن شان رحلته
وما راى من العجايب بممالك الارض واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند وياتي
من احواله بما يستغرب السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج الى السفر احصى
اهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر تدفع
لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس

كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك الحفل منجنيقات
على الظهر يرمي بها شكاير الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه
وامثال هذه الحكايات فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ولقيت انا يومئذ
في بعض الايام وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت ففاوضته
في هذا الشان واريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض بين الناس
من تكذيبه في الدولة فقال لي الوزير رحمه الله اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال
الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشي بالسجن وذلك ان وزيرا
اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما ادرك
وعقل سال عن اللحمان التي كان يتغذى بها فاذا قال له ابوه هذا لحم الغنم يقول
وما الغنم فيصفها له ابوه بشياتها ونعوتها فيقول يا ابت تراها مثل الفار
فينكر عليه ابوه ويقول اين الغنم من الفار وكذا في لحم البقر والابل اذ لم يعاين
في محبسه الا الفار فيحسبها كلها ابناء جنس للفار وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار
كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه اول الكتاب
فليرجع الانسان الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن
والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه
رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه اوسع شيء فلا يفرض
حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء
فاذا نظرنا اصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم من نسبة
ذلك على احواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه وقل رب زدني علما •

فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه واهل عصبيته بالموالي ::
والمصطنعين اعلم ان صاحب الدولة انما يتم امره كما قلناه بقومه فهم عصابته
وظهراؤه على شانه وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم يقلد اعمال مملكته ووزارة
دولته وجباية امواله لانهم اعوانه على الغلب وشركاؤه في الامر ومساهموه
في سائر مهماته هذا ما دام الطور الاول للدولة كما قلناه فاذا جاء الطور الثاني
وظهر الاستبداد عنهم والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بالراح صاروا في حقيقة
الامر من بعض اعدائه واحتاج في مدافعتهم عن الامر وصدهم عن المشاركة
الى اولياء اخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون
اقرب اليه من سائرهم واخص به قربا واصطناعا واولى ايثارا وجاها لما انهم
يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الامر الذي كان لهم والرتبة التي الفوها

في

في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة ح ويخصهم بمزيد التكرمة والايثارة
ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه ويقلدهم جليل الاعمال والولايات من الوزارة
والقيادة والجباية وما يختص به لنفسه ويكون خالصة له دون قومه من القاب
المملكة لانهم ح اولياؤه الاقربون ونصحاؤه المخلصون وذلك ح موذن
باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التي كان
بناء الغلب عليها ومرض قلوب اهل الدولة ح من الامتهان وعداوة السلطان
فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويعود وبال ذلك على الدولة
ولا يطمع في برئها من هذا الداء لان ما مضى يتاكد في الاعقاب الى ان يذهب
رسمها واعتبر ذلك في دولة بني امية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم
وولاية اعمالهم برجالات العرب مثل عمر بن سعد بن ابي وقاص وعبيد الله بن
زياد بن ابي سفيان والحجاج بن يوسف والمهلب بن ابي صفرة وخالد ابن
عبد القسري وابن هبيرة وموسى بن نصير وبلال بن ابي بردة ابن ابي موسى
الاشعري ونصر بن سيار وامثالهم من رجالات العرب وكذا صدرا من الدولة
بني العباس كان الاستظهار ايضا فيها برجالات العرب فلما صارت
الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الدولة
للعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت ثم بني بويه وموالي الترك
مثل بغا ووصيف واتامش وباكباك وابن طولون وابنائهم وغير هؤلاء من موالي
العجم فتصير الدولة لغير من مهدها والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده ⁂

فصل في احوال الموالي والمصطنعين في الدول اعلم ان المصطنعين في
الدول يتفاوتون في الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها
والسبب في ذلك ان المقصود في العصبية من المدافعة والمغالبة انما يتم بالنسب
لاجل التناصر في ذوي الارحام والقربى والتخاذل في الاجانب والبعداء كما قدمناه
والولاية والمخالطة بالرق او بالحلف تتنزل منزلة النسب لان امر النسب وان كان
طبيعيا فانما هو وهمي والمعنى الذي كان به الالتحام انما هو العشرة والمرافقة
وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر احوال الموت والحياة واذا حصل
الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر وهذا مشاهد بين الناس واعتبر مثله
في الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة
تتنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة وان لم يكن نسب فثمرات النسب
موجودة فاذا كانت الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم

كانت عروقها اوشج وعصابتها اصح ونسبها اصرح لوجهين احدهما انهم قبل
الملك اسوة في حالهم فلا يتميز النسب عن الولاية الا عند الاقل منهم فينزلون
منهم منزلة ذوي قرباهم واهل ارحامهم واذا اصطنعوهم بعد الملك كانت
مرتبة الملك مميزة للسيد عن المولى ولاهل القرابة عن اهل الولاية والاصطناع
لما تقتضيه احوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها فتتميز حالاتهم
ويتنزلون منزلة الاجانب ويكون الالتحام بينهم اضعف والتناصر لذلك ابعد
وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك الوجه الثاني ان الاصطناع قبل
الملك يبعد عهده عن اهل الدولة بطول الزمن ويخفى شان تلك اللحمة ويظن بها
في الاكثر النسب فيقوى حال العصبية واما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي
في معرفته الاكثر فتتبين اللحمة وتتميز عن النسب فتضعف العصبية بالنسبة الى الولاية
التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان
اصطناعه قبل حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده اشد التحاما به واقرب
قرابة اليه ويتنزل منه منزلة ابنائه واخوانه وذوي رحمه ومن كان اصطناعه
بعد حصول الملك او الرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين
وهذا مشاهد بالعيان حتى ان الدولة في اخر امرها ترجع الى استعمال الاجانب
واصطناعهم ولا يبني لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة لقرب العهد
ح باوليتهم واشراف الدولة على الانقراض فيكونون منحطين في مهوى الضعة
وانما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن اوليائها الاقدمين
وصنائعها الاولين ما يعتريهم في انفسهم من العزة على صاحب الدولة وقلة الخضوع
له ونظره بما ينظره به قبيله واهل نسبه لتاكد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالمربى
والاتصال بابائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء اهل بيته فيحصل لهم بذلك
دالة عليه واعتزاز فينافرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال
سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يبلغون رتب
المجد ويبقون على حالهم من الخارجية وهكذا شان الدول في اواخرها واكثر ما يطلق
اسم الصنائع والاولياء على الاولين واما هؤلاء المحدثون فخدم واعوان
والله ولي المؤمنين **فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان
والاستبداد عليه** اذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد
من القبيل القائمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله
بنوهم واحدا بعد واحد بحسب الترشيح فربما حدث التغلب على المنصب

من وزرائهم

من وزرائهم وحاشيتهم وسببه في الاكثر ولاية صبي صغير او مضعف من اهل
المنبت يترشح للولاية بعهد ابيه او بترشيح ذويه وخوله ويونس منه العجز
عن القيام بالملك فيقوم به كافله من وزراء ابيه او حاشيته ومواليه
او قبيله ويوري بحفظ امره عليه حتى يونس منه الاستبداد ويجعل ذلك
ذريعة فيحجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي تدعوه اليها ترف احواله
ويسيمه في مراعيها متى امكنه وينسيه النظر في الامور السلطانية حتى يستبد
عليه وهو بما عوده يعتقد ان حظ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير
واعطاء الصفقة وخطاب التهويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحل
والعقد والامر والنهي ومباشرة الاحوال الملوكية وتفقدها من النظر في الجيش
والمال والثغور انما هو للوزير ويسلم له في ذلك الى ان يستحكم له صبغة الرياسة
والاستبداد ويتحول الملك اليه ويوثر به عشيرته وابناءه من بعده كما وقع
لبني بويه والترك وكافور الاخشيدي وغيرهم بالمشرق وللمنصور بن
ابي عامر بالاندلس وقد يتفطن ذلك المغلب المحجور لشانه فيحاول على الخروج
من ربقة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على يد المتغلب عليه
اما بقتل او برفع عن الرتبة فقط الا ان ذلك في النادر الاقل لان الدولة
اذا اخذت في تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل ان تخرج عنه
لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن احوال الترف ونشاة ابناء الملك منغمسين
في نعيمه وقد نسوا عهد الرجولة والفوا اخلاق الدايات والاظار وربوا عليها
فلا ينزعون الى رياسة ولا يالفون استبدادا من تغلب انما همهم في القنوع
بالابهة والتفنن في اللذات وانواع الترف وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين
عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة
ضروري كما قدمناه وهذان مرضان لا برء للدولة منهما الا في الاقل النادر والله
يوتي الملك من يشاء **فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه
في اللقب الخاص بالملك** وذلك ان الملك والسلطان حصل لاوليه
مذ اول الدولة بعصبية قومه وعصبيته التي استتبعتهم حتى استحكمت له ولقومه
صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا
المتغلب وان كان صاحب عصبية قبيل الملك او الموالي والصنائع فعصبيته
مندرجة في عصبية اهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في الملك ولا يحاول
باستبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من الامر والنهي

والحل والعقد والابرام والنقض يوهم فيها اهل الدولة انه متصرف عن سلطانه
منفذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته
والقابه جهده ويبعد نفسه من التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه
مستتر في استبداده ذلك بالحجاب الذي ضربه السلطان واولوه على انفسهم
من القبيل منذ اول الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه
غلبه اهل العصبية وقبيل الملك وحاولوا الاستيثار به دونه لانه لم تستحكم له
صبغة في ذلك تحملهم على التسليم له والانقياد فيهلك لاول وهلة وقد وقع
مثل هذا لعبد الرحمن بن المنصور بن ابي عامر حين سما الى مشاركة هشام واهل
بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع ابوه واخوه من الاستبداد بالحل والعقد
والمراسم التابعة فطلب من هشام خليفته ان يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه
بنو مروان وسائر قريش وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار
ابن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة مرين وهلاك
المؤيد خليفتهم واستبدل منه بسواه من اعياص الدولة الى اخرها واختلت
مراسم ملكهم والله خير الوارثين **فصل في حقيقة الملك واصنافه** الملك
منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا ان البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم الا باجتماعهم
وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة
واقتضاء الحاجات ومد كل احد منهم يده الى حاجته ياخذها لما في الطبيعة الحيوانية
من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانعه الاخر عنها بمقتضى الغضب والانفة
ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المفضي الى المقاتلة وهي تؤدي
الى الهرج وسفك الدماء واذهاب النفوس المفضي ذلك الى انقطاع النوع
وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع
بعضهم عن بعض واحتاجوا من اجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى
الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من
ان المطالبات كلها والمدافعات لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك كما تراه منصب
شريف تتوجه نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شيء من ذلك
الا بالعصبيات كما مر والعصبيات متفاوتة وكل عصبية فلها تحكم وتغلب على من يليها
من قومها وعشيرها وليس الملك لكل عصبية وانما الملك في الحقيقة لمن يستعبد
الرعية ويجبي الاموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا يكون فوق يده يد قاهرة
وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل

حماية الثغور او جباية الاموال او بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته
كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الاغالبة بالقيروان ولملوك العجم صدر الدولة
العباسية ومن قصرت به عصبيته ايضا عن الاستعلاء على جميع العصبيات
والضرب على سائر الايدي وكان فوقه حكم غيره فهو ايضا ملك ناقص لم تتم حقيقته
وهؤلاء مثل ملوك النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة وكثيرا
ما يوجد هذا في الدول المتسعة النطاق اعني توجد ملوك على قومهم في النواحي القاصية
يدينون بطاعة الدولة التي جمعتهم مثل صنهاجة مع العبيديين وزناتة مع
الامويين تارة والعبيديين اخرى ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس ومثل
امراء البربر وملوكهم مع الافرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك الطوائف من الفرس
مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده والله القاهر
فوق عباده **فصل في ان ارهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر**
اعلم ان مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله وملاحة
وجهه او عظم جثمانه او اتساع علمه او جودة خطه او ثقوب ذهنه وانما مصلحتهم فيه من حيث
اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين
منتسبين فحقيقة السلطان انه المالك للرعية القائم بامورهم عليهم فالسلطان
من له رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته اليهم
هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها بمكان من الجودة
حصل المقصود من السلطان على اتم الوجوه فانها ان كانت جميلة صالحة
كان ذلك مصلحة لهم وان كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم
وهلاكا لهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان الملك اذا كان قاهرا باطشا
بالعقوبات منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل
ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم واخلاقهم
وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات
وربما اجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج وان دام امره عليهم وقهره
فسدت العصبية لما قلناه اولا وفسد السياج من اصله بالعجز عن الحماية واذا كان
رفيقا بهم متجاوزا عن سيئاتهم استناموا اليه ولاذوا به واشربوا محبته واستماتوا
دونه في محاربة اعدائه فاستقام الامر من كل جانب واما توابع حسن الملكة فهي النعمة
عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة عنهم بها تتم حقيقة الملك واما النعمة عليهم والاحسان
لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي اصل كبير في التحبب الى الرعية

واعلم انه قل ما يكون ملكة الرفق فيمن يكون يقظا شديد الذكاء من الناس
واكثر ما يوجد الرفق في الغفل والمتغفل واقل ما في اليقظ انه يكلف الرعية فوق
طوقهم لنفوذ نظره فيهم فيما وراء مداركهم واطلاعه على عواقب الامور في مباديها
بالمعية فيهلكون لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سير اضعفكم ومن هذا الباب
اشترط الشارع في الحاكم قلة الافراط في الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن ابي سفيان
لما عزله عمر عن العراق وقال لم عزلتني يا امير المومنين الجرم ام لخيانة فقال عمر لم اعزلك
لواحدة منهما ولكن كرهت ان احمل فضل عقلك على الناس فاخذ من هذا ان الحاكم
لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن ابي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع
ذلك من التعسف وسوء الملكة وحمل الوجود على ما ليس في طبيعته كما ياتي في آخر
هذا الكتاب والله خير المالكين وتقرر من هذا ان الكيس والذكاء عيب في صاحب
السياسة لانه افراط في الفكر كما ان البلادة افراط في الجمود والطرفان مذمومان
من كل صفة انسانية والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة
مع الهوج والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد
الكيس بصفات الشيطان فيقال شيطان ومتشيطن وامثال ذلك والله
يخلق ما يشاء

فصل في معنى الخلافة والامامة

لما كانت حقيقة الملك
انه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب
والحيوانية كانت احكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق مجحفة بمن تحت يده
من الخلق في احوال دنياهم لحمله اياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من اغراضه
وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر
طاعته لذلك وتجيء العصبية المفضية الى الهرج والقتل فوجب ان يرجع في ذلك
الى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون الى احكامها كما كان
للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب
امرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل فاذا كانت هذه القوانين
مفروضة من العقلاء واكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية واذا كانت
مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الدنيا
والآخرة وذلك ان الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث
وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله يقول افحسبتم انما خلقناكم عبثا فالمقصود
بهم انما هو دينهم المفضي الى السعادة في آخرتهم صراط الله الذي له ما في السموات
وما في الارض فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع احوالهم من عبادة ومعاملة

حتى

حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فاجرته على منهج الدين ليكون الكل
محوطا بنظر الشرع فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واهمال القوة الغضبية
في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده كما هو في مقتضى الحكمة السياسية وما كان
منه بمقتضى السياسة واحكامها ليكون الكل محوطا بنظر الشرع فمذموم ايضا لانه
نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور لان الشارع اعلم بمصالح
الكافة فيما هو مغيب عنهم من امور آخرتهم واعمال البشر كلها عائدة عليهم من ملك
او غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هي اعمالكم ترد عليكم واحكام السياسة انما تطلع
على مصالح الدنيا فقط يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا ومقصود الشارع بالناس
صلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الاحكام الشرعية في احوال دنياهم
وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء عليهم السلام ومن قام مقامهم
وهم الخلفاء فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة وان الملك الطبيعي هو حمل
الكافة على مقتضى الغرض والشهوة والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي
في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي
في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع
الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين
وسياسة الدنيا به فافهم ذلك واعتبره فيما نورده عليك من بعد والله الحكيم العليم

فصل في اختلاف الامة في حكم الخلافة وشروطها

واذ قد بينا حقيقة
هذا المنصب وانه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به
ويسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماما وسماه المتأخرون سلطانا حين فشا
التعدد واضطروا بالتباعد وفقدان شروط المنصب ان يعقدوا البيعة لكل
متغلب فاما تسميته اماما فتشبيها بامام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا
يقال الامامة الكبرى واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في امته فيقال خليفة
باطلاق الله فاجازه قوم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله
تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقوله جعلكم خلائف الارض ومنع الجمهور منه
لان معنى الآية ليس عليه وقد نهى ابو بكر عنه لما دعي به وقال لست خليفة
الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو في حق
الغائب واما الحاضر فلا ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع
باجماع الصحابة والتابعين لان اصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة ابي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر اليه

في امورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم يترك الناس فوضى في عصر
من الاعصار واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام وقد ذهب
بعض الناس الى ان مدرك وجوبه العقل وان الاجماع الذي وقع فانما هو
قضاء بحكم العقل فيه قالوا وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع بالبشر واستحالة
حياتهم ووجودهم منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض
فما لم يكن الحاكم الوازع افضى الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم
مع ان حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي
لحظ الحكماء في وجوب النبوات في البشر وقد نبهنا على فساده وان احدى مقدماته
ان الوازع انما يكون بشرع من الله تسلم له الكافة تسليم ايمان واعتقاد
وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر اهل الشوكة ولو لم يكن
شرع كما في امم المجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب او لم تبلغه الدعوة او نقول
يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل فادعاؤهم ان ارتفاع
النزاع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير صحيح بل كما يكون بنصب
الامام يكون بوجود الرؤساء اهل الشوكة او بامتناع الناس عن التنازع والتظالم
فلا ينتهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على ان مدرك وجوبه انما هو
بالشرع وهو الاجماع الذي قدمناه وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب
هذا المنصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض الخوارج
وغيرهم والواجب عند هؤلاء انما هو امضاء احكام الشرع فاذا تواطأت
الامة على العدل وتنفيذ احكام الله لم تحتج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء محجوجون
بالاجماع والذي حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه
من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا لما رأوا الشريعة ممتلئة
بذم ذلك والنعي على اهله ومرغبة في رفضه واعلم ان الشرع لم يذم الملك
لذاته انما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات
ولا شك ان في هذه مفاسد محظورة وهي من توابعه كما اثنى على العدل
والنصفة واقامة مراسم الدين ... للملك على صفة وحال دون اخرى ولم يذمه
ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين وليس مراده
تركهما بالكلية لدعاية الضرورة اليهما وانما المراد تصريفهما على مقتضى الحق
وقد كان لداود وسليمان صلوات الله عليهما الملك الذي لم يكن
لغيرهما وهما من انبياء الله واكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار

عن الملك

عن الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يغنيكم شيئا فانكم موافقون على وجوب
اقامة احكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالشوكة والعصبية والشوكة
مقتضية بطبعها الملك ولو لم ينصب امام وهو عين ما فررتم عنه
واذا تقرر ان هذا المنصب واجب بالاجماع فهو من فروع الكفاية وراجع
الى اختيار اهل الحل والعقد فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعا طاعته
لقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ولا يجوز عقد هذا المنصب
لاثنين معا وعليه جمهور العلماء وقوفا مع ظواهر الاحاديث التي دلت
على ذلك في صحيح مسلم في كتاب الامارة وذهب آخرون الى ان ذلك انما هو
في البلد الواحد في حال تقاربهما واما عند التباعد وقصور الامام عن البلد
الشاسع فيجوز نصب آخر هنالك للقيام بالمصالح ومن المشاهير الذين
نقل عنهم ذلك الاستاذ ابو اسحق الاسفرايني شيخ المتكلمين ومال اليه
امام الحرمين في كتاب الارشاد وربما يظهر من اراد الاندلسيين والمغاربة
الميل اليه فقد كان العلماء بالاندلس متوافرين وبايعوا لبني امية ولقبوا
الناصر عبد الرحمن منهم وابناءه بامير المؤمنين التي هي سمة الخلافة كما يأتي وكذا
الموحدون بعدهم بالمغرب وقد رد بعضهم ذلك بالاجماع وهو غير ظاهر اذ لو كان
هناك اجماع لم يخالفه الاستاذ ابو اسحق ولا امام الحرمين فهم اقعد بمعرفة
الاجماع نعم رد على الامام المازري والنووي وقوفا مع ظواهر الاحاديث
كما قلناه وربما احتج لذلك بعض المتأخرين بدليل التمانع الذي في التنزيل
وهو قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولا ينهض الاستدلال على ذلك
الكريمة لان دلالتها عقلية نبهنا الله عليها ليحصل لنا التوحيد الذي امرنا باعتقاده
بدليل عقلي فيكون ارسخ ومطلوبنا في الامامة المنع من نصب امامين وهو
شرعي فلا يتم الاستدلال بها الا ان تقرر بها شرعية بزيادة مقدمة اخرى
وهي ان التعدد منشأ عنه الفساد ونحن ممنوعون مما يجر اليه ويصير الاستدلال
بها حينئذ شرعيا والله اعلم واما شروط هذا المنصب فهي اربعة العلم والعدالة
والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلف
في شرط خامس وهو النسب القرشي فاما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون منفذا
لاحكام الله اذا كان عالما بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها ولا يكفي من العلم
الا ان يكون مجتهدا لان التقليد نقص والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف
والاحوال واما العدالة فلانه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي

شرف فيها فكان اولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه
بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وامثالها وفي انتفائها بالبدع
الاعتقادية خلاف واما الكفاية فهو ان يكون جريا على اقامة الحدود واقتحام
الحروب بصيرا بها عارفا بالعصبية واحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة
ليصح له بذلك ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام
وسياسة الدنيا وتدبير المصالح واما سلامة الحواس والاعضاء
من النقص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس وما يوثر فقده من الاعضاء
في العمل كفقدان اليدين والرجلين والانثيين فتشترط السلامة منها
كلها لتاثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان انما يشين في المنظر
فقط كفقد احد هذه الاعضاء فيشترط السلامة منه شرط كمال ويلحق بفقد
الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق بهذه في اشتراط
السلامة منه شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف جملة بالاسر وشبهه
وضرب لا يلحق بهذه وهو الحجر باستيلاء بعض اعوانه عليه من غير عصيان
ولا مشاقة فينتقل النظر في حال هذا المستولي فان جرى على حكم الدين والعدل
والسياسة جاز اقراره والا استنصر المسلمون من يقبض يده على ذلك
ويدفع علته حتى ينفذ فعل الخليفة واما النسب القرشي فلاجماع الصحابة
يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على الانصار لما هموا يومئذ
ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا امير ومنكم امير بقوله صلى الله عليه وسلم الائمة
من قريش وبان النبي صلى الله عليه وسلم اوصانا بان نحسن الى محسنكم ونتجاوز
عن مسيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فحج الانصار ورجعوا
عن قولهم منا امير ومنكم امير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة سعد بن
لذلك وثبت ايضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في الحي من قريش وامثال
هذه الادلة كثيرة الا انه لما ضعف امر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم
من الترف والنعيم وبما انفقتهم الدولة في سائر الاقطار عجزوا لذلك عن حمل
الخلافة وتغلبت عليهم الاعاجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك
على كثير من المحققين حتى ذهبوا الى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك
مثل قوله صلى الله عليه وسلم اسمعوا واطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة
وهذا لا تقوم به حجة في ذلك فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب
السمع والطاعة ومثل قول عمر رضي الله عنه لو كان سالم مولى ابي حذيفة

حيا لوليته او لما داخلتني فيه الظنة وهو ايضا لا يفيد ذلك لما علمت
ان مذهب الصحابي ليس بحجة وايضا فمولى القوم منهم وعصبية الولاء
حاصلة لسالم من قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم
عمر امر الخلافة وراى شروطها كانها مفقودة عدل الى سالم لتوفر شروط
الخلافة عنده فيه حتى من الولاء المفيد للعصبية كما نذكر ولم يبق الا صراحة
النسب فراه غير محتاج اليه اذ الفائدة في النسب انما هي العصبية من الولاء
وكان ذلك حرصا من عمر على النظر للمسلمين وتقليد امرهم لمن لا تلحقه
به لائمة ولا عليه فيه عهدة **ومن القائلين** بنفي اشتراط القرشية القاضي
ابو بكر الباقلاني لما ادرك عليه عصبية قريش من التلاشي والاضمحلال
واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فاسقط شرط القرشية وان كان موافقا
لراي الخوارج لما راى عليه حال الخلفاء لعهده وبقي الجمهور على القول باشتراطها
وصحة الامامة للقرشي ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين ورد عليهم
سقوط شرط الكفاية التي بها يقوى على امره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب
العصبية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك
ايضا الى العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع
ولنتكلم الان في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب
فنقول ان الاحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع
لاجلها ونحن اذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع
منه لم تقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم كما هو المشهور وان كانت
الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية
كما علمت فلا بد اذا من مصلحة في اشتراط النسب هي المقصودة من مشروعيته
واذا سبرنا وقسمنا لم نجدها الا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة
ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن اليه الملة واهلها
وينتظم حبل الالفة فيها وذلك ان قريشا كانوا انف مضر واصلهم واهل
الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان
سائر العرب يعترفون لهم بذلك ويستكينون لغلبهم فلو قد جعل الامر في سواهم
لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ولا يقدر غيرهم من قبائل
مضر ان يردهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكرة فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة
والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع التنازع والشتات

بينهم لتحصل الكلمة والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش
لانهم قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراد منهم فلا يخشى من احد
خلاف عليهم ولا فرقة لانهم كفيلون حينئذ بدفعها ومنع الناس منها فاشترط
نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم اهل العصبية القوية ليكون ابلغ في انتظام
الملة واتفاق الجماعة واذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر
اجمع فاذعن لهم ساير العرب وانقادت الامم سواهم الى احكام الملة
ووطيت جنودهم قاصية البلاد كما وقع في ايام الفتوحات واستمر بعدها
في الدولتين الى ان اضمحل امر الخلافة وتلاشت عصبية العرب ويعلم ما كان
لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من مارس اخبار العرب وسيرهم
وتفطن لذلك من احوالهم وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السير
وغيره واذا ثبت ان اشتراط القرشية لرفع التنازع بما كان لهم من العصبية
والغلب وعلمنا ان الشارع لا يخص الاحكام بجيل ولا عصر ولا امة علمنا ان ذلك
انما هو للكفاية فرددناه اليها وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية
وهي وجود العصبية فاشترطنا في القايم بامور المسلمين ان يكون من قوم
اولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة
على حسن الحماية ولا يعم ذلك في الاقطار والافاق كما كان في القرشية اذ الدعوة
الاسلامية التي كانت لهم كانت عامة وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا
ساير الامم وانما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة
واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا لانه سبحانه انما جعل الخليفة نايبا
عنه في القيام بامور عباده ليحملهم على مصالحهم ويردهم عن مضارهم وهو
مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر من لا قدرة له عليه الا ترى ما ذكره الامام
ابن الخطيب في شان النساء وانهن في كثير من الاحكام الشرعية جعلن تبعا
للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وانما دخلن عنده بالقياس وذلك
لما لم يكن لهن من الامر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات
التي كل احد فيها قايم على نفسه فخطابهن فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود
شاهد بذلك فانه لا يقوم بامر امة او جيل الا من غلب عليهم وقل ان يكون الامر
الشرعي مخالفا للامر الوجودي والله

فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة

اعلم ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ويطلق في عرف الفقهاء
والمتكلمين على اتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه

ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الامة و
يتعين القايم بها بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لنبي
اغفاله ولا تفويضه الى الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما
من الكباير والصغاير وان عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله
عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة اهل
السنة ولا نقلة الشريعة بل اكثرها موضوع او مطعون في طريقه او بعيد
عن تاويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص عندهم الى جلي وخفي فالجلي
مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه الولاية الا في علي ولهذا
قال له عمر اصبحت مولى كل مومن ومومنة ومنها قوله اقضاكم علي ولا معنى
للامامة الا القضاء باحكام الله وهو المراد باولي الامر الواجبة طاعتهم
من الله بقوله اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم والمراد الحكم والقضاء
ولهذا كان حكما في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من يبايعني
على روحه وهو وصيي وولي هذا الامر من بعدي فلم يبايعه الا علي ومن الخفي
عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين
حين انزلت فانه بعث بها اولا ابا بكر ثم اوحي اليه ليبلغه رجل منك او من قومك
فبعث عليا ليكون القاري المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي ايضا فلم يعرف
انه قدم احدا على علي واما ابو بكر وعمر فقدم عليهما في غزاتين اسامة بن زيد مرة
وعمرو بن العاص اخرى وهذه كلها عندهم ادلة شاهدة بتعين علي للخلافة
دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تاويلهم ثم منهم من يرى
ان هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه وكذلك تنتقل منه الى من بعده
وهولاء هم الامامية ويتبرؤون من الشيخين حين لم يقدموا عليا ويبايعوه
بمقتضى هذه النصوص ويغمصون في امامتهما ولا يلتفت الى نقل القدح
فيهما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه
الادلة انما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون
حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهولاء هم الزيدية ولا يتبرؤون من
الشيخين ولا يغمصون في امامتهما مع قولهم بان عليا افضل منهما لكنهم يجوزون
امامة المفضول مع وجود الافضل ثم اختلف هولاء الشيعة في مساق احدا
من احد على ما يذكر بعد وهولاء يسمون الامامية نسبة الى مقالتهم باشتراط
معرفة الامام وتعيينه في الايمان وهي اصل مذاهبهم ومنهم من ساقها في ولد

فاطمة لكن بالاختيار من الشيعة ويشترط ان يكون الامام منهم عالما زاهدا
جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى الامامة وهولاء هم الزيدية نسبة الى صاحب
المذهب وهو زيد ابن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر اخاه محمد الباقر
على اشتراط الخروج في الامام فيلزمه الباقر ان لا يكون ابوهما زين العابدين
اماما لانه لم يخرج ولا تعرض للخروج وكان مع ذلك ينعى عليه مذاهب المعتزلة
واخذه اياها عن واصل بن عطا ولما ناظر الامامية زيدا في امامة الشيخين
وراوه يقول بامامتهما ولا يتبرا منهما رفضوه ولم يجعلوه من الائمة وبذلك
سموا رافضة ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك
الى اخيهما محمد بن الحنفية ثم الى ولده وهم الكيسانية نسبة الى كيسان مولاه
وبين هذه الطوايف اختلافات تركناها اختصارا وفيهم طوايف يسمون
الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان في القول بالاهية هولاء الائمة
اما انه بشر اتصف بصفات الالوهية او ان الاله حل في ذاته البشرية
وهو قول بالحلول يوافق مذاهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق
علي رضي الله عنه بالنار من ذهب الى ذلك فيه منهم وسخط محمد بن الحنفية المختار
بن ابي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه فصرح بلعنه والبراءة منه وكذلك فعل
جعفر الصادق بمن بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون
لغيره فاذا مات انتقل روحه الى امام اخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول
بالتناسخ ومن هولاء الغلاة من يقف عند واحد من الائمة لا يتجاوزه الى غيره
بحسب من تعين لذلك عندهم وهولاء هم الواقفية فبعضهم يقول هو
حي لم يمت الا انه غايب عن اعين الناس ويستشهدون لذلك
بقضية الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وانه في السحاب
والرعد صوته والبرق سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية
وانه في جبل رضوى من ارض الحجاز قال شاعرهم كثير
الا ان الايمة من قريش ولاة الحق اربعة سواء علي والثلاثة
من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء فسبط سبط ايمان وبر وسبط
غيبته كربلاء وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء وقال مثله غلاة
غلاة الامامية وخصوصا الاثنا عشرية منهم يزعمون ان الثاني عشر من ائمتهم
هو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة

وتغيب حين اعتقل مع امه وغاب هنالك وهو يخرج اخر الزمان فيملأ
الارض عدلا يشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي
وهم الى الان ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ويقفون في كل ليلة قبل
قبل صلوة المغرب بباب هذا السرداب وقد قربوا مركبا فيهتفون باسمه
ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الامر الى الليلة
القابلة وهم على ذلك لهذا العهد **وبعض هولاء** الواقفية يقولون الامام
الذي مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القران الكريم
من قصة اهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل بني اسرائيل حين ضرب بعظام
البقرة التي امروا بذبحها ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة
فلا يصح الاستشهاد بها في غير موضعها وكان من هولاء السيد الحميري ومن شعره
في ذلك اذا ما المرء شاب له قذال وعلله المواشط بالخضاب
فقد ذهبت بشاشته واودى فقم يا صاح نبك على الشباب
فليس بعايد ما فات منه الى احد الى يوم الاياب الى يوم يؤوب الناس
فيه الى دنياهم قبل الحساب اديني بان ذلك دين حق وما انا في النشور
بذي ارتياب كذاك الله اخبر عن اناس حيوا من بعد درس في التراب
وقد كفانا مؤنة هولاء الغلاة ائمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويبطلون احتجاجهم
عليها **واما الكيسانية** فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه ابي هاشم
وهولاء هم الهاشمية ثم افترقوا فمنهم من ساقها بعده الى اخيه علي ثم الى ابنه الحسن
بن علي واخرون زعموا ان ابا هاشم لما مات بارض السراة منصرفا من الشام
اوصى الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس واوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف
بالامام واوصى ابراهيم الى اخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح واوصى
هو الى اخيه عبد الله ابي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص
والعهد واحدا بعد واحد الى اخرهم وهذا مذهب الهاشمية القايمين بدولة
بني العباس وكان منهم ابو مسلم وسليمان بن كثير وابو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة
العباسية وربما يعضدون ذلك بان حقهم في هذا الامر يصل اليهم من العباس
لانه كان حيا عند الوفاة وهو اولى بالوراثة بعصبية العمومة **واما الزيدية**
فساقوا الامامة على مذهبهم فيها وانها باختيار اهل الحل والعقد لا بالنص
فقالوا بامامة علي ثم ابنه الحسن ثم اخيه الحسين ثم ابنه علي زين العابدين
ثم ابنه زيد بن علي الشهيد وهو صاحب هذا المنصب بامامة ابنه يحيى

من بعده فمضى الى خراسان وقتل بالجوزجان بعد ان اوصى الى محمد بن عبد الله
بن عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط ويقال له النفس الزكية فخرج بالحجاز
وتلقب بالمهدي وجاءته عساكر المنصور فهزم وقتل واوصى بالامر لاخيه ابرهيم
فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فزحف اليهم المنصور في عساكره
او قواده فهزم وقتل ابرهيم وعيسى وكان جعفر الصادق قد اخبرهم بذلك
كله وهي معدودة في كراماته وذهب اخرون منهم الى ان الامام بعد بن
عبد الله النفس الزكية هو محمد بن القاسم ابن علي بن عمر وعمر اخو زيد
بن علي فخرج محمد بن القاسم بالطالقان فقبض عليه وسيق الى المعتصم
فحبس ومات في حبسه وقال اخرون من الزيدية ان الامام بعد يحيى بن زيد
هو اخوه عيسى الذي حضر مع ابرهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور ونقلوا
الامامة في عقبه واليه انتسب دعي الزنج كما نذكره في اخبارهم وقال اخرون
من الزيدية ان الامام بعد محمد بن عبد الله اخوه ادريس الذي فر الى المغرب
ومات هنالك وقام بامره ابنه ادريس بن ادريس واختط مدينة
فاس وامر الزيدية بعد ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان
وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط
واخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الاطروش منهم
واسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر وعمر اخو زيد بن علي
وكانت لبنيه في طبرستان دولة وتوصل الديلم من نسبهم الى الملك والاستبداد
على الخلفاء ببغداد كما نذكر في اخبارهم **واما الامامية** فساقوا
الامامة من علي الرضي الى ابنه الحسن بالوصية ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه
علي زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ومن هنا
افترقوا فرقتين ففرقة ساقوها الى ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم
الاسماعيلية وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم
عند الثاني عشر من الائمة وقولهم بغيبته الى اخر الزمان كما مر فاما الاسماعيلية
فقالوا بامامة اسمعيل بالنص من ابيه جعفر وفائدة النص عليه عندهم وان كان
قد مات قبل ابيه انما هي بقاء الامامة في عقبه كقصة هارون مع موسى صلوات
الله عليهما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو اول
الائمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر ويكون دعاته
ظاهرين اقامة للحجة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهر واظهر دعوته قالوا وبعد

محمد

محمد المكتوم ابنه جعفر المصدق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو اخر المستورين
وبعده ابنه عبيد الله المهدي الذي ظهر داعيته ابو عبد الله الشيعي في كتامة
وبايع الناس على دعوته ثم اخرجه من معتقله بسجلماسة وملك القيروان
والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في اخبارهم ويسمى
ويسمى هولاء الاسماعيلية نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون ايضا
الباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن اي المستور ويسمون ايضا الملحدة
لما في ضمن مقالتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة ومقالات جديدة دعا اليها
الحسن ابن محمد الصباح في اخر المائة الخامسة وملك حصونا بالشام والعراق
ولم تزل دعوته فيها الى ان توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك
الترك بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب
الملل والنحل للشهرستاني واما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الامامية عند
المتاخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم ابن جعفر لوفاة اخيه الاكبر اسمعيل
الامام في حياة ابيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد
اليه المامون ومات قبله فلم يتم له امر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي
ثم ابنه الحسن العسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمنا ذكره وفي كل واحدة
من هذه المقالات للشيعة اختلاف كثير الا ان هذه اشهر مذاهبهم ومن اراد استيعابها
ومطالعتها فعليه بكتب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها
بيان ذلك والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء **فصل في انقلاب
الخلافة الى الملك** اعلم ان الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها
باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلناه من قبل وان الشرائع والديانات
وكل امر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية اذ المطالبة لا تتم الا بها
كما قدمناه فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم امر الله منها وفي الصحيح
ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه ثم وجدنا الشارع قد ذم العصبية
وندب الى اطراحها وتركها فقال ان الله اذهب عنكم عبية الجاهلية
وفخرها بالاباء انتم بنو آدم وآدم من تراب وقال تعالى ان اكرمكم
عند الله اتقاكم ووجدناه ايضا قد ذم الملك واهله ونعى على اهله احوالهم
من الاستمتاع بالخلاق والاسراف في غير القصد والتنكب عن صراط
الله وانما حض على الالفة في الدين وحذر من الخلاف والفرقة واعلم ان الدنيا
واحوالها كلها عند الشارع مطية للاخرة ومن فقد المطية فقد الوصول

وليس مراده فيما ينهى عنه او يذمه من افعال البشر او يندب الى تركه اهماله
بالكلية او اقتلاعه من اصله وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية انما قصده
تصريفها في اغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة
كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله
ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امراة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر
اليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الانسان فانه لو زالت منه
قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم
الغضب للشيطان والاغراض الذميمة فاذا كان الغضب لله وفي الله
كان ممدوحا وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات ايضا
ليس المراد ابطالها بالكلية فان من بطلت شهوته كان نقصا في حقه وانما المراد
تصريفها فيما ابيح له باشتماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوع
الاوامر الالهية وكذا العصبية حيث ذمها الشرع وقال لن تنفعكم ارحامكم
ولا اولادكم فانما مراده حيث تكون العصبية على الباطل واحواله كما كانت
في الجاهلية وان يكون لاحد فخر بها او حق على احد لان ذلك مجان من افعال
العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فاما اذا كانت العصبية في
الحق واقامة امر الله فامر مطلوب ولو بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها
الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب
بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه لما فيه من التغلب
بالباطل وتصريف الآدميين طوع الاغراض والشهوات كما قلناه
فلو كان الملك مخلصا في غلبه للناس انه لله ولحملهم على عبادة الله وجهاد
عدوه لم يكن ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب
هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي لما علم من نفسه انه بمعزل عن الباطل
في النبوة والملك ولما لقي معوية عمر بن الخطاب عند قدومه الى الشام
في ابهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال اكسروية
يا معاوية فقال يا امير المؤمنين انا في ثغر تجاه العدو وبنا الى مباهاتهم
بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بمقاصد
الحق والدين فلو كان القصد رفض الملك من اصله لم يقنعه هذا الجواب
في تلك الكسروية وانتحالها بل كان يحرض على خروجه عنها بالجملة وانما اراد عمر
بالكسروية ما كان عليه اهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والبغي وسلوك

سبله

سبله والغفلة عن الله واجابه معاوية بان القصد بذلك ليس كسروية
فارس وباطلهم وانما قصده بها وجه الله فسكت وهكذا كان شأن الصحابة
في رفض الملك واحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسها بالباطل
فلما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف ابا بكر على الصلاة اذ هي
اهم امور الدين وارتضاه الناس للخلافة وهي حمل الكافة على احكام الشريعة
ولم يجر للملك ذكر لما انه مظنة للباطل ونحلة يومئذ لاهل الكفر واعداء الدين
فقام بذلك ابو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه وقاتل اهل الردة حتى
اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاتبع اثره وقاتل الامم فغلبهم واذن
في انتزاع ما بايديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم
صارت الى عثمان ثم الى علي والكل متبرؤن من الملك منكبون عن طرقه وكذلك
لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبداوة العرب فقد كانوا ابعد الامم
عن احوال الدنيا وترفها لا من حيث دينهم الذي يدعوهم الى الزهد في النعيم
ومن حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشظفه الذي
القوه فلم تكن امة من الامم اشغب عيشا منهم من مضر لما كانوا بالحجاز في ارض
غير ذي زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياف وحبوبها لبعدها وا
واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتطاولون الى خصبها
ولقد كانوا كثيرا ما ياكلون العقارب والخنافس ويفخرون باكل العلهز وهو
وبر الابل يمهونه بالحجارة في الدم ويطبخونه وقريبا من هذا كانت حال قريش
في مطاعمهم ومساكنهم حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما اكرمهم
الله به من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم زحفوا الى امم فارس والروم وطلبوا
ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصدق فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم
فزخرت بحار الرفه لديهم حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات
ثلثين الفا من الذهب او نحوها فاستولوا من ذلك على ما لا ياخذه الحصر وهم
مع ذلك على خشونة عيشهم وكان عمر يرقع ثوبه بالجلد وكان علي يقول يا صفراء
ويا بيضاء غري غيري وكان ابو موسى يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم يعهدها
للعرب لقلتها يومئذ وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وانما كانوا
ياكلون الحنطة بنخالها ومكاسبهم مع هذا اتم ما كانت لاحد من اهل العالم
قال المسعودي في ايام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل
عند خازنه خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم وقيمة

ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتي الف دينار وخلف ابلا
وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف
دينار وخلف الف فرس والف امة وكانت غلة طلحة من العراق الف
دينار كل يوم ومن ناحية الشراة اكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن
بن عوف الف فرس وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه
بعد وفاته اربعة وثمانين الفا وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة
ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة الف دينار
وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك
بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج
وبنى سعد بن ابي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها واوسع فضاءها وجعل
على اعلاها شرفات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر
والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين الف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته
ثلثمائة الف درهم انتهى كلام المسعودي وكانت مكاسب القوم كما تراه
ولم يكن ذلك منعيا عليهم في دينهم اذ هي اموال حلال لانها غنائم وفيوء ولم يكن
تصرفهم فيها باسراف انما كانوا على قصد في احوالهم كما قلناه فلم يكن ذلك بقادح
وان كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع لما اشرنا اليه من الاسراف
والخروج به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه
كان ذلك الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت
البداوة والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلناه
وحصل التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم الرفه والاستكثار من الاموال
فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب
الحق ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها
الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي او لايثار باطل او لاستشعار
حقد كما يتوهمه متوهم او ينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم في الحق وخالف
كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا
فلم يكن معاوية قائما فيها بقصد الباطل انما قصد الحق واخطأ والكل كانوا في مقاصدهم
على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن
لمعاوية ان يدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو امر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها
واستشعرته بنو امية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتضاء الحق من اتباعهم فاعصوا

صبوا عليه واستماتوا دونه ولو قد حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم
في الانفراد بالامر لوقع افتراق الكلمة التي كان جمعها وتاليفها اهم عليه من امر
ليس وراءه كبير مخالفة وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول اذا راى القسم
بن محمد ابن ابي بكر لو كان لي من الامر شيء لوليته الخلافة ولو اراد ان يعهد
اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني امية اهل الحل والعقد لما ذكرناه فلا يقدر
ان يحول الامر عنهم لئلا تقع الفرقة وهذا كله انما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى
العصبية فالملك اذا حصل وفرضنا ان الواحد انفرد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه
لم يكن في ذلك نكير عليه وقد انفرد سليمان من الانفراد وكانوا ما علمت من النبوة
والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو امية
لم يرضوا تسليم الامر لمن سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا عليه مع ان ظنهم
كان به صالحا ولا يرتاب احد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن ليعهد
اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك
كان مروان بن الحكم وابنه وان كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب
اهل البطالة والبغي انما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة تحملهم على بعضها
مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو اهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا
عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من احوالهم فقد احتج مالك في الموطا
بعمل عبد الملك واما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وفضله
معروف ثم تدرج الامر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي
كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع الى طريقة الخلفاء الاربعة
والصحابة جهده فلم يهمل ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في اغراضهم الدنيوية
ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها
فكان ذلك مما دعا الناس الى ان نعوا عليهم افعالهم وادالوا بالدعوة العباسية
منهم وولي رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق
ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده وكان منهم الصالح والطالح
ثم افضى الامر الى بنيهم فاعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا ونبذوا
الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من ايدي العرب جملة
وامكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء
والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكى المسعودي
مثله في احوال بني امية عن ابي جعفر المنصور وقد حضر عمومته فذكروا بني امية

فقال اما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع واما سليمان فكان همه بطنه وفرجه واما عمر فكان اعور بين عميان وكان رجل القوم هشام ولم يزل بنو امية ضابطين لما مهد لهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسنمهم معالي الامور ورفضهم ادانيها حتى افضى الامر الى ابنائهم المترفين وكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باستدراجه وامنا لمكره مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز والبسهم الذل ونفى عنهم النعمة ثم استحضر عبد الله مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل ارضه فارا من بني العباس قال اقمت مليا ثم اتاني ملكهم فقعد على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقلت ما منعك من القعود على ثيابنا فقال اني ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترا على ذلك عبيدنا واتباعنا قال فلم تطؤن الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم قلت فعل ذلك عبيدنا واتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فاطرق ينكت بيده في الارض ويقول عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع راسه الي وقال ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحللتم ما حرم واتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم العز والبسكم الذل بذنوبكم ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وانا خايف ان يحل بكم العذاب وانتم ببلدي فينالني معكم وانما الضيافة ثلث فتزود ما احتجت اليه وارتحل عن ارضي فتعجب المنصور واطرق فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك وان الامر كان في اوله خلافة ووازع كل احد فيها من نفسه وهو الدين وكانوا يوثرونه على امور دنياهم وان افضت الى هلاكهم وحدهم دون الكافة فهذا عثمان لما حصر في الدار جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وامثالهم يريدون المدافعة عنه فابى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظا للالفة التي بها حفظ الكلمة ولو ادى الى هلاكه وهذا علي ما اشار عليه المغيرة لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على اعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة وله بعد ذلك ما شاء من امره وكان ذلك من سياسة الملك فابى فرارا من الغش الذي ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة

فقال اشرت عليك بالامس بما اشرت ثم عدت الى نظري فعلمت انه ليس من الحق والنصيحة وان الحق فيما رايته انت فقال علي لا والله بل اعلم انك نصحتني بالامس وغششتني اليوم ولكن منعني مما اشرت به ذايد الحق وهكذا كانت احوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع فقد رايت كيف صار الامر الى ذلك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الاول من بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق الا اسمها وصار الامر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت في اغراضها من القهر والتحكم في الشهوات والملاذ وهكذا كان الامر لخلف بني عبد الملك ولمن جاء بعد المعتصم والمتوكل من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضها ببعض ثم ذهب رسم الخلافة واثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي احوالهم وبقي الامر ملكا بحتا كما كان الشان في ملوك العجم بالمشرق يدينون بطاعة الخليفة تبركا والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع العبيديين ومغراوة وبني يفرن ايضا مع خلفاء بني امية بالاندلس والعبيديين بالقيروان فقد تبين ان الخلافة قد وجدت بدون الملك اولا ثم التبست معانيهما واختلطت ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار

فصل في معنى البيعة

اعلم ان البيعة هي العهد على الطاعة كان المبايع يعاهد اميره على ان يسلم له النظر في امر نفسه وامور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الامر على المنشط والمكره وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده توكيدا للعهد فاشبه ذلك فعل البايع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالايدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة وحيث ما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء ومنه ايمان البيعة لان الخلفاء كانوا يستحلفون على هذا العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك فسمي هذا الاستيعاب ايمان البيعة وكان الاكراه فيها اغلب ولهذا افتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الاكراه انكرها الولاة عليه وراوها قادحة في ايمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه

واما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض او الرجل
او اليد او الذيل اطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازا لما كان الخضوع
في التحية والتزام الادب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى صار
حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصافحة ايدي الناس التي هي الحقيقة في الاصل
لما في المصافحة لكل احد من التنزل والابتذال المنافيين للرياسة وصون
المنصب الملوكي الا في الاقل عمن يقصد التواضع من الملوك فياخذ به نفسه
مع خواصه ومشاهير اهل الدين من رعيته فافهم معنى البيعة في العرف فانه اكيد
على الانسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا يكون افعاله عبثا
ومجانا واعتبر ذلك من افعالك مع الملوك والله القوي العزيز

فصل في ولاية العهد

اعلم انا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة
وان حقيقتها النظر في مصالح الامة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والامين عليهم ينظر
لهم في حياته وتبع ذلك ان ينظر لهم بعد مماته ويقيم لهم من يتولى امورهم كما كان هو يتولاها
ويثقون بنظره في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع
الامة على جوازه وانعقاده اذ وقع فعهد ابو بكر الى عمر بمحضر الصحابة واجازوه
واوجبوا على انفسهم به طاعة عمر رضي الله عن جميعهم وكذلك عهد عمر في الشورى الى الستة
من بقية العشرة وجعل لهم ان يختاروا للمسلمين ففوض ذلك بعضهم الى بعض
حتى افضى الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين
على عثمان وعلي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء
بالشيخين في كل ما يعن دون اجتهاده فانعقد امر عثمان لذلك واوجبوا طاعته
والملأ من الصحابة حاضرون للاولى والثانية ولم ينكره واحد منهم فدل على انهم
متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة كما عرف ولا يتهم الامام
الامام في هذا الامر وان عهد الى ابنه او ابيه لانه مامون على النظر لهم في حياته
فاحرى ان لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد
ولمن خصص التهمة في الولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لا سيما
اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار مصلحة او توقع مفسدة فتنتفي الظنة
عند ذلك راسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع
وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعا معاوية الى ايثار ابنه يزيد بالعهد
دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق
اهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني امية اذ بنو امية يومئذ لا يرضون سواهم وهم

عصابة

عصابة قريش واهل الملة اجمع واهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره
ممن يظن انه اولى بها وعدل الى المفضول عن الفاضل حرصا على الاتفاق واجتماع
الاهواء الذي شانه اهم عند الشارع ولا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحابته
مانعة مما سوى ذلك وحضور اهل الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على
انتفاء الريب فيه فليسوا ممن تاخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تاخذه
العزة في قبول الحق فانهم كلهم اجل من ذلك وعدالتهم مانعة منه وفرار عبد
الله بن عمر عن ذلك انما هو محمول على تورعه عن الدخول في شيء من الامور
مباحا كان او محظورا كما هو معروف عنه ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي
اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير وندور المخالف معروف ثم انه وقع مثل
ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد
الملك وسليمان من بني امية والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني
العباس وامثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رايهم للمسلمين والنظر لهم ولا يعاب
عليهم ايثار ابنائهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشانهم
غير شان اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث صبغة الملك وكان الوازع
دينيا فعند كل احد وازع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه اهل الدين فقط وآثروه
على غيره ووكلوا كل احد ممن يسمو الى ذلك الى وازعه واما من بعدهم من لدن
معاوية فكانت العصبية قد اشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف
واحتيج الى الوازع السلطاني والعصباني فلو قد عهد الى غير من ترتضيه العصابة
لردت ذلك العهد وانتقض امره سريعا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف سأل
رجل عليا رضي الله عنه ما بال الناس اختلفوا عليك ولم يختلفوا على ابي بكر وعمر فقال لان ابا بكر
وعمر كانا واليين على مثلي وانا وال على مثلك يشير الى وازع الدين اولا ترى الى المامون
لما عهد الى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضي كيف انكرت العباسية ذلك
ونقضوا بيعته وبايعوا لعمه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع
السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد ان يصطلم الامر حتى بادر المامون من خراسان
الى بغداد ورد امرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف
باختلاف فيها من الامور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلافها المصالح
ولكل منها حكم يخصه لطفا من الله تعالى بعباده واما ان يكون القصد بالعهد حفظ التراث
على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو امر من الله يخص به من يشاء فينبغي
ان يحسن النية فيه ما امكن خوفا من العبث بالمناصب الدينية والملك لله

يؤتيه من يشاء من عباده دعرص هنا امور تدعو الضرورة الى بيان
الحق فيها فالاول منها ما حدث في يزيد من الفسق ايام خلافته فاياك ان تظن بمعاوية
رضي الله عنه انه علم ذلك من يزيد فانه اعدل من ذلك وافضل بل قد كان يعذله
ايام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه وهو اقل من ذلك وكانت مذاهبهم
فيه مختلفة ولما حدث في يزيد ما حدث من الفسق اختلف الصحابة يومئذ
في شانه فمنهم من راى الخروج عليه ونقض بيعته من اجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله
بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في ذلك ومنهم من اباه لما فيه من اثارة الفتنة
وكثرة القتل مع العجز عن الوفاء به لان شوكة يزيد يومئذ هي عصبية بني امية
وجمهور اهل الحل والعقد من قريش وتستتبع عصبية مضر اجمع فهي اعظم من كل
شوكة ولا تطاق مقاومتهم فاقصروا عن يزيد بسبب ذلك واقاموا على الدعاء
بهدايته والراحة منه وهذا كان شان جمهور المسلمين والكل مجتهدون ولا ينكر
على احد منهم فمقاصدهم في البر وتحري الحق معروفة وفقنا الله للاقتداء بهم والثاني
هو شان العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه الشيعة من وصيته لعلي
رضي الله عنه وهو امر لم يصح ولا نقله احد من ائمة النقل والذي وقع في الصحيح
من طلب الدواة والقرطاس ليكتب الوصية وان عمر منع من ذلك فدليل
واضح على انه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طعن وسئل عن العهد فقال
ان اعهد فقد عهد من هو خير مني يعني ابا بكر وان اترك فقد ترك من هو
خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة حاضرون موافقون له على ان النبي
صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذا قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه للدخول
على النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه عن شانهما في العهد فابى علي من ذلك
وقال انه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر وهذا دليل على ان عليا علم انه
لم يوص ولا عهد لاحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من اركان
الايمان كما يزعمون وليس كذلك وانما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر
الخلق ولو كانت من اركان الايمان لكان شانها شان الصلاة ولكان يستخلف
فيها كما استخلف ابا بكر في الصلاة ولكان يشتهر امر الصلاة واحتجاج الصحابة
على خلافة ابي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه
وسلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا دليل على ان الوصية لم تقع ويدل على ذلك ايضا
على ان الامامة والامر بها لم يكن مهما كما هو اليوم وشان العصبية المراعاة
في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ بذلك الاعتبار لان الدين

والاسلام كان كله بخوارق العادة من تاليف القلوب عليه واستماتة
الناس دونه وذلك من اجل الاحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور الملائكة لنصرهم
وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم يحتج الى مراعاة
العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستفزهم من تتابع
هذه المعجزات الخارقة والاحوال الالهية الواقعة والملائكة المترددة التي وجموا لها
ودهشوا من تتابعها فكان امر الخلافة والملك والعصبية والعصبية وسائر والعهد ص
هذه الانواع مندرجا في ذلك العباب كما وقع فلما انحسر ذلك المد بذهاب
تلك المعجزات ثم بفناء القرون التي شاهدوها فاستحالت تلك الصبغة قليلا
قليلا وذهبت آثار الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان فاعتبر امر العصبية ومجاري
العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد واصبحت الخلافة والملك والعهد
بهما من المهمات الاكيدة كما زعموه ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كان الخلافة
لعهد النبي صلى الله عليه وسلم غير مهمة ولم يعهد فيها ثم تدرجت الاهمية ايام الخلفاء
بعض الشيء بما دعت الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشان الردة والفتوحات
فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرناه عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من اهم
الامور للالفة على القيام بالمصالح والحماية فاعتبرت فيها العصبية التي هي سر الله
الوازع عن الفرقة والتخاذل ومنشأ الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة
واحكامها فافهم ذلك وتبين حكمة الله في خلقه واكوانه والامر الثالث شان
الحروب الواقعة في الاسلام بين الصحابة والتابعين واعلم ان اختلافهم
انما يقع في الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة فان قلنا ان الحق
في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم يصادفه فهو مخطئ فان جهته
لا تتعين بالاجماع فيبقى الكل على احتمال الاصابة ولا يتعين المخطئ منهما والتأثيم
مدفوع اجماعا وان قلنا ان الكل حق وكل مجتهد مصيب فاحرى بنفي الخطأ
والتأثيم وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادي في مسائل
دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في الاسلام انما هو واقعة علي مع معاوية
ومع الزبير وطلحة وعائشة وواقعة الحسين مع يزيد وواقعة الزبير مع عبد
الملك فاما علي فان الناس عند مقتل عثمان كانوا مفترقين في الامصار فلم يشهدوا
بيعة علي والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس
ويتفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر واسامة بن زيد والمغيرة بن شعبة وعبد
الله بن سلام وقدامة ابن مظعون وابي سعيد الخدري وكعب بن عجرة وكعب

بن مالك والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة
بن عبيد وامثالهم من اكابر الصحابة والذين كانوا في الامصار عدلوا عن بيعته
ايضا الى الطلب بدم عثمان وتركوا الامر فوضى حتى يكون شورى بين المسلمين
فيمن يولونه وظنوا بعلي هوادة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لا في الممالاة
عليه فحاش لله من ذلك ولقد كان معاوية اذا صرح بملامته انما يوجهها عليه
في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد ذلك فراى علي ان بيعته قد انعقدت ولزمت
من تاخر عنها باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن
الصحابة وارجا الامر في المطالبة بدم عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيتمكن
ح من ذلك وراى الآخرون ان بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة اهل الحل
والعقد بالآفاق ولم يحضر الا القليل ولا تكون البيعة الا باتفاق اهل الحل والعقد ولا تلزم
بعقد من تولاها من غيرهم او من القليل منهم وان المسلمين ح فوضى فيطالبون اولا بدم
عثمان ثم يجتمعون على امام وذهب الى هذا معوية وعمرو بن العاص وام المومنين
عايشة والزبير وابنه عبد الله وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير
ومعوية بن حديج ومن كان على رايهم من الصحابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة
كما ذكرنا الا ان اهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها للمسلمين
اجمعين وتصويب رايه فيما ذهب اليه وتعيين الخطاء في جهة معاوية ومن كان
على رايه وخصوصا طلحة والزبير لانتقاضهما على علي بعد البيعة له فيما نقل مع دفع
التاثيم عن كل واحد من الفريقين كالشان في المجتهدين وصار ذلك اجماعا من اهل
العصر الثاني على احد قولي اهل العصر الاول كما هو معروف ولقد سئل علي رضي الله
عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال والذي نفسي بيده لا يموتن احد من هؤلاء
وقلبه نقي الا ادخله الله الجنة يشير الى الفريقين نقله الطبري وغيره فلا يقعن
عندك ريب في عدالة احد منهم ولا قدح بشيء من ذلك فهم من علمت واقوالهم
وافعالهم انما هي عن المستندات وعدالتهم مفروغ منها عند اهل السنة الا قولا
للمعتزلة فيمن قاتل عليا فلم يلتفت اليه احد من اهل الحق ولا عرج عليه واذا نظرت
بعين الانصاف عذرت الناس اجمعين في الاختلاف في شان عثمان واختلاف
من بعده وعلمت انها كانت فتنة ابتلى بها الامة بين المسلمون قد اذهب الله
عدوهم وملكهم ارضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم بالبصرة والكوفة
والشام ومصر وكان اكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا
من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيرته وادابه ولا ارتاضوا بخلقه

مع

مع ما كان فيهم من الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة
الايمان واذا بهم عند استفحال الدولة قد اصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار
من قريش وكنانة وثقيف وهذيل واهل الحجاز ويثرب السابقين الاولين الى الايمان
فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم
وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة
وقبائل كندة والازد من اليمن وقبائل تميم وقيس من مضر وامثالهم فصاروا
الى الغض من قريش والانفة عليهم والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم
منهم والاستعداء عليهم والطعن بالعجز عن السوية والعدول في القسم عن السوية
وفشت القالة بذلك وانتهت الى اهل المدينة وهم من علمت فاعظموه وابلغوه
عثمان فبعث الى الامصار من يكشف له الخبر بعث ابن عمر ومحمد بن مسلمة واسامة
ابن زيد وامثالهم فلم ينكروا على الامراء شيئا ولا راوا عليهم طعنا وادوا ذلك
كما علموه فلم ينقطع الطعن من اهل الامصار وما زالت الشناعات تكثر والاشاعات
تنمو ورمي الوليد بن عقبة وهو على الكوفة بشرب الخمر وشهد عليه جماعة منهم وحده
عثمان وعزله ثم جاء الى المدينة من اهل الامصار يسألون عزل العمال وشكوا الى علي
وعايشة والزبير وطلحة وعزل لهم عثمان بعض العمال فلم تنقطع بذلك السنتهم بل وفد
سعيد ابن العاص وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولا ثم انتقل
الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونقموا على امتناعه من العزل فابى الا ان يكون
عن جرحة ثم نقلوا النكير الى غير ذلك من افعاله وهو متمسك بالاجتهاد وهم ايضا كذلك
ثم اجتمع قوم من الغوغاء وجاؤا الى المدينة يظهرون طلب النصفة من عثمان وهم
يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة ومصر وقام معهم في ذلك
علي وعايشة والزبير وطلحة وغيرهم يحاولون تسكين الامور ورجوع عثمان الى رايهم
فيها وعزل لهم عامل مصر فانصرفوا قليلا ثم رجعوا وقد لبسوا بكتاب مدلس يزعمون
انهم لقوه في يد حامله الى عامل مصر بان يقتلهم وحلف عثمان على ذلك فقالوا امكنا
من مروان فهو كاتبك فحلف مروان فقال عثمان ليس في الحكم اكثر من ذلك فحاصروه
بداره ثم بيتوه على حين غفلة من الناس وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء
عذر فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بامر الدين ولا يضيعون شيئا من تعلقاته ثم نظروا
بعد هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على احوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم الا خيرا
لما شهدت به احوالهم ومقالات الصادق منهم واما الحسين عليه السلام فانه
لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من اهل عصره بعثت شيعة اهل البيت بالكوفة

الحسين ان ياتيهم فيقوموا بامره فراى الحسين ان الخروج على يزيد متعين
من اجل فسقه لاسيما على من له القدرة على ذلك وظنها من نفسه باهليته
وشوكته فاما الاهلية فكانت كما ظن وزيادة واما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها
لان عصبية مضر كانت في قريش وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف
انما كانت في بني امية يعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس ولا ينكرونه
وانما نسي ذلك اول الاسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وامر الوحي
وتردد الملائكة لنصر المسلمين فاغفلوا امور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية
ومنازعها ونسيت ولم يبق الا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها
في اقامة الدين وجهاد المشركين والذين من سواهم بما كان لهم من ذلك قبل
فتبين لذلك غلط الحسين الا انه في امر دنياوي لا يضره الغلط فيه واما الحكم
الشرعي فلم يغلط فيه لانه منوط بظنه وكان ظنه القدرة على ذلك ولقد عذله ابن
عباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية اخوه وغيرهم في مسيره الى الكوفة وعلموا غلطه
في ذلك فلم يرجع عما هو بسبيله لما اراده الله تعالى واما غير الحسين من الصحابة الذين
كانوا بالحجاز ومع يزيد بالشام والعراق ومن التابعين لهم فراوا ان الخروج على يزيد
وان كان فاسقا لا يجوز لما ينشا عنه من الهرج والدماء فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا
الحسين ولا انكروا عليه ولا اثموه لانه مجتهد وهو اسوة المجتهدين ولا يذهب
بك الغلط ان تقول بتاثيم هولاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصره فانهم اكثر
الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين يستشهد بهم وهو
يقاتل بكربلاء على فضله وحقه ويقول سلوا جابر بن عبد الله وابا سعيد وانس بن مالك
وسهل بن سعد وزيد بن ارقم وامثالهم ولم ينكر عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض
لذلك لعلمه انه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن اجتهاد منه وكذلك لا يذهب
بك الغلط ان تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وان كان هو على صواب
اجتهاد ويكون ذلك كما يحد الشافعي الحنفي على شرب النبيذ واعلم ان الامر
ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هولاء وان كان خلافه عن اجتهاد وانما انفرد
بقتاله يزيد واصحابه ولا تقولن ان يزيد كان فاسقا ولم يجز هولاء الخروج عليه
فافعاله عندهم نافذة صحيحة واعلم انه انما ينفذ من افعال الفاسق ما كان مشروعا وقتال
البغاة عندهم من شرطه ان يكون مع الامام العادل وهو مفقود في مسئلتنا هذه
فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه والحسين
فيها شهيد مثاب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق

ايضا وقد غلط القاضي ابو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في كتابه المسمى بالقواصم
والعواصم ما معناه ان الحسين عليه السلام قتل بشرع جده وهو غلط حملته
عليه الغفلة عن اشتراط الامام العادل في قتال اهل الاراء واما ابن الزبير فانه
راى في خروجه ما راى الحسين وظن ما ظن الحسين وغلطه في امر الشوكة اعظم لان بني
اسد لا يقاومون بني امية في جاهلية ولا اسلام والقول بتعين الخطاء في جهة
مخالفة كما كان في جهة معوية مع علي لا سبيل اليه لان الاجماع هنالك قضى لنا به
ولم نجده هنا واما يزيد فتعين خطاؤه فسقه وعبد الملك صاحب ابن الزبير اعظم
الناس عدالة وناهيك في عدالته احتجاج مالك بفعله وعدول ابن عباس
وابن عمر الى بيعته عن ابن الزبير وهم معه بالحجاز مع ان الكثير من الصحابة كانوا
يرون ان بيعة ابن الزبير لم تنعقد لانه لم يحضرها اهل الحل والعقد كبيعة مروان
وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر
وان لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجري على قواعد
الفقه وقوانينه مع انه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريه الحق هذا هو الذي
ينبغي ان تحمل عليه افعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامة واذا جعلنا
هم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خيركم قرني
ثم الذين يلونهم مرتين او ثلثا ثم يفشو الكذب فجعل الخيرية وهو العدالة مختصة
بالعصر الاول والذي يليه فاياك ان تعود نفسك او لسانك التعرض لاحد منهم
ولا يوسوس قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه
ما استطعت فهم اولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قتلوا او قتلوا
الا في سبيل جهاد او اظهار حق واعتقد مع ذلك ان اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة
ليقتدي كل احد بمن يختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين
حكمة الله في خلقه واكوانه لما تبين ان حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع
في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الامرين اما في الدين
فبمقتضى التكاليف الشرعية الذي هو مامور بتبليغها وحمل الناس عليها واما سياسة
الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا ان هذا العمران
ضروري للبشر وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان اهملت وقد قدمنا
ان الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح نعم انما يكون اكمل اذا كانت
بالاحكام الشرعية لانه اعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة
اذا كان اسلاميا ويكون من توابعها وقد ينفرد اذا كان في غير الملة وله

على كل حال مراتب خادمة ووظايف تابعة تتعين خططا وتتوزع على رجال
الدولة ووظايف فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون
يده غالبة عليهم فيتم بذلك امره ويحسن قيامه بسلطانه **واما المنصب** الخلافي
وان كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني
يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين **فلنذكر** الخطط المختصة
بالخلافة ونرجع الى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية الشرعية
من الصلاة والقضاء والفتيا والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى
التي هي الخلافة فكانها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخلة
فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في ساير احوال الملة الدينية والدنيوية وتنفيذ
احكام الشرع فيها على العموم **فاما امامة** الصلاة فهي ارفع هذه الخطط وارفع من الملك
بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة ولقد يشهد بذلك استدلال الصحابة
في شان ابي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة
في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا افلا نرضاه لدنيانا فلولا ان الصلاة
ارفع من السياسة لما صح القياس واذا ثبت ذلك فاعلم ان المساجد في المدينة
صنفان مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة واخرى دونها
مختصة بقوم او محلة وليست للصلوات العامة فاما المساجد العظيمة فامرها
راجع الى الخليفة او الى من يفوض اليه من سلطان او وزير او قاض فينصب لها
الامام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء
وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولئلا تتفاوت الرعايا عليه
بشيء من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول
بوجوب اقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا واما المساجد المختصة
بقوم او محلة فامرها راجع الى الجيران ولا يحتص بنظر خليفة ولا سلطان واحكام هذه
الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الاحكام
السلطانية للماوردي وغيره فلا نطول بذكره وقد كان الخلفاء الاولون
لا يقلدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان
بالصلوة وترصدهم بذلك في اوقاتها يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وانهم
لم يكونوا يستخلفون فيها وكذا كان حال الدولة الاموية من بعدهم استيثارا بها
واستعظاما لرتبتها يحكى عن عبد الملك انه قال لحاجبه قد جعلت حجابة بابي الا عن ثلاثة
صاحب الطعام فانه يفسد بالتاخير والاذن بالصلاة فانه داع الى الله والبريد

الصلاة

فان في تاخير

فان في تاخيره فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة
والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم استنابوا في الصلاة وكانوا
يستاثرون بها في الاحيان وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة
اشادة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعبيديين صدر دولتهم
واما الفتيا فللخليفة تصفح اهل العلم والتدريس ورد الفتيا الى من هو
اهل لها واعانته على ذلك ومنع من ليس باهل لها وزجره لانها من مصالح المسلمين
في اديانهم فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له باهل فيضل الناس
وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك في المساجد فان كان
من المساجد العظام التي للسلطان الولاية عليها والنظر في ائمتها كما مر فلا بد من استيذانه
في ذلك وان كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن على انه
ينبغي ان يكون لكل احد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه من التصدي
لما ليس له باهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد وفي الاثر اجراكم على الفتوى
اجراكم على جراثيم جهنم فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من اجازة او رد
واما القضاء فهو من الوظايف الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس
في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع الا انه بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب
والسنة فكان لذلك من وظايف الخلافة ومندرجا في عمومها وكان الخلفاء
في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم ولا يجعلون القضاء في شيء الى سواهم واول
من دفعه الى غيره وفوض فيه عمر رضي الله عنه فولى ابا الدرداء معه بالمدينة
وولى شريحا بالبصرة وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة وكتب له في ذلك الكتاب
المشهور الذي تدور عليه احكام القضاء وهي مستوفاة فيه يقول فيه **اما بعد**
فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلي اليك فانه لا ينفع
تكلم بحق لا نفاذ له واس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع
شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من انكر
والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما او حرم حلالا ولا يمنعك قضاء
قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع فيه
الى الحق فان الحق قديم والرجوع الى الحق خير من التمادي
على الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال
والاشباه وقس الامور بنظايرها واجعل لمن ادعى حقا غايبا او بينة امدا
ينتهي اليه فان احضر بينة اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه

فان ذلك انفى للشك واجلى للعمى، المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا
في حد او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا في ولاء او نسب فان الله سبحانه
عفا عن الايمان ودرا بالبينات واياك والقلق والضجر والتافف بالخصوم
فان استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذكر انتهى
كتاب عمر رضي الله عنه وانما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق
بهم بالسياسة العامة وكثرة اشغالهم من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية
البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية به فاستخفوا امر القضاء
في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفا عن انفسهم وكانوا
مع ذلك انما يقلدونه اهل عصبيتهم بالنسب او الولاء ولا يقلدونه لمن بعد
عنهم في ذلك واما احكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه وخصوصا
كتب الاحكام السلطانية الا ان القاضي انما كان في عصر الخلفاء للفصل بين الخصوم
فقط ثم دفع لهم بعد ذلك امور اخرى على التدريج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك
بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء اخر الامر على انه يجمع مع الفصل
بين الخصوم استيفاء الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في اموال المحجور عليهم
من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه وفي وصايا المسلمين واوقافهم
وتزويج المعصرات من بناتهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء على راي من يراه
والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب
واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت
هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون
للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء
وتحتاج الى علو يد وعظم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي وكانه
يمضي ما عجز القضاة عنه او غيرهم من امضائه ويكون نظره في البينات والتعزير
واعتماد الامارات والقرائن وتاخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح
واستحلاف الشهود وذلك اوسع من نظر القاضي وكان الخلفاء الاولون يباشرونها
بانفسهم الى ايام المهتدي من بني العباس وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم كما فعل
علي رضي الله عنه مع قاضيه ابي ادريس الخولاني وكما فعله المامون ليحيى بن اكثم
والمعتصم لابن ابي دواد وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر
الصوائف وكان يحيى بن اكثم يخرج ايام المامون بالصائفة الى ارض الروم
وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني امية بالاندلس وكانت

تولية هذه الوظايف انما هو للخلفاء او من يجعلون ذلك له من وزير مفوض
او سلطان متغلب وكان ايضا النظر في الجرايم واقامة الحدود راجعا الى صاحب
الشرطة مختصا في الدولة العباسية والاموية بالاندلس والعبيدية بمصر والمغرب
راجعا الى صاحب الشرطة وهي وظيفة اخرى دينية كانت من الوظايف الشرعية
في تلك الدول يوسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا فيجعل للتهمة في الحكم مجالا
وتفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرايم وتقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم
في القود والقصاص وتقيم التعزير والتاديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم
تنوسي شان هاتين الوظيفتين في الدول التي تنوسي فيها امر الخلافة فصار
امر المظالم راجعا الى السلطان كان له تفويض من الخليفة او لم يكن وانقسمت
وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرايم واقامة حدودها ومباشرة
القطع والقصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها
بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالي وتارة
باسم الشرطة وبقي قسم التعازير واقامة الحدود الثابتة في الجرايم الثابتة شرعا
فجمع للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته واستقر الامر
لهذا العهد على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن اهل عصبية الدولة لان الامر لما كان
خلافة دينية وهذه الخطط من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الا من اهل عصبيتهم من العرب
ومواليهم بالحلف او الرق او الاصطناع ممن يوثق بكفايته وغنائه فيما يدفع ولما انقرض
شان الخلافة وظهورها وصار الامر كله ملكا وسلطانا صارت هذه الخطط الدينية
بعيدة عنه بعض الشيء لانها ليست من القاب الملك ولا مراسمه ثم خرج الامر جملة عن
العرب وصار الملك لسواهم من امم الترك والبربر فازدادت هذه الخطط الخلافية
بعدا عنهم بمنحاها وعصبيتها وذلك ان العرب كانوا يرون الشريعة دينهم وان النبي
صلى الله عليه وسلم منهم واحكامه وشرايعه نحلتهم بين الامم وطريقهم وغيرهم لا يرون
ذلك انما يولونها جانبا من التعظيم لما دانوا بالملة فقط فصاروا يقلدونها من غير
عصابتهم ممن كان تاهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان اولئك المتاهلون لما اخذهم
ترف الدول منذ مئين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا بالحضارة
في عوايد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن انفسهم وصارت هذه الخطط في الدول الملوكية
من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في اهل الامصار ونزل اهلها
عن مراتب العز لفقد الاهلية بانسابهم وما هم عليه من الحضارة فلحقهم من الاحتقار
ما يلحق الحضر المنغمسين في الترف والدعة البعداء عن عصبية الملك الذين هم عيال

على الحامية وصار اعتبارهم في الدولة من اجل قيامها بالملة واخذها باحكام الشريعة
لما انهم الحاملون للاحكام المقتدى بهم ولم يكن ايثارهم في الدولة حينئذ اكراما لذواتهم
وانما هو لما يتلمح من التجمل بمكانهم في مجالس الملك لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم
فيها من الحل والعقد شيء وان حضروه فحضور رسمي لا حقيقة وراءه اذ حقيقة
الحل والعقد انما هو لاهل القدرة عليه فمن لا قدرة له عليه فلا حل له ولا عقد
اللهم اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقي الفتاوى منهم فنعم والله الموفق وربما يظن
بعض الناس ان الحق فيما وراء ذلك وان فعل الملوك فيما فعلوه من اخراج
القضاة والفقهاء عن الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه وسلم العلماء
ورثة الانبياء فاعلم ان ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجري
على طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة وطبيعة العمران في هولاء
لا تقضي لهم بشيء من ذلك لان الشورى والحل والعقد انما يكون لصاحب
عصبية يقتدر بها على حل او عقد او فعل او ترك واما من لا عصبية له ولا يملك
من امر نفسه شيئا ولا من حمايتها انما هو عيال على غيره فاي مدخل له في الشورى
او اي معنى يدعو الى اعتباره فيها اللهم شوراه فيما يعلمه من الاحكام فموجود
في الاستفتاء خاصة واما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية
والقيام على معرفة احوالها واحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوك والامراء
الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب اليه باي جهة انتسب
واما قوله صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم ان الفقهاء لهذا
العهد في الاغلب انما حملوا الشريعة اقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية
القضاء في المعاملات ينصونها على من يحتاج العمل بها هذه غاية اكابرهم ولا يتصفون
الا بالاقل منها وفي بعض الاحوال والسلف رضوان الله عليهم واهل الدين
والورع حملوا الشريعة اتصافا بها وتحققا بمذاهبها فمن حملها اتصافا وتحققا دون
نقل فهو من الوارثين مثل اهل رسالة القشيري ومن اجتمع له الامران فهو العالم
وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء التابعين والسلف والائمة الاربعة
ومن اقتفى طريقهم وجاء على اثرهم واذا انفرد واحد من الامة باحد الامرين فهو
فالعابد احق بالوراثة من الفقيه الذي ليس بعابد لان العابد ورث صفة
والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئا انما هو صاحب اقوال ينصها علينا
في كيفيات العمل وهولاء اكثر عصرنا الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وقليل
ما هم **العدالة** وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه وحقيقة

هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم
تحملا عند الاشهاد واداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق
الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم وانما قلنا عن اذن القاضي لان الناس
قد اختلطوا وخفي التعديل والجرح الا على القاضي فكانه انما ياذن لمن ثبت عنده
عدالته ليحفظ على الناس امورهم ومعاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف
بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتاب السجلات والعقود
من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها
فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل هذه الشروط وما يحتاج من المران
على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول وصار الصنف القائمون
كانهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة
ويجب على القاضي تصفح احوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم
وان لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس فالعهدة عليه في ذلك
كله وهو ضامن دركه واذا تعين هولاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة بهم في تعديل
من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال واضطرار
القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيعولون غالبا في الوثوق
بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس
فيها ليتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول
هذه اللفظة مشتركا بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية
التي هي اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله اعلم **الحسبة والسكة**
اما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض
على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلا له فيتعين فرضه ويتخذ
الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل
الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين
واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها
وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين بالمكاتب
وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع او استعداء
بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له ايضا الحكم في الدعاوي
مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازين
وله ايضا حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة

صاحب
ولا انفاذ حكم وكانها احكام عنها القضاء لعمومها وسهولة اغراضها فتدفع الى
هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت
في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس
داخلة في عموم ولاية القاضي يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان
عن الخلافة وصار نظره عاما في عموم السياسة فاندرجت في وظايف الملك
وافردت بالولاية واما السكة فهي النظر في النقود المتعامل بها بين المسلمين
وحفظها مما يداخلها من الغش او النقص ان كانت يتعامل بها عددا وما يتعلق
بذلك ويوصل اليه من جميع الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك
النقود بالاستجادة والخلوص يرسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك
ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار والدرهم بعد ان يقدر ويضرب
عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون علامة على جودته بحسب الغاية
التي تقف عندها السبك والتخليص في متعارف اهل القطر ومذهب الدولة الحاكمة
فان السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية وانما توقف غايته الى الاجتهاد
فاذا اتفق اهل قطر او افق على غاية من التخليص وقفوا عندها وسموه اماما وعيارا
يعتبرون به نقود بمماثلته فان نقص عن ذلك كان زيفا والنظر في ذلك
كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار فتندرج تحت الخلافة وقد كانت
تندرج في عموم ولاية القضاء ثم افردت لهذا العهد بالولاية كما وقع في الحسبة
هذا آخر الكلام في الوظايف الخلافية وبقيت منها وظايف ذهبت بذهاب
ما ينظر فيه واخرى صارت سلطانية نتكلم عليها في مكانها بعد ووظيفة الجهاد
بطلت ببطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون احكامه غالبا في
السلطانيات وكذا نقابة الانساب التي يتوصل بها الى الخلافة او الحق في بيت
المال قد بطلت لدثور الخلافة ورسمها وبالجملة فقد اندرجت رسوم الخلافة
ووظايفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف
الامور

فصل في اللقب بامير المومنين وانه من سمات الخلافة

وهو محدث منذ عهد الخلفاء وذلك انه لما بويع ابو بكر رضي الله عنه كان الصحابة
وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل
الامر على ذلك الى قبضه الله عز وجل فلما بويع لعمر رضي الله عنه بعهده اليه
كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله وكانهم استثقلوا هذا اللقب بطوله
وكثرة اضافاته وانه يتزيد فيما بعد دائما الى ان ينتهي الى الهجنة وينتفي عنه
التميز

التمييز بتعدد المضافات وكثرتها فلا يعرف فكانوا عن هذا اللقب
الى سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم
الامير وهو فعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم
امير مكة وامير الحجاز وكان الصحابة يدعون سعد بن ابي وقاص امير المسلمين
لامارته على جيش القادسية وهو معظم المسلمين يومئذ واتفق ان دعا
بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا امير المومنين فاستحسنه الناس واستصوبوه
ودعوه به يقال ان اول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص
والمغيرة بن شعبة وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة
وهو يسال عن عمر رضي الله عنه ويقول اين امير المومنين وسمعها اصحابه فاستحسنوه
وقالوا والله اصبت اسمه انه امير المومنين حقا فدعوه وذهب لقبا له في الناس
وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها احد سواهم سائر دولة بني امية
ثم ان الشيعة خصوا عليا رضي الله عنه باسم الامام نعتا له بالامامة التي هي اخت
الخلافة وتعريضا بمذهبهم بانه احق بامامة الصلاة من ابي بكر كما هو بدعتهم ومذهبهم
فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كلهم يسمون
بالامام ما داموا يدعون لهم في الخفاء حتى اذا يستولون على الدولة يحولون اللقب
فيمن بعده الى امير المومنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم ما زالوا يدعون ائمتهم
بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على امره فلما هلك
دعي اخوه السفاح بامير المومنين وكذا الرافضة بافريقية ما زالوا يدعون الائمة
من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر لعبيد الله المهدي وكانوا يدعونه بالامام ولابنه
ابي القاسم من بعده فلما استوسق لهما الامر دعوا من بعدهما امير المومنين وكذا
الادارسة بالمغرب وكانوا يدعون ادريس الامام وابنه ادريس الاصغر كذلك
وهكذا شانهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بامير المومنين وجعلوه سمة لمن يملك
الحجاز والشام والعراق المواطن التي هي ديار العرب ومراكز الدولة واصل
الملة والفتح وازداد لذلك في عنفوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز
به بعضهم عن بعض لما في امير المومنين من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك
بنو العباس حجابا لاسمائهم الاعلام عن امتهانها في السنة السوقة وصونا لها
عن الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى آخر
الدولة واقتفى اثرهم في ذلك العبيديون بافريقية ومصر وتجافى بنو امية
عن ذلك اما بالمشرق قبلهم فلجريا على الغضاضة والسذاجة لان العروبية ومنازعها

لم تفارق ح ولم يتحول عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة واما بالاندلس
فتقليد السلف مع ما علموه من انفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن الخلافة
التي استاثر بها بنو العباس ثم بالعجز عن ملك الحجاز اصل العرب والملة والبعد
عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية وانهم انما منعوا بامارة القاصية انفسهم
من مهالك بني العباس حتى اذا جاء عبد الرحمن الآخر منهم وهو الناصر ابن الامير عبد
الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط لاول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة
بالمشرق من الحجر واستبداد الموالي وعيثهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل
والسمل فذهب عبد الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمى
بامير المومنين وتلقب بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة ومذهبا
لقن عنه ولم يكن لابائه وسلف قومه واستمر الحال على ذلك الى ان انقرضت
عصبية العرب اجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالي من العجم على بني العباس
والصنائع على العبيديين بالقاهرة وصنهاجة على امراء افريقية وزناتة على المغرب
وملوك الطوائف بالاندلس على امر بني امية واقتسموه وافترق امر الاسلام
فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والمغرب في الاختصاص بالالقاب بعد
ان تسموا جميعا باسم السلطان فاما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يخصونهم
بالقاب تشريفية يستشعر منها انقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف
الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء
الملك وذخيرة الملك وامثال هذه وكان العبيديون ايضا يخصون بها امراء صنهاجة
فلما استبدوا على الخلفاء قنعوا بهذه الالقاب وتجافوا عن القاب الخلافة ادبا معها
وعدولا عن سماتها المختصة بها شان المتغلبين المستبدين كما قلناه قبل ونزع
المتاخرون عن امراء المشرق حين قوي استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة
والسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واضمحلت بالجملة الى انتحال الالقاب
الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة الى القاب كانوا يختصون بها
قبل هذا الانتحال مشعرة بالخروج عن ربقة الولاء والاصطناع بما اضافوها الى الدين
فقط فيقولون صلاح الدين اسد الدين نور الدين واما ملوك الطوائف
بالاندلس فاقتسموا القاب الخلافة وتوزعوها لقوة استبدادهم عليها بما كانوا
من قبيلها وعصبيتها فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وامثالها
كما قال ابن شرف ينعى عليهم ذلك مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتمد فيها ومعتضد

الالقاب

القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد واما صنهاجة
فاقتصروا على الالقاب التي كان خلفاء العبيديين يلقبونهم بها للتنويه مثل
نصير الدولة وسيف الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما ادالوا من دعوة
العبيديين بدعوة العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا
عهدها فنسوا هذه الالقاب واقتصروا على اسم السلطان وكذا شان ملوك
مغراوة بالمغرب لم ينتحلوا شيئا من هذه الالقاب الا اسم السلطان جريا
على مذهب البداوة والغضاضة ولما محي اسم الخلافة وتعطل دستها وقام بالمغرب
من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العدوتين م
وكان من اهل الخير والاقتداء نزعت به همته الى الدخول في طاعة الخليفة تكميلا م
لمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي ح اوفد عليه ببيعته عبد الله ابن العربي
وابنه القاضي ابا بكر من مشيخة اشبيلية يطلبان توليته اياه على المغرب وتقليده
ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخليفة على المغرب واستشعار زيهم في لبوسه ورايته
وخاطبه فيه بامير المسلمين تشريفا له واختصاصا فاتخذها لقبا ويقال انه كان
دعي له بامير المسلمين من قبل ادبا مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون
من انتحال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على اثرهم داعيا الى الحق اخذا بمذاهب
الاشعرية ناعيا على اهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك التاويل
لظواهر الشريعة وما يول اليه ذلك كما هو معروف من مذهب الاشعرية وسمى
اتباعه الموحدين تعريضا بذلك التكبير وكان يرى راي اهل البيت في الامام المعصوم
وانه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمي بالامام اولا لما قلناه
من مذهب الشيعة في القاب خلفائهم واردف بالمعصوم اشارة الى مذهبه
في عصمة الامام وتنزه عند اتباعه عن امير المومنين اخذا بمذاهب المتقدمين من الشيعة
ولما فيها من مشاركة الاغمار والولدان من اعقاب الخلافة يومئذ بالمشرق والمغرب
ثم انتحل عبد المومن ولي عهده اللقب بامير المومنين وجرى عليه من بعده خلفاء
بني عبد المومن وآل ابي حفص بافريقية من بعدهم استئثارا به عمن سواهم لما دعا اليه
شيخهم المهدي من ذلك وانه صاحب الامر واولياءه من بعده كذلك دون كل احد
لانتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دابهم ولما انتقض الامر بالمغرب
وانتزعه زناتة ذهب اولهم بمذاهب البداوة والسذاجة واتباع لمتونة في انتحال
اللقب بامير المسلمين ادبا مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المومن
اولا ولبني ابي حفص من بعدهم ثم نزع المتاخرون منهم الى اللقب بامير المومنين

وانتحلوه لهذا العهد استبلاغا في منازع الملك وتتميما لمذاهبه وسماته والله غالب
على امره **فصل في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية والكوهن
عند اليهود** اعلم ان الملة لا بد من قايم بها عند غيبة النبي يحملهم على احكامها
وشرايعها ويكون كالخليفة فيهم للنبي فيما جاءهم به من التكاليف والنوع الانساني
ايضا بما تقدم من ضرورة السياسة فيه للاجتماع البشري لا بد لهم من شخص يحملهم
على مصالحهم ويزعهم عن مفاسدهم بالقهر وهو المسمى بالملك والملة الاسلامية لما كان
الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا او كرها اتحدت
فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القايمين بها اليهما معا **واما ما سوى الملة
الاسلامية** فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا في المدافعة فقط
فصار القايم بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وانما وقع الملك
لمن وقع منهم بالعرض لامر غير ديني وهو ما اقتضته العصبية بما فيها من الطلب
للملك بالطبع كما قلناه لا لانهم مكلفون بالتغلب على الامم كما في الملة الاسلامية
وانما هم مطلوبون باقامة دينهم في خاصتهم وكذلك بقوا ابنوا اسرائل من بعد موسى
ويوشع صلوات الله عليهما نحو اربع مائة سنة لا يعتنون بشيء من امر الملك
انما همهم اقامة دينهم فقط وكان القايم به بينهم يسمى الكوهن كانه خليفة لموسى صلوات
الله عليه يقيم لهم امر الصلوات والقربان ويشترطون فيه ان يكون من ذرية
هارون صلوات الله عليه لان ذلك كان له ولبنيه بالوحي ثم اختاروا لاقامة
السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتولون احكامهم العامة والكوهن
اعظم رتبة منهم في الدين وابعد عن شغب الاحكام واتصل ذلك فيهم الى ان استحكمت
العصبية وتمحضت الشوكة للملك فغلبوا الكنعانيين على الارض التي اورثهم الله
بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فحاربتهم
امم الفلسطين والكنعانيين والارمن وادوم وعمون ومواب ورياستهم
في ذلك راجعة الى شيوخهم واقاموا على ذلك نحو اربع مائة سنة ولم يكن لهم صولة
الملك وضجر بنو اسرائل من محاربة الامم فطلبوا على لسان شمويل من انبيائهم
ان ياذن الله لهم في تمليك رجل عليهم فملك عليهم طالوت وغلب الامم
وقتل جالوت ملك الفلسطين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات
الله عليهم واستفحل ملكه وامتد الى الحجاز ثم الى اطراف اليمن ثم الى اطراف الروم
ثم افترق الاسباط من بعد سليمان عليه السلام بمقتضى العصبية في الدول
كما قدمناه الى دولتين كانت احديهما بنواحي نابلس للاسباط العشرة وكرسي

ملكهم

ملكهم فيها صبصطة والاخرى بالقدس لبني يهودا وبني يامين ثم غلبهم بخت
نصر ملك بابل على ما كان بايديهم من الملك اولا الاسباط العشرة في صبصطية
ثم ثانيا بني يهودا ببيت المقدس بعد اتصال ملكهم الف سنة وخرب مسجدهم
واحرق توراتهم وامات دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى ان ردهم
بعض ملوك الكينية من الفرس الى بيت المقدس بعد سبعين سنة من خروجهم
فبنوا المسجد واقاموا امر دينهم على الرسم الاول للكهنونية فقط والملك للفرس
ثم غلب الاسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل امر
اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء
عليهم وقام بملكهم الكهنونية الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وبقية دولتهم
فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة واثخنوا في القتل والنهب والتحريق وخربوا بيت
المقدس واجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسميه
اليهود بالجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد
ذلك في ملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم امر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن
وكان المسيح صلوات الله عليه لما جاءهم بما جاء به من الدين والنسخ لبعض احكام
التوراة وظهرت على يده الخوارق العجيبة من ابراء المعتوه واحياء الموتى واجتمع
عليه كثير من الناس فآمنوا به واكثرهم الحواريون اصحابه وكانوا اثني عشر وبعث
منهم رسلا الى الافاق داعين الى ملته وذلك ايام اوغسطس اول ملوك القياصرة
وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناي اصهاره فحسده
اليهود وكذبوه وكاتبت هيردوس ملكهم ملك القياصرة اوغسطس يغرونه به فاذن
لهم في قتله ووقع ما تلاه القران من امره وافترق الحواريون شيعا ودخل اكثرهم
الى بلاد الروم داعين الى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة
دار ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي انزل على عيسى صلوات الله عليه
في نسخ اربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية
ونقله يوحنا ابن زبدي منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا انجيله منهم باللسان
اللطيني لبعض اكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم انجيله برومة وكتب بطرس
انجيله باللطيني ونسبه الى مرقاس تلميذه واختلفت هذه النسخ الاربع من
الانجيل مع انها كلها ليست وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى صلوات عليه وبكلام
الحواريين وكلها مواعظ وقصص والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحواريون
الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها

بيد اقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها
فمن شريعة اليهود القديمة التوراة وهي خمسة اسفار وكتاب يوشع وكتاب
القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهودا واسفار الملوك اربعة وسفر
بنيامين وكتاب المقابيين لابن كريون ثلثة اسفار وكتاب عزرا
الامام وكتاب اوشير وقصة هامان وكتاب ايوب الصديق ومزامير داود
عليه السلام وكتب ابنه سليمان خمسة اسفار ونبوات الانبياء الكبار
والصغار ستة عشر سفرا وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان عليه
السلام ومن شريعة عيسى عليه السلام المتلقاة من الحواريين نسخ الانجيل
الاربعة وكتاب بولس اربع عشرة رسالة وكتب القتاليقون سبع رسائل
وثامنها الابركسيس في قصص الرسل وكتاب اقليمنطس فيه الاحكام
وكتاب ابوغالمسيس وفيه رؤيا يوحنا ابن زبدي واختلف شان القياصرة
في الاخذ بهذه الشريعة تارة وتعظيم اهلها ثم تركها اخرى والتسلط عليهم بالقتل
والنفي الى ان جاء قسطنطين واخذ بها فاستمروا عليها وكان صاحب
هذا الدين والمقيم لمراسمه يسمى البطرك وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح
صلوات الله عليه فيهم ويبعث نوابه وخلفاءه الى ما بعد عنه من امم النصرانية ويسمونه
الاسقف اي نايب البطرك ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم
في الدين القسيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة للعبادة بالراهب
واكثر خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول راس الحواريين وكبير التلاميذ
برومة يقيم بها الدين الى ان قتله نيرون خامس القياصرة ثم قام بخلافته في كرسي
رومة اريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية ومصر والمغرب
داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو اول البطاركة
فيها وجعل معه اثني عشر قسا على انه اذا مات البطرك يكون واحد من الاثني
عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان امر البطاركة
الى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعد دينهم واجتمعوا بنيقية
ايام قسطنطين لتحرير الحق في الدين واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من اساقفتهم
على راي واحد في الدين فكتبوه وسموه الامانة وجعلوه اصلا يرجعون
اليه وكان فيما كتبوه ان البطرك القايم بالدين لا يرجع في تعيينه الى اجتهاد
الاقسة كما قرره حنانيا تلميذ مرقاس وابطلوا ذلك الراي وانما يقدم
عن ملأ واختيار من ائمة المؤمنين ورؤسائهم فبقي الامر كذلك ثم اختلفوا

بعد ذلك في قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في هذه
القاعدة فبقي الامر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الاساقفة عن البطاركة وكانوا
الاساقفة يدعون البطرك بالاب تعظيما له فصار الاقسة يدعون الاسقف
فيما غاب عن البطرك بالاب ايضا تعظيما له فاشتبه الاسم في اعصار متطاولة
يقال اخرها بطركية هرقل بالاسكندرية فاراد ان يميز البطرك عن الاسقف
في التعظيم فدعوه البابا ومعناه ابو الاباء وظهر هذا الاسم اول ظهوره بمصر
على ما زعم جرجس بن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم
وهو كرسي رومة لانه كرسي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمة عليه الى الان
ثم اختلف النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا
طوايف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلف الحال في العصور
في ظهور فرقة دون فرقة الى ان استقرت لهم ثلاث طوايف هي فرقهم ولا يلتفتون
الى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ولم نر ان نسخم اوراق الكتاب
بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة معروفة وكلها كفر كما صرح به القران الكريم ولم يبق
بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال انما هو الاسلام او الجزية او القتل
اختصت كل فرقة منهم ببطرك فبطرك رومة اليوم يسمى البابا على راي الملكية ورومة
للافرنجة وملكهم قايم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على راي اليعقوبية
وهو ساكن بين ظهرانيهم والحبشة يدينون بدينهم ولبطرك مصر اساقفة ينوبون
عنه في اقامة دينهم هنالك واختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد
ولا تسمي اليعاقبة بطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بباءين موحدتين من اسفل
والنطق بها مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الافرنجة انه يحضهم
على الانقياد لملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم واجتماعهم تحرجا من افتراق
الكلمة ويتحرى به العصبية التي لا فوقها منهم لتكون يده عالية على جميعهم ويسمونه
الانبرطور وحرفه الوسط بين الذال والظاء المعجمتين ويباشره بوضع
التاج على راسه للتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظة الانبرطور هذا ملخص
ما اوردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يضل
من يشاء ويهدي من يشاء

فصل في مراتب الملك والسلطان والقابها

اعلم ان السلطان في نفسه ضعيف يحمل
امرا ثقيلا فلا بد له من الاستعانة بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم في ضرورة
معاشه وساير مونه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده

وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كف عدوان بعضهم
على بعض في انفسهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكف العدوان عليهم في اموالهم
حتى باصلاح سابلتهم والى حملهم على مصالحهم وما تعم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم
من تفقد المعايش والمكاييل والموازين حذرا من التطفيف والى النظر في السكة
لحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم بما يريده من الانقياد
له والرضى بمقاصده فيهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية
من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من اماكنها
اهون علي من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت باولي القربى
من اهل النسب والتربية او الاصطناع القديم للدولة كانت اكمل لما يقع في ذلك
من مجانسة خلقهم لخلقه في الاستعانة قال تعالى اجعل لي وزيرا من اهلي هرون
اخي اشدد به ازري واشركه في امري وهو اما ان يستعين بذلك بسيفه
او بقلمه او برايه ومعارفه او بحجابه عن الناس ان يزدحموا عليه فيشغلوه
عن النظر في مهماتهم او يدفع النظر في الملك كله اليه ويعول على كفايته في ذلك
واضطلاعه به فلذلك قد توجد لرجل واحد وقد تفترق في اشخاص وقد يتفرع
كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم يتفرع الى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم
الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبة وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان
الجيش وكالسيف يتفرع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد
وولاية الثغور ثم اعلم ان الوظايف السلطانية في هذه الملة الاسلامية
مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه
فالاحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحد منها في ساير وجوهها لعموم
تعلق الحكم الشرعي بجميع افعال العباد فالفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان
وشروط تقليدها استبدادا او على الخلافة او تفويضا منها وهو معنى الوزارة
عندهم كما ياتي وفي حدود نظره في الاحكام والاموال وساير السياسات
مطلقا او مقيدا وفي موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك من معاني الملك والسلطان
من وزارة او جباية او ولاية لابد للفقيه من النظر في جميع ذلك لما قدمناه
من انسحاب حكم الخلافة الشرعية على رتبة الملك والسلطان في الملة الاسلامية
الا ان كلامنا في وظايف الملك والسلطان ورتبه انما هو بمقتضى طبيعة العمران
ووجود البشر لا بما يخصها من احكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج
الى تفصيل احكامها الشرعية مع انها مستوفاة في كتب الاحكام السلطانية مثل

كتاب القاضي ابي الحسن الماوردي وغيره من اعلام الفقهاء فان اردت استيعابها
فعليك بمطالعتها هنالك وانما تكلمنا في الوظايف الخلافية وافردناها لنميز
بينها وبين الوظايف السلطانية فقط لا لتحقيق احكامها الشرعية فليس من غرض
كتابنا فانما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الانساني
والله الموفق الوزارة وهي ام الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها
يدل على مطلق الاعانة فان الوزارة ماخوذة اما من الموازرة وهي المعاونة
او من الوزر وهو الثقل كانه يحمل مع مفاعله اوزاره واثقاله وهو راجع
الى المعاونة ايضا وقد كنا قدمنا في اول الفصل ان احوال السلطان وتصرفاته
لا تعدو اربعة انحاء لانها اما ان تكون في امور حماية الكافة واسبابها
من النظر في الجند والسلاح والحروب وساير امور الحماية والمطالبة وصاحب
هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب
واما ان يكون في امور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان او في الزمان وتنفيذه
الاوامر فيما هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما ان يكون في امور
جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بمضيعة
وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق
واما ان يكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحموا عليه
فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو احواله
هذه الاربعة بوجه وكل خطة ورتبة من رتب الملك والسلطان فاليها
ترجع الا ان الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامة فيما تحت يد السلطان
من ذلك الصنف اذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائما ومشاركته
في كل صنف من احوال ملكه او ما كان خاصا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون
دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر او ولاية جباية خاصة او النظر في امر خاص
كحسبة الطعام او النظر في السكة فان هذه كلها احوال خاصة ينظر فيها صاحبها
تبعا لاهل النظر العام وتكون رتبته مرؤوسة لاولئك وما زال الامر في الدول
قبل الاسلام هكذا حتى اذا جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت هذه
الخطط كلها بذهاب رسم الملك الا ما هو طبيعي من المعاونة بالراي والمفاوضة
فيه فلم يمكن زواله اذ هو امر لابد منه وكان صلى الله عليه وسلم يشاور
اصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك ابا بكر رضي
الله عنه بخصوصيات اخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول

واحوالها كسرى وقيصر والنجاشي يسمون ابابكر وزيره ولم يكن الوزير يعرف
بين المسلمين لذهاب رتب الملك بسذاجة الاسلام وكذا عمر مع ابي بكر
وعلي وعثمان مع عمر واما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم
برتبة لان القوم كانوا عربا اميين لا يحسنون الكتاب والحساب وكانوا
يستعملون في الحسبان اهل الكتاب او افرادا من موالي العجم ممن يجيده
وكان قليلا فيهم واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم
التي امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم يكن عندهم رتبة
خاصة للامية التي فيهم والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ولم تخرج
السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين وليست من السياسة
الملكية في شيء وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة احسنها لان الكل
كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة
يستنيب في كتابه متى عرض له من يحسنه واما مدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم
فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجاءت
رسوم السلطان والقابه كان اول ما بدي به في الدولة شان الباب
وسده دون الجمهور لما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم
كما وقع بعمر وعلي ومعوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من ازدحام الناس
عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب
وقد جاء ان عبد الملك لما ولى حاجبه قال له وليتك حجابة بابي الا عن ثلثة
المؤذن للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فامر ما جاء به وصاحب
الطعام لئلا يفسد ثم استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين
في امور القبائل واستيلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقي امر الحسبان في الموالي
والذميين واتخذ للسجلات كاتب مخصوص حوطة على اسرار السلطان ان تشتهر
فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخط
والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام اذ اللسان لذلك العهد
على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا سائر دولة بني
امية فكان النظر للوزير عاما في احوال التفويض والمفاوضات وسائر
امور الجبايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض
العطايا بالاهلة وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس وعظمت مراتبه
وارتفعت عظم شان الوزير وصار اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد

وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل
له النظر في ديوان الحسبان لما يحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند
الى النظر في جمعه وتفريقه واحتاج فاضيف اليه النظر في تفريقه ثم جعل له النظر
في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان
قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع
والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر
معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعي جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشيد
اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية
كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك
ثم جاء في الدولة العباسية شان الاستبداد على الخلفاء وتعاور فيها استبداد
الوزراء مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبد محتاجا الى استنابة
الخليفة اياه لذلك لتصح الاحكام الشرعية وتجري على حالها كما تقدم فانقسمت
الوزارة ح الى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه والوزير
في تنفيذ احكامه والى وزارة تفويض وهي حال ما يكون مستبدا عليه وقد فوض
اليه الخليفة جميع امور خلافته وجعلها لنظره واجتهاده وجرى ح الخلاف في العقد
لوزيرين معا بوزارة التفويض مثل ما جرى في العقد للامامين معا وقد تقدم في احكام
الخلافة ثم استمر الاستبداد وصار الامر لملوك العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن
لاولئك المتغلبين ان ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء
في اللقب لانهم خول لهم فتسموا بالامارة والسلطان وكان المستبد على الدولة
يسمى امير الامراء او بالسلطان الى ما يحليه به الخليفة من القابه كما تراه في القابهم
وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة في خاصته ولم يزل هذا الشان
عندهم الى اخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصار صناعة ينتحلها
بعض الناس فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليست
تلك البلاغة مقصودة من لسانهم فتخير لها من سائر الطبقات واختصت
به وصارت خادمة للوزير واختص اسم الامير بصاحب الحروب والجند وما يرجع
اليها ويده مع ذلك عالية على اهل الرتب وامره نافذ في الكل اما نيابة او استبدادا
واستمر الامر على هذا ثم جاءت دولة الترك اخرا بمصر فراوا الوزارة قد ابتذلت
بترفع اولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك
معقب بنظر الامير فصارت مرؤسة ناقصة فاستنكف اهل الرتبة

العالية عنها وصار صاحب الاحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنايب
لهذا العهد واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية واما دولة بني امية
بالاندلس فانفوا اسم الوزير في مدلوله اول الدولة ثم قسموا خطته اصنافا وافردوا
لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسيل وزيرا وللنظر في حوائج
المتظلمين وزيرا وللنظر في احوال اهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون
فيه على فرش منضدة لهم وينفذون امر السلطان هنالك كل فيما جعل له
وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان
في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشان
هذا الى اخر دولتهم فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على ساير الرتب
حتى صار ملوك الطوايف ينتحلون لقبها فاكبرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره
ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان وكان للقايمين بها رسوخ
في البداوة فاغفلوا امر هذه الخطط اولا وتنقيح اسمائها حتى ادركت دولتهم
الحضارة دولتهم فصاروا الى تقليد الدولتين قبلهم في وضع اسمائها كما تراه
في اخبار دولتهم ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك اغفلت الامر اولا
للبداوة ثم صارت الى انتحال الاسماء والالقاب وكان اسم الوزير في مدلوله
ثم اتبعوا دولة الامويين وقلدوها في مذاهب السلطان واختاروا اسم
الوزير لمن يحجب السلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان
عند الحدود في تحيتهم وخطابهم والاداب التي تلزم في الكون بين يديه
ورفعوا خطة الحجابة عنه ما شاؤوا ولم يزل الشان ذلك الى هذا العهد واما في دولة
الترك بالمشرق فيسمون هذا الذي يقف بالناس على حدود الاداب
في اللقاء والتحية في مجلس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه يسمونه
الدوادار ويضيفون اليه استتباع كاتب السر واصحاب البريد المتصرفين
في حاجات السلطان بالقاصية وفي الحضرة وحالهم على ذلك لهذا العهد
والله متولي الامور **الحجابة** قد قدمنا ان هذا اللقب كان مخصوصا في الدولة
الاموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويغلق
بابه دونهم او يفتحه لهم على قدره وفي مواقيته وكانت هذه منزلة يومئذ
مرؤوسة عن الخطط اذ الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا كانت ساير ايام
بني العباس والى هذا العهد فهي بمصر مرؤوسة لصاحب الخطة العليا المسمى
بالنايب واما في دولة بني امية بالاندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان

عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت
في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في اخبارهم كابن حدير وغيره من حجابهم ثم لما جاء
الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن
ابي عامر وابناؤه كذلك ولما بدوا في مظاهر الملك واطواره جاء من بعدهم
من ملوك الطوايف فلم يتركوا لقبها وكانوا يعدونه شرفا لهم وكان اعظمهم
ملكا بعد انتحال القاب الملك واسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين
يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة
والخاصة وبذي الوزارتين على جمعه لخطتي السيف والقلم ثم لم يكن في دول
المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما توجد
في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها الا انه قليل ولما جاءت
دولة الموحدين لم يستمكن فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب
وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء الا اخرا فلم يكن عندهم من الرتب الا الوزير
فكانوا اولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان
في خاص امره كابن عطية وعبد السلام الكومي وكان له مع ذلك النظر في الحساب
والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من
الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن باسم الحاجب معروفا في دولتهم يومئذ
واما بنو ابي حفص بافريقية فكانت الرياسة في دولتهم اولا والتقدم لوزير
الراي وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل
وقود العساكر والحروب واختص الحسبان والديوان برتبة اخرى يسمى
متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب
ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه ان يكون من الموحدين
واختص عندهم القلم ايضا بمن يجيد الترسيل بلسانهم فلم يشترط النسب
واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين في داره الى قهرمان
خاص بداره في احواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة
ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر للذخيرة وتنفيذ ما يحتاج
اليه في ذلك على اهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما اضافوا اليه العلامة
على السجلات اذا اتفق انه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره
واستمر الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا
الحاجب واسطة بين الناس وبين اهل الرتب كلهم ثم جمع له اخر الدولة

السيف والحرب ثم الراي والمشورة فصارت الخطة ارفع الرتب واوعبها
للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد السلطان الثاني عشر منهم
ثم بعد ذلك حافده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب اثار
الحجر والاستبداد باذهاب خطة الحجابة التي كانت سلما اليه وباشر اموره
كلها بنفسه من غير استعانة باحد والامر في ذلك لهذا العهد **واما دولة**
زناتة بالمغرب واعظمها دولة بني مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم واما رياسة
الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم والرسائل في الحسبان راجع الى من يحسنها
من اهلها وان اختصت ببعض البيوت من المصطنعين في دولتهم وقد تجمع
عندهم وقد تفرق واما باب السلطان وحجبه عن العامة فهي رتبة عندهم
تسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرة المتصرفين بباب السلطان
في تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ المعتقلين
في سجونه والعريف عليهم في ذلك فالباب له واخذ الناس بالوقوف عند
الحدود في دار العامة راجع اليه فكانها وزارة صغرى **واما دولة** بني عبد الواد فلا اثر
عندهم لشيء من هذه الالقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون
باسم الحاجب في بعض الاحوال منفذ الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة
بني ابي حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجل كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد
الدولة بما كانوا في تبعتها والقايمين بدعوتها منذ اول امرهم واما اهل الاندلس
لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وساير الامور
المالية يسمونه بالوكيل واما الوزير فكالوزير الا انه قد يجمع له الترسيل والسلطان
يضع خطه على السجلات كلها فليس هناك خطة للعلامة كما لغيرهم من الدول
واما دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من اهل الشوكة
وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه
الوظيفة عندهم تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في اهل الدولة وفي العامة
على الاطلاق وللنايب التولية والعزل في بعض الوظايف على الاحيان
ويقطع القليل من الارزاق ويبتعها وتنفذ اوامره ومراسمه كما تنفذ
المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب
الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليهم واجبار من ابى الانقياد
للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية
الاموال في الدولة على اختلاف اصنافها من خراج او مكس او جزية ثم في تصريفها

في الاتفاقات السلطانية والجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية
والعزل في ساير العمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف
مراتبهم وتباين اصنافهم ومن عوايدهم ان يكون هذا الوزير من صنف القبط
القايمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذ عصور
قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان من رجالات الترك اهل الشوكة
او ابنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الامور ومصرفها بحكمته
لا اله الا هو

ديوان الاعمال والجبايات

هذه الوظيفة من الوظايف الضرورية للملك وهي القيام على اعمال الجبايات
وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير
ارزاقهم وصرف اعطياتهم في اباناتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي
يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب
شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحسبان
لا يقوم به الا المهرة من اهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان
وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها ويقال ان اصل هذه التسمية
ان كسرى نظر يوما الى كتاب ديوانه وهم يحسبون مع انفسهم كانهم يحادثون
فقال ديوانه اي مجانين بلغة الفرس فسمي موضعهم بذلك وحذفت الهاء
لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال
المتضمن للقوانين والحسبانات وقيل انه اسم للشياطين بالفارسية
وسمي الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الامور ووقوفهم على الجلي منها والخفي
وجمعهم لما شذ وتفرق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول
اسم الديوان كتاب الرسايل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما ياتي بعد
وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في ساير الاعمال وقد يفرد كل صنف منها
بناظر كما يفرد في بعض الدول النظر في العساكر واقطاعاتهم وحسبان اعطياتهم
او غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرره اولوها واعلم ان هذه الوظيفة
انما تحدث في الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء والنظر في اعطاف
الملك وفنون التمهيد واول من وضع الديوان في الدولة الاسلامية عمر
رضي الله عنه يقال بسبب مال اتى به ابو هريرة من البحرين فاستكثروه وتعبوا
في قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فاشار خالد بن
الوليد بالديوان وقال رايت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل

بل اشار عليه الهرمزان لما راه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلم
بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف اخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب
فاثبت لهم ديوانا وسئل عمر عن اسم الديوان ففسر له ولما اجمع على ذلك
امر عقيل بن ابي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش
فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتديا من قرابة رسول
الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان
الجيش وروى الزهري عن سعيد بن المسيب ان ذلك كان في المحرم سنة
عشرين واما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل
ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين
من اهل العهد من الفريقين فلما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل
القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامية الى حذق
الكتابة وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان فامر عبد الملك سليمان
بن سعد والي الاردن لعهده ان ينقل ديوان الشام الى العربية فاكمله لسنة
من يوم ابتدائه ووقف عليه سرجون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم
اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم واما ديوان العراق فامر
الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك
عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن
استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وامره ان ينقل الديوان من الفارسية الى العربية
ففعل ورغم لذلك كتاب الفرس كان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح
ما اعظم منته على الكتاب ثم جعلت هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة الى من كان
له النظر فيه كما كان شان بني برمك وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء
تلك الدولة فاما ما يتعلق بهذه الوظيفة من الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش
وبيت المال في الدخل والخرج وتمييز النواحي بالصلح والعنوة وفي تقليد هذه
الوظيفة لمن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسابات
فامر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهي مسطورة هنالك وليست من غرض
كتابنا وانما نتكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدد الكلام فيه وهذه
وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة اركانه لان الملك لابد
له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان
في امر السيف وامر القلم وامر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة

الملك وكذلك كان الامر في دولة بني امية بالاندلس والطوائف بعدهم
واما في دولة الموحدين فكان صاحبها انما يكون من الموحدين يستقل بالنظر
في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها
على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربما يليها
في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبد بنو ابي حفص بافريقية وكان
الجالية من الاندلس فقدم عليهم اهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل
في ذلك بالاندلس مثل بني سعيد اصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين
ببني ابي الحسين فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا النظر لهم بالاشغال
كما كان بالاندلس وداولوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها اهل
الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ امر الحاجب ونفذ
امره في كل شان من شؤن الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا
للحاجب واصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة
واما في دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان الخراج والعطاء مجموع لواحد وصاحب
هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسبانات كلها ويرجع الى ديوانه ونظره معقب
بنظر السلطان او الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في العطاء والخراج هذه
اصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر
ومباشرة للسلطان واما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة وصاحب
ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير
وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة وهو اعلى رتب الناظرين في الاموال
عندهم يتنوع الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظم سلطانهم واتساع الاموال
والجبايات عن ان يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في الكفاية مبالغه
فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف
لمولى من موالي السلطان واهل عصبيته وارباب السيوف في الدولة
يرجع نظر الوزير الى نظره ويجتهد جهده في متابعته ويسمى عندهم استاذ الدار
وهو احد الامراء الاكابر في الدولة من الجند وارباب السيوف ويتبع
هذه الخطة عندهم خطط اخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة
النظر على امور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاصة
به من اقطاعه او سهمانه من اموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من اموال المسلمين
العامة التي تحت نظره وهو تحت يد الامير استاذ الدار وان كان الامير

من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه وناظر الخاص ايضا تحت يد الخازن
لاموال السلطان من مماليكه المسمى المسمى خازن دار لاختصاص وظيفته بمال
السلطان الخاص به وهذا مسمى هذه الخطة في دولة الترك بالمشرق بعد ما قدمناه
من امرها والله مصرف الامور لا رب غيره **ديوان الرسائل والكتابة**
هذه الوظيفة غير ضرورية في الرسائل والكتابة في الملك لاستغناء كثير من الدول
عنها راسا كما في الدول العريقة في البدو التي لم ياخذها تهذيب الحضارة
ولا استحكام الصنائع وانما اكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شان اللسان
العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يودي كنه الحاجة
بابلغ من العبارة اللسانية في الاكثر وكان الكاتب للامير يكون من اهل نسبه
ومن عظماء قبيلة كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظيم امانتهم
وخلوص اسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختص بمن يحسنه وكانت
عند بني العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب
في اخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان
او شارته يغمس في طين احمر مذاف بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي
السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم
السلطان ويضع الكاتب فيها علامته اولا او اخرا على حسب الاختيار في محلها
وفي لفظها ثم تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها
او استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة الحكم بعلامة الوزير عليه
يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس
كما وقع اخر الدولة الحفصية لما ارتفع شان الحجابة وصار امرها الى التفويض ثم
الاستبداد وصار حكم العلامة التي للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لما سلف
من امرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابة ذلك بخط يضعه ويتخير
له من صيغ الانفاذ ما شاء فياتمر الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص
السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدا بامره قائما على نفسه فيرسم
الامر للكاتب ليضع علامته ومن خطط الكتابة التوقيع وهو ان يجلس الكاتب
بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة اليه
احكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان باوجز لفظ وابلغه فاما ان تصدر
كذلك واما ان يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب
القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه وقد كان

جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها
فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على اساليب
البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان
الدول **واعلم** ان صاحب هذه الخطة لابد وان يتخير من ارفع طبقات
الناس واهل المروة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض
للنظر في اصول العلم لما يعرض في مقاصد الملوك ومقاعد احكامهم من امثال ذلك
مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الاداب والتخلق بالفضائل
ومع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة واسرارها
وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى ارباب السيوف لما يقتضيه
طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سذاجة العصبية فيختص السلطان
اهل عصبيته بخطط دولته وسائر رتبه فيقلد المال والسيف والكتابة منهم
فاما رتبة السيف فتستغني عن معاناة العلم واما المال والكتابة فيضطر الى ذلك
للبلاغة في هذه والحسبان في الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت
اليه الضرورة ويقلدونه الا انه يكون يد اخر من اهل العصبية غالبة على يده
يكون نظره متصرفا عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان رياسة
الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا انه تحت يد امير من اهل عصبية
السلطان يعرف بالدويدار وتعويل السلطان ووثوقه به واستنامته في غالب
احواله اليه وتعويله على الاخر في احوال البلاغة وتطبيق المقاصد وغير ذلك من توابعها
واما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره
وانتقائه من اصناف الناس فهي كثيرة واحسن من استوعبها عبد الحميد
الكاتب في رسالته الى الكتاب وهي هذه **اما بعد** حفظكم الله يا اهل صناعة
الكتابة وحاطكم ووفقكم لرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء
والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافا
وان كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات
معايشهم وابواب ارزاقهم فجعلكم معشر الكتاب في اشرف الجهات اهل
الادب والمروة والعلم والرواية بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها
وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلادهم لا يستغني الملك عنكم
ولا يوجد كاف الا منكم فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون
وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي

بها يبطشون فاسمعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاه من النعمة
عليكم وليس احد من اهل الصناعات كلها اجتماع لخلال الخير منكم وخصال الفضل
المذكورة المعدودة فيكم ايها الكتاب اذا كنتم على ما ياتي في هذا الكتاب من صفتكم
فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات
اموره ان يكون حليما في موضع الحلم فهما في موضع الفهم ومقداما في موضع الاقدام
ومحجاما في موضع الاحجام موثرا للعفاف والعدل والانصاف كتوما للاسرار
وفيا عند الشدايد عالما بما ياتي من النوازل يضع الامور مواضعها والطوارق
اماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلوم فاحكمه فان لم يحكمه اخذ منه
بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما يرد عليه
قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل امر عدته وعتاده
ويهيي لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف
الاداب وتفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرايض
ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا
الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها
فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه بهممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب
فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودنيها
وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب
ونزهوا صناعتكم عن الدناآت واربؤا بانفسكم عن السعاية والنميمة
وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة
مجتلبة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي
هو اليق باهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل
منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى ترجع اليه حاله ويثوب اليه امره وان اقعد
احدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا
بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر
به ليوم حاجته اليه احوط منه على ولده واخيه فان عرضت في الشغل
محمدة فلا يضيفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه
وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم ايها
الكتاب اسرع منه الى القراء وهو لكم افسد منه لها فقد علمتم ان الرجل
منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه

ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته وكتمان سره وتدبير
امره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه والاضطرار
الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة
والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه
لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم او صير اليه
من امر خلق الله وعياله امر فليراقب ربه عز وجل وليوثر طاعته وليكن على
الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله احبهم اليه ارفقهم
بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفيء موفرا وللبلاد عامرا
وللرعية متالفا وعن اذاهم متخلفا وليكن في مجلسه متواضعا حليما وفي سجلات
خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا واذا صحب احدكم رجلا فليختبر خلايقه
فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه
من القبيح بالطف حيلة واجمل وسيلة وقد علمتم ان سايس البهيمة اذا كان
بصيرا بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت جموحا لم يهجها اذا ركبها
وان كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها وان خاف منها شرودا توقاها
من قبل راسها وان كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها فان استمرت
عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دليل لمن ساس
الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم والكاتب بفضل ادبه وشريف صنعته
ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه او يخاف
سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سايس البهيمة
التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه
صاحبها الراكب عليها الا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا فيه من الروية والفكر
ما امكنكم تامنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير
منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن
الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه
وغير ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم
خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير
واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا
متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان
الرقاب ويفضحان اهلهما ولا سيما الكتاب وارباب الاداب وللامور

اشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف اعمالكم بما سبقت
اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة واصدقها حجة واحمدها
عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ
علمه ورويته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه وليوجز في ابتدائه
وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن
اكثاره وليضرع الى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط
المضر ببدنه وعقله وادبه فانه ان ظن منكم ظان او قال قائل ان الذي
برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض
بظنه او مقالته الى ان يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك
على من تامله غير خاف ولا يقل احد منكم انه ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقه
في صناعته ومصاحبه في خدمته فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعجب
وراء ظهره وراى ان صاحبه اعقل منه واحمد في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين
ان يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على اخيه
او نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته
والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وانا اقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه
النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه
من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر
الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه في اسعاده وارشاده فان ذلك
اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته **الشرطة** ويسمى صاحبها لهذا
العهد بافريقية الحاكم وفي دولة اهل الاندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك
الوالي وهي وظيفة مرؤوسة لصاحب السيف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها
بعض الاحيان وكان اصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم احكام
في حال استبرائها اولا ثم الحدود بعد استيفائها فان التهم التي تعرض
في الجرائم لا نظر للشرع الا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر في استيفاء
موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجبه المصلحة
العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود
بعده يسمى صاحب الشرطة اذ تنزه عنه القاضي وربما جعلوا اليه النظر
في الدماء والحدود باطلاق وافردوها من نظر القاضي ونوهوا بهذه
الرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ولم تكن عامة التنفيذ

في طبقات الناس انما كان حكمه على الدهماء واهل الريب والضرب
على ايدي السفهاء والفجرة ثم عظمت نباهتها في دولة بني امية بالاندلس
ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء
وجعل له الحكم على المراتب السلطانية والضرب على ايديهم في الظلامات
وعلى ايدي اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة
ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجل يتبوؤن المقاعد
بين يديه فلا يبرحون عنها الا في تصريفه وكانت ولايتها للاكابر من رجالات
الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة واما في دولة الموحدين بالمغرب
فكان لها حظ من التنويه وان لم يجعلوها عامة وكان لا يليها الا رجالات
الموحدين وكبراؤهم ولم يكن له التحكم على اهل المراتب السلطانية ثم فسد اليوم
منصبها وخرجت عن ولاية رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من
المصطنعين واما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمغرب فحدوثها في بيوت
مواليهم واهل اصطناعهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجالات الترك
او اعقاب اهل الدولة قبلهم من الكرد يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم
من الصلابة والمضاء في الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم ابواب الدعارة
وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع اقامة الحدود الشرعية والسياسية
كما تقتضيه رعاية المصالح العامة في المدينة والله مقلب الليل والنهار **قيادة
الاساطيل** وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية
ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ويسمى صاحبها
في عرفهم باسم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها في اصطلاح
لغتهم وانما اختصت هذه الرتبة بملك افريقية والمغرب لانهما جميعا على ضفة
البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة
الى الاسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة
والصقالبة والروم الى بلاد الشام ايضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي
نسبة الى اهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه
يعانون من احواله ما لا تعانيه امة من امم البحار فقد كانت الروم والافرنجة
والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم
في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في اساطيله ولما اسف من اسف
منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب

اجاز واتخذ الاساطيل وتملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من ايديهم امرها
وكان لهم المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة صاحب رومة ويبعث
الاساطيل الحربية مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر
الساكنين حفافيه معروفة في القديم والحديث ولما ملك المسلمون مصر
كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ان صف لي البحر فكتب اليه ان البحر
خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود فاوعز بمنع المسلمين من ركوبه
ولم يركبه احد من العرب الا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل
بعرفجة بن هرثمة الازدي سيد بجيلة لما اغزاه عمان فبلغه غزوه فانكر عليه وعنفه
انه ركب البحر للغزو ولم يزل الشان ذلك حتى اذا كان لعهد معوية اذن
للمسلمين في ركوبه والجهاد على اعواده والسبب في ذلك ان العرب لبداوتهم
لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والفرنجة لممارستهم
احواله ومرباهم في التقلب على اعواده مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته
فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم العجم خولا لهم وتحت ايديهم
وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا النواتية في حاجاتهم البحرية
امما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصرا بها فشرهوا الى الجهاد
فيه وانشأوا السفن والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وامطوا
العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم
ما كان اقرب لهذا البحر وعلى ضفته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس
واوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار صناعة
بتونس لانشاء الالات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية
ايام زيادة الله الاول بن ابرهيم بن الاغلب على يد اسد بن الفرات شيخ
الفتيا وفتح قوصرة ايضا في ايامه بعد ان كان معوية بن حديج اغزى صقلية
ايام معوية بن ابي سفيان فلم يفتح الله على يده وفتحت على يد ابن الاغلب
وقائده اسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك اساطيل افريقية
والاندلس في دولة العبيديين والامويين تتعاقب الى بلادهما في سبيل
الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى اسطول
الاندلس ايام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب او نحوها واسطول
افريقية كذلك مثله او قريبا منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس
ابن رماحس ومرفاها للحط والاقلاع بجانة والمرية وكانت اساطيلها

مجتمعة

مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع الى قائد من النواتية
يدبر امر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر امر جريته بالريح او بالمجاذيف
وامر ارسائه في مرفاه فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض
سلطاني مهم عسكرت بمرفاها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد
عساكره ومواليه وجعلهم لنظر امير واحد من اعلى طبقات اهل مملكته
يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة وكان
المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه
وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم
في شيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات
المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل
فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة
واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والفرنج وكان ابو القاسم
الشيعي وابناؤه يغزون اساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر
والغنيمة وافتتح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة
سردانية في اساطيله سنة خمس واربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون
خلال ذلك كله قد تغلبوا على الكثير من لجة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيه
جائية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر
الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الفرنج وتثخن في ممالكهم كما
وقع في ايام بني ابي الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين
وانحازت امم النصرانية باساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل
الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها واساطيل المسلمين قد ضريت
عليهم ضراء الاسد بفريسته وقد ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعديدا
واختلفت في طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه الواح حتى اذا ادرك
الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مد النصارى
ايديهم الى الجزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ثم
الحوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور
وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس
وبنوا عليها كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم وغلبوا بني خزرون على طرابلس
ثم على قابس وصفاقس ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملك

ملك العبيديين من يد اعقاب بلكين ابن زيري وكانت لهم في المائة
الخامسة الكرة بهذا البحر وضعف شان الاساطيل في دولة مصر والشام
الى ان انقطع ولم يعتنوا بشي من امره لهذا العهد بعد ان كان لهم به في الدولة
العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في اخبارهم فبطل رسم هذه
الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان
الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الاساطيل ثابت القوة لم يتحيفه
عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قايد الاسطول به لعهد لمتونة بنو ميمون
روسا جزيرة قادس ومن ايديهم اخذها عبد المومن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى
عدد اساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا ولما استفحلت دولة
الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين اقاموا خطة هذا الاسطول
على اتم ما عرف واعظم ما عهد وكان قايد اساطيلهم احمد الصقلي اصله من صدغيار
الموطنين بجزيرة جربة من سدويكش اسره النصارى من سواحلها وربي عندهم
واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولي ابنه فاسخطه ببعض
النزعات وخشي على نفسه ولحق بتونس ونزل على السيد بها من بني عبد المومن
واجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف العسري بن عبد المومن بالمبرة
والكرامة واجزل له الصلة وقلده امر اساطيله فجلي في جهاد امم النصرانية
وكانت له اثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت اساطيل
المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه قبل ولا بعد فيما عهدناه
ولما قام صلاح الدين يوسف بن ايوب ملك مصر والشام لعهده
باسترجاع ثغور الشام من يد امم النصرانية وتطهير بيت المقدس
من رجس الكفر وبنائه تتابعت اساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور
من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه
فامدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم اساطيل الاسكندرية
لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد اساطيلهم
فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك كما اشرنا
اليه قبل فاوفد صلاح الدين على يعقوب المنصور سلطان المغرب
لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك
شيزر وكان ملكها من ايديهم وابقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم
عبد الكريم هذا منهم الى ملك المغرب طالبا مدد الاساطيل لتحول بينه

وبين

وبين اساطيل الكفرة في البحر من امداد النصرانية بثغور الشام واصحبه
كتابه اليه في ذلك انشا الفاضل البيساني يقول في افتتاحه فتح الله لحضرة
سيدنا ابواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصفهاني في كتاب
الفتح القدسي فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بامير المومنين واسرها
في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وحملهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته
من ذلك وفي هذا اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية
في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر
والشام لذلك العهد وما بعده بشان الاساطيل البحرية والاستعداد
منها للدول ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين
واستولت امم الجلالقة على الاكثر من بلاد الاندلس والجوا المسلمين الى سيف
البحر وملكوا الجزاير التي بالجانب الغربي من البحر الرومي قويت ريحهم في بسيط
هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت اساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين
فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان ابي الحسن ملك زناتة بالمغرب
فان اساطيله كانت عند مرامه الجهاد في امم النصرانية في مثل عددهم
وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الاساطيل لضعف
الدولة ونسيان عوايد البحر بكثرة عوايد البدوية بالمغرب وانقطاع
العوايد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة
فيه والمران عليه والبصر باحواله وغلب الامم في لجته وعلى اعواده وصار
المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من اهل البلاد الساحلية لهم المران
عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة في الدول تستجيش
لهم اعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدول
المغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشا والركوب
معهودا لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية
والمسلمون يستهبون الريح على الكفر واهله فمن المشتهر بين اهل المغرب
عن كتب الحدثان انه للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر
من بلاد الافرنجة وان ذلك في الاساطيل والله ولي المؤمنين

فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة تستعين بها

على امره الا ان الحاجة الى السيف في اول الدولة ما دام اهلها في تمهيد امرهم
اشد من الحاجة الى القلم اذ القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني
والسيف شريك في المعونة وكذلك في اخر الدولة حيث تضعف عصبيتها
كما ذكرناه ويقل اهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فيحتاج الدولة
الى الاستظهار بارباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة
والمدافعة عنها كما كان الشان اول الامر في تمهيدها فيكون للسيف
مزية في الحالتين على القلم ويكون ارباب السيوف حينئذ اوسع جاها واكثر
نعمة واسنى اقطاعا واما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء
عن السيف لانه قد تمهد امره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك
من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم معين
في ذلك فتعظم الحاجة الى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع
مهودها الا اذا نابت نائبة او دعيت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة
اليها فيكون ارباب الاقلام في هذه الحالة اوسع جاها واعلى رتبة
واعظم نعمة وثروة واقرب من السلطان مجلسا واكثر اليه ترددا وفي خلواته
نجيا لانه حينئذ آلته التي يستظهر بها على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطافه
وتثقيف اطرافه والمباهاة باحواله ويكون الوزراء حينئذ واهل السيوف
مستغنى عنهم مبعدين عن باطن السلطان حذرين على انفسهم من بوادره
وفي معنى ذلك ما كتب به ابو مسلم للمنصور حين امره بالقدوم اما بعد
فانه مما حفظناه من وصايا الفرس اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت
الدهماء سنة الله في عباده

فصل في شارات السلطان الخاصة به

اعلم ان للسلطان شارات واحوالا
تقتضيها الابهة والبذخ فيختص بها وتتميز بانتحالها عن الرعية
والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة
وفوق كل ذي علم عليم **الالة** فمن شارات الملك اتخاذ الالة من نشر
الالوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الابواق والقرون وقد ذكر
ارسطو في الكتاب المنسوب اليه في السياسة ان السر في ذلك
ارهاب العدو في الحرب فان الاصوات الهائلة لها تاثير في النفوس
بالروعة ولعمري انه امر وجداني في مواطن الحروب يجده كل احد من نفسه

وهذا

وهذا السبب الذي ذكره ارسطو ان كان ذكره بعض الاعتبارات فهو صحيح
واما الحق في ذلك فهو ان النفس عند سماع النغم والاصوات يدركها الفرح
والطرب بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت
في ذلك الوجه الذي هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال
الابل بالحداء والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تاكيدا اذا كانت
الاصوات متناسبة كما في الغناء وانت تعلم ما يحدث لسامعه مثل
هذا المعنى ولاجل ذلك تتخذ العجم في مواطن حروبهم الالات الموسيقارية
لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغنون بالسلطان في موكبه بالاتهم ويغنون
فيحركون نفوس الشجعان بضربهم الى الاستماتة ولقد راينا في حروب
العرب من يتغنى امام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال
بما فيها ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زناتة
من امم المغرب يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه
الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك
الغناء تاصوكايت واصله كله فرح يحدث في النفس فينبعث عنه الشجاعة
كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله اعلم واما تكثير الرايات
وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل زيادة في الاقدام واحوال النفوس
وتلويناتها غريبة والله الخلاق العليم **ثم ان الملوك** والدول يختلفون
في اتخاذ هذه الشارات فمن مكثر ومقلل بحسب اتساع الدولة وعظمها
فاما الرايات فانها شعار الحروب من عهد الخليقة ولم تزل الامم تعقدها
في مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء
واما قرع الطبول والنفخ في الابواق فكان المسلمون لاول الملة متجافين عنه
تنزها عن غلظة الملك ورفضا لاحواله واحتقارا للابهة التي ليست من الحق
في شيء حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا زهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم
الموالي من الفرس والروم اهل الدول السالفة واروهم ما كان اولئك
ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخاذ الالة
فاخذوها واذنوا للعمال في اتخاذها تنويها بالملك واهله فكثيرا ما كان العامل
صاحب الثغر او قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين او العبيديين
لواءه ويخرج الى بعثه او عمله من دار الخليفة او داره في موكب من اصحاب
الرايات والالات فلا يميز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية

او قلتها او باختصاص الخليفة من الالوان لرايته كالسواد في رايات
بني العباس فان راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بني هاشم
ونعيا على بني امية في قتلهم ولذلك سموا المسودة ولما افترق امر الهاشميين
وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم
فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر ايام العبيديين
ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالمشرق كالداعي بطبرستان
وداعي صعدة ومن دعا الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة ولما نزع المامون
عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضرا
واما الاستكثار منها فلا ينتهي الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز
نزار الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق واما ملوك
البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرهم فلم يختصوا بلون واحد بل وشعوها بالذهب
واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الاذن فيها لعمالهم حتى اذا جاءت
دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة قصروا الآلة من الطبول والبنود على
السلطان وحظروها على سواه من عماله وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع اثر السلطان
في مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلل باختلاف مذاهب الدول
في ذلك فمنهم من يقتصر على سبع في العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين
وبني الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة
وقد بلغت ايام السلطان ابي الحسن فيما ادركناه مائة من الطبول
ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير
ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة
ايام الحرب لا يتجاوزون ذلك **واما دولة الترك لهذا العهد**
بالمشرق فيتخذون اولا راية واحدة عظيمة وفي راسها خصلة كبيرة
من الشعر ويسمونها الجاليش والجتر مع العسكر على عمومه ثم على راس
السلطان راية اخرى تسمى العصابة او الشطفة وهي شعار السلطان
عندهم ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق
وهو الراية بلسانهم واما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها
ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل امير او قائد عسكر من ذلك
ما شاء الا العصابة فانه خاص بالسلطان واما الجلالقة لهذا العهد
من امم الافرنجة بالاندلس فاكثر شانهم اتخاذ الالوية القليلة ذاهبة

في الجو

في الجو صعدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون
فيها مذهب الغناء وطريقه في مواطن حروبهم هكذا يبلغنا عنهم وعمن وراءهم
من ملوك العجم وفي خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم
ايات للعالمين **السرير** واما السرير والمنبر والتخت والكرسي فهو
اعواد منصوبة او ارائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن اهل
مجلسه ان يساويهم في الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملك قبل
الاسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على اسرة الذهب وكان
لسليمان عليه السلام سرير من عاج مغشى بالذهب الا انه لا تاخذ به الدول
الا بعد الاستفحال والترف شان الابهة كلها كما قلناه واما في الدولة
عند البداوة فلا يتشوفون اليه واول من اتخذه في الاسلام معوية
واستاذن الناس فيه وقال اني قد كبرت وبدنت فاذنوا له فاتخذه
واتبعه الملوك الاسلاميون فيه وصار من منازع الابهة ولقد كان عمرو بن
العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره
ومعه سرير الذهب محمول على الايدي لجلوسه شان الملوك فيجلس عليه وهم
امامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لابهة الملك
ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعبيديين وسائر ملوك الاسلام شرقا
وغربا من الاسرة والمنابر والتخوت ما عفا على الاكاسرة والقياصرة
والله مقلب الليل والنهار **السكة** وهي الختم على الدراهم والدنانير
المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش فيه صور او كلمات مقلوبة
ويضرب بها على الدينار او الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها
ظاهرة مستقيمة بعد ان يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك
مرة بعد اخرى وبعد تقدير اشخاص الدنانير والدراهم بوزن معين
يصطلح عليه فيكون التعامل بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهي
الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل الى اثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير
والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجته وشروطه
وهي الوظيفة فصار علما عليها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك
اذ بها يتميز الخالص من البهرج بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون
في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة وكان
ملوك العجم يتخذونها وينقشون عليها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال

السلطان لعهدنا او تمثال حصن او حيوان او مصنوع او غير ذلك ولم يزل
هذا الشان عند العجم الى اخر امرهم ولما جاء الاسلام اغفل ذلك لسذاجة
الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا وكانت
دنانير الفرس ودراهمهم بين ايديهم ويردونها في معاملاتهم الى الوزن ويتصرفون
فيها فيما بينهم الى ان تفاحش الغش في الدراهم والدنانير لغفلة الدولة
عن ذلك وامر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وابو الزناد
فضرب الدراهم وتميز المغشوش من الخالص وذلك سنة خمس وسبعين
وقيل سنة اربع وسبعين ثم امر بضربها في ساير النواحي سنة ست وسبعين
وكتب عليها الله احد الله الصمد ثم ولي ابن هبيرة العراق ايام يزيد بن عبد
فجود السكة ثم ولي خالد القسري فبالغ في تجويدها ثم يوسف بن عمر بعده
وقيل اول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق بامر اخيه
عبد الله لما ولي بالحجاز وكتب عليها في احد الوجهين بركة وفي الاخر اسم
الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها باسم الله الحجاج وقدر وزنها
على ما كانت استقرت ايام عمر وذلك ان اوزان الدرهم ايام الفرس
كانت مختلفة وكانت منها على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها
اثني عشر ومنها عشرة فلما احتيج الى تقديره في الزكاة اخذ الوسط من الثلثة
وذلك اربعة عشر قيراطا فكان الدرهم درهما وثلثة اسباع درهم
وقيل ان الدراهم كانت منها البغلي بثمانية دوانق والطبري اربعة دوانق
والمغربي ثلثة دوانق واليمني دانق فامر عمران ينظر الاغلب في التعامل
وكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقا فكان الدرهم ستة دوانق و
وان زدت ثلثة اسباعه كان مثقالا واذا نقصت ثلثة اعشار
المثقال كان درهما فلما راى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين
الجاريين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر
لعهد عمر رضي الله عنه واتخذ طوابع الحديد ونقش فيه كلمات لا صورا لان العرب
كان الكلام والبلاغة اقرب مناحيهم واظهرها مع ان الشرع ينهى عن الصور
فلما فعل ذلك استمر بين الناس في ايام الملة كلها وكان الدينار والدرهم
على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دواير متوازية يكتب فيها من احد
الوجهين اسم الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وفي الوجه
الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا ايام العباسيين والعبيديين

والامويين واما صنهاجة فلم يتخذوا السكة الا اخر الامر اتخذها المنصور
صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين
كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدراهم مربع الشكل وان يرسم
في دايرة الدينار شكل مربع في وسطه ويملأ من احد الجانبين تهليلا وتحميدا
ومن الجانب الاخر كتبها في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل
ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد وقد كان
المهدي فيما نقل قبل ظهوره ينعت بصاحب الدرهم المربع نعته بذلك
المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته واما اهل
المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة وانما يتعاملون بالدنانير والدراهم
وزنا بالصنجات المقدرة بعدة منها ويطبعون عليها بالسكة نقوش
الكلمات بالتهليل والصلوة واسم السلطان كما يفعله اهل المغرب ذلك
تقدير العزيز العليم **تنبيه** ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم
والدينار الشرعيين وبيان مقدارهما وذلك ان الدرهم والدينار
مختلفا السكة في المقادير والموازين بالافاق والامصار وساير الاعمال
والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام بهما في الزكاة والانكحة
والحدود وغيرها فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار متعين في تقديره
وارادته وتجري عليهما احكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم ان الاجماع
منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين ان الدرهم الشرعي
هو الذي يزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاوقية
منه اربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار ووزن المثقال
من الذهب ثنتان وسبعون حبة من الشعير الوسط فالدرهم الذي
هو سبعة اعشار خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة
بالاجماع فان الدرهم الجاهلي كان بينهم على انواع اجودها الطبري وهو
ثمانية دوانق والبغلي وهو اربعة دوانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة
دوانق وكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائة درهم طبرية
خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان هذا من وضع عبد الملك
واجماع الناس بعده عليه كما نقلناه ذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم
السنن والماوردي في كتاب الاحكام السلطانية وانكره المحققون
من المتاخرين لما يلزم منه ان يكون الدرهم والدينار الشرعيان

مجهولين في عصر الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكوة
والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق انهما كانا معلومي المقدار في ذلك
العصر لجريان الاحكام يومئذ بما يتعلق من الحقوق بهما وكان
مقدارهما غير مشخص في الخارج وانما كان متعارفا بينهم بالحكم المقرر في مقدارهما
ووزنهما حتى استفحلت الدولة الاسلامية وعظمت احوالها ودعت
الحال الى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا
من كلفة التقدير وقارن ذلك ايام عبد الملك فشخص مقدارهما
وعينهما في الخارج كما هما في الذهن ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه
اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية راسا حتى خلصت
ونقشت عليها سكة وتلاشى وجودها وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه
ثم بعد ذلك وقع اختيار اهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي
في الدينار والدرهم واختلفت في ذلك الاقطار والافاق ورجع
الناس الى تصور مقاديرهما الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الاول
وصار اهل كل افق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة
التي بينها وبين مقاديرهما الشرعية واما وزن الدينار بثنتين وسبعين
حبة من الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الاجماع الا ابن حزم خالف
ذلك وزعم انه اربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق
ورده المحققون وعدوه وهما وغلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكلماته وكذلك
تعلم ان الاوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لان المتعارفة
مختلفة باختلاف الاقطار والشرعية متحدة ذهنا لا اختلاف فيها والله
خلق كل شيء فقدره تقديرا **الخاتم** واما الخاتم فهو من الخطط السلطانية
والوظايف الملوكية والختم على الرسايل والصكوك معروف للملوك
قبل الاسلام وبعده وقد ثبت في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه
وسلم اراد ان يكتب الى قيصر فقيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون
مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله قال البخاري جعل
الثلاث كلمات في ثلثة اسطر وختم به وقال لا ينقش احد مثله قال وتختم
به ابو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بير اريس وكانت كثيرة
الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتم لذلك عثمان وتطير منه وصنع اخر
على مثاله وفي كيفية نقش الخاتم والختم به وجوه وذلك ان الخاتم

يطلق على الالة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم اذا لبسه ويطلق على النهاية
والتمام ومنه ختمت الامر بلغت اخره وختمت القران كذلك ومنه
خاتم النبيين وخاتمة الامر ويطلق على السداد الذي تسد به الاواني والدنان
ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية
والتمام قال لان اخر ما يجدونه في شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه
وانما هو من الختام الذي هو السداد لان الخمر يجعل لها في الدن سداد الطين
او القار يحفظها ويطيب عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بان سدادها
من المسك وهو اطيب عرفا وذوقا من الطين والقار المعهودين في الدنيا
فاذا صح اطلاق الخاتم على هذه كلها صح اطلاقه على اثرها الناشي عنها وذلك
ان الخاتم اذا نقشت فيه كلمات او اشكال ثم غمس في مداف من طين او مداد
ووضع على صفح القرطاس بقي اثر الكلمات في ذلك الصفح وكذلك اذا طبع به
على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسما فيه واذا كانت
كلمات وارتسمت فقد تقرا من الجهة اليسرى ان كان النقش على الاستقامة
من اليمنى وقد تقرا من الجهة اليمنى ان كان النقش من الجهة اليسرى لان الختم
يقلب جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمين او يسار فيحتمل ان يكون
الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد او الطين ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات
فيه ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كان
الكتاب انما يتم العمل به بهذه العلامة وهو من دونها ملغى ليس بتام وقد يكون
هذا الختم بالخط اخر الكتاب او اوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح او باسم
السلطان او الامير او صاحب الكتاب من كان او شيء من نعوته يكون ذلك
الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه وعلامة ذلك في المتعارف كتابا ويسمى
خاتما تشبيها له باثر الخاتم الاصبعي في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي
يبعث به للخصوم اي علامته وخطه الذي ينفذ بها احكامه ومنه خاتم السلطان
او الخليفة اي علامته قال الرشيد ليحيى بن خالد لما اراد ان يستوزر جعفرا
ويستبدل به من الفضل اخيه فقال لابيهما يحيى يا ابت اني اردت ان احول
الخاتم من يميني الى شمالي فكنى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة
على الرسايل والصكوك من وظايف الوزارة لعهدهم ويشهد لصحة هذا
الاطلاق ما نقله الطبري ان معوية ارسل الى الحسن عند مراودته
اياه في الصلح صحيفة بيضاء ختم على اسفلها وكتب اليه ان اشترط

ختمت

في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما ثبت فهو لك ومعناه الختم هنا علامة
في اخر الصحيفة بختم او غيره ويحتمل ان يختم به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه
ويجعل على موضع الحزم من الكتاب اذا حزم وعلى المودعات وهو من السداد
كما مر وهو في الوجهين اثار للخاتم فيطلق عليه خاتم واول من احدث الختم
على الكتب اي العلامة معوية لانه لعمر وبن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة
الف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه فانكرها
معوية وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه اخوه عبد الله واتخذ معوية
عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري وقال اخره وحزم الكتب ولم تكن
تحزم اي جعل لها السداد وديوان الخاتم عبارة الكتاب القايمين على انفاذ
كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة او بالحزم وقد يطلق الديوان
على مكان جلوس هولاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الاعمال والحزام
للكتب يكون اما بدس الورق كما في عرف كتاب المغرب واما بلصق راس
الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف اهل المشرق وقد يجعل على مكان
الدس او اللصاق علامة يومن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه فاهل المغرب
يجعلون على الدس قطعة من الشمع ويختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك
فيرتسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم على مكان
اللصق بخاتم منقوش ايضا قد غمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه
احمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين معروفا في الدول العباسية
بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر انه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي
هو العلامة المكتوبة او النقش للسداد والحزام للكتب خاص بديوان الرسايل
وكان ذلك للوزير في الدولة العباسية ثم اختلف العرف وصار
الى الترسيل وديوان الكتاب في الدول ثم صاروا في دول المغرب
يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه
من الذهب ويرصعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه
السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية
والمظلة في الدولة العبيدية والله مصرف الامور بحكمته

الطراز

ومن ابهة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان ترسم اسماؤهم
او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير والديباج
او الابريسم تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب الحاما وسدا بخيط الذهب
او ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع
في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة
بذلك الطراز قصدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه او التنويه
بمن يختصه السلطان بها اذا قصد تشريفه بذلك او ولايته لوظيفة
من وظايف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك
الطراز بصور الملوك واشكالهم او اشكال وصور معينة لذلك ثم
اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى تجري مجرى
الفال من السجلات وكان ذلك في الدولتين من ابهة الامور وافخم
الاحوال وكانت الدور المعدة لنسج اثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز
لذلك وكان القايم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في امور الصناع
والالة والحاكة فيها واجراء ارزاقهم وتسهيل الاتهم ومشارفة اعمالهم
وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال
في دولة بني امية بالاندلس والطوايف من بعدهم وفي دولة العبيديين
بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدولة
عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء وتعددت الدول تعطلت
هذه الوظيفة والولاية عليها من اكثر الدول بالجملة ولما جاءت دولة الموحدين
بالمغرب بعد بني امية اول المائة السادسة فلم ياخذوا بذلك اول دولتهم
لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن امامهم محمد بن تومرت
المهدي وكانوا يتورعون عن لبس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة
من دولتهم واستدرك منها اعقابهم اخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة
واما لهذا العهد فادركنا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها
رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الاحمر معاصرهم بالاندلس واتبع هو في ذلك
دول الطوايف فاتى منه بلمحة شاهدة بالاثر واما دولة الترك بمصر والشام
لهذا العهد ففيه من الطراز تجر اخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا ان ذلك
لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظايف دولتهم وانما ينسج
ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه
الزركش لفظة اعجمية ويرسم اسم السلطان او الامير عليه ويعده
الصناع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف اللايقة بها والله مقدر الليل
والنهار

الفساطيط والسياج

اعلم ان من شارات

الملك وترفه اتخذوا الاخبية والفساطيط والفازات من ثياب
الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهي بها الاسفار
وتنوع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار
وانما يكون الامر في اول الدولة في بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر
والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الا الاقل منهم
فكانت اسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم
من الاهل والولد كما هو شان العرب لهذا العهد فكانت عساكرهم
لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد
منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشان العرب ولذلك ما كان عبد
الملك يحتاج الى ساقة تحشد الناس على اثره ان يقيموا اذا ظعن ونقل
انه استعمل في ذلك الحجاج حين اشار به روح بن زنباع وقصتهما في احراق
فساطيط روح وخيامه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل
عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين
العرب فانه لا يتولى ارادتهم على الظعن الا من يامن بوادر السفهاء
من احيائهم بما له من العصبية الحائلة دون ذلك ولهذا اختصه عبد
الملك بهذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته فلما تفننت الدولة
العربية في مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن والامصار
وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخف الى ظهر الحافر
اتخذوا للسكنى في اسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا
مختلفة الاشكال مقدرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة
ويحتفلون منها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير والقائد
على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجا من الكتان يسمى في المغرب
باللسان البربري الذي هو لسان اهله افراك بالكاف التي بين
القاف والكاف ويختص به السلطان لذلك لا يكون لغيره واما في المشرق
فيتخذه كل امير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء
والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخف لذلك ظهرهم
وتقاربت السياج بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان
في معسكر واحد يحصره البصر في بسيطة زهرا انيقا لاختلاف الوانه
واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت

دولة

دولة الموحدين وزناتة التي خلفتها كان سفرهم اول امرهم في بيوت
سكناهم قبل الملك الخيام والقياطن حتى اذا اخذت الدولة في مذاهب
الترف وسكنى القصور عادوا الى اتخاذ الاخبية والفساطيط
وبلغوا من ذلك فوق ما ارادوا وهو من الترف بمكان الا ان العساكر
به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة
ولخفتهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك
في ذلك الى تحفظ آخر كما نذكره والله القوي العزيز

المقصورة للصلوة والدعاء في الخطبة

وهما من الامور الخلافية ومن شارات
الملك الاسلامي ولم تعرف في غير دول الاسلام فاما البيت المقصورة
لسباح السلطان تتخذ سياجا على المحراب فتحوزه وما يليه واول من اتخذها
معاوية بن ابي سفيان حين طعنه الخارجي والقصة معروفة وقيل اول
من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت
سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي انما تحدث عند حصول
الترف في الدول والاستفحال شان احوال الابهة كلها وما زال الشان
ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد
الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدد ملوك
الطوائف واما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم
الخلفاء العبيديين ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بالقيروان
وبنو حماد بالقلعة ثم ملك الموحدين سائر المغرب والاندلس ومحوا ذلك
الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت
بحظها من الترف وجاء يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة
وبقيت من بعده سنة لملوك المغرب والاندلس وهكذا الشان في سائر
الدول سنة الله في عباده **واما الدعاء** على المنابر في الخطبة فكان الشان
اولا عند الخلفاء ولاية الصلوة بانفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلوة
على النبي صلى الله عليه وسلم والرضا عن اصحابه واول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص
حين اتخذ جامعه بمصر وكتب اليه عمر اما بعد بلغني انك اتخذت منبرا ترقى به
على رقاب المسلمين وما يكفيك ان تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك
فعزمت عليك لما كسرته فلما حدثت الابهة وحدث في الخلفاء المانع
من الخطبة والصلوة استنابوا فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة

على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولان تلك
الساعة مظنة الاجابة ولما ثبت عن السلف في قولهم من كانت له دعوة
صالحة فليضعها في السلطان واول من دعا للخليفة في الخطبة ابن عباس
دعا لعلي رضي الله عنه في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهم انصر
عليا على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وكان الخليفة يفرد بذلك
فلما جاء الحجر والاستبداد وصار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة
في ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول
وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر
ان يشاركه فيه احد او يسمو اليه وكثيرا ما يغفل الماهدون من اهل الدول
هذا الرسم عندما تكون الدولة في اسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل
والخشونة ويقنعون بالدعاء على الابهام والاجمال لمن ولي امور المسلمين
ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسية يعنون بذلك
ان الدعاء على الاجمال انما يتناول العباسي تقليدا في ذلك لما سلف
من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى ان يغمراسن
بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الامير ابو زكريا يحيى بن ابي حفص
على تلمسان ثم بدا له في اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها
ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن تلك اعوادهم يذكرون عليها من شاءوا
وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين حضره رسول المستنصر
الخليفة بتونس من بني ابي حفص في ثالث ملوكهم وتخلف بعض ايامه
عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول لخلو الخطبة من ذكر سلطانه
فاذن في الدعاء له وكان ذلك سببا لاخذهم بدعوته وهكذا شان
الدول في بدايتها وتمكنها في الغضاضة والبداوة فاذا انتبهت عيون
سياستهم ونظروا في اعطاف ملكهم واستتموا شيات الحضارة ومعاني
البذخ والابهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها وتجاروا الى غايتها
وانفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلو دولتهم من اثارها
والعالم بستان والله على كل شيء رقيب

فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها

اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة
منذ براها الله واصلها ارادة الانتقام بعض البشر من بعض ويتعصب
لكل منها اهل عصبيته فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان احدهما

تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو امر طبيعي في البشر
لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة ومنافسة
واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وسعي في تمهيده
فالاول اكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثاني
وهو العدوان اكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقفر
كالعرب والترك والتركمان والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم
في رماحهم ومعاشهم فيما بايدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه اذنوه بالحرب
لهم ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم ونصب
اعينهم غلب الناس على ما في ايديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد
والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليهم والمانعين لطاعتهم فهذه
اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغي
وفتنة والصنفان الاخيران حروب جهاد وعدل وصفة الحروب
الواقعة بين اهل الخليقة منذ اول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا
ونوع بالكر والفر اما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب اجيالهم
واما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من اهل المغرب وقتال
الزحف اوثق واشد من قتال الكر وذلك ان قتال الزحف ترتب
فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح او صفوف الصلوة ويمشون
بصفوفهم الى العدو قدما فلذلك اثبت عند المصاع واصدق في القتال
وارهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في ازالته وفي التنزيل
ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص اي
يشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث المومن للمومن كالبنيان
يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولي
في الزحف فان المقصود بالصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى
العدو ظهره فقد اخل بالمصاف وباء باثم الهزيمة وكانه جرها على المسلمين
وامكن منهم عدوهم فيعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها الى الدين
بخرق سياجه فعد من الكبائر ويظهر من هذه الادلة ان قتال الزحف
اشد عند الشارع واما قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والامن
من الهزيمة ما في قتال الزحف الا انهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافا
ثابتا يلجاون اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره

بعد ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون
الجيوش والعساكر اقساما لانه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشروا
من قاصية النواحي استدعى ذلك ان يجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا
في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشى من تدافعهم
فيما بينهم لاجل النكراء والجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر
جموعا جموعا ويضمون المتعارفين بعضهم الى بعض ويرتبونها قريبا
من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان
او قايد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبية وهو مذكور في اخبار
فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك
عسكرا مفردا يسمونه الميمنة متميزا بقايده ورايته يسمونه المقدمة
ثم عسكرا اخر من ناحية اليمين عن موقف الملك يسمونه الميمنة ثم عسكرا
اخر من ناحية الشمال يسمونه الميسرة ثم اخر من وراء العسكر يسمونه الساقة
ويقف الملك واصحابه في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفه
القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدى واحد للبصر او على مسافة
بعيدة اكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها او كيف ما اعطاه
حال العساكر في القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبية وانظر
في ذلك اخبار الفتوحات واخبار الدولتين وكيف كانت العساكر
تتخلف عن عبد الملك لبعد المدى في التعبية فاحتيج الى من يسوقها من خلفه
وعين لذلك الحجاج ابن يوسف كما اشرنا اليه وكما هو معروف في اخباره
وكان في الدولة الاموية بالاندلس ايضا كثير منه وهو مجهول فيما لدينا
لانا انما ادركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهي في مجال الحرب الى التناكر بل
اكثر الجيوش من الطائفتين معا يجمعهم لدينا حلة او مدينة ويعرف
كل منهم قرنه ويناديه باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبية **فصل**
ومن مذاهب اهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عساكرهم
من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجا للخيالة في كرهم وفرهم يطلبون
به ثبات المقاتلة ليكون ادوم للحرب واقرب الى الغلب وقد يفعله اهل
الزحف ايضا ليزيدهم ثباتا وشدة فقد كان الفرس وهم اهل الزحف
يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها ابراجا من الخشب امثال الصروح
مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم في حومة

الحرب كانها الحصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر
ما وقع من ذلك في القادسية وان فارس في اليوم الثالث اشتدوا
بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوها ونخسوها بالسيوف
على خراطيمها فنفرت ونكصت على اعقابها الى مرابطها بالمداين فجفا معسكر
فارس لذلك وانهزموا في اليوم الرابع واما الروم وملوك القوط بالاندلس
بل واكثر العجم فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك سريره في حومة
الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه
وترفع الرايات في اركان السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجا للكر والفر وفعل
ذلك الفرس ايام القادسية وكان رستم جالسا فيها على سرير نصبه
لجلوسه حتى اختلت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول
عنه الى الفرات وقتل واما اهل الكر والفر من العرب واكثر الامم البدوية
والرحالة فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذي يحمل ظعاينهم فيكون فئة
لهم ويسمونها المجبودة وليس امة من الامم الا وهي تفعل في ذلك في حروبها
وتراه اوثق من الجولة وامن من الغرة والهزيمة وهو امر مشاهد وقد اغفلته
الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للاثقال والفساطيط
يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغني غناء الفيلة والابل فصارت العساكر
بذلك عرضة للهزايم مستشعرة للفرار في الموقف وكان الحرب اول الاسلام
كله زحفا وكان العرب انما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك اول الاسلام
امران احدهما ان عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون الى مقاتلتهم
بمثل قتالهم الثاني انهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر
ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماتة اقرب واول من ابطل
الصف في الحرب وصار الى التعبية كراديس مروان بن الحكم في قتال
الضحاك الخارجي والخيبري بعده قال الطبري لما ذكر قتل الخيبري فولى الخوارج
عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري ويلقب ابا الدلفاء وقاتلهم مروان
بعد ذلك بالكراديس وابطل الصف من يومئذ انتهى فتنوسي قتال الزحف
بابطال الصف ثم تنوسي الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف
وذلك انها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون
من الابل وسكنى النساء والولدان معهم في الاحياء فلما حصلوا على ترف
الملك والفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شان البادية والقفر

ثم الى ذلك عهد الابل والظعاين وصعب عليهم اتخاذها وخلفوا النسا
في الاسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والاخبية
فاقتصروا على الظهر الحامل للاثقال والابنية وكان ذلك صنفهم في الحرب
ولا يغني كل الغناء لانه لا تدعوا اليه الاستماتة كما يدعوا اليها الاهل
والمال فيخف الصبر من اجل ذلك وتفرقهم الهيعات وتخرم صفوفهم

فصل

ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العسكر وتاكده في قتال الكر والفر
صار ملوك المغرب يتخذون طوايف من الافرنج في جندهم واختصوا
بذلك لان اهل وطنهم قتالهم كله بالكر والفر والسلطان يتاكد في حقه
ضرب المصاف ليكون ردا للمقاتلة امامه فلا بد وان يكون اهل ذلك
الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف والا اجفلوا على طريقة
اهل الكر والفر فانهزم السلطان والعسكر باجفالهم فاحتاج الملوك
بالمغرب ان يتخذوا جندا من هذه الامة المعودة الثبات في الزحف
وهم الافرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة
باهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التي اريناكها من تخوف
الاجفال على مصاف السلطان والفرنج لا يعرفون غير الثبات
في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا اقوم بذلك من غيرهم
مع ان الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك عند الحرب مع امم
العرب والبربر وقتالهم على الطاعة واما في الجهاد فلا يستعينون
بهم حذرا من ممالاتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد
وقد ابدينا سببه والله بكل شي عليم **فصل** وبلغنا عن امم
الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهام ان تعبية الحرب عندهم بالمصاف
وانهم يقسمون عسكرهم ثلثة صفوف يضربون صفا وراء صف ويترجلون
عن خيولهم وينثلون كنائنهم بين ايديهم ثم يتناضلون جلوسا وكل صف
ردء للذي امامهم ان يكبسهم العدو الى ان يتهيا النصر لاحدى الطايفتين
على الاخرى وهي تعبية محكمة غريبة

فصل

وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند ما يتقاربون
للزحف حذرا من معرة البيات والهجوم على المعسكر بالليل لما في ظلمته
ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجد النفوس في الظلمة
سترا من عاره فاذا ادوا في ذلك ارجف المعسكر ووقعت الهزيمة
فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم
ويديرون الحفاير نطاقا عليهم من جميع جهاتهم حرصا ان يخالطهم العدو
بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول في امثال هذا قوة وعليه اقتدار
باحتشاد الرجال وجمع الايدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه
من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول
وقلة الجنود وعدم الفعلة نسي هذا الشان جملة كانه لم يكن والله خير القادرين
وانظر في وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لاصحابه يوم
صفين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن احد ابصر بها منه وقال في كلام
له فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدارع واخروا الحاسر
وعضوا على الاضراس فانه انبا للسيوف عن الهام والتووا في اطراف
الرماح فانه اصون للاسنة وغضوا الابصار فانه اربط للجاش واسكن
للقلوب وامتوا الاصوات فانه اطرد للفشل واولى بالوقار وراياتكم فلا تميلوها
ولا تزيلوها ولا تجعلوها الا بايدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه
بعد الصبر ينزل النصر **وقال** الاشتر يومئذ يحرض الازد عضوا على النواجد
من الاضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين
يثارون بابائهم واخوانهم حناقا على عدوهم قد وطنوا على الموت انفسهم
كيلا يسبقون بوتر ولا يلحقهم في الدنيا عار وقد اشار الى كثير من ذلك
ابو بكر الصيرفي شاعر لمتونة واهل الاندلس في كلمة يمدح فيها تاشفين بن
علي بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهدها وتذكره بامور الحرب
في وصايا وتحذيرات تنبهك على كثير من سياسة الحرب **يقول فيها** يا ايها

الملاء الذي يتقنع من منكم الملك الهمام الاروع • ومن الذي غدر العدو
به دجا فانفض كل وهو لا يتضعضع • تمضي الفوارس والطعان
يصدها عنه ويدمرها الوفاء فترجع • والليل من وضح الترائك
انه صبح على هام الجيوش ملمع • انا فئتم يا بني صنهاجة
والبكم في الروع كان المفزع • وصددتم عن تاشفين وانه
لعقابه لو شاء فيكم موضع • انسان عين لم يصبه منكم
جفن وقلب اسلمته الاضلع • ما انتم الا اسود خفية كل بكل
كريهة مستطلع • يا تاشفين اقم لجيشك عذره بالليل

والقدر الذي لا يدفع **ومنها في سياسة الحرب**

اهبت بك من ادب السياسة ما به كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لا انني ادرى بها لكنها ذكرى تحض المومنين و تنفع
البس من الحلق المضاعفة التي وصى بها صنع الصنايع تبع
والهندواني الرقيق فانه امضى على حد الدلاص واقطع
واركب من الخيل السوابق عدة حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلة سيان تتبع ظافرا او تتبع
والواد لا تعبره وانزل عنده بين العدو وبين جيشك يقطع
واجعل مناجزة العدو عشية ووراك الصدف الذي هو امنع
واذا تضايقت الجيوش بمعرك ضنك فاطراف الرماح توسع
واصدمه اول وهلة لا تكترث شيئا فاظهار النكول يضعضع
واجعل من الطلاع اهل شهامة الصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفا لا راي للمكذوب فيما يصنع

وقوله واصدمه اول وهلة لا تكترث البيت مخالف لما عليه الناس في امر الحرب فقد قال عمر لابي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واشركهم في الامر ولا تجيبن مسرعا حتى تتبين فانها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف وقال له في اخرى انه لن يمنعني ان اومر سليطا الا سرعته في الحرب وفي التسرع في الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لامرته لكن الحرب لا يصلحها الا المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بان التثاقل في الحرب اولى من الخفوف حتى يتبين حال تلك الحرب وذلك عكس ما قاله الصيرفي الا ان يريد الصدم بعد البيان فله وجه والله اعلم

فصل ولا وثوق في الحرب بالظفر وان حصلت اسبابه من العدة والعديد وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك ان اسباب الغلب في الاكثر مجتمعة من امور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن امور خفية وهي اما من خداع البشر وحيلهم في الارجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل وفي التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من على فيتوهم المنخفض لذلك وفي الكمون في الغياض

ومطمين

مطمين الارض والتواري بالكدا عن العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلفتون الى النجاة وامثال ذلك واما ان يكون تلك الاسباب الخفية امورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى في القلوب فيستولي الرهب عليهم من اجلها فتختل مراكزهم وتقع الهزيمة واكثر ما تقع الهزايم عن هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعتمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بد من وقوع التاثير في ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن امثال العرب رب حيلة انفع من قبيلة وقد تبين ان وقوع الغلب في الحروب غالبا عن اسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفية هو معنى البخت كما تقرر في موضعه فاعتبره وتفهم من وقوع عن الامور السماوية كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين في حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين بعده لذلك في الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفل لنبيه صلى الله عليه وسلم بالقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على قلوبهم فينهزموا معجزة لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في القلوب سببا للهزايم في الفتوحات الاسلامية كلها الا انه خفي عن العيون وقد ذكر الطرطوشي ان من اسباب الغلب في الحرب ان تفضل عدة الفرسان من الشجعان في احد الجانبين على عدتهم في الجانب الاخر مثل ان يكون احد الجانبين فيه عشرة او عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الاخر ثمانية او ستة عشر فالجانب الزايد ولو بواحد يكون له الغلب واعاد في ذلك وابدى وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وانما الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية ان يكون في احد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلهم وفي الجانب الاخر عصايب متعددة والجانبان معا متقاربان في العدة فان الجانب الذي عصبيته واحدة اقوى واغلب من الجانب الذي هو عصايب متعددة لان العصايب اذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرقين الفاقدين للعصبية اذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبيته واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم انه اصح في الاعتبار مما ذهب اليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك الا نسيان شان العصبية

في جيله وبلده وانهم انما يرون الدفاع والحماية والمطالبة الى الوجدان الجماعة
الناشئة عنهم لا يعتبرون في ذلك عصبية ولا انسابا وقد بينا ذلك
اول الكتاب مع ان هذا وامثاله على تقدير صحته انما هو من الاسباب الظاهرة
مثل اتفاق الجيشين في العدة وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما اشبهها فكيف
نجعل في ذلك سببا كفيلا بالغلب ونحن قد قررنا ان شيا منها لا يعارض
الاسباب الخفية من الحيل والخدع ولا الامور السماوية من الرعب والخذلان
الالهي فافهمه وتفهم احوال الكون والله مقدر الليل والنهار **فصل**
ويلحق بمعنى الغلب في الحروب وان اسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة
والصيت فقل ان تصادف موضعها في احد من طبقات الناس
من الملوك او العلماء او الصالحين او المنتحلين للفضائل على العموم
فكثير ممن اشتهر وبعد صيته وليس هناك وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه
وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو احق بها واهلها وقد تصادف موضعها
وتكون طبقا على صاحبها والسبب في ذلك ان الشهرة والصيت انما هي
بالاخبار والاخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ويدخلها
التعصب والتشيع ويدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات
للاحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع او لجهل الناقل ويدخلها التقرب
لاصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الاحوال
اشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون
الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل
ولا منافسين في اهلها واين مطابقة الحق مع هذه كلها فتختل الشهرة
عن اسباب خفية من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي
فهو الذي يعبر عنه بالبخت كما تقرر والله اعلم **فصل في الجباية**
وسبب نقصها ووفورها اعلم ان الجباية تكون اول الدولة
قليلة الوزائع كثيرة الجملة واخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب
في ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليس الا المغارم
الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار
الزكوة من المال قليل كما علمت وكذا زكوة الحبوب والماشية
وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى
وان كانت على سنن العصبية والتغلب فلا بد من البداوة في اولها

كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن اموال
الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة
الواحدة والوزيعة التي تجمع الاموال من مجموعها واذا قلت الوزائع والوظائف
على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد لحصول الاغتباط
بقلة المغرم واذا كثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت
الجباية التي هي جملتها فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها
واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب سر البداوة والسذاجة
وخلقها من الاغضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية
الى الكيس وتخلق اهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحاجاتهم
بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ
على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر اهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة
ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات
وفي ابواب المدينة كما نذكر بعد ثم تتدرج الزيادات فيها مقدارا بعد
مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه
حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضمهم وتصير عادة مفروضة لان تلك الزيادات
تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر احد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها
انما ثبت على الرعايا كانها عادة مفروضة ثم تزيد الى الخروج عن حد الاعتدال
فتذهب غبطة الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم بقلة
النفع فيه اذا قابل بين نفقته ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير
من الايدي عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك
الوزائع منها وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا راوا ذلك
النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية
ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم
وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع
والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى ان ينتقض
العمران بذهاب الامال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة
لان فائدة الاعتمار عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت ان اقوى الاسباب
في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما امكن فبذلك
تنشط النفوس اليه لتيقنها بادراك المنفعة فيه والله مالك الامور

فصل في ضرب المكوس اواخر الدولة

اعلم ان الدول تكون في اولها بدوية كما قلناه فتكون لذلك قليلة الحاجات
لعدم الترف وعوايده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وفاء
بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتها ثم لا تلبث ان تاخذ بدين الحضارة
والترف وعوايدها وتجري على نهج الدول السالفة قبلها فيكثر لذلك خرج الدولة
ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه
ولا تفي بذلك الجباية فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحاشية
من العطاء والسلطان من النفقة فتزيد في مقدار الوظايف والوزايع
اولا كما قلناه ثم يزيد الخرج والحاجات بالتدريج في عوايد الترف وفي العطاء
للحامية ويدرك الدولة الهرم ويضعف عصابتها عن جباية الاموال
من الاعمال القاصية فتقل الجباية وتكثر العوايد ويكثر بكثرتها ارزاق الجند
وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة انواعا من الجباية يضربها على البياعات
ويفرض لها مقدارا معلوما على الاثمان في الاسواق وعلى اعيان السلع
في ابواب المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس
من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش الحامية وربما يزيد ذلك في اواخر الدول
زيادة بالغة فتكسد الاسواق لفساد الامال ويؤذن باختلال العمران
ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى ان يضمحل وقد كان وقع
منه بامصار المشرق في اخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير
وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم واسقط صلاح الدين يوسف
بن ايوب تلك الرسوم جملة واعاضها باثار الخير وكذلك وقع بالاندلس
لعهد الطوايف حتى محا رسمه يوسف بن تاشفين امير المرابطين وكذلك
وقع بامصار الجريد بافريقية لهذا العهد حين استبد بها روساوها والله لطيف
بعباده

فصل في ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم ان الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوايد
والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها عن الوفاء بحاجتها ونفقتها واحتاجت
الى مزيد المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا واسواقهم كما قدمنا
ذلك في الفصل قبله وتارة بالزيادة في القاب المكوس ان كانت قد استحدث
من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون انهم قد حصلوا
على طايل من اموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة باستحداث التجارة

والفلح

والفلح للسلطان حرصا على تنمية المال للجباية لما يرون التجار والفلاحين
يحصلون على الفوايد والغلات مع يسارة اموالهم وان الارباح تكون
على نسبة روس الاموال فياخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله
وفي شراء البضايع والتعرض بها لحوالة الاسواق ويحسبون ذلك من ادرار
الجباية وتكثير الفوايد وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة
فاولا مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضايع وتيسير
اسباب ذلك فان الرعايا متكافيون في اليسار او متقاربون ومزاحمة
بعضهم بعضا تنتهي الى غاية موجودهم او تقرب واذا رافقهم السلطان في ذلك
وماله اعظم كثيرا منهم فلا يكاد احد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل
على النفوس من ذلك غم ونكد ثم ان السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك
اذا تعرض له غصبا او بايسر ثمن اذ لا يجد من ينافسه فيبخس ثمنه على بايعه
ثم اذا حصلت فوايد الفلاحة ومغلها كله من زرع او حرير او عسل او سكر
او غير ذلك من انواع الغلات وحصلت بضايع التجارة من ساير الانواع
فلا ينتظرون به حوالة الاسواق ولا نفاق البياعات لما تدعوهم اليه
تكاليف الدولة فيكلفون اهل تلك الاصناف من تاجر او فلاح بشراء تلك
البضايع ولا يرضون في اثمانها الا القيم وازيد فيستوعبون في ذلك ناض
اموالهم ويبقى تلك البضايع بايديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الادارة
التي فيها كسبهم ومعاشهم وربما تدعوهم الضرورة الى شيء من المال فيبيعون
تلك السلع على كساد من الاسواق بابخس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر
او الفلاح منهم بما يذهب براس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدد ذلك ويتكرر
ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الارباح ما يقبض امالهم
عن السعي في ذلك جملة ويودي الى فساد الجباية فان معظم الجباية انما هي
من الفلاحين والتجار ولا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فاذا انقبض
الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة او دخلها
النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية
وبين هذه الارباح القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية اقل من القليل ثم انه ولو كان
مفيدا فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء وبيع فانه من البعيد
ان يوخذ منه فيه المكس ولو كان لغيره في تلك الصفقات لكان مكسها
كلها حاصلا من جملة الجباية ثم فيه التعرض لفساد عمرانه واختلال الدولة بفساده

ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تثمير اموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت
وتلاشت بالنفقات وكان فيها اتلاف احوالهم فافهم ذلك ولقد كان
الفرس لا يملكون عليهم الا من اهل بيت المملكة ثم يختارونه من اهل
الفضل والدين والادب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون
عليه مع ذلك العدل وان لا يتخذ ضيعة فيضر بجيرانه ولا يتاجر فيحب غلاء الاسعار
في البضائع وان لا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة واعلم
ان السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده الا الجباية وادرارها انما يكون
بالعدل في اهل الاموال والنظر لهم فبذلك تنبسط امالهم وتنشرح صدورهم
للاخذ في تثمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان واما غير ذلك
للسلطان من تجارة او فلح فانما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية
ونقص للعمارة ولقد ينتهي الحال بهولاء المنتحلين للتجارة او الفلاحة
من الامراء والمتغلبين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات
والسلع من اربابها الواردين الى بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن
ما يشاؤن ويبيعونها في وقتها لمن تحت ايديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن
وهذه اشد من الاولى واقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم وربما يحمل
السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف اعني التجار والفلاحين
بما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه
بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة
بلا مغرم ولا مكس فانها اجدر بنمو الاموال واسرع في تثميرها ولا يفهم مع ذلك
ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغي للسلطان ان يحذر من هولاء
ويعرض عن سعايتهم المضرة بجبايته وسلطانه والله يلهمنا رشد انفسنا
وينفعنا بصالح اعمالنا لا رب غيره

فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

والسبب في ذلك
ان الجباية في اول الدولة تتوزع على القبيل واهل العصبية بمقدار غنائهم و
عصبيتهم ولان الحاجة اليهم في تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم
في ذلك متجاف لهم عما يسمون اليه من الجباية معتاض عن ذلك بما هو
يروم من الاستبداد عليهم فلهم عليه عزة وله اليهم حاجة فلا يطير في سهمانه
من الجباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك واذياله من الوزراء
والكتاب والموالي مملقين في الغالب وجاههم متقلص لانه من جاه

مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من اهل عصبيته فاذا استفحلت
طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض ايديهم عن الجبايات
الا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم وتقل حظوظهم اذ ذاك لقلة غنائهم
في الدولة بما كبح من اعنتهم وصار الموالي والصنائع مساهمين لهم في القيام
بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية او معظمها ويحتوي
على الاموال ويحتجنها للنفقة في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلي خزائنه
ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه
من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الاموال
ويتاثلونها اذا اخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القبيل الماهدين
للدولة احتاج صاحب الامر الى الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين
والثوار وتوهم الانتقاض فصار خراجه لظهرائه واعوانه وهم ارباب
السيوف واهل العصبيات وانفق خزائنه وحاصله في مهمات الدولة
وقلت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والانفاق فيقل
الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص
والحجاب والكتاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه عن صاحب الدولة
ثم تشتد حاجة صاحب الدولة الى المال وتنفق ابناء البطانة والحاشية ما تاثل
اباؤهم من الاموال في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير
ما كان عليه اباؤهم وسلفهم من المناصحة ويرى صاحب الدولة انه احق بتلك
الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاهه فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه
شيا فشيا وواحدا بعد واحد على نسبة رتبهم وتتنكر الدولة لهم ويعود
وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها واهل الثروة والنعمة
من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد ان يدعمه اهله ويرفعوه
وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قحطبة وبني برمك
وبني سهل وبني طاهر وامثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند
انحلالها ايام الطوائف في بني شهيد وبني ابي عبدة وبني حدير وبني برد وامثالهم
وكذا في الدول التي ادركناها سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا

فصل

ولما يتوقعه اهل الدول من امثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون
الى الفرار عن الرتب والتخلص عن ربقة السلطان بما حصل بايديهم من مال

الدولة الى قطر آخر ويرون انه اهنا لهم واسلم في انفاقه وحصول ثمرته
وهو من الاغلاط الفاحشة والاوهام المفسدة لاحوالهم ودنياهم واعلم
ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فان صاحب هذا
الغرض ان كان هو الملك بنفسه فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفة عين
ولا اهل العصبية المزاحمون له بل في ظهور ذلك منه هدم ملكه واتلاف
نفسه بمجاري العادة بذلك لان ربقة الملك يعسر الخلاص منها سيما
عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال
والتخلق بالشر واما ان كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان
وحاشيته واهل الرتب في دولته فقل ان يخلى بينه وبين ذلك اما اولا
فلما يراه الملوك من ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مماليك لهم
مطلعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة ضنانة
باسرارهم واحوالهم ان يطلع عليها احد وغيرة من خدمته لسواهم ولقد كان
بنو امية بالاندلس يمنعون اهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه
من وقوعهم بايدي بني العباس فلم يحج سائر ايامهم احد من اهل دولتهم
وما ابيح الحج لاهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوعها
الى الطوايف واما ثانيا فانهم وان سمحوا بحل ربقته هو فلا يسمحون بالتجافي
عن ذلك المال لما يرون انه جزء من مالهم كما كان ربه جزءا من دولتهم
اذ لم يكتسب الا بها وفي ظل جاهها فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك او ابقائه
كما هو جزءا من الدولة ينتفعون به ثم اذا توهمنا انه خلص بذلك
المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل فتمتد اليه اعين الملوك بذلك
القطر وينتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا او بالقهر ظاهرا لما يرون
مال الجباية والدول وانه مستحق للانفاق في المصالح واذا كانت
عيونهم تمتد الى اهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش
كما ذكرنا فاحرى بها ان تمتد الى مال الجباية والدول التي تجد السبيل
اليه بالشرع والعادة وانظر ما وقع لقاضي جبلة الثاير بها على ابن عمار صاحب
طرابلس لما غلبه الفرنج عليها ونجا هو الى دمشق ثم الى بغداد وبها السلطان
بركيارق بن ملكشاه وذلك اخر المائة الخامسة فجاءه وزير السلطان
واستقرض منه غالب ماله ثم استصفوه جميعا وكان لا يعبر عنه كثرة
ولقد حاول السلطان ابو يحيى زكريا بن احمد اللحياني تاسع او عاشر

ملوك

ملوك الحفصيين بافريقية الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فرارا من طلب
صاحب الثغور الغربية لما استجمع للزحف الى تونس فاستعمل اللحياني الرحلة
الى ثغر طرابلس يوري بتمهيده وركب السفين من هنالك وخلص الى الاسكندرية
بعد ان حمل جميع ما وجده ببيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل
ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله
الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة تسع عشرة من المائة
الثامنة فاكرم نزله ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شيئا فشيئا
بالتعريض الى ان هلك في سنة ثمان وعشرين حسبما نذكره في اخباره فهذا
وامثاله من جملة الوسواس الذي يعتري اهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم
من المعاطب وانما يخلصون ان اتفق لهم الخلاص بانفسهم وما يتوهمونه
من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف
وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانية او بالجاه في انتحال طرق
الكسب من التجارة والفلاحة والدول انساب لكن النفس راغبة اذا رغبتها
واذا ترد الى قليل تقنع ٭ والله الرازق ذو القوة المتين ٭

فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسبب في ذلك ان الدولة والسلطان هي السوق الاعظم للعالم
ومنه مادة العمران فاذا احتجن السلطان الاموال والجبايات او فقدت
فلم يصرفها في مصارفها قل ح ما بايدي الحاشية وانقطع ما كان ايضا
يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد
ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق من سواهم فيقع الكساد في الاسواق
وتضعف الارباح في المتاجر لقلة الاموال فيقل الخراج لذلك لان الخراج
والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب
الناس للفوايد والارباح ووبال ذلك عايد على الدولة بالنقص
لقلة اموال السلطان ح بقلة الخراج فان الدولة كما قلناه هي السوق
الاعظم ام الاسواق كلها واصلها ومادتها في الدخل والخرج فاذا كسدت
وقلت مصارفها فاجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك
واشد منه وايضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم
اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعية سنة الله
في عباده

فصل في ان الظلم موذن بخراب العمران ٭

اعلم ان العدوان على الناس في اموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها
واكتسابها لما يرونه حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم واذا ذهب
آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر
الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان
الاعتداء كثيرا عاما في جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك
لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع ابوابها وان كان الاعتداء يسيرا
كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق
اسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين
وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن المكاسب
كسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال وابذعر الناس في الآفاق
من غير تلك الايالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخف ساكن القطر وخلت
دياره وخربت امصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما انها صورة
للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في اخبار
الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم ايام بهرام بن بهرام وما عرض
به للملك في انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب
المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك اصواتها وسأله عن فهم
كلامها فقال ان بوما ذكرا يروم نكاح بوم انثى وانها شرطت عليه عشرين
قرية من الخراب في ايام بهرام ليسوغ فيها فقبل شرطها وقال ان دامت
ايام الملك اقطعتك الف قرية وهذا اسهل مرام فتنبه الملك من غفلته
وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له ايها الملك ان الملك لا يتم عزه
الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام
للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال
ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل
الميزان المنصوب بين الخليقة فانتزعتها من اربابها وعمارها وهم ارباب
الخراج ومن تؤخذ منهم الاموال واقطعتها الحاشية والخدم وارباب
البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا
في الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقي من ارباب الخراج وعمار الضياع
فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم واووا الى ما بعد او تعذر من الضياع فسكنوها
فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال وهلكت الجنود والرعية

وطمع

وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع المواد التي
لا تستقيم دعائم الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك اقبل على النظر في ملكه
وانتزعت الضياع من ايدي الخاصة وردت على اربابها وحملوا على رسومهم
السالفة واخذوا بالعمارة وقوي من ضعف منهم فعمرت الارض واخصبت
البلاد وكثرت الاموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد
الاعداء وشحنت الثغور واقبل الملك على مباشرة اموره بنفسه فحسنت
ايامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الاموار ان الظلم مخرب للعمران وان عائدة
الخراب على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر في ذلك الى ان الاعتداء
قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم
ان ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء واحوال اهل المصر فلما كان
المصر كبيرا وعمرانه كثيرا واحواله متسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه
بالاعتداء والظلم يسيرا لان النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفي بكثرة الاحوال
واتساع الاعمال في المصر لم يظهر اثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة
المعتدية من اصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الاخرى فترقعه بجدتها وتجبر
النقص الذي كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به الا ان ذلك في الاقل والمراد من هذا
ان حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان امر واقع لا بد منه لما قدمناه
ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم انما هو اخذ المال او الملك من يد مالكه
من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم اعم من ذلك وكل من اخذ ملك
احد او غصبه في عمله او طالبه بغير حق او فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه
فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة وغصاب الاملاك
على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها
لذهاب الآمال من اهله واعلم ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم
الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع
النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية
الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما
رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما ادى اليه من تخريب العمران كانت حكمة
الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وادلته من القرآن والسنة كثيرا اكثر
من ان يأخذها قانون الضبط او الحصر ولو كان كل احد قادرا عليه لوضع
بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع

التي يقدر كل احد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر الا ان الظلم لا يقدر
عليه الا من لا يقدر عليه لانه انما يقع من اهل القدرة والسلطان فبولغ
في ذمه وتكرير الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه للقادر عليه من نفسه
وما ربك بظلام للعبيد ولا تقولن ان العقوبة قد وضعت بازاء الحرابة
في الشرع وهي من ظلم القادر لان المحارب من جرأته قادر فان الجواب
عن ذلك من طريقين احدهما ان نقول العقوبة التي وضعت في ذلك
انما هي بازاء ما يقترفه من الجنايات في نفس او مال على ما ذهب اليه كثير
وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنايته واما نفس الحرابة فهي
خلو من العقوبة الطريق الثاني ان نقول المحارب لا يوصف بالقدرة
لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة فهي المؤذنة
بالخراب واما المحارب فانما هي اخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة
عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدرة المؤذنة بالخراب
والله قادر على ما يشاء

فصل

ومن اشد الظلامات واعظمها
افسادا للعمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك ان الاعمال
من قبيل المتمولات كما سنبين في باب الرزق ان الكسب والرزق انما هو
قيم اعمال اهل العمران فاذا مساعيهم واعمالهم كلها متمولات ومكاسب
لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المعتملين في العمارة انما معاشهم
ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فاذا كلفوا العمل في غير شانهم واتخذوا سخريا
في غير معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل
عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تكرر
ذلك عليهم افسد امالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فادى ذلك
الى انتقاض العمران وتخريبه والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل

واعظم من ذلك في الظلم وافسد للعمران والدولة
التسلط على اموال الناس بشراء ما بايديهم بابخس الاثمان ثم فرض البضائع
عليهم بارفع الاثمان على وجه الغصب والاكراه في الشراء والبيع وربما تفرض
عليهم تلك الاثمان على التراخي والتأجيل فيتعللون في الخسارة التي تلحقهم
بما تحدثهم به المطامع من جبر ذلك بحوالة الاسواق في تلك البضائع التي
فرضت عليهم بالغلاء يطالبون بتلك الاثمان معجلة فيضطرون الى
بيعها بابخس الثمن وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤس اموالهم

وقد يعم ذلك اصناف التجار المقيمين بالمدينة والواردين من الافاق
في البضائع وسائر السوقة واهل الدكاكين والفواكه واهل الصنائع
فيما يتخذ من الالات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الاصناف
والطبقات وتتوالى على الساعات وتجحف برؤس الاموال ولا يجدون
عنها وليجة الا القعود عن الاسواق لذهاب رؤس الاموال في جبرها بالارباح
ويتثاقل الواردون من الافاق لشراء البضائع وبيعها من اجل ذلك
فتكسد الاسواق ويبطل معاش الرعايا لان عامته من البيع والشراء
واذا كانت الاسواق عطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان
وتفسد لان معظمها من اواسط الدولة وما بعدها انما هو من المكوس على البياعات
كما قدمناه ويؤول ذلك الى تلاشي الدولة وفساد المدينة ويتطرق هذا الخلل
على التدريج ولا يشعر به هذا فيما كان بامثال هذه الذرائع والاسباب
الى اخذ الاموال واما اخذها مجانا والعدوان على الناس في اموالهم وحرمهم
ودمائهم واعراضهم فهو يفضي الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة
سريعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي الى الانتقاض ومن اجل هذه المفاسد
حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظر اكل اموال
الناس بالباطل سدا لابواب المفاسد المفضية الى انتقاض العمران
بالهرج وبطلان المعاش واعلم ان الداعي لذلك كله انما هو حاجة الدولة
والسلطان الى الاكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الاحوال
فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة فيستحدثون
القابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل ثم لا يزال الترف
يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى اموال الناس تشتد ونطاق الدولة
بذلك يضيق الى ان تمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها والله
مقدر الامور لا رب غيره

فصل في الحجاب كيف يقع في الدولة وانه يعظم عند الهرم

اعلم ان الدولة في اول امرها تكون بعيدة
عن منازع الملك كما قدمناه لانها لا بد لها من العصبية التي بها يتم امرها
ويحصل استيلاؤها والبداوة هي شعار العصبية والدولة ان كان قيامها
بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز الغلب فقط
فالبداوة التي يحصل بها الغلب بعيدة ايضا عن منازع الملك ومذاهبه
فاذا كانت الدولة في اول امرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة

والبداوة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع اوليائه في خواص شؤنه لما يكثر ح عن غاشيته فيطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الاذن ببابه على من لا بد منه من اوليائه واهل دولته ويكون حاجبا له عن الناس ويقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفردوا بمعرفة هذه الاداب معهم الخواص من اوليائهم وحجبوا غير اولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظا على انفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب اخر اخص من الحجاب الاول يفضي اليهم منه خواصهم من الاولياء ويحجب دونه من سواهم والحجاب الثاني يفضي الى مجالس الاولياء ويحجب دونه من سواهم الى العامة فالحجاب الاول يكون في اول الدولة كما ذكرنا كما حدث ايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني امية وكان القايم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وحدث للدولة من الترف والعز ما هو معروف وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعى ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب اخص به وصار بباب الخلفاء داران للغاشية دار للخاصة ودار للعامة كما هو مسطور في اخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث اخص من الاولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة وذلك ان اهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فاول ما يبدا به ذلك المستبد ان يحجب عنه بطانة ابيه وخواص اوليائه يوهمه ان في مباشرتهم اياه خرق الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك عنه لقاء الغير ويعوده ملابسة اخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه الى ان يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع في الغالب الا في اواخر الدول كما قدمناه في الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاذ قوتها وهو مما يخشاه اهل الدول على انفسهم لان القايمين بالدولة يحاولونه

علي

على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من اعقاب ملوكها لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومباديه والله غالب على امره

فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم ان اول ما يقع من اثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك ان الملك عندما يستفحل ويبلغ احوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به ويأنف من المشاركة ويصير الى قطع اسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوي قرابته المرشحين للمنصب فربما ارتاب المساهمون له في ذلك بانفسهم ونزعوا الى القاصية واجتمع اليهم من يلحق بهم في مثل حالهم من الاغتراب والاستراب ويكون نطاق الدولة قد اخذ في التضايق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال امره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة او يكاد وانظر ذلك في الدولة الاسلامية العربية حين كان امرها عزيزا مجتمعا ونطاقها ممتدا في الاتساع وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على ساير مضر فلم ينبض عرق من الخلاف ساير ايامهم الا ما كان من الخوارج المستميتين في شان بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم امرهم لمزاحمتهم العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بني امية واستقل بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف واذنت بالتقلص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام بامره وامر ابنه من بعده البرابرة من اوربه ومغيلة وزناته واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الاغالبة في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كتامه وصنهاجه واستولوا على افريقيه والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين اخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بني العباس بمركز العرب واصلهم ومادة الاسلام ودولة بني امية المجددين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديين بافريقيه ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدول الى ان كان انقراضها متقاربا في جميعها وكذلك انقسمت

دولة بني العباس بدول اخرى فكان بالجزيرة والموصل بنو حمدان وبنو عقيل
بعدهم وبمصر والشام بنو طولون وبنو طغج بعدهم وكان بالقاصية
بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان
وال ذلك الى استيلاء الديلم على فارس والعراقين وعلى بغداد والخلفاء
ثم جاء السلجوقية فملكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم ايضا بعد الاستفحال
كما هو معروف في اخبارهم وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية
لما بلغت الى غايتها ايام باديس ابن المنصور خرج عليه عمه حماد واقتطع
ممالك المغرب لنفسه ما بين جبل اوراس الى تلمسان وملوية واختط
القلعة بجبل كتامة حيال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم اشير بجبل تيطري
واستحدث ملكا اخر قسيما لملك ال باديس وبقي ال باديس
بالقيروان وما اليها ولم يزل كذلك الى ان انقرض امرهما جميعا وكذلك
دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو ابي حفص فاستقلوا
بها واستحدثوا ملكا لاعقابهم بنواحيها ثم لما استفحل امرهم واستولى
على الغاية خرج بالممالك الغربية من اعقابهم الامير ابو زكريا يحيى بن السلطان
ابي اسحق ابرهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا ببجاية وقسنطينة وما اليها
اورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسي الحضرة
بتونس ثم انقسم الملك ما بين اعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهي
وقد ينتهي الانقسام الى اكثر من دولتين وثلاثة وفي غير اعياص الملك من قومه
كما وقع في ملوك الطوايف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفي ملك
صنهاجة بافريقية فقد كان لاخر دولتهم في كل حصن من حصون افريقية
ثاير مستقل بامره كما نذكره وكذلك كان حال الجريد والزاب من افريقية
قبيل هذا العهد كما نذكره ايضا وهكذا شان كل دولة لا بد وان يعرض
فيها عواض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب
فيقتسم اعياصها او من يغلب من رجال دولتها الامر وتتعدد فيها
الدول والله وارث الارض ومن عليها

فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم واسبابه واحدا بعد واحد
وبينا انها تحدث للدولة بالطبع وانها كلها امور طبيعية لها واذا كان
الهرم طبيعيا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية
الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة
التي لا يمكن دواها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل
وقد يتنبه كثيرا من اهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل
بدولتهم من عوارض الهرم واسبابه ويحسبه ممكن الارتفاع فياخذ نفسه
بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ويظن انه لحقها التقصير
من قبله من اهل الدولة او غفلتهم وليس كذلك فانها امور طبيعية للدولة
والعوايد هي المانعة له من تلافيها والعوايد تتنزل منزلة طبيعة اخرى
فان من ادرك مثلا اباه وكبراء اهل بيته يلبسون الحرير والديباج
ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس
في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة
في اللباس والزي والاختلاط بالناس اذ العوايد ح تمنعه وتقبح عليه
مرتكبه ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوايد دفعة
وخشي عليه عايدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شان الانبياء
صلوات الله عليهم اجمعين في انكار العوايد ومخالفتها لولا التاييد
الالهي والنصر السماوي وربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون
الابهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا ازيلت تلك الابهة مع ضعف
العصبية تجاسرت الرعايا على الدولة بدوام اوهام الابهة فتتدرع
الدولة بتلك الابهة ما امكنها حتى ينقضي الامر وربما يحدث عند اخر
الدولة قوة توهم ان الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة
الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة
توهم انها اشتعال وهي انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله وحكمته
في اطراد وجوده على ما قدر فيه ولكل اجل كتاب

فصل في كيفية طروق الخلل للدولة

اعلم ان مبنى الملك على اساسين لا بد منهما فالاول
الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام
اولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق
الدولة طرقها في هذين الاساسين فلنذكر اولا طروق الخلل في الشوكة
والعصبية ثم نرجع الى طروقه في المال والجباية واعلم ان تمهيد الدولة
وتاسيسها كما قلناه انما يكون بالعصبية وانه لا بد من عصبية كبرى
جامعة للعصايب مستتبعة لها وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة

به من عشيرة وقبيلة فاذا جاءت للدولة طبيعة الملك من الترف وجدع انوف
اهل العصبية كان اول ما يجدع انوف عشيرة وذوي قرباه المقاسمين
له في اسم الملك فيشتد في جدع انوفهم ما بلغ من سواهم وياخذهم
الترف ايضا اكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعز والغلب فيحيط
بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر اخرا الى القتل لما يحصل
من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الامر فتنقلب غيرته
منهم الى الخوف على ملكه فياخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف
الذي تعودوا الكثير منه فيهلكون ويقلون وتفسد عصبية صاحب
الدولة منهم وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصايب وتستتبعها
فتنحل عروتها وتضعف شكيمتها ويستبدل عنها بالبطانة من موالي
النعمة وصنايع الاحسان ويتخذ منهم عصبية الا انها ليست مثل تلك
في شدة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنا قدمنا ان شان
العصبية وقوتها انما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في ذلك فينفرد
صاحب الدولة عن العشير والانصار اهل النعرة الطبيعية ويحس
بذلك اهل العصايب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا
طبيعيا فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلد الاخر
من اهل الدولة في ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف
الذي قدمنا فيستولي عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة
تلك العصبية وينسوا نعرتها وسورتها ويصيروا اجراء على الحماية ويقلون
لذلك فتنقص الحامية التي تنزل بالاطراف والثغور فيتجاسر الرعايا على نقض
الدعوة في الاطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم
الى تلك الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمتابعة اهل القاصية
لهم وامنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة
يتضايق حتى تصير الخوارج في اقرب الاماكن الى مركز الدولة وربما انقسمت
الدولة عند ذلك بدولتين او ثلث على قدر قوتها في الاصل كما قلناه
ويقوم بامرها غير اهل عصبيتها لكن اذعانا لاهل عصبيتها ولغلبهم المعهود
واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت اولا الى الاندلس والهند
والصين وكان امر بني امية نافذا في جميع العرب بعصبية عبد مناف
حتى لقد امر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى

ابن

ابن نصير بقرطبة فقتل ولم يرد امره ثم تلاشت عصبية بني امية بما اصابهم
من الترف فانقرضوا وجاء بنو العباس فغضوا من اعنة بني هاشم
وقتلوا الطالبيين وشردوهم فانحلت عصبية بني عبد مناف وتلاشت
وتجاسر العرب عليهم فاستبد عليهم اهل القاصية مثل بني الاغلب بافريقية
واهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب
وقام البربر بامرهم اذعانا للعصبية التي لهم وامنا ان تصلهم مقاتلة او حامية
للدولة فاذا خرج الدعاة اخرا فيتغلبون على الاطراف والقاصية ويحصل
لهم هنالك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت
الدولة تقلصا الى ان ينتهي الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما اخذ
منها الترف فتهلك وتضمحل وتضعف الدولة المنقسمة كلها وربما طال
امدها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس
اهل ايالتها وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل
احد من الاجيال مبداها ولا اوليتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة
فتستغني بذلك عن قوة العصايب ويكفي صاحبها في تمهيد امرها الاجراء
على الحماية من جندي ومرتزق ويعضد ذلك ما وقر في النفوس عليه من التسليم
فلا يكاد احد ان يتصور عصيانا او خروجا الا والجمهور منكرون عليه
مخالفون له فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده وربما كانت
الدولة في هذا الحال اسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم
والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث غيرها بمخالفة ولا يختلج في ضميرها
انحراف عن الطاعة فتكون اسلم من الهرج والانتقاض الذي تحدث
بالعصايب والعشاير ثم لا يزال امر الدولة كذلك وهو يتلاشى في ذاتها
شان الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء الى ان تنتهي الى وقتها
المقدور فلكل اجل كتاب ولكل دولة امد والله مقدر الليل والنهار

واما الخلل الذي يطرق من جهة المال

فاعلم ان الدولة في اولها تكون بدوية كما مر فيكون لها خلق الرفق
بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الاموال فتتجافى عن الامعان
في الجباية والتحذلق والكيس في جمع المال وحسبان العمال ولا داعية
حينئذ الى الاسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة الى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء
ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف ويدعو ذلك الى كثرة الانفاق

بسببه فتعظم نفقات السلطان واهل الدولة على العموم بل تتعدى ذلك
الى اهل المصر ويدعو الى الزيادة في اعطيات الجند وارزاق اهل الدولة
فيكثر الاسراف في النفقات وينتشر ذلك في الرعية لان الناس على دين
الدولة وعوايدها ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على اثمان البياعات
في الاسواق لادرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه
ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه وارزاق جنده ثم تتزيد عوايد الترف
فلا تفي بها المكوس ويكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر
لمن تحت يدها من الرعايا فتمتد ايديهم الى جمع المال من اموال الرعايا من مكس
او تجارة او نقد في بعض الاحوال بشبهة او غير شبهة ويكون الجند في ذلك
الطور قد تجاسروا على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فيتوقع
منهم ويداوي تسكينه بافاضة العطاء وكثرة الانفاق فيهم ولا يجد عن ذلك
وليجة ويكون جباة الاموال في الدولة قد عظمت ثروتهم في هذا الطور بكثرة
الجباية وكونها بايديهم وبما اتسع لذلك من جاههم فتتوجه اليهم باحتجان
الاموال من الجباية وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحقد فتعم
النكبات والمصادرات واحدا واحدا الى ان تذهب ثروتهم وتتلاشى
احوالهم ويفقد ما كان للدولة من الابهة والجمال بهم واذا اصطلمت نعمتهم
تجاوزتهم الدولة الى اهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن في هذا الطور
قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر فتنصرف سياسة
صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور ببذل المال ويراه انفع من السيف
لقلة غنائه فتعظم حاجته الى الاموال زيادة على النفقات وارزاق
الجند ولا تغني فيما يريد وتعظم الدولة ويتجاسر عليها اهل النواحي والدول
تنحل عراها في كل طور من هذه الى ان تفضي الى الهلاك ويتعرض لاستيلاء
الطلاب فان قصدها طالب انتزعها من ايدي القائمين بها والا بقيت
وهي تتلاشى الى ان تضمحل كالذبال في السراج اذا فني زيته وطفي
والله مالك الامور ومدبر الاكوان لا اله الا هو

فصل في اتساع نطاق الدولة اولا الى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور الى فناء الدولة واضمحلالها

قد كان تقدم لنا في فصل الخلافة والملك وهو الثالث من هذه المقدمة
ان كل دولة لها حصة من الممالك والعمالات لا تزيد عليها واعتبر ذلك
بتوزيع عصابة الدولة على حماية اقطارها وجهاتها فحيث نفد عددهم

فالطرف

فالطرف الذي ينتهي عنده هو الثغر ويحيط بالدولة من ساير جهاتها كالنطاق
وقد تكون النهاية هي نطاق الدولة الاولى وقد يكون اوسع منه اذا كان
عدد العصابة اوفر من الدولة قبلها وهذا كله عندما تكون الدولة في شعار
البداوة وخشونة الباس فاذا استفحل العز والغلب وتوفرت
النعم والارزاق بدرور الجبايات وزخر بحر الترف والحضارة ونشات
الاجيال على اعتياد ذلك لطفت احوال الحامية ورقت حواشيهم
وعاد من ذلك على نفوسهم هيئات الجبن والكسل بما يعانونه من خنث
الحضارة المؤدي الى الانسلاخ من شعار الباس والرجولة بمفارقة البداوة
وخشونتها وباخذهم العز بالتطاول الى الرياسة والتنازع فيها فيفضي
الى قتل بعضهم بعضا ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي الى قتل
اكابرهم واهلاك رؤسائهم فيفقد الامراء والكبراء ويكثر التابع والمرؤوس
فيفل ذلك من حد الدولة ويكسر من شوكتها ويقع الخلل الاول في الدولة
وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم ويساوق ذلك السرف في النفقات
بما يعتريهم من ابهة العز وتجاوز الحدود في البذخ بالمناغاة في المطاعم والملابس
وتشييد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول فيقصر دخل الدولة
حينئذ عن خرجها ويطرق الخلل الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والجباية
ويحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين وربما تنافس رؤساؤهم فتنازعوا
وعجزوا من مغالبة المنازعين والمحاربين ومدافعتهم وربما اعتز اهل
الاطراف بما يحسون من ضعف الدولة وراءهم فيصيرون الى الاستقلال
والاستبداد بما في ايديهم من العمالات ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على
الجادة فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت اليه في اولها وترجع العناية
في تدبيرها بنطاق دونه الى ان يحدث للثاني ما حدث في الاول بعينه من العجز
والكسل في العصابة وقلة الاموال والجباية فيذهب القائم بالدولة الى تغيير
القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من قبل الجند والمال والولايات
ليجري حالها استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع
الجباية على الارزاق ومقايسة ذلك باول الدولة في ساير الاحوال والمفاسد
مع ذلك متوقعة من كل جهة فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الاول
من قبل ويعتبر صاحب الدولة ايضا ما اعتبره الاول ويقايس بالوزان
الاول احوالها الثانية يروم دفع مفاسد الخلل الذي يتجدد في كل طور وياخذ

من كل طرف حتى يضيق نطاقها الاخر الى نطاق دونه كذلك ويقع فيه ما وقع في الاول وكل واحد من هولاء المغيرين للقوانين قبلهم كانهم منشئون دولة اخرى ومجددون ملكا حتى تنقرض الدولة ويتطاول الامم حولها الى التغلب عليها وانشاء دولة اخرى لهم فيقع من ذلك ما قدره الله وقوعه واعتبر ذلك في الدولة الاسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الامم ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تخولوه من النعم والارزاق الى ان انقرض امر بني امية وغلب بنو العباس ثم تزايد الترف ونشأت الحضارة وطرق الخلل فضاق النطاق من الاندلس والمغرب بحدوث الدولة المروانية والعلوية واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها الى ان وقع الخلاف بين بني الرشيد وظهر دعاة العلوية من كل جانب وتمهدت لهم دول ثم قتل المتوكل واستبد الامراء على الخلفاء وحجروهم واستقل الولاة بالعمالات في الاطراف وانقطع الخراج منها وتزايد الترف وجاء المعتضد فغير قوانين الدولة الى قانون اخر من السياسة اقطع فيه ولاة الاطراف ما غلبوا عليه مثل بني سامان وراء النهر وبني طاهر العراق وخراسان وبني الصفار السند وفارس وبني طولون مصر وبني الاغلب افريقية الى ان افترق امر العرب وغلب العجم واستبد بنو بويه والديلم بدولة الاسلام وحجروا الخلافة وبنو سامان بما وراء النهر وتطاول الفاطميون من المغرب الى مصر والشام فملكوه ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الاسلام وابقوا الخلفاء في حجرهم الى ان تلاشت دولهم واستبد الخلفاء منذ عهد الناصر في نطاق اضيق من هالة القمر وهو عراق العرب الى اصبهان وفارس والبحرين واقامت الدولة كذلك بعض الشي الى ان انقرض امر الخلفاء على يد هولاكو بن طولي بن دوشي خان ملك التتر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان بايديهم من ممالك الاسلام وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الاول ولا يزال طورا بعد طور الى ان تنقرض الدولة واعتبر ذلك في كل دولة عظمت او صغرت فهكذا سنة الله في الدول الى ان ياتي ما قدره الله من الفناء على خلقه كل شيء هالك الا وجهه •

فصل في حدوث الدول وتجددها كيف يقع

اعلم ان نشأة الدول وبدايتها اذا اخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين اما ان يستبد ولاة الاعمال في الدولة بالقاصية

عندما يتقلص ظلها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وملك يستقر في نصابه ويرثه عنه ابناؤه ومواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون ويتنازعون في الاستئثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه وينتزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين اخذت دولتهم في الهرم وتقلص ظلها عن القاصية فاستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع في الدولة الاموية بالاندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ملوكها ولاتها في الاعمال وانقسمت دولا وملوكا اورثوها من بعدهم من قرابتهم او مواليهم وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رياستهم ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة وانما الدولة ادركها الهرم فتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني بان يخرج على الدولة خارج ممن يجاورها من الامم والقبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما اشرنا اليه او بان يكون صاحب شوكة وعصبية كبيرا في قومه قد استفحل امره فيهم فيسمون بهم الى الملك وقد حدثوا به انفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى ان يظفروا بها ويرثون امرها كما وقع للسلجوقية مع بني سبكتكين ولبني مرين بالمغرب مع الموحدين والله غالب على امره

فصل في ان الدولة المستجدة انما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاة الاطراف اذا تقلص ظل الدولة وانحسر تيارها وهولاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الاكثر كما قدمناه لان قصاراهم القنوع بما في ايديهم وهو نهاية قوتهم النوع الثاني نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهولاء لا بد لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما يكون في نصاب يكون لهم من العصبية والاعتزاز ما هو كفي ذلك ووافٍ به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروب سجال تتكرر وتتصل الى ان يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطاولة ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمناجزة والسبب في ذلك ان الظفر في الحروب انما يقع غالبا كما قدمناه بامور نفسانية وهمية وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع

من ينفع ما يستعمل في الحرب واكثر ما يقع الظفر به وفي الحديث الحرب خدعة
والدولة المستقرة قد صيرت العوايد المالوفة طاعتها ضرورية واجبة كما تقدم
في غير موضع فتكثر بذلك العوايق لصاحب الدولة المستجدة ويكسر من همم اتباعه
واهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة في طاعته وموازرته
الا ان الاخرين الاكثر قد داخلهم الفشل والخلل بعقايد التسليم للدولة المستقرة
فيحصل الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة لذلك يقاوم صاحب
الدولة المستقرة فيرجع الى الصبر والمطاولة حتى يتضح هرم الدولة المستقرة
فتضمحل عقايد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع
الظفر والاستيلاء وايضا فالدولة المستقرة كثيرة الترف بما استحكم لها من الملك
وتسوغوا من النعم واللذات واختصوا به دون غيرهم من اموال الجباية فيكثر
عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيهم الابهة الملكية ويفيض
العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيرهبون بذلك كله عدوهم واهل
الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك بما هم فيه من البداوة واحوال الفقر
والخصاصة التي تفقد معها الاستعداد ومن ذلك فيسبق الى قلوبهم اوهام
الرعب لما يبلغهم عن الدولة المستقرة وكثرة استعدادها ويحجمون عن قتالهم
من اجل ذلك فيضطر اميرهم الى المطاولة حتى ياخذ الدولة المستقرة ماخذها
من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية فينتهز صاحب الدولة
المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة الله في عباده
وايضا فاهل الدولة المستجدة كلهم مباينون لاهل الدولة المستقرة بانسابهم
وعوايدهم وفي ساير مناحيهم ثم هم مفاخرون لهم ومنابذون بما وقع من هذه
المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليهم فتتمكن المباعدة بين اهل الدولتين
سرا وجهرا ولا يصل الى اهل الدولة المستجدة خبر عن اهل الدولة المستقرة
يصيبون به غرة فيهم باطنا ولا ظاهرا لانقطاع المواصلة والمداخلة بين
الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم في احجام وينكلون عن المناجزة حتى اذا اذن
الله بزوال الدولة المستقرة ونفاد عمرها ووفور الخلل في جميع جهاتها واتضح
لاهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يخفى عنهم من هرمها وتلاشيها وقد عظمت
قوتهم بما اقتطعوه من اعمالها ونقصوه من اطرافها فتنبعث هممهم يدا واحدة
للمناجزة ويذهب ما كان بعث في عزايمهم من التوهمات وينتهي المطاولة
الى حدها ويقع الاستيلاء اخرا بالمناجزة واعتبر ذلك في دولة بني العباس

عند

عند ظهورها وبدايتها كيف اقام الشيعة بخراسان بعد انعقاد البيعة واجتماعهم
على المطالبة عشر سنين او تزيد وحينئذ تم لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية
وكذا العلوية بطبرستان عند ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاولتهم
حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى امر العلوية وسما الديلم الى ملك
فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا اصبهان وفارس
ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون اقام داعيهم بالمغرب
ابو عبد الله الشيعي بين كتامة من قبايل البربر عشر سنين وتزيد يطاول بني
الاغلب بافريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله ثم سموا الى ملك
مصر فمكثوا ثلثين سنة او نحوها يجهزون اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ويجيء
المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والفيوم
والصعيد وتخطت دعوتهم من هنالك الى الحجاز واقيمت بالحرمين ثم نازل
قايدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بني
طغج من اصولها واختط القاهرة فجاء خليفته بعد المعز لدين الله فنزلها لستين
سنة او نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية وكذا السلجوقية ملوك الترك
لما استولوا على بني سامان واجازوا من وراء النهر مكثوا نحوا من ثلثين سنة
يطاولون ابن سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداد
فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد ايام من الدهر وكذا التتر من بعدهم خرجوا
من المفازة اعوام سبعة عشر وستمائة فلم يتم لهم ملك الاستيلاء الا بعد
اربعين سنة وكذا اهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة
فطاولوهم سنين حتى استولوا عليهم ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة
فمكثوا نحوا من ثلثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش وكذا
بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلثين سنة
واستولوا على فاس واقتطعوها واعمالها من ملكهم ثم اقاموا في محاربتهم ثلثين
اخرى حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما ذلك كله مذكور في تواريخ هذه
الدول فهكذا حال الدول المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة سنة الله
في عباده ولن تجد لسنة الله تحويلا ولا تعترض ذلك بما وقع في الفتوحات
الاسلامية وكيف كان الاستيلاء على فارس والروم لثلاث او اربع من وفاة
النبي صلى الله عليه وسلم من غير مطاولة فاعلم ان ذلك انما كان معجزة للنبي صلى الله
عليه وسلم سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبصارا بالايمان وما اودع

الله في قلوب عدوهم كفى ذلك من الرعب والتخاذل لكان ذلك كله خارقا
للعادة المعلومة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة واذا كان ذلك
خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة
الاسلامية والمعجزات لا يقاس عليها في الامور العادية ولا يعترض بها

فصل في وفور العمران اواخر الدول وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

انه قد تقرر لك فيما سلف ان الدول في اول امرها لابد
من الرفق في ملكتها والاعتدال في ايالتها اما من الدين ان كانت الدعوة دينية
او من المكارمة والمحاسنة التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول واذا كانت
الملكة رفيقة محسنة انبسطت امال الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر
وكثر التناسل واذا كان ذلك كله بالتدريج فانما يظهر اثره بعد جيل او جيلين
في الاقل وفي انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون
ح العمران في غاية الوفور والنماء ولا تقولن انه قد مر لك ان اواخر الدول يكون
فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاجحاف
وان حدث ح وقلت الجبايات فانما يظهر اثره في تناقص العمران بعد حين
من اجل التدريج في الامور الطبيعية ثم ان المجاعات والموتان تكثر عند ذلك
في اواخر الدول والسبب فيه اما المجاعات فلقبض الناس ايديهم عن الفلح في الاكثر
بسبب ما يقع في اخر الدول من العدوان في الاموال والجبايات وفي البياعات
بالمكوس والفتن الواقعة بانتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة
فيقل احتكار الزرع غالبا وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة
واحدة فطبيعة العالم في كثرة الامطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف
ويقل ويكثر والزرع والثمار والضرع على نسبته الا ان الناس واثقون في اقواتهم
بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع
وعجز عنه اولو الخصاصة فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكار مفقود
فشمل الناس الجوع واما كثرة الموتان فلها اسباب من كثرة المجاعات كما
ذكرناه او كثرة الفتن لاختلال الدول فيكثر الهرج والقتل او وقوع الوباء
وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات
الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائما فيسري
الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين
وامراضها مخصوصة بالرئة وان كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن

العفن به ويتضاعف فتكثر الحميات في الامزجة وتمرض الابدان وتهلك
وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران
ووفوره اخر الدولة بما كان في اوائلها من حسن الملكة ورفقها وعظم الحماية
وقلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه في الحكمة ان تخلل الخلاء والقفر
بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد
والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح ولهذا ايضا يكون الموتان
في المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب
والله يقدر ما يشاء

فصل في ان العمران البشري لابد له من سياسة ينتظم بها امره

انه قد تقدم لنا في غير موضع ان الاجتماع للبشر ضروري
وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه وانه لابد لهم في الاجتماع من وازع وحاكم يرجعون
اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم
اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة الى سياسة
عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته
بمصالحهم فالاولى يحصل نفعها في الدنيا والاخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة
ولمراعاة نجاة العباد في الاخرة والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما
تسمعه
من السياسات المدنية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء ما يجب
ان يكون عليه كل واحد واحد من اهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا
عن الحكام راسا ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما ينبغي من ذلك بالمدينة الفاضلة
والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة
التي يحمل عليها اهل الاجتماع بالاحكام للمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه
المدينة الفاضلة نادرة او بعيدة الوقوع وانما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير
ثم ان السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين احدهما ان يراعى فيها المصالح
على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة
الفرس وهي على وجه الحكمة وقد اغنانا الله عنها في الملة ولعهد الخلافة لان احكام
الشريعة مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والاداب واحكام الملك مندرجة
فيها الوجه الثاني ان يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع
القهر والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه تبعا وهذه السياسة الملوك
في العالم من مسلم وكافر الا ان ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة
الاسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذا مجتمعة من احكام شرعية واداب

خليقة وقوانين في الاجتماع طبيعية واشيا من مراعاة الشوكة والعصبية
ضرورية والاقتداء فيها بالشرع اولا ثم بالحكماء في ادابهم والملوك في سيرهم
من احسن ما كتب في ذلك واوعبه كتاب طاهر بن الحسين قائد المامون
لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المامون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه
ابوه طاهر كتابه لما ولاه المامون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه ابوه طاهر
كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه
من الاداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم
الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة ونص الكتاب منقول
من كتاب الطبري بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فعليك بتقوى الله
وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك في الليل
والنهار والزم ما البسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما انت صائر اليه وموقوف
عليه ومسؤل عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك عز وجل وينجيك يوم القيامة
عن عقابه واليم عذابه فان الله سبحانه قد احسن اليك واوجب عليك الرافة بمن استرعاك
امرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب
عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والامن لسبلهم وادخال الراحة
عليهم ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه
بما قدمت واخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه
شاغل فانه راس امرك وملاك شانك واول ما يوفقك الله عز وجل به لرشدك
وليكن اول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك
من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوقعها على سننها في اسباغ الوضوء
لها وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها وترتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك
وتشهدك ولتصدق فيها لربك نيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت
يدك وادأب عليها فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم اتبع
ذلك بالاخذ بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء
اثار السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك امر فاستعن عليه باستخارة
الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما انزل الله عز وجل في كتابه من امره ونهيه وحلاله
وحرامه وائتمام ما جاءت به الاثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه
بما يحق الله عز وجل عليك ولا تميلن عن العدل فيما احببت او كرهت لقريب
من الناس او بعيد واثر الفقه واهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين

به فان افضل ما تزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة
بما يتقرب به منه الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والامر به
والناهي عن المعاصي والموبقات كلها وبها مع توفيق الله عز وجل يزداد العبد
معرفة له واجلالا له ودركا للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس
من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك وعليك
بالاقتصاد في الامور كلها فليس شيء ابين نفعا ولا اخص امنا ولا اجمع فضلا منه
والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق قائد الى السعادة وقوام
الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فاثره في دنياك كلها ولا تقصر في طلب
الاخرة والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد ولا غاية للاستكثار
في البر والسعي له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة اولياء الله
في دار كرامته اما تعلم ان القصد في شان الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب
وانك لن تحوط نفسك ومن يليك ولا تستصلح امورك بافضل منه فاته واهتد
به تتم امورك وتزيد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك واحسن ظنك بالله
عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه في الامور كلها تستدم به النعمة
ولا تتهمن احدا من الناس فيما توليه من عملك قبل ان تكشف امره فان ايقاع التهم
بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم فاجعل من شانك حسن الظن باصحابك واطرد
عنك سوء الظن بهم وارفضه يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ولا يجدن
عدو الله الشيطان في امرك مغمزا فانه انما يكتفي بالقليل من وهنك فيدخل عليك
من الغم في سوء الظن ما ينغص لذاذة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظن قوة وراحة
وما تكتفي به ما احببت كفايته من امورك وتدعو الناس الى محبتك والاستقامة
في الامور كلها ولا يمنعك حسن الظن باصحابك والرافة عليهم ان تستعمل المسئلة
والبحث عن امورك والمباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها
ويصلحها بل لتكن المباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية في النظر في حوائجهم
وحمل مؤناتهم اثر عندك مما سوى ذلك فانه اقوم للدين واحيا للسنة واخلص
نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم انه مسؤل عما صنع ومجزي بما احسن
وماخوذ بما اساء فان الله عز وجل جعل الدين حرزا وعزا ورفع من اتبعه وعززه
فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الحق وطريقة الهدى واقم حدود الله تعالى
في اصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون
ولا تؤخر عقوبة اهل العقوبة فان في تفريطك في ذلك ما يفسد عليك

به

ظنك

حسن ظنك واعزم على امرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع
والشبهات يسلم لك دينك وتقم لك مروتك واذا عاهدت عهدا فف به
واذا وعدت الخير فانجزه واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن عيب كل ذي عيب
من رعيتك واسدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض اهل النميمة فان اول
فساد امورك في عاجلها واجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لان الكذب
راس المآثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له
صاحب ولا يستقيم لمطيعها امر واحبب اهل الصلاح والصدق واعن الاشراف
بالحق وواصل الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز امره والتمس
فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رايك واظهر
براءتك من ذلك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي
بك الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم واياك
والحدة والطيش والغرور فيما انت بسبيله واياك ان تقول انا مسلط افعل ما اشاء
فان ذلك سريع فيك الى نقص الراي وقلة اليقين بالله وحده لا شريك
له واخلص لله النية فيه واليقين به واعلم ان الملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه
ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة الى احد اسرع منه الى حملة النعمة
من اصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة اذا كفروا نعم الله عز وجل
واحسانه واستطالوا بما آتاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شره نفسك
ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى والعدل واستصلاح
الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لامورهم والحفظ لدهمائهم والاغاثة لملهوفهم
واعلم ان الاموال اذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر واذا كانت
في اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وزكت وصلحت
العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنعة
فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال في عمارة الاسلام واهله ووفر منه
على اولياء امير المؤمنين قبلك حقوقهم واوف رعيتك من ذلك حصصهم
وتعهد ما يصلح امورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت ذلك قرت النعمة
عليك واستوجبت المزيد من الله عز وجل وكنت بذلك على جباية خراجك
وجمع اموال رعيتك وعملك اقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك
اسلس لطاعتك واطيب نفسا بكل ما اردت فاجهد نفسك فيما حددت
لك في هذا الباب وليعظم حقك فيه فانما يبقى من المال ما انفق في سبيل

الله

الله حقه واعرف للشاكرين شكرهم واثبهم عليه واياك ان تنسيك الدنيا
وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط
والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارج الثواب
فان الله عز وجل قد اسبغ عليك نعمته في الدنيا واظهر لديك فاعتصم
بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا فان الله عز وجل يثيب
بقدر الشاكرين وسيرة المحسنين وقضى الحق فيما حمل من النعم والبس من الكرامة
ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تقفن كفورا
ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن نماما ولا تامنن غدارا ولا تتبعن فاسقا
ولا توالين غاويا ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن انسانا ولا تردن سائلا فقيرا
ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن موعدا ولا ترهبن فخرا ولا تظهرن
غضبا ولا تباين بذخا ولا تمشين مرحا ولا تزكين سفيها ولا تفرطن في طلب الآخرة
ولا تدفع الايام عتابا ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه او محاباة ولا تطلبن ثواب
الآخرة بالدنيا واكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ عن اهل التجارب
وذوي العقل والراي والحكمة ولا تدخلن في مشورتك اهل الرفه والبخل
ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم اكثر من نفعهم وليس شيء اسرع فسادا لما استقبلت
فيه امور رعيتك من الشح واعلم انك اذا كنت حريصا كنت كثير الاخذ قليل
العطية واذا كنت كذلك لم يستقم لك امرك الا قليلا فان رعيتك انما تعتقد
على محبتك بالكف عن اموالهم وترك الجور عليهم ووال من صافاك من اوليائك
بالافضال عليهم وحسن العطية لهم فاجتنب الشح واعلم انه اول ما عصى به الانسان
ربه وان العاصي بمنزلة خزي وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فاولئك
هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من فيئك حظا ونصيبا
وايقن ان الجود من افضل اعمال العباد فاعدده لنفسك خلقا وسهل طريق
الجود بالحق وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند في دواوينهم ومكاتبهم وادر
عليهم ارزاقهم ووسع عليهم في معايشهم ليذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم
فيقوى لك امرهم وتزيد به قلوبهم في طاعتك وامرك خلوصا وانشراحا
وحسب ذي السلطان من السعادة ان يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله
وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايد مكروه احد الناس
باستشعار فضيلة الباب الآخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله نجاحا وصلاحا
وفلاحا واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس به شيء من الامور لانه

ميزان الله الذي تعدل عليه احوال الناس في الارض وباقامة الفصل والعدل
في القضاء والعمل يصلح احوال الرعية وتامن السبل وينتصف المظلوم وياخذ
الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويودي حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة
ويقوم الدين وتجري السنن والشرائع على مجاريها وتنجز الحق والعدل في القضاء
ولين كلامك ويقر حدك واشتد في امر الله عز وجل وتورع عن النطف
وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع
بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد في منطقك وانصف الخصم وقف عند
الشبهة وابلغ الحجة ولا ياخذك في احد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم
وتثبت وتان وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع
الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك دم فان الدماء من الله عز وجل
بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها وانظر الى هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية
وجعله الله للاسلام عزا ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه وعدوهم كبتا
وغيظا ولاهل الكفر من معاهديهم ذلا وصغارا فوزعه بين اصحابه بالحق والعدل
والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيئا عن شريف لشرفه ولا عن غني لغناه ولا عن كاتب
لك ولا عن احد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تاخذن منه فوق الاحتمال
ولا تكلفن امرا فيه شططا واحمل الناس كلهم على مر الحق فان ذلك اجمع
لالفتهم والزم لرضا العامة واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظا
وراعيا وانما سمي اهل عملك رعيتك لانك راعيهم وقيمهم تاخذ منهم ما اعطوك
من عفوهم وتنفذه في قوام امرهم وصلاحهم وتقويم اودهم واستعمل عليهم
ذوي الراي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعمل بالسياسة والعفاف
ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت
واسند اليك ولا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفنك عنه صارف فانك
متى اثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت فيه زيادة النعمة من ربك وحسن
الاحدوثة في عملك واحترزت به المحبة من رعيتك واعنت على الصلاح فدرت
الخيرات ببلدك واحترزت به المحبة من رعيتك وفشت العمارة بناحيتك
وظهر الخصب في كورك وكثر خراجك وتوفرت اموالك وقويت بذلك على ارتباط
جندك وارضاء العامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة
مرضي العدل في ذلك عند عدوك وكنت في امورك كلها ذا عدل واله وقوة
وعدة فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئا تحمد مغبة امرك ان شاء الله تعالى

واجعل

واجعل في كل كورة من عملك امينا يخبرك اخبار عمالك ويكتب اليك بسيرهم واعمالهم
حتى كانك مع كل عامل في عمله معاين لاموره كلها وان اردت ان تامرهم بامر
فانظر في عواقب ما اردت من ذلك فان رايت السلامة فيه والعافية ورجوت
فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فامضه والا فتوقف عنه وراجع اهل البصر
والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما نظر الرجل في امر من امره وقد اتاه على ما يهوى فاغواه
ذلك واعجبه فان لم ينظر في عواقبه اهلكه ونقض عليه امره فاستعمل الحزم في كل
ما اردت وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوة واكثر من استخارة ربك في جميع
امورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره واكثر مباشرته بنفسك فان لغد امورا
وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي اخرت واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب
بما فيه فاذا اخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه فاذا امضيت
لكل يوم عمله ارحت بدنك ونفسك واحكمت امور سلطانك وانظر احرار الناس
وذوي السن منهم ممن تستيقن صفاء طويتهم وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم
بالنصح والمخالصة على امرك فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد اهل البيوتات ممن قد دخلت
عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مسا وافرد نفسك للنظر
في امور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك والمحتقر الذي لا علم له
بطلب حقه فسل عنه اخفى مسئلة ووكل بامثاله اهل الصلاح من رعيتك ومرهم
برفع حوائجهم وحالاتهم اليك لتنظر فيها بما يصلح الله به امرهم وتعاهد ذوي
الباساء ويتاماهم واراملهم واجعل لهم ارزاقا من بيت المال اقتداء بامير
المؤمنين اعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم
ويرزقك به بركة وزيادة واجر للاضراء من بيت المال وقدم حملة القرآن
منهم والحافظين لاكثره في الجراية على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا
تؤويهم وقواما يرفقون بهم واطباء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم
ما لم يؤد ذلك الى سرف في بيت المال واعلم ان الناس اذا اعطوا حقوقهم
وافضل امانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب انفسهم دون رفع حوائجهم الى ولاتهم
طمعا في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم وربما برم المتصفح لامور الناس لكثرة
ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة وليس من يرغب
في العدل ويعرف محاسن اموره في العاجل وفضل ثواب الاجل كالذي
يستقبل ما يقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته واكثر الاذن للناس عليك وابرز لهم
وجهك وسكن لهم حراسك واخفض لهم جناحك واظهر لهم بشرك ولن لهم

في المسئلة والنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك واذا اعطيت فاعط
بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية
على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من امور الدنيا ومن مضى
من قبلك من اهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البالية
ثم اعتصم في احوالك كلها بامر الله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل
بشريعته وسنته واقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارق ذلك وخالفه
ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من الاموال وما ينفقون
منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا واكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم
وليكن اكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا راى عيبا فيك فلا تمنعه
هيبتك من انهاء ذلك اليك في سر واعلامك ما فيه من النقص فان اولئك انصح اوليائك
ومظاهريك لك وانظر عمالك وكتابك الذين بحضرتك فوقت لكل رجل منهم
في كل يوم وقتا يدخل فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وامور كورك
ورعيتك ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك
وكرر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحق والحزم فامضه واستخر الله
عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسئلة عنه ولا تمنن
على رعيتك ولا غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من احد الا الوفاء والاستقامة
والعون في امور المسلمين ولا تضعن المعروف الا على ذلك وتفهم كتابي
اليك واكثر النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع امورك واستخره فان الله
عز وجل مع الصلاح واهله وليكن اعظم سيرتك وافضل رغبتك ما كان لله
عز وجل رضى ولدينه نظاما ولاهله عزا وتمكينا وللملة والذمة عدلا وصلاحا وانا
اسأل الله عز وجل ان يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام
وحدث الاخباريون ان هذا الكتاب لما ظهر وشاع امره اعجب به الناس
واتصل بالمامون فلما قرئ عليه قال ما ابقى ابو الطيب يعني طاهرا شيئا من امر
الدنيا والدين والتدبير والراي والسياسة واصلاح الملك والرعية
وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد احكمه واوصى به
ثم امر المامون فكتب به الى جميع العمال في النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه
هذا احسن ما وقفت عليه في هذه السياسة والله يلهم من يشاء من عباده

فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شانه وكشف الغطاء عن ذلك

ان المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على مر الاعصار انه

لابد

لابد في اخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل
ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون
خروج الدجال وما بعده من اشراط الساعة الثابتة في الصحيح على اثره وان عيسى
عليه السلام ينزل من بعده فيقتل الدجال او ينزل معه فيساعده على قتله
ويأتم بالمهدي في صلوته ويحتجون في الباب باحاديث خرجها الائمة وتكلم
فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوفة المتاخرين في امر
هذا الفاطمي طريقة اخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على الكشف
الذي هو اصل طرايقهم ونحن الان نذكر هنا الاحاديث الواردة في هذا الباب
وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في انكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام
المتصوفة وارائهم ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله فنقول ان جماعة
من الائمة خرجوا احاديث المهدي منهم الترمذي وابو داود والبزار وابن ماجة
والحاكم والطبراني وابو يعلى الموصلي واسندوها الى جماعة من الصحابة مثل
علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وابي هريرة وانس وابي سعيد الخدري
وام حبيبة وام سلمة وثوبان وقرة بن اياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث
بن جزء باسانيد ربما تعرض لها المنكرون كما نذكره الآن لان المعروف عند
اهل الحديث ان الجرح مقدم على التعديل فاذا وجدنا طعنا في بعض رجال الاسانيد
بغفلة او سوء حفظ او ضعف او سوء راي تطرق ذلك الى صحة الحديث
واوهن منه ولا تقولن ان مثل ذلك ربما يتطرق الى رجال الصحيحين فان الاجماع
من المحدثين على صحة ما فيهما كما ذكره البخاري ومسلم والاجماع ايضا بالعمل
ما فيهما وفي الاجماع اعظم حماية واحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك
فقد تجد مجالا للكلام في اسانيدها بما نقل عن ائمة الحديث في ذلك ولقد توغل
ابو بكر بن ابي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه الاحاديث الواردة في المهدي
فقال في من اغربها اسنادا ما ذكره ابو بكر الاسكاف في فوائد الاخبار مسندا الى مالك
بن انس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب
بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها
مثل ذلك فيما احسب وحسبك هذا غلوا والله اعلم بصحة طريقه الى مالك بن
انس على ان ابا بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع واما الترمذي فخرج هو وابو داود
بسنديهما الى ابن مسعود من طريق عاصم بن ابي النجود احد القراء السبعة عن زر
بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لو لم يبق من الدنيا

الا يوم قال لو يده لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني او من اهل
بيتي يواطي اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي هذا لفظ ابي داود وسكت عليه وقال
في رسالته المشهورة ان ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب
الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطي اسمه اسمي وفي لفظ اخر حتى
يلي العرب رجل من اهل بيتي وقال في كليهما حديث حسن صحيح ورواه ايضا من طريق
عاصم موقوفا على ابي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة وزايدة وغيرهم
من ائمة المسلمين عن عاصم قال وطرق عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما اصلته
من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من ائمة المسلمين انتهى لا ان عاصما
قال احمد بن حنبل كان رجلا صالحا قاريا للقران خيرا ثقة والاعمش احفظ
منه وكان شعبة يختار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف
عليه في زر وابي وائل يشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن
سعد كان ثقة الا انه كان كثير الخطاء في حديثه وقال يعقوب بن ابي سفيان
في حديثه اضطراب وقال عبد الرحمن بن ابي حاتم قلت لابي اني ابا زرعة
يقول ان عاصم ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم فيه ابن علية فقال كل من اسمه
عاصم سيئ الحفظ وقال ابو حاتم محله عندي محل الصدق صالح الحديث ولم يكن
بذلك الحافظ واختلف قول النسائي فقال ابن خراش في حديثه نكرة وقال
ابو جعفر العقيلي لم يكن فيه الا سوء الحفظ وقال الدارقطني في حفظه شيء وقال
يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصما الا وجدته سيئ الحفظ وقال
ايضا سمعت شعبة يقول حدثنا عاصم بن ابي النجود وفي النفس ما فيها وقال
الذهبي ثبت في القراة وهو في الحديث دون الثبت صدوق يهم وهو حسن
الحديث وان احتج احد بان الشيخين اخرجا له فانما اخرجا له مقرونا بغيره
لا اصلا والله اعلم وخرج ابو داود بسنده في الباب عن علي رضي الله عنه
من رواية فطر بن خليفة بالفاء عن القاسم ابن ابي بزة عن ابي الطفيل عن علي عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر الا يوم لبعث الله رجلا من اهل
بيتي يملاها عدلا كما ملئت جورا وفطر بن خليفة وان وثقه احمد ويحيى بن القطان
وابن معين والنسائي وغيرهم الا ان العجلي قال حسن الحديث وفيه تشيع
قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال احمد بن عبد الله بن يونس كنا نمر
على فطر وهو مطروح ولا نكتب عنه وقال مرة كنت امر به وادعه مثل الكلب
وقال الدارقطني لا يحتج به وقال ابو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه

الا لسوء

الا لسوء مذهبه وقال الجوزجاني زايغ غير ثقة انتهى وخرج ابو داود ايضا
بسنده الى علي رضي الله عنه عن هارون بن المغيرة عن عمرو بن ابي قيس عن شعيب
بن خالد عن ابي اسحق السبيعي قال قال علي ونظر ابنه الحسن فقال ان ابني هذا سيد
كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه
في الخلق ولا يشبهه في الخلق ثم ذكر قصة يملا الارض عدلا وقال هارون حدثنا
عمرو ابن ابي قيس عن مطرف بن طريف عن ابي الحسن عن هلال بن عمرو سمعت
عليا يقول النبي صلى الله عليه وسلم يخرج رجل من وراء يقال له الحرث بن حراث
على مقدمته رجل يقال له منصور يوطي او يمكن لال محمد كما مكنت قريش لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وجب على كل مومن نصره او قال اجابته سكت عليه ابو داود
وقال في موضع اخر هارون هو من الشيعة وقال السلماني فيه نظر وقال ابو داود
في عمرو بن ابي قيس لا باس به في حديثه خطا وقال الذهبي صدوق له اوهام واما ابو اسحق
السبيعي وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت انه اختلط اخر عمره وروايته عن علي رضي
الله عنه منقطعة وكذا رواية ابي داود عن هارون بن المغيرة منقطعة واما السند
الثاني فابو الحسن فيه وهلال بن عمرو مجهولان ولم يعرف ابو الحسن الا من رواية
مطرف ابن طريف عنه انتهى خرج ابو داود ايضا عن ام سلمة وكذا ابن ماجه والحاكم
في المستدرك من طريق علي بن نفيل عن سعيد بن المسيب عن ام سلمة قالت سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من عترتي من ولد فاطمة ولفظ الحاكم سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نعم هو حق وهو من بني فاطمة ولم يتكلم عليه بصحيح
ولا غيره وقد ضعفه ابو جعفر العقيلي وقال لا يتابع عليه علي بن نفيل ولا يعرف به
خرج ابو داود ايضا من رواية صالح بن ابي الخليل عن صاحب له عن ام سلمة عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من اهل المدينة
هاربا الى مكة فياتيه ناس من اهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام
ويبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فاذا راى
الناس ذلك اتاه ابدال الشام وعصائب اهل العراق فيبايعونه ثم ينشا رجل من قريش
اخواله كلب فيبعث اليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك بعث كلب والخيبة لمن
لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ويلقي
الاسلام بجرانه الى الارض فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون قال
ابو داود وقال بعضهم عن هشام تسع سنين وقال بعضهم سبع سنين ثم رواه ابو داود
من رواية ابي الخليل عن عبد الله بن الحرث عن ام سلمة رضي الله عنها فتبين بذلك

المبهم في الاسناد والاول من رجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال
انه من رواية قتادة عن ابي الخليل وقتادة مدلس وقد عنعنه والمدلس لا يقبل
من حديثه الا ما صرح فيه بالسماع مع ان الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي نعم
ذكره ابو داود في ابوابه **وخرج ابو داود** ايضا وتابعه الحاكم عن ابي سعيد الخدري
من طريق عمران القطان عن قتادة عن ابي نضرة عن ابي سعيد الخدري قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني اجلى الجبهة اقنى الانف يملأ الارض
قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يملك سبع سنين هذا لفظ ابي داود وسكت
عليه ولفظ الحاكم المهدي منا اهل البيت اشم الانف اقنى اجلى يملأ الارض قسطا
وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط يساره واصبعين من يمينه المسبحة
والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه انتهى
وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به وانما اخرج له البخاري استشهادا لا اصلا وكان
يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشيء وقال
احمد بن حنبل ارجو ان يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان
يرى السيف على اهل القبلة وقال النسائي ضعيف وقال ابو عبيد الآجري سألت
ابا داود عنه فقال من اصحاب الحسن وما سمعت الا خيرا وسمعته ذكره مرة اخرى
فقال ضعيف افتى في ايام ابراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك
الدماء وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن ابي سعيد الخدري من طريق زيد العمي
عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد الخدري قال خشينا ان يكون بعد نبينا حدث
فسألنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال ان في امتي المهدي يخرج يعيش خمسا
او سبعا او تسعا زيد الشاك قال قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجيء اليه رجل
يا مهدي اعطني فيحثي له في ثوبه ما استطاع ان يحمله لفظ الترمذي وقال حديث حسن
وقد روي من غير وجه عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم
يكون في امتي المهدي ان قصر فسبع والا فتسع فتنعم فيه امتي نعمة لم يسمعوا
مثلها قط تؤتى الارض اكلها ولا تدخر منه شيئا والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل
فيقول يا مهدي اعطني فيقول خذ انتهى وزيد العمي وان قال فيه الدارقطني واحمد
بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد احمد انه فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى
الا انه قال فيه ابو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتج به وقال يحيى بن معين
في رواية اخرى لا شيء وقال مرة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجوزجاني متماسك
وقال ابو زرعة ليس بقوي واهي الحديث ضعيف وقال ابو داود ليس بذاك

وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي عامة ما يرويه ومن يروي
عنهم ضعفاء على ان شعبة قد روى عنه ولعل شعبة لم يرو عن اضعف منه وقد يقال
ان حديث الترمذي وقع تفسيرا لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في اخر امتي خليفة يحثي المال حثيا لا يعده عدا
ومن حديث ابي سعيد قال من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ومن طريق اخر عنهما قال
يكون في اخر الزمان خليفة يقسم المال لا يعده انتهى واحاديث مسلم لم يقع فيها
ذكر المهدي ولا دليل يقوم على انه المراد بها ورواه الحاكم ايضا من طريق عوف الاعرابي
عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم
الساعة حتى تملأ الارض ظلما وجورا وعدوانا ثم يخرج من اهل بيتي من يملأها قسطا
وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين
ولم يخرجاه **ورواه الحاكم** ايضا من طريق سليمان بن عبيد عن ابي الصديق الناجي
عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يخرج في اخر امتي المهدي
يسقيه الله الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم
الامة يعيش سبعا او ثمانيا يعني حججا وقال فيه حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع
ان سليمان بن عبيد لم يخرج له احد من الستة لكن ذكره ابن حبان في الثقات
ولم يرد ان احدا تكلم فيه **ثم رواه الحاكم** ايضا من طريق اسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن
مطر الوراق وابي هارون العبدي عن ابي الصديق الناجي عن ابي سعيد ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الارض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعا
او تسعا فيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال الحاكم فيه هذا حديث
صحيح على شرط مسلم وانما جعله على شرط مسلم لانه اخرج عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر
الوراق واما شيخه الاخر وهو ابو هارون العبدي فلم يخرج له وهو ضعيف
جدا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط اقوال الائمة في تضعيفه واما الراوي له
عن حماد بن سلمة وهو اسد بن موسى يلقب اسد السنة وان قال البخاري مشهور
الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به ابو داود والنسائي الا انه قال مرة اخرى
ثقة لو لم يصنف كان خيرا له وقال فيه محمد بن حزم منكر الحديث **ورواه**
الطبراني في معجمه الاوسط من طريق ابي واصل عبد الحميد بن واصل عن ابي الصديق
الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي احد بني بهدلة عن ابي سعيد الخدري قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من امتي يقول بسنتي ينزل الله
عز وجل له القطر من السماء ويخرج له الارض من بركاتها تملأ الارض منه قسطا

وعد لا كما ملئت جورا وظلما يعمل على ذلك سبع سنين وينزل بيت المقدس
وقال فيه الطبراني رواه جماعة عن ابي الصديق ولم يدخل احد منهم بينهم وبين
ابي سعيد احدا الا ابا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن ابي سعيد انتهى
وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن ابي حاتم ولم يعرفه باكثر مما في هذا الاسناد من روايته
عن ابي سعيد ورواية ابي الصديق عنه وقال الذهبي في هذا الميزان انه مجهول
لكن ذكره ابن حبان في الثقات واما ابو الواصل الذي رواه عن ابي الصديق
فلم يخرج له احد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية
وقال فيه يروي عن انس وروى عنه شعبة وعتاب بن بشير وخرج ابن ماجة
في كتاب السنن له عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن ابي زياد عن ابراهيم عن علقمة
عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ اقبل فتية من بني هاشم
فلما راهم النبي صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه وتغير لونه قال فقلت ما نزال
نرى في وجهك شيئا نكرهه فقال انا اهل البيت اختار الله لنا الاخرة على الدنيا
وان اهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدا وتطريدا حتى ياتي قوم من قبل
المشرق معهم رايات سود فيسئلون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون
فيعطون ما سئلوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من اهل بيتي فيملاها قسطا كما ملاؤها
جورا فمن ادرك ذلك منكم فلياتهم ولو حبوا على الثلج وهذا الحديث يعرف عند
المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن ابي زياد راويه قال فيه شعبة كان
رفاعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة وقال محمد بن فضيل كان من كبار
الشيعة وقال احمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرة حديثه ليس بذلك وقال
يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جائز الحديث وكان باخرة يلقن وقال
ابو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابو حاتم ليس بالقوي وقال
الجوزجاني سمعتهم يضعفون حديثه وقال ابو داود لا اعلم احدا ترك حديثه
وغيره احب الي منه وقال ابن عدي هو من شيعة اهل الكوفة ومع ضعفه يكتب
حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالاكثرون على ضعفه وقد صرح
الائمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله
وهو حديث الرايات فقال وكيع بن عبد الله فيه ليس بشيء وكذلك قال
احمد بن حنبل وقال ابو قدامة سمعت ابا اسامة يقول في حديث يزيد عن ابراهيم
في الرايات لو حلف عندي خمسين يمينا قسامة ما صدقته اهذا مذهب
ابراهيم اهذا مذهب علقمة اهذا مذهب عبد الله واورد العقيلي هذا الحديث

في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن ماجة عن علي رضي الله عنه من رواية
ياسين العجلي عن ابراهيم بن محمد بن الحنفية عن ابيه عن جده قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا اهل البيت يصلحه الله في ليلة وياسين العجلي
وان قال فيه ابن معين ليس به باس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه اللفظة
في اصطلاحه قوية في التضعيف جدا واورده ابن عدي في الكامل والذهبي
في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج
الطبراني في معجمه الاوسط عن علي رضي الله عنه انه قال للنبي صلى الله عليه وسلم امنا
المهدي ام من غيرنا يا رسول الله قال بل منا يختم الله بنا كما بنا فتح وبنا يستنقذون
من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا الف بين قلوبهم
بعد عداوة الشرك قال علي امؤمنون ام كافرون قال مفتون وكافر انتهى وفيه
عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمرو بن جابر الحضرمي وهو اضعف
منه وقال احمد بن حنبل روى عن جابر مناكير وبلغني انه كان يكذب وقال النسائي
ليس بثقة وقال ابن لهيعة كان شيخا احمق ضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب
ويجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا علي قد مر في السحاب وخرج الطبراني ايضا
عن علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في اخر الزمان
فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا اهل الشام
ولكن سبوا شرارهم فان فيهم الابدال يوشك ان يرسل على اهل الشام سيب
من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من اهل
بيتي في ثلاث رايات المكثر يقول هم خمسة عشر الفا والمقلل يقول اثنا عشر الفا امارتهم
امت امت يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك فيقتلهم
الله جميعا ويرد الله الى المسلمين الفتهم ونعمتهم وقاصيهم ودانيهم انتهى وفيه
عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف ورواه الحاكم في مستدركه وقال
صحيح الاسناد ولم يخرجاه وفي روايته ثم يظهر الله الهاشمي فيرد الله الناس
الى الفتهم الى اخره وليس في طريقه ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر وخرج الحاكم
في المستدرك عن علي رضي الله عنه من رواية ابي الطفيل عن محمد بن الحنفية قال كنا عند
علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي هيهات ثم عقد بيده سبعا فقال
رجل يخرج في اخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل فيجمع الله تعالى له قوما قزع
كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم لا يستوحشون الى احد ولا يفرحون
باحد دخل فيهم على عدة اصحاب بدر لم يسبقهم الاولون ولم يدركهم الاخرون

وعلى عدد اصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر قال ابو الطفيل قال ابن الحنفية
اتريده قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الاخشبين قلت لا جرم والله لا اريمهما
حتى اموت فمات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى
وانما هو على شرط مسلم فقط فان فيه عمار الذهبي ويونس بن ابي اسحق ولم يخرج
لهما البخاري وفيه عمرو بن محمد العنقزي ولم يخرج له البخاري احتجاجا بل استشهادا
مع ما ينضم الى ذلك من تشيع عمار الذهبي وهو وان وثقه احمد وابن معين وابو حاتم
والنسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان ان بشر بن مروان قطع
عرقوبيه قلت في اي شيء قال في التشيع وخرج ابن ماجه عن انس بن مالك
رضي الله عنه من رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن علي بن زياد اليمامي عن عكرمة
بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن انس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول نحن ولد عبد المطلب سادة اهل الجنة وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين
والمهدي انتهى عكرمة ابن عمار وان اخرج له مسلم فانما اخرج له متابعة وقد ضعفه بعض
ووثقه اخرون وقال ابو حاتم الرازي وهو مدلس فلا يقبل الا ان صرح بالسماع
وعلي بن زياد قال الذهبي في الميزان لا يدرى من هو ثم قال الصواب فيه
عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن شيبة وقال
فيه يحيى بن معين ليس به باس فقد تكلم فيه الثوري قالوا لانه راه يفتي في مسائل
ويخطئ فيها وقال احمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعي انه سمع عرض كتب مالك
والناس ينكرون عليه ذلك وهو هنا ببغداد ولم يحج فكيف سمعها وجعله الذهبي
ممن لم يقدح فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد
عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لي عبد الله ابن عباس لو لم اسمع انك
مثل اهل البيت ما حدثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه في ستر لا اذكره
لمن يكره قال فقال ابن عباس منا اهل البيت اربعة منا السفاح ومنا المنذر
ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال له مجاهد فبين لي هؤلاء الاربعة فقال
اما السفاح فربما قتل انصاره وعفى عن عدوه واما المنذر فانه يعطي المال الكثير
ولا يتعاظم في نفسه ويمسك القليل من حقه واما المنصور فانه يعطي النصر على عدوه
الشطر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة
شهرين والمنصور يرهب منه عدوه مسيرة شهر واما المهدي الذي يملأ الارض
عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم السباع وتلقي الارض افلاذ كبدها قال قلت
وما افلاذ كبدها قال امثال الاسطوانة من الذهب والفضة انتهى قال الحاكم

هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن ابيه
واسمعيل ضعيف وابوه ابرهيم وان خرج له مسلم فالاكثرون على تضعيفه وخرج
ابن ماجه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتتل عند كنزكم ثلثة كلهم ابن
خليفة ثم لا تصير الى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلا
لم يقتله قوم ثم ذكر شيئا لا احفظه فقال فاذا رايتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فانه
خليفة الله المهدي انتهى ورجاله رجال الصحيح الا ان فيه ابا قلابة الجرمي وذكر الذهبي
وغيره انه مدلس وفيه سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن
ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالتشيع وعمي
في اخر عمره فخلط قال ابن عدي حدث باحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها احد ونسبوه
الى التشيع انتهى وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدي من طريق
ابن لهيعة عن ابي زرعة عمرو بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه
قال الطبراني تفرد به ابن لهيعة وقد تقدم لنا في حديث علي الذي خرجه الطبراني في معجمه
الاوسط ان ابن لهيعة ضعيف وان شيخه عمرو بن جابر اضعف منه وخرج
البزار في مسنده والطبراني في معجمه الاوسط واللفظ للطبراني عن ابي هريرة عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال يكون في امتي المهدي ان قصر فسبع والا فثمان والا فتسع تنعم
امتي فيها نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تدخر الارض شيئا من النبات
والمال كدوس يقوم الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار تفرد
به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا نعلم تابعه عليه احد وهو وان وثقه ابو داود وابن
حبان ايضا بما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين مرة صالح ومرة ليس به باس
فقد اختلفوا فيه وقال ابو زرعة ليس عندي بذاك وقال عبد الله بن احمد بن حنبل
رايت محمد بن مروان العقيلي وحدث باحاديث وانا شاهد لم اكتبها تركتها على عمد
وكتب بعض اصحابنا عنه كانه ضعفه وخرج ابو يعلى الموصلي في مسنده عن ابي هريرة
قال حدثني خليلي ابو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل
من اهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت وكم يملك قال خمس واثنتين قال
قلت ما خمس واثنتين قال لا ادري انتهى وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك
وقال فيه ابو حاتم لا يحتج به وقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم يلتفتوا الى قول
ابي حاتم لا يحتج به الا ان فيه مرجا بن رجاء اليشكري وهو مختلف فيه قال ابو زرعة
ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال ابو داود ضعيف وقال مرة صالح وعلق له

البخاري في صحيحه حديثا واحدا **وخرج** ابو بكر البزار في مسنده والطبراني في معجمه الكبير
والاوسط عن قرة بن اياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتملان جورا وظلما
فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا مني اسمه اسمي واسم ابيه اسم ابي يملاها عدلا
وقسطا كما ملئت جورا وظلما فلا تمنع السماء شيئا من قطرها ولا الارض شيئا من نباتها
يلبث فيكم سبعا او ثمانيا يعني سنين انتهى وفيه داود بن المحبر بن قحذم عن ابيه وهما
ضعيفان جدا **وخرج** الطبراني في معجمه الاوسط عن ام حبيبة قالت سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج ناس من قبل المشرق يريدون رجلا عند البيت حتى
اذا كانوا ببيداء من الارض خسف بهم فيلحق بهم من تخلف فيصيبهم ما اصابهم قلت
يا رسول الله كيف بمن كان اخرج مستكرها قال يصيبهم ما اصاب الناس ثم يبعث كل
كل امرء على نيته انتهى وسلمة بن الابرش هو ضعيف وفيه محمد بن اسحق وهو مدلس
وقد عنعن ولا يقبل الا ان يصرح بالسماع **وخرج** الطبراني في معجمه الاوسط عن ابن عمر
قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المهاجرين والانصار وعلي بن ابي طالب عن يساره
والعباس عن يمينه اذ تلاحى العباس ورجل من الانصار فاغلظ الانصاري للعباس فاخذ
رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد العباس وبيد علي فقال سيخرج من صلب هذا حتى يملأ
الارض ظلما وجورا وسيخرج من صلب هذا حتى يملأ الارض قسطا وعدلا فاذا رأيتم ذلك
فعليكم بالفتى التميمي فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي انتهى وفيه
عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان انتهى **وخرج** الطبراني في معجمه
الاوسط عن طلحة بن عبيد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ستكون فتنة لا يهدأ منها
جانب الا جاش جانب حتى ينادي مناد من السماء ان اميركم فلان وفيه المثنى بن الصباح
وهو ضعيف جدا وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي وانما ذكروه في ابوابه وترجمته
استئناسا هذه جملة الاحاديث التي خرجها الائمة في شان المهدي وخروجه في اخر الزمان
وهي كما رايت لم يخلص منها من النقد الا القليل او الاقل منه وربما تمسك المنكرون
لشانه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن ابان بن صالح عن ابي عياش عن الحسن البصري عن انس
بن ملك عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا مهدي الا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين
في محمد بن خالد الجندي انه ثقة وقال البيهقي تفرد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل
مجهول واختلف عليه في اسناده فمرة يرويه كما تقدم وينسب ذلك لمحمد
بن ادريس الشافعي رضي الله عنه ومرة يروى عن بن خالد عن ابان عن الحسن عن النبي
صلى الله عليه وسلم مرسلا قال البيهقي فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان
بن ابي عياش وهو متروك عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة

فالحديث

وفي الحديث ضعيف مضطرب وقد قال ان معنى لا مهدي الا عيسى اي لا يتكلم في المهدي
الا عيسى يحاولون بهذا التاويل رد الاحتجاج به او الجمع بينه وبين الاحاديث وهو
مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق **واما المتصوفة** فلم يكن احد منهم يخوضون
في شيء من هذا وانما كان كلامهم في الاعمال والمجاهدة وما يحصل عنها من نتائج المواجد والاحوال
وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله عنه والقول بامامته
وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري من الشيخين كما ذكرناه
في مذاهبهم ثم حدث فيهم من بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت التواليف
في مذاهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون الوهية الامام بنوع الحلول واخرون يدعون
رجعة من مات من الائمة بنوع التناسخ او الحقيقة واخرون ينتظرون مجيء من يقطع
بموته منهم واخرون ينتظرون عود الامر في ال البيت مستدلين على ذلك بما قدمناه
من احاديث المهدي وغيرها ثم حدث ايضا عند المتاخرين من المتصوفة الكلام في الكشف
وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية
والرافضة لقولهم بالوهية الائمة او حلول الاله فيهم فظهر منهم ايضا القول بالقطب
والابدال وكانه يحاكي مذهب الرافضة في الامام والنقباء واشربوا اقوال الشيعة وتوغلوا
في الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لباس الخرقة ان عليا رضي الله عنه
البسها الحسن البصري واخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عندهم بالجنيد
من شيوخهم ولا نعلم هذا عن علي رضي الله عنه من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة
بعلي رضي الله عنه بل الصحابة كلهم اسوة في طرق الدين وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة
من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها ما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه ثم امتلات
كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتاخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظر
وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض وكانه مبني على اصول واهية من الفريقين
وربما يستند بعضهم في ذلك الى كلام المنجمين في القرانات وهو من نوع الكلام في الملاحم
وياتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا واكثر من تكلم من هولاء المتصوفة المتاخرين
في شان الفاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب وابن قسي في كتاب خلع النعلين
واكثر كلماتهم في شانه الغاز وامثال وعبد الحق بن سبعين وابن ابي واطيل من تلميذه
في شرحه لكتاب خلع النعلين واكثر كلماتهم في شانه الغاز وامثال وربما يصرحون في الاقل
او يصرح مفسروا كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن ابي واطيل ان النبوة بها ظهر
الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود
تجبرا وتكبرا وباطلا قالوا ولما كان المعهود من سنة الله رجوع الامور الى ما كانت وجب

ان يحيى امره النبوة والحق بالولاية ثم بخلافتهما ثم يعقبها الدجل بمكان الملك والتسلط
ثم يعود الكفر بحاله كما كان قبل النبوة يشيرون بهذا الى ما وقع بعد النبوة من الخلافة
ثم بعدها وهي ثلاث مراتب فكذلك ايضا الولاية التي لهذا الفاطمي الذي يحيى امر النبوة
والحق ثم خلافة امره بعده ثم الدجل بعدها وهو الباطل الذي كنى عنه بخروج الباطل
فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة
قالوا ولما كان امر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذي لا يوهنه انكار من لا يزاول
امره وجب ان تكون الامامة فيمن هو اخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم
اما ظاهرا فكبني عبد المطلب واما باطنا فمن كان من حقيقة الال والال من اذا حضر لم يغب
من هو اله وابن العربي الحاتمي سماه في كتاب عنقا مغرب من تاليفه خاتم الاولياء ويكنى
عنه بلبنة الفضة اشارة الى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم
مثلي فيمن قبلي من الانبياء كمثل رجل ابتنى بيتا واكمله حتى اذا لم يبق منه الا موضع لبنة
فانا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة التي اكملت البنيان ومعناه النبي الذي
حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب
الكمال فيها خاتما للاولياء اي حائزا للرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الانبياء
حائزا للرتبة التي فيها خاتمة النبوة ولما كنى الشارع عن تلك الرتبة الخاتمة بلبنة البيت
في الحديث المذكور وهي على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة في التمثيل ففي النبوة لبنة
ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين المرتبتين كما بين الذهب والفضة
فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي
الفاطمي المنتظر وذاك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء وقال ابن العربي فيما نقل
ابن ابي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من اهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون
بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلثة يريد عددها بحساب الجمل وهي الخاء
المعجمة بواحدة من فوق بستمائة والفاء اخت القاف بثمانين والجيم المعجمة بواحدة
من اسفل بثلاثة وذلك ستمائة وثلث وثمانون سنة وهو في اخر القرن السابع
ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلدين لهم على ان المراد بتلك المدة مولده
وعبر بظهوره عن مولده وان خروجه يكون عند العشر والسبع مائة وانه الامام الناجم
من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلث وثمانين
وستمائة فيكون عمره عند خروجه ستا وعشرين سنة قال وزعموا ان خروج الدجال
يكون سنة ثلاث واربعين وسبع مائة من اليوم المحمدي وابتداء اليوم المحمدي عند
من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى تمام الف سنة وقال ابن ابي واطيل في شرحه

كتابه

كتاب التعيين ان الولي المنتظر القايم بامر الله المشار اليه بمحمد المهدي وخاتم الاولياء
ليس هو بنبي وانما هو ولي ابتعثه روحه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه كالنبي
في امته وقال علماء امتي كانبياء بني اسرائيل ولم تزل البشرى تتتابع به من اول اليوم المحمدي
الى قبيل الخمس مائة نصف اليوم وتاكدت وتتابعت بتباشير المشائخ بتقريب وقته
وازدلاف زمانه منذ انقضت الى هلم جرا قال وذكر الكندي ان هذا الولي هو الذي
يصلي بالناس صلوة الظهر ويجدد الاسلام ويظهر العدل ويفتح جزيرة الاندلس
ويصل الى رومة فيفتحها ويسير الى المشرق فيفتحه ويفتح قسطنطينية ويصير له ملك الارض
فيتقوى المسلمون ويعلو الاسلام ويظهر دين الحنيفية فان صلوة الظهر الى وقت
صلوة العصر وقت صلوة قال عليه السلام ما بين هذين وقت وقال الكندي ايضا
الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتتح بها سور القران جملة عددها بحساب الجمل سبع
مائة وثلث واربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلوة العصر فيصلح
الدنيا ويمشي الشاة مع الذئب ثم يبلغ ملك العجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة
وستون عاما عدد الحروف المعجمة وهي ق ي ن دولة العدل منها اربعون عاما قال
ابن ابي واطيل ما ورد من قوله لا مهدي الا عيسى فمعناه لا مهدي تساوي هدايته
وقيل لا يتكلم في المهد الا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريج وغيره وقد جاء في الصحيح انه قال
لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة او يكون عليهم اثنى عشر خليفة يعني قريشا وقد اعطى
الوجود ان منهم من كان في اول الاسلام ومنهم من سيكون في اخره وقال الخلافة
بعدي ثلثون او احد وثلثون او ستة وثلثون وانقضاؤها في خلافة الحسن واول
امر معاوية فيكون امر معاوية خلافة اخذا باوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء واما
سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز ثم الباقون خمسة من اهل البيت من ذرية علي يؤيده
قوله انك لذو قرنيها يريد الامة يعني انك خليفة في اولها وذريتك في اخرها وربما
استدل بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاول هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس
من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك
قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله وقد انفق عمر ابن
الخطاب رضي الله عنه كنوز كسرى في سبيل الله والذي يهلك قيصر وينفق كنوزه في
سبيل الله هو المنتظر حين يفتح القسطنطينية فنعم الامير اميرها ونعم الجيش ذلك كذا
قال صلى الله عليه وسلم ومدة حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل عشر وجاء ذكر اربعين
وفي بعض الروايات سبعين فاما الاربعون فانها مدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقين
من اهله القايمين بامره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر اصحاب النجوم والقرانات

ان مدة بقاء امره واهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون على هذا
جاريا على الخلافة والعدل اربعين او سبعين ثم تختلف الاحوال فتكون ملكا انتهى
كلام ابن ابي واطيل وفي موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلوة العصر من اليوم المحمدي
حين يمضي ثلاثة ارباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن اسحق في كتاب الجفر الذي ذكر
القرانات انه اذا وصل القران الى الثور على راس ضح بحرفي الضاد المعجمة والحاء المهملة
يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسيح فيحكم في الارض ما شاء الله قال
وقد ورد في الحديث ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ينزل بين مهرودتين
يعني حلتين مزعفرتين صفراوين ممصرتين واضعا كفيه على اجنحة الملكين
له لمة كانما خرج من ديماس اذا طاطا راسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ
كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مربوع الخلق وفي حديث آخر انه يتزوج في الغرب وتلد زوجته
والغرب دلو البادية يريد انه يتزوج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد اربعين
عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء ان ابا بكر
وعمر يحشران بين نبيين قال ابن ابي واطيل والشيعة تقول انه هو المسيح مسيح
المسائح من آل محمد وعليه حمل بعضهم حديث لا مهدي الا عيسى اي لا مهدي يكون الا المهدي
الذي نسبته الى الشريعة المحمدية نسبة عيسى الى الشريعة الموسوية في الاتباع وعدم
وعدم النسخ الى كلام من امثال هذا كثير يعينون فيه الوقت والرجل والمكان فينقضي
الزمان ولا اثر لشيء من ذلك فيرجعون الى تجديد راي آخر منتحل كما تراه من مفهومات
لغوية واشياء تخييلية واحكام نجومية في هذا انقضت اعمار الاول منهم والآخر واما المتصوفة
الذين عاصرناهم فاكثرهم يشير الى ظهور رجل مجدد لاحكام الملة ومراسم الحق ويتحينون
ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه
سمعناه من جماعة اكبرهم ابو يعقوب الفارسي كبير الاولياء بالمغرب كان في اول
المائة الثامنة واخبرني بذلك عنه حافده ابو زكريا يحيى عن ابيه ابي محمد عبد الله
عن ابيه الولي ابي يعقوب المذكور هذا آخر ما اطلعنا عليه او بلغنا من كلام هولاء المتصوفة
وما اورده اهل الحديث من اخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا والحق
الذي ينبغي ان يتقرر لديك انه لا تتم دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة
او عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم امر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل
بالبراهين الطبيعية التي اريناكها هنالك وعصبية الفاطميين والطالبيين
بل وقريش اجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد امم آخرون استعلت عصبيتهم
على عصبية قريش الا ما بقي بالحجاز في مكة وينبع والمدينة من الطالبيين من بني حسن وبني حسين

وبني

وبني جعفر منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرقون
في مواطنهم وامارتهم وآرائهم يبلغون الآلاف من الكثرة فان صح ظهور هذا
المهدي فلا وجه لظهور دعوته الا بان يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم في اتباعه
حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها واما على غير هذا الوجه
مثل ان يدعو الناس فاطمي الى مثل هذا الامر في افق من آفاق الارض من غير عصبية
ولا شوكة الا مجرد نسبة في اهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما اسلفناه من البراهين الصحيحة
واما ما تدعيه العامة والاغمار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك الى عقل يهديه ولا علم
يفيده فيتحينون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور رجل
فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر كما قدمناه واكثر ما يتحينون في القاصية من الممالك واطراف
العمران مثل الزاب بافريقية والسوس من المغرب وتجد الكثير منهم من ضعفاء البصائر
يقصدون رباطا بماسة من ارض السوس يتحينون هنالك لقاءه زعما منهم انه يظهر
بذلك الرباط وانه يبايع هنالك ولما كان ذلك الرباط بالقرب من الملثمين
من كدالة واعتقادهم انه منهم او قائمون بدعوته من غير ما مستند لهم الا غرابة تلك
الامم وبعدهم عن يقين المعرفة باحوالها من كثرة او قلة او ضعف او قوة ولبعد القاصية
عن منال الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام في ظهوره هنالك بخروجه
عن ربقة الدولة ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هذا ولقد يقصد
ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تميته النفس تمامها وسوسة
وحمقا وقتل كثير منهم اخبرني شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط ماسة
لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف
يعرف بالتويزري نسبة الى توزر مصغرا وادعى انه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير
من اهل السوس من ضالة وكزولة وعظم امره وكاد يستفحل وخافه رؤساء المصامدة
على امرهم فدس عليه السكسيوي من قتله بياتا وانحل امره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة
السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى انه الفاطمي واتبعه الدهماء
من غمارة ودخل مدينة بادس عنوة وحرق اسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة
ولم يتم امره وكثير من هذا النمط واخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا وهو انه صحب
في حجه من رباط العباد وهو مدفن الشيخ ابي مدين في جبل تلمسان المطل عليها رجلا من اهل
البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلميذ والخادم قال وكان الرجال
من موطنه يتلقونه بالنفقات في اكثر البلدان قال وتأكدت الصحبة بيننا في تلك
الطريق فانكشف لي امرهم وانهم انما جاءوا من مواطنهم بكربلاء لطلب هذا الامر

وانتحال دعوة الفاطمي بالمغرب فلما عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب
يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت
وقتنا ويدل هذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر في ان الامر لا يتم الا بالعصبية
المكافية لاهل الوقت فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولا عصبية له وان شوكة
بني مرين لذلك العهد لا يقاومها احد من اهل المغرب استكان ورجع الى الحق واقصر
عن مطامعه وبقي عليه ان يستيقن ان عصبية الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت
لا سيما في المغرب الا ان التعصب لشانه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وانتم لا تعلمون
وقد كان بالمغرب لهذه العصور القريبة وفي المغرب من سكانه نزعة من الدعاء الى الحق
والقيام بالسنة ولا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان
الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه واكثر ما يعنون
باصلاح السابلة لما ان اكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طبيعة معاشهم فياخذون
انفسهم في تغيير المنكر باصلاح السابلة ما استطاعوا الا ان الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم
لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة
والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم على مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية
التي كانوا عليها قبل توبتهم ومنها توبتهم فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة
غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والبغي وافساد
السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش باقصى جهدهم وشتان بين طلب
ذلك من صلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفاقهما ممتنع فلا تحصل لهم صبغة في الدين
ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة منهم
في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل امرهم وتلاشت عصبيتهم
وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من بني كعب من سليم يسمى قاسم بن مرا في المائة السابعة
ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان
اشد دينا من الاول واقوى طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب امر تابعه لما ذكرناه
حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح ومن بعد ذلك ظهر ناس
يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيه وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل
فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من امرهم سنة الله في عباده

فصل في حدثان الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم ان من خواص النفوس البشرية التشوق الى عواقب امورهم وعلم ما يحدث
لهم من حياة او موت او خير او شر سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا او معرفة

مدد الدول وبقائها فالتطلع الى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها ولذلك تجد الكثير
من الناس يتشوفون الى الوقوف على ذلك في المنام والاخبار عن الكهان لمن قصدهم
بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد تجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون
المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في
الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو وتروح عليهم نسوان
المدينة وصبيانها بل وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب امورهم في الكسب
والجاه والمعاشرة والعداوة وامثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق
بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ونظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب
المندل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لما تقرر في الشريعة من ذم ذلك وان البشر
محجوبون عن الغيب الا من اطلعه الله عليه من عنده في نوم او ولاية **واكثر ما يعتني بذلك**
ويتطلع اليه الملوك والامراء في آماد دولهم ولذلك انصرفت العناية من اهل
العلم اليه وكل امة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن او منجم او ولي في مثل ذلك
من ملك يرتقبونه او دولة يحدثون انفسهم بها وما يحدث لهم من الحروب
والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى
مثل ذلك الحدثان وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك
وقد اخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشق وسطيح في تأويل
رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن اخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم
ثم ظهور الملة والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبذان بعث
بها اليه كسرى مع عبد المسيح واخبره بظهور الدولة للعرب وكذا كان في جيل البربر
كهان وكان من اشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات حدثانية
على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك
والدولة بالمغرب وهم يزعمون تارة انه ولي وتارة انه كاهن وقد يزعم بعض
مزاعمهم انه كان نبيا لان تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله اعلم وقد يستند الجيل
في ذلك الى خبر الانبياء ان كانوا لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان انبياءهم المتعاقبين
كانوا يخبرونهم بمثله عند ما يعنتونهم في السؤال عنه واما في الدولة الاسلامية فوقع
منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع الى الدول واعمارها على
الخصوص وكان المعتمد في ذلك صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصا
مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما وربما اقتبسوا بعض
ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة ووقع لجعفر الصادق وامثاله من اهل

البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله اعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان
مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء في ذويهم واعقابهم وقد قال صلى الله عليه وسلم
ان فيكم محدثين فهم اولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة واما
بعد صدر الملة وحين عكف الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء
الى اللسان العربي فاكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر
الامور العامة من القرانات وفي المواليد والمسائل وسائر الامور الخاصة
من الطوالع لها وهي شكل الفلك عند حدوثها فلنذكر الان ما وقع لاهل الاثر في ذلك
ثم نرجع الى كلام المنجمين اما اهل الاثر فلهم في مدة الملة وبقاء الدنيا ما وقع في كتاب
السهيلي فانه نقل عن الطبري ما يقتضي ان مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة
ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك انه نقل عن ابن عباس ان الدنيا
جمعة من جمع الاخرة ولم يذكر لذلك دليلا وسره والله اعلم تقدير الدنيا بايام
خلق السموات والارض وهي سبعة ثم اليوم بالف سنة لقوله تعالى وان يوما
عند ربك كالف سنة مما تعدون قال وقد ثبت في الصحيح انه صلى الله عليه وسلم
قال اجلكم في اجل من كان قبلكم من صلوة العصر الى غروب الشمس وقال بعثت انا والساعة
كهاتين واشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلوة العصر وغروب الشمس
عند صيرورة ظل كل شيء مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك فضل
السبابة على الوسطى فتكون المدة نصف سبع الجمعة كلها وهو خمسمائة سنة ويؤيده
قوله صلى الله عليه وسلم لن يعجز الله ان يؤخر هذه الامة نصف يوم فدل ذلك على ان مدة
الدنيا قبل الملة خمسة الاف وخمسمائة سنة وعن وهب بن منبه انها خمسة الاف وستمائة
اعني الماضي وعن كعب ان مدة الدنيا كلها ستة الاف سنة ثم قال السهيلي
وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فاما قوله لن يعجز الله
ان يؤخر هذه الامة نصف يوم فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف واما قوله
بعثت انا والساعة كهاتين فانما فيه الاشارة الى القرب وانه ليس بينه وبين
الساعة نبي غيره ولا شرع غير شرعه ثم رجع السهيلي الى تعيين امد الملة من مدرك
اخر لو ساعده التحقيق وهو انه جمع الحروف المقطعة في اوائل السور بعد حذف
المكرر قال وهي اربعة عشر حرفا يجمعها قولك الم يسطع نص حق كره فاخذ عددها بحساب
الجمل فكان سبعمائة وثلثة اضاف الى المنقضي من الالف الاخرة قبل بعثته فهذه
هي مدة الملة قال ولا يبعد ان يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها
قلت وكونه لا يبعد لا يقتضي ظهوره ولا التعويل عليه والذي حمل السهيلي

على ذلك انما هو ما وقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث ابني اخطب من احبار
اليهود وهما ابو ياسر واخوه حيي حين سمعا الم من هذه الحروف المقطعة وتاولاها
على بيان المدة بهذا الحساب فبلغت احدى وسبعين فاستقربت المدة وجاء
حيي الى النبي صلى الله عليه وسلم يسئله هل مع هذا غيره فقال المص فقال الر ثم استزاد
فقال المر فكانت احدى وسبعين ومائتين فاستطال المدة وقال لقد لبس
علينا امرك يا محمد حتى ما ندري اقليلا اعطيت ام كثيرا ثم ذهبوا عنه فقال ابو ياسر
ما يدريكم لعله اعطي عددها كلها سبعمائة وثلاث واربعين سنة قال ابن اسحق
فنزل قوله تعالى منه ايات محكمات هن ام الكتاب الايات انتهى ولا يقوم من القصة
دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست
طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم انه
قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصيره حجة وليس ابو ياسر واخوه حيي ممن يؤخذ رأيه
في ذلك دليلا ولا من علماء اليهود لانهم كانوا بادية بالحجاز غفلا من الصنايع والعلوم
حتى من علم شريعتهم وفقه كتابهم وانما يتلقفون امثال هذا الحساب كما تتلقفه العوام
في كل ملة فلا ينهض للسهيلي دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثان دولها على الخصوص
مستند من الاثر اجمالي في حديث خرجه ابو داود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه
محمد بن يحيى الذهلي عن سعيد بن ابي مريم عن عبد الله ابن فروخ عن اسامة بن زيد الليثي
عن ابن قبيصة بن ذويب عن ابيه قال قال حذيفة ابن اليمان والله ما ادري انسي
اصحابي ام تناسوا والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قايد فتنة الى ان تنقضي
الدنيا يبلغ من معه ثلثمائة فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم ابيه واسم قبيلته وسكت
عليه ابو داود وقد تقدم انه قال في رسالته ما سكت عليه فهو صالح وهذا الحديث
اذا كان صحيحا فهو مجمل ويفتقر في بيان اجماله وتعيين مبهماته الى اثار اخرى تجود
اسانيدها وقد وقع هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع في الصحيحين
من حديث حذيفة ايضا قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا
فما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه حفظه من حفظه
ونسيه من نسيه قد علمه اصحابه هؤلاء ولفظ البخاري ما ترك شيئا الى قيام الساعة
الا من يحفظ ذكره وفي كتاب الترمذي من حديث ابي سعيد الخدري قال صلى بنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم يوما صلوة بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شيئا يكون الى قيام
الساعة الا اخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه انتهى وهذه الاحاديث كلها
محمولة على ما ثبت في الصحيح من احاديث الفتن والاشراط لا غير لانه المعهود

من الشارع صلوات الله عليه في امثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي انفرد
بها ابو داود وفي هذا الحديث من هذا الطريق شاذة منكرة مع ان الائمة اختلفوا في رجاله
فقال ابن ابي مريم في ابن فروخ احاديثه مناكير وقال البخاري تعرف منه وتنكر وقال
ابن عدي احاديثه غير محفوظة واسامة بن زيد وان خرج له في الصحيحين ووثقه ابن
معين فانما خرج له البخاري استشهادا وضعفه يحيى بن سعيد واحمد بن حنبل وقال
ابو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به وابن قبيصة بن ذويب مجهول فتضعف هذه الزيادة
التي وقعت لابي داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر وقد يستند ومن
في حدثان الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون ان فيه علم ذلك كله
من طريق الاثار او النجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اهل اصل ذلك
ولا مستنده واعلم ان كتاب الجفر كان اصله ان هارون بن سعيد العجلي وهو
راس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل
البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظايره
من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا
عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي
كتب منه لان الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم
وكان فيه تفسير القران وما في باطنه من المعاني غرايب مروية عن جعفر الصادق
وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وانما يظهر منه شواذ من الكلمات
لا يصحبها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه
او من رجال قومه فهم اهل الكرامات وقد صح عنه انه كان يحذر بعض قرابته بوقايع تكون
لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان
كما هو معروف واذا كانت الكرامات تقع لغيرهم فما ظنك بهم علما ودينا واثارة
من النبوة وعناية من الله بالاصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة وقد ينقل بين اهل
البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى الجفر وفي اخبار دولة العبيديين كثير منه
وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء ابي عبد الله الشيعي لعبيد الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب
وما حدثاه به وكيف بعثاه الى ابن حوشب داعيتهم باليمن فامره بالخروج الى المغرب
وبث الدعوة فيه على علم لقنه ان دولتهم تتم هنالك وان عبيد الله لما بنى المهدية
بعد استفحال دولتهم بافريقية قال بنيتها ليعتصم بها الفواطم ساعة من نهار واراهم
موقف صاحب الحمار بساحتها وبلغ هذا الخبر حافده المنصور فلما حاصره صاحب
الحمار ابو يزيد بالمهدية كان يسال عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه المكان

الذي عين جده عبيد الله فايقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية
الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عنهم كثيرة **واما المنجمون** فيستدلون في حدثان
الدول بالاحكام النجومية اما في الامور العامة مثل الملك والدول فمن القرانات
وخصوصا بين العلويين وذلك ان العلويين زحل والمشتري يقترنان في كل
عشرين سنة مرة ثم يعود القران الى برج اخر في تلك المثلثة من التثليث الايمن
ثم بعده الى اخر كذلك الى ان يتكرر في المثلثة الواحدة اثنتي عشرة مرة واربع عودات
في مائتين واربعين سنة ثم يعود فيستوفيها في ستين اخرى ثم يعود ثالثة ثم
رابعة فيستوفي المثلثة في اثنتي عشرة مرة واربع عودات في مائتين واربعين سنة
ويكون انتقاله من كل برج على التثليث الايمن وينتقل من المثلثة الى المثلثة التي تليها
اعني الى البرج الذي يلي البرج الاخير من القران الذي قبله في المثلثة وهذا القران الذي
هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة
واحدة من الفلك الى ان يعود اليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة والوسط
هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة وبعد مائتين واربعين سنة
ينتقل الى مثلثة اخرى والصغير هو اقتران العلويين في برج وبعد عشرين سنة يقترنان
في برج اخر على تثليثه الايمن في مثل درجه او دقايقه مثال ذلك وقع في القران اول دقيقة
من الحمل وبعد عشرين يكون اول دقيقة من القوس وبعد عشرين في الاسد وهذه كلها نارية
وهذا كله قران صغير ثم يعود الى اول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود
القران وبعد مائتين واربعين سنة ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعدها
وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية ثم المائية ثم يرجع الى اول الحمل في تسعمائة وستين
سنة وهو الكبير والقران الكبير يدل على عظام الامور مثل تغيير الملك والدول وانتقال
الملك من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك والصغير
على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن وعمرانها **ويقع اثناء هذه القرانات**
قران النحسين في برج السرطان في كل ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع وبرج السرطان
هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ فتعظم دلالة هذا القران في الفتن
والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء
والقحط ويدوم ذلك او ينتهي على قدر السعادة والنحوسة في وقت قرانهما وعلى قدر
تيسير الدليل فيه قال جراش بن احمد الحاسب في الكتاب الذي الفه لنظام الملك ورجوع
المريخ في العقرب له اثر عظيم في الملة الاسلامية لانه كان دليلها فان المولد
النبوي كان عند قران العلويين ببرج العقرب فلما رجع هنالك حدث

تشويش على الخلفاء وكثر المرض في اهل العلم والدين ونقصت احوالهم وربما انهدم
بعض بيوت العبادة ولقد يقال انه كان عند قتل علي رضي الله عنه ومروان من بني
امية والمتوكل من بني العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع احكام هذه القرانات
كانت في غاية الاحكام وذكر شاذان البلخي ان الملة تنتهي الى ثلثمائة وعشر سنين وقد ظهر
كذب هذا القول وقال ابو معشر يظهر بعد المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك
وقال جراش رايت في كتب القدماء المنجمين انهم اخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور
النبوة فيهم وان دليلهم الزهرة وكانت في شرفها فيبقى الملك فيهم اربعين سنة وقال
ابو معشر في كتاب القرانات ان القسمة اذا انتهت الى السابع والعشرين من الحوت
وفيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت
دولة للعرب وكان منهم نبي وتكون قوة ملكه ومدته على قدر ما بقي من درجات شرف
الزهرة وهي احد عشر درجات بتقريب من برج الحوت ومدة ذلك ستمائة وعشر سنين وكان
ظهور ابي مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة اول الحمل وصاحب الحد المشتري وقال
يعقوب بن اسحق الكندي ان مدة الملة تنتهي الى ستمائة وثلث وتسعين سنة قال
لان الزهرة كانت عند قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثمان عشرة دقيقة ودقايقها
ستون فتكون ستمائة وثلثا وتسعين سنة قال وهذه مدة الملة باتفاق الحكماء وتعضده
الحروف الواقعة في اوائل السور بحذف المكرر واعتباره بحساب الجمل قلت وهذا
هو الذي ذكره السهيلي والغالب ان الاول هو مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال
جراش سئل هرمزدافريد الحكيم عن مدة ازدشير وولده ملوك الساسانية فقال
دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطي اطول السنين واجودها اربعمائة وسبعا
وعشرين سنة ثم تدبر الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل العرب فيملكون لان طالع
القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها فدل انهم يملكون
الف سنة وستين سنة وسئل كسرى انوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج
الملك من فارس الى العرب فاخبره ان القائم منهم يولد لخمس واربعين من دولته
ويملك المشرق والمغرب والمشتري يفوض التدبير الى الزهرة وينتقل القران الى الهوائية
الى العقرب وهو مائي وهو دليل العرب فهذه الادلة تقضي للملة بمدة دور الزهرة
وهو الف وستون سنة وسئل كسرى انوشروان وزيره اليونس الحكيم عن ذلك
فقال مثل قول بزرجمهر وقال توفيل الرومي المنجم ايام بني امية ان دولة الاسلام
تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب
كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة فحينئذ يفتر

العمل

العمل بها وانما نجد ومن الاحكام ما يوجب خلاف الظن قال جراش واتفقوا ان خراب
العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات وذلك عند ما يقطع
قلب الاسد اربعا وعشرين درجة التي هو حد المريخ وذلك بعد مضي تسع وستين
سنة وذكر جراش ان ملك زابلستان وهي غزنة بعث الى المامون حكيمه ذوبان
اتحفه به في هديته وانه تصرف للمامون في الاختيارات لحروب اخيه ولعقد اللواء لطاهر
وان المامون اعظم حكمته فسئله عن مدة ملكهم فاخبره بانقطاع الملك من عقبه واتصاله
في ولد اخيه وان العجم يتغلبون على الخلافة الديلم اولا في دولة خمسين سنة
ثم تسوء حالهم حتى تظهر الترك من قبل المشرق فيملكون الى الشام والفرات ويفتحون
بلاد الروم ثم يكون ما يريده الله فقال له المامون من اين لك ذلك قال من كتب
الحكماء ومن احكام صصه بن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج قلت والترك الذين
اشار الى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية وقد انقرضت دولتهم اول القرن السابع
قال جراش وانتقال القران الى المثلثة المائية في برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلثين
وثمانمائة ليزدجرد وبعدها الى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلث وخمسين
قال والذي في الحوت هو اول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال
وتحويل السنة الاولى من القران الاول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين
وثمانمائة ولم يستوف الكلام على ذلك واما مستند المنجمين في دولة دولة على الخصوص
فمن القران الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث الدول
وجهاتها من العمران والقائمين بها من الامم وعدد ملوكهم واسمائهم واعمارهم ونحلهم واديانهم
وعوائدهم وحروبهم كما ذكر ابو معشر في كتابه في القرانات وقد تؤخذ هذه الدلالة من القران
الاصغر اذا كان الاوسط دالا عليه فمن هذا يوخذ الكلام في الدول وكان يعقوب
بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمامون وضع في القرانات الكائنة في الملة كتابا سماه
الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة
بني العباس وانهاء نهايته واشار الى انقراضها والحادثة على بغداد وانه يقع في منتصف
المائة السابعة وان انقراضها يكون بانقراض الملة ولم نقف على شيء من خبر هذا الكتاب
ولا راينا من وقف عليه ولعله غرق في كتبهم التي طرحها هولاكو ملك التتر في دجلة
عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم اخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء منسوب
الى هذا الكتاب يسمونه الجفر الصغير والظاهر انه وضع لبني عبد المؤمن لذكر الاولين
من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة ما تقدم عن ذلك من حدثانهم
وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكتب في الحدثان

وانظر ما نقله الطبري في اخبار المهدي عن ابي بديل من صنائع الدولة قال بعث الي الربيع والحسن
في غزاتهما مع الرشيد ايام ابيه فجئتهما جوف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة
يعني الحدثان واذا مدة المهدي فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى على المهدي
وقد مضى من دولته ما مضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيتم له نفسه قالا فما الحيلة فاستدعيت
عنبسة الوراق مولى ال بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشرة اربعين
ففعل فوالله لولا اني رايت العشرة في تلك الورقة والاربعين في هذه ما شككت انها
هي ثم كتب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول منظوما ومنثورا ورجزا ما شاء الله
ان يكتبوه وبايدي الناس متفرقة كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها في حدثان الملة على
العموم وبعضها في دولة دولة على الخصوص وكلها منسوب الى مشاهير من اهل الخليقة
وليس منها اصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة
ابن مرانة من بحر الطويل على روي الراء وهي متداولة بين الناس وتحسب العامة
انها من الحدثان العام فيطبقون كثيرا منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه
من شيوخنا انها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها
استيلاءهم على سبتة من ايدي موالي بني حمود وملكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم
بايدي اهل المغرب ايضا قصيدة تسمى التبعية اولها طربت وما ذاك مني طربة
وقد يطرب الطاير المغتصب • وما ذاك مني للهو اراه • ولكن لتذكار
بعض السبب • قريبا من خمس مائة بيت والف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين
واشار الى الفاطمي وغيره والظاهر انها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب ايضا
ملعبة من الشعر الزجلي منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها احكام القرانات لعصره
العلويين والنحسين وغيرهما وذكر ميتته قتيلا بفاس وكان كذلك يزعمون
واوله في صبغ ذا الازرق لشرقي خيارا • فافهموا يا قوم هذي الاشارا
نجم زحل اخبر بذي العلاما • وبدل اشكالا وهي سلاما • شاشية زرقا بدل
العماما • وطاشر ازرق بدل الغفارا • يقول في اخره • قد تم ذا التجنيب لانسان
يهودي • يصلب على واد فاس في يوم عيد • حتى تحته الناس من البوادي • وقتل
يا قوم على الغزارا • وابياته نحو الخمسمائة وهي في احكام • القرانات التي دلت
على دولة الموحدين • ومن ملاحم المغرب ايضا قصيدة من عروض المتقارب
على روي الباء في حدثان دولة بني ابي حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الابار
قال لي قاضي قسنطينة الخطيب الكبير علي بن باديس كان بصيرا بما يقول وله قدم
في علوم النجوم فقال لي ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الكاتب مقتول المستنصر

واما هذا رجل خياط من اهل تونس تعاطاه لشهرته مع شهرة الحافظ وكان والد
رحمه الله ينشد لنا ابياتا من هذه الملحمة وبقي بعضها في حفظي مطلعها • عدمت حزمي من
قلب • يغر بها رقة الاشنب • ومنها في ذكر اللحياني تاسع ملوك الدولة • فيبعث
من حيث قايدا • ويبقى هناك على مرقب • وياتي الى الشيخ اخباره فيقبل كالجمل
الاجرب • ويظهر من عدله سيرة • وتلك سياسات مستجلب • ومنها في ذكر احوال
تونس على العموم • فما رايت الرسوم امحت • ولم يرع حق لذي منصب • فخذ في الرحيل
عن تونس ودع معالمها واذهب • فسوف تكون بها فتنة • تضيف البريء الى المذنب
ووقفت في المغرب على ملحمة اخرى في دولة بني ابي حفص هولاء بتونس فيها بعد السلطان
ابي يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر اخيه محمد يقول فيه • وبعد ابو عبد الاله شقيقه • ويعرف
بالواثق في نسخة الاصل الا ان هذا الرجل لم يملك بعد اخيه وكان يمني بذلك نفسه
الى ان هلك • ومن ملاحم المغرب ايضا الملعبة المنسوبة الى الهوثني على لغة العامة في عروض
البلد اولها • وعني يا دمعي لشهان • فترت الامطار ولم تفتر • واشتقت كلها الحوران
وانتي تملي وتتغدر • البلدان كلها تروى • فاو قانا مثل ما تدري • واثنين الصيف
والشتوا والقاكاو الربيع تجري • قال حين صحت الدعوا • وعني يبكي من عذري
اياد برفي ذا الازمان • ذا القرن سبتة وتمر • وهي طويلة محفوظة بين عامة
اهل المغرب الاقصى والغالب عليها الوضع لانه لم يصح منها قول الا على تاويل يحرفه
العامة او يجازف فيه من ينتحلها من الخاصة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن
العربي الحاتمي في كلام طويل شبه الالغاز لا يعلم تاويله الا الله تتخلله اوفاق عددية ورموز
ملغوزة واشكال حيوانات تامة وروس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي اخرها
قصيدة على روي اللام والغالب انها كلها غير صحيحة لانها لم تبن على اصل علمي من نجامة
ولا غيرها ومن غريب ما سمعت بعض الخواص ينقلونه بمصر عن ملحمة ابن العربي ولعلها
غير هذه انه تكلم على طالع بناء القاهرة وانه جعل مدة عمرانها اربع مائة وستين سنة
من دلالات ذلك الطالع النجومية وينتهي ذلك الى الثلاثين بعد الثمان مائة لانها
اذا حملناها على الاربع مائة والستين حساب القمري لانها شمسية فنزيد عليها حساب
ثلثة لكل مائة اربع عشرة سنة فتكون اربع مائة واربعا وسبعين سنة تحملها على ثلثمائة
وثمان وخمسين من الهجرة تاريخ بنائها تكون ثمان مائة واثنتين وثلثين سنة هذا
ان صح كلام ابن العربي وصدقت الدلائل النجومية وذكر لي من اثق بمعرفته من اهل مصر
عن ملحمة ابن العربي ان ذلك من العشرين بعد الثمانمائة وقيل في الثلثة وقيل في الثلثة
عشر وقيل في العشرين والله اعلم بذلك كله وسمعت ايضا ان هناك ملاحم اخر

منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس شيء منها دليل على الصحة لان ذلك انما يؤخذ من
القرانات على ان ملاحم ابن ابي العقب مدخولة ونقل ابن خلكان في ترجمة ابن القرية
عن كتاب الاغاني ان ابن العقب وهو محمد بن عبد الله بن ابي العقب من الامور التي اشتهرت
ولا وجود لها في الخارج مثل مجنون ليلى وابن القرية ووقفت بالمشرق ايضا على ملحمة
في حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفية يسمى الباجربقي وكلها الغاز بالحروف
واولها ان شئت تكشف سر الجفر يا سائلي من علم جفر وصي والد الحسن فافهم وكن واعيا
حرفا وجملة والوصف فافهم كفعل الحاذق الفطن واما الذي قبل عصري لست اذكره
لكنني اذكر الذي من الزمن بيبرس يسقى بكاس بعد خمستها وحاميم بطيش تام في السكن
ومنها سين له اثر من تحت سرته له القضاء قضاء اي ذي المنن فمصر والشام
مع ارض العراق له واذربيجان من ملك الى اليمن ومنها وآل نعار لا ينال الطاهر هم
القائك البائك المعنى بالشجن ومنها اخلع سعيدا ضعيف السن سين ايا لا الاوثن ف
ونون لزيغ قرن قوم شجاع له عقل ومشورة يسقى بكاس وابن بعد شجع ومنها
من بعد باء من الاعوام فتكته بالمشورة ميم الملك ذو اللسن هذا هو الاعرج الكلبي
فاعن به في عصره فتن ناهيك من فتن يأتي من الشرق جيش الترك يقدمهم غاز من القاف
قاف جر بالفتن فقبل ذاك فويل الشام اجمعها فاندب بشجو على الاهلين والوطن
اذا اذ زلزلت يا ويح مصر من الزلزال ما غير مقتطن وطاء وطاء وعين كلهم
جبنوا هلكى وينفقوا اموالا بلا ثمن يسير القاف قافا نحو احدهم بهوت به ان ذاك
الحصن في مكن ومنها ونصبوه اخاه وهو صالحهم لام الف شين لذلك
تنى ومنها تمت ولايتهم بالجاه لا احد من البنين يرى في الملك في الزمن ومنها
ويقال انه اشارة الى الملك الظاهر برقوق وقدوم ابيه عليه بمصر يأتي اليه ابوه
بعد بعدته وطول غيبته والشظف والدرن ومثل صنعتها كانه في القديم كثيرا ومعروف
الانتحال حكى المؤرخون لاخبار بغداد انه كان بها ايام المقتدر وراق ذكي يعرف
بالدانيالي يبلي الاوراق ويكتب فيها بخط عتيق يرمز فيه بحروف من اسماء اهل الدولة
ويشير بها الى ما يعرف ميلهم اليه من احوال الرفعة والجاه كانها ملاحم ويحصل بذلك
على ما يريده منهم من الدنيا وانه وضع في بعض دفاتره ميم مكررة ثلث وجاء به الى مفلح
مولى المقتدر وكان عظيما في الدولة فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مقتدر ميم من كل
واحدة وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه وما يناله من الملك والسلطان ونصب له
علامات لذلك من احواله المتعارفة مموّه بها عليه فبذل له ما اغناه به ثم وضعه
الوزير الحسن بن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولا فجاءه باوراق مثلها

وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وانه يلي الوزارة للثامن
عشر من الخلفاء ويستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا في ايامه ووقف
مفلحا على الاوراق وذكر فيها كوائن اخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع وما لم يقع ونسب
جميعه الى دانيال فاعجب به مفلح ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الرموز
والعلامات الى ابن وهب لظهورها فيه وكان ذلك سبب الوزارة بمثل هذه الحيل
العريقة في الكذب والجهل بمثل هذه الالغاز والظاهر ان هذه الملحمة التي ينسبونها
الى الباجربقي من هذا النوع ولقد سألت الشيخ اكمل الدين شيخ الحنفية من العجم بالديار
المصرية عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذي تنسب اليه من الصوفية وهو الباجربقي
وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من المعروفين بالقرندلية المبتدعين في حلق اللحية
وكان يتحدث عمن يكون بطريق الكشف ويومي الى رجال معينين عنده ويلغز عنهم
بحروف يعينها في ضمنها لمن يراه منهم وربما نظم ذلك في ابيات قليلة كان يتعا
ناها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخراصون
من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بفك رموزها وهو امر ممتنع اذ الرمز انما يهدي
الى كشفه قانون يعرف قبله ويوضع له واما مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها
مخصوصة بهذا النظم فرأيت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاء لما كان في النفس من امر
هذه الملحمة وكنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ثم وقفت بعد ذلك وانا بدمشق
عند حلول الركاب السلطاني بها سنة اثنتين وثمان مائة وانا على قضاء المالكية
بمصر فوقفت على تاريخ ابن كثير في سنة اربع وعشرين وسبع مائة في ترجمة التعريف
بهذا الرجل فقال شمس الدين محمد الباجربقي الذي تنسب اليه الفرقة الضالة الباجربقية
والمشهور عنهم انكار الصانع وكان والده جمال الدين عبد الرحيم بن عمر الموصلي
رجلا صالحا من علماء الشافعية ودرس في مدارس بدمشق ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء
فاشتغل قليلا ثم اقبل على السلوك ولازمه جماعة لا يعتقدون فيه ممن هو على طريقته
ثم حكم القاضي المالكي باراقة دمه وهرب الى المشرق ثم اقام البينة بالعداوة بينه
وبين من شهد عليه وحكم الحنبلي بحقن دمه واقام بالقانون مدة سنين وتوفي ليلة
الاربعاء سادس عشر ربيع الاخر سنة اربع وعشرين وسبع مائة وقال ابن كثير
ومن شعر الباجربقي في نظمه الجفر فاسمع وكن واعيا حرفا وجملته والوصف فافهم
بفهم الحاذق الفطن في قصد مصر وما بالشام يحدثه رب السموات من خير ومن محن
بيبرس يسقى بكاس بعد خمستها وحاميم بطيش تام في السكن يا ويح خلق ما اذا حل
ساحتها واخرتوا الله كيف بني تأويلها كم عدو في الدين كم قتلوا وكم دم سفكوا

من عالم وولي وكم سباع وكم سبي وكم نهبوا وحرقوا ثم شاب ومن يفني والكون معتصم
والارجاء مظلمة حتى حمايمها ناحت على الغصن بالبلايا اما الشام منتصر فقوموا الى ان
من سهل ومن حزن عرب العراق ومصر والصعيد اتوا وموت الكفر فيهما عزم تمكن
آخر الجزء الثالث من الكتاب الاول والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى اله وصحبه اجمعين
وحسبنا الله ونعم الوكيل

بسم الله الرحمن الرحيم • وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب

الفصل الرابع من الكتاب الاول في البلدان والامصار والمدن وسائر العمران الحضري وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق فصل في ان الدول اقدم من المدن والامصار

وانها انما توجد ثانية عن الملك • وبيانه ان البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع
الحضارة التي تدعوا اليها الترف والدعة كما قدمناه وذلك متاخر عن البداوة ومنازعها
وايضا فالمدن والامصار ذات هياكل واجرام عظيمة وبناء كبير اذ هي موضوعة
للعموم لا للخصوص فيحتاج الى اجتماع الايدي وكثرة التعاون وليست من الامور الضرورية
للناس التي تعم بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطرارا بل لا بد من اكراههم
على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعصا الملك او مرغبين في الثواب والاجر الذي لا يفي
به لكثرته الا الملك والدولة فلا بد في تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك
ثم اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية
والارضية فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان امد الدولة قصيرا وقف الحال فيها
عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وان كان امد الدولة طويلا ومدتها

منفسحة

منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الاسوار
يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد
وامثالها ذكر الخطيب في تاريخه ان الحمامات بلغ عددها لعهد المامون خمسة وستين
الف حمام وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين
ولم تكن مدينة واحدة تجمعها سور واحد لافراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة
والمهدية في الملة الاسلامية وحال مصر والقاهرة بعدها فيما بلغنا لهذا العهد واما بعد
الدولة المشيدة للمدينة فاما ان يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال
بادية تمدها العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة
كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها عمران الجبال
لان اهل البدو اذا انتهت احوالهم الى غاياتها من الرفه والكسب تدعوا الى الدعة
والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتاهلون فيها واما
ان لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها
فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا الى ان يبذعر
ساكنها وتخرب كما وقع في بغداد ومصر والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة
ابن حماد بالمغرب وامثالها فتفهمه وربما نزل المدينة بعد انقراض مختطيها الاولين
ملك اخر ودولة ثانية تتخذها قرارا وكرسيا وتستغني بها عن اختطاط المدينة لنفسها فتحفظ
تلك الدولة سياجها وتتزيد مبانيها ومصانعها بتزايد احوال الدولة الثانية وترفها
وتستجد بعمرانها عمرا اخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد فاعتبر ذلك وافهم سر الله
في خليقته **فصل في ان الملك يدعو الى الامصار** وذلك ان القبائل والعصائب
اذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الامصار لامرين احدهما ما يدعو اليه
الملك من الرفه والدعة واستكمال ما كان ناقصا من امر العمران في البدو والثاني
دفع ما يتوقع على الملك من امر المنازعين والمشاغبين لان المصر الذي يكون في نواحيهم
ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سموا اليه
من ايديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة
والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة بما فيه من الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران
من غير حاجة الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصابة انما احتيج اليها في الحرب
للثبات بما يقع من كرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالجدران
فلا يضطرون الى كثير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا المصر ومن يعتصم به من المنازعين
مما يفت في عضد الامة التي تروم الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها فاذا كانت

بعيد عن جانبهم أمصار يعظمونها في استيلائهم للأمن من تسرّع الانخرام وإن لم يكن هنالك
مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً ولحط أثقالهم وليكون ثانياً في حلق من يروم
الغرّة شجاً من طوائفهم وعصائبهم فقد تبين أن الملك يدعو إلى نزول الأمصار
والاستيلاء عليها والله غالب على أمره **فصل في أن المدن العظيمة و**
والهياكل المرتفعة إنما تشيدها الملك الكبير

قد قدمنا ذلك في آثار الدول من المباني وغيرها وأنها تكون على نسبتها وذلك
أن تشييد المدن إنما يحصل بالفعلة واجتماعهم وكثرتهم وتعاونهم فإذا كانت الدولة
عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها وجمعت أيديهم على عملها وربما استعين
في ذلك أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء لعجز
القوى البشرية عن ذلك كالمنجال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار المتقدمين
ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب
أنها كانت بقدرهم متفرقين أو مجتمعين فيتخيل لهم أجساماً تناسب ذلك أعظم من هذه
بكثير في طولها وعرضها وأقطارها ليناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك
المباني عنها ويغفل عن شأن الهندام والمنجال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية
وكثير من المتقلبين في البلاد يعاين من شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الأجرام عند أهل
الدول المعتنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلناه عياناً وأكثر آثار الأقدمين لهذا العهد
تسميها العامة عادية نسبة إلى قوم عاد لتوهمهم أن مباني عاد ومصانعهم إنما عظمت
لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثاراً كثيرة من آثار الذين
نعرف مقادير أجسامهم من الأمم وهي في مثل ذلك العظم وأعظم كإيوان كسرى ومباني
العبيديين من الشيعة بإفريقية والصنهاجيين وأثرهم بادٍ إلى اليوم في صومعة
قلعة بني حماد وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان وبناء الموحدين في رباط الفتح
وبناء السلطان أبي الحسن لعهد أربعين سنة في المنصورة بإزاء تلمسان وكذلك
الحنايا التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها ماثلة أيضاً لهذا العهد وغير
ذلك من المباني والهياكل التي نقلت إلينا أخبار أهلها قريباً وبعيداً وتيقنا أنهم لم يكونوا
بإفراط في مقادير أجسامهم وإنما هذا رأي ولع به القصاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة
ونحن نجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة لهذا العهد وقد ثبت في الحديث الصحيح أنها بيوتهم
يمر بها الركب الحجازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد في جوها ومساحتها وسمكها
على المتعاهد وأنهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى أنهم ليزعمون أن عوج بن
عناق من جيل كنعان العمالقة كان يتناول السمك من البحر طرياً فيشويه في الشمس

يزعمون

يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما لدينا هو الضوء
لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء وأما الشمس في نفسها فغير حارة ولا باردة
وإنما هي كوكب مضيء لا مزاج له وقد تقدم شيء من هذا في الفصل الثاني حيث ذكرنا أن الدول
على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء **فصل في أن الهياكل العظيمة**
جداً لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء إلى التعاون ومضاعفة القدر البشرية
وقد تكون المباني في عظمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج
إلى معاودة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة إلى أن تتم فيبتدئ الأول منهم بالبناء
ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الأيدي
حتى يتم القصد من ذلك ويقوم ماثلاً للعيان يظنه من يراه من الآخرين أنه بناء دولة
واحدة وانظر في ذلك ما قاله المؤرخون في بناء سد مأرب وأن الذي بناه سبأ بن
يشجب وساق إليه سبعين وادياً وعاقه الموت عن إتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده
ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية وأكثر المباني العظيمة في
الغالب هذا شأنها ويشهد لهذا أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع في
تأسيسها واختطاطها فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في إتمامها بقيت بحالها ولم يكمل
القصد فيها ويشهد لذلك أيضاً أنا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها
وتخريبها مع أن الهدم أسهل من البناء لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم
والبناء على خلاف الأصل فإذا وجدنا بناء تضعف قدرتنا البشرية عن هدمه مع سهولة
الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها ليست أثر دولة واحدة
وهذا مثل ما وقع للعرب في إيوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث إلى يحيى بن
خالد وهو في مجلسه يستشيره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلاً يستدل
به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل ذلك الهيكل فاتهمه في النصيحة وقال
أخذته النعرة للعجم والله لأصرعنه وجمع الأيدي عليه واتخذ له الفؤوس وحماه بالنار
وصب عليه الخل حتى إذا أدركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة بعث إلى يحيى ثانياً
يستشيره في التجافي عنه فقال يا أمير المؤمنين لا تفعل استمر على شأنك لئلا يقال
عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم مصنع العجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه
وكذلك اتفق للمأمون في هدم الأهرام التي بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحل بطائل
وشرعوا في نقبه فانتهوا إلى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهنالك
كان منتهى هدمهم وهو إلى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم زاعمون أنه وجد

هنالك ركاز بين تلك الحيطان والله اعلم وكذلك حنايا المعلقة بقرطاجنة الى هذا
العهد يحتاج اهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبنائهم ويستجيد الصناع حجارة
تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها
الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها ايام صباي كثيرا والله
على كل شيء قدير

فصل فيما يجب ان يراعى في اوضاع المدن وما يحدث اذا اغفل عن المراعاة

المدن قرار تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر
الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار والماوى ولما كان ذلك للقرار
والماوى وجب ان يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل
المرافق لها فاما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار
وان يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة
بحر او نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها
على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها ومما يراعى في ذلك للحماية من الافات السماوية
طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاورا للمياه
فاسدة ومناقع متعفنة او مروج خبيثة اسرع اليه العفن من مجاورتها فاسرع المرض
للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة
الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد
ساكنها او طارقها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم تكن
كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه انه وقع فيه حفر ظهر فيه اناء من نحاس مختوم
بالرصاص فلما فض ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك مبدأ امراض
الحميات واراد بذلك ان الاناء كان مشتملا على بعض الطلسمات لوبائه وانه ذهب
سره بذهابه فرجع اليه العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة
والبكري لم يكن من متانة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا او يتبين خرفه
فنقله كما سمعه والذي يكشف الحق في ذلك ان هذه الاهوية العفنة اكثر ما يهيئها لتعفين
الاجسام وامراض الحميات ركودها فاذا تخللها الريح وذهب بها يمينا وشمالا خف
شان العفن والمرض البادي منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت
حركات اهله فيتموج الهواء ضرورة ويحدث الريح المتخلل للهواء الراكد ويكون ذلك
معينا له على الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه فبقي
راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عندما كانت افريقية مستبحرة
العمران كثيرة الساكن تموج باهلها موجا فكان ذلك معينا على تموج الهواء واضطرابه

و

وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعندما خف ساكنها ركد هواؤها
المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض هذا وجهه لا غير ذلك وقد رأينا عكس ذلك
في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت اولا قليلة الساكن فكانت امراضها
كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى
بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهم تجد ما قلته لك وقد ذهب لهذا العهد
القريب في الهواء من قابس من زال عنها لما حاصرها سلطان تونس وقطع الغابة
من النخل التي كانت محيطة بها فانفرج جانب منها وتموج الهواء المحيط بها وتخللته الرياح
فذهب منه العفن والله مصرف الامور واما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى
فيه امور منها الماء وان يكون البلد على نهر او بازائها عيون عذبة ثرة فان وجود
الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده
مرفقة عامة ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم اذ صاحب كل قرار
لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فاذا كان
قريبا طيبا كان ارفق لهم مما يعانون من المشقة في بعده ومما يراعى ايضا المزارع فان الزرع
هو القوت فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب
في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود
النيران للاصطلاء والخشب ايضا ضروري ايضا لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب
من ضرورياتهم وقد يراعى ايضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القصية من البلاد النائية
الا ان ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجة وما تدعو اليه ضرورة
الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي وانما يراعي ما هو اهم على نفسه
او قومه ولا يذكر حاجة غيرهم كما فعله العرب في اول الاسلام في المدن التي اختطوها
بالعراق والحجاز وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا المهم عندهم من مراعي الابل وما يصلح لها
من الشجر والماء الملح ولم يراعوا فيها الماء والمزارع ولا الحطب ولا المراعي السائمة من ذوات
الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وسجلماسة وامثالها ولهذا
كانت الى الخراب لما لم يراع فيها الامور الطبيعية

فصل

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحار ان تكون في جبل او تكون بين امة من الامم
موفورة العدد يكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك
ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل اهل العصبيات
ولا موضعها متوعر من الجبال كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل
البحرية على عدوها وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها وان الحضر المتعودين

للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذا كالاسكندرية من المشرق
وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصبيات موطنين
بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها
باختطاطها في هضبات الجبال وعلى اسنمتها كانت ذلك منعة لها بذلك وييئس
من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد
القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة
العباسية مع ان الدعوة كانت من ورائها ببرقة وافريقية وانما اعتبر في ذلك المخافة
المتوقعة فيها من البحر بسهولة وضعها ولذلك والله اعلم كان طروق العدو للاسكندرية
وطرابلس في الملة مرات متعددة

فصل في المساجد والبيوت المعظمة في العالم

اعلم ان الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها
بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور واخبر بذلك
على السنة رسله وانبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة لهم وكانت المساجد
الثلاثة هي افضل بقاع الارض فيما علمناه حسبما ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة
وبيت المقدس فمكة بيت ابرهيم صلوات الله عليه امره الله ببنائه وان يؤذن في الناس
بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما في قصة القرآن وقام بما امره الله فيه وسكن اسمعيل
به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى ان قبضهما الله ودفنا بالحجر منها وبيت المقدس
هو بيت داود وسليمان عليهما السلام امرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن
كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه والمدينة مهاجر نبينا صلوات الله
عليه امره الله بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها ومنها فبنى مسجده الحرام بها وكان
ملحده الشريف في تربتها فهذه المساجد الثلثة قرة عين المسلمين ومهوى افئدتهم
وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب بها في مجاورتها والصلوة
كثير معروف فلنشر الى شيء من الخبر عن اولية هذه الثلثة وكيف تدرجت احوالها
الى ان كمل ظهورها في العالم فاما مكة فاوليتها فيما يقال ان آدم عليه السلام بناها
قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه
وانما اقتبسوه من محتمل الآية في قوله واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت ثم بعث
الله ابرهيم وكان من شأنه وشان زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف
واوحى الله اليه ان يفارق هاجر ويغربها مع ابنها اسمعيل الى فاران وهي جبال
مكة ما وراء الشام وبلد ايلة فاخرجها الى هنالك ولحقت بمكان واد ركبها
العطش وكيف الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى

احتملوها

احتملوها وسكنوا اليها ونزلوا معهما حوالي زمزم كما عرف في موضعه فاتخذ اسمعيل
بموضع الكعبة بيتا يأوي اليه وادار عليه سياجا من الدوم وجعله زربا لغنمه
وجاء ابرهيم صلوات الله عليه مرارا لزيارته من الشام امر في آخرها ببناء الكعبة
مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى حجه وبقي
اسمعيل ساكنا فيه ولما قبضت امه هاجر دفنها ولم يزل قائما بخدمته الى ان قبضه الله
تعالى ودفن الى امه هاجر وقام بنوه بعده بامر البيت مع اخوالهم من جرهم ثم العمالقة من بعدهم
واستمر الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل افق من جميع اهل الخليقة لا من بني
اسمعيل ولا من غيرهم ممن دنا او نأى فقد نقل ان التبابعة كانت تحج اليه وتعظمه
وان تبعا الذي يسمى تبان اسعد ابا كرب كساها الملاء والوصائل وامر بتطهيرها وجعل
لها مفتاحا ونقل ان الفرس كانت تحجه وتقرب اليه وان غزالي الذهب الذين وجدهما
عبد المطلب حين احتفر زمزم كان من قرابينهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه بعد بني اسمعيل
من قبل خؤلتهم حتى اخرجتهم خزاعة واقاموا بها بعدهم ما شاء الله ثم كثر ولد اسمعيل
وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش
على امره واخرجوهم من البيت وملكوها عليهم يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفها
بخشب الدوم وجريد النخل وقال الاعشى حلفت بثوبي راهب ثم والتي بناها قصي وحده
وابن جرهم ثم اصاب البيت سيل في ولايتهم ويقال حريق وتهدم فاعادوا بناءه وجمعوا
النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا اخشابها للسقف
وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض
فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا عن قواعده
وتركوا منه ستة اذرع وشبرا اداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت
على هذا البناء الى ان تحصن ابن الزبير بمكة حين دعى لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد
بن معاوية مع الحصين بن نمير السكوني سنة اربع وستين فاصابه حريق يقال من النفط
الذي رموا به على ابن الزبير فتصدعت حيطانه فهدمه ابن الزبير واعاد بناءه احسن
ما كان بعد ان اختلف عليه الصحابة في بنائه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه
وسلم لعائشة لولا قومك حديثوا عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابرهيم ولجعلت
له بابين شرقيا وغربيا فهدمه وكشف عن اساس ابرهيم عليه السلام وجمع الوجوه
والاكابر حتى عاينوه واشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس
فادار على الاساس الخشب ونصب من فوقها الستور حفظا للقبلة وبعث الى صنعاء
في القصة والكلس فحملها وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج اليه ثم شرع

في البناء على اساس ابرهيم عليه السلام ورفع بناءها وسبعا وعشرين ذراعا وجعل
لها بابين لاصقين بالارض كما روي في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ
لها المفاتيح وصفايح الذهب من الابواب ثم جاء الحجاج لحصاره ايام عبد الملك
ايام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات الى ان تصدعت حيطانه ثم لما ظفر
بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده في البيت فامره بهدمه ورد البيت
على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال انه ندم على ذلك حين علم صحة رواية الزبير لحديث
عايشة وقال وددت اني كنت حملت ابا خبيب من امر البيت وبنائه ما تحمل فهدم
الحجاج منها ستة اذرع وشبرا مكان الحجر وبناها على قواعد قريش وسد الباب الغربي
وما تحت عتبه بابها اليوم من الباب الشرقي وترك سايرها لم يغير منه شيا فكل
بناء فيها اليوم بناء ابن الزبير وبين بنائه وبناء الحجاج في الحايط صلة ظاهرة للعيان
لحمة بين البنائين والبناء متميز من البناء بمقدار اصبع شبه الصدع وقد لحم ويعرض
هنا اشكال قوي لمنافاته ما يقوله الفقهاء في امر الطواف وتحرز الطايف ان يميل
على الشاذروان الداير باساس الجدر من اسفلها فيقع طوافه داخل البيت
بناء على ان الجدران انما قام على بعض الاساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان
وكذا قالوا في تقبيل الحجر الاسود لا بد من رجوع الطايف من التقبيل حتى يستوي
قايما لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت واذا كانت الجدران كلها من بناء ابن
الزبير وهو انما بنى على اساس ابرهيم فكيف يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من ذلك
الا باحد امرين اما ان يكون الحجاج هدمه جميعه واعاده وقد نقل ذلك جماعة الا ان العيان
في شواهد البناء بالتحام ما بين البنائين وتمييز احد الشقين من اعلاه عن الاخر في الصناعة
يرد ذلك واما ان يكون ابن الزبير لم يرد البيت على اساس ابرهيم من جميع جهاته وانما فعل
ذلك في الحجر فقط ليدخله فهي الان مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد
ابرهيم وهذا بعيد ولا مخلص عن هذين والله اعلم ثم ان ساحة البيت وهو المسجد
كان فضاء للطايفين ولم يكن عليه جدار ايام النبي صلى الله عليه وسلم وابي بكر من بعده
ثم كثر الناس فاشترى عمر دورا هدمها وزادها في المسجد وادار عليه جدارا دون القامة
وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بالرخام ثم
زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقر على ذلك لعهدنا
وتشريف الله لهذا البيت وعنايته اعظم من ان يحاط به وكفى من ذلك ان جعله
مهبطا للوحي والملايكة ومكانا للعبادة وفرض فيه شعار الحج ومناسكه واوجب
لحرمه من ساير نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجبه لغيره فمنع كل من خالف

دين

دين الاسلام من دخول ذلك الحرم واوجب على داخله ان يتجرد عن المخيط هو
الا ازارا يستره وحمى العايذ به والرايع في مسارحه من مواقع الافات فلا يرتاع فيه
خايف ولا يصاد له وحش ولا يختطب له شجر وحد الحرام الذي يختص بهذه الحرمة
من طريق المدينة ثلثة اميال الى التنعيم ومن طريق العراق سبعة اميال الى ثنية جبل
المنقطع ومن طريق الجعرانة تسعة اميال الى الشعب ومن طريق الطايف سبعة
اميال الى بطن نمرة ومن طريق جدة عشرة اميال الى منقطع العشاير وهذا شان مكة وخبرها
وتسمى ام القرى وتسمى الكعبة لعلوها من اسم الكعب ويقال لها ايضا بكة قال الاصمعي
لان الناس يبك بعضهم بعضا اليها اي يدفع وقال مجاهد باء مكة ابدلوها ميما
كما قالوا لازم ولازب لقرب المخرجين وقال النخعي بالباء للبيت وبالميم للبلد
وقال الزهري بالباء للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه
والملوك تبعث اليه بالاموال والذخاير ككسرى وغيره وقصة الاسياف وغزالي الذهب
التي وجد فقال عبد المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه
وسلم حين افتتح مكة في الجب الذي كان فيها سبعين الف اوقية من الذهب مما كانت
الملوك يهدي الى البيت قيمتها الفا الف دينار اثنان مكررة مرتين مايتي
قنطار وزنا وقال له علي بن ابي طالب يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك
فلم تفعل ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال الازرقي وفي البخاري بسنده الى ابي وايل
قال جلست الى شيبة بن عثمان وقال جلس الي عمر بن الخطاب فقال هممت
ان لا ادع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت ما انت بفاعل
قال فلم قلت لم يفعله صاحباك قال هما المرءان يقتدى بهما وخرجه ابو داود
وابن ماجه واقام ذلك المال الى ان كانت فتنة الافطس وهو الحسين بن علي
بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة فاخذها من خزانة
وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن احق به نستعين به
على حربنا واخرجه وتصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ واما بيت
المقدس وهو المسجد الاقصى فكان اول امره ايام الصابية موضع الهيكل الزهرة
وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه ويصبونه على الصخرة التي هنالك ثم دثر
ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلواتهم وذلك ان موسى
صلوات الله عليه لما خرج ببني اسرائيل من مصر ليملكهم بيت المقدس كما وعد الله
اباهم اسرائيل واباءه اسحق ويعقوب من قبله واقاموا بارض التيه امره الله
باتخاذ قبة من خشب السنط عين بالوحي مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها

وان يكون فيها تابوت ومايدة بصحافها ومنارة بقناديلها وان يصنع مذبحا
للقربان ووصف ذلك كله في التوراة اكمل وصف فصنع القبة ووضع فيها تابوت
العهد وهو التابوت الذي فيه الالواح المصنوعة عوضا من الالواح المنزلة بالكلمات
العشر لما تكسرت ووضع المذبح عندها وعهد الله الى موسى بان يكون هرون صاحب
القربان ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه يصلون اليها ويقربون في المذبح
امامها ويتعرضون للوحي عندها ولما ملكوا ارض الشام انزلوها بكلكال من بلاد الارض
المقدسة مابين قسم بني يامين وبني افرايم وبقيت هنالك اربع عشرة سنة
سبعا مدة الحرب وسبعا بعد الفتح ايام القسمة للبلاد ولما توفي يوشع عليه السلام نقلوها
الى بلد شيلو قريبا من كلكال وادارو عليها الحيطان واقامت على ذلك ثلثمائة سنة
حتى ملكها بنو فلسطين من ايديهم كما مر وتغلبوا عليهم ثم ردوا عليهم القبة ونقلوها بعد
وفاة عالي الكوهن الى نوف ثم نقلت ايام طالوت الى كنعون في بلاد بني يامين
ولما ملك داود عليه السلام نقل التابوت والقبة الى بيت المقدس على الصخرة
وبقيت تلك القبة قبلتهم واراد داود عليه السلام بناء مسجد على الصخرة مكانها
فلم يتم له ذلك وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولخمس مائة سنة
من وفاة موسى عليه السلام واتخذ عمده من الصفر وجعل فيه صرح الزجاج وغشى
ابوابه بالذهب وحيطانه وصاغ تماثيله واوعيته ومناوره ومفاتيحه من الذهب
وجعل ظهره مقبوا ليودع فيه تابوت العهد وجاء به من صهيون بلد ابيه داود
نقله اليها ايام عمارة المسجد فجيء به ووضع في القبو ووضعت الاوعية والقبة
والمذبح كل حيث اعد له من المسجد واقام كذلك ماشاء الله ثم خربه بختنصر بعد ثمان
مائة سنة من بنائه واحرق التوراة والعصاة وسبك الهياكل ونثر الاحجار ثم
لما اعادهم ملوك الفرس بناه عزير نبي بني اسرائيل لعهده باعانة بهمن ملك الفرس
الذي كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من سبي بختنصر وحد لهم في بنائه حدودا دون
حدود سليمان عليه السلام فلم يتجاوزوها واما الاواوين التي تحت المسجد يركب
بعضها بعضا عمود الاعلى منها على قوس الاسفل في طبقتين ويتوهم كثير من الناس
انها اصطبلات لسليمان عليه السلام وليس كذلك وانما بناها تنزيها لبيت المقدس
عن النجاسة لان النجاسة في شريعتهم وان كانت باطن الارض وكان ما بينها
وبين الارض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خط مستقيم يتنجس
ذلك الظاهر بالتوهم والمتوهم عندهم من المحقق فبنوا هذه الاواوين على هذه
الصورة فعمود الاواوين السفلية تنتهي الى اقواسها وينقطع خطه فلا تنتهي

النجاسة بالاعلى خط مستقيم وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهمة ليكون
ذلك ابلغ في الطهارة والتقديس للبيت المقدس ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس
والروم واستفحل الملك لبني اسرائيل في هذه المدة ولبني حشمناي من كهنوتهم ثم لصهرهم
هيرودس ولبنيه من بعدهم وبنا هيرودس بيت المقدس على حدود سليمان عليه السلام
وتانق فيه حتى اكمله في ست سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك
امرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وامر ان يزرع مكانه ثم اخذ الروم بدين المسيح
عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الاخذ بدين النصرانية تارة
وتركه اخرى الى ان جاء قسطنطين وتنصرت امه هيلانة وارتحلت الى القدس
في طلب الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم فاخبرها القامة انه رمي بخشبته
الى الارض والقي عليه القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان
تلك القمامات كنيسة القمامة كانها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت
وامرت بطرح الزبل والقمامة على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها جزاء بزعمها لما فعلوه
في قبر المسيح عليه السلام ثم بنوا ازاء قمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه
عيسى صلوات الله عليه وبقي الامر كذلك الى ان جاء الاسلام والفتح وحضر عمر لفتح
بيت المقدس وسأل عن الصخرة فاري مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف
عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة وعظم من شانه ما اذن الله في تعظيمه وما سبق
في ام الكتاب من فضله حسبما ثبت ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده
على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام ومسجد
النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وفي مسجد دمشق كانت العرب تسميه بلاط الوليد
والزم ملك الروم ان يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وان ينمقوها
بالفسيفساء فاطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه ثم لما ضعف امر الخلافة اعوام
الخمس مائة من الهجرة في اواخرها وكانت ملكة العبيديين من الخلفاء القاهرة من
الشيعة واختل امرهم زحف الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامة
ثغور الشام وبنوا على الصخرة المقدسة منه كنيسة كانوا يفتخرون بها وببنائها
ويعظمونها حتى اذا استقل صلاح الدين ابن ايوب الكردي بملك مصر والشام
ومحى اثر العبيديين وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم
على البيت المقدس وعلى ما كانوا غلبوه من ثغور الشام وذلك لنحو ثمانين وخمس
مائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة واظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذي هو عليه
لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله

عليه وسلم سئل عن اول بيت وضع فقال مكة قيل ثم اي قال بيت المقدس قيل فكم بينهما قال
اربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابرهيم
وسليمان لان سليمان بانيها وهو نيف على الالف بكثير واعلم ان المراد بالوضع في
الحديث ليس البناء وانما المراد اول بيت عين للعبادة ولا يبعد ان يكون بيت
المقدس عين للعبادة قبل سليمان بمثل هذه المدة وقد نقل ان الصابئة بنوا على
الصخرة هيكل الزهرة فلعل ذلك لانها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية
يضع الاصنام والتماثيل حوالي الكعبة وفي جوفها والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة
كانوا على عهد ابرهيم عليه السلام فلا تبعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة
للعبادة وبين وضع بيت المقدس وان لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وان اول
من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهمه ففيه حل هذا الاشكال

واما المدينة

وهي المسماة يثرب فهي من بناء يثرب بن مهلائيل من العمالقة وبه سميت وملكها
بنو اسرائيل من ايديهم فيما ملكوه من ارض الحجاز ثم جاورهم ابناء قيلة من غسان وغلبوهم
عليها وعلى حصونها ثم امر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله
لها فهاجر اليها ومعه ابو بكر وتبعه اصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته في الموضع
الذي كان الله قد اعده لذلك وشرفه في سابق ازله واواه ابناء قيلة ونصروه
وبذلك سموا الانصار وتمت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات
وغلب على قومه وفتح مكة وملكها فظن الانصار انه يتحول عنهم الى بلده فاهمهم ذلك
فخطبهم صلى الله عليه وسلم واخبرهم انه غير متحول عنهم حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم
كان ملحده الشريف بها وجاء في فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا خفاء به ووقع
الخلاف في تفضيلها على مكة وقال به مالك رحمه الله لما ثبت عنده من النص الصريح
عن رافع بن خديج ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المدينة خير من مكة نقل ذلك عبد
الوهاب في المعونة الى احاديث اخرى وخالف ابو حنيفة والشافعي واصبحت
على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم بافيدتهم من كل اوب فانظر كيف
تدرجت الفضيلة في هذه المساجد المعظمة لما سبق من عناية الله لها وتفهم سر الله
في الكون وتدريجه على ترتيب محكم في امور الدين والدنيا

واما غير هذه المساجد

الثلثة فلا نعلمه في الارض الا ما يقال من شان مسجد ادم عليه السلام بسرنديب
من جزاير الهند لكنه لم يثبت فيه شيء يعول عليه وقد كانت للامم مساجد القديم
يعظمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت
العرب بالحجاز التي امر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها في غزواته وقد ذكر المسعودي
منها بيوتا لسنا من ذكرها في شيء اذ هي غير مشروعة ولا على طريق ديني فلا يلتفت اليها
ولا الى الخبر عنها ويكفي في ذلك ما وقع في التواريخ فمن اراد معرفة الاخبار فعليه بها
والله يهدي من يشاء

فصل في ان الامصار والمدن بافريقية قليلة

والسبب
في ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ الاف من السنين قبل الاسلام
وكان عمرانها كله بدويا ولم تستمر فيه الحضارة حتى تستكمل احوالها والامم التي ملكتهم
من الافرنجة والعرب لم يطل امد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوايد البداوة
وشوونها فكانوا اليها اقرب فلم تكثر مبانيهم وايضا فالصنايع بعيدة عن البربر
لانهم اعرق في البداوة والصنايع من توابع الحضارة وانما تتم المباني بها فلا بد
من الحذق في تعلمها فلما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوف الى المباني فضلا عن المدن
وايضا فهم اهل عصبيات وانساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والانساب والعصبية
اجنح الى البدو وانما يدعوا الى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها
فتجد اهل البدو لذلك يستنكفون من سكنى المدينة والمقامة بها ولا يدعوهم لذلك
الا الترف وقليل ما هو في الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله او اكثره بدويا
اهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال وكان عمران افريقيه والمغرب كله او اكثره
قرى وامصارا ورساتيق في بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وامثالها لان العجم
في الغالب ليسوا باهل انساب يحافظون عليها ويتناعون في صراحتها والتحامها
الا في الاقل وانما اكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحمة النسب اقرب واشد
فتكون عصبيته كذلك وتنزع بصاحبها الى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي يذهب
بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه وقس

فصل في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك
ما ذكرناه مثله في البربر بعينه اذ العرب ايضا اعرق في البدو وابعد عن الصنايع وايضا
فكانوا اجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الاسلام ولما تملكوها لم ينفسح الامد حتى
تستوفي رسوم الحضارة مع انهم استغنوا بما وجدوا من مباني غيرهم وايضا فكان الدين
اول الامر مانعا من المغالاة في البنيان والاسراف فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر
حين استاذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به
من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن احد على ثلثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا
السنة تلزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدم الى الناس ان لا يرفعوا بنيانا فوق
القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد
العهد بالدين والتحرج في امثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف

واستخدم العرب امة الفرس واخذوا عنهم الصنايع والمباني ودعتهم اليها احوال
الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض
الدولة ولم يفسح الامد لاختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك غيرهم
من الامم فالفرس طالت مدتهم الافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم
وكذلك العرب الاولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة طالت امادهم ورسخت
فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم اكثر عددا وابقى على الايام اثرا واستبصر في هذا تجده كما قلته
والله وارث الارض ومن عليها **فصل في ان المباني التي تختطها العرب يسرع
اليها الخراب الا في الاقل** والسبب في ذلك شان البداوة والبعد عن الصنايع
كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها وله والله اعلم وجه اخر وهو امس به وذلك
قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن كما قلناه في المكان وطيب الهواء والمياه
والمزارع والمراعي فان بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث
العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وانما يراعون مراعي ابلهم خاصة لا يبالون
بالماء طاب ام خبث ولا قل ام كثر ولا يسالون عن زكي المزارع والمنابت والاهوية
لانتقالهم في الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد واما الرياح فالقفر مختلف
للمهاب كلها والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تخبث مع القرار والسكنى
وكثرة الفضلات وانظر لما اختطوا البصرة والكوفة والقيروان كيف لم يراعوا
في اختطاطها الا مراعي ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة
عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم كما قدمناه انه يحتاج
اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ولم تكن في وسط الامم
فيعمرها الناس فلاول وهلة من انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجا
لها اتى عليها الخراب والانحلال كان لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه **فصل
في مبادي الخراب في الامصار** اعلم ان الامصار اذا اختطت اولا كانت قليلة
المساكن وقليلة الات البناء من الحجر والكلس وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند
التانق كالزليج والرخام والفسفسا والبيج والصدف والزجاج فيكون
بناؤها يومئذ بدويا والاتها فاسدة فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها
كثرت الاتها بكثرة الاعمال وكثرة الصناع الى ان تبلغ غايتها من ذلك كما سبق
في شانها فاذا تراجع عمرانها وقل ساكنها قلت الصنايع لاجل ذلك ففقدت
الاجادة في البناء والاحكام والمعالاة عليه بالتنميق ثم تقل الاعمال لعدم الساكن
فيقل جلب الالات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم

من الالات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور
والمنازل بقلة العمران وقصوره عما كان اولا ثم لا تزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار
الى دار الى ان يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة في البناء واتخاذ الطوب
عوضا من الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى
والمداشر ويظهر عليها ميسم البداوة ثم تمر في التناقص الى غايتها من الخراب ان قدر
الله لها به سنة الله في خلقه **فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة
الرفه ونفاق الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة** والسبب
في ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في
معاشه وانهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون
طايفة منهم تسد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل
الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة من حداد
ونجار للالات وقايم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبل وساير مؤن الفلح
وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت
فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زايدة على حاجات العاملين
وضروراتهم واهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم
اكتفي فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زايدة على الضرورات فتصرف
في حالات الترف وعوايده وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه
وقيمته فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب
والرزق ان المكاسب انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت
مكاسبهم ضرورة ودعتهم احوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التانق في المساكن
والملابس واستجادة الانية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها اعمال
تستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق اسواق الاعمال والصنايع
ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل اعمالهم ومتى زاد العمران زادت
الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوايده وحاجاته واستنبطت الصنايع
لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الاعمال
بها اكثر من الاول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة لان الاعمال الزايدة كلها تختص
بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية التي تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل المصر
بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوايد من الترف لا توجد في الاخر
فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله في الترف ابلغ من حال المصر الذي

ودونه على وتيرة واحدة في الأصناف القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر والصانع
مع الصانع والسوقي مع السوقي والأمير مع الأمير والشرطي مع الشرطي واعتبر ذلك
في المغرب مثلا بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة
تجد ما بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيات فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي
بتلمسان وكذا كل صنف مع أهل صنفه وكذا أيضا حال تلمسان مع وهران والجزائر
وحال وهران والجزائر مع ما دونهما إلى أن ينتهي إلى المداشر الذين اعتمالهم في ضرورات
معاشهم فقط أو يقصرون عنها وما ذاك إلا لتفاوت الأعمال فيها فكأنها كلها أسواق
للأعمال والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضي بتلمسان
وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم وأوسع وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال
بما يدعو إليه الترف فالأحوال أضخم ثم هكذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى
ينتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا تفي أعمالها بضروراتها ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل
القرى والمداشر فلذلك ما تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين
في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم ولا يفضل لهم عنها ما يتأثلونه كسبا
فلا ينمو مكاسبهم فهم لذلك مساكين محاويج إلا في الأقل النادر واعتبر ذلك حتى في حال
الفقراء والسؤال فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت
بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال
الترف واقتراح المآكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال
والآنية ولو سأل السائل مثل هذا في تلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا
لهذا العهد عن أحوال أهل القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضى منه
العجب حتى أن كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر لذلك ولما يبلغهم
من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها وتعتقد العامة من الناس أن ذلك لعظم
الأموال في تلك الآفاق وأن الأموال مخبره لديهم وأنهم أكثر صدقة وإيثارا من جميع
من جميع أهل الأمصار وليس كذلك وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر
من عمران هذه الأمصار التي لديك فعظمت لذلك أحوالهم وأما حال الدخل والخرج
فمتكافئ في جميع الأمصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت
أحوال الساكن ووسع المصر كل شيء يبلغك من هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران
وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل والإيثار على مبتغيه ومثله
بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف تختلف أحوالها في هجرانها
أو غشيانها فإن بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبة منها تكثر بأفنيتها وساحاتها

ونثر الحبوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشي النمل والخشاش ويحلق فوقها عصائب
الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا وريا وبيوت أهل الخصاصة والفقراء الكاسدين
أرزاقهم لا يسري بساحتها دبيب ولا يحلق بجوها طائر ولا تأوي إلى سراب
بيوتهم فأرة ولا هر كما قال يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء
فتأمل سر الله في ذلك واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من الحيوانات وفتات
الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر
بوجود أمثالها لديهم واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرته
والله غني عن العالمين **فصل في أسعار المدن** اعلم أن الأسواق كلها تشتمل
على حاجات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات من الحنطة والشعير وما في معناها
كالباقلاء والحمص والجلبان وسائر حبوب الأقوات ومصلحاتها كالبصل والثوم وأشباهه
ومنها الحاجي والكمالي من الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر
الصنائع والمباني فإذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت
وما في معناه وغلت أسعار الكمالي من الأدم والفواكه وما يتبعها وإذا قل ساكن المصر وضعف
عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك والسبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات
القوت فتتوفر الدواعي على اتخاذها إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره و
أو سنته فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه لا بد
من ذلك وكل متخذ لقوته فيفضل عنه وعن قوت أهل بيته فضلات كثيرة تسد خلة
كثيرين من أهل ذلك المصر فتفضل الأقوات عن أهل المصر بلا شك فترخص أسعارها في الغالب
إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع
من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران وأما سائر المرافق
من الأدم والفواكه وما إليها فإنها لا تعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها أعمال
أهل المصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم إن المصر إذا كان مستبحرا موصول العمران كثير
حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب
حاله فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهي قليلة
في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبذل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء
لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه وأما الصنائع والأعمال أيضا في
الأمصار الموفورة العمران فسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة الأول كثرة الحاجة
لمكان الترف في المصر بكثرة عمرانه والثاني اعتزاز أهل الأعمال لخدمتهم وامتهانهم
أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة

حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصناع في مهنهم فيبذلون في ذلك لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستيثار فيعتز الفعلة والصناع واهل الحرف وتغلو اعمالهم وتكثر نفقات اهل المصر في ذلك واما نفقات اهل المصر الصغير القليل الساكن فاقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه بايديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه واما مرافقهم فلا تدعو اليها حاجة ايضا لقلة الساكن وضعف الاحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل في قيمة الاقوات ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الاسواق وابواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم ولذلك كانت الاسعار في الامصار اغلى من اسعار البادية اذ المكوس والمغارم والفرايض قليلة لديهم او معدومة والامصار بالعكس سيما في اواخر وقد يدخل ايضا في قيمة الاقوات قيمة علاجها ويحافظ على ذلك في اسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك انهم لما الجاهم النصارى لهذا العهد الى سيف البحر وبلاده المتوعرة الخبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والفدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مونة وصارت في فلحهم نفقات خطر فاعتبروها في سعرهم واختص قطر الاندلس بالغلا منذ اضطرهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم انها لقلة الاقوات والحبوب بارضهم وليس كذلك فهم اكثر اهل المعمور فلحا فيما علمناه واقومهم عليه وقل ان يخلو منهم سلطان او سوقة عن فدان او مزرعة او فلح الا قليلا من اهل الصناعات والمهن او الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ولهذا يختصهم السلطان في عطاياهم بالعولة وهي اقواتهم وعلوفتهم من الزرع وانما السبب في غلاء السعر عندهم في الحبوب ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب ارضهم ارتفعت عنهم المون جملة في الفلح مع كثرته وعمومه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار

فصل في قصور البادية عن سكنى المصر الكثير العمران

والسبب في ذلك ان المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من اجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما تدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير الاعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من اجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر في قيم البياعات

وتعظم

ويعظم فيها الغلاء في المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وساير مؤنهم والبدوي لم يكن دخله كثيرا اذ كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق في الاعمال التي هي سبب الكسب فلم يتاثل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من اجل ذلك سكنى المصر الكبير لاجل مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدوه يسد خلته باقل الاعمال لانه قليل عوايد الترف في معاشه وساير مؤنه فلا يضطر الى المال وكل من يتشوف الى المصر وسكناه من اهل البادية فسريعا ما يظهر عجزه ويفتضح للامن تقدم منهم باثيل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري الى الغاية الطبيعية لاهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع احوال اهله في عوايدهم وترفهم وهكذا شان بداية الامصار والله بكل شيء محيط

فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

اعلم ان ما توفر عمرانه من الاقطار وتعددت الامم في جهاته وكثر ساكنه اتسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب في ذلك ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما سياتي ذكره من انها سبب للثروة بما يفضل عنها بعد الوفاء بالضرورات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتاثلونه حسبما نذكر في فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فتزيد الرفه لذلك وتتسع الاحوال ويجيء الترف والغنى وتكثر الجبايات للدولة بنفاق الاسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ويتفنن في اتخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الامصار واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومي لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من احوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفههم واتساع احوالهم اكثر من ان يحاط به وكذا تجار اهل المشرق وما يبلغنا عن احوالهم وابلغ منها احوال اهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين فانه يبلغنا عنهم في باب الغنى والرفه احوال غرايب يسير الركبان بحديثها وربما تتلقى بالانكار في غالب الامر ويحسب من يسمعها من العامة ان ذلك لزيادة في اموالهم او لان المعادن الذهبية والفضية اكثر بارضهم او لان ذهب الاقدمين من الامم استاثروا به دون غيرهم وليس كذلك فمعدن الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب اقرب وجميع ما في ارضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان

المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا ببضايعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ولا استغنوا
عن اموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجمون لما راوا مثل ذلك واستغربوا
ما في المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور اموالها ان عطايا الكواكب والسهام
في مواليد اهل المشرق اكثر منها حصصا في مواليد اهل المغرب وذلك صحيح من جهة
المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما اعطوا
ذلك السبب في النجومي وبقي عليهم ان يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه من كثرة
العمران واختصاصه بارض المشرق واقطاره وكثرة العمران تفيد الكسب بكثرة
الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الافاق الا ان ذلك لمجرد
الاثر النجومي فقد فهمت مما اشرنا لك اولا انه لا يستقل بذلك وان المطابقة
بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها امر لابد منه واعتبر حال الرفه من العمران في قطر افريقية
وبرقة لما خف ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها وانتهى امرهم
الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها بعد ان كانت دولة الشيعة
وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال في نفقاتهم واعطياتهم
حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر في غالب الاوقات لحاجاته
ومهماته وكانت اموال الدولة بحيث حمل جوهر القايد الكاتب في سفره الى فتح مصر الف
حمل من المال يستعد به لارزاق الجنود واعطياتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب
وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل في ذلك الوقت وكانت احواله في دولة
الموحدين متسعة وجباياته موفورة ولقد اقصر لهذا العهد عن ذلك لقصور عمرانه
وتناقصه فلقد ذهب من عمران البربر فيه الاكثر ونقص عن عمرانه المعهود نقصا ظاهرا
محسوسا وكاد يلحق في احواله بمثل احوال افريقية بعد ان كان عمرانه متصلا من البحر
الرومي الى بلاد السودان في طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهي اليوم كلها
او اكثرها قفار وخلاء وصحارا الا ما هو منها بسيف البحر والله وارث الارض
ومن عليها وهو خير الوارثين **فصل في تاثل العقار والضياع في الامصار
وحال فوايدها ومستغلاتها** اعلم ان تاثل العقار والضياع الكثيرة لاهل المدن
والامصار لا يكون دفعة ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة
ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمتها عن الحد ولو بلغت احوالهم في الرفه ما عسى ان تبلغ
وانما يكون ملكهم لها وتاثلهم تدريجا اما بالوراثة من ابائه وذوي رحمه حتى تتادى
املاك الكثيرين منهم الى الواحد واكثر لذلك او يكون بحوالة الاسواق فان العقار
في اواخر الدولة واول الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر

الى الخراب تقل الغبطة فيه لقلة المنفعة به فتتلاشى الاحوال فترخص قيمها وتتملك
بالاثمان اليسيرة وتتخطى بالميراث الى ملك الاخر واستجد المصر شبابه باستفحال
الدولة الثانية وانتظمت له احوال حسنة يحصل معها الغبطة في العقار والضياع
لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها
ويصبح مالكها اغنى اهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل
ذلك واما فوايد العقار والضياع فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه اذ هي
لا تفي بعوايد الترف واسبابه وانما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش
والذي سمعناه من مشيخة البلدان ان القصد باقتناء الملك والعقار والضياع انما هو
الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعاف ليكون مرباهم به ورزقهم منه ونشوهم بفايدته
ما داموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بانفسهم
وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه او افة في عقله المعاشي فيكون
ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين في اقتنائه واما التمول منه واجراء احوال
المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل والنادر بحوالة الاسواق وحصول
الكثرة البالغة منه والعالي في جنسه وقيمته في المصر الا ان ذلك اذا حصل ربما امتدت
اليه اعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب او ارادوه على بيعه منهم ونالت
صاحبه منه مضار ومعاطب والله غالب على امره **فصل في حاجة المتمولين
من اهل الامصار الى الجاه والمدافعة** وذلك ان الحضري اذا عظم تموله وكثر
للعقار والضياع تاثله واصبح اغنى اهل المصر ورمقته العيون بذلك وانفسحت
احواله في الترف والعوايد زاحم عليها الامراء والملوك وغصوا به ولما في طباع البشر
من العدوان تمتد اعينهم الى تملك ما في يده وينافسونه فيه ويتحيلون على ذلك
بكل ممكن حتى يحصلوه في ربقة حكم سلطاني وسبب من المواخذة ظاهر ينتزع به ماله
واكثر الاحكام السلطانية جايرة في الغالب اذ العدل المحض انما هو في الخلافة الشرعية
وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم الخلافة بعدي ثلثون سنة ثم تعود ملكا
عضوضا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه
وجاه ينسحب عليه من ذي قرابة للملك او خالصة له او عصبية يتحاماها السلطان
فيستظل بظلها ويرتع في امنها من طوارق التعدي وان لم يكن له ذلك اصبح نهبا بوجوه
التحيلات واسباب الحكام والله يحكم لا معقب لحكمه **فصل في ان الحضارة
في الامصار من قبل الدول وانها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها** والسبب
في ذلك ان الحضارة هي احوال عادية زايدة على الضروري من احوال العمران

زيادة تتفاوت وبتفاوت الرفه وتفاوت الامر في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر
ويقع فيها عند كثرة التفنن في انواعها واصنافها فيكون بمنزلة الصنايع ويحتاج
كل صنف منها الى القومة عليه المهرة فيه وبقدر ما يتميز من اصنافها يتزيد اهل
صناعتها ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقبت تلك
الصناعات حذق اولئك الصناع في صناعاتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها
وانفساح امدها وتكرار امثالها تزيدها استحكاما ورسوخا واكثر ما يكون ذلك
في الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه في اهلها وذلك كله انما يجيء قبل الدولة
لان الدولة انما تجمع اموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع احوالهم
بالجاه اكثر من اتساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في اهل
الدولة ثم فيمن تعلق بهم من اهل المصر وهم الاكثر فتعظم لديهم الصنايع في ساير فنونه
وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران
تغلب عليها احوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن
المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك الا لمجاورة السلطان
لهم وفيض امواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه فما قرب من الارض الى ان ينتهي الى الجفوف
على البعد وقد قدمنا ان السلطان والدولة سوق للعالم فالبضايع كلها موجودة
في السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت البضايع جملة ثم انه
اذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت
الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحوا
من الف واربع مائة سنة رسخت حضارتهم وحذقوا في احوال المعاش وعوايد التفنن
في صناعاته من المطاعم والملابس وساير احوال المنزل حتى انها لتؤخذ عنهم في الغالب
الى اليوم ورسخت الحضارة ايضا وعوايدها في الشام منهم ومن دولة الروم بعدهم ستمائة
سنة فكانوا في غاية الحضارة وكذلك ايضا القبط دام ملكهم في الخليقة نحوا من ثلاثة
الاف سنة فرسخت عوايد الحضارة في بلدهم مصر واعقبهم بها ملك اليونانيين
والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل فلم تزل عوايد الحضارة بها متصلة وكذلك
ايضا رسخت عوايد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بها منذ عهد التبابعة والعمالقة
الا من السنين واعقبهم ملك مصر وكذا الحضارة بالعراق لاتصال دولة النبط
والفرس بها من لدن الكلدانيين والكينية والكسروية والعرب بعدهم الافا من السنين
فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد احضر من اهل الشام والعراق ومصر وكذلك ايضا
رسخت عوايد الحضارة بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما اعقبها

من ملك بني امية الافا من السنين وكلا الدولتين عظيم فاتصلت فيها عوايد
الحضارة واستحكمت واما افريقيه والمغرب فلم يكن فيها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع
الروم والافرنجة الى افريقيه البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر اهل الضاحية
لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة واوفاز واهل المغرب لم تجاورهم دولة وانما كانوا
يبعثون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالاسلام وملك العرب
افريقيه والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا اول الاسلام وكانوا لذلك
العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بافريقيه والمغرب لم يجد بها من الحضارة ما يقلد
فيه من سلفه اذ كانوا برابر منغمسين في الحضارة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى
لاقرب العهود على يد ميسرة المطغري ايام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا امر
العرب بعد واستقلوا بامر انفسهم وان بايعوا لادريس فلا تعد دولته فيهم
عربية لان البرابر هم الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدد وبقيت افريقيه
افريقيه للاغالبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل
لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة
ثم صنهاجة من بعدهم وذلك قليل لم يبلغ اربع مائة سنة وانصرمت دولتهم
واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو العرب الهلاليين عليها
وبقي اثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يونس فيمن سلف بالقلعة
والقيروان او المهدية سلف فتجد له من احوال الحضارة في شئون منزله وعوايد
احواله اثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في اكثر امصار افريقيه وليس كذلك
في المغرب وامصاره لرسوخ الدولة بافريقيه اكثر امدا منذ عهد الاغالبة والشيعة
وصنهاجة واما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة
واستحكمت به عوايدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير
من اهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ
صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من اهل الاندلس ثم انتقل اهل شرق الاندلس
عند جالية النصارى الى افريقيه فابقوا بها وبامصارها من الحضارة اثارا ومعظمها
بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوايدها فكان بذلك
للمغرب وافريقيه حظ من الحضارة صالح عفا عليه الخلاء ورجع على اعقابه وعاد
البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فاثار الحضارة بافريقيه
اكثر منها بالمغرب وامصاره لما تداول فيها من الدول السالفة اكثر من المغرب ولقرب
عوايدهم من عوايد اهل مصر بكثرة المترددين بينهم فتفطن لهذا السر فانه خفي عن الناس

واعلم انها امور متناسبة وهي حال الدولة في القوة والضعف وكثرة الامة
او الجيل وعظم المدينة او المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك ان الدولة والملك
صورة الخليقة والعمران وكلها مادة له من الرعايا والامصار وساير الاحوال واموال
الجباية عايدة عليهم ويسارهم في الغالب من اسواقهم ومتاجرهم واذا افاض
السلطان عطاءه واموالة في اهلها انبثت فيهم ورجعت اليه ثم اليهم منه فهي ذاهبة
عنهم في الجباية والخراج عايدة عليهم في العطاء فعلى نسبة مال الدولة يكون يسار
الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا ايضا وكثرتهم يكون مال الدولة واصله كله العمران
وكثرته فاعتبره وتامله في الدول تجده والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل في ان الحضارة غاية للعمران ونهاية لعمره مؤذنة بفساده

قد بينا لك فيما سلف ان الملك
والدول غاية للعصبية وان الحضارة غاية للبداوة وان العمران كله من بداوة وحضارة
وملك وسوقة له عمر محسوس كما ان للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين
في المعقول والمنقول ان الاربعين للانسان غاية في تزايد قواه ونموها وانه اذا بلغ
سن الاربعين وقفت الطبيعة عن اثر النشو والنمو برهة ثم تاخذ بعد ذلك
في الانحطاط فلتعلم ان الحضارة ايضا في العمران كذلك لانه غاية لا مزيد وراها وذلك
ان الترف والنعمة اذا حصل لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلق
بعوايدها والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة احواله والكلف بالصنايع
التي تونق من اصنافه وساير فنونه كالصنايع المهيئة للمطابخ او الملابس او المباني او الفرش
او الانية ولساير احوال المنزل للتانق في كل واحد من هذه صنايع كثيرة لا يحتاج اليها
عند البداوة وعدم التانق فيها واذا بلغ التانق في هذه الاحوال المنزلية الغاية
تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوايد بالوان كثيرة لا يستقيم
حالها معها في دينها ولا دنياها اما دينها فلاستحكام صبغة العوايد التي تعسر نزعها
واما دنياها فلكثرة الحاجات والمونات التي تطالب بها العوايد ويعجز عن كسب
الوفاء بها وبيانه ان المصر بالتفنن في الحضارة تعظم نفقات اهله والحضارة
تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران اكثر كانت الحضارة اكمل وقد كنا قدمنا
ان المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في اسواقه واسعار حاجاته ثم تزيدها المكوس
غلاء لان كمال الحضارة انما تكون عند نهاية الدولة على استفحالها وهو زمن
وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها كما تقدم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء
لان السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضايعهم جميع ما ينفقونه حتى
في مؤنة انفسهم فيكون المكس كذلك داخلا في قيم المبيعات واثمانها فتعظم

نفقات اهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك
لما ملكهم من اثر العوايد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها في النفقات ويتتابعون
في الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقل المستامون للبضايع فتكسد الاسواق
ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدتها
في المدينة على العموم في الاسواق والعمران واما فساد اهلها في ذواتهم واحدا واحدا
على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوايد والتلون بالوان الشر في تحصيلها
وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون اخر من الوانها فلذلك يكثر
منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف
النفس الى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم اجرياء على الكذب
والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات ثم تجدهم
لكثرة الشهوات والملاذ الناشية عن الترف ابصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة
به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوي المحارم الذين
تقتضي البداوة الحياء منهم في الاقذاع بذلك وتجدهم ايضا ابصر بالمكر والخديعة يدفعون
بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبايح حتى يصير
ذلك عادة وخلقا لاكثرهم الا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من اهل الاخلاق
الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشية الدولة وولدانهم ممن اهمل عن التاديب واهملته
الدولة عن عدادها وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا اصحابه اهل انساب
وابوات وذلك ان الناس بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب
الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة باي وجه كان وفسدت
خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من اعقاب البيوت
وذوي الاحساب والاصالة واهل الدول منطرحين في الغمار منتحلين للحرف الدنية في معاشهم
بما فسد من اخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة واذا كثر ذلك في المدينة
والامة تاذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله واذا اردنا ان نهلك قرية
امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ووجهه ان مكاسبهم
ح لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوايد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم احوالهم واذا فسدت
احوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله
بعض اهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تاذنت بالخراب حتى
ان كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور تطيرا به وليس المراد ذلك ولا انه
طين في النارنج وانما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة

ثم ان النارنج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو
من غايات الحضارة اذ لا يقصد بها في البساتين الا اشكالها فقط ولا تغرس
الا بعد التفنن في مذاهب الحضارة والترف وهذا هو الطور الذي يخشى معه هلاك
المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلى وهو من هذا الباب اذ الدفلى
لا يقصد بها الا تلوين البساتين بنورها ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب
الترف **ومن مفاسد الحضارة ايضا** الانهماك في الشهوات والاسترسال
لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل وملاذها والمشارب وطيبها
ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بانواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي الى فساد
النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما في الزنا فيجهل كل واحد ابنه اذ هو لغير
رشدة ولان المياه مختلطة في الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام
عليهم فيهلكون ويؤدي ذلك الى انقطاع النوع او يكون فساد النوع بغير واسطة
كما في اللواط المؤدي الى عدم النسل راسا وهو اشد في فساد النوع اذ هو يؤدي الى ان لا يوجد
النوع والزنا يؤدي الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك في اللواط اظهر
من مذهب غيره ودل على انه ابصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح فافهم ذلك
واعتبر به ان غاية العمران هي الحضارة والترف وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد
واخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوان بل نقول ان الخلق الحاصلة من الحضارة
والترف هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه
ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته
اما عجزا لما حصل له من الدعة والسكون او ترفعا لما حصل له من المربى في النعيم والترف وكلا
الامرين ذميم وكذلك لا يقدر على دفع المضار لما فقد من خلق الباس بالترف والمربى
في قهر التأديب والتعليم فهو لذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم هو فاسد
ايضا في دينه غالبا بما افسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونت به النفس
من ملكاتها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد الانسان في قدرته ثم في اخلاقه
ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان
الذين يتقربون من جند السلطان الى البداوة والخشونة انفع من الذين يربون
على الحضارة وخلقها وهذا موجود في كل دولة فقد تبين ان الحضارة سن الوقوف
لعمر العالم من العمران والدول والله الواحد القهار **فصل في ان الامصار
التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها** قد استقر بنا في العمران
ان الدولة اذا انتقضت واختلت وان المصر الذي يكون كرسيا لسلطانها

ينتقص عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب
فيه امور الاول ان الدولة لا بد في اولها من البداوة المقتضية للتجافي عن اموال الناس
والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة
فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصر الذي كان كرسيا للملك في ملكة
هذه الدولة المتجددة ونقصت احوال الترف فيها نقص الترف فيمن كان تحت
ايديها من اهل المصر لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا لما في طباع
البشر من تقليد متبوعهم او كرها لما يدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف
في جميع الاحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصر
ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقوله في خراب المصر الامر الثاني
ان الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد العداوة والحروب
والعداوة تقتضي منافاة بين اهل الدولتين وتكثير احدهما على الاخرى في العوائد والاحوال
وغلب احد المتنافيين يذهب بالمنافي الاخر فتكون احوال الدولة السابقة منكرة
عند اهل الدولة الجديدة ومستبشعة وقبيحة وخصوصا احوال الترف فتفقد في عرفهم
بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد اخرى من الترف يكون عنها حضارة
مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران
في المصر الامر الثالث ان كل امة لا بد لهم من وطن هو منشأهم ومنه اولية ملكهم واذا ملكوا ملكا
اخر صار تبعا للاول وامصاره تابعة لامصار الاول واتسع نطاق الملك عليهم
ولا بد من توسط الكرسي بين تخوم الممالك التي للدولة لانه شبه المركز للنطاق
فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الاول وتهوي افئدة الناس اليه من اجل الدولة والسلطان فينتقل
اليه العمران ويخف من مصر الكرسي الاول والحضارة انما هو توفر العمران كما قدمناه
فتنتقص حضارته وتمدنه ومعنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد
الى اصبهان وللعرب قبلهم في العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبني العباس
في العدول عن دمشق الى بغداد ولبني مرين بالمغرب في العدول عن مراكش الى فاس وبالجملة
فاتخاذ الدولة الكرسي في مصر يخل بعمران الكرسي الاول الامر الرابع ان الدولة المتجددة
اذا غلبت على الدولة السابقة لا بد فيها من تتبع اهل الدولة السابقة واشياعها
بتحويلهم الى قطر اخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة واكثر المصر على الكرسي اشياع
للدولة اما من الحامية الذين نزلوا به اول الدولة او من اعيان المصر لان لهم في الغالب
مخالطة للدولة على طبقاتهم وتنوع اصنافهم بل اكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعة لها
وان لم يكونوا بالشوكة والعصبية فهم بالميل والمحبة والعقيدة وطبيعة الدولة

المتجددة محو آثار الدولة السابقة فينقلهم من مصر الكرسي إلى وطنها المتمكن في ملكتها فبعض
على نوع التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي إلى النفرة
حتى لا يبقى في مصر الكرسي إلا الباعة والهمل من أهل الفلح والعيارة وسواد العامة
وتنزل مكانهم من حاميتها وأشياعها من تشتد به المصر وإذا ذهب من المصر أعيانه على طبقاتهم
نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لا بد له أن يستجد عمرانا آخر في ظل الدولة الجديدة
ويحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وإنما ذلك بمثابة من يملك بيتا داخله
البلى والكثير من أوضاعه في بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه وله قدرة على تغيير تلك
الأوضاع وإعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه
ثانيا وقد وقع كثير من ذلك في الأمصار التي هي كراسي الملك وشاهدناه وعلمناه
والله مقدر الليل والنهار والسبب الطبيعي الأول في ذلك على الجملة أن الدولة
والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرر
في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر فالدولة دون العمران لا تتصور والعمران
دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من التعاون الداعي إلى الوازع
فيتعين السياسة لذلك إما الشرعية أو الملكية وهو معنى الدولة وإذا كانا لا ينفكان
فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه والخلل العظيم
إنما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الفرس والروم أو العرب على العموم أو بني
أمية أو بني العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل
أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة
لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا يؤثر كثير اختلال لأن الدولة بالحقيقة
الفاعلة في مادة العمران إنما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة العمران فإذا ذهبت أهل
الشوكة بأجمعهم عظم الخلل كما قررناه أولا والله قادر على ما يشاء إن يشأ يذهبكم ويأت
بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز **فصل في اختصاص بعض الأمصار**
ببعض الصنائع دون بعض وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها
بعضا لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعى من الأعمال يختص ببعض أهل المصر
فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم
فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في المصر والحاجة إليه وما لا يستدعى في المصر يكون
غفلا إذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به وما يستدعى من ذلك لضرورة المعاش
فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعى لعوائد الترف وأحواله
فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج

والصائغ والدهان والطباخ والصفار والسفاج والهراس والدباج وأمثال
هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث
صنائع لذلك النوع فيوجد لذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لأنها
إنما توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو إليه الترف والغنى من التنعم
ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة وإن نزع بعض الملوك والرؤساء إليه فيختطها ويجري
أحوالها إلا أنها إذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب ويفر عنها
القومة لقلة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط **فصل في وجود العصبية**
في الأمصار وتغلب بعضهم على بعض من البين أن الالتحام والاتصال
موجود في طباع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد إلا أنه كما قدمناه أضعف مما يكون
بالنسب وأنه تحصل به العصبية بعضا مما تحصل بالنسب وأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون
بالصهر يجذب بعضهم بعضا إلى أن يكونوا لحما لحما وقرابة قرابة وتجد بينهم من الصداقة
والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيكونون شيعا وعصائب مفترقين
فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الملك عن القاصية احتاج أهل الأمصار إلى القيام
على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس
بطباعها متطاولة إلى الغلب والرئاسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة
القاهرة إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشيع
والأحلاف ويبذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب فيعصوصب كل لصاحبه
ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على أكفائه ليقص من أعنتهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب
حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره أجمع ويرى
أنه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك
الأعظم من عوارض الجدة والهرم وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم
أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروب والأقطار والممالك
فينتحلون من الجلوس على السرير واتخاذ الآلة وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد والتختم
والتحية والخطاب بالتهويل ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم لما انتحلوا من شارات
الملك وليسوا لها بأهل إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت
عصبية وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذهب السذاجة فرارا من التعريض
بنفسه للسخرية والعبث وقد وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل
بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك
سموا إلى مثلها عند تقلص الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على

على امصارهم واستبدوا بامرها على الدولة في الاحكام والجباية واعطوا طاعة معروفة
وصفقة ممرضة واقطعوا جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل
عنه واورثوا ذلك اعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث
لاعقاب الملوك وخلفهم ونظموا انفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم
بالسوقة وقد كان مثل ذلك وقع في اخر الدول الصنهاجية واستقل بامصار
الجريد اهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم
عبد المومن بن علي ونقلهم كلهم من امارتهم بها الى المغرب ومحا من تلك البلاد
اثارهم كما يذكر في اخبارهم وكذا وقع بسبتة في اخر دولة بني عبد المومن وهذا التغلب
يكون غالبا في اهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في المصر وقد يحدث
التغلب لبعض السفلة من الدهماء والغوغاء واذا حصلت له العصبية والالتحام
بالاوغاد لاسباب يجرها له المقدار فيتغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا فاقدين
للعصابة والله غالب على امره

اعلم ان لغات اهل الامصار انما تكون بلسان الامة والجيل الغالبين عليها
او المختطين لها ولذلك لغات الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب
لهذا العهد عربية وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته على الامم وتغير
اعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة
صورة للوجود وللملك وكلها مواد له والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد
من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى
اللسان العربي من الالسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة
الاعاجم وقال انها خب يعني مكر وخديعة فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان
لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع
للسلطان وعلى دينه فصار استعمال اللسان العربي منهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم
ومدنهم وصارت الالسن العجمية دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها
في بعض احكامه وتغير اواخره وان كان بقي في الدلالات على اصله وسمي لسانا حضريا في جميع
امصار الاسلام وايضا فاكثر اهل الامصار في الملة لهذا العهد من اعقاب العرب الهالكين في ترفها
المالكين لها بما كثروا العجم الذين كانوا بها وورثوا ارضهم وديارهم واللغات متوارثة
فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الاباء وان فسدت احكامها بمخالطة الاعجام
شيئا فشيئا وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو
من العرب فانها كانت اعرق في العروبية ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق

وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية
فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة
اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة الحضرية بالامصار عربية
فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت
اللغة العربية فاسدة على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك الاسلامية بالعراق
وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم
وذهبت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين
المتدارسة من علوم العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله لذلك وربما بقيت اللغة
العربية المضرية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طلبا لها فانحفظت
بعض الشيء واما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له اثر ولا عين حتى ان كتب
العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس والله مقدر الليل
والنهار تم الفصل الرابع من مقدمة التاريخ بحمد الله وعونه ويتلوه الفصل الخامس
في الصفحة التالية لهذه والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد واله وصحبه وحسبنا
الله ونعم الوكيل

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

الفصل الخامس من الكتاب الاول في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشرية

اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع
الى ما يقوته ويمونه في حالاته واطواره من لدن نشوه الى اشده الى كبره والله الغني
وانتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للانسان وامتن به عليه في غير ما اية
من كتابه فقال خلق لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه وسخر لكم الشمس والقمر
وسخر لكم البحر العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وايدي البشر منتشرة
وسخر لكم الفلك وسخر لكم الانعام وكثيرا من شواهده ويد الانسان مبسوطة على العالم
وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف وايدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك وما حصل
عليه يد هذا امتنع عن الاخر الا بعوض فالانسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور
الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما اتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته

بدفع الاعواض عنها قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعي
كالمطر المصلح للزراعة وامثاله الا انها انما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي
فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا
ومتمولا ان زادت على ذلك ثم ان ذلك الحاصل او المقتنى ان عادت منفعته
على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا قال صلى الله عليه وسلم
انما لك من مالك ما اكلت فافنيت او لبست فابليت او تصدقت فامضيت
وان لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى رزقا والمتملك منه بسعي العبد
وقدرته يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانه بالنسبة الى الهالك يسمى كسبا ولا يسمى
رزقا اذ لم يحصل له به منتفع وبالنسبة الى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقة
مسمى الرزق عند اهل السنة وقد اشترط المعتزلة في تسميته رزقا ان يكون بحيث
يصح تملكه وما لا يتملك عندهم فلا يسمى رزقا واخرجوا المغصوبات والحرام كله عن
ان يسمى شيء منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر
ويختص برحمته وهدايته من يشاء ولهم في ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها ثم اعلم
ان الكسب انما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بد في الرزق من سعي
وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجهه قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعي اليه
انما يكون باقدار الله والهامه فالكل من عند الله فلا بد من الاعمال الانسانية في كل
مكسوب ومتمول لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى
من الحيوان او النبات او المعدن فلا بد فيه من العمل الانساني كما تراه والا لم يحصل
ولم يقع به انتفاع ثم ان الله سبحانه خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة
لكل متمول وهما الذخيرة والقنية لاهل العالم في الغالب وان اقتني سواهما في بعض
الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوالة الاسواق التي هما عنها
بمعزل فهما اصل المكاسب والقنية والذخيرة واذا تقرر هذا كله فاعلم ان ما يفيده الانسان
ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد والمقتنى منه قيمة عمله وهو القصد
بالقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية وقد يكون مع الصنائع
في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل الا ان العمل فيهما اكثر فقيمته
اكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل
الذي حصلت به اذ لولا العمل لم يحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير
منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت او صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في اسعار
الاقوات بين الناس فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظة في اسعار

الحبوب

الحبوب كما قدمناه لكنه خفي في الاقطار التي علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة
فلا يشعر به الا القليل من اهل الفلح فقد تبين ان المفادات والمكتسبات كلها
او اكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية وتبين مسمى الرزق وانه المنتفع به فقد بان
معنى الكسب والرزق وشرح مسماهما واعلم انه اذا فقدت الاعمال او قلت بانتقاص
العمران تأذن الله برفع الكسب الا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف
يقل الرزق والكسب فيها او يفقد لقلة الاعمال الانسانية وكذلك الامصار
التي عمرانها اكثر يكون اهلها اوسع احوالا واشد رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا
الباب يقول العامة في البلدان اذا تناقص عمرانها انه قد ذهب رزقها حتى
ان العيون والانهار ينقطع جريها في القفر لما ان فور العيون انما يكون
بالانباط والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحالب لضروع الانعام فما لم يكن امتراء ولا انباط
نضبت وغارت بالجملة كما يجف الضرع اذا ترك امتراؤه وانظره في البلاد
التي تعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها
جملة كأن لم تكن والله مقدر الليل والنهار

فصل في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

اعلم ان المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو
مفعل من العيش كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل الا بهذه جعلت موضعا
له على طريق المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما ان يكون باخذه من يد الغير وانتزاعه
باقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية واما ان يكون من الحيوان
الوحشي بافتراسه واخذه برميه من البر او البحر ويسمى اصطيادا واما ان يكون من الحيوان
الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الانعام
والحرير من دوده والعسل من نحله او يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام
عليه ويسمى هذا كله فلحا واما ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما في مواد
معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وفروسية وامثال ذلك او في مواد
غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات واما ان يكون الكسب من البضائع
واعدادها للاعواض اما بالتقلب بها في البلاد او احتكارها وارتقاب حوالة
الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش واصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من اهل
الادب والحكمة كالحريري وغيره فانهم قالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة
فاما الامارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدم شيء
من احوال الجبايات السلطانية واهلها في الفصل الثاني واما الفلاحة والصناعة
والتجارة فهي وجوه طبيعية للمعاش اما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات اذ هي

بسيطة وطبيعية وفطرية لا تحتاج الى نظر ولا الى علم ولهذا تنسب في الخليقة الى ادم ابو البشر
صلى الله عليه وسلم وانه معلمها والقايم عليها اشارة الى انه اقدم وجوه المعاش وانسبها
الى الطبيعة واما الصنايع فهي ثانيتها ومتاخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها
الافكار والانظار ولهذا لا توجد غالبا الا في اهل الحضر الذي هو متاخر عن البدو وثان
عنه ومن هذا المعنى نسبت الى ادريس عليه السلام الاب الثاني للخليقة وانه مستنبطها
لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى واما التجارة وان كانت طبيعية في الكسب فالاكثر
من طرقها ومذاهبها انما تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل
فائدة الكسب من تلك الفضلة ولهذا اباح الشرع فيه المكايسة لما انه من باب
المقامرة الا انه ليس اخذ المال من الغير مجانا فلهذا اختص بالمشروعية والله اعلم

فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

اما السلطان فلا بد من اتخاذ الخدمة في ساير ابواب الامارة والملك الذي هو سبيله
من الجندي والشرطي والكاتب ويستكفي في كل باب بمن يعلم غناءه فيه ويتكفل بارزاقهم
من بيت ماله وهذا كله مندرج في الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة
والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم واما ما دون ذلك من الخدمة فسببها ان اكثر
المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته او يكون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلوق التنعم
والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه اجرا من ماله وهذه غير محمودة بحسب
الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل احد عجز ولانها تزيد في الوظايف والخرج
وتدل على العجز والخنث الذي ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنها الا ان العوايد
تقلب طبايع الانسان الى مالوفها فهو ابن عوايده لا ابن نسبه ومع ذلك فالخديم
يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود اذ الخديم القايم بذلك لا يعدو اربع حالات
اما مضطلع بامره موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو ان يكون غير
مضطلع بامره ولا موثوق بما يحصل بيده واما بالعكس في احدهما فقط مثل ان يكون
مضطلعا غير موثوق او موثوقا غير مضطلع فالاول هو المضطلع الموثوق لا يمكن
احدا استعماله بوجه من الوجوه اذ هو باضطلاعه وثقته غني عن اهل الرتب الدنية
ومحتقر لمنال الاجر من الخدمة لاقتداره على اكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء
اهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه واما الصنف الثاني وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق
فلا ينبغي لعاقل استعماله لانه مجحف بمخدومه في الامرين معا فيضيع عليه بعدم الاضطلاع
تارة ويذهب ماله بالخيانة اخرى فهو كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع احد في استعمالهما
ولم يبق الا استعمال الصنفين الاخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس

في الترجيح

في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيحين وجه الا ان المضطلع ولو كان غير موثوق
ارجح لانه يومن من تضييعه ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة واما المضيع
ولو كان مامونا فضرره بالتضييع اكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذه قانونا في الاستكفاء
بالخدمة والله قادر على ما يشاء

فصل في ان ابتغاء الاموال من الدفاين والكنوز ليس بمعاش طبيعي

اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرصون
على استخراج الاموال من تحت الارض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون
ان اموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها بطلاسم
سحرية لا يفض ختامها ذلك الا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان
فاهل الامصار بافريقية يرون ان الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام دفنوا اموالهم
كذلك واودعوها في الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها
واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في امم القبط والروم والفرس ويتناقلون
في ذلك احاديث تشبه احاديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك
الى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجده خلوا او معمورا بالديدان
او يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم او تميد به
الارض حتى يظنه خسفا او مثل ذلك من الهذر وتجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب
العاجزين عن المعاش الطبيعي واسبابه يتقربون الى اهل الدنيا بالاوراق المتخرمة
الحواشي اما بخطوط عجمية او بما ترجم بزعمهم منها من خطوط اهل الدفاين باعطاء الامارات
عليها في اماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموهون
عليهم بانهم انما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات
وربما تكون عند بعضهم نادرة سحرية تموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل
عن السحر وطرقه فيولع الكثير من ضعفاء العقول بجمع الايدي على الاحتفار والتستر فيه
بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون اهل الدول فاذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك
الى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك يخادعون به انفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي
يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه
الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير
الوجه الطبيعي من هذا وامثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا الى تناول الرزق
من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون انهم يوقعون انفسهم
بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد اشد من الاول
ويعرضون انفسهم مع ذلك لمنال العقوبات وربما يحمل في الاكثر على ذلك

زيادة الترف وعوايده وخروجها عن حد النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه
ولا يفي بمطالبها فاذا عجز له الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه الا التمني
لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوايد التي حصل في اسرها فيحرص
على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا اكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم
المترفون من اهل الدولة ومن سكان الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال
مثل مصر وما في معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله وسائلين الركبان
عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء وهكذا بلغني عن اهل مصر في مفاوضة من يلقونه
من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين او كنز ويزيدون الى ذلك البحث
عن تغوير المياه لما يرون ان غالب هذه الاموال الدفينة كلها في مجاري النيل
وانه اعظم ما يستر دفينا او مختزنا في تلك الافاق ويموه عليهم اصحاب تلك
الدفاتر المستفعلة في الاعتذار عن الوصول اليها بجرية النيل تسترا بذلك من الكذب
حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على تغوير الماء بالاعمال السحرية
لتحصيل ابتغاه من بعده كلفا بشان السحر متوارثا في ذلك القطر عن اوليهم فعلومهم
السحرية واثارها باقية بارضهم في البرابي وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم صح
بذلك وقد تناقل اهل المغرب قصيدة ينسبونها الى حكماء المشرق تعطي فيها كيفية
العمل في التغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي * يا طالبا للسر
في التغوير اسمع كلام الصدق من خبير * دع عنك ما قد صنفوا في كتبهم من قول بهتان
ولفظ غرور * واسمع لصدق مقالتي ونصيحتي ان كنت ممن لا يرى بالزور *
فاذا اردت تغور البير التي حارت لها الافهام في التدبير * صور لصورتك
التي اوقفتها والراس راس الشبل في التقوير * ويداه ماسكتان بحبل الذي في الدلو
ينشل من قرار البير * وبصدره هاء كما عاينتها عدد الطلاق احذر من التكرير *
ويطا على الطاءات غير ملامس مشي اللبيب الكيس النحرير * ويكون حول الكل خط
دائر تربيعه اولى من التكوير * واذبح عليه الطير والطخه به واقصد
عقيب الذبح بالتبخير * بالسندروس وباللبان وميعة والقسط والبسه بثوب
حرير * من احمر او اصفر لا ازرق لا اخضر فيه ولا تكدير * ويشده خيطان
صوف ابيض او احمر من خالص التحمير * والطالع الاسد الذي قد بينوا ويكون
بدء الشهر غير منير * والبدر متصل بسعد عطارد في يوم سبت ساعة
التدبير * يعني ان تكون الطاءات بين قدميه كانه يمشي عليها وعندي ان هذه
القصيدة من تمويهات المتخرفين فلهم في ذلك احوال غريبة واصطلاحات

واصطلاحات غريبة وتنتهي المخرفة والكذب بهم الى ان يسكنوا المنازل المشهورة
والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون بها الحفر ويضعون فيها المطابق والشواهد التي
يكتبونها في صحايف كذبهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بامثال هذه الصحايف
ويبعثونه على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمونه ان به دفينا من المال لا يعبر
عن كثرته ويطالبونه بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ويعدونه
بظهور الشواهد التي قد اعدوها هنالك بانفسهم ومن فعلهم فينبعث بما يراه من ذلك
وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون
به عليهم لتخفى عنهم متجاوزتهم فيما يتناولونه من حفر وبخور وذبح حيوان وامثال ذلك
والكلام في ذلك على الحقيقة فلا اصل له في علم ولا خبر وان الكنوز وان كانت توجد
لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد اليها وليس في ذلك بامر تعم به
البلوى حتى يدخر الناس غالبا اموالهم تحت الارض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم
ولا في الحديث والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية
انما يوجد بالعثور والاتفاق لا بالقصد والطلب وايضا فمن اختزن ماله وختم
عليه بالاعمال السحرية فقد بالغ في اخفائه فكيف ينصب عليه الادلة والامارات
لمن يبتغيه ويكتب ذلك في الصحايف الذي يطلع على ذخيرته اهل الاعصار
والافاق هذا يناقض قصد الاخفاء وايضا فافعال العقلاء لا بد ان تكون لغرض
مقصود في الانتفاع ومن اختزن المال فانما يختزنه لولده او قريبه او من يوثره واما
ان يقصد اخفاءه بالكلية عن كل احد وانما هو للبلى والهلاك او لمن لا يعرفه بالكلية
ممن سياتي من الامم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه وأما قولهم اين اموال الامم
من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم ان الاموال من الذهب والفضة
والجواهر والامتعة انما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وساير
العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها او ينقصها
وما يوجد منها بايدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة
الى دولة بحسب اغراضه والعمران الذي يستدعيه فان نقص المال في المغرب وافريقية
فلم ينقص في بلاد الصقالبة والافرنجة وان نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند
والصين وانما هي الالات والمكاسب والعمران يوفرها او ينقصها مع ان المعادن
يدركها البلاء كما يدرك ساير الموجودات ويسرع الى اللولو والجواهر اعظم مما يسرع
الى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها
من البلاء والفناء ما يذهب باعيانها لاقرب وقت واما ما وقع في مصر من امر المطالب

والكنوز فسببه ان مصر كانت في ملكة القبط منذ الفين اثنين او يزيد من السنين
وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر واللالي على مذهب
من تقدم من اهل الدول فلما انقرضت دولة القبط وملكة الفرس بلادهم نقروا
عن ذلك في قبورهم وكشفوا عنه فاخذوا بقبورهم ما لا يوصف كالاهرام من قبور
الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك
العهد ويعثر على الدفين فيها في كثير من الاوقات اما ما يدفنونه من اموالهم او ما يكرمون
به موتاهم في الدفن من اوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك
فصارت قبور القبط منذ الاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك
عني اهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى انهم حين
ضربت المكوس على الاصناف اخر الدول ضربت على اهل المطالب وصارت
ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون
له من اهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والزعم باستخراجه وما حصلوا الا على الخيبة
في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع الى شيء من هذا الوسواس
او ابتلي به ان يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله صلى
الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل
نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل في ان الجاه مفيد للمال

وذلك انا نجد صاحب الجاه والحظوة في جميع اصناف المعاش اكثر يسارا وثروة
من فاقد الجاه والسبب في ذلك ان صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقرب
بها اليه في سبيل التزلف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له باعمالهم في جميع حاجاته
من ضروري او حاجي او كمالي فتحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شانه ان تبذل
فيه الاعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه
فهو بين قيم الاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لاقرب وقت ويزداد مع
الايام يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة احد اسباب المعاش كما قدمناه
وصاحب المال اذا كان فاقدا للجاه فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة
سعيه وهؤلاء هم اكثر التجار ولهذا نجد اهل الجاه منهم يكونون ايسر بكثير ومما يشهد
لذلك انا نجد كثيرا من الفقهاء واهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن
بهم واعتقد الجمهور معاملة الله في ارفادهم فاخلص الناس في اعانتهم على احوال دنياهم
والاعتمال في مصالحهم اسرعت اليهم الثروة واصبحوا مياسير من غير مال يقتنى الا ما يحصل

الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت بها من الناس لهم رأينا من ذلك اعدادا
في الامصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وهو قاعد بمنزله لا يبرح
فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السر في حال
ثروته واسباب غناه ويساره والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل في ان السعادة والكسب انما يحصل غالبا لاهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

السعادة

قد سبق لنا فيما سلف ان الكسب الذي يستفيده البشر انما هو قيم اعمالهم ولو قدر
احد عاطلا عن العمل جملة لكان فاقدا للكسب بالكلية وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال
وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نمو كسبه او نقصانه وقد بينا
آنفا ان الجاه يفيد المال بما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه باعمالهم واموالهم
في دفع المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به اليه من عمل او مال عوضا عما يحصلون
عليه بسبب الجاه من كثير الاغراض في صالح او طالح وتصير تلك الاعمال في كسبه وقيمها
اموالا وثروة له فيستفيد الغنى واليسار لاقرب وقت ثم ان الجاه متوزع في الناس
ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين فوقهم يد غالبة
وفي السفل الى من لا يملك ضرا ولا نفعا بين ابناء جنسه وبين طبقات متعددة
حكمة من الله في خليقته بما ينتظم به معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم لان النوع الانساني
لما كان لا يتم وجوده وبقاؤه الا بتعاون ابنائه على مصالحهم لانه قد تقرر ان الواحد
منهم لا يتم وجوده وانه وان ندر ذلك في صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه
ثم ان هذا التعاون لا يحصل الا بالاكراه عليه لجهلهم في الاكثر بمصالح النوع ولما جعل
لهم من الاختيار وان افعالهم انما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع فقد يمتنع من المعاونة
فيتعين حمله عليها فلا بد من حامل يكره ابناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الالهية في بقاء
هذا النوع وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا
سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون فقد تبين ان معنى الجاه هو القدرة الحاصلة
للبشر على التصرف فيمن تحت ايديهم من ابناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلط
فيهم بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل باحكام
الشرائع او السياسة وعلى اغراضه فيما سوى ذلك لكن الاول مقصود في
العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة
في القضاء الالهي لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير الا بوجود شر يسير من اجل المواد
فلا يفوت الخير لذلك بل يقع على ما ينطوي عليه من الشر اليسير وهذا معنى
وقوع الظلم في الخليقة فتفهم ثم ان كل طبقة من طباق اهل العمران من مدينة

او الاقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذي الجاه من اهل الطبقة التي فوقه ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه مع ذلك داخل على الناس في جميع ابواب المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه متسعا كان الكسب الناشي عنه كذلك وان كان ضيقا او قليلا فمثله وفاقد الجاه ولو كان له مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله او ماله على نسبة سعيه ذاهبا وجائيا في تنميته كاكثر التجار واهل الفلاحة في الغالب واهل الصناعة كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة في الاكثر ولا تسرع اليهم ثروة وانما يرمقون العيش ترميقا ويدفعون ضرورة الفقر مدافعة واذا تقرر ذلك وان الجاه متوزع وان السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت ان بذله وافادته من اعظم النعم واجلها وان باذله من اجل المنعمين وانما يبذله لمن تحت يده فيكون بذله بيد عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وتملق كما يسأل اهل العز والملوك والا فيتعذر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتملق من اسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان اكثر اهل السعادة والثروة بهذا الخلق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض من الجاه فيقتصرون في التكسب على اعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة واعلم ان هذا الكبر والترفع من الخلق المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وان الناس يحتاجون الى بضاعته من علم او صناعة كالعالم المتبحر في علمه والكاتب المجيد في كتابته والشاعر البليغ في شعره وكل محسن في صناعته يتوهم ان الناس محتاجون الى ما بيده فيحدث له ترفع عليهم بذلك وكذا يتوهم اهل الانساب ممن كان في ابائه ملك او عالم مشهور او كامل في طور يعتزون بما راوه او سمعوه من حال ابائهم في المدينة ويتوهمون انهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم اليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون في الحاضر بالامر المعدوم اذ الكمال لا يورث وكذلك اهل الحنكة والتجارب والبصر بالامور قد يتوهم بعضهم كمالا في نفسه بذلك واحتياجا اليه وتجد هولاء الاصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب جاه ولا يتملقون لمن هو اعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف احدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهوانا وسفها ويحاسب الناس في معاملتهم اياه بمقدار ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شي مما يتوهمه من ذلك وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم

فيه ويستمر في عناء عظيم من ايجاب الحق لنفسه واباية الناس له ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التاله وقل ان يسلم احد منهم لاحد في الكمال والترفع عليه الا ان يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك مقته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ من احسانهم ففقد الجاه لذلك من اهل الطبقة التي هي اعلى منه لاجل المقت وما يحصل له بذلك من التقاعد عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقي في خصاصة وفقر او فوق ذلك بقليل واما الثروة فلا تحصل له اصلا ومن هذا اشتهر بين الناس ان الكامل في المعرفة محروم من الحظ وانه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع ذلك له من الحظ وهذا معناه ومن خلق لشي يسر له والله المقدر لا رب سواه ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من اجل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك ان الدول اذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس من سواهم من ذلك وانما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكانهم خول له فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى في المنزلة عند السلطان كل من انتمى الى خدمته وتقرب اليه بنصيحته واصطنعه السلطان لغنائه في كثير من مهماته فتجد كثيرا من السوقة يسعى في التقرب الى السلطان بجده ونصحه ويتزلف اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته واهل نسبه حتى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان في جملته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عداد اهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من ابناء قومها الذين ذللوا صعابها ومهدوا اكنافها معتزون بما كان لابائهم في ذلك من الاثار لتشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدون باثاره ويجرون في مضمار الدالة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم ويميل الى هولاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفع انما دابهم الخضوع له والتملق والاعتمال في غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف اليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ويبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم ولا يزيدهم ذلك الا بعدا من السلطان ومقتا وايثارا لهولاء المصطنعين عليهم الى ان تنقرض الدولة وهذا امر طبيعي في الدول ومنه جاء شان المصطنعين في الغالب والله تعالى لا رب غيره

فصل في ان القايمين بامور الدين من القضاء والفتياء والتدريس

والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب
والسبب في ذلك ان الكسب كما قدمناه قيمة الاعمال وانها متفاوتة بحسب
الحاجة اليها فاذا كانت الاعمال ضرورية في العمران عامة البلوى فيه كانت قيمتها
اعظم وكانت الحاجة اليها اشد واهل هذه البضائع الدينية لا يضطر اليهم عامة
الخلق وانما يحتاج الى ما عندهم الخواص ممن اقبل على دينه وان احتاج الى الفتيا
والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء
في الاكثر وانما يهتم بهم وباقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح
فيقسم لهم حظا من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذي قررناه لا يساويهم
الشوكة ولا باهل الصنائع الضرورية وان كانت بضاعتهم اشرف من حيث الدين
والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب الحاجة وضرورة اهل العمران فلا يصح في قسمهم
الا القليل وهم ايضا لشرف بضائعهم اعزة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون
لاهل الجاه حتى ينالوا منه حظا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ اوقاتهم لذلك
لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على الفكر والبدن بل ولا يسعهم
ابتذال انفسهم لاهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك فلذلك لا تعظم
ثروتهم في الغالب ولقد باحثت بعض الفضلاء عن ذلك وانكر ذلك علي فوقع
بيدي اوراق مخرقة من حسابات الدواوين بدار المامون تشتمل على كثير من الدخل
والخرج يومئذ وكان فيما طالعت فيه ارزاق القضاة والائمة والمؤذنين
فوقفته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من اسرار الله في خلقه
وحكمته في عالمه والله الخالق المقدر

فصل في ان الفلاحة من معاش المستضعفين واهل العافية من البدو

وذلك لانه اصيل في الطبيعة وبسيط في منحاه
ولهذا لا تجده ينتحله احد من اهل الحضر في الغالب ولا من المترفين ويختص منتحله
بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد راى السكة ببعض دور الانصار ما دخلت
هذه دار قوم الا دخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر
عليه من الاشتغال بآلة الزرع او تجاوز الحد الذي امر به والسبب فيه والله اعلم
ما يتبعها من المغرم المفضي الى التحكم واليد العالية فيكون الغارم ذليلا بائسا بما تتناوله
ايدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة
مغرما اشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور
ونسيان حقوق الله تعالى في المتمولات واعتبار الحقوق كلها مغارم للملوك
والدول والله قادر على ما يشاء

فصل في معنى التجارة ومذاهبها واصنافها

اعلم

اعلم ان معنى التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلعة بالرخص وبيعها
بالغلاء اياما كانت السلعة من دقيق او زرع او حيوان او سلاح او قماش وذلك
القدر النامي يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح اما بان يختزن السلعة ويتحين
بها حوالة السوق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه واما بان ينقله الى بلد تنفق
فيه السلعة اكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ
من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة انا اعلمكها في كلمتين اشتر الرخيص وبع
الغالي وقد حصلت التجارة اشارة لذلك المعنى الذي قررناه والله الرزاق
ذو القوة المتين

فصل نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل
من السلع الا ما يعم الحاجة اليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة اذ في ذلك
نفاق سلعته واما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلعته
ح باعواز الشراء الى ذلك البعض لعارض من العوارض فتكسد سوقه وتفسد ارباحه
وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالي من كل
صنف من السلع انما يختص به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس
اسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق سلعته او كسادها
وكذا نقل السلع من البلد البعيد المسافة او في شدة الخطر في الطرقات يكون اكثر فائدة
للتجار واعظم ارباحا واكفل بحوالة الاسواق لان السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة
لبعد مكانها او شدة الغرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت
غلت اثمانها واما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانه حينئذ يكثر
ناقلوها فتكثر وترخص اثمانها ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان
ارفه الناس واكثرهم اموالا لبعد طريقهم ومشقته وكثرة اعتراض المفازة الصعبة
المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا في اماكن معلومة يهتدي اليها ولا الركاب
فلا يرتكب هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة
لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع
اليهم الغنى والثروة من اجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق
لبعد الشقة ايضا واما المترددون في الافق الواحد ما بين امصاره وبلدانه
ففائدتهم قليلة وارباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها والله الرزاق ذو القوة
المتين

فصل في الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الامصار ان احتكار
لتحين اوقات الغلاء به مشؤوم وانه يعود على فائدته بالتلف والخسران وسببه
والله اعلم ان الناس لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يبذلون فيها

اموالهم فيها الا باختيار وحرص لا ينبغي لهم تعلق بما اعطوه فلهذا يكون من عرف ان له ملكا يجمع القوى النفسانية على متابعته بما ياخذه من اموالهم فيفسد ربحه والله اعلم وسمعت فيما يناسب هذا حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب اخبرني شيخنا ابو عبد الله الابلي قال حضرت القاضي بفاس لعهد السلطان ابي سعيد وهو الفقيه ابو الحسن المليلي وقد عرض عليه ان يختار بعض الالقاب المخزنية لجرايته قال فاطرق مليا ثم قال لهم من مكس الخمر فاستضحك الحاضرون من اصحابه وعجبوا وسالوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها حراما فاختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه والخمر قل ان يبذل احد فيها ماله الا وهو طرب مسرور بوجدانه غير اسف عليه ولا متعلق به وهذه ملاحظة غريبة والله تعالى اعلم

فصل في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخيص

وذلك ان الكسب والمعاش كما قدمناه انما هو بالصنائع والتجارة والتجارة هي شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة الاسواق بالزيادة في اثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائما فاذا استديم الرخص في سلعة او عرض من ماكول او ملبوس او متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فيه فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف ولم يحصل الا على العناء فقعد التجار عن السعي فيها وتفسد رؤوس اموالهم واعتبر ذلك اولا بالزرع اذا استديم رخصه كيف تفسد احوال المحترفين في سائر اطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته او فقده فيفقدون النماء في اموالهم او يجدونه على قلة ويعودون بالانفاق على رؤوس اموالهم وتفسد احوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين ايضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزرع من الحرف من لدن زراعته الى مصيره ماكولا وكذا يفسد حال الجند اذا كانت ارزاقهم من السلطان عند اهل الفلح زرعا بالاقطاع فانهم تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن اقامة الجندية التي هم بسببها ويرزقون من السلطان عليها فيقطع عنهم الرزق فتفسد احوالهم وكذا اذا استديم الرخص في السكر والعسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا حال الملبوسات اذا استديم فيها الرخص ايضا فاذا الرخص المفرط مفسد مجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط ايضا وربما يكون في النادر سببا لنماء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق ومعرفة ذلك ترجع الى العوائد المتقررة بين اهل العمران وانما يحمد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بين الغني والفقير

والعالة

والعالة من الخلق هم الاكثر في العمران فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة

فصل في اي اصناف الناس ينتفع بالتجارة وايهم ينبغي له تركها

قد تقدم لنا ان معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها باغلى من ثمن الشراء اما بانتظار حوالة الاسواق او نقلها الى بلد هي فيه انفق واغلى او بيعها بالغلاء على الاجال وهذا الربح بالنسبة الى اصل المال يسير الا ان المال اذا كان كثيرا عظم الربح لان القليل في الكثير كثير ثم لابد في محاولة هذه التنمية الذي هو الربح من حصول هذا المال بايدي الباعة في شراء البضائع وبيعها وتقاضي اثمانها واهل النصفة منهم قليل فلابد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع والمطل في الاثمان المجحف بالربح لتعطيل المحاولة في تلك المدة وبها نماؤه ومن الجحود والانكار المسحت لراس المال ان لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغناء الحكام في ذلك قليل لان الحكم انما هو على الظاهر فيعاني التاجر من ذلك احوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح الا بعظيم العناء والمشقة او لا يحصل او يتلاشى راس ماله فان كان جريا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما على الحكام كان ذلك اقرب له الى النصفة منهم بجراته ومماحكته والا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من غرمائه فيحصل له بذلك النصفة واستخلاص ماله منهم طوعا في الاول وكرها في الثاني واما من كان فاقدا للجراة والاقدام من نفسه وفاقد الجاه من الحكام فينبغي له ان يجتنب التجارة لانه يعرض ماله للذهاب والضيعة ويصيره ماكلة للباعة ولا ينتصف منهم لان الناس في الغالب متطلعون الى ما في ايدي الناس لولا وازع الاحكام ما سلم لاحد شيء مما في يده وخصوصا الباعة وسفلة الناس من رعاعهم ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

فصل في ان خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة

قد قدمنا في الفصل قبله ان التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهي عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف تغض من الزكاء والمروءة وتخدج فيها لان الافعال لابد من عود اثارها على النفس فافعال الخير تعود باثار الخير والزكاء وافعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ ان سبقت وتنقص من خلال الخير ان تاخرت عنها بما ينطبع من اثارها المذمومة في النفس شان الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الاثار بتفاوت اصناف التجار في اطوارهم فمن كان منهم سافل الطور محالفا لاشرار الباعة اهل الغش

والخلابة والفجور في الايمان على البياعات والاثمان اقرارا وانكارا كانت رداءة ملكة
الخلق عنده اشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروات واكتسابها بالجملة والا
فلا بد له من تاثير المكايسة والمماحكة في مروته وفقدان ذلك فيهم بالجملة قليل ووجود
الصنف الثاني منهم الذي قدمنا في الفصل قبله انهم يدرعون بالجاه ويعوض لهم
من مباشرة ذلك فهم نادر واقل من النادر وذلك ان يكون المال قد توفر
عنده دفعة بنوع غريب او ورثه عن احد من اهل بيته فحصلت له ثروة تعينه
عن الاتصال باهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين اهل عصره فيترفع عن مباشرة
ذلك بنفسه ويدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل لهم الحكام النصفة
في حقوقهم بما يونسونه من بره والتحافه فيبعدون عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة
الافعال المقتضية لها كما مر فتكون مروتهم ارسخ وابعد عن المخرجات الا ما يسري
من اثار تلك الافعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون الى مشارفة احوال اولئك
الوكلاء ووفاقهم او خلافهم فيما ياتون او يذرون من ذلك الا انه قليل لا يكاد
يظهر اثره والله خلقكم وما تعملون **فصل في ان الصنايع لابد لها من المعلم** اعلم
ان الصناعة هي ملكة في امر عملي فكري وبكونه عمليا هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية
المحسوسة فنقلها بالمباشرة اوعب لها واكمل لان المباشرة في الاحوال الجسمانية
المحسوسة اتم فايدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره
مرة بعد اخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون الملكة ونقل المعاينة اوعب
واتم من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه اكمل وارسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر
جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنايع
منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي
يكون للكماليات والمتقدم منها في التعليم هو البسيط لبساطته اولا ولانه مختص
بالضروري تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لاجل ذلك
ناقصا ولا يزال الفكر يخرج اصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط
شيئا فشيئا على التدريج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في ازمان
واجيال اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لا سيما في الامور
الصناعية فلا بد له اذا من زمان ولهذا تجد الصنايع في الامصار الصغيرة ناقصة
ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزيدت حضارتها ودعت امور الترف فيها
الى استعمال الصنايع خرجت من القوة الى الفعل والله اعلم **فصل**
في ان الصنايع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته والسبب في ذلك

ان الناس

ان الناس ما لم يستوف العمران وتتمدن المدينة انما همهم في الضروري من المعاش
وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تمدنت المدينة وتزيدت فيها الاعمال
ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزايد الى الكمالات من المعاش ثم
ان الصنايع والعلوم انما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات
والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنايع
وهي متاخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنايع للتانق
فيها وجودة ما يطلب منها بحيث دواعي الترف والثروة واما العمران البدوي
او القليل فلا يحتاج من الصنايع الا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات
من نجار او حداد او خياط او جزار او حايك واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيها
كاملة ولا مستجادة وانما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هي كلها وسائل الى غيرها وليست
مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيها الكمالات كان من جملتها
التانق واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزيدت صنايع اخرى معها مما تدعو اليه
عوايد الترف واحواله من جزار ودباغ وخراز وصايغ وامثال ذلك وقد تنتهي
هذه الاصناف اذا استبحر العمران ان يوجد منها كثير من الكمالات ويتانق فيها
في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمنتحلها بل تكون فايدتها من اعظم فوايد
الاعمال لما يدعو اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والحمامي والطباخ
والسفاج والهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين
الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة
انما يدعو اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وامثال ذلك وقد تخرج
عن الحد اذا كان العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن اهل مصر ان فيهم من يعلم الطيور
العجم والانسية وتخيل اشياء من العجايب بايهام قلب الاعيان وتعليم الحداء
والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوانات والحجارة وغير
ذلك من الصنايع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران امصاره لم يبلغ عمران
مصر والقاهرة والله الحكيم العليم **فصل في ان رسوخ الصنايع في الامصار**
برسوخ الحضارة وطول امدها
والسبب في ذلك ظاهر وهو ان هذه كلها عوايد للعمران والالوان والعوايد
انما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال
واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا فانا نجد الامصار التي كانت استبحرت
في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقي فيها اثار من هذه الصنايع ليست في غيرها

من الامصار المستبحرة العمران وبلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك
الا لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول
الاحوال وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد
فانا نجد فيها رسوم الصنايع قائمة واحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعوا اليه
عوايد امصارها كالمباني والطبخ واصناف الغنا واللهو من الالات والاوتار
والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والاوضاع في البناء وصوغ
الانية من المعادن والخزف وجميع المواعين واقامة الولايم والاعراس وساير
الصنايع التي يدعوا اليها الترف وعوايده فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ونجد
صنايعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار
وان كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة
وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دولة
القوط وما بعدها من دولة الطوايف الى هلم فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر
الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر ايضا لطول امال الدول فيها فاستحكمت فيها
الصنايع وكملت جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة
في ذلك العمران لا تفارقه الى ان ينقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب
وكذا ايضا حال تونس فيما حصل من الحضارة بالدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم
وما استكمل لها ذلك من الصنايع في ساير الاحوال وان كان ذلك دون ما للاندلس
الا انه متضاعف برسوم منها تنقل اليها من مصر لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين
من قطرها الى قطر مصر في كل سنة وربما سكن اهلها هنالك عصورا فينقلون
من عوايد ترفهم ومحكم صنايعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت احوالها
في ذلك متشابهة من احوال مصر لما ذكرناه ومن احوال الاندلس لما ان اكثر ساكنها
من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك احوال
وان كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لعهد الان الصبغة اذا استحكمت
فقليلا ما تحول الا بزوال محلها وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد اثرا
باقيا من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا او في حكم الخراب ولا يتفطن
لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنايع اثارة تدل على ما كان بها كاثر الخط
المستقيم والله الخلاق العليم

فصل في ان الصنايع انما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

والسبب في ذلك ان الانسان لا يسمح بعمله ان يقع مجانا لانه كسبه ومنه

معاشه

معاشه اذ لا فايدة له في جميع عمره في شي مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره
ليعود عليه بالنفع واذا كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها النفاق كانت
الصناعة بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فيجتهد الناس في المدينة
ليتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق
سوقها ولا توجه قصد الى تعليمها فاختصت بالترك وفقدت للاهمال ولهذا
يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرء ما يحسنه بمعنى ان صناعته هي قيمته اي قيمة
عمله الذي هو معاشه وايضا فهنا سر اخر وهو ان الصنايع واجادتها انما تطلبها
الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها وما لم تطلبه الدولة
وانما يطلبه غيرها من اهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هي السوق الاعظم
وفيها نفاق كل شي والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق فيها كان اكثريا
ضرورة والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بنافقة
والله قادر على ما يشاء

فصل في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنايع

وذلك لما بيناه من ان الصنايع انما تستجاد
اذا احتيج اليها وكثر طالبها فاذا ضعفت احوال المصر واخذ في الهرم بانتقاص عمرانه
وقلة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضروري من احوالهم
فتقل الصنايع التي كانت من احوال الترف وتوابعه لان صاحبها لا يصح له
بها معاشه فيفر الى غيرها او يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك
الصنايع جملة كما يذهب النقاشون والصواغون والكتاب والنساخ وامثالهم
من الصناع لحاجات الترف فلا تزال الصناعات في تناقص ما دام المصر في تناقص
الى ان يضمحل والله الخلاق العليم

فصل في ان العرب ابعد الناس عن الصنايع

والسبب في ذلك انهم اعرق في البدو وابعد عن العمران الحضري وما يدعوا
اليه من الصنايع وغيرها والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومي اقوم
الناس عليها لانهم اعرق في العمران الحضري وابعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل
التي اعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة
ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها ولهذا نجد اوطان العرب وما ملكوه
في الاسلام قليل الصنايع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر اخر وانظر بلاد العجم من الصين
والهند وارض الترك وامم النصرانية كيف استكثرت فيها الصنايع واستجلبها
الامم من عندهم وعجم المغرب من البربر بمثابة العرب في ذلك لرسوخهم
في البداوة منذ احقاب من السنين ويشهد لك بذلك قلة الامصار

بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان
من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خرزه ودبغه فانهم استحضروا وبلغوا فيها
المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين اغلب السلع في قطرهم لما هم عليه
من حال البداوة واما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين
من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم احقابا متطاولة فرسخت
فيهم احوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه فلم يمح رسمها واما اليمن والبحرين
وعمان والجزيرة فان ملكها العرب الا انهم تداولوا الالاف من السنين في امم كثيرين
منهم واختطوا ايضا امصاره ومدنه وبلغوا المطلع من الحضارة والترف مثل
عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال امد الملك
والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلاء الدولة
كما قلناه فبقيت مستجدة حتى الان واختصت بذلك الموطن كصناعة الوشي
والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث الارض
ومن عليها

فصل في ان من حصلت له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها في ملكة اخرى

ومثال ذلك الخياط اذا اجاد الخياطة واحكمها ورسخت
في نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة او البناء الا ان تكون الاولى لم تستحكم
بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب في ذلك ان الملكات صفات للنفس
والوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات
واحسن استعدادا لحصولها واذا تلونت النفس بالملكة خرجت عن الفطرة
وضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة
الاخرى اضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل ان تجد صاحب صناعة
يحكمها ثم يحكم من بعدها اخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى ان اهل العلم
الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم واجادها في الغاية
فقل ان يجيد ملكة علم اخر على نسبته بل يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر
من الاحوال ومناسبة على ما ذكرناه من شأن الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة
في النفس والله اعلم

فصل في الاشارة الى امهات الصنائع

اعلم ان الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهي بحيث
تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد الا ان منها ما هو ضروري في العمران او شريف
بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها فاما الضروري فكالفلاحة والبناء
والخياطة والنجارة والحياكة واما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة
والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية في العمران وعامة البلوى اذ بها
تحصل حياة المولود ويتم غالبا وموضوعها مع ذلك المولودون وامهاتهم
واما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة
وموضوعه مع ذلك بدن الانسان واما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الانسان
حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة
نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني واما الغناء فهو نسب
الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك
الاعاظم في خلواتهم ومجالس انسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك
من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض
والدواعي والله الخلاق العليم

فصل في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة
ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على اثارة الارض لها وازدراعها وعلاج
نباتها وتعاهده بالسقي والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه
واحكام الاعمال لذلك وتحصيل اسبابه ودواعيه وهي اقدم الصنائع لما انها
محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من جميع الاشياء الا من دون
القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو واذ قدمنا انه قدم من الحضر وسابق
عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها لان احوالهم
كلها ثانية عن البداوة فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها والله الخلاق المعلم

فصل في صناعة البناء

هذه اول صنائع العمران الحضري
واقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن والماوى وذلك ان الانسان
بما جبل عليه من الفكر في عواقب احواله لا بد له ان يفكر في ما يدفع الاذاية من الحر والبرد
عنه باتخاذ البيوت ذوات الحيطان والسقف الحائلة دون ذلك من جهاته وهم
مختلفون في هذه الجبلة الفكرية التي هي معنى الانسانية فالمعتدلون فيها ولو على تفاوت
يتخذون ذلك باعتدال كاهل الاقليم الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس
واما اهل الاول والسابع فيبعدون عن اتخاذ ذلك لانحرافهم وقصور افكارهم
عن كيفية العمل في الصنائع الانسانية فيأوون الى الغيران والكهوف كما يتناولون
الاغذية من غير علاج ولا يصح ثم المعتدلون المتخذون البيوت للماوى قد يتكاثرون
فتكثر بيوتهم في البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشى من طروق
بعضهم بعضا بياتا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بادارة سياج الاسوار تحوطهم ويصير
جميعها مدينة ومصرا واحدا ويحوطهم الحكام بدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون

الى الاعتصام من العدو فيتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت ايديهم وهولاء
مثل الملوك ومن في معناهم من الامراء وكبار القبايل ثم تختلف احوال البناء في المدن
كل مدينة على ما يتعارفونه ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف
احوالهم في الغنى والفقر وكذا حال اهل المدينة الواحدة فمنهم من يتخذ القصور والمصانع
العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكثرة ولده وحشمه
وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالي عليها بالاصبغة
والجص ويبالغ في كل ذلك بالتنجيد والتنميق واظهار للبسطة في العناية بشان
ويهيئ مع ذلك الاسراب والمطامير لاختزان قوته والاصطبلات
لربط مقرباته ان كان من اهل الجنود وكثرة التابع والغاشية كالامراء ومن في معناهم
ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي وراء ذلك لقصور
حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج
الى هذه الصناعة ايضا عند تاسيس الملوك واهل الدول المدن العظيمة والهياكل
المرتفعة ويبالغون في ارتفاع الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة
الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك كله واكثر ما تكون
في الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حوله اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانما يتخذون
البيوت حظائر من القصب والطين واهل هذه الصناعة القايمون عليها متفاوتون
فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع انواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة
والاجر يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذي يعقد
معها فيلتحم كانها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة تقام منه الحيطان بان تتخذ
له لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير واوسطه
اربعة اذرع في ذراعين فينصبان على اساس قد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب
البناء في عرض الاساس ويوصل بينهما باذرعات من الخشب يربط عليها بالحبال
والجدل وتسد الجهتان الباقيتان من ذلك الفضاء بينهما بلوحين اخرين صغيرين
ثم يوضع فيه التراب مختلطا بالكلس ثم يراد التراب ثانيا وثالثا الى ان يمتلي ذلك
الفضاء بين اللوحين وقد تداخلت اجزاء الكلس والتراب وصارت جسما
واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الاولى ويركز كذلك الى ان يتم وينتظم
الالواح سطرا من فوق سطر الى ان ينتظم الحايط كله ملتحما كانه قطعة واحدة ويسمى
الطابية وصانعه الطواب ومن صنايع البناء ايضا ان تجلل الحيطان بالكلس
بعد ان تحل بالماء وتخمر اسبوعا او اسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية

المفسدة للالحام فاذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحايط ودلكه الى ان يلتحم
ومن صنايع البناء عمل السقف بان تمد الخشب المحكمة النجارة او الساذجة على حائطي
البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالدساتر ويصب عليها التراب
والكلس ويبلط بالمراكز حتى يتداخل اجزاؤهما وتلتحم ويعالى عليه الكلس كما عولي على الحايط
ومن صناعة البناء ما يرجع الى التنميق والتزيين كما تصنع من فوق الحيطان الاشكال
المجسمة من الجص يعقد بالماء ثم يرفع مجددا وفيه بقية البلل فيشكل على التناسب تخريما
بمثاقب الحديد الى ان يبقى له رونق ورواء وربما عولي على الحيطان ايضا بقطع الرخام
او الاجر او الخزف او الصدف او السبج يفصل اجزاء متناسبة او مختلفة ويوضع
في الكلس على نسب واوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحايط للعيان كانه الرياض
المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح بعد ان تعد في البيوت
الرخام القوراء المحكمة الخط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري الى الصهريج
يجلب اليها من خارج في القنوات المفضية به الى البيوت وامثال ذلك من انواع
البناء وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران المدينة
ويتسع فيكثرون وربما يرجع الحكام الى نظر هولاء فيما هم ابصر به من احوال البناء وذلك
ان الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء
للاعلى والاسفل وفي الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان
فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حق ويختلفون في استحقاق الطرق والمنافذ
للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعضهم في حايط
او علوه او قناته لتضايق الجوار او يدعي بعض على جاره اختلال حايطه وخشية سقوطه
ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه او يحتاج الى قسمة دار
او عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معها فساد في الدار ولا اهمال لمنفعتها وامثال
ذلك ويخفى جميع ذلك الا على اهل البصر بالبناء العارفين باحواله المستدلين عليها
بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة
اوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومدفوعة بحيث لا تضر
بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست
لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها
فانا قدمنا ان الصنايع وكمالها انما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك
عند ما تكون الدولة بدوية في اول امرها تفتقر في امر البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد
بن عبد الملك حين اجمع بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث

إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث إليه منهم من كمل له
غرضه من تلك المساجد وقد يصرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة
مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج
إلى البصر بشيء من مسائله وكذا في جر الأثقال بالهندام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت
بالحجارة الكبيرة تعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط فيتحيل
لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله في المعالق من أثقاب مقدرة على نسب
هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا وتسمى الآلة لذلك بالمخال فيتم
المراد من ذلك بغير كلفة وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر
وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد الذي يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية
وأن أبدانهم كانت على نسبتها في عظم الجثمان وليس كذلك وإنما تم لهم ذلك بالحيل
الهندسية كما ذكرناه فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء

فصل في صناعة النجارة

وهذه الصناعة من ضرورات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى
جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع يكمل بها ضروراته أو حاجاته وكان منها
الشجر فإن فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها اتخاذها خشبا
إذا يبست وأول منافع الخشب أن يكون وقودا للنيران في معايشهم وعصيا للاتكاء
والذود وغيرها من ضروراتهم ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك منافع
منافع أخرى لأهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد
لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر
فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه
فالخشب مادة لها ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة والصناعة
المحصلة لكل واحدة من صورها هي النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها
إلى تفصيل الخشب أولا إما بخشب أصغر منه أو بألواح ثم تركيب تلك الفصائل
بحسب الصورة المطلوبة فهو في كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل
بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو
النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس
فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في ذلك
واستجادته بغرائب من الصنعة كمالية ليست من الضروري في شيء مثل التخطيط
في الأبواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها
وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر فتبدو لرأي العين

ملتحمة

ملتحمة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من
الخشب فيجيء أنق ما يكون وكذلك جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب
من أي نوع كانت وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء السفن البحرية ذات
الألواح والدسر وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه
في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل
لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاديف
كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى جزء كبير من الهندسة في جميع
أصنافها لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة
التناسب في المقادير إما عموما أو خصوصا وتناسب المقادير لا بد من الرجوع فيه
إلى المهندس ولهذا كانت أئمة الهندسة اليونانيين كلهم أئمة في هذه الصناعة
فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجارا وبها كان يعرف وكذلك
أبلونيوس صاحب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال إن معلم هذه الصناعة
في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بها معجزته
عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكنا أعني كونه نجارا إلا أن كونه أول من علمها
لا دليل يقوم عليه لبعد الآماد وإنما معناه الإشارة إلى قدم النجارة لأنه لم تصح حكاية
عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار الصنائع في الخليقة
والله الخلاق العليم

فصل في صناعة الحياكة والخياطة

وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الدفء
فالأولى لنسج الغزل من الصوف والقطن سدى في الطول وإلحاما في العرض وإحكاما
لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال
والثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف
الأشكال والعوائد يفصل أولا بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم
تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو حبكا أو تنبيتا أو تفتيحا على حسب نوع الصناعة
وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون
الأثواب اشتمالا وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة من مذاهب
الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم المخيط في الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة
على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق العبد
قلبه بشيء من عوائد ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفا ولا يتعرض لصيد ولا لشيء
من عوائده التي تلونت بها نفسه وخلقه مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وإنما

يجيء

كانه وارد على المحشر ضارعا بقلبه مخلصا الى ربه وان كان جزاؤه ان تم له الخلاص
فى ذلك ان يخرج من ذنوبه كيوم ولدته امه سبحانك ما ارفقك بعبادك وارحمك
بهم فى طلب هدايتهم اليك وهاتان الصناعتان قديمتان فى الخليقة لما ان الدف
ضرورى للبشر فى العمران المعتدل واما المنحرف الى الحر فلا يحتاج اهله الى دف ولهذا
يبلغنا عن اهل الاقليم الاول من السودان انهم عراة فى الغالب ولقدم هذه الصنايع
تنسبها العامة الى ادريس عليه السلام وهو اقدم الانبياء عليهم السلام وربما ينسبونها
الى هرمس وقد يقال ان هرمس هو ادريس والله الخلاق العليم

فصل
فى صناعة التوليد

وهى صناعة يعرف بها العمل فى استخراج المولود الادمى من بطن
امه من الرفق فى اخراجه من رحمها وتهيئة اسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج
على ما نذكر وهى مختصة بالنساء فى غالب الامر لما انهن الظاهرات بعضهن على عورات
بعض وتسمى القائمة منهن على ذلك القابلة استعير فيه معنى الاعطاء والقبول كان
النفساء تعطيها الجنين وكانها تقبله وذلك ان الجنين اذا استكمل خلقه فى الرحم
واطواره وبلغ الى غايته والمدة التى قدر الله لمكثه وهى تسعة اشهر فى الغالب
فيطلب الخروج بما جعل الله فيه النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق
بعض جوانب الفرج بالضغط وربما انقطع ما كان فى الاغشية من الالتصاق والالتحام
بالرحم وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطلق فيكون القابلة معينة
لذلك بعض الشئ بغمز الظهر والوركين وما يحاذى الرحم من الاسافل ساوق
بذلك فعل الدافعة فى اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدى معرفة
عسره ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة التى كان يتغذى منها متصلة
من سرته بمعاه وتلك الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصة فتقطعها القابلة
بحيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم امه ثم تدمل مكان الجراحة
منه بالكى او بما تراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ
الضيق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربما تتغير اشكال اعضائه
واوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح
حتى يرجع كل الى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له ويرتد خلقه سويا ثم بعد ذلك
تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج اغشية الجنين لانها ربما تتاخر
عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك ان تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل
استكمال خروج الاغشية وهى فضلات فتتعفن ويسرى عفنها الى الرحم فيقع
الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى اعانة الدفع الى ان تخرج تلك الاغشية

ان كانت قد تاخرت ثم تراجع المولود وتمرخ اعضاؤه بالادهان والذرور
القابضة لتشدها وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ
بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق
ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذى اصابها بالطلق وما لحق رحمها
من الم الانفصال اذ المولود وان لم يكن عضوا طبيعيا فحالة التكوين فى الرحم
صيرته بالالتحام كالعضو المتصل فلذلك كان فى انفصاله الم يقرب من الم القطع
وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج وهذه
كلها ادواء نجد هؤلاء القوابل ابصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة
الرضاع من ادواء فى بدنه الى حين الفصال نجدهن ابصر بها من الطبيب الماهر
وما ذاك الا لان بدن الانسان فى تلك الحالة انما هو بدن انسانى بالقوة
فقط فاذا جاوز الفصال صار بدنا انسانيا بالفعل فكانت حاجته الى الطبيب اشد
فهذه الصناعة كما تراه ضرورية فى العمران للنوع الانسانى لا يتم كون اشخاصه
فى الغالب دونها وقد يعرض لبعض اشخاص النوع الاستغناء عنها اما بخلق الله
ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما فى حق الانبياء صلوات الله عليهم او بالهام
وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فاما
المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم ولد مسرورا
مختونا واضعا يديه على الارض شاخصا ببصره الى السماء وكذلك شان
عيسى فى المهد وغير ذلك واما شان الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم تختص
بغرايب من الالهامات كالنحل وغيرها فما ظنك بالانسان المفضل عليها وخصوصا
بمن اختص بكرامة الله ثم الالهام العام للمولودين فى الاقبال على الثدى اوضح
شاهد على وجود الالهام لهم فشان العناية الالهية اعظم من ان يحاط به ومن هنا
تفهم بطلان راى الفارابى وحكماء الاندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة
وانقطاع المكونات وخصوصا فى النوع الانسانى وقالوا لو انقطعت اشخاصه
لاستحال وجودها بعد ذلك لتوقفه على وجود هذه الصناعة التى لا يتم كون الانسان
الا بها اذ لو قدرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها الى حين الانفصال لم يتم
بقاؤه اصلا ووجود الصنايع دون الفكر ممتنع لانها ثمرته وتابعة له وتكلف
ابن سينا فى الرد على هذا الراى لمخالفته اياه وذهابه الى امكان انقطاع الانواع وخراب
عالم التكوين ثم عوده ثانية لاقتضاءات فلكية واوضاع غريبة تندر فى الاحقاب
بزعمه فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه انسانا ثم يقيض

له حيوان يخلق فيه إلهام لتربيته والحنو عليه إلى أن يتم وجوده وفصاله وأطنب في ذلك
في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كنا نوافقه
على انقطاع الأنواع لكن من غير ما استدل به فإن دليله مبني على إسناد الأفعال
إلى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه ولا واسطة على القول
بالفاعل المختار بين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة إلى التكلف ثم لو سلمناه جدلا
فغاية ما ينبني عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم
وما الضرورة الداعية إلى ذلك وإذا كان الإلهام يخلق في الحيوان الأعجم فما المانع
من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب
من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما
لما قررناه لك والله الخلاق العليم

فصل في صناعة الطب وأنها محتاج إليها في الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فإن ثمرتها حفظ
الصحة للأصحاء ودفع المرض بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أدوائهم واعلم أن أصل
الأمراض كلها إنما هو الأغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع للطب كما ينقل
بين أهل الصناعة وإن طعن فيه العلماء وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء
وأصل كل داء البردة فأما قوله المعدة بيت الداء فظاهر وأما قوله الحمية رأس الدواء
فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو
أصل الأدوية وأما قوله صلى الله عليه وسلم أصل داء البردة فمعنى البردة إدخال الطعام
على الطعام في المعدة قبل أن يتم هضم الأول شرح هذا أن الله سبحانه حفظ حياة
الإنسان بالغذاء يستعمله بالأكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير
دما ملائما لأجزاء البدن من اللحم والعظم ثم تأخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى
الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن
وتفسيره أن الغذاء إذا حصل في الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا
يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشيء كما تراه في اللقمة إذا تناولتها طعاما ثم أجدتها مضغا
فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة حتى يصير كيموسا
وترسله إلى الكبد وترسل ما رسب منه في المعى ثفلا ينفذ إلى المخرجين ثم يطبخ حرارة
الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء
وترسب منه أجزاء يابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ
الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها

طبخ

طبخ الحار الغريزي هنالك فيكون عن الدم الخالص بخار حار يمد الروح الحيواني وتأخذ
النامية مأخذها في الدم فيكون لحما ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته
من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء
وخروجه من القوة إلى الفعل لحما ثم إن أصل الأمراض ومعظمها الحميات وسببها أن الحار
الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء
دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي
أو إدخال الطعام على الطعام قبل أن يستوفي طبخه الأول فيشتغل به الحار الغريزي ويترك
الأول بحاله أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك إلى الكبد
فلا تقوى حرارة الكبد أيضا على إنضاجه وربما بقي من الغذاء الأول في الكبد فضلة غير
غير ناضجة ويرسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير ناضج كما هو فإذا أخذ البدن حاجته
الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك
وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة ويتزايد مع الأيام وكل ذي رطوبة
من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج تعفن فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج
وهو المسمى بالخلط وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هي المسماة في بدن الإنسان
بالحمى واعتبر ذلك في الطعام إذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل إذا تعفن كيف تنبعث
فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذا معنى الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض وأصلها
كما وقع في الحديث ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة
ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا
المرض وغيره وقد يكون ذلك العفن في عضو مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك
العضو أو تحدث جراحات في البدن إما في الأعضاء الرئيسة أو في غيرها وقد يمرض
العضو ويحدث مرض القوى الموجودة له هذه كلها جماع الأمراض وأصلها في الغالب
من الأغذية وهذا كله مدفوع إلى الطبيب ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار
أكثر لخصب عيشهم وكثرة مآكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية وعدم
توقيتهم لتناولها وكثرة ما يخلطون في التوابل من البقول والفواكه رطبا ويابسا
في سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون في ذلك على نوع ولا أنواع فربما عددنا في اللون
الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب
وربما يكون بعيدا عن ملاءمة البدن وأجزائه ثم إن الأهوية في الأمصار تفسد
بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات والأهوية منشطة للأرواح ومقوية
بنشاطها لأثر الحار الغريزي في الهضم ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم

في الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم اثرا فكان
وقوع الامراض كثيرا في المدن والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة
فاما اهل البدو فمأكولهم قليل في الغالب والجوع اغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم
ذلك عادة وربما يظن انها جبلة لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم او مفقودة بالجملة
وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم عنه بمعزل فيتناولون لونهم
اغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملائمة البدن واما اهويتهم فقليلة
العفن لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا اهليين او لاختلاف الاهوية ان كانوا
ظواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل او الصيد او طلب الحاجات
او مهنة انفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد ادخال الطعام على
الطعام فتكون امزجتهم اصلح وابعد عن الامراض فتقل حاجتهم الى الطب ولهذا لا يوجد
الطبيب في البادية بوجه وما ذاك الا للاستغناء عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون
له بذلك في البدو معاش يدعوه الى سكناه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة
الله تبديلا

فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية

وهو رسوم واشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو ثاني رتبة
عن الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي تميز بها عن
الحيوان وايضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد البعيد فتقضى الحاجات
وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاولين وما كتبوه
من علومهم واخبارهم فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع وخروجها في الانسان من القوة
الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي في الكمالات والطلب
لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدمنا ان هذا شأنها
وانها تابعة للعمران ولهذا نجد اكثر البدو اميين لا يقرؤن ولا يكتبون ومن قرأ
منهم او كتب فيكون خطه قاصرا او قراءته غير نافذة ونجد تعليم الخط في الامصار الخارج
عمرانها عن الحد ابلغ واحسن واسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها كما يحكى لنا عن مصر
لهذا العهد وان بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين واحكاما في وضع
كل حرف ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم
والحس في التعليم وتأتي ملكته على اتم الوجوه وانما اتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة
العمران وانفساح الاعمال وليس الشأن في تعلم الخط بالاندلس والمغرب كذلك
في تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم وانما يتعلم بمحاكاة الكلمات
جملة وتكرر ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له الى ان يحصل له الاجادة ويتمكن

في بنائه الملكة فيسمى مجيدا وقد كان الخط العربي بالغا مبالغه من الاحكام والاتقان
والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري
وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية
والمجددين لملك العرب بارض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان
عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها
قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه اهل الطائف وقريش فيما ذكر ويقال ان الذي تعلم
الكتابة من الحيرة هو سفيان بن امية ويقال حرب بن امية واخذها من اسلم بن سدرة
واقرب ممن ذهب الى انهم تعلموها من اياد اهل العراق لقول شاعرهم • قوم لهم
ساحة العراق اذا ساروا جميعا والخط والقلم • وهو قول بعيد لان ايادا وان نزلوا
ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية وانما معنى
قول الشاعر انهم اقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار
وضواحيها فالقول بان اهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها اهل الحيرة من التبابعة
وحمير هو الأليق من الاقوال رأيت في كتاب التكملة لابن الابار عند التعريف
بابن فروخ القيرواني الفارسي الاندلسي من اصحاب مالك واسمه عبد الله ابن فروخ
فقال روى ابن فروخ عن عبد الله بن زياد بن انعم عن ابيه قال قلت لعبد الله بن عباس
يا معشر قريش اخبروني عن هذا الكتاب العربي هل كنتم تكتبونه قبل ان يبعث الله محمدا صلى الله
عليه وسلم تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الالف واللام والميم
والنون قال نعم قلت وممن اخذتموه قال من حرب ابن امية قلت وممن اخذه حرب
قال من عبد الله بن جدعان قلت وممن اخذه ابن جدعان قال من اهل الانبار قلت
وممن اخذه اهل الانبار قال من طارئ طرأ عليهم من اهل اليمن قلت وممن اخذه ذلك
الطارئ قال من الخلجان بن القاسم كاتب الوحي لهود عليه السلام وهو الذي يقول
أفي كل عام سنة تحدثونها ورأي على غير الطريق يعبر • وللموت خير من حياة تسبنا
بها جرهم فيمن تسب وحمير • انتهى ما نقله ابن الابار في كتابه التكملة وزاد في آخره حدثني
بذلك ابو بكر بن ابي حمزة في كتابه عن ابي بحر بن العاصي عن ابي الوليد الوقشي عن ابي
عمر الطلمنكي عن ابي عبد الله ابن مفرج ومن خطه نقلته عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى
بن محمد بن حشيش عن عمر ابن ايوب المعافري التونسي عن بهلول بن عبيدة التجيبي
عن عبد الله بن فروخ انتهى • وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا
يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية الا انهم لم يكونوا
مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة الى الاتقان

والتمييز لبعدهم ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها في الاكثر فكانت
كتابة العرب بدوية مثل او قريبا من كتابتهم لهذا العهد او نقول ان كتابتهم لهذا العهد
احسن صناعة لان هولاء اقرب الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول واما مضر فكانوا
اعرق في البدو وابعد عن الحضر من اهل اليمن واهل العراق واهل الشام ومصر فكان
الخط العربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة
ولا التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع
لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في
الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته اقيسة رسوم صناعة الخط عند اهلها
ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه اصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد
خط ولي وعالم تبركا ويتبع رسمه خطأ او صوابا واين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه
فاتبع ذلك واثبت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه
بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط وان ما يتخيل من مخالفة خطوطهم
لاصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه في مثل زيادة الالف في لا اذبحنه انه تنبيه
على ان الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في باييد انه تنبيه على كمال القدرة الربانية وامثال
ذلك مما لا اصل له الا التحكم المحض وما حملهم على ذلك الا اعتقادهم ان في ذلك تنزيها
للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط وحسبوا ان ذلك الخط كمال فنزهوهم عن نقصه
ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وليس ذلك بصحيح
واعلم ان الخط ليس بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رايته
فيما مر والكمال في الصنائع اضافي وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات في الدين
ولا في الخلال وانما يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل
دلالته على ما في النفوس وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم اميا وكان ذلك كمالا في حقه
وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي اسباب المعاش والعمران
كلها وليست الامية كمالا في حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا
شان الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا
ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة
واحتاجت الدولة الى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه
فترقت الاجادة فيه واستحكمت وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا انها
كانت دون الغاية والخط الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب

في الاقطار

في الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد
وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز
الدولة العربية وخالفت اوضاع الخط ببغداد اوضاعه بالكوفة في الميل الى اجادة
الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء واستحكمت هذه المخالفة في الامصار الى ان رفع
رايتها ببغداد علي ابن مقلة الوزير ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب الشهير
بابن البواب ووقف سند تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها وبعدت
رسوم الخط البغدادي واوضاعه عن الكوفي حتى انتهى الى المباينة ثم ازدادت المخالفة
بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة في احكام رسومه واوضاعه حتى انتهى الى المتاخرين
مثل ياقوت المستعصمي والولي علي العجمي ووقف سند تعليم الخط عليهم وانتقل ذلك
الى مصر وخالفت طريقة العراق بعض الشيء ولقنها العجم هنالك فظهرت مخالفة
لخط اهل مصر او مباينة وكان الخط الافريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد يقرب
من اوضاع الخط المشرقي وتحيز ملك الاندلس بالامويين فتميزوا باحوالهم من الحضارة
والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما
بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت اسواق
العلوم وانتسخت الكتب واجيد كتبها وتجليدها وامتلات بها القصور والخزاين
الملوكية بما لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة
الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة
فانتقل شانها من الخط والكتاب بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل اسواقه بها
نافقة لهذا العهد وللخط بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين في وضعها
واشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلم ان يحكم اشكال تلك الحروف على تلك الاوضاع
وقد لقنها حسا وحذق فيها دربة وكتابا واخذها قوانين علمية فتجيء احسن ما يكون
واما اهل الاندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر
وتغلبت عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية
الى هذا العهد وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا باذيال الدولة فغلب
خطهم على الخط الافريقي وعفى عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوايدهما وصنايعهما
وصارت خطوط اهل افريقية كلها على الرسم الاندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الاندلس
بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس
وتمرسوا بجوارهم اذ انما كانوا يفدون على دار الملك بتونس فصار خط اهل
افريقية من احسن خطوط اهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء

وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبا واستعمالهم إياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كأن لم يعرف فصارت الخطوط بإفريقية والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله يحكم لا معقب لحكمه وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البواب قصيدة في بحر البسيط على روي الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها من أحسن ما كتب في ذلك رأيت إثباتها في هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة وأولها

يا من يريد إجادة التحرير • ويروم حسن الخط والتصوير •
إن كان عزمك في الكتابة صادقا • فارغب إلى مولاك في التيسير •
أعدد من الأقلام كل مثقف • صلب يصوغ صناعة التحبير •
وإذا عمدت لبريه فتوخه • عند القياس بأوسط التقدير •
انظر إلى طرفيه فاجعل بريه • من جانب التدقيق والتخصير •
واجعل لجلفته قواما عادلا • يخلو عن التطويل والتقصير
والشق وسطه ليبقى بريه • من جانبيه مشاكل التقدير •
حتى إذا أتقنت ذلك كله • إتقان طب بالمراد خبير •
فاصرف لرأي القط عزمك كله • فالقط فيه جملة التدبير •
لا تطمعن في أن أبوح بسره • إني أضن بسره المستور •
لكن جملة ما أقول بأنه • ما بين تحريف إلى تدوير
وألق دواتك بالدخان مدبرا • بالخل أو بالحصرم المعصور
وأضف إليه مغرة قد صولت • مع أصفر الزرنيخ والكافور •
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى • الورق النقي الناعم المخبور •
فاكبسه بعد القطع في المعصار كي • ينأى عن التشعيث والتغيير •
ثم اجعل التمثيل دأبك صابرا • ما أدرك المأمول مثل صبور •
ابدأ به في اللوح منتصبا له • عزما تجرده عن التشمير •
لا تخجلن من الرديء تخطه • في أول التمثيل والتسطير •
فالأمر يصعب ثم يرجع هينا • ولرب سهل جاء بعد عسير •
حتى إذا أدركت ما أملته • أضحيت رب مسرة وحبور
فاشكر إلهك واتبع رضوانه • إن الإله يحب كل شكور •
وارغب لكفك أن تخط بنانها • خيرا تخلفه بدار غرور •
فجميع فعل المرء يلقاه غدا • عند التقاء كتابه المنشور •

واعلم أن الخط بيان عن القول والكلام كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعنى فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة قال الله تعالى خلق الإنسان

علمه

علمه البيان وهو يشمل بيان الأدلة كلها منهما أن يكون واضح الدلالة. فالخط المجود كماله أن تكون دلالته واضحة بإبانة حروفه المتواضعة وإجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدته متميز عن الآخر إلا ما اصطلح عليه الكتاب من إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض سوى حروف اصطلحوا على قطعها مثل الألف المتقدمة في الكلمة وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها بخلاف ما إذا كانت متأخرة وهكذا إلى آخرها ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد الكتابة عليهم وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم في ذلك فينبغي أن يعدلوا عن ذلك ويتعمدوا البيان ما استطاعوا وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي لأنهما بمنزلة واحدة في عدم التواضع عليه وليس بعذر في هذا القدر إلا كتاب الأعمال السلطانية في الأموال والجيوش لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس فإنه من الأسرار السلطانية التي يجب إخفاؤها فيبالغون في رسم اصطلاح خاص بهم ويصير بمثابة المعمى وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكه أو الطيور أو الأزاهر أو وضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المصطلح عليها يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما في الضمائر بالكتابة وربما وضع حذاق الكتاب للعثور على ذلك وإن لم يضعوه أولا قوانين بمقاييس استخرجوها لذلك بمداركهم يسمونها فك المعمى وللناس فيها دواوين مشهورة والله الحكيم العليم

فصل في صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب لهذا العهد بذهاب الدول وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدول ونفاق الأسواق لذلك لديهما فكثرت التواليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر أمور الكتب والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة العمران وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلة التواليف صدر الملة كما نذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفا للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والإتقان ثم طما بحر التواليف والتدوين وكثر ترسل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد

ووضعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم
والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم المسندة إلى مؤلفيها
وواضعيها لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها
والفتوى إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها
إلى مدونها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا شأن أهل العلم وحملته في العصور
والأجيال والآفاق حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط
إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها
من موضوعها قد ذهبت وتمخضت زبدة ذلك في الأمهات المتلقاة بالقبول
عند الأمة وصار القصد إلى ذلك لغوا من العمل ولم يبق ثمرة الرواية والاشتغال
بها إلا في تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين
والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم وكانت هذه
الرسوم بالمشرق والأندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة
لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة ومنها لهذا العهد بأيدي
الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونها
إلى الآن ويشدون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة
بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاض عمرانه وبداوة
أهله وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية ينسخها طلبة البربر
صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل
منها فائدة إلا في الأقل النادر وأيضا فقد دخل الخلل من ذلك في الفتيا فإن غالب
الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هي عليه
وتبع ذلك أيضا ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم
الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم إلا أثارة بالأندلس خفية بالإمحاء وهي
على الاضمحلال فقد كاد العلم أن ينقطع بالكلية من المغرب والله غالب على أمره ويبلغنا
لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل
على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد إلا أن الخط الذي بقي من الإجادة
في الانتساخ هنالك إنما هو للعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب
وأشد والله غالب على أمره

فصل في صناعة الغناء

هذه الصناعة
هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت
منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب

متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات
وذلك أنه تبين في علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون صوت نصف
صوت وربع صوت وخمس آخر وجزء من أحد عشر جزءا من آخر واختلاف هذه النسب عند
تأديتها يخرجها عن البساطة إلى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السماع بل
تراكيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه
وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات
إما بالقرع أو بالنفخ في الآلات التي تتخذ لذلك فيزيدها لذة عند السماع فمنها لهذا العهد
بالمغرب أصناف منها المزمار ويسمونه الشبابة وهي قصبة جوفاء بأنحاء في جوانبها معدودة
ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأنحاء بالأصابع
من اليدين جميعا على تلك الأنحاء وضعا متعارفا حتى يحدث النسب بين الأصوات
فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بإدراكها للتناسب الذي ذكرناه ومن جنس
هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي وهي شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء
من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفوذة كذلك بأنحاء معدودة ينفخ فيها
بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها إليها وتصوت بنغمة حادة ويجري فيها
من تقطيع الأصوات من تلك الأنحاء بالأصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن أحسن
آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع
يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار دون الكف على شكل بري القلم وينفخ فيه
بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه فيخرج الصوت ثخينا دويا وفيه أنحاء أيضا
معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها آلات
الأوتار وهي جوفاء كلها إما على شكل قطعة من الكرة كالبربط والرباب أو على شكل مربع
كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة في رأسها إلى دسائر جائلة ليتأتى
رجوعها عند الحاجة إليه بإدارتها ثم تقرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين
طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد
في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع
بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الأصوات متناسبة
ملذوذة وقد يكون القرع في الطسوت بالقضبان أو في الأعواد بعضها ببعض
على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولنبين لك السبب في اللذة
الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم والمحسوس
إنما تدرك منه كيفية فإذا كانت متناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة

واذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة
الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفي الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبي
البخاري لانه المدرك واليه تؤديه الحاسة ولهذا كانت الرياحين والازهار العطريات
احسن رائحة واشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي واما المرئيات
والمسموعات فالملائم فيها تناسب الاوضاع في اشكالها وكيفياتها فهو انسب عند
النفس واشد ملاءمة لها فاذا كان المرئي متناسبا في اشكاله وتخاطيطه التي له بحسب
مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى
الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بادراك
ملائمها ولهذا تجد العاشقين المستهترين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج
ارواحهم بروح المحبوب ومعناه من جهة اخرى ان الوجود يشترك بين الموجودات كما تقوله
الحكماء فتود ان تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به ولما كان انسب الاشياء الى الانسان
واقربها الى ان يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الانساني فكان ادراكه للجمال
والحسن في تخاطيطه واصواته من المدارك التي هي اقرب الى فطرته فيلهج كل انسان بالحسن
من المرئي والمسموع بمقتضى الفطرة والحسن في المسموع ان تكون الاصوات متناسبة
لا متنافرة وذلك ان للاصوات كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة و
والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فاولا ان لا يخرج
من الصوت الى الضده دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وكذا الى المثل بل لا بد من توسط
المغاير بين الصوتين وتامل هذا من استقباح اهل اللسان التراكيب من الحروف
المتنافرة او المتقاربة المخارج فانه من بابه وثانيا تناسبها بالاجزاء كما مر اول الباب
فيخرج من الصوت الى نصفه او ثلثه او جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقل
متناسبا على ما حصره اهل صناعة الموسيقى فاذا كانت الاصوات على تناسب في الكيفيات
كما ذكره اهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا
ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين
على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وامثال ذلك وتسمي العامة هذه القابلية
بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤون القران فيجيدون في تلاحين اصواتهم
كانها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث
بالتركيب وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها في العمل
به اذا علم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر
العلوم وقد انكر مالك رضي الله عنه القراءة بالتلحين واجازها الشافعي

رضي الله عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فانه لا ينبغي ان يختلف في حظره
اذ صناعة الغناء مباينة للقران لان القراءة والاداء يحتاج الى مقدار من الصوت
لتعين اداء الحروف به من حيث اشباع الحركات في مواضعها ومقدار المد عند من يطلقه
او يقصره وامثال ذلك والتلحين ايضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم الا به لاجل
التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين فاعتبار احدهما قد يخل بالاخر اذا تعارضا وتقديم
التلاوة متعين فرارا من تغيير الرواية المنقولة في القران فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء
المعتبر في القران بوجه وانما المراد في اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي اليه
صاحب المضمار بطبعه كما قلناه فيردد اصواته ترديدا على نسب يدركها العالم بالغناء
وغيره فهذا محل الخلاف والظاهر تنزيه القران عن هذا كما ذهب اليه الامام رحمه الله
لان القران هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده وليس مقام التذاذ بادراك الحسن من الاصوات
وهكذا كانت قراءة الصحابة كما في اخبارهم فاما قوله صلى الله عليه وسلم لقد اوتي هذا
مزمارا من مزامير ال داود فليس المراد به الترديد والتلحين وانما معناه حسن الصوت واداء القراءة
والابانة في مخارج الحروف والنطق بها واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم انه يحدث في العمران
اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فيه فتحدث هذه الصناعة
لانه لا يستدعيها الا من فرغ عن جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها
الا الفارغون عن سائر احوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات وكان في سلطان العجم
قبل الملة منها بحر زاخر في امصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون
به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم مكان من دولتهم وكانوا
يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شان العجم لهذا العهد في كل افق
من افاقهم ومملكة من ممالكهم واما العرب فكان لهم اولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام
الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون
الكلام في تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالافادة لا ينعطف على الاخر
ويسمونه البيت فيلائم الطبع بالتجزئة اولا ثم بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادي
ثم بتادية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليه فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ
من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لاخبارهم
وحكمهم وشرفهم ومحكا لقرائحهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمروا على ذلك
وهذا التناسب الذي من اجل الاجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب
الاصوات كما هو معروف في كتاب الموسيقى الا انهم لم يشعروا بما سواه لانهم
لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة اغلب نحلهم ثم تغنى الحداة منهم

يسمونه

في حدو احلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنموا وكانوا
الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل او نوع القراءة تغبيرا بالغين المعجمة
والباء الموحدة وعللها ابو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر وهو الباقي اي باحوال
الاخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن
رشيق في اخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه السناد وكان اكثر ما يكون منهم
في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم
وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين وهو من اوايلها ولا يبعد
ان تتفطن له الطباع من غير تعليم شان البسايط كلها من الصنايع ولم يزل هذا
شان العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا
وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي
عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع في دين
ولا معاش فهجروا ذلك شيئا ما ولم يكن عندهم الملذوذ الا ترجيع القراءة والترنم
بالشعر الذي كان ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل
لهم من غنايم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق
المغنون من الفرس والروم فوقعوا بالحجاز وصاروا موالي العرب وغنوا جميعا بالعيدان
والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم
وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسايب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا
شعر العرب ولحنوه واجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم اخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج
وانظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت ايام بني العباس عند ابرهيم
بن المهدي وابرهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد
ما تبعه الحديث به وبمجالسهم لهذا العهد وامعنوا في اللهو واللعب واتخذ والات
الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده واتخذت
الات اخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل خيل من الخشب مسرجة معلقة باطراف اقبية
يلبسها النسوان ويحاكون بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويتثاقفون وامثال
ذلك من اللعب المعدة للولائم والاعراس وايام الاعياد ومجالس الفراغ واللهو
وكثر ذلك ببغداد وامصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين غلام
اسمه زرياب اخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة به فلحق بالحكم بن هشام
بن عبد الرحمن الداخل امير الاندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه واسنى له الجوائز
والاقطاعات والجرايات واحله من دولته وندمايه بمكان فاورث بالاندلس

من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوايف وطما منها باشبيلية بحر زاخر
وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم
الى امصارها وبها الان منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها وهذه الصناعة
اخر ما يحصل في العمران من الصنايع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظايف الا وظيفة
الفراغ والفرح وهي ايضا اخر ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه والله الخلاق
العليم

فصل في ان الصناعة تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب

وقد ذكرنا في الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه
بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات من المحسوسات
اولا ثم ما يكتسب بعدها من القوة النظرية الى ان يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا فيكون
ذاتا روحانية وتستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك ان يكون كل نوع من العلم والنظر
يفيدها عقلا مزيدا والصنايع ابدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي مستفاد من تلك
الملكة فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعية تفيد عقلا والحضارة
الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنايع في شان تدبير المنزل ومعاشرة ابناء الجنس
وتحصيل الاداب في مخالطتهم ثم القيام بامور الدين واعتبار ادابها وشرايطها وهذه
كلها قوانين تنتظم علوما فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنايع اكثر افادة
لذلك لانها تشتمل على علوم وانظار بخلاف الصنايع وبيانه ان في الكتابة انتقالا
من صور الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال
الى المعاني التي في النفس فهي تنتقل ابدا من دليل الى دليل ما دام ملتبسا بالكتابة وتتعود
النفس ذلك دائما فتحصل لها ملكة الانتقال من الادلة الى المدلولات وهو معنى
النظر العقلي الذي يكتسب به العلوم المجهولة فتكتسب بذلك ملكة من التعقل تكون
زيادة عقل ويحصل به مزيد فطنة وكيس في الامور بما تعوده من ذلك الانتقال
ولذلك قال كسرى في كتابه لما راهم بتلك الفطنة والكيس ديوانه اي شياطين وجنون
قالوا وذلك اصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعة
الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى
متعودا للاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون
شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون • اخر الفصل الخامس
من الكتاب الاول • تتلوه الفصل السادس في الورقة الثالثة لهذه الحمد
لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم تسليما كثيرا •

• وحسبنا الله ونعم الوكيل •

بسم الله الرحمن الرحيم • وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

الفصل السادس من الكتاب الاول في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال

وفيه مقدمة ولواحق فالمقدمة في الانسان الذي تميز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والنظر في معبوده وما جاءت به الرسل من عنده فصار جميع الحيوانات في طاعته وملك قدرته وفضله به على كثير من خلقه

فصل في الفكر الانساني

اعلم ان الله سبحانه ميز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدا كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه وذلك ان الادراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر المكنات والموجودات فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواس الظاهرة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ويزيد الانسان من بينها انه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه وذلك بقوى جعلت في بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات ويجول بالذهن فيها فيجرد منها صورا اخرى والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب وهو معنى الافئدة في قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة والافئدة جمع فؤاد وهو هنا الفكر وهو على مراتب الاولى تعقل الامور المترتبة في الخارج ترتيبا طبيعيا او وضعيا ليقصد ايقاعها بقدرته وهذا الفكر اكثره تصورات وهو العقل التمييزي الذي به يحصل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره الثانية الفكر الذي يفيد الاراء والاداب في معاملة ابناء جنسه وسياستهم الى ان تتم الفائدة منها وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي الثالثة الفكر الذي يفيد العلم او الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل وهذا هو العقل النظري وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاما خاصا على شروط خاصة فتفيد معلوما اخر من جنسها في التصور

او التصديق

او التصديق ثم ينتظم مع غيره فيفيد معلوما اخر كذلك وغاية افادته تصور الوجود على ما هو عليه باجناسه وفصوله واسبابه وعلله فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلا محضا ونفسا مدركة وهو معنى الحقيقة الانسانية

فصل في ان عوالم الحوادث الفعلية انما تتم بالفكر

اعلم ان عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر واثارها والمكونات الثلاثة عنها التي هي المعدن والنبات والحيوان وهذه كلها متعلقات القدرة الالهية وعلى افعال صادرة عن الحيوانات واقعة بقصودها متعلقة بالقدرة التي جعل الله لها عليها فمنها منتظم مترتب وهي الافعال البشرية ومنها غير منتظم ولا مترتب وهي افعال الحيوانات غير البشر وذلك ان الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع او الوضع فاذا قصد ايجاد شيء من الاشياء فلاجل الترتيب بين الحوادث لا بد من التفطن بسببه او علته او شرطه وهي على الجملة مباديه اذ لا يوجد الا ثانيا عنها ولا يمكن ايقاع المتقدم متاخرا ولا المتاخر متقدما وذلك المبدا قد يكون له مبدا اخر من تلك المبادئ لا يوجد الا متاخرا عنه وقد يرتقي ذلك وينتهي فاذا انتهى الى اخر المبادي في مرتبتين او ثلاث او ازيد وشرع في العمل الذي يوجد به ذلك الشيء بدا بالمبدا الاخير الذي انتهى اليه الفكر فكان اول عمله ثم تابع ما بعده الى اخر المسببات التي كانت اول فكرته مثلا لو فكر في ايجاد سقف يكنه انتقل بذهنه الى الحائط الذي يدعمه ثم الى الاساس الذي يقف عليه الحائط فهو اخر الفكر ثم يبدا في العمل بالاساس ثم بالحائط ثم بالسقف وهو اخر العمل وهذا معنى قولهم اول العمل اخر الفكر واول الفكر اخر العمل فلا يتم فعل الانسان في الخارج الا بالفكر في هذه المترتبات لتوقف بعضها على بعض ثم يشرع في فعلها واول هذا الفكر هو المسبب الاخير وهو اخرها في العمل واولها في العمل هو المسبب الاول وهو اخرها في الفكر ولاجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في الافعال البشرية واما الافعال الحيوانية لغير البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذي يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل اذ الحيوانات انما تدرك بالحواس ومداركها متفرقة خلية من الربط لانه لا يكون الا بالفكر ولما كانت الحوادث المعتبرة في عالم الكائنات هي المنتظمة وغير المنتظمة انما هي تبع لها اندرجت افعال الحيوانات فيها فكانت مسخرة للبشر واستولت افعال البشر على عالم الحوادث بما فيه فكان كله في طاعته وتسخيره وهذا معنى الاستخلاف المشار اليه في قوله تعالى اني جاعل في الارض خليفة فهذا الفكر هو الخاصة البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان وعلى قدر حصول الاسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون انسانيته فمن الناس من تتوالى له السببية في مرتبتين او ثلاث ومنهم من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهي الى خمس او ست فتكون انسانيته اعلى وانظر ذلك بلاعب الشطرنج

فان في اللاعبين من يتصور الثلاث حركات والخمس الذي ترتيبها وضعي ومنهم من يقصر
عن ذلك لقصور ذهنه وان كان هذا المثال غير مطابق لان لعب الشطرنج بالملكة
ومعرفة الاسباب والمسببات بالطبع لكنه مثال يحتذي به الناظر في تعقل ما يورد عليه
من القواعد والله خلق الانسان وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا **فصل في العقل**
التجربي وكيفية حدوثه انك تسمع في كتب الحكماء قولهم الانسان مدني بالطبع
يذكرونه في اثبات النبوات وغيرها والنسبة فيه الى المدينة وهي عندهم كناية عن الاجتماع
البشري ومعنى هذا القول انه لا يمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتم وجوده الا مع ابناء
جنسه وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته فهو محتاج الى المعاونة في جميع
حاجاته ابدا بطبعه وتلك المعاونة لا بد فيها من المفاوضة اولا ثم المشاركة وما بعدها وربما
يفضي المعاملة عند اتحاد الاغراض الى المنازعة والمشاجرة فتنشأ المنافرة والمؤالفة والصداقة
والعداوة ويؤول الى الحرب والسلم بين الامم والقبائل وليس ذلك على اي وجه
اتفق كما بين الهمل من الحيوانات بل للبشر بما جعل الله فيهم من انتظام الافعال وترتيبها بالفكر
كما تقدم جعل ذلك منتظما فيهم ويسرهم لايقاعه على وجوه سياسية وقوانين حكمية
ينكبون فيها عن المفاسد الى المصالح وعن القبيح الى الحسن بعد ان يميزوا القبائح والمفسدة بما ينشأ
منها عن الفعل عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم فيفارقون الهمل من الحيوان وتظهر
عليهم نتيجة الفكر في انتظام الافعال وبعدها عن الخلل وهذه المعاني التي يحصل بها
ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفاد
لانها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريبا في الواقع فيستفيد
طالبها حصول العلم بها من ذلك ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له
منها مقتنصا له بالتجربة بين الوقائع في معاملة ابناء جنسه حتى يتعين له ما يجب وينبغي فعلا
وتركا وتحصل بملابسته الملكة في معاملة ابناء جنسه ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل
له العثور على كل قضية قضية ولا بد بما تسعه التجربة من الزمن وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل
ذلك في اقرب من زمن تحصيلها بالتجربة اذا قلد فيها الاباء والمشيخة والاكابر ولقن عنهم
عنهم ووعاء تعليمهم فيستغنى عن طول المعاناة في تتبع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها
ومن فقد العلم في ذلك والتقليد فيه او اعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناؤه في
التادب بذلك فيجري في غير مالوف ويدركها على غير نسبة فتوجد ادابه ومعاملاته سيئة
الاوضاع بادية الخلل ويفسد حاله في معاشه بين ابناء جنسه وهذا معنى القول المشهور
من لم يؤدبه والداه ادبه الليل والنهار اي من لم يلقن الاداب في معاملات البشر
من والديه وفي معناهما المشيخة والاكابر ويتعلم ذلك منهم رجع الى تعلمه بالطبع من الواقع

على توالي الايام فيكون الزمان معلمه ومؤدبه لضرورة ذلك بضرورة المعاونة
التي في طبعه وهذا هو العقل التجربي وهو يحصل بعد العقل التمييزي الذي تقع به الافعال
كما قدمناه وبعد هذين مرتبة العقل النظري الذي تكفل بتفسيره اهل العلوم فلا نحتاج
الى تفسيره في هذا الكتاب والله جعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون
فصل في علوم البشر وعلوم الملائكة انا نشهد في انفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة
عوالم اولها عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالادراك
ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم منه وجود النفس الانسانية علما ضروريا بما بين جنبينا
من مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الحس فنراه عالما اخر فوق مدارك الحس ثم
نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من اثاره التي تلقى في افئدتنا كالارادات والوجهات
نحو الحركات الفعلية فنعلم ان هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الارواح
والملائكة وفيه ذوات مدركة لوجود اثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة وربما يستدل
على هذا العالم الاعلى الروحاني وذواته بالرؤيا وما نجد في النوم ويلقى علينا فيه من الامور
التي نحن في غفلة عنها في اليقظة وتطابق الواقع في الصحيحة منها فنعلم انها حق ومن عالم الحق
واما اضغاث الاحلام فصور خيالية يخزنها الادراك في الباطن ويجول الفكر فيها بعد الغيبة
عن الحس ولا نجد لهذا العالم الروحاني برهانا اوضح من هذا فنعلمه كذلك على الجملة ولا نجد له
تفصيلا وما يزعمه الحكماء الالهيون في تفصيل ذواته وترتيبها المسماة عندهم بالعقول فليس
شيء من ذلك بيقيني لاختلال شرط البرهان النظري فيه كما هو مقرر في كلامهم في المنطق لان من شرطه
ان تكون قضاياه اولية وهذه الذوات الروحانية مجهولة الذاتيات فلا سبيل الى البرهان
فيها ولا يبقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم الا ما نقتبسه من الشرعيات التي يوضحها الايمان
ويحكمها واقعد هذه العوالم في مداركنا عالم البشر لانه وجداني مشهود في مداركنا الجسمانية
والروحانية ويشترك في عالم الحس مع الحيوانات وفي عالم العقل والارواح مع الملائكة
الذين ذواتهم من جنس ذواته وهي ذوات مجردة عن الجسمانية والمادة وعقل صرف يتحد
فيه العقل والعاقل والمعقول كانه ذات حقيقتها الادراك والعقل فعلومهم حاصلة
دائما مطابقة بالطبع لمعلوماتها لا يقع فيها خلل البتة وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم
في ذواتهم بعد ان لم تكن حاصلة فهو كله مكتسب والذات التي يحصل فيها صور المعلومات
وهي النفس مادة هيولانية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئا
فشيئا حتى تستكمل ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها فالمطلوبات فيها
مترددة بين النفي والاثبات دائما بطلب احدهما بالوسط الرابط بين الطرفين فاذا حصل
وصار معلوما افتقر الى بيان المطابقة وربما اوضحها البرهان الصناعي لكنه من وراء الحجاب

وليس كالمعاينة التي في علوم الملائكة وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير الى المطابقة
بالعيان الادراكي فقد تبين ان البشر جاهل بالطبع للتردد الذي في علمه وعالم بالكسب
والصناعة لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية وكشف الحجاب الذي اشرنا
اليه انما هو بالرياضة بالاذكار التي افضلها صلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر وبالتنزه
عن المتناولات المهمة وراسها الصوم وبالوجه الى الله بجميع قواه والله علم الانسان
ما لم يعلم **فصل في علوم الانبياء عليهم السلام** انا نجد هذا الصنف من البشر تعترضهم
حالة الهية خارجة عن منازع البشر واحوالهم فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية
في القوى الادراكية والنزوعية من الشهوة والغضب وسائر الاحوال البدنية
فتجدهم متنزهين عن الاحوال البشرية الا في الضرورات منها مقبلين على الاحوال الربانية
من العبادة والذكر لله بما تقتضي معرفتهم به مخبرين عنه بما يوحى اليهم في تلك الحالة من هداية
الامة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدل فيهم كانه جبلة فطرهم الله عليها وقد تقدم
لنا الكلام في الوحي اول الكتاب في فصل المدركين للغيب وبينا هنالك ان الوجود كله في عوالمه
البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من اعلاها واسفلها متصلة كلها اتصالا لا ينخرم وان الذوات
التي في اخر كل افق من العوالم مستعدة لان تنقلب الى الذات التي تجاورها من الاسفل
الى الاعلى استعدادا طبيعيا كما في العناصر الجسمانية البسيطة وكما هو في النخل والكرم
من اخر افق النبات مع الحلزون والصدف من افق الحيوان وكما في القردة التي اجتمع فيها
الكيس والادراك مع الانسان صاحب الفكر والروية وهذا الاستعداد الذي في
جانبي كل افق من العالم هو معنى الاتصال فيها وفوق العالم البشري عالم روحاني شهدت
لنا به الاثار التي فينا منه بما يعطينا من قوى الادراك والارادة فذوات ذلك العالم ادراك
صرف وتعقل محض وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك كله ان يكون للنفس الانسانية
استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من
الاوقات وفي لمحة من اللمحات ثم تراجع بشريتها وقد تلقت في عالم الملائكة ما كلفت
بتبليغه الى ابناء جنسها من البشر وهذا هو معنى الوحي وخطاب الملائكة والانبياء كلهم
مفطورون عليه كانه جبلة لهم ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة والغطيط
ما هو معروف عنهم وعلومهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان لا يلحقه الخطاء والزلل
ولا يقع فيه الغلط والوهم بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجاب الغيب وحصول
الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة الى البشرية لا يفارق علمهم الوضوح استصحابا
له من تلك الحالة الاولى لما هم عليه من الذكاء المفضي بهم اليها يتردد وذلك فيهم دايما
الى ان تكمل هداية الامة التي بعثوا اليها كما في قوله تعالى انما انا بشر مثلكم يوحى الي

انا

انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه فافهم ذلك وراجع ما قدمناه لك
اول الكتاب في اصناف المدركين للغيب يتضح لك شرحه وبيانه فقد بسطناه هنالك
بسطا شافيا والله الموفق **فصل** في ان الانسان جاهل
بالذات عالم بالكسب قد بينا اول هذه الفصول ان الانسان من الحيوانات وانه
ميزه عنها بالفكر الذي جعل له يوقع به افعاله على انتظام وهو العقل التمييزي او يقتنص
به العلم بالاراء والمصالح والمفاسد من ابناء جنسه وهو العقل التجريبي او يحصل به علم
تصور الموجودات غايبا وشاهدا على ما هي عليه وهو العقل النظري وهذا الفكر انما يحصل
له بعد كمال الحيوانية فيه ويبدا من التمييز فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة معدود من
الحيوانات لاحق بمبداه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة وما حصل له
بعد ذلك فهو بما جعل له من مدارك الحس والافئدة التي هي الفكر قال تعالى في الامتنان
علينا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة فهو في الحالة الاولى قبل التمييز هيولى فقط
لجهله بجميع المعارف ثم تستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته فتكمل ذاته الانسانية
في وجودها وانظر الى قوله تعالى في مبدا الوحي على نبيه اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان
من علق اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم اي اكسبه من العلم ما لم يكن
حاصلا له بعد ان كان علقة ومضغة فقد كشف لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل
الذاتي والعلم الكسبي واشارت اليه الاية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه باول مراتب
وجوده وهي الانسانية وحالتاها الفطرية والكسبية في اول التنزيل ومبدا الوحي وكان
الله عليما حكيما **فصل في ان تعلم العلم من جملة الصنايع** وذلك ان الحذق
في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة في الاحاطة بمباديه وقواعده
والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من اصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق
في ذلك الفن حاصلا وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي لانا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن
الواحد مشتركا بين من شدا في ذلك الفن ومن هو مبتدي فيه وبين العامي الذي لم يحصل
علما وبين العالم النحرير والملكة انما هي للعالم او الشادي في الفنون دون من سواهما فدل
على ان هذه الملكة غير الفهم والملكات كلها جسمانية وسواء كانت في البدن او في الدماغ
من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند
في التعليم في كل علم او صناعة يفتقر الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند اهل كل افق وجيل
ويدل ايضا على ان تعلم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة
المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شان الصنائع كلها فدل على ان ذلك الاصطلاح
ليس من العلم اذ لو كان من العلم لكان واحدا عند جميعهم الا ترى الى علم الكلام كيف

يخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتاخرين وكذا اصول الفقه وكذا العربية والفقه
وكذا كل ما يحتاج اليه والى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة فدل على انها صناعات
في التعليم والعلم واحد في نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم ان سند العلم لهذا العهد قد كاد
ان ينقطع عن اهل المغرب كلهم باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك
من نقص الصنايع وفقدانها كما مر وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب
والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنايع اسواق نافقة وبحور زاخرة
ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم
عن المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش مستفادا منهما ولم ترسخ الحضارة
بمراكش لبداوة الدولة الموحدية في اولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم تتصل احوال
الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى المشرق من افريقية
القاضي ابو القاسم بن زيتون لعهد اواسط السابعة فادرك تلميذ الامام ابن
الخطيب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس
بعلم كبير وتعليم حسن وجاء على اثره من المشرق ابو عبد الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب
فاخذ عن مشيخة مصر ورجع الى تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فاخذ عنهما اهل تونس واتصل
سند تعليمهما في تلميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن
الحاجب وتلميذه فانه قرا مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس باعيانها وتلميذ
ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا العهد الا انهم من القلة بحيث
يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل من زواوة في اخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشدالي
الى المشرق وادرك تلميذ ابي عمرو ابن الحاجب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرا مع شهاب
الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى المغرب
بعلم كبير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها وربما انتقل الى تلمسان
عمران المشدالي من تلميذه واوطنها وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية و
وتلمسان قليل او اقل من القليل وبقيت فاس وساير امصار المغرب خلوا من حسن التعليم
من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة
والحذق في العلوم وايسر طرق هذه الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل
العلمية قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شانها
ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس
العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة فلا يحصلون
على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى منهم انه قد حصل

تجد

تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض او ناظر او علم وما اتاهم القصور الا من قبل التعليم
او انقطاع سنده والا فحفظهم ابلغ من حفظ من سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم
انه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في المغرب ان المدة
المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس ست عشرة سنة وهي بتونس خمس سنين وهذه المدة
بالمدارس على المتعارف هي اقل ما يتاتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية
او الياس من تحصيلها فطال امدها في المغرب لهذه القصور لاجل عسرها من قلة الجودة
في التعليم خاصة لا مما سوى ذلك واما اهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت
عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم
العلم فيهم الا فن العربية والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه فيهم فانحفظ بحفظه
واما الفقه بينهم فرسم خلو واثر بعد عين واما العقليات فلا اثر ولا عين وما ذاك
الا لانقطاع سند التعليم فيها بانقطاع العمران وتغلب العدو على عامتها الا قليلا بسيف
البحر شغلهم بمعايشهم اكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على امره واما المشرق فلم ينقطع
سند التعليم فيه بل اسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال
السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد
والبصرة والكوفة الا ان الله قد اداله منها بامصار اعظم من تلك وانتقل العلم منها
الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل
موفورة وعمرانها متصلا وسند التعليم بها قائما فاهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة
تعليم العلم بل وفي ساير الصنايع حتى انه ليظن كثير من رحالة اهل المغرب الى المشرق في طلب
العلم ان عقولهم على الجملة اكمل من عقول اهل المغرب وان نفوسهم الناطقة اكمل
بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة
الانسانية لما يرونه من كيسهم في العلوم والصنايع وليس كذلك وليس بين قطر
المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي يتفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم
الا الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس
على نسبتها كما مر وانما الذي فضل به اهل المشرق اهل المغرب هو ما يحصل في النفس
من اثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنايع ونزيده الان شرحا وتحقيقا
وذلك ان الحضر لهم اداب في احوالهم من المعاش والمسكن والبناء وامور الدين
والدنيا وكذلك ساير عاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلهم في ذلك
اداب يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلبسون به من اخذ وترك حتى كانها
حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنايع يتلقاها الاخر عن الاول منهم ولا شك

ان كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس اثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة
اخرى ويتهيأ بها العقل لسرعة الادراك للمعارف ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن اهل
مصر غايات لا تدرك مثل انهم يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من الماشي
والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز اهل المغرب عن فهمها فضلا
عن تعليمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان
ذكاء في عقله واضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدمنا ان النفس
انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع
الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامي تفاوتا في الحقيقة الانسانية وليس كذلك الا ترى
الى الحضر مع اهل البدو وكيف تجد الحضري متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوي ليظنه انه قد فاته
في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته من ملكات الصنائع والاداب
في العوائد والاحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها
وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها لكمال في عقله وان نفوس اهل البدو
قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد في اهل البدو من هو في اعلى رتبة
من الفهم والكمال في عقله وفطرته وانما الذي ظهر على اهل الحضر من ذلك هو رونق اهل
الصنائع والتعليم فان لهما آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه وكذا اهل المشرق لما كانوا
في التعليم والصنائع ارسخ رتبة واعلى قدما وكان اهل المغرب اقرب الى البداوة كما قدمناه في الفصل
قبل هذا ظن المغفلون في بادي الرأي انه لكمال في الحقيقة الانسانية اختصوا به عن اهل المغرب
وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء **فصل في ان العلوم انما تكثر
حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة** والسبب في ذلك ان تعليم العلم كما قدمناه
من جملة الصنائع وقد كنا قدمنا ان الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها
في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لانه امر
زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش
من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ
في القرى والامصار غير المتمدنة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في اهل
البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها
واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر
الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات
التعليم واصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى اربوا على المتقدمين وفاتوا
المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم

بها

بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام ونحن نرى لهذا العهد ان العلم والتعليم
انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف
من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم واكد ذلك فيها
وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من ايام
صلاح الدين بن ايوب وهلم جرا وذلك ان امراء الترك في دولتهم يخشون عادية
سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق والولاء ولما يخشى من معاطب
الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف
المغلة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها او نصيب فيها مع ما فيهم غالبا من الجنوح
الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت
الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب
العلم من العراق والمغرب ونفقت بها اسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء
فصل في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد اعلم ان العلوم
التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الامصار تحصيلا وتعليما هي على صنفين صنف
طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره وصنف نقلي ياخذه عمن وضعه فالاول هي العلوم
الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه
البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على
الصواب من الخطأ فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثاني هي العلوم النقلية الوضعية
وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من
مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد
وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسي الا ان هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت
الحكم في الاصل وهو نقلي فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه واصل هذه العلوم
النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله
وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للاستفادة منها ثم يستتبع ذلك علوم اللسان
العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن واصناف هذه العلوم النقلية كثيرة
لان المكلف يجب عليه ان يعلم احكام الله المفروضة عليه وعلى ابناء جنسه وهي
مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص او بالاجماع او بالالحاق فلا بد من النظر في الكتاب
ببيان الفاظه اولا وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبي صلى الله عليه
وسلم الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات
ثم باسناد السنة الى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة احوالهم

وعدالتهم الوثوق باخبارهم وبعمل ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم
الحديث ثم لا بد في استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانوني يفيدنا العلم بكيفية
هذا الاستنباط وهذا هو اصول الفقه وبعد هذه تحصل الثمرة بمعرفة احكام الله تعالى في افعال
المكلفين وهذا هو الفقه ثم ان التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالايمان
وما يجب ان يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقايد الايمانية في الذات والصفات
وامور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلة العقلية وهو
علم الكلام ثم النظر في القران والحديث لا بد ان تتقدمه العلوم اللسانية لانه
متوقف عليها وهي اصناف فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الاداب
حسبما نتكلم عليها كلها وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الاسلامية واهلها وان كانت
كل ملة على الجملة لا بد فيها من مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث انها علوم الشريعة
المنزلة من عند الله على صاحب الشريعة المبلغ لها واما على الخصوص فمباينة لجميع الملل
لانها ناسخة لها وكل ما قبلها من العلوم المختصة بالملل فمهجورة والنظر فيها محظور فقد نهى
الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القران وقال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا اهل
الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا امنا بالذي نزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد
ورأى صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة فغضب حتى تبين
الغضب في وجهه ثم قال الم اتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيا ما وسعه
الا اتباعي ثم ان هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت اسواقها في هذه الملة
بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين الى الغاية التي لا فوقها وهذبت الاصطلاحات
ورتبت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق وكان لكل فن رجال
يرجع اليهم فيه واوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك والمغرب بما هو
مشهور منها حسبما نذكره الان عند تعديد هذه الفنون وقد كسدت لهذا العهد
اسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند التعليم كما قدمناه في الفصل
قبله وما ادري ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر
الصنايع الضرورية والكمالية لكثرة العمران فيه والعمران والحضارة ووجود الاعانة
لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التي اتسعت بها ارزاقهم والله مقدر الليل والنهار

علوم القران من التفسير والقراآت

القران هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين
الامة الا ان الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة
في الفاظه وكيفيات الحروف في ادائها وتنوقل ذلك واشتهر الى ان استقرت

منها

منها سبع طرق معينة تواتر نقلها ايضا بادائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر
بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراآت السبع اصولا للقراءة وربما زيد بعد
ذلك قراآت اخر لحقت بالسبع الا انها عند ائمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل
وهذه القراآت السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها
لانها عندهم كيفيات للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر
القران واباه الاكثر وقالوا بتواترها وقال اخرون بتواتر غير الاداء منها كالمد
والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون
هذه القراآت وروايتها الى ان كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم
وصارت صناعة مخصوصة وعلما منفردا وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل
بعد جيل الى ان ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالي العامريين وكان معتنيا بهذا
الفن من بين فنون علوم القران لما اخذه به مولاه المنصور بن ابي عامر واجتهد
في تعليمه وعرضه على من كان من ائمة القراء بحضرته فكان سهمه في ذلك وافرا واختص
مجاهد بعد ذلك بامارة دانية والجزاير الشرقية فنفقت بها سوق القراءة بما كان
هو من ائمتها وبما كان له من العناية بساير العلوم عموما وبالقراءة خصوصا فظهر
لعهده ابو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت اليه روايتها
اسانيدها وتعددت تواليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا
من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه ابو القاسم بن فيره من اهل
شاطبة فعمد الى تهذيب ما دونه ابو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها
اسماء القراء بحروف ابجد على ترتيب احكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون
اسهل للحفظ لاجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وعني الناس بحفظها
وتلقينها للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربما اضيف
الى فن القراآت فن الرسم ايضا وهي اوضاع حروف القران في المصحف ورسومه
الخطية لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كزيادة الياء
في بأييد وزيادة الالف في لا اذبحنه ولا اوضعوا والواو في جزاؤا الظالمين وحذف
الالف في مواضع دون اخرى وما رسم فيه من التاآت ممدودا والاصل فيه مربوط
على شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط فلما جاءت
هذه المخالفة لاوضاع الخط وقانونه احتيج الى حصرها فكتب الناس فيها ايضا عند كتبهم في العلوم
وانتهت بالمغرب الى ابي عمرو الداني المذكور فكتب فيها كتبا من اشهرها كتاب
المقنع واخذ به الناس وعولوا عليه ونظمه ابو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة

على روى لهم وولع الناس بحفظها ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف اخرى ذكرها ابو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلميذ ابي عمرو الداني والمشهور بحمل علومه وروايه كتبه ثم نقل بعده خلاف اخر فنظم الخراز من المتاخرين بالمغرب ارجوزة اخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب ابي داود وابي عمرو والشاطبي في الرسم

واما التفسير فاعلم ان القران نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم وكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وايات ايات لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقايع ومنها ما هو في العقايد الايمانية ومنها ما هو في احكام الجوارح ومنها ما يتقدم ومنها ما يتاخر ويكون ناسخا له وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو المبين لذلك كما قال تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه اصحابه فعرفوه وعرفوا سبب الايات ومقتضى الحال منها منقولا عنه كما علم من قوله تعالى اذا جاء نصر الله والفتح انها نعي النبي صلى الله عليه وسلم وامثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول والسلف حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الاثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي والثعالبي وامثالهم من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله ان يكتبوه من الاثار ثم صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة واحكام الاعراب والبلاغة في التراكيب ووضعت الدواوين في ذلك بعد ان كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتنوسي ذلك وصارت تتلقى من كتب اهل اللسان فاحتيج الى ذلك في تفسير القران لانه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير صنفين تفسير نقلي مستند الى الاثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ومقاصد الاي وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك واوعوا الا ان كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود والسبب في ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم وانما غلب عليهم البداوة والامية فاذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتشوق اليه النفوس الانسانية في اسباب المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود فانما يسالون عنه اهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم اهل التورية من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى واهل التورية الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين اخذوا بدين اليهودية فلما اسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل اخبار بدء الخليقة

وما يرجع الى الحدثان والملاحم وامثال ذلك وهولاء مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله ابن سلام وامثالهم فامتلات التفاسير من المنقولات عنهم في امثال هذه الاغراض اخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى الاحكام فيتحرى فيها الصحة التي يجب بها العمل وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤا كتب التفسير بهذه المنقولات واصلها كما قلناه عن اهل التورية الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الا انهم بعد صيتهم وعظمت اقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص وجاء ابو محمد بن عطية من المتاخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو اقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين اهل المغرب والاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب اخر مشهور بالمشرق

والصنف الاخر من التفسير وهو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تادية المعنى بحسب المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل ان ينفرد عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات وانما جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض التفاسير غالبا ومن احسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير كتاب الكشاف للزمخشري من اهل خوارزم العراق الا ان مولفه من اهل الاعتزال في العقايد فياتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في اي القران من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من اهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية محسنا للحجاج عنها فلا جرم انه مامون من غوائله فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل الينا في هذه العصور تاليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من اهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع الفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بادلة تزيفها ويبين ان البلاغة انما تقع في الاية على ما يراه اهل السنة لا على مذهب المعتزلة فاحسن في ذلك ما شاء مع امتاعه في ساير فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

علوم الحديث

واما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة فان منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفا من الله تعالى بعباده وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما ننسخ من اية او ننسها نات بخير منها او مثلها ومعرفة الناسخ والمنسوخ وان كان عاما للقران والحديث الا ان الذي في القران منه اندرج في تفاسيره وبقي ما كان خاصا بالحديث راجعا الى علومه فاذا تعارض الخبران بالنفي

والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التاويل وعلم تقدم احدهما تعين ان المتاخر
ناسخ وهو من اهم علوم الحديث واصعبها قال الزهري اعيا الفقهاء واعجزهم ان يعرفوا
ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه ومنسوخه وكان للامام الشافعي رضي الله عنه
فيه قدم راسخة ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها ائمة المحدثين لمعرفة
الاسانيد والرواة واسمائهم وكيفية اخذ بعضهم عن بعض واحوالهم وطبقاتهم
واختلاف اصطلاحاتهم وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بشرط ان يغلب على الظن صدقه فيجب
على المجتهد تحقيق الطرق التي تحصل ذلك الظن وذلك بالنظر في اسانيد الحديث
بمعرفة رواته بالعدالة والضبط والاتقان والبراءة من السهو والغفلة بوصف
عدول الامة لهم بذلك ثم تفاوت مراتبهم فيه ثم كيفية رواية بعضهم عن بعض بسماع
الراوي من الشيخ او قراءته عليه او سماعه تقرأ عليه وكتابة الشيخ له او مناولته او اجازته
في الصحة والقبول منقول عنهم واعلى مراتب المنقول عندهم الصحيح ثم الحسن وادون مراتبه
الضعيف ويشتمل على المرسل والمنقطع والمعضل والمعلل والشاذ والغريب والمنكر
فمنها ما اختلفوا في رده ومنها ما اجمعوا عليه وكذلك شانهم في الصحيح فمنه ما اجمعوا
على قبوله وصحته ومنها ما اختلفوا فيه وبينهم في تفسير هذه الالقاب اختلاف كثير ثم
اتبعوا ذلك بالكلام في الفاظ تقع في متون الحديث من غريب او مشكل او تصحيف
او مفترق او مختلف ووضعوا لهذه الفصول كلها قانونا كفيلا ببيان ذلك المراتب
والالقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص فيها واول من وضع هذا القانون
من فحول ائمة الحديث ابو عبد الله الحاكم وهو الذي هذبه واظهر محاسنه وتواليفه
فيه مشهورة ثم كتب ائمتهم فيه من بعده واشهر كتاب المتاخرين فيه كتاب ابي عمرو بن
الصلاح كان في اوائل المائة السابعة وتلاه محيي الدين النووي بمثل ذلك والفن
شريف في مغزاه لانه معرفة ما تحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتى يتعين
قبولها او ردها من الصحابة والتابعين معروفون في امصار الاسلام منهم بالحجاز
وبالبصرة وبالكوفة ثم بالشام ومصر مشهورون في امصارهم وكانت طريقة الحجاز
من بينهم اعلى وامتن في الصحة بتجافيهم عن قبول المستورين المجهولة احوالهم وسند الطريقة
الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة ثم اصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي
وابن وهب وابن بكير والقعنبي ومحمد ابن الحسن ومن بعدهم الامام احمد بن حنبل في اخرين من امثالهم
وكان علم الشريعة في مبداء الامر نقلا صرفا لا نظرا ولا رايا ولا تعمقا في القياس شمر لها
السلف وتحروا الصحيح حتى اكملوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطا على طريقة

الحجاز

الحجازيين اودعه اصول الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على ابواب الفقه ثم
عني الحفاظ بمعرفة طرق الاحاديث واسانيدها المختلفة الحجازية والعراقية وغيرهما وقد تتحد
في بعض الاحاديث وتتعدد ويتكرر الحديث في ابواب الفقه باختلاف المعاني
التي اشتمل عليها وجاء محمد بن اسمعيل البخاري فاوسع نطاق الرواية وخرج احاديث
السنة على ابوابها في مسنده الصحيح وجمع طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين
واعتمد منها ما اجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكررت احاديثه في الابواب
باختلاف معانيها كما اشرنا اليه فاشتمل كتابه على سبعة الاف حديث ومائتين تكررت
منها ثلاثة الاف وفرق الطرق والاسانيد عليها مختلفة في كل باب ثم جاء مسلم بن الحجاج
القشيري فالف مسنده الصحيح اتبع فيه البخاري في نقل المجمع على صحته وحذف المكرر
وجمع الطرق والاسانيد فبوبه على ابواب الفقه وتراجمه واستدرك الناس عليهما
في استيعاب الصحيح وجاء وانما اغفلا عن شروطهما ثم كتب ابو داود السجستاني وابو
عيسى الترمذي وابو عبد الرحمن النسوي في السنن باوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت
فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية في الاسناد وهي الصحيح كما هو معروف واما من الذي
دون كالحسن وغيره ليكون ذلك اماما للعمل بالسنة وهذه الاسانيد المعتمدة في الملة
وهي امهات كتب الحديث من السنة ولحق بهذه الخمسة مسانيد اخرى كمسند ابي داود
الطيالسي والبزار وعبد بن حميد والدارمي وابي يعلى الموصلي والامام احمد قاصدين فيها
المسندات عن الصحابة من غير ان يكون محتجا بها هكذا قال ابن الصلاح وفي الرواية
عن الامام احمد انه كان يقول لابنه عبد الله في كتابه المسند وهو يشتمل على احد وثلثين
الف حديث وعن جماعة من اصحابه انهم قالوا قرأ علينا المسند وقال هذا كتاب
انتقيته من سبع مائة الف وخمسين الف حديث فما اختلف فيه المسلمون من الاحاديث
النبوية ولم تجدوه فيه فليس بحجة فهذا يدل على ان جميع ما في مسنده يصح الاحتجاج به
عكس ما قاله ابن الصلاح نقلته من مناقب الامام احمد لابن الجوزي وقد انقطع لهذا
العهد تخريج شيء من الاحاديث واستدراكها على المتقدمين اذ العادة تشهد بان هؤلاء
الائمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شيئا
من السنة او يتركوه حتى يعثر عليه المتاخر وانما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامهات
المكتوبة وضبطها بالرواية واسنادها الى مؤلفيها لتتصل الاسانيد محكمة من مبدئها
الى منتهاها ولم يزيدوا في ذلك على العناية باكثر من هذه الامهات الخمسة الا في الاقل
فاما صحيح البخاري وهو اعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منحاه
من ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من اهل الحجاز والشام والعراق

ومعرفة احوالهم واختلاف الناس فيهم وكذلك يحتاج الى امعان النظر في التفقه في التراجم
لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند او طريق ثم يورد اخرى ويورد فيها ذلك
الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب وكذلك في ترجمة وترجمة الى ان يتكرر
الحديث في ابواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها ومن النظر في تراجمه بيان المناسبة
بين الترجمة والاحاديث التي في ضمنها وطال كلام الناس في بيانها كما وقع في كتاب الفتن
في الباب الذي ترجم فيه بقوله باب يخرب البيت ذو السويقتين من الحبشة ثم قال
قال الله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا ولم يزد على ذلك في الباب
شيئا وخفي على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما في الباب فمنهم من قال كان
المص رحمه الله يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الاحاديث في كل ترجمة بحسب ما تيسر له
وتوفي قبل ان يستوفي حشو التراجم فروي الكتاب كذلك وسمعت من اصحاب
القاضي ابن بكار قاضي غرناطة واستشهد في واقعة طريف سنة اربعين وسبع
مائة وكان قايما على صحيح البخاري انه اراد بالترجمة تفسير الاية بان ذلك مشروع لا مقدر
لان الاشكال انما جاء من تفسير جعلنا بقدرنا واذا كان بمعنى شرعنا لم يكن لبس في تخريب
ذوي السويقتين اياها سمعت ذلك من شيخنا ابي البركات البلفيقي عنه وكان من جلة
تلميذه ومن شرح الكتاب ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال
وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح
كتاب البخاري دين على الامة يعنون ان احدا من علماء الامة لم يوف ما وجب له
من الشرح بذلك الاعتبار واما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به واكبوا عليه
واجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري قال ابن الصلاح وانما يفضل على كتاب البخاري
بما وقع فيه من تجريده عما مزج به البخاري كتابه من غير الصحيح مما لم يكتبه على شرطه واكثر
ما وقع في التراجم واملاء الامام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا سماه المعلم بفوايد
مسلم واشتمل على عيون من علوم الحديث وفنون من الفقه ثم اكمله القاضي عياض من بعده
وتممه وسماه الاكمال المعلم وتلاهما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين
وزاد عليهما وجاء شرحا وافيا واما كتب السنن الاخرى الثلثة وفيها معظم ماخذ الفقهاء
فاكثر شرحها في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكتب الناس واستوفوا من ذلك
ما يحتاج اليه من علوم الحديث وموضوعاتها والمسانيد التي اشتملت على الاحاديث
المعمول بها من السنة واعلم ان الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين
صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها ميزها ائمة الحديث وجهابذته وعرفوها ولم يبق
طريق في تصحيح ما لم يصح من قبل ولقد كان الائمة في الحديث يعرفون الاحاديث

بطرقها

بطرقها واسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه تفطنوا الى انه قد قلب
عن وضعه وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن احاديث قلبوا اسانيدها فقال
لا اعرف هذه ولكن حدثني فلان ثم اتى بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح ورد كل
متن الى سنده فاقروا له بالامامة واعلم ايضا ان الائمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار
من هذه البضاعة والاقلال فابو حنيفة رحمه الله يقال انه بلغت روايته الى سبعة
عشر حديثا او نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلثمائة
حديث او نحوها واحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده ثلثون الف حديث والكل الى ما اداه
اليه اجتهاده في ذلك وقد يقول البعض المتعصبين المتعسفين ان منهم من كان قليل
البضاعة في الحديث ولهذا قلت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الائمة لان الشريعة
انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه
وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن اصول صحيحة ويتلقى الاحكام عن صاحبها
المبلغ لها عن الله وانما قلل منهم من قلل الرواية لاجل المطاعن التي تعترضه فيها والعلل
التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض
مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته لضعف
الطرق هذا مع ان اهل الحجاز اكثر رواية للحديث من اهل العراق لان المدينة دار الهجرة
ومأوى الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد اكثر والامام ابو حنيفة انما قلت
روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل فاستصعب وضعف الحديث اذا عارضه
العقلي القطعي فاستصعب وقلت روايته فقل حديثه لا انه ترك رواية الحديث
الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك ويدل على انه من كبار المجتهدين في علم الحديث
اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا واما غيره من المحدثين وهم
الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع اصحابه من بعده
في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوي فاكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر الا انه
لا يعدل الصحيحين لان الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابيهما مجمع عليها بين الامة
كما قالوه وشروط البخاري غير متفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلهذا قدم
الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه عن شروطهم ومن اجل هذا قيل
في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحة ما فيهما على الشروط المتفق عليها
فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم احق الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة
لهم ثم من علوم الحديث تصريف الكلام لهذا القانون على الاحاديث واحدا واحدا في
ابوابها وتراجمها في تفاسير هذه الاسانيد كما فعله الحافظ ابو عمر بن عبد البر وابو محمد بن

الى رتبة

حزم والقاضي عياض ومحيي الدين النووي وابن العطار بعدهما وكثير من ائمة المغاربة و
وان كان في كلامهم على تلك الاحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها واعرابها الا ان الكلام
في اسانيدها بصناعة الحديث اوعب واكثر هذه اصناف علوم الحديث المتداولة
بين ائمة الامصار لهذا العهد والله الهادي الى الحق والمعين عليه

الفقه وما يتبعه من الفرايض

والفقه هو معرفة احكام
الله في افعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والاباحة وهي متلقاة من الكتاب
والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الادلة فاذا استخرجت الاحكام من تلك الادلة
قيل لها فقه وكان السلف يستخرجونها من تلك الادلة على اختلاف فيما بينهم لا بد من وقوعه
ضرورة ان غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضاءات الفاظها خلاف
كثير من معانيها وخصوصا الاحكام الشرعية خلاف بينهم معروف وايضا فالسنة مختلفة
الطرق في الثبوت وتتعارض في اكثر احكامها فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف وايضا فالادلة
من غير النصوص مختلف فيها وايضا فالوقايع المتجددة لا توفي بها النصوص وما كان
منها غير واضح في النصوص فيحمل على منصوص لمشابهة بينهما وهذه كلها مثارات للخلاف
ضرورية الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة من بعدهم ثم ان الصحابة
رضي الله عنهم لم يكونوا كلهم اهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وانما كان ذلك مختصا
منهم بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وساير دلالته
بما تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم او ممن سمعه منه من عليتهم وكانوا يسمون لذلك
القراء اي الذين يقرؤن الكتاب لان العرب كانوا امة امية فاختص من كان منهم
قاريا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ وبقي الامر كذلك صدر الملة ثم عظمت
امصار الاسلام وذهبت الامية عن العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط
وكمل الفقه واصبح صناعة وعلما فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه
فيهم الى طريقتين طريقة اهل الراي والقياس وهم اهل العراق وطريقة اهل الحديث وهم
اهل الحجاز وكان الحديث قليلا في اهل العراق لما قدمناه فاستكثروا من القياس ومهروا
فيه فلذلك قيل لهم اهل الراي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه
الامام ابو حنيفة وامام اهل الحجاز ملك بن انس والشافعي من بعده ثم انكر القياس طايفة
من العلماء وهم الظاهرية وابطلوا العمل به وهم الظاهرية وجعلوا مدارك الشرع كلها
منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس الجلي والعلة المنصوصة الى النص لان النص
على العلة نص على الحكم في جميع محالها وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه واصحابهما
فكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة وشذ اهل

البيت

البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة
بالقدح وعلى قولهم بعصمة الائمة ورفع الخلاف عن اقوالهم وهي كلها اصول واهية وشذ
بمثل ذلك الخوارج ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل اوسعوها جانب الانكار والقدح
فلا يعرف شيء من مذاهبهم ولا تروى كتبهم ولا اثر لشيء منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة
في بلادهم وحيث كانت دولهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن والخوارج كذلك
ولكل منهم كتب وتواليف وآراء في الفقه غريبة ثم درس مذهب اهل الظاهر اليوم
بدروس ائمته وانكار الجمهور على منتحله ولم يبق الا في الكتب المجلدة وربما يعكف كثير من الطالبين
ممن تكلف بانتحال مذهبهم على تلك الكتب يروم اخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يحلو بطائل
ويصير الى مخالفة الجمهور وانكارهم عليه وربما عد بهذه النحلة من اهل البدع بتلقيه العلم من الكتب
من غير مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علو مرتبته في حفظ الحديث وصار
الى مذهب اهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في اقوالهم وخالف امامهم داود وتعرض للكثير
من ائمة المسلمين فنقم الناس عليه ذلك واوسعوا مذهبه استهجانا وانكارا وتلقوا كتبه
بالاغفال والترك حتى انها ليحظر بيعها في الاسواق وربما تمزق في بعض الاحيان ولم يبق
الا مذاهب اهل الراي بالعراق واهل الحديث من الحجاز فاما اهل العراق فامامهم الذي استقرت
عنده مذاهبهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهد له بذلك اهل
جلدته وخصوصا ملك والشافعي واما اهل الحجاز فكان امامهم ملك بن انس الاصبحي امام
دار الهجرة رحمه الله واختص بزيادة مدرك آخر للاحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره
وهو عمل اهل المدينة لانه راى انهم فيما يتفقون عليه من فعل او ترك متابعون لمن قبلهم
ضرورة لدينهم واقتدائهم وكذلك الجيل المباشرين لفعل النبي صلى الله عليه وسلم الآخذين
عنه وصار ذلك عنده من اصول الادلة الشرعية وظن كثير ان ذلك من مسائل الاجماع فانكره
لان دليل الاجماع لا يخص اهل المدينة من سواهم بل هو شامل للامة واعلم ان الاجماع انما هو
الاتفاق على الامر الديني عن اجتهاد وملك رحمه الله لم يعتبر عمل اهل المدينة من هذا المعنى
وانما اعتبره من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة الى ان ينتهي الى الشارع صلوات الله عليه
وضرورة اقتدائهم تعين ذلك نعم المسئلة ذكرت في باب الاجماع لانه اليق الابواب بها
من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع الا ان اتفاق اهل الاجماع عن اجتهاد
وراي بالنظر في الادلة واتفاق هولاء في فعل او ترك مستندين الى مشاهدة من قبلهم
ولو ذكرت المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم او الادلة المختلف فيها مثل شرع من قبلنا
ومذهب الصحابي والاستصحاب كان اليق والله الموفق ثم كان من بعد ملك ابن
انس محمد بن ادريس المطلبي الشافعي رحمه الله رحل الى العراق من بعد ملك ولقي اصحاب

الامام ابي حنيفة واخذ عنهم ومزج طريقة اهل الحجاز بطريقة اهل واختص بمذهب وخالف
مالكا رحمه الله في كثير من مذاهبه وجاء من بعدهما احمد بن حنبل وكان من علية المجتهدين وقرا
اصحابه على اصحاب ابي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف
التقليد في الامصار عند هولاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس
باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول
الى رتبة الاجتهاد ولما خشي من اسناد ذلك الى غير اهله ومن لا يوثق برايه ولا بدينه
فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هولاء كل من اختص به من المقلدين
وحظروا ان يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبهم وعمل
كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لا محصول
للفقه غير هذا ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور تقليده وقد صار اهل
الاسلام اليوم على تقليد هولاء الاربعة **فاما ابن حنبل** فمقلده قليل واكثرهم بالشام والعراق
وبغداد ونواحيها وهم اكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث وميلا بالاستنباط اليه
مع القياس ما امكن وكان لهم ببغداد كثرة وصولة حتى كانوا يتواقعون مع الشيعة
في نواحيها وعظمت الفتنة ببغداد من اجل ذلك ثم انقطع ذلك عند استيلاء
التطر عليها ولم يراجع وصارت كثرتهم بالشام **واما ابو حنيفة** فمقلده اليوم اهل
العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلهم لما كان مذهبه اخص
بالعراق ودار الاسلام وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس فكثرت تواليفهم
ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاؤا منها بعلم مستظرف
وانظار غريبة وهي بين ايدي الناس وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابو
الوليد الباجي وابن العربي في رحلتهما **واما الشافعي** فمقلدوه بمصر اكثر مما سواها وقد كان
وقد كان انتشر علمه بالعراق وخراسان وما وراء النهر وقاسموا الحنفية الفتوى والتدريس
في جميع الامصار وعظمت مجالس المناظرات بينهم وشحنت كتب الخلافيات بانواع
استدلالاتهم ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره وكان الامام محمد
بن ادريس لما نزل على بني عبد الحكم بمصر اخذ عنه جماعة منهم وكان تلميذه بها البويطي
والمزني وغيرهم وكان بها من المالكية جماعة من بني عبد الحكم واشهب وابن القاسم
وابن المواز وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم القاضي بن شعبان واصحابه ثم
انقرض فقه اهل السنة والجماعة من مصر بظهور دولة الرافضة وتداول بها فقه اهل
البيت وكاد من سواهم ان يتلاشوا ويذهبوا وارتحل اليها القاضي عبد الوهاب
من بغداد آخر المائة الرابعة على ما علم من الحاجة والتقلب في المعاش فتاذن خلفاء

العبيديين باكرامه واظهار فضله نعيا على بني العباس في اطراح مثل هذا الامام والاغتباط
به فنفقت سوق المالكية بمصر قليلا الى ان انقرضت دولة العبيديين على يد صلاح
الدين ابن ايوب فذهب منها فقه اهل البيت وعاد فقه الجماعة الى الظهور بينهم وتوفر
من ذلك فقه الشافعي واصحابه من اهل العراق فعاد الى احسن ما كان ونفق سوقه
وجلب كتاب الرافعي منها الى الشام ومصر واشتهر فيهم محيي الدين النووي من الحبلة
التي ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين بن عبد السلام ثم ابن الرفعة
بمصر وتقي الدين ابن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي من بعدهما الى ان انتهى ذلك
الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني فهو كبير الشافعية بها الاكبر
العلماء من اهل العصر **واما ملك** فاختص مذهبه باهل المغرب والاندلس وان كان
يوجد في غيرهم الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم غالبا كانت الى الحجاز
وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا
على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم ملك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده
فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل اليهم طريقته وايضا
فالبداوة كانت غالبة على اهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل
العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم
غضا ولم ياخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ولما صار مذهب
كل امام علما مخصوصا عند اهل مذهبه ولم يكن لهم سبيل الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا
الى تنظير المسائل في الالحاق وتفريقها عند الاشتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة
من مذاهب امامهم وصار ذلك كله يحتاج الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع
من التنظير والتفرقة واتباع مذاهب امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا
العهد واهل المغرب جميعا مقلدون لملك رضي الله عنه وقد كان تلاميذه افترقوا
ومصر فكان بالعراق منهم القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خواز وابن المنتاب والقاضي
ابو بكر الابهري والقاضي ابو الحسن بن القصار ومن بعدهم وكان بمصر ابن القاسم واشهب
وابن عبد الحكم والحرث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الاندلس يحيى بن يحيى الليثي ولقي ملكا وروى
عنه كتاب الموطا وكان من جلة اصحابه ورحل بعده عبد الملك بن حبيب فاخذ عن ابن
القاسم وطبقته وبث مذهب ملك بالاندلس ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون
العتبي من تلامذته كتاب العتبية ورحل من افريقية اسد بن الفرات فكتب عن اصحاب
ابي حنيفة اولا ثم انتقل الى مذهب ملك وكتب عن ابن القاسم في سائر ابواب الفقه
وجاء الى القيروان بكتابه وسمي الاسدية نسبة الى اسد بن الفرات فقرا بها سحنون

على اسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم واخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سحنون مسائلها ودونها واثبت ما رجع عنه منها وكتب معه ابن القاسم الى اسد ان يمحو من اسديته ما رجع عنه وان ياخذ بكتاب سحنون فانف من ذلك فترك الناس كتابه واتبعوا مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط المسائل في الابواب فكانت تسمى المدونة والمختلطة وعكف اهل القيروان على هذه المدونة واهل الاندلس على الواضحة والعتبية ثم اختصر ابن ابي زيد المدونة والمختلطة في كتابه المسمى بالمختصر ولخصه ايضا ابو سعيد البرادعي من فقهاء القيروان في كتابه المسمى بالتهذيب واعتمده المشيخة من اهل افريقية واخذوا به وتركوا ما سواه وكذا اعتمد اهل الاندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها ولم يزل علماء المذهب يتعاهدون هذه الامهات بالشرح والايضاح والجمع فكتب اهل افريقية على المدونة ما شاء الله ان يكتبوه مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز والتونسي وابن بشير وامثالهم وكتب اهل الاندلس على العتبية ما شاء الله ان يكتبوه مثل ابن رشد وامثاله وجمع ابن ابي زيد جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على جميع اقوال المذهب وفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافقين الى انقراض دولة قرطبة والقيروان ثم تمسك بهما اهل المغرب بعد ذلك وتميزت للمذهب المالكي ثلث طرق للمغربين وكبيرهم سحنون الاخذ عن ابن القاسم وللقرطبيين وكبيرهم ابن حبيب الاخذ عن ملك ومطرف وابن الماجشون واصبغ وللعراقيين وكبيرهم القاضي اسمعيل واصحابه وكانت طريقة المصريين تابعة للعراقيين وان القاضي عبد الوهاب انتقل اليها من بغداد اخر المائة الرابعة واخذ اهلها عنه وكانت الطريقة المالكية بمصر من لدن الحرث بن مسكين وابن المبشر وابن اللهيب وابن رشيق خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه اهل البيت واما طريقة العراقيين فكانت مهجورة عند اهل القيروان والاندلس لبعدها عنهم وخفاء مداركها وقلة اطلاعهم على ماخذهم فيها والقوم اهل اجتهاد وان كان خاصا لا يرون التقليد ولا يرضونه طريقا ولذلك تجد اهل المغرب والاندلس لا ياخذون براي العراقيين ولا يجدون فيه رواية عن الامام او احد من اصحابه ثم امتزجت الطرق بعد ذلك ورحل ابو بكر الطرطوشي من الاندلس في المائة السادسة ونزل بيت المقدس في وطنه واخذ عنه اهل مصر والاسكندرية ومزجوا طريقة الاندلسية بطريقتهم المصرية وكان من جملة اصحابه الفقيه سند صاحب الطراز واصحابه واخذ عنهم جماعة كان منهم بنو عوف واصحابهم ابو عمرو ابن الحاجب وبعده شهاب الدين القرافي واتصل ذلك في تلك الاعصار وكان فقه الشافعية ايضا قد انقرض

بمصر

بمصر منذ دولة العبيديين من اهل البيت فظهر بعدهم في الفقهاء الذين جددوه كتاب فقيه اهل خراسان منهم وظهر بالشام محي الدين النووي من تلك الحلبة ثم امتزجت طريقة المغاربة من المالكية ايضا بطريقة العراقيين من لدن الشرمساحي كان في الاسكندرية ظاهرا في الطريقة المغربية والمصرية فبنى المستنصر العباسي ابو المعتصم وابن الظاهر مدرسته ببغداد واستدعاه بها من خلفاء العبيديين الذين كانوا يومئذ بالقاهرة فاذنوا له في الرحيل اليه فلما قدم بغداد ولاه تدريس المستنصرية واقام هنالك الى ان استولى هولاكو على بغداد سنة ست وخمسين من المائة السابعة وخلص من بيان تلك النكبة وخلا سبيله فعاش هنالك الى ان مات في ايام ابنه احمد ابغا ولحقت طرق هولاء المصريين ممتزجة بطرق المغاربة كما ذكرناه في مختصر ابي عمرو ابن الحاجب يذكر فقه الباب في مسائله المفترقة ويذكر الاقوال في كل مسئلة على تعدادها فجاء كالبرنامج للمذهب ولما ظهر بالمغرب اخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا اهل بجاية لما كان كبير مشيختهم ابو علي ناصر الدين الزواوي الذي جلبه الى المغرب فانه كان قرا على اصحابه بمصر ومختصره ذلك وجاء به فانتشر بقطر بجاية في تلميذه ومنهم انتقل الى ساير الامصار وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يوثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن راشد وابن هرون وكلهم من مشيخة اهل تونس وسابق حلبتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء

واما علم الفرايض

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها الاصول او مناسختها وذلك اذا هلك احد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته فانه حينئذ يحتاج الى حسبان يصحح الفريضة الاولى حتى يصل اهل الفروض جميعا الى فروضهم في الفريضتين من غير تجزية وقد تكون هذه المناسخات اكثر من واحد او اثنين وتتعدد لذلك بعد واكثر وبقدر ما تتعدد يحتاج الى الحسبان وكذا اذا كانت الفريضة ذات وجهين مثل ان يقر بعض الورثة بوارث وينكره الاخر فتصحح على الوجهين حينئذ وتنظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسبة سهام الورثة من اصل الفريضة وكل ذلك محتاج الى الحسبان فافردوا هذا الباب من الفقه لما اجتمع فيه الى الفقه من الحسبان وكان غالبا فيه وجعلوه فنا منفردا وللناس فيه تواليف كثيرة اشهرها عند المالكية من متاخري الاندلس كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متاخري افريقية ابن المنمر الطرابلسي وامثالهم واما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تواليف كثيرة واعمال عظيمة صعبة شاهدة لهم باتساع الباع في الفقه

والحساب وخصوصا ابو المعالي رحمه الله وامثاله من اهل المذهب وهو فن شريف لجمعه
بين المعقول والمنقول والوصول به الى الحقوق في الوراثات عند ما تجهل الحظوظ
وتشكل على القاسمين بوجوه صحيحة يقينية وللعلماء من اهل الامصار بها عناية ومن المصنفين
من يجنح فيها الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج في استخراج المجهولات
من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصرف في الجذور وامثال ذلك فيملؤن
بها تواليفهم وهو وان لم يكن متداولا بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من
وراثاتهم لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المران وتحصيل الملكة في المتداول على اكمل
الوجوه وقد يحتج الاكثر من اهل هذا الفن بالحديث على فضله بالحديث المنقول عن ابي
هريرة ان الفرائض ثلث العلم وانها اول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خرجه ابو نعيم
الحافظ واحتج به اهل الفرائض بناء على ان المراد بالفرائض فروض الوراثة والذي
يظهر ان هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هي فروض العبادات التكليفية
في العبادات والعادات والمواريث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية
والثلثية واما فروض الوراثة فهي اقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة كلها ويعين
هذا المراد ان حمل لفظ الفرائض كلها على هذا الفن المخصوص وتخصيصه بفروض
الوراثة انما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاصطلاحات
ولم يكن صدر الاسلام يطلق هذا اللفظ الا على عمومه مشتقا من الفرض الذي هو
لغة التقدير او القطع وما كان المراد به في اطلاقه الا جميع الفروض كما قلناه وهي
حقيقته الشرعية فلا ينبغي ان يحمل الا على ما كان في عصرهم فهو الاليق بمرادهم
منه والله اعلم

اصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافيات

اعلم ان اصول الفقه من اعظم العلوم الشرعية واجلها قدرا واكثرها فائدة
وهو النظر في الادلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الاحكام والتكاليف واصول الادلة
الشرعية هي الكتاب والسنة المبينة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الاحكام
تتلقى مما يوحى اليه من القران ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج الى نقل ولا الى نظر
وقياس ومن بعده صلى الله عليه وسلم تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القران بالتواتر
واما السنة فاجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب العمل بما يصل الينا منها قولا او فعلا
بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعينت دلالة الشرع في الكتاب والسنة
بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلتهما لاجماع الصحابة على النكير على مخالفيهم ولا يكون مثل
ذلك الا عن مستند لان مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الادلة بعصمة الجماعة
فصار الاجماع دليلا ثابتا في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف

بالكتاب والسنة فاذا هم يقايسون الاشباه بالاشباه ويناظرون الامثال
بالامثال باجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فان كثيرا من الواقعات بعده صلوات
الله عليه لم يندرج في النصوص الثابتة فقايسوها بما ثبت والحقوها بما نص عليه بشروط
في ذلك الالحاق يصحح تلك المساواة بين الشبيهين او المثلين حتى يغلب على الظن ان حكم
الله فيهما واحد وصار ذلك دليلا شرعيا باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الادلة واتفق
جمهور العلماء على ان هذه هي اصول الادلة وان خالف بعضهم في الاجماع والقياس الا انه
شذوذ والحق بعضهم بهذه الادلة الاربعة ادلة اخرى لا حاجة بنا الى ذكرها لضعف
مداركها وشذوذ القول بها فكان اول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه ادلة فاما الكتاب
فدليله المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله فلم يبق فيه مجال للاحتمال واما السنة وما نقل
الينا منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قدمناه معتضدا بما كان عليه في حياته صلى
الله عليه وسلم من انفاذ الكتب والرسل الى النواحي بالشرائع امرا ونهيا واما الاجماع فلاتفاقهم
رضوان الله عليهم على انكار مخالفتهم مع العصمة الثابتة للامة واما القياس فباجماع الصحابة
رضوان الله عليهم عليه كما قدمناه هذه اصول الادلة ثم ان المنقول من السنة محتاج
الى تصحيح الخبر بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه
التي هي مناط وجوب العمل بالخبر وهذه ايضا من قواعد الفن ويلحق بذلك عند التعارض
بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله ايضا وابوابه
ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالات الالفاظ وذلك ان استفادة المعاني على الاطلاق
من تراكيب الكلام على الاطلاق تتوقف على معرفة الدلالات الوضعية مفردة ومركبة
والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف والبيان وحين كان
اللسان ملكة لاهله لم تكن هذه علوما ولا قوانين ولم يكن الفقيه يحتاج اليها
لانها جبلة وملكة فلما فسدت الملكة في لسان العرب قيدها الجهابذة المتجردون
لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستنبطة صحيحة وصارت علوما يحتاج اليها الفقيه في
معرفة احكام الله ثم ان هنا استفادة اخرى خاصة من تراكيب الكلام وهي استفادة
الاحكام الشرعية بين المعاني من ادلتها الخاصة من تراكيب الكلام وهو الفقه ولا يكفي
فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق بل لا بد من معرفة امور اخرى تتوقف عليها
تلك الادلة الخاصة وبها تستفاد الاحكام بحسب ما اصل اهل الشرع وجهابذة العلم
من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الادلة مثل ان اللغة لا تثبت قياسا والمشترك
لا يراد به معناه معا والواو لا تقتضي الترتيب والعام اذا اخرجت افراد الخاص
منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب او الندب وللفور او التراخي والنهي

بالكتاب

يقتضي الفساد او الصحة والمطلق هل يحمل على المقيد والنص على العلة كاف في التعدي
او لا وامثال ذلك فكانت من قواعد هذا الفن لكونها من مباحث الدلالة فكانت لغوية
ثم النظر في القياس من اعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع فيما يقاس
ويماثل من الاحكام وتنقيح الوصف الذي يغلب على الظن ان الحكم علق به في الاصل
من بين اوصاف ذلك المحل ووجود ذلك الوصف في الفرع من غير معارض يمنع من ترتب
الحكم عليه الى مسائل اخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن واعلم ان هذا الفن من الفنون
المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه بما ان استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج
فيها الى ازيد مما عندهم من الملكة اللسانية واما القوانين التي يحتاج اليها في استفادة
تلك الاحكام خصوصا فعنهم اخذ معظمها واما الاسانيد فلم يكونوا يحتاجون الى النظر
فيها لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر
الاول وانقلبت العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون
الى تحصيل هذه القوانين والقواعد لاستفادة الاحكام من الادلة فكتبوها فنا قائما براسه
سموه اصول الفقه وكان اول من كتب فيه الشافعي رضي الله عنه املى فيه رسالته
المشهورة تكلم فيها في الاوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة
من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد واوسعوا القول فيها
وكتب المتكلمون ايضا كذلك الا ان كتابة الفقهاء فيها امس بالفقه واليق بالفروع
لكثرة الامثلة منها والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية والمتكلمون يجردون
صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي ما امكن لانه غالب
فنونهم ومقتضى طريقتهم فكان لفقهاء الحنفية فيها اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية
والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما امكن وجاء ابو زيد الدبوسي من ائمتهم فكتب
في القياس من جميعهم وتمم الابحاث والشروط التي يحتاج اليها فيه وكملت صناعة اصول
الفقه بكماله وتهذبت مسائله وتمهدت قواعده وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه
وكان من احسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى للغزالي
وهما من الاشعرية وكتاب العمد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابي الحسين البصري وهما من المعتزلة
وكانت الاربعة قواعد هذا الفن واركانه ثم لخص هذه الكتب الاربعة فحلان من المتكلمين
المتاخرين وهما الامام فخر الدين ابن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي
في كتاب الاحكام واختلف طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج فابن الخطيب اميل
الى الاستكثار من الادلة والاحتجاج والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفريع المسائل
فاما كتاب المحصول فاختصره تلميذ الامام مثل سراج الدين الارموي في كتاب

الحاصل

الحاصل واقتطف شهاب الدين القرافي منها مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه
التنقيحات وكذا فعل البيضاوي في كتاب المنهاج وعني المبتدئون بهذين الكتابين
وشرحهما كثير من الناس واما كتاب الاحكام للآمدي وهو اكثر تحقيقا في المسائل فلخصه ابو عمرو
بن الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير ثم اختصره في كتاب آخر تداوله طلبة العلم وعني
اهل المشرق والمغرب بمطالعته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين في هذا الفن
في هذه المختصرات واما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من احسن كتابة المتقدمين فيها
تواليف ابي زيد الدبوسي واحسن تواليف المتاخرين تواليف سيف الاسلام البزدوي
من ائمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتي من فقهاء الحنفية فجمع بين كتاب الاحكام
وكتاب البزدوي في الطريقتين وسمى كتابه بالبديع فجاء من احسن الاوضاع وابدعها
وائمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة وبحثا وولع كثير من علماء العجم بشرحه والحال
على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعدد التواليف المشهورة
لهذا العهد فيه والله ينفعنا بالعلم ويجعلنا من اهله بمنه

واما الخلافيات

فاعلم ان هذا الفقه المستنبط من الادلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف
مداركهم وانظارهم خلافا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعا عظيما
وكان للمقلدين ان يقلدوا من شاءوا منهم ثم لما انتهى ذلك الى الائمة الاربعة من علماء
الامصار وكانوا بمكان من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم
لذهاب الاجتهاد بصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان وافتقاد
من يقوم على سوى هذه المذاهب الاربعة فاقيمت هذه المذاهب الاربعة اصولا
للملة واجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين باحكامها مجرى الخلاف في النصوص
الشرعية والاصول الفقهية وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب امامه
يجري على اصول صحيحة وطرائق قويمة ويحتج بها على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به
واجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من ابواب الفقه فتارة
يكون الخلاف بين الشافعي ومالك وابو حنيفة يوافق احدهما وتارة بين مالك وابي حنيفة
والشافعي يوافق احدهما وتارة بين الشافعي وابي حنيفة ومالك يوافق احدهما وكان
في هذه المناظرات بيان ماخذ هؤلاء الائمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم
وكان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد
التي يتوصل بها الى استنباط الاحكام كما يحتاج اليها المجتهد الا ان المجتهد يحتاج اليها
للاستنباط وصاحب الخلافيات يحتاج اليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من
ان يهدمها المخالف بادلته وهو لعمري علم جليل الفائدة في معرفة ماخذ الائمة

وادلتهم ومواقع الطعن له على الاستدلال فيها ومواقع الاستدلال عليه
وتواليف الحنفية فيه والشافعية اكثر من تواليف المالكية لان القياس عند الحنفية
اصل للكثير من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك اهل النظر والبحث **واما المالكية**
فالاثر اكثر معتمدهم وليسوا باهل نظر فاكثرهم اهل المغرب وهم بادية غفل من الصنائع
الا في الاقل وللغزالي فيه كتاب المآخذ ولابي بكر بن العربي من المالكية كتاب التلخيص
جلبه من المشرق ولابي زيد الدبوسي كتاب التعليقة ولابن القصار من شيوخ المالكية
عيون الادلة وقد جمع ابن الساعاتي في مختصره في اصول الفقه جميع ما ينبني عليها من الفقه
الخلافي مدرجا في كل مسئلة منه ما ينبني عليها من الخلافيات **واما الجدل** وهو معرفة
آداب المناظرة التي تجري بين اهل المذاهب الفقهية وغيرهم فانه لما كان باب
المناظرة في الرد والقبول متسعا وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب
يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الائمة
ان يضعوا آدابا واحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف
يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له ان يكون مستدلا وكيف يكون مخصوصا
منقطعا ومحل اعتراضه او معارضته واين يجب له السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال ولهذا
قيل فيه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها الى حفظ رأي
او هدمه كان ذلك الرأي من الفقه او غيره وهي طريقتان طريقة البزدوي وهي خاصة
بالادلة الشرعية من النص والاجماع والاستدلال وطريقة العميدي وهي عامة في كل
دليل يستدل به من اي علم كان واكثره استدلال وهو من المناحي الحسنة والمغالطات
فيه في نفس الامر كثيرة واذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب اشبه بالقياس
المغالطي والسوفسطائي الا ان صور الادلة والاقيسة فيه محفوظة مراعاة تجري
فيها طرق الاستدلال كما ينبغي وهذا العميدي هو اول من كتب فيها ونسبت الطريقة
اليه ووضع كتابه المسمى بالارشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي
وغيره جاؤا على اثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التواليف وهي لهذا العهد
مهجورة لنقص العلم والتعليم في الامصار الاسلامية وهي مع ذلك كمالية وليست
ضرورية والله غالب على امره **علم الكلام** وهو علم يتضمن الحجاج عن العقائد
الايمانية بالادلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب
السلف واهل السنة وسر هذه العقائد الايمانية هو التوحيد فلنقدم هنا لطيفة
في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على اقرب الطرق والمآخذ ثم نرجع الى تحقيق
علم الكلام وفيما ينظر ونشير الى اسباب حدوثه في الملة وما دعا الى وضعه فنقول

اعلم

اعلم ان الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات او الافعال البشرية
الحيوانية فلا بد لها من اسباب بهذا المعنى متقدمة عليها بها تقع في مستقر العادة
وعنها يتم كونه وكل واحد من تلك الاسباب حادث ايضا فلا بد له من اسباب
حادث ايضا فلا بد له من اسباب اخرى ولا تزال تلك الاسباب مرتقية حتى تنتهي
الى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا اله الا هو وتلك الاسباب
في ارتقائها تتضاعف فتتفسح طولا وعرضا ويحار العقل في ادراكها وتعديدها فاذا لا يحصرها
الا العلم المحيط سيما الافعال البشرية والحيوانية فان جملة اسبابها في الشاهد القصود
والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بارادته والقصد اليه والقصود والارادات
امور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة يتلو بعضها بعضا وتلك التصورات
هي اسباب قصد الفعل وقد تكون اسباب تلك التصورات تصورات اخرى وكل ما يقع
في النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا يطلع احد على مبادئ الامور النفسانية
ولا على ترتيبها انما هي اشياء يلقيها في الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة
مبادئها وغاياتها وانما يحيط علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعية ظاهرة ويقع
في مداركنا على نظام وترتيب لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت اطوارها واما التصورات
فنطاقها اوسع من النفس لانها للعقل الذي هو فوق طور النفس فلا تكاد النفس تدرك
الكثير منها فضلا عن الاحاطة وتأمل من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر الى الاسباب
والوقوف معها فانه واد يهيم فيه الفكر ولا يحلو منه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم
ذرهم في خوضهم يلعبون وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه فزلت قدمه
واصبح في الضالين الهالكين نعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن ان هذا
الوقوف او الرجوع في قدرتك او اختيارك بل هو لون يحصل وصبغة تستحكم من الخوض
في الاسباب على نسبة لا نعلمها اذ لو علمناها لتحرزنا منها فلنتحرز عن ذلك بقطع
عنها جملة وايضا فوجه تأثير هذه الاسباب في الكثير من مسبباتها مجهول لانها انما يوقف
عليها بالعادة وقضية الاقتران الشاهد بالاستناد في الظاهر وحقيقة التأثير وكيفيته
مجهولة وما اوتيتم من العلم الا قليلا فلذلك امرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه
الى مسبب الاسباب كلها وفاعلها وموجدها لترسخ صبغة التوحيد في النفس على ما علمنا الشارع
الذي هو اعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعه على ما وراء الحس قال صلى الله عليه
وسلم من مات يشهد ان لا اله الا الله دخل الجنة فان وقف عند تلك الاسباب
فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وسبح في بحر النظر والبحث عنها وعن اسبابها وتأثيراتها
واحدا بعد واحد فانا الضامن له ان يعود الا بالخيبة فلذلك نهانا الشارع

عن النظر الى الاسباب وامرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفوا احد ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من انه مقتدر على الاحاطة بالكائنات واسبابها
والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رايه في ذلك واعلم ان الوجود عند كل مدرك
في بادي رايه انه منحصر في مداركه لا يعدوها والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه
الا ترى الاصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الاربع والمعقولات ويسقط
من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الاعمى ايضا يسقط من الوجود
عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الاباء والمشيخة من اهل عصرهم
والكافة لما اقروا به لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف لا بمقتضى فطرتهم
وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الاعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعقولات
وساقطة لديه بالكلية واذا علمت ذلك فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا
لان ادراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله اكبر من خلق الناس والحصر مجهول والوجود اوسع نطاقا
من ذلك من ورائهم محيط فاتهم ادراكك ومدركاتك في الحصر واتبع ما امرك الشارع
به في اعتقادك وعملك فهو احرص على سعادتك واعلم بما ينفعك لانه من طور فوق
ادراكك ومن نطاق اوسع من نطاق عقلك وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل
العقل ميزان صحيح واحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد
والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع
في محال ومثال ذلك مثال رجل راى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع ان يزن
به الجبال وهذا لا يدل على ان الميزان في احكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى
طوره حتى يكون له ان يحيط بالله وبصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه
وتفطن من هذا الغلط من يقدم العقل على السمع في امثال هذه القضايا وقصور فهمه
واضمحلال رايه فقد بين لك الحق من ذلك واذا تبين ذلك فلعل الاسباب اذا تجاوزت
في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا خرجت عن ان تكون مدركة فيضل العقل في بيداء
الاوهام ويحار وينقطع فاذن التوحيد هو العجز عن ادراك الاسباب وكيفيات
تاثيراتها وتفويض ذلك الى خالقها المحيط بها اذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي اليه وترجع
الى قدرته وعلمنا به انما هو من حيث صدورنا عنه لا غير وهذا هو معنى ما نقل عن بعض
الصديقين العجز عن الادراك ادراك ثم ان المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان
فقط الذي هو تصديق حكمي فان ذلك من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول
صفة منه تتكيف بها النفس كما ان المطلوب من الاعمال والعبادات ايضا حصول
ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب من شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد

السالك

لك ربانيا والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف
وشرحه ان كثيرا من الناس يعلم ان رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله مندوب اليها
ويقول بذلك ويعترف به ويذكر ماخذه من الشريعة وهو لو راى يتيما او مسكينا من ابناء
جنسه لفر عنه واستنكف ان يباشره فضلا عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك
من مقامات العطف والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم مقام العلم ولم يحصل
له مقام الحال والاتصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بان رحمة
المسكين قربة الى الله تعالى مقام اخر اعلى من الاول وهو الاتصاف بالرحمة وحصول
ملكتها فمتى راى يتيما او مسكينا بادر اليه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه
لا يكاد يصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذا علمك
بالتوحيد مع اتصافك به والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة وهو اوثق مبنى من العلم
الحاصل قبل الاتصاف وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا
غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الاخرة فان العلم
الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم اكثر النظار والمطلوب انما هو العلم
الحالي الناشئ عن العبادة واعلم ان الكمال عند الشارع في كل ما كلف به انما هو في هذا فما طلب
اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف وما طلب عمله في العبادات
فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة
عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في راس العبادات جعلت قرة
عيني في الصلوة فان الصلوة صارت صفة وحالا يجد فيها منتهى لذته وقرة عينه واين
هذه من صلوة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم
وفقنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
امين فقد تبين لك من جميع ما قررناه ان المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة
في النفس ينشا عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذي
تحصل به السعادة وان ذلك سواء في التكاليف القلبية او البدنية وتتفهم منه ان الايمان
الذي هو اصل التكاليف كلها وينبوعها هو بهذه المثابة وانه ذو مراتب اولها التصديق
القلبي الموافق للسان واعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل
مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الافعال
كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني وهذا ارفع مراتب الايمان وهو الايمان الكامل
الذي لا يقارف المؤمن معه كبيرة ولا صغيرة اذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف
عن مناهجها طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وفي حديث

هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال في أصحابه هل يرتد أحد منهم
سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه قال لا قال وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب
ومعناه أن ملكة الإيمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات إذا استقرت
فإنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان وهي في المرتبة الثانية
من العصمة لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوبا سابقا وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا
لأعمالهم وتصديقهم فبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الإيمان الذي يتلى عليك
من أقاويل السلف في تراجم البخاري في باب الإيمان كثير منه مثل الإيمان قول وعمل وأنه
يزيد وينقص وأن الصلوة والصيام من الإيمان وأن تطوع رمضان من الإيمان والحياء
من الإيمان والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى حصول ملكته وهو فعلي
وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر أوائل الأسماء وحمله على التصديق
منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي
الإيمان الكامل ظهر له التفاوت وليس ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق
إذ التصديق موجود في جميع رتبه لأنه أقل ما يطلق عليه اسم الإيمان وهو المخلص من عهدة الكفر والفيصل
بين الكافر والمؤمن فلا يجزي أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وإنما التفاوت
في الحال الحاصلة عن الأعمال كما قلناه فافهم. اعلم أن الشارع وصف لنا
هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق بأمور مخصوصة كلفنا التصديق
بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين
قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام ولنشر
إليها مجملة ليتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوثه فنقول اعلم أن الشارع لما أمرنا بهذا
الإيمان بهذا الخالق الذي رد الأفعال كلها إليه وأفرده بها كما قدمناه وعرفنا في هذا
الإيمان نجاتنا إذا حضرنا عند الموت لم يعرفنا بكنه حقيقة هذا الخالق المعبود إذ ذلك
متعذر على إدراكنا ومن فوق طورنا فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه في ذاته عن مشابهة المخلوقين
وإلا لما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على ذلك التقدير ثم تنزيهه عن صفات النقص
وإلا لشابه المخلوقين ثم توحيده بالألوهية وإلا لم يتم الخلق للتمانع ثم اعتقاد أنه عالم
قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الإيجاد والخلق ومريد وإلا لم يخصص شيء
من المخلوقات ومقدر لكل كائن وإلا فالإرادة حادثة وأنه يعيدنا بعد الموت تكميلا
لعنايته بالإيجاد الأول لو كان للفناء الصرف كان عبثا فهو للبقاء السرمدي بعد الموت
ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة

وعدم

وعدم معرفتنا بذلك وتمام لطفه بنا في الإنباء بذلك وبيان الطريقين وأن الجنة
للنعيم وجهنم للعذاب فهذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية وأدلتها
من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء وحققها
الأئمة إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي
المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث
بذلك علم الكلام ولنبين لك تفصيل هذا المجمل وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود
بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصريحة في بابها
فوجب الإيمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه وكلام الصحابة والتابعين
تفسيرها على ظاهرها ثم وقع في القرآن آي أخرى قليلة توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى
في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة
التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل
وهذا معنى قول الكثير منهم اقرؤها كما جاءت أي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها
ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف عندها والإذعان له وشذ لعصرهم مبتدعة
اتبعوا ما تشابه من الآيات ففريق شبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه
عملا بظواهر وردت في ذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه لأن معقولية
الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد
وأوضح دلالة أولى من التعلق بظواهر هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدليلين بتأويلها
ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم جسم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول
متناقض وجمع بين نفي وإثبات إن كانا بالمعقولية واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما ونفيا
المعقولية المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسما من أسمائه
ويتوقف مثله على الإذن وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة
والاستواء والنزول والصوت والحرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا
مثل الأولين إلى قولهم صوت لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون
من الأجسام واندفع ذلك بما اندفع به الأول ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات
السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي لئلا يكر النفي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة
ثابتة من القرآن وإلى هذا ينظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب المختصر له
وفي كتب الحافظ ابن عبد البر وغيرهم فإنهم يحومون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن
الدالة على ذلك في غضون كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس
بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء وألف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة

في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب فقضوا بنفي صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة
والحياة زايدة في احكامها لما يلزم على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بان الصفات
ليست نفس الذات ولا غيرها وقضوا بنفي صفة الارادة فلزمهم نفي القدر لان معناه
سبق الارادة للكاينات وقضوا بنفي السمع والبصر لكونهما من عوارض الاجسام
وهو مردود بعدم اشتراط البنية في مدلول هذا اللفظ وانما هو ادراك المسموع
والمبصر وقضوا بنفي الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يعقلوا صفة الكلام التي
تقوم بالنفس فقضوا بان القران مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها وعظم ضرر
هذه البدعة ولقنها بعض الخلفاء عن بعض ائمتهم فحمل عليها الناس وخالفهم ائمة الدين
فاستباح بخلافهم ابشار كثير منهم ودماءهم وكان ذلك سببا لانتهاض اهل السنة
بالادلة العقلية على هذه العقايد دفعا في صدر هذه البدع وقام بذلك الشيخ ابو الحسن
الاشعري شيخ المتكلمين فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه واثبت الصفات المعنوية
وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه فاثبت
الصفات المعنوية الاربع والسمع والبصر والكلام القايم بالنفس بطريق العقل والنقل
ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح
والاصلح والتحسين والتقبيح وكمل العقايد في البعثة واحوال المعاد والجنة والنار والثواب
والعقاب والحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية في قولهم انها من عقايد
الايمان وانه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الامة
وقصارى امر الامامة انها قضية مصلحية اجماعية ولا تلحق بالعقايد فلذلك الحقوها بمسائل
هذا الفن وسموا مجموعه علم الكلام اما لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة
الى عمل واما لان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في اثبات الكلام النفساني وكثر
اتباع الشيخ ابي الحسن الاشعري واقتفى طريقته من بعده تلميذه كابن مجاهد وغيره واخذ عنهم القاضي
ابو بكر الباقلاني فتصدر للامامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف
عليها الادلة والانظار وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلاء وان العرض لا يقوم
بالعرض وانه لا يبقى زمنين وامثال ذلك مما تتوقف عليه ادلتهم وجعل هذه القواعد
تبعا للعقايد الايمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الادلة عليها وان بطلان الدليل
يوذن ببطلان المدلول فكملت هذه الطريقة وجاءت من احسن الفنون النظرية والعلوم
الدينية الا ان صور الادلة فيها بعض الاحيان على غير الوجه الصناعي لسذاجة القوم
ولان صناعة المنطق التي تسبر بها الادلة وتعتبر بها الاقيسة لم تكن حينئذ ظاهرة في الملة
ولو ظهر منها بعض الشيء لم ياخذ بها المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة

لعقايد الشرع بالجملة فكانت عندهم مهجورة لذلك ثم جاء بعد القاضي ابي بكر من ائمة الاشعرية
امام الحرمين ابو المعالي واملى في الطريقة كتاب الشامل واوسع القول فيه ثم لخصه
في كتاب الارشاد واتخذه الناس اماما لعقايدهم ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق
في الملة وقراه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بانه قانون ومعيار للادلة
فقط يسبر به الادلة منها كما يسبر من سواها ثم نظروا في تلك القواعد المقدمات
في فن الكلام للمتقدمين فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي ادتهم الى ذلك وربما ان كثيرا
منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات فلما سبروها بمعيار
المنطق ردهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما صار
اليه القاضي فصارت هذه الطريقة في مصطلحهم مباينة للطريقة الاولى وتسمى طريقة المتاخرين
وربما ادخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقايد الايمانية وجعلوهم
من خصوم العقايد لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة واول من كتب في طريقة الكلام
على هذا المنحى الغزالي وتبعه الامام ابن الخطيب وجماعة قفوا اثرهم واعتمدوا تقليدهم ثم
توغل المتاخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شان الموضوع في العلمين
فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما واعلم ان المتكلمين لما كانوا يستدلون في اكثر
احوالهم بالكاينات واحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا
والجسم الطبيعي الذي ينظر فيه الفيلسوف في الطبيعيات هو بعض من هذه الكاينات
الا ان نظره فيها مخالف لنظر المتكلم وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم ينظر فيه
من حيث يدل على الفاعل وكذا نظر الفيلسوف في الالهيات انما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه
لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث يدل على الموجد وبالجملة فموضوع علم الكلام عند اهله انما هو
العقايد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن ان يستدل عليها بالادلة العقلية
فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقايد واذا تاملت حال الفن في حدوثه
وكيف تدرج كلام الناس فيه صدرا بعد صدر وكلهم يفرض العقايد صحيحة ويستنهض الحجج
والادلة علمت صحة ما قررناه لك في موضوع الفن وانه لا يعدوه ولقد اختلطت
الطريقتان عند هولاء المتاخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز
احد الفنين من الاخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ومن جاء
بعده من علماء العجم في جميع تواليفهم الا ان هذه الطريقة قد يعني بها طلبة العلم للاطلاع
على المذاهب والاغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها واما محاذاة طريقة السلف
بعقايد علم الكلام فانما هي الطريقة القديمة للمتكلمين واصلها كتاب الارشاد وما حذا حذوه
ومن اراد ادخال الرد على الفلاسفة في عقايده فعليه بكتب الغزالي والامام

ابن الخطيب فانهما وان فيهما مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيهما من الاختلاط في المسائل
والالتباس في الموضوع ما في طريقة هولاء المتاخرين من بعدهم وعلى الجملة فينبغي ان تعلم ان
العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم اذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا
والايمة من اهل السنة كفونا شانهم فيما دونوا وكتبوا والادلة العقلية انما احتيج اليها
لما دافعوا ونصروا واما الان فلم يبق منها الا كلام تنزه الباري عن الكثير من ايهاماته واطلاقه فائدة
ولقد سئل الجنيد عن قوم مر بهم من المتكلمين يفيضون فيه فقال ما هولاء فقيل قوم ينزهون
الله بالادلة عن صفات الحدوث وسمات النقص فقال نفي العيب حيث يستحيل العيب
عيب لكن فايدته في احاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل
بالحجاج النظرية على عقايدها والله ولي المومنين

فصل في كشف الغطاء عن المتشابه من والسنة وما حدث لاجل ذلك من طوايف السنة والمبتدعة في الاعتقادات

اعلم ان الله سبحانه بعث الينا محمدا صلى الله عليه وسلم يدعونا الى النجاة والفوز بالنعيم وانزل
كتابه الكريم باللسان العربي المبين يخاطبنا فيه بالتكاليف المفضية بنا الى ذلك وكان
في خلال هذا الخطاب ومن ضروراته ذكر صفاته سبحانه واسمائه ليعرفنا بذاته وذكر الروح المتعلق
بنا وذكر الوحي والملايكة الوسايط بينه وبين رسله الينا وذكر لنا يوم البعث وانذاراته
ولم يعين لنا الوقت في شيء منها وثبت في هذا القران الكريم حروف من الهجاء مقطعة في اوائل
بعض سوره لا سبيل لنا الى فهم المراد بها وسمى هذه الانواع كلها من الكتاب متشابهة وذم
على اتباعها فقال تعالى هو الذي انزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هن ام الكتاب
واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء
تاويله وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر
الا اولوا الالباب وحمل العلماء من سلف الصحابة والتابعين هذه الاية على ان المحكمات
هي المبينات الثابتة الاحكام ولذلك قال الفقهاء في اصطلاحهم المحكم هو المتضح المعنى واما
المتشابهات فلهم فيها عبارات فقيل هي التي تفتقر الى نظر وتفسير يصحح معناها لتعارضها مع
اية اخرى او مع العقل فتخفى دلالتها وتشتبه وعلى هذا قال ابن عباس المتشابه يومن به ولا يعمل
به وقال ابن عباس مجاهد وعكرمة كل ما سوى ايات الاحكام والقصص متشابه وعليه
القاضي ابو بكر وامام الحرمين وقال الثوري والشعبي وجماعة من علماء السلف المتشابه
ما لم يكن سبيل الى علمه كشروط الساعة واوقات الانذارات وحروف الهجاء في اوائل السور
وقوله في الاية هن ام الكتاب اي معظمه وغالبه والمتشابه اقله وقد يرد الى المحكم ثم ذم
المتبعين للمتشابه بالتاويل او بحملها على معاني لا تفهم منها في لسان العرب الذي هو
خوطبنا به وسماهم اهل زيغ اي ميل عن الحق من الكفار والزنادقة وجهلة اهل البدع

وان فعلهم ذلك قصدا للفتنة التي هي الشرك واللبس على المومنين او قصدا لتاويلها
بما يشتهونه فيقتدون به في بدعتهم ثم اخبر سبحانه بانه استاثر بتاويلها ولا يعلمه الا هو
فقال وما يعلم تاويله الا الله ثم اثنى على العلماء بالايمان بها فقط فقال والراسخون في العلم
يقولون امنا به ولهذا جعل السلف والراسخون مستانفا ورجحوه على العطف
لان الايمان بالغيب ابلغ في الثناء ومع عطفه انما يكون ايمانا بالشاهد لانهم يعلمون
التاويل حينئذ فلا يكون غيبا ويعضد ذلك قوله كل من عند ربنا ويدل على ان التاويل
فيها غير معلوم للبشر ان الالفاظ اللغوية انما يفهم منها المعاني التي وضعها العرب
لها فاذا استحال اسناد الخبر الى المخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حينئذ وان جاءنا من عند الله
فوضنا علمه اليه ولا نشغل انفسنا بمدلول نلتمسه اذ لا سبيل لنا الى ذلك وقد قالت
عايشة رضي الله عنها اذا رايتم الذين يجادلون في القران فهم الذين عنى الله فاحذروهم
هذا مذهب السلف في الايات المتشابهة وجاء في السنة الفاظ مثل ذلك محملها عندهم
محمل الايات لان المنبع واحد واذا تقررت اصناف المتشابهات على ما قلناه فلنرجع
الى اختلاف الناس فيها فاما ما يرجع منها على ما ذكروه الى الساعة واشراطها واوقات
الانذارات وعدد الزبانية وامثال ذلك فليس هذا والله اعلم من المتشابه لانه لم يرد
فيه لفظ مجمل ولا غيره وانما هي ازمنة لحادثات استاثر الله بعلمها بنصه في كتابه وعلى
نبيه صلى الله عليه وسلم وقال انما علمها عند الله والعجب ممن عدها في المتشابه واما الحروف
المقطعة اوايل السور فحقيقتها حروف الهجاء وليس ببعيد ان يكون مرادة وقد قال
الزمخشري فيها اشارة الى بعد الغاية في الاعجاز لان القران المنزل مولف منها والبشر
فيها سواء والتفاوت موجود في دلالتها بعد التاليف وان عدل عن هذا الوجه الذي
يتضمن الدلالة على الحقيقة فانما يكون بنقل صحيح كقولهم في طه انه نداء من طاهر وهادي وامثال
ذلك والنقل الصحيح متعذر فيجيء المتشابه من هذا الوجه واما الوحي والملايكة والروح
والجن فاشتباهها من خفاء دلالتها الحقيقية لانها غير متعارفة فجاء التشابه فيها من اجل
ذلك وقد الحق بعض الناس بها كل ما في معناها من احوال القيامة والجنة والنار والدجال
والفتن والشروط وما هو بخلاف العوايد المالوفة وهو غير بعيد الا ان الجمهور لا يوافقونهم
عليه وسيما المتكلمون فقد عينوا محاملها على ما تراه في كتبهم ولم يبق من المتشابه الا الصفات
التي وصف الله نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم مما يوهم الناس
ظاهره نقصا وتعجيزا وقد اختلف الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا
مذهبهم وتنازعوا وتطرقت البدع الى العقايد فلنشر الى بيان مذاهبهم وايثار الصحيح
منها على الفاسد فنقول وما توفيقي الا بالله اعلم ان الله سبحانه وصف لنا نفسه

في كتابه بانه عالم قادر مريد حي سميع بصير متكلم جليل كريم جواد منعم عزيز عظيم وكذلك
اثبت لنفسه اليدين والعينين والوجه والقدم والساق الى غير ذلك من الصفات
فمنها ما يقتضي صحة الالوهية مثل العلم والقدرة والارادة ثم الحياة التي هي شرط جميعها ومنها
ما هي صفة كمال كالسمع والبصر والكلام ومنها ما يوهم النقص كالاستواء والنزول والمجيء
وكالوجه والعينين واليدين التي هي صفات المحدثات فاما السلف من الصحابة
والتابعين فاثبتوا له صفات الالوهية والكمال ثم اخبر انا نرى ربنا يوم القيامة
كالقمر ليلة البدر لا نضام في رويته كما ثبت في الصحيح فاثبتوا له صفات الالوهية والكمال
وفوضوا اليه ما يوهم النقص ساكتين عن مدلوله ثم اختلف الناس من بعدهم وجاء
المعتزلة فاثبتوا هذه الصفات احكاما ذهنية مجردة ولم يثبتوا صفة تقوم بذاته وسموا
ذلك توحيدا وجعلوا الانسان خالقا لافعاله ولا تتعلق بها قدرة الله سيما
الشرور والمعاصي منها اذ يمتنع على الحكيم فعلها وجعلوا مراعاة الاصلح للعباد واجبة
عليه وسموا ذلك عدلا بعد ان كانوا اولا يقولون بنفي القدر وان الامر كله مستانف
بعلم حادث وقدرة وارادة كذلك كما ورد في الصحيح وان عبد الله بن عمر تبرا من معبد
الجهني واصحابه القائلين بذلك وانتهى نفي القدر الى واصل بن عطا الغزال منهم تلميذ
الحسن البصري لعهد عبد الملك بن مروان ثم اخرا الى معمر السلمي ورجعوا عن القول به
وكان منهم ابو الهذيل العلاف وهو شيخ المعتزلة اخذ الطريقة عن عثمان بن خالد الطويل
عن واصل وكان من نفاة القدر واتبع راي الفلاسفة في نفي الصفات الوجودية لظهور
مذاهبهم يومئذ ثم جاء ابرهيم النظام وقال بالقدر واتبعوه وطالع كتب الفلاسفة
وشدد في نفي الصفات وقرر قواعد الاعتزال ثم جاء الجاحظ والكعبي والجبائي وكانت
طريقتهم يسمى علم الكلام اما لما فيها من الحجاج والجدال وهو الذي يسمى كلاما واما ان اصل
طريقتهم نفي صفة الكلام فلهذا كان الشافعي رضي الله عنه يقول حقهم ان يضربوا بالجريد
ويطاف بهم وقرر هولاء طريقتهم واثبتوا منها ورد والى ان ظهر الشيخ ابو الحسن
الاشعري وناظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والاصلح فرفض طريقتهم وكان على راي
عبد الله بن سعيد بن كلاب وابي العباس القلانسي والحرث بن اسد المحاسبي من اتباع
السلف وعلى طريقة السنة فايد مقالاتهم بالحجج الكلامية واثبت الصفات القائمة
بذات الله تعالى من العلم والقدرة والارادة والحياة التي بها تتم دليل التمانع وتصحح
المعجزات للانبياء عليهم السلام وكان من مذهبهم اثبات الكلام والسمع والبصر
لانها وان اوهم ظاهرها النقص بالصوت والحرف الجسمانيين فقد وجد للكلام عند
العرب مدلول آخر غير الحرف والصوت وهو ما يدور في الخلد والكلام حقيقة فيه

دون

دون الاول فاثبتوه لله تعالى وانتفى ايهام النقص واثبتوا هذه الصفة قديمة
عامة التعلق شان الصفات الاخرى وصار القران اسما مشتركا بين القديم القائم
بذات الله تعالى وهو الكلام النفسي والمحدث الذي هو الحروف المولفة المقروة بالاصوات
فاذا قيل قديم فالمراد الاول واذا قيل مقرو ومسموع فلدلالة القراءة والكتابة عليه
وتورع الامام احمد رضي الله عنه من اطلاق لفظ الحدوث عليه لانه لم يسمع من السلف
قبله لا انه يقول ان المصاحف المكتوبة قديمة ولا ان القراءة الجارية على الالسنة قديمة
وهو يشاهدها محدثة وانما منعه من ذلك الورع الذي كان عليه واما غير ذلك
فانكار للضروريات وحاشاه منه واما السمع والبصر وان كان يوهم ادراك
الجارحة فهو يدل لغة على ادراك المسموع والمبصر وينتفي ايهام النقص ح لانه حقيقة لغوية
فيهما واما لفظ الاستواء والمجيء والنزول والوجه واليدين والعينين وامثال ذلك فعدلوا
عن حقائقها اللغوية لما فيها من ايهام النقص بالتشبيه الى مجازاتها على طريقة العرب
حيث تتعذر حقائق الالفاظ فيرجعون الى المجاز كما في قوله تعالى يريد ان ينقض وامثاله طريقة
لهم غير منكرة ولا مبتدعة وحملهم على هذا التاويل وان كان مخالفا لمذهب السلف في التفويض
ان جماعة من اتباع السلف وهم المحدثون والمتاخرون من الحنابلة ارتكبوا في محمل هذه الصفات
فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية فيقولون في استوى على العرش نثبت له
استواء بحسب مدلول اللفظ فرارا من تعطيله ولا نقول بكيفيته فرارا من القول بالتشبيه
الذي تنفيه آية السلوب من قوله ليس كمثله شيء سبحان الله عما يصفون تعالى الله عما يقول
الظالمون لم يلد ولم يولد ولا يعلمون مع ذلك انهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم باثبات
استواء والاستواء عند اهل اللغة انما موضوعه الاستقرار والتمكن وهو جسماني واما
التعطيل الذي يشنعون بالزامه وهو تعطيل اللفظ فلا محذور فيه وانما المحذور في تعطيل
الاله وكذلك يشنعون في الزام التكليف بالايطاق وهو تمويه لان التكليف به لم يقع
في التكاليف ثم يدعون ان هذا هو مذهب السلف وحاشا لله من ذلك وانما مذهب السلف
ما قررناه اولا من تفويض المراد بها الى الله والسكوت عن فهمها وقد يحتجون لاثبات
الاستواء لله بقول مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول ولم يرد مالك ان الاستواء
معلوم الثبوت لله وحاشاه من ذلك لانه يعلم مدلول الاستواء وانما اراد ان الاستواء
معلوم من اللغة وهو الجسماني وكيفيته لان حقائق الصفات كلها كيفيات وهي مجهولة
الثبوت لله وكذلك يحتجون على اثبات المكان بحديث السوداء وانها لما قال
لها النبي صلى الله عليه وسلم اين الله وقالت في السماء اعتقها فانها مومنة والنبي صلى
الله عليه وسلم اثبت لها الايمان باثباتها المكان لله بل لانها امنت بما جاء به من ظواهر

ان الله في السماء فدخلت في جملة الراسخين الذين يؤمنون بالمتشابه من غير كشف
عن معناه والقطع بنفي المكان حاصل من دليل العقل النافي للافتقار ومن ادلة السلوب
المؤذنة بالتنزيه مثل ليس كمثله شيء واشباهه ومن قوله ولله ما في السموات وما في الارض
وقوله وهو الله في السموات وفي الارض اذ الموجود لا يكون في مكانين فثبت
في هذا المكان قطعا ان المراد غيره ثم طردوا ذلك المحمل الذي ابتدعوه في ظواهر الوجه
والعينين واليدين والمجيء والنزول والكلام بالحرف والصوت يجعلون لها مدلولات
اعم من الجسمانية وينزهونه عن مدلول الجسماني منها وهذا شيء لا يعرف في اللغة وقد درج
على ذلك الاول والآخر منهم ونافرهم اهل السنة من المتكلمين الاشعرية والحنفية ورفضوا
عقايدهم في ذلك ووقع بين متكلمي الحنفية ببخارا وبين الامام محمد بن اسمعيل البخاري
ما هو معروف واما المجسمة ففعلوا مثل ذلك في اثبات الجسمية لله وانها لا كالاجسام
ولفظ الجسم لم يثبت في منقول الشرعيات وانما جراهم على ذلك اثبات هذه الظواهر
فلم يقتصروا عليها بل توغلوا واثبتوا الجسمية يزعمون فيها مثل ذلك وينزهونه بقول متناقض سفساف
وهو قولهم جسم لا كالاجسام والجسم في لغة العرب هو العميق المحدود وغير هذا التفسير
من انه القائم بالذات او المركب من الجواهر وغير ذلك فاصطلاحات للمتكلمين يريدون بها
غير المدلول اللغوي فلهذا كان المجسمة اوغل في البدعة بل والكفر حيث اثبتوا لله وصفا
موهما يوهم النقص لم يرد في كلامه ولا كلام نبيه فقد تبين لك الفرق بين مذاهب
السلف والمتكلمين السنية والمحدثين والمبتدعة من المجسمة والمعتزلة بما اطلعناك
عليه وفي المحدثين غلاة يسمون المشبهة لتصريحهم بالتشبيه حتى انه يحكى عن بعضهم انه
قال اعفوني من اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواهما وان لم يتاول ذلك لهم بانهم
يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة وحملها على ذلك المحمل الذي لايمتهم والا فهو
كفر صريح والعياذ بالله وكتب اهل السنة مشحونة بالحجاج على هذه البدع وبسط
الرد عليهم بالادلة الصحيحة وانما اومانا الى ذلك ايماء تتميز به فصول المقالات وجملها
والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله واما الظواهر الخفية الدلالة
كالوحي والملئكة والروح والجن والبرزخ واحوال القيامة والفتن والدجال والشروط
وساير ما هو متعذر على الفهم او مخالف للعاديات فان حملناه على ما يذهب اليه الاشعرية
في تفاصيله وهم اهل السنة فلا تشابه وان قلنا فيه بالتشابه فلنوضح القول في كشف
الحجاب عنه فنقول اعلم ان العالم البشري اشرف الموجودات وارفعها وهو وان اتحدت
حقيقة الانسانية فيه فله اطوار يخالف كل واحد منها الآخر باحوال تختص به حتى كانت
الحقايق فيها مختلفة فالطور الاول عالمه الجسماني بحسه الظاهر وفكره المعاشي وساير

تصرفاته التي اعطاه الله اياها بوجوده الحاضر الطور الثاني عالم النوم وهو تصور
الخيال بانفاذ تصوراته جايلة في باطنه فيدرك منها بحواسه الظاهرة مجردة عن الازمنة
والامكنة وساير الاحوال الجسمانية ويشاهدها في مكان ليس هو فيه ويحدث له الصالح
منها البشرى بما يترقب من مسراته الدنيوية والاخروية كما وعد به الصادق صلوات الله
عليه وهذان الطوران عامان في جميع اشخاص البشر وهما مختلفان في المدارك كما تراه
الطور الثالث طور النبوة وهو مختص باشرف صنف البشر بما خصهم الله به من معرفته
وتوحيده وتنزل ملئكته عليهم بوحيه وتكليفهم باصلاح البشر في احوال كلها مغايرة للاحوال البشرية
الظاهرة الطور الرابع طور الموت الذي يفارق اشخاص البشر فيه حياتهم الظاهرة الى وجود
قبل القيامة يسمى البرزخ يتنعمون فيه ويعذبون على حسب اعمالهم ثم يفضون الى القيامة
الكبرى وهي دار الجزاء الاكبر نعيما وعذابا في الجنة او في النار الطوران الاولان شاهدهما
وجداني والطور الثالث النبوي شاهده المعجزة والاحوال المختصة بالانبياء والطور
الرابع شاهده ما نزل على الانبياء من وحي الله في المعاد واحوال البرزخ والقيامة مع ان العقل
يقتضي به كما نبهنا الله عليه في كثير من ايات البعث ومن اوضح الادلة على صحتها ان اشخاص البشر
لو لم يكن لهم وجود آخر بعد الموت غير هذا المشاهد يتلقى فيه احوالا تليق به لكان ايجاده
الاول عبثا اذ الموت اذا كان عدما كان مآل الشخص الى العدم فلا يكون لوجوده الاول
حكمة والعبث على الحكيم محال فاذا تقررت هذه الاطوار الاربعة فلناخذ في بيان مدارك
الانسان فيها كيف تختلف اختلافا بينا يكشف لك غور المتشابه فاما مداركه في
الطور الاول فمن اوضحه جلية قال الله تعالى والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا
وجعل لكم السمع والابصار والافئدة فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف
ويستكمل حقيقة انسانيته ويوفي حق العبادة المفضية به الى النجاة واما مداركه في الطور
الثاني وهو طور النوم فهي المدارك التي في الحس الظاهر بعينها لكن ليست في الجوارح
كما هي في اليقظة لكن الرائي يتيقن كل شيء ادركه في نومه لا يشك ولا يرتاب مع خلو
الجوارح عن الاستعمال العادي لها والناس في حقيقة هذه الحالة فريقان الحكماء
يزعمون ان الصور الخيالية يدفعها الخيال بحركة الفكر الى الحس المشترك الذي هو الفصل
المشترك بين الحس الظاهر والحس الباطن فيتصور محسوسة بالظاهر في الحواس كلها والاشكال
عليهم هذا بان المرائي الصادقة التي هي من الله تعالى او من الملك ارسخ واثبت في الادراك
من المرائي الخيالية الشيطانية مع ان الخيال فيهما على ما قرروه واحد الفريق الثاني
المتكلمون اجملوا فيها القول قالوا هو ادراك يخلقه الله تعالى في الحاسة فيقع
كما يقع في اليقظة وهذا اليق وان كنا لا نتصور كيفيته وهذا الادراك النومي اوضح

شاهد على ما يقع بعده من المدارك الحسية في الاطوار واما الطور الثالث وهو طور
الانبياء فالمدارك الحسية فيها مجهولة الكيفية عندنا وجدانية عندهم باوضح من اليقين
فيرى النبي الله والملئكة ويسمع كلام الله منه او من الملئكة ويرى الجنة والنار والعرش
والكرسي ويخترق السموات السبع في اسرائه ويركب البراق فيها ويلقى النبيين هنالك
ويصلي بهم ويدرك انواع المدارك الحسية كما يدرك في طوره الجسماني والنوى
لعلم ضروري يخلقه الله له بالادراك العادي للبشر في الجوارح ولا يلتفت في ذلك
الى ما يقوله ابن سينا من تنزيله امر النبوة على امر النوم في دفع الخيال صورة الى الحس
المشترك فان الكلام عليهم هنا اشد من الكلام عليهم في النوم لان هذا التنزل طبيعة
واحدة كما قررناه فيكون على هذا حقيقة الوحي والرؤيا من النبي واحدة في يقينها وحقيقتها
وليست كذلك على ما علمت من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي ستة اشهر
وانها كانت بدء الوحي ومقدمته ويشعر ذلك بانها دونه في الحقيقة وكذلك
حال الوحي في نفسه فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقاسي منه شدة كما في الصحيح
حتى كان القران يتنزل عليه ايات مقطعة وبعد ذلك نزلت عليه براءة في غزوة
تبوك جملة واحدة وهو يسير على ناقته فلو كان ذلك من تنزل الفكر الى الخيال فقط
ومن الخيال الى الحس المشترك لم يكن بين هذه الحالات فرق واما الطور الرابع وهو
طور الاموات في برزخهم الذي اوله القبر وهم مجردون عن البدن او في بعثتهم عند
ما يرجعون الى الاجسام فمداركهم الحسية موجودة لهم فيرى الميت في قبره الملكين
يسئلانه ويرى مقعده من الجنة او النار بعيني راسه ويرى شهود الجنازة ويسمع كلامهم
وخفق نعالهم في الانصراف عنه ويسمع ما يذكرونه به من التوحيد او من تقرير الشهادتين
وغير ذلك وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر وفيه
قتلى المشركين من قريش وناداهم باسمائهم فقال عمر يا رسول الله اتكلم هؤلاء الجيف
فقال والذي نفسي بيده ما انتم باسمع منهم لما اقول ثم في البعثة ويوم القيامة
يعاينون باسماعهم وابصارهم كما كانوا يعاينون في الحياة من نعيم الجنة على مراتبه
ويرون الملئكة ويرون ربهم كما ورد في الصحيح انكم ترون ربكم يوم القيامة كالقمر
ليلة البدر لا تضامون في رؤيته وهذه المدارك لم تكن لهم في الحياة الدنيا وهي
حسية مثلها وتقع في الجوارح بالعلم الضروري الذي يخلقه الله كما قلناه وسر هذا ان تعلم
ان النفس الانسانية هي تنشا بالبدن ومداركه فاذا فارقت البدن بنوم او موت
او صار النبي حالة الوحي من المدارك البشرية الى المدارك الملكية فقد استصحبت
ما كان معها من المدارك البشرية مجردة عن الجوارح فيدرك بها في ذلك الطور اي

اي ادراك

ادركت شاءت منها اربى من ادراكها وهي في الجسد قاله الغزالي رحمه الله وزاد على ذلك
ان للنفس الانسانية صورة تبقى لها بعد المفارقة فيها العينان والاذنان وسائر
الجوارح المدركة امثالا لما كان في البدن وصورا وانا اقول يشير بذلك
الى الملكات الحاصلة من تصريف هذه الجوارح في البدن بتكررها ورسوخها على الادراك فاذا
تفطنت لهذا كله علمت ان هذه المدارك موجودة في الاطوار الاربعة لكن ليس على ما كانت
في الحيوة الدنيا وانما هي تختلف بالقوة والضعف بحسب ما يعرض لها من الاحوال
ويشير المتكلمون الى هذا اشارة مجملة بان الله يخلق فيها علما ضروريا بذلك المدرك
اي مدرك كان ويعنون به هذا القدر الذي وضحناه بهذه الوجوه التي الماعنا بها الى ما
القول في المتشابه ولو اوسعنا الكلام فيه لقصرت المدارك عنه فلنتضرع الى الله
في الهداية والفهم عن انبيائه وكتابه بما يحصل به الحق في توحيدنا والظفر بنجاتنا والله
يهدي من يشاء.

يوضع

فصل في حقيقة التصوف هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة

واصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين
ومن بعدهم طريقة الحق والهداية واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله
والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه
والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فلما فشا
الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص
المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة قال القشيري رحمه الله ولا يشهد
لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر انه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا
او من الصفة او من الصف فبعيد من جهة القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف
لانهم لم يختصوا بلبسه قلت والاظهر ان قيل بالاشتقاق انه من الصوف وهم في الغالب
مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف
فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا
بمواجد مدركة لهم وذلك ان الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان
بالادراك وادراكه نوعان ادراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك
والوهم وادراك للاحوال القائمة به من الفرح والسرور والحزن والقبض والبسط
والرضى والغضب والصبر والشكر وامثال ذلك فالمعنى العاقل والمتصرف
في البدن ينشا من ادراكات وارادات واحوال وهي التي تميز بها الانسان
كما قلناه وبعضها ينشا عن بعض كما ينشا العلم عن الادلة والفرح والحزن عن ادراك
المولم والمتلذذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد في مجاهدته

وعبادة لا بد ان ينشأ له عن مجاهدة حال نتيجة لتلك المجاهدة وتلك الحال اما ان تكون
نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد واما ان لا تكون صفة حاصلة للنفس من فرح او سرور
او نشاط او كسل او غير ذلك والمقامات لا يزال المريد يترقى فيها
من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة
قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد ان لا اله الا الله دخل الجنة والمريد لا بد له من الترقي
في هذه الاطوار واصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها الايمان ويصاحبها
وينشأ عنها الاحوال والصفات نتايج وثمرات ثم تنشأ عنها اخرى واخرى الى مقام
التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير في النتيجة او خلل فيعلم انه انما اتى من قبل التقصير في الذي
قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا احتاج المريد الى محاسبة
نفسه في ساير اعماله وينظر في خفاياها لان حصول النتايج عن الاعمال ضروري وقصورها
من الخلل فيها كذلك والمريد يجد ذلك بذوقه ويحاسب نفسه على اسبابه ولا يشاركهم
في ذلك الا القليل من الناس لان الغفلة عن هذا كانها شاملة وغاية اهل العبادات
اذا لم ينتهوا الى هذا النوع انهم ياتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الاجزاء والامتثال
وهولاء يبحثون عن نتايجها بالاذواق والمواجد ليطلعوا على انها خالصة من التقصير
اولا فظهر ان اصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام في هذه
الاذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاما ويترقى منها الى غيرها
ثم لهم مع ذلك اداب مخصوصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور في التعليم بينهم
اذ الاوضاع اللغوية انما هي للمعاني المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف
اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه فلهذا اختص هولاء بهذا النوع من العلم الذي ليس
يوجد لغيرهم من اهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص
بالفقهاء واهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات
وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام
في الاذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي فيها من ذوق الى ذوق وشرح
الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت والف الفقهاء
في الفقه واصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من اهل هذه الطريقة في
طريقتهم فمنهم من كتب في احكام الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك
كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له ومنهم من كتب في اداب الطريقة واذواق اهلها
ومواجدهم في الاحوال كما فعله القشيري في الرسالة والسهروردي في عوارف المعارف
وامثالهم وجمع الغزالي بين الامرين في الاحياء فدون فيه احكام الورع والاقتداء

ثم بين اداب القوم وسننهم في شرح اصطلاحاتهم وصار علم التصوف في الملة
علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت احكامها انما تتلقى من صدور
الرجال كما وقع في ساير العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه
والاصول وغير ذلك ثم ان هذه المجاهدة والذكر يتبعها غالبا كشف حجاب الحس
والاطلاع على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها والروح من تلك
العوالم وسبب هذا الكشف ان الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت
احوال الحس وقويت احوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه واعان على ذلك
الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في نمو وتزيد الى ان يصير شهودا بعد ان كان
علما ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك
فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته في تحقق
حقيقتها من الافق الاعلى افق الملائكة وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون
من حقايق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيرا من الواقعات قبل
وقوعها ويتصرفون بهممهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع
ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا التصرف ولا يخبرون عن حقيقة
شيء لم يومروا بالتكلم فيه بل يعدون ما يقع لهم من ذلك محنة ويتعوذون منه اذا ها جمهم
وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات
اوفر الحظوظ لكنهم لم تقع لهم بها عناية وفي فضائل ابي بكر وعمر وعلي كثير منها وتبعهم في ذلك
اهل الطريقة ممن اشتملت الرسالة للقشيري على ذكرهم ومن تبع طريقتهم من بعدهم ثم ان قوما
من المتاخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والكلام في المدارك التي وراءه واختلفت
طرق الرياضة عندهم في ذلك باختلاف تعليمهم في اماتة القوى الحسية وتغذية الروح
العاقل بالذكر حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوها وتغذيها فاذا حصل
ذلك زعموا ان الوجود قد حصل في لك زعموا ان الوجود قد حصر في مداركها ح وانهم
كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقايقه كلها من العرش الى الطش هكذا قال الغزالي
في كتاب الاحياء بعد ان ذكر صورة الرياضة ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحا كاملا
عندهم الا اذا كان ناشيا عن الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الخلوة
والجوع وان لم يكن هناك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين
وليس مرادنا الا الكشف الناشي عن الاستقامة ومثاله ان المراة الصقيلة اذا كانت
محدبة او مقعرة وحوذي بها جهة المرئي فانه يتشكل فيها معوجا على غير صورته واذا كانت
مسطحة تشكل فيها المرئي صحيحا فالاستقامة للنفس كالانبساط للمراة فيما ينطبع

فيهما من الاحوال ولما يعني المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في حقايق الموجودات
العلوية والسفلية وحقيقة الملك والروح والعرش والكرسي وامثال ذلك وقصرت
مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم اذواقهم ومواجدهم في ذلك واهل الفتيا
بين منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق ردا وقبولا اذ هي
من قبيل الوجدانيات

تفصيل وتحقيق

يقع كثيرا في كلام اهل العقايد
من علماء الحديث والفقه ان الله تعالى مباين لمخلوقاته ويقع للمتكلمين انه لا مباين
ولا متصل ويقع للفلاسفة انه لا داخل العالم ولا خارجه ويقع للمتأخرين من المتصوفة
انه متحد بالمخلوقات اما بمعنى الحلول فيها او بمعنى انه هو نفسها وليس كذلك غيره جملة
ولا تفصيلا فلنبين تفصيل هذه المذاهب ونشرح حقيقة كل واحد منها حتى تتضح معانيها
فنقول ان المباينة تقع بمعنيين احدهما المباينة في الحيز والجهة ويقابلها الاتصال ونشعر
هذه المقالة على هذا التقدير بالمكان اما صريحا وهو تجسيم او لزوما وهو تشبيه من قبيل
القول بالجهة وقد نقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح بهذه المباينة فيحتمل
غير هذا المعنى ومن اجل ذلك انكر المتكلمون هذه المباينة وقالوا لا يقال في البارى انه
مباين لمخلوقاته ولا متصل بها لان ذلك انما يكون للمتحيزات وما يقال من ان المحل
لا يخلو عن الاتصاف بالمعنى وضده فهو مشروط بصحة الاتصاف اولا واما مع امتناعه
فلا بل يجوز الخلو عن الاتصاف كالجماد لا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ولا مدرك
ولا مشوف وصحة الاتصاف بهذه المباينة مشروط بالحصول في الجهة على ما تقرر
من مدلولها والبارى سبحانه منزه عن ذلك ذكره ابن التلمساني في شرح اللمع للامام
الحرمين وقال ولا يقال في البارى مباين للعالم ولا متصل به ولا داخل فيه ولا خارج عنه
وهو معنى ما تقوله الفلاسفة انه لا داخل العالم ولا خارجه بناء على وجود الجواهر غير
المتحيزة وانكرها المتكلمون لما يلزم من مساواتها للبارى في اخص الصفات وهو مبسوط
في علم الكلام واما المعنى الاخر للمباينة فهو المغايرة والمخالفة فيقال البارى مباين لمخلوقاته
في ذاته وهويته ووجوده وصفاته ويقابله الاتحاد والامتزاج والاختلاط وهذه
المباينة هي مذهب اهل الحق كلهم من جمهور السلف وعلماء اهل الشرايع والمتكلمين
والمتصوفة الاقدمين كاهل الرسالة ومن نحا منحاهم وذهب جماعة من المتصوفة
المتأخرين الذين صيروا المدارك الوجدانية علمية نظرية الى ان البارى تعالى متحد
بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته وربما زعموا انه مذهب الفلاسفة قبل ارسطو
مثل افلاطون وسقراط وهو الذي يعنيه المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام ويحاولون
الرد عليه لانه ذاتان تنتفي احداهما او تندرج اندراج الجزء فان تلك مغايرة صريحة

ولا يقولون بذلك وهذا الاتحاد هو الحلول الذي يدعيه النصارى في المسيح وهو اغرب
لانه حلول قديم في محدث واتحاده به وهو ايضا عين ما تقوله الامامية من الشيعة وتقرير
هذا الاتحاد في كلامهم على طريقين الاولى ان ذات القديم كامنة في المحدثات محسوسها
ومعقولها متحدة بها في التصورين وهي كلها مظاهر له وهو القائم عليها اي المقوم
لوجودها بمعنى انها لولاه كانت عدما وهو راي اهل الحلول الثانية طريق اهل الوحدة
المطلقة وكانهم استشعروا من تقرير اهل الحلول الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد فنفوها
بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود والصفات وغالطوا في غيرية
المظاهر المدركة بالحس والعقل بان ذلك من المدارك البشرية وهي اوهام ولا يريدون
الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك وانما يريدون انها كلها عدم في الحقيقة
ووجود في المدارك البشرية فقط ولا وجود بالحقيقة الا للقديم لا في الظاهر ولا في الباطن
كما نقرره بعد بحسب الامكان والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال كما في المدارك
البشرية غير مفيد لان ذلك انما ينقل من المدارك الملكية وانما هي حاصلة للانبياء عليهم
السلام بالفطرة ومن بعدهم للاولياء بهدايتهم وقصد من يقصد اليها الوصول
بالطريقة العلمية ضلال وربما قصد بعض المصنفين ذلك في كشف الوجود وترتيب
حقايقه على طريق اهل المظاهر فاتى بالاغمض فالاغمض بالنسبة الى اهل النظر والاصطلاحات
والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن الفارض في الديباجة التي كتب في صدر
ذلك الشرح فانه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه ان الوجود كله صادر
عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الاحدية وهما معا صادران عن الذات الكريمة
التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا الصدور بالتجلي واول مراتب التجليات
عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال بافاضة الايجاد والظهور لقوله في الحديث
الذي يتناقلونه كنت كنزا مخفيا فاحببت ان اعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا
الكمال في الايجاد المتنزل في الوجود وتفصيل الحقايق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة
العمائية والحقيقة المحمدية وفيها حقايق الصفات واللوح والقلم وحقايق الانبياء
والرسل اجمعين والكمل من الامة المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر
عن هذه الحقايق حقايق اخرى في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي
ثم الافلاك ثم عالم العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فاذا تجلت فهي في عالم الفتق
انتهى ويسمى هذا المذهب مذهب اهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر اهل
النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين صاحب المشاهدة
والوجدان وصاحب الدليل وربما انكر بظاهر الشرع هذا الترتيب فانه لا يعرف

في شيء من مناحيه وكذلك ذهب آخرون منهم الى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي اغرب
من الاول في تعقله وتفاريعه يزعمون فيه ان الوجود كله له قوى في تفاصيله بها كانت
حقائق الموجودات وصورها والعناصر انما كانت بما فيها من القوى وكذلك موادها
لها في نفسها قوة بها كان وجودها ثم ان المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوى
التي كان بها التركيب كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية
ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الانسانية
مع الحيوانية ثم الفلك يتضمن القوة الانسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية
والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هي القوة الالهية فهي التي كانت انبثت في جميع الموجودات
كلية وجزئية وجمعتها واحاطت بها من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة
الصورة ولا من جهة المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة
بسيطة والاعتبار هو المفصل لها كالانسانية مع الحيوانية الا ترى انها مندرجة فيها
وكائنة بكونها فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل
مع الجزء على طريقة المثال وهم في هذا كله يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه
وانما اوجبها عندهم الوهم والخيال والذي من كلام ابن دهاق في تقرير هذا المذهب ان حقيقة
ما يقولونه في الوحدة شبيه بما يقوله الحكماء في الالوان من ان وجودها مشروط بالضوء
فاذا عدم الضوء لم تكن الالوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات المحسوسة
كلها مشروط بوجود المدرك الحسي بل الموجودات المعقولة والمتوهمة ايضا مشروطة
بالمدرك البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل في الوجود
بل هو بسيط واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل الارض والماء والنار والسماء
والكواكب انما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي
ليس في الوجود وانما هو في المدرك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل
انما هو ادراك واحد وهو انا لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم وهو اذا نام
وفقد الحس الظاهر فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا ما يفصله له الخيال قالوا فكذلك
اليقظان انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد
مدركه فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الوهم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية هذا
ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهاق وهو في غاية السقوط لانا نقطع بوجود البلد
الذي نحن مسافرون عنه واليه يقينا مع غيبته عن اعيننا وبوجود السماء المظلة والكواكب
وسائر الاشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر احد نفسه
في اليقين مع ان المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المريد عند الكشف

وربما يعرض توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز
بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق
ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة يخشى على المريد من وقوفه عندها
صفقته فقد تبينت مراتب هذه الطريقة

فصل

ثم ان هولاء المتأخرين
من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك وذهب الكثير منهم
الى الحلول والوحدة كما اشرنا اليه وملؤوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات
له وغيره وتابعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ثم ابن العفيف وابن الفارض
والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة
الدائنين ايضا بالحلول والهية الائمة مذهبا لم يعرف لاولهم فاشرب كل واحد
من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة
القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه رأس العارفين وانه لا يمكن ان يساويه
احد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله عز وجل ثم يورث مقامه لآخر من اهل العرفان وقد اشار
الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها فقال جل جناب الحق
ان يكون شرعة لكل وارد او يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا لا يقوم عليه حجة
عقلية ولا دليل شرعي انما هو من انواع الخطابة وهو بعينه ما يقوله الرافضة في توارث
الائمة عندهم فانظر كيف سرقت طباع هولاء القوم هذا الرأي من الرافضة ودانوا
به ثم قالوا بترتيب وجود الابدال بعد هذا القطب كما قال الشيعة في النقباء حتى انهم
لما اسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه اصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه الى علي رضوان
الله عليه وهو من هذا المعنى ايضا والا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة
في لبوس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي الله عنهما ازهد الناس بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم واكثرهم عبادة ولم يختص احد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه على الخصوص بل كان
الصحابة كلهم اسوة في الدين والورع والزهد والمجاهدة يشهد بذلك سيرهم واخبارهم
نعم ان الشيعة يخيلون بما ينقلون من ذلك اختصاص علي بالفضائل دون من سواه من
الصحابة ذهابا مع عقائد التشيع المعروفة لهم والذي يظهر ان المتصوفة بالعراق
لما ظهرت الاسماعيلية من الشيعة وظهر من كلامهم في الامامة وما يرجع اليها ما هو معروف
فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن وجعلوا الامام لسياسة الخلق
في الانقياد الى الشرع وافردوه بذلك ان لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع ثم
جعلوا هذا القطب ليعلم المعرفة بالله لانه رأس العارفين وافردوه بذلك تشبيها
بالامام في الظاهر وان يكون على وزانه واسموه قطبا لمدار المعرفة عليه وجعلوا

الابدال كالنقباء مبالغة في التشبيه فتامل ذلك من كلام هولاء المتصوفة في امر الفاطمي
وما شحنوا به كتبهم من ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي ولا اثبات وانما هو
ماخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق **تذييل**
وقد رايت ان اجلب هنا فصلا من كلام شيخنا العارف كبير الاولياء بالاندلس
ابي مهدي عيسى بن الزيات كان يقع له اكثر الاوقات على ابيات الهروي التي وقعت له
اكثر الاوقات على ابيات في كتاب المقامات توهم القول بالوحدة المطلقة او يكاد
فصرح بها وهي قوله • ما وحد الواحد من واحد اذ كل من وحده جاحد • توحيد من ينطق
عن نعته تثنية ابطلها الواحد • توحيده اياه توحيده • ونعت من ينعته لاحد
فيقول رحمه الله على سبيل العذر عنه استشكل الناس اطلاق لفظ الجحود على من وحد الواحد
ولفظ الالحاد على من نعته وصفه واستبشعوا هذه ابيات وحملوا على تاملها واستحقروه
ونحن نقول على راي هذه الطائفة ان معنى التوحيد عندهم انتفاء عين الحدوث بثبوت
عين القدم وان الوجود كله حقيقة واحدة وانية واحدة وقد قال ابو سعيد الخراز
من كبار القوم الحق عين ما ظهر وعين ما بطن ويرون ان وقوع التعدد في تلك
الحقيقة ووجود الاثنينية وهم باعتبار حضرات الحس بمنزلة صور الظلال والصدا وصور
المرائي وان كل ما سوى عين القدم اذا استتبع فهو عدم وهذا معنى كان الله ولا شي
معه وهو الان على ما كان عليه عندهم ومعنى قول لبيد الذي صدقه رسول الله
صلى الله عليه وسلم في قوله **شعر** الا كل شي ما خلا الله باطل • قالوا فمن وحد ونعت فقد قال
بموحد محدث هو نفسه وتوحيد محدث هو فعله وموحد قديم هو معبوده وقد تقدم
ان معنى التوحيد انتفاء عين الحدوث وعين الحدوث الان ثابتة بل متعددة
والتوحيد مجحود والدعوى كاذبة كمن يقول لغيره وهما معا في بيت ليس في البيت
غيرك فيقول الاخر بل ان حاله لا يصح هذا الا لو عدمت انت وقد قال بعض
في قولهم خلق الله الزمان هذه الفاظ تناقض اصولها لان خلق الزمان متقدم على الزمان
وهو فعل لابد من وقوعه في الزمان وانما حمل على ذلك ضيق العبارة في الحقايق وعجز
اللغات عن تادية الحق فيها وبها فاذا تحقق ان الموحد هو الموحد وعدم ما سواه
جملة صح التوحيد حقيقة وهذا معنى قولهم لا يعرف الله الا الله ولا حرج على من وحد
الحق مع بقاء الرسوم والاثار وانما هو من باب حسنات الابرار سيئات المقربين
لان ذلك لازم التقييد والعبودية والشفعية ومن ترقى الى مقام الجمع كان في حقه
نقصا مع علمه بربته وانه تلبيس يستلزمه العبودية ويرفعه الشهود ويطهره من دنس
حدوثه عين الجمع واغرق الاصناف في هذا الزعم القائلون بالوحدة المطلقة

ومدار

ومدار المعرفة بكل اعتبار على الانتهاء الى الواحد وانما صدر هذا القول من الناظم
على سبيل التعرض الى التنبيه والتفطين لمقام اعلى ترتفع فيه الشفعية ويحصل التوحيد
المطلق عينا لا خطابا وعبارة فمن سلم استراح ومن نازعه حقيقته انس بقوله
كنت سمعه وبصره واذا عرفت المعاني لا مشاحة في الالفاظ وهذه يفيده هذا كله
يفيده هذا كله تحقق امر فوق هذا الطور لا نطق فيه ولا خبر عنه وهذا المقدار من الاشارة كاف
والتعمق فيه منع من اجتناب وهو الذي اوقع في المقالات المعروفة انتهى كلام الشيخ
ابي مهدي نقلته من كتاب الوزير ابن الخطيب الذي الفه في المحبة وسماه التعريف بالحب
الشريف وقد سمعته من شيخنا ابي مهدي مرارا الا اني رايت رسوم الكتاب اوعى
له لطول عهدي به والله الموفق **فصل** ثم ان كثيرا من الفقهاء واهل الفتيا
انتدبوا للرد على هولاء المتاخرين في هذه المقالات وامثالها وشملوا بالنكير سائر
ما وقع لهم في الطريقة والحق ان الكلام معهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع
احدها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال
لتحصل تلك الاذواق التي تصير مقاما ويترقى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف
والحقايق المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي
والنبوة والروح وحقايق كل موجود غايب او شاهد وتركيب الاكوان في صدورها
عن موجدها ومكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والاكوان بانواع الكرامات
ورابعها الفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من ايمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم
بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتاول فاما الكلام في المجاهدات والمقامات
وما يحصل من الاذواق في المواجد ونتايجها ومحاسبة النفس على التقصير في اسبابها فامر
لا مدفع فيه لاحد واذواقهم صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة واما الكلام في كرامات
القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكاينات فامر صحيح غير منكر وان مال بعضهم
الى انكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ ابو اسحق الاسفرايني من ايمة الاشعرية
على انكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون من اهل السنة بينهما بالتحدي وهو دعوى
وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور
لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان وصفه نفسها التصديق فلو وقعت مع
الكاذب لتبدلت صفة النفس وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه
الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابة واكابر السلف كثير من ذلك وهو
معلوم مشهور واما الكلام في الكشف واعطاء حقايق العلويات وترتيب صدور
الكاينات فاكثر كلامهم فيه من نوع المتشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان

بمعزل عن ادواتهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعا
والاكثر من المحسوسات فينبغي ان لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه
ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فاكرم بها سعادة
واما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها اهل الشرع فاعلم
ان الانصاف في شان القوم انهم اهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا
عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتدا ذه
حمل على القصد الجميل من هذا وامثاله وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع
لها كما وقع لابي يزيد البسطامي وامثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه
من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تاويل كلامه واما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه
الحال فمؤاخذ ايضا ولهذا افتى الفقهاء واكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور وهو
مالك لحاله والله اعلم **وسلف** المتصوفة من اهل الرسالة اعلام الملة الذين
اشرنا اليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع
والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ث
ويرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات
لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله اوسع وخلقه اكبر وشريعته بالهداية املك
فلم ينطقوا بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب
من اصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل
الكشف من الاتباع والاقتداء ويامرون اصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي ان يكون حال
المريد والله الموفق **علم تعبير الرؤيا ه ه ه ه** هذا العلم من العلوم الشرعية
وهو حادث في الملة عند ما صارت العلوم صنائع وكتب الناس فيها واما الرؤيا والتعبير
لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف وربما كان في الامم والملل قبل الا انه لم يصل
الينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من اهل الاسلام والا فالرؤيا موجودة في صنف البشر
على الاطلاق ولا بد من تعبيرها وقد كان في السلف يوسف الصديق صلوات الله عليه
يعبر الرؤيا كما وقع في القرآن وكذا ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن ابي بكر رضي
الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك الغيب قال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة
جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة
يراها الرجل الصالح او ترى له واول ما بدئ به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان
لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة
يراها الرجل الصالح او ترى له وكان صلى الله عليه وسلم اذا انفتل من صلوة الغداة

يقول

يقول لاصحابه هل رأى احد منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه
ظهور الدين واعزازه واما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو ان الروح القلبي
وهو البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي ينتشر في الشريانات ومع الدم
في سائر البدن وبه تكمل افعال القوى الحيوانية واحساسها فاذا ادركه الملال بكثرة التصرف
في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن ما يغشاه من برد
انخنس الروح من سائر اقطار البدن الى مركزه القلبي فيستجم بذلك لمعاودة فعله
فتعطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم في اول الكتاب ثم ان هذا
الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح العاقل مدرك لجميع
ما في عالم الامر بذاته اذ حقيقته وذاته انه عين الادراك فيعقل كل مدركه فاذا تجرد
عن بعضها خفت شواغله فلا بد له من ادراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد له وهو في هذه
الحالة قد خفت عنه شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعد لقبول ما هنالك
من المدارك اللائقة به من عالمه واذا ادرك ما ادرك من عالمه رجع به الى بدنه اذ هو ما دام
في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية والمدارك الجسمانية للعلم انما هي
الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه ينتزع من الصور المحسوسة صورا خيالية ثم يدفعها
الى الحافظة تحفظها له الى وقت الحاجة اليها عند النظر والاستدلال كذلك تجرد النفس
منها صورة اخرى نفسانية عقلية فيترقى في التجريد من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة
بينهما وكذا اذا ادركت النفس من عالمها ما تدركه القته الى الخيال فيصوره بالصور المناسبة
له ويدفعه الى الحس المشترك فيراه النائم كانه محسوس فيتنزل هذا المدرك من الروح العقلي
الى الحس والخيال ايضا واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين
الرؤيا الصادقة واضغاث الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الخيال حالة النوم لكن
ان كانت تلك الصور متنزلة من الروح العقلي المدرك فهي رؤيا وان كانت ماخوذة
من الصور التي في الحافظة التي كان الخيال اودعها اياها منذ اليقظة فهي اضغاث احلام
واعلم ان للرؤيا الصادقة علامات تؤذن بصدقها وتشهد بصحتها
فيستشعر الرائي البشارة من الله بما القي اليه في نومه فمنها سرعة انتباه الرائي عند ما يدرك
الرؤيا كانه يعاجل الرجوع الى الحس باليقظة ولو كان مستغرقا في نومه لثقل ما القي عليه
من ذلك الادراك فيفر من تلك الحالة الى حالة الحس التي تبقى النفس منغمسة بالبدن
وعوارضه ومنها ثبوت ذلك الادراك ودوامه بانطباع تلك الرؤيا بتفاصيلها
في حفظه فلا يتخللها سهو ولا نسيان ولا يحتاج الى احضارها والتذكر بل تبقى متصورة
في ذهنه اذا انتبه ولا يعزب عنه منها شيء لان الادراك النفساني ليس بزماني ولا يلحقه

ترتيب بل يدركه دفعة في زمن فرد واضغاث الاحلام زمانية كانها في القوى الدماغية
يستنتجها الخيال الحافظة الى الحس المشترك كما قلناه وافعال البدن كلها زمانية فيلحقها
الترتيب في الادراك والمتقدم والمتاخر ويعرض النسيان العارض للقوى الدماغية
وليس كذلك مدارك النفس الناطقة اذ ليست بزمانية ولا ترتيب فيها وما ينطبع فيها
من الادراكات فينطبع دفعة واحدة في اقرب من لمح البصر وقد تبقى الرؤيا بعد الانتباه
حاضرة في الحس اياما من العمر لا تشذ بالغفلة عن الفكر بوجه اذا كان الادراك الاول
قويا واذا كان انما يتذكر الرؤيا بعد الانتباه من النوم باعمال الفكر والتوجه اليها وينسى
الكثير من تفاصيلها حتى يتذكرها فليست الرؤيا بصادقة وانما هي من اضغاث الاحلام
وهذه العلامات من خواص الوحي فان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم لا تحرك به لسانك
لتعجل به ان علينا جمعه وقرانه فاذا قراناه فاتبع قرانه ثم ان علينا بيانه والرؤيا لها نسبة
من النبوة والوحي كما في الصحيح قال صلى الله عليه وسلم الرؤيا جزء من ستة واربعين
جزءا من النبوة فلخواصها ايضا نسبة الى خواص النبوة بذلك القدر فلا تستبعد ذلك
فهذا وجهه والله الخالق لما يشاء **واما معنى التعبير** فاعلم ان الروح العقلي اذا ادرك
مدركه والقاه الى الخيال فصوره فانما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى
بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاعظم فيصوره الخيال بصورة البحر او يدرك
العداوة فيصورها الخيال بصورة الحية فاذا استيقظ وهو لم يعلم من امره الا انه راى
البحر او الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد ان يتيقن ان البحر صورة محسوسة وان المدرك
وراءها ويهتدي بقرائن اخرى تعين له المدرك فيقول مثلا هو السلطان لان البحر
خلق عظيم يناسب ان يشبه بالسلطان وكذا الحية يناسب ان تشبه بالعدو لعظيم
ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهن اوعية وامثال ذلك ومن المرائي ما يكون صريحا
لا تفتقر الى تعبير لجلائها ووضوحها او لقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه ولهذا
وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي
من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى تاويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر
الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث **واعلم** ايضا ان الخيال
اذا القى اليه الروح مدركه فانما يصوره في القوالب المعتادة للحس وما لم يكن الحس ادركه
من القوالب فلا يصور فيه شيئا فلا يمكن من ولد اعمى ان يصور له السلطان بالبحر
ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيئا من هذه وانما يصور له الخيال
امثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشمومات وليتحفظ
المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبني عليها

المعبر

المعبر عليها عبارة ما يقص عليه وتاويله كما يقولون البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر
يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر على الهم والامر الفادح ومثل ما يقولون الحية
تدل على العدو وفي موضع آخر تدل على الحياة وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سر وامثال
ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي
تعين من هذه ما هو اليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في اليقظة ومنها في النوم ومنها
ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه وكل ميسر لما خلق له ولم يزل هذا العلم
متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيهم من اشهر العلماء به وكتبت عنه في ذلك
قوانين وتناقلها الناس لهذا العهد والف الكرماني فيه من بعده ثم الف المتاخرون
واكثروا والمتداول بين اهل المغرب لهذا العهد كتب ابن ابي طالب القيرواني من علماء
اهل القيروان مثل الممتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمي من انفع الكتب فيه واحضرها
وكذلك كتاب المرقبة العليا لابن راشد من مشيختنا بتونس وهو علم مضيء بنور النبوة
للمناسبة التي بينهما ولكونها كانت من مدارك الوحي كما ثبت في الصحيح والله علام الغيوب

العلوم العقلية واصنافها واما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان
من حيث انه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل يوجد في النوع الانساني منذ عمران الخليقة وتسمى
هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على اربعة علوم **الاول** علم المنطق وهو
يعصم الذهن عن الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز
الخطا من الصواب فيما يلتمسه الناظر في التصورات والتصديقات الذاتية والعرضية
ليقف على تحقيق الحق في الكائنات نفيا وثبوتا بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اما في المحسوسات
من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية
والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم
الطبيعي وهو العلم الثاني واما ان يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات
ويسمونه العلم الالهي وهو العلم الثالث منها والعلم الرابع وهو النظر في المقادير ويشتمل
على اربعة علوم وهي التي تسمى التعاليم اولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الاطلاق
اما المنفصلة من حيث كونها معدودة او المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط
او ذو بعدين وهو السطح او ذو ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير
وما يعرض لها اما من حيث ذاتها او من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقي
وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة
وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد
وثمرته معرفة تلاحين الغناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر اوضاعها

وتعددها لكل كوكب من السيارة والثابتة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية
المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها فهذه اصول
العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق هو المقدم وبعده التعاليم فالارتماطيقي اولا ثم
الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع
عنه فمن فروع الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات
ومن فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحسبانات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف
على مواضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الاحكام النجومية ونحن نتكلم
عليها واحدا بعد واحد الى اخرها **واعلم** ان اكثر من عني بها في الاجيال الذين عرفنا
اخبارهم الامتان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم فكانت اسواق
العلوم نافقة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة والسلطان قبل
الاسلام وعصره لهم فكان لهذه العلوم بحور زاخرة في افاقهم وامصارهم وكان
للكلدانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة
وما يتبعهما من التاثيرات والطلسمات واخذ ذلك عنهم الامم من فارس ويونان
واختص به القبط وطما بحرها فيهم كما وقع في المتلو من خبر هروت وماروت وشان السحرة
وما نقله اهل العلم عنهم من شان البرابي بصعيد مصر ثم تتابعت الملل بحظر ذلك وتحريمه
فدرست علومه وبطلت كان لم تكن الا بقايا يتناقلها منتحلو هذه الصنائع الله اعلم بصحتها
مع ان سيوف الشرع قائمة على ظهورها ومانعة من اختبارها واما الفرس فكان شان هذه
العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولهم من الضخامة واتصال
الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان منهم حين قتل الاسكندر دارا
وغلب على مملكة الكينية فاستولى على كتبهم وعلومهم الا ان المسلمين لما افتتحوا بلاد فارس
واصابوا من كتبهم وصحائف علومهم مما لا ياخذه الحصر كتب سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب
يستاذنه في شانها وتنفيلها للمسلمين فكتب اليه عمر ان اطرحها في الماء فان يكن ما فيها
هدى فقد هدانا الله باهدى منه وان يكن ضلالا فقد كفانا الله فطرحوها في الماء او في النار
واما الروم فكانت الدولة منهم ليونان اولا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب وحملها
مشاهير من رجالهم مثل اساطين الحكمة وغيرهم واختص فيها المشاؤون منهم اصحاب الرواق
بطريقة حسنة في التعليم كانوا يقرءون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا واتصل
فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه الى بقراط الدن ثم الى تلميذه
افلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر الافرودسي وتامسطيوس
وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك

من

من ايديهم وكان ارسخهم في هذه العلوم قدما وابعدهم فيها صيتا وشهرة وكان يسمى
المعلم الاول فطار له في العالم ذكر ولما انقرض امر اليونانيين وصار الملك
للقياصرة واخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم كما تقتضيه الملل والشرائع
فيها وبقيت في صحفها ودواوينها مخلدة باقية في خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه
العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله الظهور الذي لا كفاء له وابتزوا
ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتداء امرهم بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا تبحبح السلطان
والدولة واخذوا من الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع
والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الاساقفة و
الاقسة المعاهدين بعض ذكر منها وبما تسمو اليه افكار الانسان فيها فبعث ابو جعفر
المنصور الى ملك الروم ان يبعث بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب اوقليدس
وبعض كتب الطبيعيات وقراها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا
على الظفر بما بقي منها وجاء المامون من بعد ذلك وكانت له في العلوم رغبة بما كان
ينتحله فانبعث لهذه العلوم حرصا واوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم
علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك فاوعى منه واستوعب
وعكف عليها النظار من اهل الاسلام وحذقوا في فنونها وانتهت الى الغاية انظارهم
فيها وخالفوا كثيرا من اراء المعلم الاول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة
عنده ودونوا في ذلك الدواوين واربوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من اكابرهم
في الملة ابو نصر الفارابي وابو علي بن سينا بالمشرق والقاضي ابو الوليد بن رشد
وابو بكر بن الصائغ بالاندلس الى اخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة
والذكر واقتصر كثير على انتحال التعاليم وما ينضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات
ووقفت الشهرة في هذا المنتحل على جابر بن حيان من اهل المشرق وعلى مسلمة بن احمد المجريطي
من اهل الاندلس وتلميذه ودخل على الملة من هذه العلوم واهلها داخلة واستهوت
الكثير من الناس بما جنحوا اليها وقلدوا اراءها والذنب في ذلك كله لمن ارتكبه ولو شاء
ربك ما فعلوه **ثم المغرب والاندلس** لما ركدت ريح العمران به وتناقصت العلوم
بتناقصه اضمحل ذلك منه الا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس تحت رقبة
من علماء السنة ويبلغنا عن اهل المشرق ان بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة
وخصوصا في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر وانهم على ثبج من العلوم العقلية والنقلية
لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم ولقد وقفت بمصر على تواليف في المنقول
متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد خراسان يشتهر بسعد الدين التفتازاني منها

في علم الكلام واصول الفقه والبيان تشهد بان له ملكة راسخة في هذه العلوم ونقل تآليفه ما يدل ان له اطلاعا على العلوم الحكمية وتطلعا بها وقدما عالية في سائر الفنون العقلية والله يؤيد من يشاء وكذلك بلغنا لهذا العهد ان هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من ارض رومة وما اليها من العدوة الشمالية نافقة الاسواق وان رسومها هنالك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبتها متكثرون والله اعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار **العلوم العددية**

واولها الارتماطيقي وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف اما على التوالي او بالتضعيف مثل ان الاعداد اذا توالت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت عدة تلك الاعداد فردا مثل الافراد على توالها والازواج على توالها ومثل ان الاعداد اذا توالت على نسبة واحدة بان يكون اولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الى اخرها او يكون اولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الى اخرها فان ضرب الطرفين احدهما في الاخر كضرب كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد احدهما في الاخر ومثل مربع الواسطة ان كانت العدة فردا وذلك مثل اعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فاربعة فثمانية فستة عشر ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بان يجمع من الواحد الى العدد الاخير فتكون مثلثة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر واحد تحت الاضلاع ثم تزيد على كل مثلث ضلع الذي قبله فيكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الذي قبله فيكون مخمسة وهلم جرا وتتوالى الاشكال على توالي الاضلاع ويحدث جدول ذو طول وعرض ففي عرضه الاعداد على توالها ثم المثلثات على توالها ثم المربعات ثم المخمسات الى اخرها وفي طوله كل عدد واشكاله بالغا ما بلغ ويحدث في جمعها وقسمة بعضها على بعض طولا وعرضا خواص غريبة استقريت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج وزوج الفرد وزوج الزوج والفرد فان لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن ليست في غيره وهذا الفن اول اجزاء التعاليم واثبتها ويدخل في براهين الحساب وللحكماء المتقدمين والمتأخرين فيه تآليف واكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف فعل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين واما المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير متداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهجروه لذلك بعد ان استخلصوا زبدته في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الحجاب وغيره والله اعلم **ومن فروع علم العدد**

صناعة الحساب وهي صناعة علمية في حسبان الاعداد بالضم والتفريق فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع وبالتضعيف اي يضاعف عددا باحاد عدد اخر وهذا هو الضرب والتفريق ايضا يكون في الاعداد اما بالافراد مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح او تفصيل عدد باجزاء متساوية يكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد او الكسر ومعنى الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسرا وكذلك يكون الضم والتفريق في الجذور ومعناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد المربع والعدد الذي يكون مصرحا به يسمى المنطق ومربعه كذلك ولا يحتاج فيه الى تكلف عمل بالحسبان والذي لا يكون مصرحا به يسمى الاصم ومربعه اما منطق مثل جذر ثلثة الذي مربعه ثلثة واما اصم مثل جذر جذر ثلثة الذي مربعه جذر ثلثة وهو اصم ويحتاج الى العمل من الحسبان فان تلك الجذور ايضا يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة الحسابية حادثة احتيج اليها للحسبان في المعاملات والف الناس فيها كثيرا وتداولوها في الامصار بالتعليم للولدان ومن احسن التعليم عندهم الابتداء بها لانها معارف متضحة وبراهينها منتظمة فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء درب على الصواب وقد يقال ان من اخذ نفسه بتعليم الحساب اول امره انه يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك له خلقا ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا ومن احسن التآليف فيه المبسوطة لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين اعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق على المبتدي لما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر ادركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك وساق فيه المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب لابن منعم والكامل للاحدب ولخص براهينهما وغيرها عن اصطلاح الحروف فيها الى العلل المعنوية الظاهرة التي هي سر الحروف وزبدتها وهي كلها مستغلقة وانما جاءها الاستغلاق من طريق البرهان شان علوم التعاليم لان مسائلها واعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فانما هو اعطاء العلل في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في اعمال المسائل فتامله والله يهدي بنوره من يشاء **ومن فروعه**

الجبر والمقابلة وهي صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك فاصطلحوا فيها على ان جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب اولها العدد لانه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول اليه وثانيها الشيء لان كل مجهول فهو من جهة ابهامه

شي وهو ايضا جذر لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال وهو مربع منهم
وما بعد ذلك فعلى نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فيخرج
الى معادلة بين مختلفين واكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون
ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحا ويحطون المراتب الى اقل الاسوس ان امكن حتى يصير
الى الثلاثة التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشي والمال فان كانت المعادلة
بين واحد وواحد تعين فالمال والجذر يزول ابهامه بمعادلة العدد ويتعين والمال
ان عادل الجذور فيتعين بعدتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين اخرجه
العمل الهندسي من طريق تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمة فيعينها ذلك الضرب
المفصل ولا تمكن المعادلة بين اثنين واثنين واكثر ما انتهت المعادلة عندهم الى ست
مسائل لان المعادلة بين عدد وجذر ومال مفردة او مركبة تجي ستة واول من كتب
في هذا الفن ابو عبد الله الخوارزمي وبعده ابو كامل شجاع بن اسلم وجاء الناس على اثره فيه
وكتابه في مسائله الست من احسن الكتب الموضوعة فيه وشرحه كثير من اهل الاندلس فاجادوا
ومن احسن شروحاته كتاب القرشي وقد بلغنا عن بعض ائمة التعاليم من اهل المشرق انه
انهى المعادلات الى اكثر من هذه الستة اجناس وبلغها الى العشرين واستخرج لها كلها
اعمالا وثيقة ببراهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء ، **ومن فروعه ايضا**
المعاملات وهو تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات
والزكوات وساير ما يعرض فيه العدد من المعاملات تصرف في ذلك صناعة ح
الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها والغرض من تكثير المسائل
المفروضة فيها حصول المران والدربة بتكرار العمل حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب
ولاهل الصناعة الحسابية من اهل الاندلس تآليف فيها متعددة من اشهرها معاملات
الزهراوي وابن السمح وابي مسلم بن خلدون من تلميذ مسلمة المجريطي وامثالهم **ومن فروعه**
ايضا الفرايض وهي صناعة حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثات
اذا تعددت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته وزادت الفروض
عند اجتماعها وتزاحمها على كله او كان في الفريضة اقرارا وانكارا من بعض الورثة
دون بعض فيحتاج في ذلك كله الى عمل يعين به سهام الفريضة الى كم تصح وسهام
الورثة من كل بطن مصححا حتى يكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة
سهام الفريضة فيدخلها من صناعة الحساب جزء كبير من صحيحه وكسوره وجذوره
ومعلومه ومجهوله ويترتب على ترتيب ابواب الفرايض الفقهية ومسائلها فتشتمل
ح الصناعة على جزء من الفقه وهو احكام الوراثات من الفروض والعول والاقرار

والانكار والوصايا والتدبير وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء كبير من الحساب
وهو تصحيح السهام باعتبار الحكم الفقهي وهو من اجل العلوم وقد يورد اهلها احاديث
نبوية تشهد بفضلها مثل الفرايض ثلث العلم وانها اول ما يرفع من العلوم وغير ذلك
وعندي ان ظواهر تلك الاحاديث كلها انما هي في الفرايض العينية كما تقدم لا فرائض يض
الوراثات فانها اقل من ان تكون في كميتها ثلث العلم واما الفرايض العينية فكثيرة
وقد الف الناس فيها قديما وحديثا واوعبوا ومن احسن التواليف فيها على مذهب
مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي ابي القاسم الحوفي وكتاب ابن المنمر
والجعدي والصودي وغيرهم لكن الفضل للحوفي وكتابه مقدم على جميعها وقد شرحه
من شيوخنا ابو عبد الله محمد بن سليمان السطي كبير مشيخة فاس فاوضح واوعب ولامام
الحرمين فيها تواليف على مذهب الامام الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم
ورسوخ قدمه فيها وكذا للحنفية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي
من يشاء **العلوم الهندسية** هذا العلم هو الناظر في المقادير
اما المتصلة كالخط والسطح والجسم او المنفصلة كالاعداد وفيما يعرض لها من العوارض
الذاتية مثل ان كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ومثل ان كل خطين متوازيين لا يلتقيان
في وجه ولو خرجا الى غير نهاية ومثل ان كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان
منهما متساويتان ومثل ان الاربعة المقادير المتناسبة ضرب الاول منها في الثالث
كضرب الثاني في الرابع وامثال ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة
كتاب اوقليدس ويسمى كتاب الاصول والاركان وهو ابسط ما وضع فيها للمتعلمين
واول ما ترجم من كتاب اليونانيين في ايام ابي جعفر المنصور ونسخه مختلفة باختلاف
المترجمين فمنها لحنين ابن اسحق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج ويشتمل
على خمسة عشر مقالة اربعة في السطوح وواحدة في الاقدار المتناسبة واخرى في نسب
السطوح بعضها الى بعض وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوية
على المنطقات ومعناه الجذور وخمس في المجسمات وقد اختصره الناس مختصرا كثيرة
كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء افرد له جزءا منها واختصه به وكذا ابن الصلت
في كتاب الاقتصار وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدا العلوم الهندسية
باطلاق واعلم ان الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فكره لان براهينها
كلها بينة الانتظام جلية الترتيب لا يكاد الغلط يدخل اقيستها لترتيبها وانتظامها
فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع ولقد زعموا
انه مكتوبا على كتاب افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخل منزلنا وكان شيوخنا

رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الاقذار وينقيه من الاوضار والادران وانما ذلك لما اشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه **ومن فروع هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات** اما الاشكال الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين لثاودوسيوس وميلاوش في سطوحها وقطوعها وكتاب ثاودوسيوس مقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من براهينه عليه ولابد منهما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينها متوقفة عليهما فان الكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدواير باسباب الحركات كما نذكره فقد يتوقف على معرفة احكام الاشكال الكرية وسطوحها وقطوعها واما المخروطات فهو من فروع الهندسة ايضا وهو علم ينظر فيما يقع في الاجسام المخروطة من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من العوارض ببراهين هندسية متوقفة على التعليم الاول وفايدتها تظهر في الصنايع العملية التي موادها الاجسام مثل النجارة والبناء وكيف تصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكيف يتحيل على جر الاثقال ونقل الهياكل بالهندام والميخال وامثال ذلك وقد افرد بعض المولفين كتابا في هذا الفن في الحيل العملية يتضمن من الصناعات الغريبة والحيل المستظرفة كل عجيب وربما استغلق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسية وهو موجود بايدي الناس وينسبونه لبني شاكر **ومن فروع الهندسة المساحة** وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض ومعناه استخراج مقدار الارض معلومة بنسبة شبر او ذراع او غيرهما او نسبة ارض من ارض اذا قويست بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوايط والاراضي بين الشركاء او الورثة وامثال ذلك وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة **ومن فروع الهندسة المناظر** وهو علم يتبين به اسباب الغلط في الادراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على ان ادراك البصر يكون بمخروط شعاعي راسه نقطة الباصر وقاعدته المرئي ثم يقع الغلط كثيرا في روية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا روية الاشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الاجسام الشفافة كبيرة وروية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والشعلة دايرة وامثال ذلك فيبين في هذا العلم اسباب ذلك وكيفياته بالبراهين الهندسة ويتبين به ايضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف العروض الذي ينبني عليه معرفة روية الاهلة وحصول الكسوفات وكثير من امثال هذا وقد الف في هذا الفن كثير من اليونانيين واشهر من الف فيه من الاسلاميين ابن الهيثم ولغيره فيه ايضا تواليف وهو من هذه العلوم الرياضية وتفاريعها **علم الهيئة** وهو علم ينظر في حركات

الكواكب الثابتة والمتحيرة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على اشكال واوضاع للافلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية كما يبرهن على ان مركز الارض مباين لمركز فلك الشمس بوجود حركة الاقبال والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود افلاك صغيرة حاملة لها متحركة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكوكب الواحد بتعدد الميول له وامثال ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفياتها واجناسها انما هو بالرصد فانا انما علمنا حركة الاقبال والادبار به وكذا تركيب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة وامثال ذلك وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيرا ويتخذون له الالات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين وكانت تسمى عندهم ذات الحلق وصناعة عملها والبرهان عليه في مطابقة حركتها لحركة الفلك منقول بايدي الناس واما في الاسلام فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في ايام المامون شيء منه وشرع في صناعة هذه الالة المعروفة بذات الحلق ومات قبل ان يتمها ولما مات ذهب رسمه واغفل واعتمد من بعده على الارصاد القديمة وليست بمغنية لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقة حركة الالة في الرصد لحركة الافلاك والكواكب انما هو بالتقريب ولا يعطي التحقيق فاذا طال الزمان ظهر تفاوت ذلك التقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وليست على ما يفهم في المشهور انها تعطي صورة السموات وترتيب الافلاك بالحقيقة بل انما تعطي هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركات وانت تعلم انه لا يبعد ان يكون الشيء الواحد لازما لمختلفين وان قلنا ان الحركات لازمة فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطي الحقيقة بوجه على انه علم جليل وهو احد اركان التعاليم ومن احسن التواليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس وليس من ملوك اليونانيين الذين اسماؤهم بطليموس على ما حققه شراح الكتاب وقد اختصره الايمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينا وادرجه في تعاليم الشفاء ولخصه ابن رشد من حكماء الاندلس وابن السمح وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولابن الفرغاني هيئة ملخصة قربها وحذف براهينها الهندسية والله علم الانسان ما لم يعلم **ومن فروعه علم الازياج** وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما ادى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطوء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف بها مواضع الكواكب في افلاكها لاي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والاصول لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية واصول متقررة من معرفة الاوج والحضيض والميول واصناف

الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين
وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض بهذه الصناعة
تعديلا وتقويما وللناس فيه تواليف كثيرة للمتقدمين والمتاخرين مثل البتاني وابن
وابن الكماد وقد عول المتاخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج منسوب لابن اسحق ويزعمون
ان ابن اسحق عول فيه على الرصد وان يهوديا كان بصقلية ماهرا في الهيئة والتعاليم
وكان قد عني بالرصد وكان يبعث اليه بما يصح له من ذلك من احوال الكواكب وحركاتها
فكان اهل المغرب لذلك عنوا به لوثاقة مبناه فيما يزعمون ولخصه ابن البناء في اخر سماه المنهاج
فولع به الناس لما سهل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب من الفلك لتبنى
عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الاثار التي تحدث عنها باوضاعها في عالم الانسان
من الملك والدول والمواليد البشرية والكواين الحادثة كما نبينه بعد ونوضح فيه ادلتهم
ان شاء الله تعالى

علم المنطق

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد
في الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات وذلك لان الاصل في الادراك
انما المحسوسات بالحواس الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره
وانما يتميز الانسان عنها بادراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بان يحصل
في الخيال من الاشخاص المتفقة صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكلي
ثم ينظر الذهن بين تلك الاشخاص المتفقة واشخاص اخرى توافقها في بعض فيحصل
له صورة تنطبق ايضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكلي الذي
لا يجد كليا اخر معه يوافقه فيكون لاجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما يجرد من اشخاص الانسان صورة
النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبق عليهما ثم بينهما وبين
النبات الى ان ينتهي الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا يوافقه في شيء فيقف العقل هنالك
عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله له الفكر الذي به يدرك العلوم والصنايع وكان
العلم اما تصورا للماهيات ويعني به ادراك ساذج من غير حكم معه واما تصديقا اي حكما بثبوت
امر لامر فصار سعي الفكر في تحصيل المطلوبات اما بان يجمع تلك الكليات بعضها الى بعض
على جهة التاليف فيحصل صورة في الذهن كلية منطبقة على افراد في الخارج فتكون تلك
الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة ماهية تلك الاشخاص واما بان يحكم بامر على امر فيثبت له
ويكون ذلك تصديقا وغايته في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل
انما هي معرفة حقايق الاشياء الذي هو مقتضى العلم الحكمي وهذا السعي من الفكر قد يكون
بطريق صحيح وقد يكون بطريق فاسد فاقتضى ذلك تمييز الطريق الذي يحصل به الفكر
في تحصيل المطالب العلمية ليتميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق

وتكلم

وتكلم فيه المتقدمون اول ما تكلموا فيه جملا جملا ومفترقا ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله
حتى ظهر في يونان ارسطو فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله اول
العلوم الحكمية وفاتحتها ولذلك يسمى بالعلم الاول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى الفص
وهو يشتمل على ثمانية كتب اربعة منها في صورة القياس وخمسة في مادته وذلك ان المطالب
التصديقية على انحاء فمنها ما يكون المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فينظر في القياس
من حيث المطلوب الذي يفيده وما ينبغي ان تكون مقدماته بذلك الاعتبار ومن اي
جنس تكون من العلم او الظن وقد ينظر في القياس لا باعتبار مطلوب مخصوص بل من جهة
انتاجه خاصة ويقال للنظر الاول انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة للمطلوب
المخصوص من يقين او ظن ويقال للنظر الثاني انه من حيث الصورة وانتاج القياس
على الاطلاق فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية الاول في الاجناس العالية التي ينتهي اليها
تجريد المحسوسات في الذهن وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات والثاني في القضايا
التصديقية واصنافها ويسمى كتاب العبارة والثالث في القياس وصورة انتاجه على الاطلاق
ويسمى كتاب القياس وهذا اخر النظر من حيث الصورة ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس
المنتج لليقين وكيف يجب ان تكون مقدماته يقينية ويختص بشروط اخرى لافادة اليقين
مذكورة فيه مثل كونها ذاتية واولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات
والحدود اذ المطلوب فيها انما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود
لا يحتمل غيرها فلذلك اختصت عند المتقدمين بهذا الكتاب والخامس كتاب
الجدل وهو القياس المفيد قطع المشاغب وافحام الخصم وما يجب ان يستعمل فيه من
المشهورات ويختص ايضا من جهة افادته لهذا الغرض بشروط اخرى هي مذكورة
هناك وفي هذا الكتاب تذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه وتمييز
الجامع بين طرفي المطلوب المسمى بالوسط وفيه عكوس القضايا والسادس كتاب
السفسطة وهو القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وهو
بالغرض والموضوع وانما كتب ليعرف به القياس المغالطي فيحذر منه السابع وهو
كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب
ان يستعمل في ذلك من المقالات والثامن كتاب الشعر وهو القياس الذي
يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء او النفرة عنه وما يجب ان يستعمل
فيه من القضايا التخيلية هذه كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين ثم ان حكماء
اليونانيين بعد ان تهذبت الصناعة وترتبت راوا انه لا بد من الكلام في الكليات
الخمس المفيدة للتصور المطابق للماهيات في الخارج او لاجزائها او عوارضها

وهي الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض العام فاستدركوا فيها مقدمة بين يدي
الفن فصارت مقالاته تسعا وترجمت كلها في الملة الإسلامية وتناولها فلاسفة
الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن سينا ثم ابن رشد من فلاسفة الأندلس
ولابن سينا كتاب الشفا استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء المتأخرون
فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكليات الخمس ثمرته وهي الكلام في الحدود
والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحذفوا كتاب المقولات لأن النظر فيه بالعرض
لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس وإن كان من كتاب الجدل
في كتب المتقدمين لكنه من توابع الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس
من حيث إنتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة وحذفوا النظر فيه بحسب المادة وهي
الكتب الخمسة البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة وربما يلم بعضهم باليسير منها إلماما
وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا
ونظروا فيه من حيث إنه فن برأسه لا من حيث إنه آلة للعلوم فطال الكلام فيه واتسع وأول
من فعل ذلك الإمام فخر الدين ابن الخطيب ومن بعده أفضل الدين الخونجي وعلى كتبه معتمد
المشارقة لهذا العهد وله في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار وهو طويل
وكتاب مختصر الموجز وهو حسن في التعليم ثم مختصر في قدر أربعة أوراق أخذ بمجامع الفن
وأصوله يتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم
كأن لم تكن وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب

فصل اعلم أن هذا الفن قد اشتد النكير على انتحاله من متقدمي
السلف والمتكلمين وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه وحظروا تعلمه وتعليمه وجاء
المتأخرون من بعدهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب فسامحوا في ذلك بعض
الشيء وأكب الناس على انتحاله من يومئذ إلا قليلا يجنحون فيه إلى رأي المتقدمين فينفرون
عنه ويبالغون في إنكاره فلنبين لك نكتة القبول والرد في ذلك لتعلم مقاصد العلماء
في مذاهبهم وذلك أن المتقدمين لما وضعوا علم الكلام لنصر العقائد الإيمانية
بالحجج العقلية كانت طريقتهم في ذلك بأدلة خاصة ذكروها في كتبهم كالدليل على حدث العالم
بإثبات الأعراض وحدوثها وامتناع خلو الأجسام عنها وما لا يخلو عن الحوادث
حادث وكإثباتهم التوحيد بدليل التمانع وإثبات الصفات القديمة بالجوامع
الأربعة الحاقا للغائب بالشاهد وغير ذلك من أدلتهم المذكورة في كتبهم ثم قرروا
تلك الأدلة بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها مثل إثبات الجوهر الفرد
والزمن الفرد والخلاء ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات وأن العرض

لا يبقى

لا يبقى زمنين وإثبات الحال وهي صفة لموجود لا موجودة ولا معدومة وغير ذلك
من قواعدهم التي بنوا عليها أدلتهم الخاصة ثم ذهب الشيخ أبو الحسن والقاضي أبو بكر
والأستاذ أبو إسحق إلى أن أدلة العقائد منعكسة بمعنى أنها إذا بطلت بطل مدلولها ولهذا
رأى القاضي أبو بكر أنها بمثابة العقائد والقدح فيها قدح في العقائد لابتنائها عليها
وإذا تأملت المنطق وجدته كله يدور على التركيب العقلي وإثبات الكلي الطبيعي في
الخارج لينطبق عليه الكلي الذهني المنقسم إلى الكليات الخمس التي هي الجنس والفصل
والنوع والخاصة والعرض العام وهذا باطل عند المتكلمين والكلي والذاتي عندهم إنما هو
اعتبار ذهني ليس في الخارج ما يطابقه أو حال عند من يقول بها فتبطل الكليات الخمس والتعريف
المبني عليها والمقولات العشر ويبطل العرض الذاتي فيبطل ببطلانه القضايا الضرورية
الذاتية المشروطة في البرهان عندهم وتبطل العلة العقلية فيبطل كتاب البرهان وتبطل
المواضع التي هي لباب كتاب الجدل وهي التي يؤخذ منها الوسط الجامع بين الطرفين
ولا يبقى إلا القياس الصوري ومن التعريفات المساوي في الصادقية على أفراد المحدود
لا يكون أعم منها فيدخل غيرها ولا أخص فيخرج بعضها وهو الذي يعبر عنه النحاة بالجمع والمنع
والمتكلمون بالطرد والعكس وتنهدم أركان المنطق جملة وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطق
أبطلنا كثيرا من مقدمات المتكلمين فيؤدي إلى إبطال أدلتهم على العقائد كما مر فلهذا بالغ المتقدمون
من المتكلمين في النكير على انتحال المنطق وعدوه بدعة أو كفرا على نسبة الدليل الذي يبطل
والمتأخرون من لدن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلة ولم يلزم عندهم من بطلان الدليل
بطلان مدلوله وصح عندهم رأي أهل المنطق في التركيب العقلي ووجود الماهيات الطبيعية
وكلياتها في الخارج قضوا بأن المنطق غير مناف للعقائد الإيمانية وإن كان منافيا لبعض
أدلتها بل قد يستدلون على إبطال كثير من تلك المقدمات الكلامية كنفي الجوهر الفرد والخلاء
وبقاء الأعراض وغيرها ويستبدلون من أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يصححونها
بالنظر والقياس العقلي ولم يقدح ذلك عندهم في العقائد السنية بوجه وهذا رأي
الإمام والغزالي وتابعهما لهذا العهد فتأمل ذلك واعرف مدارك العلماء ومآخذهم
فيما يذهبون إليه والله الهادي والموفق للصواب

الطبيعيات وهو علم يبحث
عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد
عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل
وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة
للأجسام وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات وكتب أرسطو
فيه موجودة بين أيدي الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلسفة أيام المأمون

والف الناس على حدودها متبعين لها بالبيان والشرح واوعب من الف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمناه ثم لخصه في كتاب النجاة وفي كتاب الاشارات وكانه يخالف ارسطو في الكثير من مسائلها ويقول فيها برايه واما ابن رشد فلخص كتب ارسطو وشرحها متبعا له غير مخالف والف الناس بعده في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن سينا وللامام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الامدي وشرحه نصير الدين الطوسي المعروف بخواجا من اهل العراق وبحث مع الامام في كثير من مسائله فاوفى على انظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم

علم الطب

وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاغذية بعد ان يبين المرض الذي يخص كل عضو من اعضاء البدن واسباب تلك الامراض التي تنشا عنها وما لكل مرض من الادوية مستدلين على ذلك بامزجة الادوية وقواها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء في السحنة والفضلات والنبض محاذين بذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالتي الصحة والمرض وانما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشي بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب وربما افردوا بعض الاعضاء بالكلام وجعلوه علما خاصا كالعين وعللها واكحالها ولذلك الحقوا بالفن منافع الاعضاء ومعناه المنفعة التي خلق لاجلها كل عضو من اعضاء البدن الحيواني وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا انهم جعلوه من لواحقه وتوابعه وجالينوس في هذا الفن كتاب جليل عظيم المنفعة وهو امام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين يقال كان معاصرا لعيسى عليه السلام ويقال مات بصقلية في سبيل تقلب ومطاوعة اغتراب وتواليفه فيها هي الامهات التي اقتدى بها جميع الاطباء من بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة ائمة جاؤا من وراء الغاية مثل الرازي والمجوسي وابن سينا ومن اهل الاندلس كثير واشهرهم ابن زهر وهي لهذا العهد في المدن الاسلامية كانها نقصت لخفوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي لا يستدعيها الا الحضارة والترف كما نبينه بعد

فصل

وللبادية من اهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص يتوارثونه متداولا عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصح منه البعض الا انه ليس على قانون طبيعي ولا عن موافقة للمزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثيرا وكان فيهم اطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شي انما هو امر كان عاديا

امر

عاديا للعرب ووقع في ذكر احوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر احواله التي هي عادة وجبلة لا من جهة ان ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعرفنا الشرايع ولم يبعث ليعرفنا الطب ولا غيره من العاديات وقد وقع له في شان تلقيح النخل ما وقع فقال انتم اعلم بامور دنياكم فلا ينبغي ان يحمل شي من الطب الذي وقع في الاحاديث الصحيحة المنقولة على انه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا ان استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فيكون له اثر عظيم في النفع وليس ذلك من الطب المزاجي وانما هو من اثار الصدق في الكلمة الايمانية كما وقع في مداواة البطون بالعسل ونحوه والله الهادي الى الصواب

علم الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوه بالسقي والعلاج واستجادة المنبت وصلاحية الفصل وتعاهده بما يصلحه ويتمه من ذلك كله وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها من جهة غرسه وتنميته وجهة خواصه وروحانيته ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل المستعمل ذلك في باب السحر فعظمت عنايتهم به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كثير ولما نظر اهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فاقتصروا منه على الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه جملة وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الاخر منه جملة واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقي الفن الاخر منها مغفلا نقل منه مسلمة في كتبه السحرية امهات من مسائله كما نذكر عند الكلام على السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتاخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام في الغراس والعلاج وحفظ النبات من جوائحه وعوائقه وما يعرض في ذلك كله وهي موجودة

علم الالهيات

وهو علم ينظر بزعمهم في الوجود المطلق فاولا في الامور العامة للجسمانيات والروحانيات من الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادي الموجودات وانها روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها وفي مراتبها ثم في احوال النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدا وهو عندهم علم شريف يزعمون انه يقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وان ذلك عين السعادة بزعمهم وسياتي الرد عليهم بعد وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك يسمونه علم ما بعد الطبيعة وكتب المعلم الاول فيه موجودة بين ايدي الناس ولخصها ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الاندلس

ولما وضع المتاخرون

في علم القوم ودونوا فيها ورد عليهم الغزالي ما رد منها ثم خلط المتاخرون من المتكلمين مسائل علم

علم الكلام بمسائل الفلسفة لاشتراكهما في المباحث وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع
الالهيات ومسائله بمسائلها فصارت كانها فن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل
الطبيعيات والالهيات وخلطوهما فنا واحدا قدموا فيه الكلام في الامور العامة
ثم اتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها الى اخر العلم كما فعله الامام
ابن الخطيب في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا
بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد والتبس
ذلك على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقايد متلقاة من السلف
كما نقلوها عن الشريعة من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه بمعنى انها لا تثبت الا به
فان العقل بمعزل عن الشرع وانظاره وما تحدث فيه المتكلمون من اقامة الحجج فليس بحثا عن
الحق فيها ليعلم بالدليل بعد ان لم يكن معلوما كما هو شان الفلسفة بل انما هو التماس حجة
عقلية تعضد عقايد الايمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه اهل البدع عنها
الذين يزعمون ان مداركهم فيها عقلية وذلك بعد ان تفرض صحيحة بالادلة النقلية
كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثير ما بين المقامين وذلك ان مدارك صاحب
الشريعة اوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الانظار العقلية فهي فوقها ومحيطة بها
لاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك
المحاط بها فاذا هدانا الشارع الى مدرك فينبغي ان نقدمه على مداركنا ونثق به دونها
ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه بل نعتقد ما امرنا به اعتقادا وعلما
ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه الى الشارع ونعزل العقل فيه والمتكلمون
انما دعاهم الى ذلك كلام اهل الالحاد في معارضات العقايد السلفية بالبدع النظرية
فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واستدعاء ذلك الحجج النظرية ومحاذاة
العقايد السلفية بها **واما النظر** في مسائل الطبيعيات والالهيات بالتصحيح
والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك
لتميز به بين الفنين فانهما مختلطان عند المتكلمين المتاخرين في الوضع والتاليف
والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد
المطالب عند الاستدلال وصار احتجاج اهل الكلام كانه انشاء ولیس كذلك
انما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلومه وكذا جاء المتاخرون
من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد ايضا فخلطوا مسائل الفنين بفنهم
وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدة
وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وابعدها

من

من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان ويفرون
عن الدليل والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وابحاثها وتوابعها كما بيناه ونبينه
والله الهادي الى الصواب **علوم السحر والطلسمات** وهي علم بكيفية
استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التاثيرات في عالم العناصر اما بغير معين
او بمعين من الامور السماوية والاول هو السحر والثاني هو الطلسمات ولما كانت
هذه العلوم مهجورة عند الشرايع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير
الله من كوكب او غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس الا ما وجد في كتب
الامم الاقدمين فيما قبل النبوة موسى عليه السلام مثل النبط والكلدانيين
فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرايع ولا جاؤوا بالاحكام انما كانت
كتبهم مواعظ وتوحيد الله وتذكيرا بالجنة والنار وكانت هذه العلوم في اهل
بابل من السريانيين والكلدانيين وفي اهل مصر من القبط وغيرهم وكانت لهم فيها
التواليف والاثار ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية
لابن وحشية من اوضاع اهل بابل فاخذ الناس هذا العلم منها وتفننوا فيه ووضعت
بعد ذلك الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندي
في صور الدرج والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة
في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها فاستخرجها ووضع
فيها عدة من التواليف واكثر الكلام فيها وفي صناعة الكيمياء لانها من توابعها لان احالة
الاجسام النوعية من صورة الى اخرى انما يكون بالقوة النفسانية لا بالصناعة العملية فهو
من قبيل السحر كما نذكره ثم جاء مسلمة بن احمد المجريطي امام اهل الاندلس في التعاليم فلخص
جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب احد في العلم
بعده ولنقدم هنا مقدمة يتبين لك منها حقيقة السحر وذلك ان النفوس البشرية وان كانت
واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص وهي اصناف كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الصنف
الاخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفوس الانبياء عليهم السلام لها
خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى
كما مر وما يتبع ذلك من التاثير في الاكوان ونفوس السحرة لها خاصية التاثير في الاكوان
واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف بها والتاثير بقوة نفسانية او شيطانية فاما
تاثير الانبياء فمدد الهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات
بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الاخر والنفوس الساحرة
على مراتب ثلاثة ياتي شرحها فاولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا

هو الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني بمعين من مزاج الافلاك او العناصر
او خواص الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو اضعف رتبة من الاول والثالث
تاثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التاثير الى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع
من التصرف ويلقي فيها انواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك
ثم ينزلها الى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤن في الخارج وليس
هناك شي كما يحكى عن بعضهم انه يرى البساتين والانهار والقصور وليس هناك
شي من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة او الشعبذة هذا تفصيل مراتبه ثم
هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة شان القوى البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة
ورياضة السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية
بالشياطين بانواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير
الله وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من مواده واسبابه
كما رايت ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله او لتصرفه
بالافساد وما ينشا عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ثم لما كانت المرتبتان
الاوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الثالثة الاخيرة لا حقيقة لها اختلف
العلماء في السحر هل له حقيقة او انما هو تخييل فالقائلون بان له حقيقة نظروا الى المرتبتين
الاوليين والقائلون بانه لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة الاخيرة فليس بينهم اختلاف
في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب والله اعلم واعلم ان وجود السحر
لا مرية فيه بين العقلاء من اجل التاثير الذي ذكرناه وقد نطق به القران قال الله تعالى
ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت
وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون
به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله وفي الصحيح ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشي ولا يفعله وجعل سحره في مشط
ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فانزل الله عز وجل عليه في المعوذتين
ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها وكان لا يقرا على عقدة
من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت واما وجود السحر في اهل بابل وهم الكلدانيون
من النبط والسريانيين فكثير نطق به القران وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل
ومصر زمان بعثة موسى عليه السلام سوق نافقة ولهذا كانت معجزته من جنس ما يدعون
ويتناغون فيه وبقي من اثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك
ورأينا بالعيان من يصور صورة الشخص المسحور بخواص اشياء مقابلة لما نواه وحاوله

موجودة بالمسحور وامثال تلك المعاني من اسماء وصفات في التاليف والتفريق ثم
يتكلم على تلك الصورة التي اقامها مقام الشخص المسحور عينا او معنى ثم ينفث من ريقه
بعد اجتماعه في فيه بتكرار مخارج حروف ذلك الكلام السوء ويعقد على ذلك المعنى في سبب
اعده لذلك تفاولا بالعقد واللزوم واخذ العهد على من اشرك به من الجن في نفثه في فعله
ذلك استشعارا للعزيمة بالعزم ولتلك البنية والاسماء السيئة روح خبيثة تخرج منه
مع النفخ متعلقة بريقه الخارج من فيه فتنزل عنها ارواح خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور
ما يحاوله الساحر وشاهدنا ايضا من المنتحلين للسحر وعمله من يشير الى كساء او جلد ويتكلم
عليه في سره فاذا هو مقطوع متخرق ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فاذا امعاؤها
ساقطة من بطونها على الارض وسمعنا ان بارض الهند الى الان من يشير الى انسان
فيتحتت قلبه ويقع ميتا وينقلب عن قلبه فلا يوجد في حشاه ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد
في حبوبها شي وكذلك سمعنا ان بارض السودان من يسحر السحاب فيمطر الارض
المخصوصة وكذلك راينا من عمل الطلسمات عجايب في الاعداد المتحابة وهي رك
رفد احد العددين مائتان وعشرون والاخر مائتان واربعة وثمانون ومعنى
المتحابة ان اجزاء كل واحد التي فيه من نصف وربع وخمس اذا جمع كان مساويا للعدد
الاخر صاحبه فتسمى لاجل ذلك المتحابة ونقل اصحاب الطلسمات ان لتلك الاعداد
اثرا في الالفة بين المتحابين واجتماعهما اذا وضع لهما تمثالان احدهما بطالع الزهرة وهي
في بيتها او شرفها ناظرة الى القمر نظر مودة وقبول ويجعل طالع الثاني سابع الاول
ويوضع على احد التمثالين احد العددين والاخر على الاخر ويقصد بالاكثر الذي يراد
ايتلافه اعني المحبوب ما ادري الاكثر كمية او الاكثر اجزاء فيكون لذلك من التاليف
العظيم بين المتحابين ما لا يكاد ينفك احدهما عن الاخر قاله صاحب الغاية وغيره من ائمة
الشان وشهدت له التجربة وكذا طابع الاسد ويسمى ايضا طابع الحصى وهو ان يرسم
في قالب هذا الطابع صورة اسد شايلا ذنبه عاضا على حصاة قد قسمها بنصفين
وبين يديه صورة حية منسابة من رجليه الى قباله وجهه فاغرة فاها الى فيه وعلى ظهره
صورة عقرب تدب ويتحين لرسمه حلول الشمس بالوجه الاول او الثالث من الاسد
بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك
الوقت في مقدار المثقال من الذهب فما دونه وغمس من بعد في الزعفران محلولا
بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم يزعمون ان لممسكه من العز على السلاطين
في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر عنه وكذلك للسلاطين فيه
من القوة والعز على من تحت ايديهم ذكر ذلك ايضا اهل هذا الشان في الغاية وغيرها

وشهدت له التجربة وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس ذكروا انه يوضع عند
حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة القمر بطالع ملوكي يعتبر فيه نظر
صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول يصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك
من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء بعد ان يغمس في الطيب فزعموا ان له
اثرا في صحابة الملوك وخدمتهم ومعاشرتهم وامثال ذلك كثيرة وكتاب الغاية لمسلمة
ابن احمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها وذكر لنا ان الامام
الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك سماه السر المكتوم وانه بالمشرق يتداوله اهله
ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من ائمة هذا الشان فيما نظن ولعل الامر بخلاف
ذلك وبالمغرب صنف من هولاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين
وهم الذين ذكرت اولا انهم يشيرون الى الكساء او الجلد فيتخرق ويشيرون الى بطون
الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى احدهم لهذا العهد باسم البعاج لان اكثر ما ينتحل من السحر
بعج الانعام يرهب بذلك اهلها ليعطوه من فضلها وهم مستترون بذلك
في الغاية خوفا على انفسهم من الحكام لقيت جماعة وشاهدت من افعالهم هذه واخبروني
ان لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات كفرية واشراك لروحانيات الجن والكواكب
سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية يتدارسونها وان بهذه الرياضة
والوجهة يصلون الى حصول هذه الافعال وان التاثير الذي لهم انما هو فيما سوى
الانسان الحر من الامتعة والحيوانات والرقيق يعبرون عن ذلك بما تمشي فيه
الدراهم اي ما يملك ويباع ويشترى من سائر المتملكات هذا ما زعموه وسالت
بعضهم فاخبرني به واما افعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينا ها
من غير ريبة في ذلك هذا شان السحر والطلسمات واثارهما في العالم فاما الفلاسفة
ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد ان اثبتوا انهما جميعا اثر للنفس الانسانية
واستدلوا على وجود الاثر للنفس الانسانية بان لها اثارا في بدنها على غير المجرى الطبيعي
واسبابه الجسمانية بل اثار عارضة من كيفيات الارواح تارة كالسخونة الحادثة
من الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية اخرى كالذي يقع من قبل
التوهم فان الماشي على حرف حائط او على حبل منتصب اذا قوي عنده توهم السقوط
سقط بلا شك ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون انفسهم ذلك بالدربة عليه
حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون
السقوط فثبت ان ذلك من اثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط
من اجل الوهم واذا كان ذلك اثرا للنفس في بدنها من غير الاسباب الجسمانية

الطبيعة

الطبيعية فجائز ان يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنها اذ نسبتها الى الابدان
في ذلك النوع من التاثير واحدة لانها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت
انها مؤثرة في سائر الاجسام واما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات
فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات
الكواكب واسرار الاعداد وخواص الموجودات واوضاع الفلك المؤثرة في عالم
العناصر كما يقوله المنجمون ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم
ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع
العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة
والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور على تلك الجبلة المختصة بذلك
النوع من التاثير والفرق عندهم بين المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التاثير
فهو عندهم مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه
وبقوته النفسانية وبامداد الشياطين في بعض الاحوال فبينهما الفرق في المعقولية
والحقيقة والذات في نفس الامر وانما نستدل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي
وجود المعجزة لصاحب الخير وفي مقاصد الخير وللنفوس المتمحضة للخير والتحدي بها على دعوى
النبوة والسحر انما يوجد في صاحب الشر وفي افعال الشر في الغالب من التفريق بين
الزوجين وضرر الاعداء وامثال ذلك وللنفوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق
بينهما عند الحكماء الالهيين وقد يوجد لبعض المتصوفة اصحاب الكرامات تاثير
ايضا في احوال العالم وليس معدودا في جنس السحر انما هو بالامداد الالهي لان نحلتهم
وطريقتهم من اثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وايمانهم
وتمسكهم بكلمة الله واذا اقتدر واحد منهم على افعال الشر فلا ياتيها لانه متقيد فيما ياتيه
ويذره للامر الالهي فما لا يقع لهم فيه الاذن لا ياتونه بوجه ومن اتاه منهم فقد عدل
عن طريق الحق وربما سلب حاله ولما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى
الالهية فلذلك لا يعارضها شيء من السحر وانظر شان سحرة فرعون مع موسى عليه السلم
في معجزة العصا كيف تلقفت ما يافكون وذهب سحرهم واضمحل كان لم يكن وكذلك
لما انزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت
عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها الا انحلت فالسحر
لا يثبت مع اسم الله وذكره بالهمة الايمانية وقد نقل المورخون ان درفش كابيان
وهي راية كسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجا بالذهب في طوالع فلكية
رصدت لوضع ذلك الوفق فوجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة

على الارض بعد انهزام اهل فارس وشتاتهم وهو فيما يزعم اهل الطلسمات والاوفاق
مخصوص بالغلب في الحروب وان الراية التي يكون فيها او معها لا تنهزم اصلا الا ان هذه
عارضها المدد الالهي من ايمان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فانحل
معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون واما الشريعة فلم تفرق بين السحر
والطلسمات والشعبذة وجعلته كله بابا واحدا محظورا لان الافعال انما اباح لنا
الشارع منها ما يهمنا في ديننا الذي فيه صلاح اخرتنا او في معاشنا الذي فيه صلاح
دنيانا وما لا يهمنا في شيء منهما فان كان ضررا او نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع
ويلحق به الطلسمات لان اثرهما واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر باعتقاد التاثير فتفسد
العقيدة الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته في الضرر
وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا اقل من تركه قربة الى الله فان من حسن اسلام المرء تركه
ما لا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها
من الضرر وخصته بالحظر والتحريم واما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره
المتكلمون انه راجع الى التحدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه قالوا ووقوع المعجزة
على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة
نفسها التصديق فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال فاذا لا تقع
المعجزة مع الكذب باطلاق واما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين
الخير والشر في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر عنه الا الشر ولا يستعمل في اسبابه
الخير وصاحب المعجزة لا يصدر عنه الا الخير ولا يستعمل في اسباب الشر وكانهما على طرفي
النقيض في الخير والشر في اصل فطرتهما والله يهدي من يشاء **فصل** ومن قبيل
هذه التاثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تاثير من نفس المعيان عندما يستحسن
بعينه مدركا من الذوات والاحوال ويفرط في استحسانه وينشا مع ذلك الاستحسان
حينئذ انه يروم معه سلب ذلك الشيء عمن اتصف به فيؤثر فساده وهو جبلة فطرية اعني
هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التاثيرات النفسانية ان صدوره فطري
جبلي لا يتخلف ولا يرجع الى اختيار صاحبه ولا يكتسبه وسائر التاثيرات وان كان
منها ما لا يكتسب فصدورها راجع الى اختيار فاعلها والفطري منها قوة صدورها لا
لا نفس صدورها ولهذا قالوا القاتل بالسحر يقتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذاك
الا لانه ليس مما يريده ويقصده او يتركه وانما هو مجبور في صدوره عنه والله اعلم

علم اسرار الحروف

وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا نقل وضعه من الطلسمات اليه في اصطلاح اهل

التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد
صدر منها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق
على ايديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم في تنزل
الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا ان الكمال الاسمائي مظاهره ارواح الافلاك و
والكواكب وان طبائع الحروف واسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاكوان على هذا
النظام والاكوان من لدن الابداع الاول تنتقل في اطواره وتعرب عن اسراره فحدث
لذلك علم اسرار الحروف وهو من تفاريع علوم السيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط
بالعدد مسائله تعددت فيه تواليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن اتبع اثارهما وحاصله
عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية في عالم الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية
الناشئة عن الحروف المحيطة بالاسرار السارية في الاكوان ثم اختلفوا في سر التصرف
الذي في الحروف بما هو فمنهم من جعله للمزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع
الى اربعة اصناف كما للعناصر واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها
فعلا وانفعالا بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعي يسمونه
التكسير الى نارية وهوائية ومائية وترابية على حسب تنوع العناصر فالالف للنار والباء
للهواء والجيم للماء والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر الى ان تنفد
فتعين لعنصر النار حروف سبعة الالف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال
وتعين لعنصر الهواء سبعة ايضا الباء والواو والياء والنون والضاد والتاء
والعين وتعين لعنصر الماء سبعة ايضا الجيم والزاء والكاف والصاد والقاف
والثاء والظاء وتعين لعنصر التراب سبعة ايضا الدال والحاء واللام والعين
والراء والخاء والشين فالحروف النارية لدفع الامراض الباردة ولمضاعفة قوة
الحرارة حيث تطلب مضاعفتها اما حسا او حكما كما في تضعيف قوى المريخ في الحروب
والقتل والفتك والمائية ايضا لدفع الامراض الحارة من حميات وغيرها ولتضعيف
القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها اما حسا او حكما كتضعيف قوة القمر وامثال
ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف للنسبة العددية فان حروف ابجد
دالة على اعدادها المتعارفة وضعا وطبعا فبينها من اجل تناسب الاعداد تناسب
في نفسها ايضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالتها كلها على الاثنين كل في مرتبته
فالباء على اثنين في مرتبة الاحاد والكاف على اثنين في مرتبة العشرات والراء
على اثنين في مرتبة المئين وكالذي بينها وبين الدال والميم والتاء لدلالتها على الاربعة
وبين الاربعة والاثنين نسبة الضعف وخرج للاسماء اوفاق كما للاعداد يختص

كل صنف من الحروف بصنف من الاوفاق الذي تناسبه من حيث عدد الشكل او عدد الحروف
وامتزاج التصرف من السر الحرفي والسر العددي لاجل التناسب الذي بينهما فاما سر هذا
التناسب الذي بين الحروف وامزجة الطبايع او بين الحروف والاعداد فامر عسر
على الفهم اذ ليس من قبيل العلوم والقياسات وانما مستنده عندهم الذوق والكشف
قال البوني ولا تظنن ان سر الحروف مما يتوصل اليه بالقياس العقلي وانما هو بطريق
المشاهدة والتوفيق الالهي **واما التصرف** في عالم الطبيعة بهذه الحروف والاسماء
المركبة منها وتاثر الاكوان عن ذلك فامر لا ينكر لثبوته عن كثير منهم تواترا وقد يظن
ان تصرف هولاء وتصرف اصحاب الطلسمات واحد وليس كذلك فان حقيقة
الطلسم وتاثيره على ما حققه اهله انه قوى روحانية من جوهر القهر تفعل فيما له ركب فعل غلبة
وقهر باسرار فلكية ونسب عددية وبخورات جالبة لروحانية ذلك الطلسم مشدودة
فيه بالهمة فايدتها ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية وهو عندهم كالخميرة المركبة
من ارضية وهوائية ومائية ونارية حاصلة في جملتها تحيل وتصرف ما حصلت فيه الى ذاتها
وتقلبه الى صورتها وكذلك الاكسير للاجسام المعدنية خميرة تقلب المعدن الذي
تسري فيه الى نفسها بالاحالة ولذلك يقولون موضوع الكيميا جسد في جسد لان الاكسير
اجزاؤه كلها جسدانية ويقولون موضوع الطلسم روح في جسد لانه ربط الطبايع العلوية
بالطبايع السفلية والطبايع السفلية جسد والطبايع العلوية روحانية وتحقيق
الفرق بين تصرف اهل الطلسمات واهل الاسماء بعد ان تعلم ان التصرف في عالم الطبيعة
كله انما هو للنفس الانسانية والهمم البشرية لان النفس الانسانية محيطة بالطبيعة وحاكمة عليها
بالذات الا ان تصرف اهل الطلسمات انما هو في استنزال روحانية الافلاك وربطها
بالصور او بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل
الخميرة فيما حصلت فيه وتصرف اصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم من المجاهدة والكشف
من النور الالهي والمدد الرباني فيسخر الطبيعة لذلك طائعة غير مستعصية ولا يحتاج
الى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده اعلى منها ويحتاج اهل الطلسمات الى قليل من
الرياضة تفيد النفس قوة على استنزال روحانية الافلاك واهون بها وجهة ورياضة
بخلاف اهل الاسماء فان رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست لقصد التصرف في الاكوان
اذ هو حجاب وانما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من كرامات الله بهم فان خلا صاحب
الاسماء عن معرفة اسرار الله وحقيقة الملكوت الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر
على مناسبة الاسماء وطبايع الحروف والكلمات وتصرف بها من هذه الحيثية فهولاء هم
اهل السيمياء في المشهور كان اذا لا فرق بينه وبين اصحاب الطلسمات بل صاحب الطلسمات

اوثق منه لانه يرجع الى اصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة **واما صاحب اسرار الاسماء**
اذا فاته الكشف الذي يطلع به على حقايق الكلمات واثار المناسبات بفوات الخلوص
في الوجهة وليس له في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يعول عليه فيكون حاله اضعف رتبة
وقد يمزج صاحب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الاسماء
الحسنى او ما يرسم من اوفاقها بل ولساير الاسماء اوقاتا تكون من حظوظ الكواكب الذي يناسب
ذلك الاسم كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الانماط وهذه المناسبة عندهم من لدن
الحضرة العمائية وهي برزخية الكمال الاسمائي وانما تنزل تفصيلها في الحقايق على ما هي من المناسبة
واثبات هذه الكلمات عندهم انما هو بحكم المشاهدة فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك
المشاهدة وتلقى تلك المناسبة تقليدا كان عمله بمثابة عمل صاحب الطلسم بل هو اوثق منه
كما قلناه وكذلك قد يمزج صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات المولفة
من الكلمات المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب الا ان مناسبة الكلمات عندهم
ليس كما هي عند اصحاب الاسماء من الاطلاع على حال المشاهدة وانما يرجع الى ما اقتضته اصول طريقتهم
السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر واعراض وذوات ومعان
والحروف والاسماء من جملة ما فيه فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه ويبنون على ذلك
معاني غريبة منكرة من تقسيم سور القران واية على ذلك النحو كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية
والظاهر من حال البوني في انماطه انه اعتبر طريقتهم فان تلك الانماط اذا تصفحتها وتصفحت
الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية
وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها
قيامات الكواكب اي الدعوة التي يقام له بها شهد لك ذلك بانه امن مادتها او بان التناسب
الذي كان في اصل الابداع وبرزخ العلم قضى بذلك كله وما اوتيتم من العلم الا قليلا وليس
كل ما حرمه الشرع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت ان السحر حق مع حظره لكن حسبنا
من العلم ما علمنا الله **تحقيق وتكملة** هذه السيمياء كما تحقق لك انها
ضرب من السحر تحصل برياضات شرعية وذلك انا قدمنا ان التصرف في عالم الاكوان
لصنفين من البشر الانبياء عليهم بالقوة الالهية التي فطرهم الله عليها والسحرة بالقوة
النفسانية التي جبلوا عليها وقد يحصل للاولياء تصرف يكتسبونه بالكلمة الايمانية وهو
من نتايج التجريد ولا يقصدون الى تحصيله وانما ياتيهم عفوا والمتمكنون منهم اذا عرض
لهم اعرضوا عنه واستعاذوا بالله منه وعدوه محنة كما يحكى عن ابي يزيد البسطامي انه
وافا شاطي دجلة عشاء متحفزا فالتقا له طرفا الوادي فاستعاذ بالله وقال لا ابيع حظي
من الله بدانق وركب السفينة عابرا مع الملاحين واما السحر فلا بد للتجلي منه من الرياضة

التناسب

ليخرج من القوة الى الفعل وقد يحصل غير الجبلي منه بالاكتساب وهو دون الجبلي ويتعانون
فيه الرياضة كما تعالى في الاول وهذه الرياضة السحرية معروفة وقد ذكر انواعها وكيفياتها
مسلمة المجريطي في كتابه الغاية وجابر بن حيان في رسائله وغيرهما ويستعملها كثير
ممن يقصد اكتساب السحر وتعلم قوانينها وشروطها الا ان هذه الرياضة السحرية
التي للاولين مشحونة بالكفريات كالتوجهات للكواكب والدعوات لها التي يسمونها
قيامات لاستجلاب روحانيتها وكاعتقاد التاثير من غير الله في ربط الفعل بالطوالع
السحرية ومناظرة الكواكب في البروج لتحصيل الاثر المطلوب فاعتمد لذلك كثير
ممن يروم التصرف في عالم الكاينات وقصدوا طريق تحصيله على وجه يبعد عن ملابسة
الكفر وانتحاله وقلبوا تلك الرياضات شرعية باذكار وسبحات من القران والاحاديث
النبوية هداهم الى معرفة المناسب منها الحاجة بانقسام العالم بما فيه من ذوات وصفات
وافعال على اثار الكواكب السبعة ويتحرون مع ذلك الايام والاوقات المناسبة
لانقسامها كذلك ويتسترون بتلك الرياضة الشرعية تحرجا من السحر المعهود الذي
هو كفر يدعو اليه ويتمسكون بالوجهة الشرعية لعمومها وخلوصها كما فعله البوني
في كتاب وغيره من كتبه وفعله غيره وسموا هذه الطريقة بالسيميا توغلا في القرار من اسم
السحر وهم في الحقيقة واقعون في معناه وان كانت الوجهة الشرعية حاصلة لهم
فلم يبعدون كل البعد عن اعتقاد التاثير لغير الله ثم انهم يقصدون التصرف في عالم
الكاينات وهو محظور عند الشارع وما وقع منه للانبياء عليهم السلام في المعجزات
فبامر الله واقداره وما وقع للاولياء فباذن يحصل لهم بخلق علم ضروري الهاما
وغيره ولا يتعمد وبه من دون فلا تغترن بما يموه به هولاء في هذه السيميا فانما هي
كما قررته لك من فنون السحر وضروبه والله الهادي الى الحق بمنه

فصل

ومن فروع علم السيميا عندهم استخراج الاجوبة من المسائل بارتباط بين الكلمات
حرفية يوهمون انها اصل في معرفة ما يحاولون عليه من الكاينات الاستقبالية
وانما هي شبه المعاياة والمسائل السيالة ولهم في ذلك كلام كثير من اوعبه واعجبه زايرجه
العالم للسبتي وقد تقدم ذكرها ونبين هنا ما ذكروه كيفية العمل بتلك الزايرجه
وشرح القصيدة المنسوبة للسبتي عنهم في ذلك وبعد ما صفة الزايرجه تدل انها
وجد ولها المكتوب بجوانبها تكشف عن الحق فيها وانها ليست من الغيب وانما هي مطابقة
بين المسئلة وجوابها في الافادة الخطابية فقط وهي ملحة من الملح غريبة في استخراج
الجواب من السوال بالصناعة التي يسمونها صناعة التكسير وقد اشرنا الى ذلك
كله من قبل وليس عندنا رواية نعول عليها في صحة هذه القصيدة ونسبتها الى السبتي

الا انا تحرينا اصح النسخ في ظاهر الامر وهي هذه   يقول السبيتي ويحمد ربه مصل
على هاد الى الناس رسلا   محمد المبعوث خاتم الانبياء ويرضى عن الصحب ومن لهم تلا
الا هذه زايرجة العالم الذي تراه بحكم وبالعقل قد جلا   فمن احكم الوضع فيحكم جسمه
ويدرك احكاما تعزت عن العلاء   ومن احكم الربط فيحكم قوة   ويدرك للتقوى وللكل
حصلا   وفي عالم الامر تراه محققا وهذا مقام من بالاذكار كملا   فهذي سرائر
عليكم بكتمها اقيمها دوايرا وبالجاء عدلا   وطاء لها عرش وفيه نقوشها   بنظم ونثر
او تراه مجدولا وقطب دواير كتبه فلكها   وارسم كواكب لادراجها العلا
واخرج لاوتاره وارسم حروفها   وكرر بمثلها على حد من خلا   اقم شكلها برهم
وارسم حروفها وحقق بيتهم حيث نورهم جلا   وحصل علوما للطباع مهندسا
وعلم هيآت والارباع مثلا   وسفر الموسيقى وعلم حروفهم وعلم بالة فحقق وحصلا
وسقو دواير وقطب حروفها وعالمها اطلق والاقاليم جدولا   امير لنا يهوى بجاية
ودولة زناتية اتت وحكم لها جلا وقطر الاندلس فابن لهود هم وجاء بنو نصر
وطغرهم تلا   ملوك وفرسان واهل الحكمة   فان شئت نصهم فقطرهم جلا
ومهدي موحد بنونس حكمهم ملوك المشرق بالاوفاق نزلاه   واقسم على القطر
وكن معتقدا فان شئت بالرومي بلا حرج شكلا   فقش وبرشلون والراء حرفه وانشهم
ذاك وبالطاء كملا   ملوك كناوة ودولة العاقهم واعراب قومنا بر فتع اعملا
فهند حباشي وسند فهو مثل وفرس ططري وما بعدهم طلا   فقيصرهم جاء ويزد
جردهم للكاف وقبطهم بلامه طولا   وعباس كلهم شريف معظم ولكن تركي ه
اذا الفعل عطلا   فان شئت تدقيق الملوك وحلهم فخيتم بيوتا ثم نسب وجدولا
على حكم قانون الحروف وعلمها وعلم طباعها وكله مثلا   فمن علم العلوم يعلم علمن
ويعلم اسرار الوجود واكملا فيرسخ علمه ويعرف ربه   وعلم ملاحيم بحكم فصلا
وحيث اتى اسم والعروض شفه فحكم الحكيم فيه قطعا ليفصلا وتاتيك احرف فسو
لضربها واحرف سيبويه تاتيك فيصلا   فمكن بتكسير وقابل عوضن بتربيعك
الغالي للاجزاء خلخلا   وفي العقد والمجدور يعرف عالمها وزد لها وصفيه ففي العقل
فلا   واختر لمطلع وسو بيوته واعكس بجدره وبالدور عدلا   ويدركها المرء
فيبلغ قصده ويعطى حروفها وفي نظمها الجلا   اذا كان سعد والكواكب اسعدت
فحكمك في الملك ونيل بها العلا   وايقاع دالهم بمزموم بمه فقتب دنا دينا
تجد فيه منهلا   واوتار زيرهم فللبها ثمهم ومثناهم المثلث بحية قد جلا
واوخر بافلاك وعد بجدول وارسم اباجاد وباقيه جملا   وجور شد ودالبحر

يجري ومثله اتى عروض الشعر عن حمله مثلا فاصل لديننا واصل نقصهنا وعلم النحو يا فاحفظ
وحصلا فاو خل انبساطا على الوفق جدوره وسبع لاسمه وكبره وبهدلا فتخرج ابياتا وذكر
مطلب بنظم طبيعي وسترمز العلا وبقيا لخصرها كذا حكم عددهم فعلم الفواتح ترى فيه سبطا
فتخرج ابياتا وعشرون ضعفت من الالف طبعا فيا صلح جدولا تريك صنايعا
من القرب الكلت فصح لك المنا وصح لك العلا وسبع بزبرهم واثن بنقرة اقمها دواير
الزبر وحصلا اقمها باوفاق واصل لعدها من اسرار حرفهم فعد به سلسلا ۰
سه صم ك اك وكشح واه عم بنى هم بيع ك طال هم لن لح ع ف قال منافره
الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفيتها ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة
المميزة بالنسبة الى موضع المعلق من امتزاج طبايع وعلم او صناعة الكيميا
ايا طالبا للطب مع علم جابر وعالم مقدار المقادير بالولاء اذا شئت علم
الطب لابد نسبة لاحكام ميزان تصادف منهلا فينبغي عليكم دا الاكسير يحكم ومزاج
وصحكم بتصحيح الكلا الطب الروحاني وشئت ايلاو شر لاع لا مهه وفهنه تحلا
لبيرام برجس سبعة الكملا تحليل او جاع البوارد صحيحوا كذلك والتركيب حيث
تنقلا كح سع نهى ه ه ٢ نهج صح حا ى لمح لا لد نهى ما ى ٧ حب ٧ لما مهه
ع ٧ ه صح سابح ك سا مطالع الشعاعات في مواليد الملوك وبينهم
وعلم مطارح الشعاعات مشكل ضلع قسيتها بمنطقة جلا ولكن في حج مقام اما منا
ويبدوا واعرض الكواكب عدلا بذلك مراكز بين طولها وعرض فمن ادركه ثم
موصلا مواقع ترسع وبينه يسقط النسبة سهم تثليث بيت الذي تلا وضم نسبة
الربعين ركب شعاعك بصاد وضعفه وتربيعه الجلا اختص ه صح حح ٧
سبع ولي هذا العمل با الملوك والقانون بطرو عله ولم يراعجب منه مقامات الملوك
المقام الاول ل ه المقام الثاني ٧ ا مهه سع ع المقام الثالث ع ح ه ن
المقام الرابع مهه المقام الخامس لاى المقام السادس ٤ ٣ ٤ المقام السابع
ع ٧ خط الاتصال ع الانفصال عمه ٤ طلح ٤ خط الاتصال او داح لمح خط
الانفصال صح واح ودي ها الزبر للجميع وتابع الجدر التام مهه سع سقه لمح
الكل لمح لد الاتصال ع الانفصال ٤ع لمح الواجب التام من الاتصال لا
شرع ٧ لمح حره اقامة الانوار م ٣ع ك شه الجدر المجيب العمل
صح ١٣ ه ع ع اقامة السواع الملوك ١ ه ه لكح لمح لا مقام الاول ا
مقام نور ٤ ع مقام بها كاح ى الانفعال الروحاني والانقياد الرباني
ايا طالب السر تسهيل به لدا اسمائه الحسنى تصادف منهلا يطيعك احبار الانام

بقلبهم

بقلبهم كذاك رتبهم وفي الشمس اجملا ترى عامة الناس اليك واو ما قبله حقا
من الغير اهملا طريقك هذا السبيل مع السبيل الذي قوله غيركم ونصركم اجفلا
اذا ائتيت تجاه الوجه ومع التقى وبنا مبينا او يكون موصلا كمدى النون والجنيد
مع سر صيغة وفي سر بسطام اراك مسربلا وفي العالم العلوي تكون محدثا كذاه
تالت الهند وصوفية الملا طريق رسول الله بالحق ساطع وما حكم صنع مثل جبريل
انزلا بنطشك مهيل مع توسك مطلع ويوم الخميس الهد والاحد الجلا وفي جمعه
ايضا بالاسماء مثله وفي اثنين للحسنى مكملا وفي طاته مترو في ما يه افراك بها
مع نسبة الكل اعطلا وساعة سعد شرطهم في نقوشها وعود ومصطكا لبخور تحصلا
ويتلى عليها اسم المهيمن دعوة والاخلاص مع السبع المثاني مرتلا اتصال انوار الكواكب
تلقاه لها طح ٤ كش ٣ سع ان صح به ف لمح ورمى وفي يدك اليمنى حديد وخاتم وكل
براسك وفي دعوة فلا واية حشر فاجعل القلب لوجها واتل اذا نام الانام
ورتلا هي السر في الاكوان لا شيء غيرها هي الاية العظمى فحقق وحصلا تكون
بها قطبا اذا وجدت خدمة وتدرك اسرار من العلم العلا سر تجي بها ناجا ومعروف
بعده وباح بها الحلاج جهرا فقتلا وكان الشبلي يداب وابا اليان رفا فوق
المريدين واعتلا فصف من الادناس قلبك جاهدا ولازم لاذكار وصم وتنفلا
فانال سر القوم المحقق عليم باسرار العلوم محصلا ع صح ح ركا ح لى ك
لمح صى لمح ٣ اع ٨ ٨ ى للح دف ل صرح اك ل م مقام المحبة وميل
النفوس والمجاهدة والطاعة والعبادة وحب وتعشق وفنا الفنا وتوجه
ومراقبة وحلة دايمة الانفعال الطبيعي لبرجيس فخ المحبة الوفق صرفوا بقصدهم
او نحاس الخلط اعلا وقبل نقضه صحبي رايته فجعلك طالعا حظوظه ما علا
توخ به زيادة النور للقمر وجعلك للقبول شمسه اصلا ويومه والبخور عود
لبنه هم ووقت ساعته ودعوته الا ودعوته لغاية فهي علمت ودعن طيسمان
ودعوة ولها حصلا وقيل مع عوة حروف لوضعها بجه هواه هو مطالب ايتلا
فتقلع اح فايدا لها واه و ذلك وفق المربع حصلا اذا لم يكن بهوى هواك فذللها
فذاك لبيتها واوا وزرنب معضلا فخن لبانه وبابهم الى هواك وبابهم قلبك جملا
ونفس لكل شرط بعضهم وما زدت نسبة لفعلك عدلا ومفتاح مريم وفعلها
سواء فتودي وبطامي سورتها تلا وجعلك بالعضد وكن متفقد ادلة وحتى
لنصه مثلا فاعكس بيوتها بالف ونيف بباطنها سر وفي سرها الجلا فصل
في المقامات للنهاية لك الغيب صوره من العلم العلي وبوجدها واراد ملبسها

الجلا ويوسف في الحسن وهذا شبيه بشر وترتيل حقيقة ازلا وفريده طول
وفي الغيب ناطق فيحكي الى عود يجاذب بلبلا وقد جن بهلول بعشق جمالها وعند تجليها
بسطام اخذلا ومات احلبه واشرب حبها جنيد وبصري والجسم اهملا ومن صاحب
الحسنى لها الفوز بالنهى ويسم بالزلفى لدى خيرة العلا وتخبر بالغيب اذا جدت
خدمة تريك عجايبا لمن كان موبلا فهذا هو الفوز وحسن بنائه ومنها زيادات
لنفسير بانيلا **الوصية والتختم والايمان والاسلام والتحريم والاهلية ح**
فهذا قصيدتنا وتسعون عدة ومارا وخطبة وختما وجد ولا عجبت لابيات وتسعوتم
عدها تولد ابياتا وما حصرها انجلا فمن فهم السر فيفهم نفسه ويفهم تقفير امتثا بها
اشكلا حرام وشرعي لاظهار سرها للناس وان خصوا وكانوا لها اهلا فان شئت
اهله فغلظ يمينهم ويفهم برجله ودين تطولا لعلك ان تجو ومانع سرهم من القطع
بالافشاء فراس بالعلا فبحل العباس لسره كانهم فنال سعادات ونابعة علا ونام
رسول سه في الناسخ طبا من راس عشرة فذلك اكملا وقد ركب الارواح اجساد
مظهر فنالت لعقلهم بدق تطولا الى العالم العلوي يفني فسادنا ونلبس اثواب
الوجود على الولا فقد تم نظمنا وصلى الهنا على خاتم الرسل صلوة بها العلا وصلى
اله العرش في المجد والعلا على سيدنا ساد الانام وكملا محمد الهادي الشفيع على اذنا
واصحابه اهل المكام العلا مرتبة ناشية عن الحلة شد فح اسع لى لى صى ى
ههفا اسه وطغ ٢٠ ههها تصحيح النيرين وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطلوب
ناس كـ لط ووه الا لو طرح الاوتار الكلية ١٢ ٣ ٤ ٤ ٤ ٤ الكا ح الاول بم
ع ٤ ٢ ٤ ٢ ٤ ١ ع ٤ ح ٤ ١ ع ٤ ١ ع اثنى ح ع ٤ ٨ ٤ ح ونر ح اه ٤ ع ٤ ع ٤ ح
كملت الزايرجة **كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايرجة العالم** (مثلث)
بحول الله السوال له ثلثمائة وستون جوابا عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سوال
واحد في طالع مخصوص باختلاف الاسولة المضاف الى حروف الاوتار وتنامت العمل
في استخراج الاحرف من بيت القصيده **تنبيه** تركيب حروف الاوتار والجدول على ثلثة
اصول حروف غريبة تنقل على هياتها وحروف برشم الغبار وهذه تتبدل فمنها ما ينقل
على هيئته متى لم تزد الادوار عن اربعة فان زادت عن اربعة نقلت الى المرتبة الثانية
من مرتبة العشرات وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل كما سنبينه ومنها حروف
برشم الزمام كذلك غير ان رشم الزمام يعطي نسبة ثانية فهي بمنزلة واحد الف
وبمنزلة عشرة ولها ولها نسبة من خمسة بالعدد فاستحق البيت من الجدول ان توضع
فيه ثلثة حروف في هذا الرشم وحرفين في الرشم الخمس وامن الجدول بيوتا خالية

فمتى كانت اصول الادوار زايدة على اربعة حسبت في العدد وفي طول الجدول وان لم تزد
على اربعة لم يحسب الا العامر منها والعمل في السوال يفتقر الى سبع اصول عدة حروف
الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها اثنا عشر وهي ثمانية ادوار في الكامل وستة
في الناقص ابدا ومعرفة درج الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصلي وهو
واحد ابدا وما يخرج من اضافة الطالع للدور الاصلي وما يخرج من ضرب الطالع والدور
في سلطان البرج واضافة سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج على ثلثة ادوار
مضروبة في اربعة تكمل اثنا عشر دوارا ونسبة هذه الثلثة ادوار التي هي كل دور من اربعة
ثلثة كل نشاة لها ابتداء ثم انها تضرب ادوارا رباعية ثلاثية ثم انها من ضرب
ستة في اثنين فكان لها نشاة يظهر ذلك في العمل وتتبع هذه الادوار تتلوح وهي
الادوار اما ان تكون نتيجة او اكثر الى ستة فاول في ذلك يعرض سوال عن الزايرجة
هل هي علم محدث ام قديم بطالع اول درجة من القوس فوضعنا حروف وتر راس
ونظيره من راس الجوزاء وثالثه وتر راس الدلو الى حد المركز واضفنا اليه حروف
السوال ثم نظرنا عددها واقل ما تكون ثمانية وثمانين واكثر ما تكون ستة وتسعين
وجملة دور صحيح فكانت في سوالنا ثلثة وتسعين وتختص السوال ان زاد على ستة
وتسعين كما تسقط جميع ادواره الاثنا عشرية ويحفظ ما خرج منها ثمنها وما بقي
فكانت في سوالنا سبعة ادوار الباقي سبعة انتهائي الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنا
عشر درج فاذا بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم تثبت اعدادها ايضا فان زاد وهو
الطالع عن اربعة وعشرين في الوجه الثالث ثم تثبت الطالع وهو واحد وسلطان
الطالع وهو اربعة والدور الاكبر وهو واحد واجمع ما بين الطالع والدور وهو اثنان
في هذا السوال ثم اضرب ما خرج منها في سلطان البرج يبلغ ثمانية واضف السلطان
للطالع يكون خمسة فهذه سبعة اصول ثم خرج من ضرب الطالع والدور الاكبر في سلطان
القوس ما لم يبلغ اثنا عشر فيه تدخل في ضلع ثمانية من اسفل الجدول صاعدا وان زاد
على اثنا عشر طرح ادوارا وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية وتعلم على منتهى العدد والخمسة
المستخرجة من السلطان والطالع يكون المدخل في ضلع السطح المبسوط الاعلى من الجدول
وتعد منه الى الخمسة ادوار وتحفظها الى ان يقف العدد في مقابلة البيوت
العامرة بالعدد ومن الجدول ثم ان وقف في مقابلة الخالي من بيوت الجدول على احدهما
ولا تعتبره تستمر على دوائك على حرف من اربعة وهو الف او باء او جيم او زاي
فوقف العدد في عملنا على حرف الف وخلف ثلثة ادوار فضربنا ثلثة صارت
تسعة فهو عدد الدور الاول ثم ثبته واجمع ما بين الضلعين القايم والمبسوط يكن

في بيت ثمانية وادخل بعد ومائي الدور الاول فذلك تسعة في صدر الجدول
مما يلي البيت الذي جمعنا فيه مارا الى جهة اليسار وهو ثمانية فوقع على حرف لام
الف ولا يخرج ابدا منها حرف حركب وانما هو ابدا حرف تار مع مائة برسم الزمام
فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيدة واجمع عدد الدور للسلطان يبلغ ثلثة عشر
ادخل بها في حرف الاوتار واثبت ما وقع عليه العدد وعلم عليه من بيت القصيدة
ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك ان تجمع حروف
الدور الاول هو تسعة لسلطان البرج وهو اربعة تبلغ ثلثة عشر اضفها لمثلها تكن
ستة وعشرين اسقط منها درج الطالع وذلك واحد في هذا السوال الباقي خمسة
وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحرف الاول ثم ثلثة وعشرون مرتين ثم اثنان مرتين
على حسب هذا الطرح الى ان ينتهي الى الواحد من اخر البيت المنظوم ولا تقف على اربعة
وعشرين يطرح ذلك الواحد اولا ثم ضع الدور الثاني وضف حروف الدور
الاول الى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان يكن سبعة عشر
الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الاول وعول عليه
وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر ثم بخمسة ولا تعد الحالي والدور عشري فوجدنا
حرف خمس مائة وانما هو نون لان دورنا في مرتبة العشرات وكانت الخمس مائة
بخمسين لان دورنا سبعة عشر فلو تمن سبعة وعشرين لكانت ميمنا فاثبت نونا
ثم ادخل بخمسة ايضا فاوله وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحدا فهو العدد
واحدا تقع خمسة اضف واحد السطح يكون ستة اثبت واو وعلم عليها من بيت القصيد
اربعة واضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الضرب في السلطان تبلغ اثني
عشر اضف لها البلغ من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو ما للدور
الثاني فدخلنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوقع العدد على واحد اثبت الف
وعلم عليها من بيت القصيد واسقطها من حروف الاوتار ثلثة حروف عدة الى رجعة
من الدور الثاني وضع الدور الثالث واضف خمسة الى ثمانية يكن ثلثة عشر
الباقي واحد انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل في بيت القصيد بثلثة عشر
وخذ ما وقع عليه العدد وهو ق وعلم عليه وادخل بثلثة عشر في حروف الاوتار
واثبت ما خرج وهو ش وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل ما في الشين الخارجة بالباقي
من دور ثلثة عشر وذلك واحد فخذ ما يلي حرف شين من الاوتار فكان ب اثبتها
وعلم عليها من بيت القصيد وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو ان
تضعف ثلثة عشر بمثلها اليها ويضف اليها الواحد الباقي من الدور يبلغ و

سبعة وعشرين وهو حرف با المستخرج من الاوتار من بيت القصيد وادخل في صدر
الجدول بثلثة عشر وانظر ما قابله من السطح واضعفه بمثله وزد عليه الواحد الباقي
من ثلثة عشر فكان حرف جيم فكانت الجملة سبعة فذلك حرف زاي فاثبتناه وعلمنا
عليه من بيت القصيد وميزانه ان تضعف سبعة بمثلها وزد عليها الواحد الباقي
من ثلثة عشر يكون خمسة عشر وهو الخامس عشر من بيت القصيد وهذا اخر دور
الثلاثيات وضع الدور الرابع واوله من العدد تسعة باضافة الباقي من الدور السابق
فاضرب الطالع مع الدور في السلطان وهذا الدور اخر العمل في البيت الاول
من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد بتسعة في ضلع ثمانية وادخل
بتسعة من دور الحرف الذي اخذته اخرا من بيت القصيد فالتاسع حرف را فاثبته
وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلها من السطح يكون جيم فهو العدد
واحد يكون الف وهو الثاني من حرف الرا من بيت القصيد فاثبته وعلم عليه
وعد ما مر تسعة يكون الف ايضا اثبته وعلم عليه واضرب على حرف من الاوتار
واضف تسعة لمثلها تكون ثمانية عشر وادخل بها في حرف الاوتار تقف على حرف را
اثبتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية عشر واربعة وادخل بثمانية عشر في حرف
الاوتار تقف على را اثبتها وعلم عليها اثنين واضف اثنين الى تسعة تكن احد عشر ادخل
في صدر الجدول باحد عشر فقابلها من السطح الف اثبتها وعلم عليها ستة وضع الدور
الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الاوتار
واضعف خمسة بمثلها واضفها الى سبعة عشر عدد دورها الجملة سبعة وعشرون ادخل
بها في حروف الاوتار فتقع على با اثبتها وعلم عليها اثنين وثلثين واطرح من سبعة عشر
اثنين التي هي في اس اثنين وثلثين الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف
على قاف اثبتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول استة وعشرين تقف
على اثنين بالغبار وذلك حرف با اثبته وعلم عليه اربعة وخمسين واضرب على حرفين
من الاوتار وضع الدور السادس وعدته ثلثة عشر الباقي منه واحد نبين اذ ذاك
ان دور النظم من خمسة وعشرين فان الادوار خمسة وتسعون وسبعة عشر وخمسة
وثلثة عشر وواحد فاضرب خمسة خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت فانقل
الدور في ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخلوا في بيت القصيد ثلثة عشر كما قدمناه لانه
دور ثاني من ثلاثة تركيبه ثمانية بل اضفنا الاربعة التي من اربعة وخمسين الخارجة
على حرف با من بيت القصيد الى الواحد يكون خمسة تضف خمسة الى ثلثة عشر
التي للدور تبلغ ثمانية عشر ادخل في صدر الجدول بها وخذ ما قبلها من السطح

وهو الف اثبته وعلم عليه من بيت القصيد اثنا عشر واضرب على حرفين من الاوتار
ومن هذا الحد تنظر احرف السوال فما خرج منها ردده مع بيت القصيد من اخره وعلم عليه
من حروف السوال السكون واخلاف العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف
خرج بعد ذلك مناسبا لحروف السوال فما خرج منها رده الى بيت القصيد من اخره وعلم
عليه وكذا يفعل بكل حرف بعد ذلك مناسبا لحروف السوال ثم اضف لثمانية عشر
ما علمته على حرف الالف من الاحاد فكان اثنين تبلغ الجملة عشرين ادخل بها في حروف
الاوتار تقف على حرف را اثبته وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية
الدور والحرف الوتري فاضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور السابع وهو ابتداء
المخترع ثاني ينتهي من الاختراعين وبهذا الدور من العدد تسعة تضعف لها واحدا
يكن عشرين النشاة الثانية وهذا الوحد تزيده بعدا الى اثني عشر دورا اذا كان من هذه
النسبة او تنقصه من الاصل تبلغ الجملة عشرة فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين وادخل
في صدر الجدول العشرة تقف على خمسمائة وانما هي خمسون نون مضاعفة بمثلها وتلك
قاف فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين واسقط من اثنين وخمسين اثنين
واسقط تسعة التي للدور الباقي احد واربعون فادخل بها في حروف الاوتار تقف
على واحد اثبته وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تجد واحدا فهذا ميزان هذه النشاة
الثانية تعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة في الالف الاخير الميزاني واخرى
على الالف الاولى فقط والثانية اربعة وعشرون ثم واضرب على حرفين من الاوتار وضع
الدور الثاني وعدده سبعة عشر الباقي خمسة ادخل في ضلع ثمانية وخمسين وادخل في بيت
القصيد بخمسة تقع على عدد سبعين اثبتها وعلم عليها وادخل في الجدول بخمسة وخذ ما قابلها
من السطح وذلك واحد اثبته وعلم عليه من البيت ثمانية واربعين واسقط واحدا من
ثمانية واربعين للماس الثاني واضف لها خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون ادخل بها صدر
الجدول تقف على حرف اثنين غبارية وهي مرتبة مبينة لتزايد العدد فتكون مائتين
وهي حرف را اثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اربعة وعشرين فانتقل الامر ستة
وتسعين الى الابتداء وهو اربعة وعشرون فضعف الى اربعة و... خمسة الدور
واسقط واحدا تكون الجملة ثمانية وعشرين ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف
ثمانية اثبت ح وعلم عليها وضع الدور التاسع وعدده ثلثة عشر الباقي واحد اصعد
في ضلع ثمانية بواحد وليست نسبة العمل هنا كنسبتها في الدور الاول وسر التضاعف العدد
ولانه من النشاة الثانية ولانه اول المثلث الثالث من مربعات البروج واخر النسبة
الرابعة من المثلثات فاضرب ثلثة عشر التي للدور في اربعة التي هي مثلثات البروج

اربعة الجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرفه اثنين
غبارية وانما هي مبينة لتجاوزها في العدد وعن مرتبتي الاحاد والعشرات فاثبته مائتين را
وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية واربعين واضف الى ثلثة عشر الدور واحدا لاسم
وادخل بالاربعة عشر في بيت القصيد يبلغ ح فعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من اربعة
عشر سبعة تبقى سبعة اضرب على حرفين من الاوتار وادخل بسبعة تقف على حرف
لام اثبته وعلم عليه من البيت وضع الدور العاشر وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة
الرابعة واصعد في ضلع ثمانية بتسعة يكون خلاء فاصعد بتسعة ثمانية تصير في السابع
من الابتداء اضرب تسعة في اربعة لصعود ثمانية بتسعين وانما كانت تضرب في اثنين
ادخل في الجدول بستة وثلثين تقف على اربعة زمامية وهي عشرية فاخذ ما ما احادية
لقلة الادوار فاثبت حرف ذلك وان اضفت الى ستة وثلثين واحدا للاس
لكان حدها من بيت القصيد فعلم عليها ولو ادخلت بتسعة لا غير من غير ضرب في صدر
الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية واربعين الباقي اربعة وهو المقصود ولو دخلت
في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين لوقف على واحد زمامي وهو عشري
فاطرح منه اثنين تكرار التسعة الباقي ثمانية نصفها المطلوب ولو دخل في صدر الجدول
بسبعة وعشرين ضربها في ثلثة لوقف على عشرة زمامية والعمل في احد ثم ادخل بتسعة في بيت
القصيد واثبت ما خرج وهو الف ثم اضرب تسعة في ثلثة التي هي كب التسعة المباينة
واسقط واحدا وادخل في صدر الجدول بستة وعشرين واثبت ما خرج وهو مائتان بحرف
را وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين فاضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وبحسب ما تكرر عليه
الشيء في الدور الاول ادخل في صدر الجدول باربعة تقف على حال تحذ ما قابله من السطح
وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد يكون رس اثبته وعلم عليه اربعة ولو يكون
الوقوف على بيت عامر في الجدول لا ثبتنا الواحد ثلثة واضف سبعة عشر بمثلها واسقط
واحدا وزد ها اربعة تبلغ سبعة وثلثين ادخل بها في الاوتار تقف على دال اثبتها
وعلم عليها خمسة واضعفها بمثلها وادخل البيت تقف على الالف اثبتها وعلم عليها عشرين
واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثاني عشر وله ثلثة عشر الباقي واحد اصعد
في ضلع ثمانية بواحد وهذا الدور اخر الادوار واخر الاختراعين واخر المربعات الثلاثية
واخر المثلثات الرابعة فالواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية وانما هي احاد
ثمانية وليس معناه في الادوار الا واحد فلو زاد على مربعة من مربعات اثني عشر او ثلثة
من مثلثات اثني عشر لكانت ح وانما هي دال فاثبتها وعلم عليها من بيت القصيد

اربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح يكن خمسة اضعها بمثلها للاس تبلغ عشرة
اثنتي وعلم عليها وانظر في المراتب وقعت وجدناها في الرابعة فدخلنا سبعة
في حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوالد الخفي فكانت ف اثبتها وضف الى السبعة
واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها في الاوتار تبلغ س اثبتها وعلم عليها ثمانية واضرب
ثمانية في ثلثة الزايد على عشرة الدور فانها اخو مربعات الادوار بالمثلثات تبلغ
اربعة وعشرين ادخل في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان وعلامتها ستة
وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار
وضع النتيجة الاولى لها تسعة وهذا العدد يناسب ابدا الباقي من حروف الاوتار بعد
طرحها ادوارا وذلك تسعة فاضرب تسعة في ثلثة التي هي زايدة على تسعين
من حروف الاوتار وضف لها واحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين
فادخل بها في حروف الاوتار تبلغ الف اثبته وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت
تسعة التي هي ادوار الحروف التسعينية في اربعة وهي الثلثة الزايدة على تسعين الواحد
الباقي من الدور الثاني عشر كذلك واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في الجدول تسعة
تبلغ اثنين زمامية واضرب تسعة في ما ناسب من السطح وذلك ثلثة واضف لذلك
سبعة عدد الاوتار الحرفية واطرح واحد الباقي من دور اثني عشر تبلغ ثلثة وثلثين
ادخل بها في البيت تبلغ خمسة فاضعفها واضعف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول
ثمانية عشر وخذ ما في السطوح وهو واحد ادخل به في حروف الاوتار تبلغ م اثبته وعلم
عليه واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة
فاصعد في ضلع ثمانية وخمسين واضرب خمسة في ثلثة الزايدة على تسعين تبلغ خمسة
عشر اضف لها واحد الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة ط وادخل ستة عشر في البيت
تبلغ تا اثبته وعلم عليه اربعة وستين وضف الى خمسة الثلثة الزايدة على تسعين وزد
واحد الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة وثلثين ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلثين
زمامية وانظر ما في السطح تجد واحدا اثبته وعلم عليه من بيت القصيد وهو التاسع ايضا
من البيت وادخل تسعة في صدر الجدول والتقف على ثلثة وهو عشرات فاثبت لام
وعلم عليه وضع النتيجة الثالثة وعددها ثلثة عشر الباقي واحد فانقل في ضلع ثمانية بواحد
وضف عشر الثلثة الزايدة على تسعين وواحد الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة
عشر وواحد النتيجة ثمن ثمانية عشر ادخل بها في حروف الاوتار تكن لام اثبتها فهذا اخر العمل
المفاتح هذا السوال السابق اورنا ان نعلم هل هذه الزايرجة علم محدث ام قديم بطالع
اول درج من القوس حروف الاوتار ثم حروف السوال ثم الاصوار هي عدة الحروف

ثلثة وتسعون دوادها سبعة الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس
اربعة الدور الاكبر واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور
في السلطان ثمانية اضافة السلطان للطالع خمسة **بيت القصيد** سوال
عظيم الخلق حزت فصن اذا غرايب شك ضبطه الجد مثلا **حروف الاوتار**
ص ط ك ط ه ن ث ك ه م ض ض م ن ث ه ش ا ب ل ا م ن ص ع ف
ض ق ر س ي ك ل ا م ن ص ع ف ق ر س ب ش خ ذ ظ غ ش ط ك ن ع ح
ص خ و ح ل ص ك ل ا م ن ص ا ب و ح د ه ه و ز ح ط ي **السوال**
ال ز ي ز ح ش ع ل ا م م ح د ث ا م ق د ي م ا لدور الاول التاسع

تسعة		
الدور الثاني	**ثلثة عشر**	
سبعة عشر	الباقي	
الباقي	آ	
خمسة	الدور العاشر	
الدور الثالث	**تسعة**	
ثلثة عشر	الدور الحادي عشر	
الباقي	**سبعة عشر**	
واحد	الباقي	
الدور الرابع	**خمسة عشر**	
تسعة	الدور الثاني عشر	
الدور الخامس	**ثلثة عشر**	
سبعة عشر	الباقي	
الباقي	**واحد**	
خمسة	النتيجة الاولى	
الدور السادس	**تسعة**	
ثلثة عشر	النتيجة الثانية	
الباقي	**سبعة عشر**	
واحد	الباقي	
الدور السابع	**خمسة**	
تسعة	النتيجة الثالثة	

س و ا ل ع ط ي م ا ا ل ح ل ق ح ز ت ف ص ن ا د ن ب غ ا ر ا ي ب ش ك

الدور الثامن
سبعة عشر
الباقي
خمسة

ثلث عشر
الباقي
واحد ع ء
ق
ل
ا ع

ض
ط
ا ا
ه ه
ل ح د ه

م م
م م
م م
م م
و م
ه م

ت و ن ا و ش ب ز ر ا ا ر س ا ت ق ب ا ر ق ا ع ا ر م ح ا ر ج ل د ا ر س
ه ا ل ح ی ف س ر ا ه م ت ا ل ل دور با خمسة وعشرين ثم على ثلثة وعشرين
مرتين ثم على احد وعشرين مرتين الى ان ينتهى او احد من آخر البيت وتنقل الحروف جميعها
والله اعلم ت ر و ح ن ر و ح ا ل ق و س ل ب ر ز س ر ه ا ل ح ر ی
س غ ا س ب ر ق ا ب ه ا م ر ب ق ا ل ع ا ل هذا اخر الكلام فى استخراج
الاجوبة من زايرجة العالم منظومة وللقوم طرائق اخر من غير الزايرجة يستخرجون بها اجوبة
المسائل غير منظومة وعندى ان السر فى خروج الجواب منظوما من الزايرجة انما هو
مزجهم بيت مالك بن وهيب وهو سؤال عظيم الخلق البيت ولذلك يخرج الجواب على روية
واما الطريق الاخرى فيخرج منها الجواب غير منظوم فمن طرائقهم فى استخراج الاجوبة
ما ننقله قال بعض المحققين منهم فصل فى الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات
الحرفية اعلم ارشدنا الله واياك ان هذه الحروف اصل الاسولة فى كل قضية وانما
تستنتج الاجوبة على التجربة بالكلية وهى ثلثة واربعون حرفا كما ترى او ل ا ع ظ
س ا ل م ح ی و ل ق ت ا ف ز ص ن ا غ ش ر ا ك ك ی ب م ض ب
ج ط ل ح ه و ث ل ث ا ن وقد نظمها بعض الفضلاء فى بيت جعل فيه
كل حرف مشدد من حرفين وسماه القطب فقال سؤال الخلق خزت فصن
اذا غرايب شك ضبطه الجد مثلا فاذا اردت استخراج المسئلة فاحذف ما تكرر
من حروفها واثبت ما فضل منها ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فضل
من المسئلة حرفا يماثله واثبت ما فضل منه ثم امزج الفضلين فى سطر واحد تبدا
بالاول من فضلة الاصل والثانى من فضلة المسئلة وكذلك الى ان يتم الفضلتين
او ينفد احدهما قبل الاخرى فتضع البقية على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة
بعد المزج موافقا لعدد حروف الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح فخ تضيف اليها خمس
نونات لتعتدل بها الموازين الموسقية وتكمل الحروف ثمانية واربعون حرفا فتعمر بها
جدولا مربعا يكون اخر ما فى السطر الاول اول ما فى السطر الثانى وتنقل البقية على حالها
وكذلك الى ان يتم عمارة الجدول وبعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف فى القطر

على نسبة الحركة ثم يخرج وتر كل حرف تقسمه مربعه على اعظم جزء يوجد له وتضع الوتر
مقابلا للحرف ثم يستخرج النسب العنصرية الحرفية الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية
وموازينها الروحانية وغرايبها النفسانية واسوسها الاصلية من الجدول الموضوع
لذلك وهذه صورته

ثم تاخذ وتر كل حرف بعد ضربه فى اسوس اوتاد الفلك الاربعة واحذر مايلى الاوتاد
وكذلك السواقط فان نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو اول رتب السريان ثم تاخذ
مجموع العناصر وتحط منها اسوس المولدات تبقى اسوس عالم الخلق بعد عروضه للمدد
الكونية فتحمل عليه بعض المجردات عن المواد وهى عناصر الامداد فيخرج افق النفس الاوسط
وتطرح اول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا المخصوص بعالم
الاكوان من البسيطة لا المركبة وتضرب عالم التوسط فى افق النفس الاوسط يخرج الافق
الاعلى فتحمل عليه اول رتب السريان ثم تطرح من الرابع اول عناصر الامداد الاصلى تبقى
ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع اخر العناصر ابدا فى رابع مرتبة السريان يخرج اول
التفصيل والثانى فى الثانى ثانى عالم التفصيل والثالث فى الثالث يخرج عالم التفصيل
والرابع فى الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عالم التفصيل وتحط من عالم الكل تبقى العوالم
المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول وينقسم المنكسر على الافق الاوسط
يخرج الجزء الثانى وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هكذا فى الرباعى وان شئت اكثر من الرباعى
فتستكثر من عوالم التفصيل ورتب السريان ومن الاوفاق بعدد الحروف والله يرشدنا
واياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على اول رتب السريان خرج الجزء الاول من عالم
التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الاخيرة من عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد والمعين

ومن طرايقهم ايضا في استخراج الجواب قال بعض المحققين منهم اعلم ايدنا الله واياك بروح
منه ان علم الحروف علم جليل يتوصل العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين
العالم وللعمل به شرايط تلتزم وقد يستخرج العالم به اسرار الخليقة وسراير الطبيعة فيطلع
بذلك على سمي الفلسفة اعني السيمياء واختها ويرفع له الحجاب عن المجهولات ويطلع
بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد شهد جماعة بارض المغرب ممن اتصل بذلك
فاظهر العجايب وخرق العوايد وتصرف في الوجود بتاييد الله واعلم ان ملاك كل فضيلة
الاجتهاد وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كل خير كما ان الخرق والعجلة راس الحرمان **فاقول**
اذا اردت ان تعلم قوة كل حرف من حروف القانطوس اعني ابجد الى اخر العدد وهذا
اول مدخل من علم الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الاعداد فتلك الدرجة التي هي مناسبة
للحرف هي قوته في الروحانيات وهي ثمرة وهذا في الحروف المنقوطة لا تتم بل تتم في الغير
منقوطة لان المنقوط منها مراتب لمعان ياتي عليها البيان فيما بعد واعلم ان لكل شكل
من اشكال الحروف شكلا في العالم العلوي اعني الكرسي ومنها المتحرك والساكن والعلوي والسفلي
كما هو مرقوم في اماكنه من الجداول الموضوعة في الزايرج واعلم ان قوى الحروف ثلثة اقسام
الاول وهو اقلها قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحاني مخصوص بذلك الحرف
المرسوم فتى خرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همه كانت قوى الحروف موثرة في عالم
الاجسام الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر عن تصريف الروحانيات لها فهي
قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية في عالم الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع
الباطن اعني القوة النفسانية على تكوينه فيكون قبل النطق به صورة في النفس وبعد النطق
به صورة في الحروف وقوة في النطق واما طبايعها فهي الطبيعيات المنسوبة للمتولدات
وهي الحرارة واليبوسة والحرارة والبرودة والبرودة والرطوبة والبرودة واليبوسة
فهذا سر العدد الثماني والحرارة جامعة للهواء والنار **وهما** اه طم ف ش
ذ ج ز ك س ق ث ظ والبرودة جامعة للارض والماء د ح ل ع ر خ غ ب و ي ص ت
ض والرطوبة جامعة للهواء والماء ج ز ك س ق ث ظ د ح ل ع ر خ غ واليبوسة
جامعة للنار والارض اه طم ف ش ب و ي ن ص ت ض فهذه نسبة حروف
الطبايع وتداخل اجزاء بعضها في بعض وتداخل اجزاء العالم فيها علويا وسفليا باسباب
الامهات الاول اعني الطبايع الاربع المفردة **فصل** فمتى اردت استخراج
مجهول من مسئلة ما فحقق طالع السائل او طالع مسئلة واستنطق حروف اوتادها الاول
والرابع والسابع والعاشر مستوية مرتبة واستخرج اعداد القوى والاوتاد كما سنبين واجمع ونسب
واستفتح الجواب تخرج المطلوب اما بصريح اللفظ او بالمعنى وكذلك في كل مسئلة تقع

لك

لك **بيانه** اذا اردت ان تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة فاجمع
اعدادها بالجمل الكبير فكان الطالع الحمل رابعه السرطان سابعه الميزان عاشره الجدي
وهو اقوى هذه الاوتاد فاسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل برج من الاعداد
المنطقة الموضوعة في دايرتها واحذف اجزاء الكسر في النسب الاستنطاقية كلها واثبت
تحت كل حرف ما يخصه من ذلك ثم اعداد حروف العناصر الاربعة وما يخصها كالاول
وارسم ذلك كله حرفا ورتب الاوتاد والقوى والغراير سطرا ممتزجا وكسر واضرب ما يضرب
لاستخراج الموازين واجمع واستفتح الجواب يخرج لك الضمير وجوابه **مثال** ذلك
افرض ان الطالع الحمل كما تقدم نرسم ح م ل فللحاء من العدد ثمانية لها النصف والربع
والثمن د ب ا للميم لها من العدد اربعون لها النصف والربع والثمن والعشر ونصف
العشر ان اردت التدقيق م ك ي ه د ب ا اللام لها من العدد ثلثون لها النصف
والثلثان والثلث والخمس والسدس والعشر ل ك ي و ه ج وهكذا تفعل بساير حروف
المسئلة والاسم من كل لفظ يقع لك **واما** استخراج الاوتار فهو ان تقسم مربع كل
حرف على اعظم جزء يوجد له مثاله حرف دال مربعها من الاعداد اربعة مربعها ستة عشر اقسمها
على اعظم جزء يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع وتر مقابلا لحرفه ثم
تستخرج النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في استخراجها
من طبع الحرف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف الاصطلاح
فصل في الاستدلال على ما في الضماير الخفية بالقواعد الحرفية
وذلك لو سئل سائل عن عليل لم يعرف مرضه ما علته وما الموافق له بها من الادوية
فمر السائل ان يسمي شيئا من الاشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك
ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان اردت
التدقيق في المسئلة والا اقتصرت على الاسم الذي سماه السائل فعلت به كما نبين
فاقول مثلا سمى السائل فرسا فاثبت الحروف الثلثة مع اعدادها المنطقة بيانه
ان للفاء من العدد ثمانية ولها م ك ي ح وثم الراء لها من العدد ماتتان ولها ق ك
ي ثم السين ولها من العدد ستون ولها ن ك ي و ج فالواو عدد تام له و ج ب
والسين مثله ولها ل ك ي فاذا بسطت حروف الاسماء فوجدت عنصرين متساويين
فاحكم للاكثر بها حروفا بالغلبة على الاخر ثم اجمل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه
دون بسط وكذلك اسم الطالب واحكم للاكثر والاقوى بالغلبة **وصفة الاستخراج**

قوى العناصر	نار	تراب	هوا	ماء
	م م م	ى ى ى ى	ك ك ك ك	ل ح

فتكون الغلبة للتراب وطبعه البرد واليبوسة طبع السوداء فتحكم على المريض بالسوداء
فاذا الفت من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريبية خرج موضع الوجع في الحلق
ويوافقه من الادوية حقنة ومن الاشربة شراب الليموت هذا ما خرج من قوى عداد
اسم فرس وهو مثال تقريبي **واما استخراج قوى العناصر من الاسماء العلمية** فهو ان تسمى
مثلا محمد فتقسم احرفه مقطعة ثم تضع اسماء العناصر الاربعة على تركيب الفلك تخرج لك
في كل عنصر من الحروف والعدد **ومثاله**

هوا	**ما**	**نار**	**تراب**
ج ج	د د د	ا ا ا	ب ب ب
ز ز	ح ح ح	ه ه	و و
ك ك ك	ل ل ل	م م	ن ن
س س س	ع ع ع		
ق ق	و و ر		
ن ن	ح ح ح		

فتجد اقوى العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لان عدد حروفه عشرون حرفا فجعلت
له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا تفعل بجميع الاسماء ثم تضاف الى وتر ما
او للوتر المنسوب للطالع في الزايرجة او لوتر البيت المنسوب لملك بن وهيب الذي
جعله قاعدة لمزج الاسولة وهو سوال عظيم الخلق حوت فضل اذا غاب شك
ضبطه الحد مثلا وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام واصحابه
وهو عمل تام قايم بنفسه في المثالات لوضعيه **ن وصفة العمل بهذا الوتر المذكور**
ان ترسمه مقطعا ممتزجا بالفاظ السوال على قانون صنعة التكسير وعدة حروف
هذا الوتر اعني حروف البيت ثلثة واربعون حرفا لان كل حرف مشدد من حرفين
ثم تحذف ما يتكرر عند المزج من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفا
يماثله وتثبت الفضلين حرفا ممتزجا بعضه ببعض الحرف الاول من فضلة القطب
والثاني من فضلة السوال حتى تتم الفضلتان جميعا فتكون ثلثة واربعين فتضف
اليها خمس نوع نات لتكون ثمانية واربعين وتعتدل بها الموازين الموسيقية
ثم تضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد
الاصلي قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بها مربعات جدول لامربعا يكون اخر ما في السطر
الاول اول ما في السطر الثاني وعلى هذا النسق حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى
الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم وتضعه مقابلا للحرف
ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها
الروحانية وغرايزها النفسانية واسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك

وصفة استخراج النسب العنصرية هو ان تنظر الحرف الاول من الجدول
ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فان اتفقا فحسن والا فاستخرج بين الحرفين
نسبة وتتبع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقيق ذلك سهل على من عرف
قوانينه كما هي مقررة في دايرتها الموسيقية ثم تاخذ وتر كل حرف بعد ضربه في اس الاوتاد
الفلك الاربعة كما تقدم واحذر ما يلي الاوتاد وكذلك السواقط لان نسبها مضطربة
وهذا الذي يخرج لك هو اول رتب السريان ثم تاخذ مجموع العناصر وتحطمها اسس
المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عروضه للمد والكونية فتحمل عليه بعض المجردات
عن المواد وهي عناصر الامداد ويخرج افق النفس الاوسط وتطرح اول رتب السريان
من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعالم الاكوان البسيطة لا المركبة
ثم تضرب عالم التوسط في افق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتحمل عليه اول رتب السريان
ثم تطرح من الربع اول عناصر الامداد والاصلي يبقى ثالث رتبة السريان فتضرب مجموع
اجزاء العناصر ابدا في رابع رتبة السريان يخرج عالم التفصيل والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم
التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتحط من عالم الكل يبقى
العوالم المجردة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاول ومن هنا يطرد العمل لتمامه وله مقدمات
في كتب ابن وحشية والبوني وغيرهما وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكمي في هذا الفن
وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزايرجة الحرفية والصنعة الالهية
والنيرجات الفلسفية والله الملهم وبه المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم
الوكيل واعلم ان هذه الاعمال كلها انما يوصل بها الى حصول جواب مطابق للسوال في المعنى
فقط لا انه يعثر بها على غيب وهي من قبيل الملح كما تقدم لنا اول الكتاب وكذلك ليست
من علم السيميا كما بيناه **علم الكيمياء** وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون
الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك فيتصفحون المكونات
كلها بعد معرفة امزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من
الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والشعر والبيض والعذرات فضلا عن المعادن
ثم يشرح تلك الاعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام
الى اجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذايب منها بالتكليس وامهاء الصلب
بالقهر والصلاية وامثال ذلك وفي زعمهم انه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم
طبيعي يسمونه الاكسير وانه يلقى على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب والفضة
بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد ان يحمى بالنار
فيعود ذهبا ابريزا ويكنون عن ذلك بالاكسير اذا الغزوا في اصطلاحاتهم بالروح

وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فنشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي
الذي يقلب هذه الاجساد المستعدة الى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء
وما زال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا وربما يعزى فيها الكلام الى من ليس من اهلها
وامام المدونين فيها عندهم جابر بن حيان حتى انهم يخصونها به فيسمونها علم جابر
وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالالغاز وزعم انه لا يفتح مقفلها الا من احاط
علما بجميع ما فيها والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات
مع اهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كتابه الذي
سماه رتبة الحكيم وجعله قرينا لكتابه الاخر في السحر والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم
وزعم ان هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما
فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة اجمع وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم اجمع في تواليفهم هي الغاز
يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه
الرموز والالغاز ولابن المغيربي من ائمة هذا الشأن كلمات شعرية رويها على حروف
المعجم من ابدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الاحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون
للغزالي بعض التواليف فيها وليس ذلك بصحيح لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف
على خطاء ما يذهبون اليه حتى ينتحله وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها الى خالد
بن يزيد بن معاوية اقرب فهو بعيد عن العلوم والصنايع بالجملة فكيف له بصناعة
غريبة المنحى مبنية على معرفة طبايع المركبات وامزجتها وكتب الناظرين في ذلك
من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا ان يكون خالد بن يزيد اخر
من اهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فممكن وانا انقل لك ههنا رسالة ابي بكر
ابن بشرون لابن السمح في هذه الصناعة وكلاهما من تلاميذ مسلمة تستدل ابن بشرون
بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة
قد ذكرها الاولون واقتص جميعها اهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الاحجار
والجواهر وطباع البقاع والاماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ولكن ابين لك من هذه
الصنعة ما يحتاج اليه فنبدأ بمعرفته فنقول انه قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم ان يعلموا
اولا ثلث خصال ولها تكون والثانية من اي شيء تكون والثالثة كيف تكون
فاذا عرف هذه الثلث واحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فاما البحث
عن وجودها والاستدلال على تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به اليك من الاكسير واما
من اي شيء تكون فانما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل
موجودا من كل شيء بالقوة لانها من الطبايع الاربع منها تركيب ابتداء واليها ترجع

انتهاء

انتهاء ولكن من الاشياء ما تكون فيه بالقوة ولا تكون بالفعل وذلك ان منها ما يمكن
تفصيلها ومنها ما لا يمكن تفصيلها فالتي يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة
الى الفعل والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها فيها بالقوة فقط وانما لم يمكن تفصيلها
لاستغراق بعض طبايعها في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقك الله
ان تعرف اوفق الاحجار المنفصلة التي يمكن منها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل
والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه الاصول التي
هي عماد الصنعة لم ينجح ولم يظفر بخير ابدا وينبغي لك ان تعلم هل يمكن ان يستعان عليه
بغيره ام يكتفي به وحده وهل هو واحد في الابتداء ام شاركه غيره فصار في التدبير واحدا
فسمي حجرا وينبغي لك ان تعلم كيفية عمله وكمية اوزانه وازمانه وكيف تركيب الروح فيه
وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد تركيبها فان لم تقدر فلاي
علة وما السبب الموجب لذلك فان هذا هو المطلوب فافهم واعلم ان الفلاسفة كلها
مدحت النفس وزعمت انها المدبرة للجسد والحاملة له والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك
ان الجسد اذا خرجت الروح منه مات وبرد فلم يقدر على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة
فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان هذه الصنعة شبيهة بجسد الانسان الذي
تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتمامه بالنفس الحية النورانية التي بها يفعل العظايم
والاشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها وانما انفعل الانسان
لاختلاف تركيب طبايعه ولو اتفقت طبايعه وسلمت من الاعراض والتضاد لم تقدر
النفس على الخروج من جسده ولكان خالدا باقيا فسبحان مدبر الاشياء تعالى واعلم ان الطبايع
التي يحدث عنها هذا العمل كيفية دافعة في الابتداء فيضية محتاجة الى الانتهاء وليس
لها اذا صارت في هذا الحد ان تستحيل الى ما منه تركب كما قلنا آنفا في الانسان لان طبايع هذا
الجوهر قد لزم بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعلها وبالجسد
في تركيبه ومجسته بعد ان كانت طبايع مفردة باعيانها فيا عجبا من افاعيل الطبايع ان القوة
للضعيف الذي يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتمامها فلذلك قلت قوي وضعيف
وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الاول للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق وقد قال
بعض الاولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب موت وفناء وهذا الكلام
دقيق المعنى لان الحكيم اراد بقوله حياة وبقاء بخروجه من العدم الى الوجود لانه ما دام على تركيبه
الاول فهو فان لا محالة فاذا ركب التركيب الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون
الا بعد التفصيل والتقطيع فاذن التفصيل والتقطيع في هذا العمل خاصة فاذا لقي الجسد
المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها

وذلك انه لا وزن له فيه وتستوى في ذلك ان شاء الله تعالى وقد ينبغي لك
ان تعلم ان اختلاط اللطيف باللطيف اهون من اختلاط الغليظ بالغليظ وانما اريد
بذلك التشاكل في الارواح والاجساد لان الاشياء تتصل باشكالها وذكرت لك
ذلك لتعلم ان العمل اوفق وايسر من الطبايع اللطايف الروحانية منها من الغليظ الجسمانية
وقد يتصور في العقل ان الاحجار اقوى واصبر على النار من الارواح كما ترى الذهب
والحديد والنحاس اصبر على النار من الكبريت والزيبق وغيرهما من الارواح فاقول
ان الاجساد قد كانت ارواحا في بدئها فلما اصابها حر الكيان قلبها اجسادا لزجة
غليظة فلم تقدر النار على اكلها لافراط غلظها وتلزجها فاذا افرطت النار عليها صيرتها
ارواحا كما كانت اول خلقها وان تلك الارواح اللطيفة ان اصابتها النار ابقت ولم تقدر
على البقاء عليها فينبغي لك ان تعلم ما صير الاجساد في هذه الحالة وصير الارواح في هذه
الحالة فهو اجل ما تعرفه اقول انما ابقت تلك الارواح واحترقت لاشتعالها ولطافتها
وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان النار اذا احست بالرطوبة تعلقت بها لانها
هوائية تشاكل النار ولا تزال تتغذى بها الى ان تفنى وكذلك الاجساد اذا ابقت
بوصول النار اليها بقلة تلزجها وغلظها وانما صارت تلك الاجساد لا تشتعل لانها
مركبة من ارض وماء صابر على النار بلطيفه متحد بكثيفه بطول الطبخ اللين المازج الاشياء
وذلك ان كل متلاشي انما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه ودخول بعضه في بعض
على غير التحليل والموافقة فصار ذلك الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل
بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما اشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب
الطبايع وتقابلها فاذا علمت ذلك علما شافيا فقد اخذت حظك منها وينبغي لك
ان تعلم ان الاخلاط التي هي طبايع هذه الصناعة موافقة بعضها لبعض مفصلة من جوهر
واحد يجمعها نظام واحد بتدبير واحد لا يدخل عليه غريب في الجزء منه ولا في الكل
كما قال الفيلسوف انك ان احكمت تدبير الطبايع وتاليفها ولم تدخل عليها غريبا
فقد زاغ عنها ووقع الخطاء واعلم ان هذه الطبيعة واحل لها جسدا من قرابتها على ما ينبغي
في الحل حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه ودخلت معه حيث ما جرى لان الاجسام
ما دامت غليظة جافية لا تنبسط ولا تتزاوج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح فافهم
هداك الله هذا القول واعلم هداك الله ان هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل
ولا ينتقص هو الذي يقلب الطبايع ويمسكها ويظهر لها الوانا وازهارا عجيبة
وليس كل جسد يحل خلاف هذا هو الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما يوافقه
ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عنه الغلظ وتنقلب الطبايع عن حالاتها الى ما لها

ان

ان تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف
ظهرت لها هناك قوة تمسك وتغوص في تقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق
في اوله فلا خير فيه واعلم ان البارد من الطبايع هو ييبس الاشياء ويعقد رطوبتها والحار
منها يظهر رطوبتها ويعقد يبسها وانما افردت الحر والبرد لانهما فاعلان والرطوبة
واليبس منفعلان وعن انفعال كل واحد منهما لصاحبه تحدث الاجسام وتكون
وان كانت الحرارة اكثر فعلا في ذلك من البرد لان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها
والحر هو علة الحركة ومتى ضعفت علة الكون وهي الحرارة لم يتم منها شيء ابدا كما انه اذا
افرطت الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد احرقته واهلكته فمن اجل هذه العلة احتيج الى البارد
في هذه الاعمال ليقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم تحذر الفلاسفة اكثر
شيء الا من النيران المحرقة وامرت بتطهير الطبايع والانفاس واخراج دنسها ورطوبتها
ونفي افاتها واوساخها عنها على ذلك استقام رايهم وتدبيرهم فان عملهم انما هو مع
النار اولا واليها يصير اخرا فلذلك قالوا اياكم والنيران المحرقات وانما ارادوا
بذلك نفي الافات التي معها فتجمع على الجسد افتين فيكون اسرع لهلاكه وكذلك كل
شيء انما يتلاشى ويفسد لتضاد طبايعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم تجد ما يقويه ويعينه
الا قهرته الافة واهلكته واعلم ان الحكماء ذكرت ترداد الارواح على الاجساد مرارا ليكون
الزم اليها واقوى على قتال النار اذا هي باشرتها عند الالفة اعني بذلك النار العنصرية
فاعلمه ونقول الان على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة وقد اختلفوا فيه
فمنهم من زعم انه في الحيوان ومنهم من زعم انه في النبات ومنهم من زعم انه في المعادن ومنهم
من زعم انه في الجميع وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة الى استقصائها ومناظرة اهلها
عليها لان الكلام يطول جدا وقد قلت فيما تقدم ان العمل في كل شيء بالقوة لان الطبايع
موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد ان نعلم من اي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد
الى ما قاله الحراني ان الصبغ كله احد صبغين اما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الابيض
حتى يحول فيه وهو مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه
الى جوهر غيره ولونه كتقليب الشجر التراب الى نفسه وقلب الحيوان النبات الى نفسه
حتى يصير التراب نباتا ويصير النبات حيوانا ولا يكون الا بالروح الحي الكيان الفاعل
الذي له توليد الاجرام وقلب الاعيان فاذا كان هذا هكذا فاقول ان العمل اما ان يكون
في الحيوان واما في النبات وبرهان ذلك انهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما
وتمامهما فاما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل خوض
الحكماء فيه واما الحيوان فهو اخر الاستحالات الثلث ونهايتها وذلك ان المعدن

يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شئ هو الطف منه لانه
راجع الى الغلظ وانه ايضا لا يوجد في العالم شئ يتعلق به الروح الحية غيره والروح الطف
ما في العالم ولا تتعلق الروح بالحيوان الا بث كله اياها فاما الروح التي في النبات
فانها يسيرة فيها غلظ وكثافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه لغلظها وغلظ جسد
النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة الطف من الروح
الكامنة كثيرا وذلك ان المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس وليس للكامنة غير
قبول الغذاء وحده ولا تجري اذا قيست بالروح الحية الا كالارض عند الماء كذلك
النبات عند الحيوان فالعمل في الحيوان اعلى وارفع واهون وايسر للعاقل اذا عرف
ذلك ان يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا واعلم ان الحيوان عند الحكماء
ينقسم اقساما من الامهات التي هي الطبايع والحديثة التي المواليد وهذا معروف بيسير
الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والمواليد اقساما حية واقساما ميتة فجعلوا الكل متحرك
فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا وقسموا ذلك في جميع الاشياء وفي الاجساد الذائبة
وفي العقاقير المعدنية فسموا كل شئ يدور في النار ويطير ويشتعل حيا وما كان على خلاف
ذلك سموه ميتا فاما الحيوان والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبايع اربع حيا وما لم ينفصل
سموه ميتا ثم انهم طلبوا جميع الاقسام ولم يجدوه الوفق بهذه الصناعة مما ينفصل
فصولا اربعة ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر الذي في الحيوان فبحثوا عن جنسه حتى
عرفوه واخذوه ودبروه فتكيف لهم منه الذي ارادوا وقد يتكيف مثل هذا في المعادن
والنبات بعد جميع العقاقير وخلطها ثم تفصل بعد ذلك فاما النبات فمنه ما ينفصل
ببعض هذه الفصول مثل الاشنان واما المعادن ففيها اجساد وارواح وانفاس
اذا امتزجت ودبرت كان منها ما له تأثير وقد دبر بالكل في ذلك فكان الحيوان منها
اعلى وارفع وتدبيره اسهل وايسر فينبغي ان تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق
وجوده انا بينا ان الحيوان ارفع المواليد وكذلك ما تركب منه فهو الطف منه
كالنبات من الارض لما كان النبات الطف من الارض لانه من جوهره الصافي فيكون
وجده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقة وكذلك هذا الحجر الحيواني منزلة
النبات في التراب وبالجملة انه ليس في الحيوان شئ ينفصل طبايع اربع غيره فافهم هذا
القول فانه لا يكاد يخفى الا على جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد اخبرتك ماهية هذا
الحجر واعلمتك جنسه وانا ابين لك وجوه تدابيره حتى يكمل لك الذي شرطناه على انفسنا
من الانصاف ان شاء الله **التدبير** على بركة الله تعالى خذ الحجر الكريم فاودعه القرعة
والانبيق وفصل طبايعه الاربع التي هي الماء والهواء والارض والنار وهي الجسد

والروح والنفس والصبغ فاذا عزلت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل واحد
في اناء على حدة وخذ الهابط اسفل الاناء وهو الثفل فاغسله بالنار بالحرارة حتى يذهب
عنه سواده ويزول غلظه وجفاوه وتبيضه تبييضا محكما وطين عنه فصول الرطوبات
المستجنة فيه فانه يصير عند ذلك ماء ابيض لا ظلمة فيه ولا وسخ ولا نقصان ثم اعمد
الى تلك الطبايع الاربع الاول الصاعدة منه فطهرها ايضا من السواد والنقصان وكرر
عليها الغسل والتصعيد حتى تلطف وترق وتصفو فاذا فعلت ذلك فقد فتح الله
عليك فابدا بالتركيب الذي هو مدار العمل وذلك ان التركيب لا يكون الا بالتزويج
والتعفين فاما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغليظ واما التعفين فهو التمشيه
والسحق حتى يختلط بعضه ببعض ويصير شيئا واحدا لا اختلاط فيه ولا انفصال بمنزلة الامتزاج
بالماء فعند ذلك يقوى الغليظ على امساك اللطيف ويقوى الروح على مقابلة النار
ويصبر عليها وتقوى النفس على الغوص في الاجساد والدبيب فيها وانما وجد ذلك بعد
التركيب لان الجسد المحلول لما ازدوج بالروح مازجه بجميع اجزائه ودخل بعضهما في بعض
لتشاكلهما فصار شيئا واحدا ووجب من ذلك ان يعرض للروح من الصلاح والفساد
والبقاء والثبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس اذا امتزجت بهما ودخلت
فيهما بخدمة التدبير اختلطت اجزاؤها بجميع اجزاء الآخرين اعني الروح والجسد وصارت
هي وهما شيئا واحدا لا اختلاف فيه بمنزلة الجزء الكلي الذي سلمت فيه طبايعه واتفقت
اجزاؤه فاذا لقي هذا المركب الجسد المحلول والح عليه النار واظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه
فذاب في الجسد المحلول ومن شان الرطوبة الاشتعال وتعلق النار بها فاذا ارادت النار
التعلق بها منعها من الالتحام بالنفس ممازجة لها فان النار لا تتحد بالدهن حتى يكون
خالصا وكذلك الماء من شانه النفور من النار فاذا الحت عليه النار وارادت تطييره
وجد الجسد اليابس الممازج له في جوفه فمنعه من الطيران فكان الجسد علة لامساك الماء
والماء علة لبقاء الدهن والدهن علة لثبات الصبغ وكان الصبغ علة لظهور اللون واظهاره
الذهبية في الاشياء المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا يكون
العمل وهذه البيضة التي سالت عنها وهي التي سمتها الحكماء بيضة لا بيضة الدجاجة واعلم
ان الحكماء لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل المعنى اشبهها ولقد سالت مسلمة عن ذلك
يوما وليس عنده غيري فقلت ايها الحكيم الفاضل اخبرني لاي شئ سمت الحكماء مركب الحيوان
بيضة اختيارا منهم لذلك ام لمعنى دعاهم اليه فقال بل لمعنى غامض فقلت ايها الحكيم
وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة
فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه فانه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه

متفكراً لا اقدر على الوصول الى معناه فلما راى ما بي من الفكر وان نفسي قد مرت فيها
اخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي يا ابا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كمية
الالوان عند امتزاج الطبايع وتاليفها فلما قال لي ذلك انجلت عني الظلمة واضاء لي
نور قلبي وقوي عقلي على فهمه فنهضت شاكراً لله عليه الى منزلي واقمت عليه شكلاً هندسياً
يبرهن به صحة ما قاله مسلمة وانا واضعه لك في هذا الكتاب مثال ذلك ان المركب
اذا تم وكمل كان ما فيه من طبيعة الهواء الى ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب
من طبيعة النار الى ما في البيضة من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الاخريان الارض والماء
فاقول ان كل شيئين متناسبين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك ان يجعل
سطح البيضة هزوح فاذا اردنا ذلك فانا ناخذ اقل طبايع المركب وهي طبيعة اليبوسة
طبيعة الرطوبة ونقبل منها وكان في هذا الكلام رمز وان كان لا يخفى عليك ثم نحمل عليها
جميعا مثليهما من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة امثال ثم نحمل على الجميع بعد التدبير
مثلا من طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة اجزاء فيكون الجميع تسعة امثال اليبوسة
بالقوة ونجعل تحت كل ضلعين من هذا المركب الذي طبيعته محيطة بسطح المركب طبيعتين
فنجعل اولا الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما ضلعا اج جد وسطح
ابجد وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هز
زح فاقول ان ابجد يشبه سطح هزوح طبيعة الهواء الذي يسمى نفسا وكذلك بج
من سطح المركب والحكماء لم تسم شيئا باسم شيء الا لشبهه به والكلمات التي سالت عن شرحها
الارض المقدسة هي المنعقدة من الطبايع العلوية والسفلية والنحاس هو الذي اخرج
سواده وقطع حتى صار هباء ثم حمر بالزاج فصار نحاسا والمغنيسيا حجرهم الذي تجمد
فيه الارواح وتخرجه الطبيعة العلوية التي تسجن فيها الارواح لتقاتل عليها النار
والفرفرة لون احمر قان يحدثه الكيان والرصاص حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص
ولكنها متشاكلة متجانسة فالواحدة روحانية نيرة صافية وهي الفاعلة والثانية نفسانية
وهي متحركة حساسة غير انها اغلظ من الاولى ومركزها دون مركز الاولى والثالثة قوة
ارضية حاسية قابضة منعكسة الى مركز الارض لثقلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية
جميعا والمحيطة بهما واما سائر الباقية فمبتدعة ومخترعة الباسا على الجاهل ومن عرف
المقدمات استغنى عن غيرها فهذا جميع ما سالتني عنه قد بعثته اليك مفسرا ونرجو بتوفيق
الله ان تبلغ املك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة
المجريطي شيخ الاندلس في علوم الكيمياء والسيمياء والسحر في القرن الثالث وما بعده
وانت ترى كيف صرف الفاظهم كلها في الصناعة الى الرموز والالغاز التي لا تكاد تبين

ولا تعرف وذلك دليل على انها ليست بصناعة طبيعية والذي يجب ان يعتقد في علم
الكيمياء وهو الحق الذي يعضده الواقع انها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها
في عالم الطبيعة اما من نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة او من نوع السحر ان كانت
شريرة فاجرة فاما الكرامة فظاهرة واما السحر فلان الساحر كما ثبت في مكان تحقيقه
يقلب الاعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع فعله السحري
فيها كتخليق بعض الحيوانات من مادة التراب او الشعر او النبات وبالجملة من غير مادتها المخصوصة
بها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصي وكما ينقل عن سحرة السودان في ناحية الجنوب
والترك في ناحية الشمال انهم يسحرون الجو للامطار وغير ذلك ولما كانت هذه تخليقا
للذهب في غير مادته الخاصة به كان من قبيل السحر والمتكلمون فيه اعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة
ومن كان قبلهم من حكماء الامم انما نحوا هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه الغازا حذرا عليها من انكار
الشرايع على السحر وانواعه لا ان ذلك يرجع الى الضنانة بها كما هو راي من لم يذهب الى التحقيق
في ذلك وانظر كيف سمى مسلمة كتابه فيها رتبة الحكيم وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية
الحكيم اشارة الى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه لان الغاية اعلى من الرتبة وكان
بعض مسائل الرتبة بعض من مسائل الغاية او تشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفنين
يتبين ما قلناه ونحن نبين فيما بعد غلط من يزعم ان مدارك هذا الامر بالصناعة الطبيعية
والله العليم الخبير

فصل في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها

هذا الفصل وما بعده
مهم لان هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كبير فوجب
ان يصدع بشانها ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك ان قوما من عقلاء النوع الانساني
زعموا ان الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته واحواله باسبابها وعللها
بالانظار الفكرية والاقيسة العقلية وان تصحيح العقايد الايمانية من قبل النظر لا من جهة
السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون بالفلاسفة جمع فيلسوف وهو
باللسان اليوناني محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوموا على اصابة الغرض منه
ووضعوا قانونا يهتدي به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق
ومحصل ذلك ان النظر الذي يفيد تمييز الحق من الباطل انما هو للذهن في المعاني المنتزعة
من الموجودات الشخصية فيتجرد اولا منها صور منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق
الطابع على جميع النقوش التي يرسمها في طين او شمع وهذه المجردة من المحسوسات
تسمى المعقولات الاوائل ثم تجرد من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معان اخرى
وقد تميزت عنها في الذهن فتجرد معان اخرى هي التي اشتركت بها ثم تجرد ثانيا ان شاركها
غيرها وثالثا الى ان ينتهي التجريد الى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني

والأشخاص ثم لا يكون منها تجريد بعد هذا وهي الأجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير
المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات
الثواني فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطلب منها تصور الوجود كما هو فلا بد
للذهن من إضافة بعضها إلى بعض ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل
تصور الوجود تصورا صحيحا مطابقا إذا كان ذلك بقانون صحيح كما مر وصنف التصديق الذي
هو تلك الإضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم
عليه في البداية والتعليم لأن التصور التام عندهم هو غاية الطلب الإدراكي وإنما التصديق
وسيلة له وما تسمعه في كتب المنطقيين عندهم من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه
فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو ثم يزعمون أن السعادة
في إدراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس بهذا النظر وتلك البراهين وحاصل
مداركهم في الوجود على الجملة ما آلت وهو الذي فرعوا عليه قضايا أنظارهم أنهم عثروا
أولا على الجسم السفلي بحكم الشهود والحس ثم ترقى إدراكهم قليلا فشعروا بوجود النفس
من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بسلطان العقل ووقف إدراكهم
فقضوا على الجسم العالي السماوي بنحو من القضاء على أمر الذات الإنسانية ووجب عندهم
أن يكون للفلك نفس وعقل كما للإنسان ثم أنهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهي العشر
تسع مفصلة ذواتها جمل وواحد أول مفرد وهو العاشر ويزعمون أن السعادة في إدراك
الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخلقها بالفضائل وأن ذلك
ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال بمقتضى عقله
ونظره وميله إلى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وأن ذلك إذا حصل للنفس
حصلت لها البهجة واللذة وأن الجهل بذلك هو الشقاء السرمد وهذا عندهم هو معنى
النعيم والعذاب في الآخرة إلى خباط لهم في تفاصيل ذلك معروف في كلماتهم وإمام هذه
المذاهب الذي حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا في هذه الأحقاب
هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونيا من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الإسكندر
ويسمونه المعلم الأول على الإطلاق يعنون معلم صناعة المنطق إذ لم تكن قبله مهذبة
وهو أول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها ولقد أحسن في ذلك
القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات ثم كان من بعده في الإسلام من أخذ
بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل وذلك أن كتب
أولئك المتقدمين لما ترجمها الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان
العربي تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ بمذاهبهم من أضله الله من منتحلي العلوم وجادلوا

عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما
واعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه فأما إسنادهم الموجودات كلها إلى العقل
الأول واكتفاؤهم به في الترقي إلى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خلق
الله فالوجود أوسع نطاقا من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكأنهم في اقتصارهم على إثبات
العقل فقط والغفلة عما وراءه بمثابة الطبيعيين المقتصرين على إثبات الأجسام خاصة
المعرضين عن النفس والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم في حكمة الوجود شيء وأما البراهين
التي يزعمونها على مدعياتهم في الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهي قاصرة
وغير وافية بالغرض أما ما كان منها في الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعي فوجه
قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم
وبين ما في الخارج غير يقيني لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة
بموادها ولعل في المواد ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم إلا ما يشهد
له الحس من ذلك فدليله شهوده لا تلك البراهين فأين اليقين الذي يجدونه فيها وربما يكون
تصرف الذهن في المعقولات الأول المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية لا في المعقولات الثواني التي تجريدها
في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينيا بمثابة المحسوسات إذ المعقولات الأول أقرب
إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها فنسلم لهم حينئذ دعاويهم في ذلك إلا أنه ينبغي لنا
الإعراض عن النظر فيها إذ هو من ترك المسلم لما لا يعنيه فإن مسائل الطبيعيات لا تهمنا
في ديننا ولا في معاشنا فوجب علينا تركها وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس
وهي الروحانيات ويسمونه العلم الإلهي وعلم ما بعد الطبيعة فإن ذواتها مجهولة رأسا
ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية
الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا بالحس فننتزع منه الكليات ونحن لا ندرك الذوات
الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى لحجاب الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان
عليها ولا مدرك لنا في إثبات وجودها على الجملة إلا ما نجده بين جنبينا من أمر النفس الإنسانية
وأحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقتها
وصفاتها فأمر غامض لا سبيل إلى الوقوف عليه ولقد صرح بذلك محققوهم حيث
ذهبوا إلى أن ما لا مادة له لا يمكن البرهان عليه لأن مقدمات البرهان من شرطها
أن تكون ذاتية وقال كبيرهم أفلاطون إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين وإنما يقال
فيها بالأخلق والأولى يعني الظن وإذا كان إنما يحصل بعد التعب والنصب الظن
فقط فيكفينا الظن الذي كان أولا فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن

انما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات وهذه غاية الافكار الانسانية
عندهم واما قولهم ان السعادة في ادراك الوجود على ما هو عليه بتلك البراهين فقول
مزيف مردود وتفسيره ان الانسان مركب من جزئين احدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج
به ولكل واحد من الجزئين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك
تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية الا ان المدارك الروحانية يدركها
بذاته بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك
فله ابتهاج بما يدركه واعتبره بحال الصبي في اول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يبتهج
بما يبصره من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك ان الابتهاج بالادراك الذي
للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون اشد والذ فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها
الذي حصل لها من ذاتها بغير واسطة فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها
بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الادراك لا يحصل بنظر ولا علم وانما يحصل
بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا ما يعنون بحصول
هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة اماتة القوى الجسمانية ومداركها
حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع
الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو
مع ذلك غير واف بمقصودهم الذي زعموه فاما قولهم ان البراهين والادلة العقلية
محصلة لهذا النوع من الادراك والابتهاج عنه فباطل كما رايته اذ البراهين والادلة
من جملة المدارك الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكر ونحن اول
شيء نعنى به في تحصيل هذا الادراك اماتة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له قادحة
فيه وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والاشارات والنجاة وتلاخيص ابن رشد
للفص من تاليف ارسطو وغيره يبعثر اوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط
من السعادة فيها ولا يعلم انه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستندهم في ذلك ما ينقلونه
عن ارسطو والفارابي وابن سينا ان من حصل له ادراك العقل الفعال واتصل به في حياته
الدنيا فقد حصل حظه من السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن اول رتبة ينكشف
عنها الحس من مراتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الادراك
العلمي وقد رايت فساده وانما يعني ارسطو واصحابه بذلك الاتصال والادراك
ادراك النفس الذي لها من ذاتها وبغير واسطة وهو لا ينكشف حجاب الحس واما قولهم
ان البهجة الناشئة يحصل لا عن هذا الادراك هي عين السعادة الموعود بها
فباطل ايضا لانا انما تبين لنا بما قرروه ان وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة

وانها

وانها تبتهج بادراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعين لنا انه عين السعادة
الاخروية ولا بد بل هي من جملة الملاذ التي لتلك السعادة واما قولهم ان السعادة في ادراك
هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبني على ما كنا قدمناه في اصل التوحيد من الاوهام
والاغلاط في ان الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه وبينا فساد ذلك وان الوجود
اوسع من ان يحاط به او يستوفى ادراكه بجملته روحانيا او جسمانيا والذي يحصل
من جميع ما قررناه من مذاهبهم ان الجزء الروحاني اذا فارق القوى الجسمانية ادرك
ادراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك وهي الموجودات التي احاط بها علمنا وليس
بعام الادراك في الموجودات كلها اذ لم تنحصر وانه يبتهج بذلك النحو من الادراك
ابتهاجا شديدا كما يبتهج الصبي بمداركه الحسية في اول نشوه ومن لنا بعد ذلك بادراك
جميع الموجودات او بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نعمل لها هيهات
هيهات لما توعدون واما قولهم ان الانسان مستقل بتهذيب نفسه واصلاحها
بملابسة المحمود من الخلق ومجانبة المذموم فامر مبني على ابتهاج النفس بادراكها الذي لها
من ذاتها هو عين السعادة الموعود بها لان الرذائل عائقة للنفس عن تمام ادراكها
ذلك بما يحصل لها من الملكات الجسمانية والوانها وقد بينا ان اثر السعادة والشقاوة
من وراء الادراكات الجسمانية والروحانية فهذا التهذيب الذي توصلوا لمعرفته انما نفعه
في البهجة الناشئة عن الادراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين واما وراء
ذلك من السعادة التي وعد بها الشارع على امتثال ما امر به من الاعمال والاخلاق فامر
لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم ابو علي بن سينا فقال في كتاب
والمعاد له ما معناه ان المعاد الروحاني واحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية
والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة في البراهين عليه سعة واما المعاد
المعاد الجسماني واحواله فلا يمكننا ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد بسطته
لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها وليرجع في احواله اليها فهذا العلم كما رايته غير واف
بمقاصدهم التي حوموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها وليس له فيما علمنا الا ثمرة
واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصل على وجه الاحكام والاتقان
هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات
والتعاليم وما بعدها فيستولي الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة
الاتقان والصواب في الحجاج والاستدلالات لانها وان كانت غير وافية بمقصودهم
فهي اصح ما علمناه من قوانين الانظار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب
اهل العالم وآرائهم ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا جهده من معاطبها

ولكن نظر من نظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه
ولا يكبّن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم كذلك من معاطبها والله الموفق
للحق والهادي إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله **فصل في ابطال صناعة**
النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها
الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات
العنصرية مفردة ومجتمعة فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما
سيحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية فالمتقدمون منهم
يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيرها بالتجربة وهو أمر تقصر الأعمار كلها عن تحصيله
لو اجتمعت إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن
وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكراره إلى آماد وأحقاب متطاولة تتقاصر
عنها أعمار العالم وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت
بالوحي وهو رأي فائل وقد كفونا مؤنة إبطاله ومن أوضح الأدلة فيه أن تعلم أن الأنبياء
عليهم السلام أبعد الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون للإخبار بالغيب إلا أن يكون
من الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشرعون ذلك لتابعيهم من الخلق وأما بطليموس
ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل
مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية قال لأن فعل النيرين وأثرهما في العنصريات
ظاهر لا يسع واحدا جحده مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمزجتها ونضج الثمار والزرع
وغير ذلك وفعل القمر في الرطوبات والماء وإنضاج المواد المتعفنة وفواكه القثاء
وسائر أفعاله **ثم قال** ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان الأولى التقليد لمن نقل
ذلك عنه من أئمة الصناعة إلا أنه غير مقنع للنفس **الثانية** الحدس والتجربة بقياس
كل واحد منها إلى النير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فننظر هل يزيد ذلك
الكوكب عند القران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته في الطبيعة أو ينقص عنها فتعرف
مضادته ثم إذا عرفنا قواها مفردة عرفناها مركبة وذلك عند تناظرها بأشكال التثليث
والتربيع وغيرهما ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضا إلى النير الأعظم
وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها فهي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر والمزاج الذي
يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات وتتخلق به النطف والبزر فتصير حالا
للبدن المتكون عنها وللنفس المتعلقة به الفائضة عليه المكتسبة لما لها منه ولما يتبع
النفس والبدن من الأحوال لأن كيفيات البزرة والنطفة كيفيات لما يتولد عنهما
وينشأ منهما قال وهو مع ذلك ظني وليس من اليقين في شيء وليس هو أيضا من القضاء

الإلهي سابق على كل شيء هذا محصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص في كتابه الأربع وغيره
ومنه يتبين ضعف مدارك هذه الصناعة وذلك أن العلم بالكائن أو الظن به إنما يحصل
عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية على ما تبين في موضعه والقوى
النجومية على ما قرروه إنما هي فاعلة فقط والجزء العنصري هو القابل ثم إن القوى النجومية
ليست هي الفاعل بجملتها بل هناك قوى أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوليد للأب
والنوع التي في النطفة وقوى الخاصة التي تميز بها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى
النجومية إذا حصلت على كمالها وحصل العلم بها إنما هي فاعل واحد من جملة الأسباب
الفاعلة للكائن ثم إنه يشترط مع العلم بقوى وتأثيرها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده
الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للناظر في فكره وليس من علل الكائن ولا من أسبابه
وإذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت أدراجها عن الظن إلى الشك هذا إذا حصل العلم بالقوى
النجومية على سداده ولم تعترضه آفة وهذا معوز لما فيه من معرفة حسبانات الكواكب في سيرها
لتتعرف به أوضاعها ولما أن اختصاص كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس
في إثبات القوى للكواكب الخمسة بقياسها إلى الشمس مدرك ضعيف لأن قوة الشمس
غالبة لجميع القوى من الكواكب ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها أو النقصان منها
عند المقارنة كما قال وهذه كلها قادحة في تعرف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة
ثم إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله بطريق
استدلالي كما رأيته واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان من أن إسناد الأسباب إلى المسببات
مجهول الكيفية والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادي الرأي من التأثير فلعل إسنادها على غير
صورة التأثير المتعارف والقدرة الإلهية رابطة بينهما كما ربطت جميع الكائنات علوا
وسفلا سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك والنبوات
أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس
والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته وفي قوله أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال
مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا
فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب الحديث الصحيح فقد بان بطلان هذه الصناعة
من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل مع ما لها من المضار في العمران
الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض
الأحايين اتفاقا لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن
اطراد الصدق في معرفة سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها

ثم ينشأ عنها كثيرا في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول
الاعداء والمتربصين بالدولة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي
ان تحظر هذه الصناعة على جميع اهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول
ولا يقدح في ذلك كون وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر
طبيعتان في العالم موجودتان لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف باسباب حصولهما
فيتعين السعي في اكتساب الخير باسبابه ودفع اسباب الشر والمضار عنهم وهذا
هو الواجب على من عرف فساد هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك انها وان كانت
صحيحة في نفسها فلا يمكن احدا من اهل الملة تحصيل علمها ولا ملكتها بل ان نظر فيها ناظر وظن
بها الاحاطة فهي في غاية القصور في نفس الامر فان الشريعة لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع
من اهل العمران لقراءتها والتحليق لتعليمها وصار المولع بها من الناس وهم الاقل واقل
من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتها في كسر بيته متسترا عن الناس وتحت ربقة من الجمهور مع
تشعب الصناعة وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها على طائل ونحن نجد الفقه
الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهل ماخذه من الكتاب والسنة المتداولة وعكف الجمهور
على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المدارسة وكثرة المجالس وتعددها انما يحذق
فيه الواحد بعد الواحد في الاعصار والاجيال فكيف بعلم مهجور للشريعة مضروب
دونه سد الحظر والتحريم مكتوم عن الجمهور صعب الماخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل
لاصوله وفروعه الى مزيد حدس وتخمين يكتنفان به من الناظر فاين التحصيل والحذق
فيه مع هذه كلها ومدعي ذلك من الناس مردود على عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة
الفن بين اهل الملة وقلة حملته فاعتبر ذلك تتبين صحة ما ذهبنا اليه والله عالم الغيب
فلا يظهر على غيبه احدا **ومما وقع** في هذا المعنى لبعض اصحابنا من اهل العصر عند ما غلب
العرب عساكر السلطان ابي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثر من اهل العصر عند ما غلب
ارجاف الفريقين الاولياء والاعداء فقال في ذلك ابو القاسم الرحوي من شعراء اهل تونس
استغفر الله كل حين قد ذهب العيش والهناء • اصبح في تونس وامسي والصبح لله
والمساء • الخوف والجوع والمنايا يحدثها الهرج والوباء • والناس في حربة وحرب
وما عسى ينفع المراء • فاحمدي يرى عليا حلت به الهلك والتواء • واخر قال سوف
ياتي به اليكم صبا رخاء • والله من فوق ذا وهذا يقضي لعبده ما يشاء • يا راصدي
الخنس الجواري ما فعلت هذه السماء • مطلتمونا وقد زعمتم انكم اليوم املياء •
مر خميس على خميس وجاء سبت واربعاء • ونصف شهر وعشر ثان وثالث ضمه القضاء

ولا نرى

ولا نرى غير زور قول اذاك جهل ام ازدراء • انا الى الله قد علمنا ان ليس يستدفع القضاء
رضيت بالله لي الها حسبكم البدر او ذكاء • ما هذه الانجم السواري الا عبادية واماء
يقضى عليها وليس تقضي وما لها في الورى اقتضاء • ضلت عقول ترى قديما ما شانه الجرم والفناء
وحكمت في الوجود طبعا يحدثه الماء والهواء • لم تر حلوا ازاء مر تغذوهما تربة وماء
الله ربي ولست ادري ما الجوهر الفرد والخلاء • ولا الهيولى التي تنادي ما لي عن صورة
عراء • ولا وجود ولا انعدام ولا ثبوت ولا انتفاء • ولست ادري ما الكسب
الا ما جلب البيع والشراء • وانما مذهبي وديني ما كان والناس اولياء • اذ لا فضول
ولا اصول ولا جدال ولا ارتياء • ما تبع الصدر والبقايا يا حبذا ذاك الاقتفاء
كانوا كما تعلمون منهم ولم يكن ذلك الهراء • يا اشعري الزمان اني اشعرني الصيف
والشتاء • اني اجزى بالشر شرا والخير عن مثله جزاء • وانني ان اكن مطيعا فربت
اعصي ولي رجاء • وانني تحت حكم بار اطاعه العرش والثراء • ليس باسطاركم ولكن
اتاه الحكم والقضاء • لو حدث الاشعري عمن له الى رأيه انتماء • لقال اخبرهم باني
مما يقولونه براء • **فصل في انكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ
من المفاسد عن انتحالها** ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم تحملهم المطامع على انتحال هذه
الصناعة ويرون انها احد مذاهب المعاش ووجوهه وان اقتناء المال منها ايسر واسهل
على مبتغيه فيرتكبون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف الحكام وخسارة
الاموال في النفقات زيادة الى النيل من عرضه والعطب اخرا ان ظهر على خيبته وهم يحسبون
انهم يحسنون صنعا وانما اطمعهم في ذلك انهم راوا المعادن تستحيل وتنقلب بالصنعة
بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيحاولون بالعلاج صيرورة الفضة ذهبا والنحاس
والقصدير فضة ويحسبون انها من ممكنات عالم الطبيعة ولهم في علاج ذلك طرق
مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعة للعلاج المسماة
عندهم بالحجر المكرم هل هي العذرة او الدم او الشعر او البيض وكذا او كذا مما سوى ذلك
وجملة التدبير عندهم بعد تعيين المادة ان تمهى بالفهر على حجر صلد املس وتسقى اثناء
امهائها بالماء بعد ان يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب القصد منها
ويؤثر في انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقي او تطبخ
بالنار او تصعد او تكلس لاستخراج مائها او ترابها فاذا رضي ذلك كله من علاجها
وتم تدبيره على ما اقتضته اصول صنعته حصل من ذلك تراب او مائع يسمونه
الاكسير ويزعمون انه اذا القي على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا او النحاس المحماة بالنار

عا او فضة على حسب ما قصده في علمه ويزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسير مادة مركبة
من العناصر الاربع حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج وقوى طبيعية تصرف
ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومزاجها وتبث فيه ما حصل فيها من الكيفيات
والقوى كالخميرة للخبز تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانفشاش
والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعا الى الغذاء وكذا اكسير الذهب والفضة فيما يحصل
فيه من المعادن يصرفه اليهما ويقلبه الى صورتهما هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا
العلاج يبتغون الرزق والمعاش فيه ويتناقلون احكامه وقواعده من كتب ائمة الصناعة
من قبلهم يتداولونها بينهم ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف اسرارها اذ هي في الاكثر
تشبه المعمى كتواليف جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة المجريطي في كتاب رتبة
الحكيم والطغرائي والمغيربي في قصائده العريقة في اجادة النظم وامثالها ولا يحلون
من بعد ذلك كله بطائل منها فاوضت يوما شيخنا ابا البركات البلفيقي كبير مشيخة
الاندلس في مثل ذلك ووقفته على بعض التواليف فيها فتصفحه طويلا ثم رده الي وقال
لي وانا الضامن له ان لا يعود الى بيته الا بالخيبة ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط
اما الظاهرة كتمويه الفضة بالذهب والنحاس بالفضة او خلطهما على نسبة جزء او جزئين
او ثلاثة او الخفية كالقاء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزيبق
المصعد فيجيء جسما معدنيا شبيها بالفضة ويخفى الا على النقاد المهرة فيقدر اصحاب
هذه الدلس مع دلسهم هذه سكة يسربونها في الناس ويطبعونها بطابع السلطان
تمويها على الجمهور بالخلاص من الغش وهؤلاء اخس الناس حرفة واسواهم عاقبة لتلبسهم
بسرقة اموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة
في الذهب ليستخلصها لنفسه فهو سارق او اشر من السارق ومعظم هذا الصنف
لدينا بالمغرب من طلبة البربر المنتبذين باطراف البقاع ومساكن الاغمار ياوون الى مساجد
البادية ويموهون على الاغنياء منهم بان بايديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس
مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبقى ذلك
عندهم تحت الخوف والرقبة الى ان يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون الى مكان اخر ويستجدون
حالا اخرى في استهواء بعض اهل الدنيا باطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء
معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم بلغوا الغاية من الجهل والرداءة والاحتراف
بالسرقة ولا حاسم لعلتهم الا اشتداد الحكام عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع ايديهم
متى ظهر على شانهم لان فيه افسادا للسكة التي تعم بها البلوى وهي متمول الناس

كافة

كافة والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على مفسديها
واما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها ونزه نفسه عن افساد
سكة المسلمين ونقودهم وانما يطلب احالة الفضة الى الذهب والرصاص والنحاس
والقصدير الى الفضة بذلك النحو من العلاج وبالاكسير الحاصل عنه فلنا مع هؤلاء متكلم
وبحث في مداركهم لذلك مع انا لا نعلم ان احدا من اهل العالم تم له هذا الغرض وحصل
منه على بغيته انما تذهب اعمارهم في التدبير والفهر والصلاية والتصعيد والتكليس واعتيام
الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويتناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم ممن تم
له الغرض منها او وقف على الوصول يقنعون باستماعها والمفاوضة فيها ولا يستريبون
في تصديقها شان الكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكلفون به فاذا سئلوا
عن تحقيق ذلك بالمعاينة انكروه وقالوا انما سمعنا ولم نر هكذا شانهم في كل عصر وجيل واعلم ان انتحال
هذه الصنعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتاخرين فلننقل مذاهبهم
في ذلك ثم نتلوه بما يظهر لنا من التحقيق الذي عليه الامر في نفسه والله الموفق للصواب
فنقول ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرقة
وهي الذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات
بالفصول وكلها انواع قائمة بانفسها او انما هي مختلفات بخواص من الكيفيات وهي
كلها اصناف لنوع واحد فالذي ذهب اليه ابو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الاندلس
انها نوع واحد وان اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة
والالوان من الصفرة والبياض والسواد وهي كلها اصناف لذلك النوع الواحد
والذي ذهب اليه ابن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق انها مختلفة بالفصول وانها
انواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته له فصل وجنس شان
الفصول والانواع وبنى ابو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع امكان انقلاب
بعضها الى بعض لامكان تبدل الاعراض حينئذ وعلاجها بالصنعة فمن هذا الوجه كانت
صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة الماخذ وبنى ابو علي سينا على مذهبه في اختلافها
بالنوع انكار هذه الصنعة واستحالة وجودها على ان الفصل لا سبيل بالصناعة اليه وانما يخلقه
خالق الاشياء ومقدرها وهو الله عز وجل والفصول مجهولة الحقائق راسا بالتصور
فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه الطغرائي من اكابر اهل هذه الصنعة في هذا القول
ورد عليه بان التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وابداعه وانما هو في اعداد المادة
لقبوله خاصة والفصل ياتي من بعد الاعداد من لدن خالقه وباريه كما يفيض النور
على الاجسام بالصقل والامهاء ولا حاجة بنا في ذلك الى تصوره ومعرفته قال

واذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والتبن ومثل الحيات المتكونة من الشعر ومثل ما ذكره اصحاب الفلاحة في تكوين النحل اذا انعقدت من عجاجيل البقر وتكوين القصب من قرون ذوات الظلف وتصيير سكر بالحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرون فما المانع اذا على العثور على مثل ذلك في المعادن وهذا كله بالصناعة وهي انما موضوعها المادة فبعدها التدبير والعلاج الى قبول تلك الفصول لا اكثر فال نحن نحاول مثل ذلك في الذهب والفضة فنتخذ مادة بعضها للتدبير بعد ان يكون فيها استعداد اول لقبول صورة الذهب والفضة ثم نحاولها بالعلاج الى ان نتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام الطغرائي وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن لنا في الرد على اهل هذه الصناعة مأخذ آخر تتبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم اجمعين لا الطغرائي ولا ابن سينا وذلك ان حاصل علاجهم انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الاول يجعلونها موضوعا ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة للجسم في المعدن حتى احالته ذهبا او فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان اقصر لانه تبين في موضعه ان مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين ان الذهب انما يتم كونه في معدنه بعد الف وثمانين سنة من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا تضاعفت والكيفيات في العلاج كان زمان كونه اقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه ويتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة فتفعل في الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة في احالته وذلك هو الاكسير على ما تقدم واعلم ان كل متكون من المولدات العنصرية فلابد فيه من اجتماع العناصر الاربعة وعلى نسبة متفاوتة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم امتزاجها فلابد من الجزء الغالب على الكل فلابد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان فلابد من اختلاف اطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وانظر شان الانسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم الى نهايته ونسب الاجزاء في كل طور تختلف مقاديرها وكيفياتها والا لكان الطور بعينه الاول هو الآخر وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر فانظر الى الذهب ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ الف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال فيحتاج صاحب الكيمياء ان يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه الى ان يتم ومن شرط الصناعة ابدا تصور ما يقصد اليه بالصنعة فمن الامثال السائرة في ذلك للحكماء اول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة اول العمل

فلابد من تصور هذه الحالات للذهب في احواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحار الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن او تعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة حال من يدعي بالصنعة تخليق الانسان من المني ونحن اذا سلمنا له الاحاطة باجزائه ونسبه واطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علما محصلا بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان وانى له ذلك ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة الكيمياء وما يدعونه بهذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي ومحاذاتها به الى ان يتم كون الجسم المعدني او تخليق مادة بقوى وافعال وصورة مزاجية تفعل في الجسم فعلا طبيعيا فتصيره وتقلبه الى مادتها وصورتها والفعل الصناعي مسبوق بتصورات احوال الطبيعة المعدنية التي تقصد مساوقتها ومحاذاتها او فعل المادة ذات القوى فيها تصورا مفصلا واحدة بعد اخرى وتلك الاحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بما دونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان او حيوان او نبات هذا محصل هذا البرهان وهو اوثق ما علمته وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول كما رأيته ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك ان حكمة الله في الحجرين وندورهما انهما قيم المكاسب للناس ومتمولاتهم فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل احد من اقتنائهما على شيء وله وجه آخر من الاستحالة وهو ان الطبيعة لا تترك اقرب الطرق في افعالها وترتكب الاعوص والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون انه صحيح اقرب من طريق الطبيعة في معدنها واقل زمانا لما تركته الطبيعة الى طريقها الذي سلكته في كون الفضة والذهب وتخليقهما واما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات امثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فامر صحيح في هذه ادى اليه العثور كما زعم واما الكيمياء فلم ينقل عن احد من اهل العالم انه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها عشواء الى هلم ولا يظفرون الا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لاحد منهم لحفظه عنه ولده وتلميذه واصحابه وتنوقل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى ان ينتشر ويبلغ الينا او الى غيرنا واما قولهم ان الاكسير بمثابة الخميرة وانه مركب يحيل ما يحصل فيه ويقلبه الى ذاته

فاعلم ان الخميرة انما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع
بايسر شيء من الافعال والطبايع والمطلوب بالاكسير قلب المعدن الى ما هو اشرف
منه واعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين اصعب من الفساد فلا يقاس الاكسير على الخميرة
وتحقيق الامر في ذلك ان الكيميا ان صح وجودها كما يزعم الحكماء المتكلمون فيها كما يزعم جابر بن
حيان ومسلمة بن احمد المجريطي وامثالهم فليس من باب الصنايع الطبيعية ولا تتم بامر صناعي
وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات انما هو من منحى كلامهم في الامور السحرية وساير الخوارق وما كان
من ذلك للحلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامهم
فيه معروف ولا حاجة بنا الى شرحه وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى وكذا كلام جابر
في رسايله وبالجملة فامرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنايع فكما لا يتدبر ما منه
الخشب والحيوان في يوم او شهر ولا يتغير طريق عادته الا بارفاد مما وراء عالم الطبايع وعمل
الصنايع فلذلك من طلب الكيميا طلبا صناعيا ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي
التدبير العقيم لان نيلها ان كان صحيحا فهو واقع مما وراء الطبايع والصنايع فهو كالمشي
على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كثايف الاجساد ونحو ذلك من كرامات الاولياء
الخارقة للعادة او مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين
كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون طايرا باذن الله وعلى ذلك فسبيل تيسيرها مختلف بحسب حال
من يوتاها فربما اوتيها الصالح ويوتاها غيره فتكون عنده معارة وربما اوتيها الطالح
ولا يملك ايتاها فلا يتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين انها انما تقع
بتاثيرات النفس وخوارق العادة اما معجزة او كرامة او سحرا ولهذا كان كلام الحكماء
فيها الغازا لا يظفر بتحقيقه الا من خاض لجة من علوم السحر واطلع على تصرفات النفس
في عالم الطبيعة وامور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد احد الى تحصيلها والله بما يعملون
محيط واكثر ما يحمل الناس على هذه الصناعة وانتحالها هو كما قلناه العجز عن الطرق الطبيعية
للمعاش وابتغاوه من غير وجهه الطبيعي كالفلاحة والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز
ابتغاءه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيميا
وغيرها واكثر من يعني بذلك الفقراء من اهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالتها
فان ابن سينا القايل باستحالتها كان من علية الوزراء فكان من اهل الغنى والثروة
والفارابي القايل بامكانها كان من اهل الفقر الذين يعوزهم ادنى بلغة من المعاش
واسبابه وهذه تهمة ظاهرة في انظار النفوس المولعة بطرقها وانتحالها والله الرزاق
ذو القوة المتين

فصل في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتاليف والغاء ما سواها

اعلم ان العلوم البشرية خزانتها النفس الانسانية بما جعل الله فيها من الادراك الذي

يفيدها

يفيدها ذلك الفكر المحصل لها ذلك بالتصور للحقايق اولا ثم باثبات العوارض الذاتية
لها او نفيها عنها ثانيا اما بغير وسط او بوسط حتى يستنتج الفكر بذلك مطالبه التي يعني باثباتها
او نفيها فاذا استقرت بذلك صورة علمية في الضمير فلا بد من بيانها لاخر اما على وجه التعليم
او على وجه المفاوضة لصقل الافكار في تصحيحها وذلك البيان انما يكون بالعبارة وهي
الكلام المركب من الالفاظ النطقية التي خلقها الله في عضو اللسان مركبة من الحروف
وهي كيفيات الاصوات المقطعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبين بها ضماير المتكلمين
بعضهم لبعض في مخاطباتهم وهذه رتبة اولى في البيان عما في الضماير وان كان معظمها
واشرفها العلوم فهي شاملة لكل ما يندرج في الضمير من خبر او انشاء على العموم وبعد هذه الرتبة
الاولى من البيان رتبة ثانية يودى بها ما في الضمير لمن توارى او غاب شخصه وبعد
او لمن ياتي بعد ولم يعاصره ولا لقيه وهذا البيان منحصر في الكتابة وهي رقوم باليد تدل
اشكالها وصورها بالتواضع على الالفاظ النطقية حروفا بحروف وكلمات بكلمات فصار
البيان فيها على ما في الضماير بواسطة الكلام النطقي فلهذا كانت الرتبة الثانية واحد قسمي
هذا البيان يدل على ما في الضماير من العلوم والمعارف فهو اشرفها واهل الفنون معتنون
بايداع ما يحصل في ضمايرهم من ذلك في بطون الاوراق بهذه الكتابة لتعم الفايدة في حصوله
للغايب والمتاخر وهولاء هم المولفون والتواليف بين العلوم البشرية والامم الانسانية
كثيرة ومنتقلة في الاجيال والاعصار وتختلف باختلاف الشرايع والملل والاخبار عن الامم
والدول واما العلوم الفلسفية فلا اختلاف فيها لانها انما تاتي على نهج واحد فيما تقتضيه
الطبيعة الفكرية في تصور الموجودات على ما هي عليه جسمانيها وروحانيها وفلكيها وعنصريها
ومجردها ومادتها فان هذه العلوم لا تختلف وانما يقع الاختلاف في العلوم الشرعية لاختلاف
الملل او التاريخية لاختلاف خارج الخبر ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها
واشكالها ويسمى ذلك قلما وخطا فمنها الخط الحميري ويسمى المسند وهو كتابة حمير واهل اليمن
الاقدمين وهو يخالف كتابة العرب المتاخرين من مضر كما يخالف لغتهم وان كان
الكل عربيا الا ان ملكة هولاء في اللسان والعبارة غير ملكة اولايك ولكل منها قوانين
كلية مستقراة من عباراتهم غير قوانين الاخرين وربما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات
العبارة ومنها الخط السرياني وهو كتابة النبط والكلدانيين وربما يزعم بعض اهل الجهل انه
الخط الطبيعي لقدمه فانهم كانوا اقدم الامم وهذا وهم ومذهب عامي لان الافعال الاختيارية
كلها ليس شيء منها بالطبع وانما هو يستمر بالقدم والمران حتى يصير ملكة راسخة فيظنها
المشاهد طبيعية كما هو راي كثير من البلداء بالطبع في اللغات العربية فيقولون العرب
كانت تعرب بالطبع وتنطق بالطبع وهذا وهم ومنها الخط العبراني الذي هو كتابة بني

عابر بن شالخ من بني اسرائيل وغيرهم ومنها الخط اللطيني خط اللطينيين من الروم ولهم ايضا
لسان مختص بهم ولكل امة من الامم اصطلاح في الكتاب يعزى اليها ويختص بها مثل
الترك والفرنج والهنود وغيرهم وانما وقعت العناية بالاقلام الثلاثة الاول اما السرياني
فلقدمه كما ذكرنا واما العبراني فلتنزل القران والتورية بهما بلسانهما وكان هذان الخطان
بيانا لمتلوهما فوقعت العناية بمنظومهما اولا وانبسطت قوانين لاطراد العبارة
في تلك اللغة على اسلوبها لتفهم الشرائع التكليفية من ذلك الكلام الرباني واما اللطيني
فكان الروم وهم اهل ذلك اللسان لما اخذوا بدين النصرانية وهو كله من التورية كما سبق
في اول الكتاب ترجموا التورية وكتب الانبياء الاسرائيليين الى لغتهم ليقتنصوا منها الاحكام
على اسهل الطرق وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم آكد من سواها واما الخطوط الاخرى فلم تقع
بها عناية وانما هي لكل امة بحسب اصطلاحها ثم ان الناس حصروا مقاصد التاليف التي
ينبغي اعتمادها والغاء ما سواها فعدوها سبعة اولها استنباط العلم بموضوعه وتقسيم
ابوابه وفصوله وتتبع مسائله او استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق ويحرص
على ايصاله لغيره لتعم المنفعة به فيودع ذلك بالكتاب في المصحف لعل المتاخر يظهر على تلك
الفائدة كما وقع في اصول الفقه تكلم الشافعي رضي الله عنه اولا في الادلة الشرعية اللفظية ولخصها
ثم جاء الحنفية فاستنبطوا مسائل القياس واستوعبوها وانتفع بذلك من بعدهم الى الان
وثانيها ان يقف على كلام الاولين وتواليفهم فيجدها مستغلقة على الافهام ويفتح الله له
في فهمها فيحرص على ابانة ذلك لغيره ممن يستغلق عليه لتصل الفائدة لمستحقها وهذه
طريقة البيان لكتب المعقول والمنقول وهو فصل شريف وثالثها ان يعثر المتاخر
على غلط او خطاء في كلام المتقدمين ممن اشتهر فضله وبعد في الافادة صيته ويستوثق
في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه فيحرص على ايصال ذلك لمن بعده
اذ قد تعذر محوه ونزعه بانتشار التاليف في الآفاق والاعصار وشهرة المؤلف
ووثوق الناس بمعارفه فيودع ذلك الكتاب ليقف الناظر على بيان ذلك ورابعها
ان يكون الفن الواحد قد نقصت منه مسائل او فصول بحسب انقسام موضوعه
فيقصد المطلع على ذلك ان يتمم ما نقص من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله
ولا يبقى للنقص فيه مجال وخامسها ان تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في ابوابها
ولا منتظمة فيقصد المطلع على ذلك ان يرتبها ويهذبها ويجعل كل مسئلة في بابها كما وقع
في المدونة من رواية سحنون عن ابن القاسم وفي العتبية من رواية العتبي عن اصحاب
ملك فان مسائل كثيرة من ابواب الفقه منها قد وقعت في غير ابوابها فهذب ابن ابي زيد
المدونة وبقيت العتبية غير مهذبة فنجد في كل باب مسائل من غيره واستغنوا بالمدونة وما

وما فعله

وما فعله ابن ابي زيد فيها والبرادعي من بعده وسادسها ان تكون مسائل العلم مفرقة في ابوابها
من علوم اخرى فيتنبه بعض الفضلاء الى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله فيفعل ذلك
ويظهر به فن ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بافكارهم كما وقع في علم البيان فان عبد
القاهر الجرجاني وابو يوسف السكاكي وجدوا مسائله مستقرية في كتب النحو وقد جمع الجاحظ
منها في كتاب البيان والتبيين مسائل كثيرة تنبه الناس فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده
عن سائر العلوم فكتبوا في ذلك تواليفهم المشهورة وصارت اصولا لفن البيان ولقنها
المتاخرون فاربوا فيها على كل متقدم وسابعها ان يكون شيء من التاليف التي هي امهات للفنون
مطولا مسهبا فيقصد بالتاليف تلخيص ذلك بالاختصار والايجاز وحذف المتكرر
ان وقع مع الحذر من حذف الضروري لئلا يخل بمقصد المؤلف الاول فهذه جماع المقاصد
التي ينبغي اعتمادها بالتاليف ومراعاتها وما سوى ذلك ففعل غير محتاج اليه وخطاء
عن الجادة التي يتعين سلوكها في نظر العقلاء مثل انتحال ما تقدم لغيره من التواليف
ان ينسبه الى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الالفاظ وتقديم المتاخر وعكسه او يحذف ما يحتاج
اليه في الفن او ياتي بما لا يحتاج اليه او يبدل الصواب بالخطاء او ياتي بما لا فائدة فيه
فهذا شان الجهل والقحة ولهذا قال ارسطو لما عدد هذه المقاصد وانتهى الى آخرها فقال
وما سوى ذلك ففضل او شره يعني بذلك الجهل والقحة نعوذ بالله من العمل فيما لا ينبغي للعاقل
سلوكه والله يهدي للتي هي اقوم

فصل في ان كثرة التواليف في العلوم عائقة عن التحصيل

اعلم انه مما اضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التواليف
واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك
وح يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها او اكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره
بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل ويمثل ذلك
من شان الفقه بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب
ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل الذي كتب
عليها وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القيروانية
من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتاخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وح يسلم
له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها
وتمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية
فقط لكان الامر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا وماخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع
لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ويمثل ايضا
علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين

والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتاخرين مثل ابن الحاجب وابن مالك وجميع
ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقضي عمره دونه ولا يطمع احد في الغاية منه
الا في القليل النادر مثل ما وصل الينا بالمغرب لهذا العهد من تاليف رجل من اهل صناعة
العربية من اهل مصر يعرف بابن هشام ظهر من كلامه فيه انه استولى على غاية من ملكة تلك
الصناعة لم تحصل الا لسيبويه وابن جني واهل طبقتهما لعظيم ملكته وما احاط به من اصول
ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه فيه ودل ذلك على ان الفضل ليس منحصرا في المتقدمين
سيما مع ما قررناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتواليف ولكن
فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا نادر من نوادر الوجود والا فالظاهر ان المتعلم ولو قطع
عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة
فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء. **فصل في ان كثرة
الاختصارات الموضوعة في العلوم مخلة بالتعليم** ذهب كثير من المتاخرين الى اختصار
الطرق والانحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل
على حصر مسائله وادلتها باختصار في الالفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك
الفن فصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا على الفهم وعمدوا الى الكتب الامهات المطولة فاختصروها
تقريبا للحفظ كما فعله ابن الحاجب في الفقه واصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي
في المنطق وامثالهم وهو فساد من التعليم وفيه اخلال بالتحصيل وذلك لان فيه تخليطا
على المبتدي بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد وهو من سوء
التعليم كما سياتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير بتتبع الفاظ الاختصار العويصة للفهم
بتزاحم المعاني عليها واستخراج المسائل من بينها لان الفاظ المختصرات تجدها لذلك
صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة
من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة قاصرة عن الملكات
التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع من التكرار والاطالة المفيدين
لحصول الملكة التامة واذا اقتصر عن التكرار قصرت الملكة لقلته كشان هذه الموضوعات
المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل
الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. **فصل
في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته** اعلم ان تلقين المتعلمين للعلوم
انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقي عليه اولا مسائل من كل
من الفن هي اصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك
قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل

له

له ملكة في ذلك العلم الا انها قريبة وضعيفة وغايتها انها هياته لفهم الفن وتحصيل مسائله
ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى اعلى منها ويستوفي الشرح
والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى ان ينتهي الى آخر الفن
فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا منغلقا الا وضحه وفتح
له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رايت انما يحصل
في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في اقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا
كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي ادركنا يجهلون طرق هذا التعليم وافادته ويحضرون
المتعلم في اول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك
مرانا على التعليم وصوابا فيه ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله فيخلطون عليه بما يلقون عليه
من غايات الفنون في مبادئها وقبل ان يستعد لفهمها فان قبول العلم والاستعداد لفهمه
تنشا تدريجا ويكون المتعلم اول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب
والاجمال وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك
الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في
الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط بمسائل الفن ثم اذا القيت عليه الغايات في البداية وهو
ح عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم
في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وانما اتى ذلك من سوء التعليم
ولا ينبغي للمعلم ان يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي اكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله
للتعليم مبتديا كان او منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من اوله الى آخره ويحصل
اغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره لان المتعلم اذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد
بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض الى ما فوق حتى يستولي على غايات
العلم واذا خلط عليه الامر عجز عن الفهم وادركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر
العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك ان لا تطول على المتعلم في الفن الواحد والكتاب
الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها لانه ذريعة الى النسيان وانقطاع مسائل الفن
بعضها عن بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها واذا كانت اوائل العلم واواخره حاضرة عند
الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة ايسر حصولا واحكم ارتباطا واقرب صبغة لان الملكات
انما تحصل بتتابع الفعل وتكرره واذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه
والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم ان لا تخلط
على المتعلم علمان معا فانه حينئذ قل ان يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل
واحد منهما الى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة واذا تفرغ

الفكر لتعلم ما هو بسبيله مقتصراً عليه فربما كان ذلك أجدر بتحصيله والله الموفق للصواب

فصل واعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة في تعلمك إن تلقيتها بالقبول وأمسكتها
بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك في فهمها
وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبدعاته وهو
فعل وحركة في النفس بقوة في البطن الأوسط من الدماغ تارة يكون مبدأ للأفعال
الإنسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ العلم بما لا يكون حاصلاً بأن يتوجه
إلى المطلوب وقد تصور طرفيه ويروم نفيه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي يجمع بينهما
أسرع من لمح البصر إن كان واحداً وينتقل إلى تحصيل وسط آخر إن كان متعدداً ويصير
إلى الظفر بمطلوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تميز بها البشر من سائر الحيوان
ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه ليعلم سداده من خطائه
لأنها وإن كان الصواب لها ذاتياً إلا أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين
على غير صورتهما ومن اشتباه الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنتاج فيعين المنطق على
التخلص من ورطة هذا الفساد إن عرض فالمنطق إذن أمر صناعي مساوق للطبيعة الفكرية
ومنطبق على صورة فعلها ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر ولذلك تجد كثيراً من فحول
النظار في الخليقة يحصلون على المطالب في العلوم دون علم صناعة المنطق ولا سيما مع صدق
النية والتعرض لرحمة الله فإن ذلك أعظم معين ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها
فيفضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون
هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهي معرفة الألفاظ ودلالتها
على المعاني الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب أو مشافهة اللسان بالنطق
بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك فأولاً دلالة
الكتابة المرسومة على الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة ثم القوانين في ترتيب المعاني
للاستدلال في قوالبها المعروفة في صناعة المنطق ثم تلك المعاني مجردة في الفكر أشراكاً
يقتنص بها المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل واحد
يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع هذه الحجب في التعلم بسهولة بل ربما وقف الذهن
في حجب الألفاظ بالمناقشات أو عثر في أشراك الأدلة بشغب الجدال والشبهات فقعد
عن تحصيل المطلوب ولم يكد يتخلص من تلك الغمرة إلا قليلاً ممن هداه الله فإذا ابتليت بمثل
ذلك وعرض لك ارتباك في فهمك أو تشغيب بالشبهات في ذهنك فاطرح ذلك
وانتبذ حجب الألفاظ وعوائق الشبهات واترك الأمر الصناعي جملة واخلص إلى فضاء
الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه وفرغ ذهنك للغوص على مرامك

منه

منه واضعاً قدمك حيث وضعها أكابر النظار قبلك متعرضاً للفتح من الله كما فتح الله
عليهم من رحمته وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فإذا فعلت ذلك أشرقت عليك أنوار الفتح
من الله بالظفر بمطلوبك وحصل الإلهام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات
ذاتيات هذا الفكر وفطره عليه كما قلناه وحينئذ فارجع به إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغه
فيها ووفه حقه من القانون الصناعي ثم اكسه صور الألفاظ وأبرزه إلى عالم الخطاب
والمشافهة وثيق العرى صحيح البنيان وأما إن وقفت عند المناقشة في الألفاظ
والشبه في الأدلة الصناعية وتمحيص صوابها من خطائها وهذه أمور صناعية وضعية
تستوي جهاتها المتعددة وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها
إذ جهة الحق إنما تتميز إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب وتنسدل
الحجب على المطلوب وتقعد بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الأكثر من النظار المتأخرين
سيما من سبقت له عجمة في لسانه فربطت على ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي
وتعصب له فاعتقد أنه الذريعة بالطبع إلى درك الحق فيقع بالحيرة بين شبه الأدلة
وشكوكها ولا يكاد يخلص منها والذريعة إلى درك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعي كما قلناه
إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه لرحمة الله وأما المنطق فإنما هو واصف
لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الأكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله متى أعوزك
فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالإلهام إلى الصواب والله الهادي برحمته وما العلم
إلا من عند الله

فصل في أن العلوم الآلية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع

المسائل اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات
كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وكالطبيعيات والإلهيات
من الفلسفة وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب للشرعيات وكالمنطق
للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين فأما العلوم
التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة
والأنظار فإن ذلك يزيد طالبها تمكناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها المقصودة وأما العلوم
التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي
آلة لذلك الغير فقط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لأن ذلك يخرج بها عن المقصود
إذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار
الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون
ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع أن شأنها أهم
والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية

تضييعاً

للعمر وشغلا بما لا يعني وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق لا بل واصول
الفقه لانهم اوسعوا دايرة الكلام فيها نقلا واستدلالا واكثروا من التفاريع والمسايل
بما اخرجها عن كونها آلة وصيرها مقصودة بذاتها وربما يقع فيها لذلك انظار ومسايل
لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لاجل ذلك لغوا وتضر بالمتعلمين
على الاطلاق لان اهتمامهم بالعلوم المقصودة اكثر من هذه الآلات والوسايل فاذا قطعوا
العمر في هذه الوسايل فمتى يظفرون بالمقاصد فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم
الآلية ان لا يستبحروا فيها ولا يستكثروا من مسائلها وياخذون بالمتعلم في الغرض منها
ويقفوا عنها عنده ومن نزعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل ورأى من نفسه
قياما بذلك وكفاية به فليختر لنفسه وكل ميسر لما خلق له

فصل في تعليم الولدان واختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقه

اعلم ان تعليم الولدان للقرآن
شعار من شعائر الدين اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق فيه
الى القلوب من رسوخ الايمان وعقايده من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث
وصار القرآن اصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك
ان تعليم الصغر اشد رسوخا وهو اصل لما بعده لان السابق الاول الى القلوب كالاساس
للملكات وعلى حسب الاساس واساليبه يكون حال ما ينبني عليه واختلفت طرقهم في تعليم
القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فاما اهل
المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط واخذهم اثناء المدارسة
بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس
تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى ان يحذق فيه
او ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب اهل
الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر امم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوز حد البلوغ
الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك اقوم
على رسم القرآن وحفظه من سواهم واما اهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث
هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا انه لما كان القرآن اصل ذلك واسه ومنبع
الدين والعلوم جعلوه اصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون
في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل واخذهم بقوانين العربية وحفظها
وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذا بل عنايتهم فيه
بالخط اكثر من جميعها الى ان يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء
في العربية والشعر والبصر بها وبرز في الخط والكتاب وتعلق باذيال العلم على الجملة

لو كان فيها سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم
في آفاقهم ولا يحصل بايديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول فيه كفاية لمن ارشده الله
تعالى واستعداده اذا وجد المعلم واما اهل افريقية فيخلطون في تعليمهم القرآن بالحديث
في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا ان عنايتهم بالقرآن
واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته اكثر مما سواه وعنايتهم
بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقتهم في تعليم الولدان اقرب الى طريقة اهل الاندلس
لان سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى
على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعنهم اخذ ولدانهم بعد ذلك واما اهل المشرق فيخلطون
في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا ادري بم عنايتهم منها والذي ينقل لنا ان عنايتهم بدراسة
القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطونه بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون
ومعلمون له على انفراده كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان واذا كتبوا
لهم الالواح فبخط قاصر عن الاجادة ومن اراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة
في طلبه ويبتغيه من اهل صنعته فاما اهل افريقية والمغرب فافادهم الاقتصار على القرآن القصور
عن ملكة اللسان جملة وذلك ان القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما ان البشر مصروفون
عن الاتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على اساليبه والاحتذاء بها وليس
لهم ملكة في غير اساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات
وقلة التصرف في الكلام وربما كان اهل افريقية في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخلطون
في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة
المثل بالمثل الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان اكثر محفوظهم عبارات العلوم
النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله واما اهل الاندلس فافادهم التفنن في التعليم وكثرة
رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من اول العمر حصول ملكة صاروا بها اعرف في اللسان
العربي وقصروا في ساير العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو اصل
العلوم واساسها فكانوا لذلك اهل خط وادب بارع او مقصر على حسب ما يكون التعليم
الثاني من بعد تعليم الصبي ولقد ذهب القاضي ابو بكر ابن العربي في كتاب رحلته الى غريبة
في وجه التعليم واعاد في ذلك وابدا وقدم تعليم العربية والشعر على ساير العلوم كما هو
مذهب اهل الاندلس قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتقديم العربية
في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين
ثم ينتقل منه الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال ويا غفلة اهل
بلادنا في ان يؤخذ الصبي بكتاب الله في اول امره يقرأ ما لا يفهم وينصب في امر غيره

اهم عليه منه قال ثم ينظر في اصول الدين ثم اصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونهى
مع ذلك ان يخلط في التعليم علمان الا ان يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الذهن والنشاط
هذا ما اشار اليه القاضي ابو بكر رحمه الله وهو لعمري مذهب حسن الا ان العوايد لا تساعد عليه
وهي املك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوايد من تقديم دراسة القران ايثارا للتبرك
والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبى من الافات والقواطع عن العلم فيفوته القران
لانه ما دام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة
فالقته في ساحل البطالة فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القران لئلا يذهب خلوا
منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبول التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره
القاضي اولى ما اخذ به اهل المغرب والمشرق لكن الله يحكم لا معقب لحكمه **فصل في ان الشدة**
على المتعلمين مضرة بهم وذلك ان ارهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما مع اصاغر الولد
لانه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به
القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث
وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك
وصارت هذه له عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن
وهي الحمية والمدافعة عن نفسه او منزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب
الفضايل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فارتكس وعاد في اسفل سافلين
وهكذا وقع لكل امة حصلت في قبضة القهر ونال منها القهر والعسف واعتبره في كل من يملك
امره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به وتجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود
وما حصل فيهم بذلك من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل افق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح
المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه فلذلك ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده
ان لا يستبدوا عليهم في التاديب وقد قال محمد بن ابي زيد في كتابه الذي الفه في حكم المعلمين
والمتعلمين فقال لا ينبغي لمؤدب الصبيان ان يزيد في ضربهم اذا احتاجوا اليه على ثلاثة
اسواط شيئا ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا ادبه الله حرصا على صون النفوس
عن مذلة التاديب وعلما بان المقدار الذي عينه الله لذلك املك له فانه اعلم بمصلحته
ومن احسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده قال خلف الاحمر بعث الي الرشيد
لتاديب ولده محمد الامين فقال يا احمر ان امير المومنين قد دفع اليك مهجة نفسه
وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك امير
المومنين اقرئه القران وعرفه الاخبار وروه الاشعار وعلمه السنن وبصره
بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الا في اوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم

اذا دخلوا

اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا
وانت مغتنم فايدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته
فيستحلي الفراغ ويالفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباهما فعليك بالشدة
والغلظة **فصل في ان الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم**
والسبب في ذلك ان البشر ياخذون معارفهم واخلاقهم وما ينتحلونه من المذاهب والفضايل
تارة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا ان حصول الملكات عن المباشرة
والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة
ورسوخها والاصطلاحات ايضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير انها
جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك الا مباشرته لاختلاف الطرق من المتعلمين فلقاء اهل العلوم
وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم
انها انحاء تعليم وطرق توصيل وتنهض قواه الى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحح معارفه
ويميزها عن سواها مع تقوية ملكاته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم
وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب
الفوايد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء الى صراط
مستقيم **فصل في ان العلماء من بين البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها**
والسبب في ذلك انهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من
المحسوسات وتجريدها في الذهن امورا كلية عامة ليحكم عليها بامر على العموم لا بخصوص
مادة ولا شخص ولا جيل ولا امة ولا صنف من الناس ويطبقون من بعد ذلك الكلي
على الخارجيات وايضا يقيسون الامور على اشباهها وامثالها بما اعتادوه من القياس
الفقهي فلا تزال احكامهم وانظارهم كلها في الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ
من النظر والبحث او لا تصير بالجملة الى مطابقة وانما يتفرع ما في الخارج عنها في الذهن من تلك
بالاحكام الشرعية فانها فروع عما في المحفوظ من الكتاب والسنة فيطلب مطابقة
ما في الخارج لها عكس الانظار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها مطابقتها لما في الخارج
فهم متعودون في ساير انظارهم الامور الذهنية والانظار الفكرية لا يعرفون سواها
والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها فانها
خفية ولعل ان يكون فيها ما يمنع من الحاقها بشبه او مثال وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه
عليها ولا يقاس شيء من احوال العمران على الاخر اذ كما اشتبها في امر واحد فلعلهما اختلفا في امور
فيكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا
في السياسة افرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط

الكثير او للاوّمن عليهم ويلحق اهل الذكاء والكيس من اهل العمران لانهم ينزعون بثقوب
اذهانهم الى شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط
والعامي السليم الطبع المتوسط الكيس لقصور فهمه عن ذلك وعدم اعتباره اياه يقتصر
لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الاحوال والاشخاص على ما اختص به ولا يعدي الحكم
بقياس ولا تعميم ولا يفارق في اكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسابح
لا يفارق الموج عند البر قال ولا توغلن اذا ما سبحت فان السلامة في الساحل
فيكون مامونا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة ابناء جنسه فيحسن معاشه
وتندفع آفاته ومضاره باستقامة نظره وفوق كل ذي علم عليم ومن ههنا يعلم ان صناعة
المنطق غير مامونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس فانها نظر في
المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الاحكام وينافيها عند مراعات
التطبيق اليقيني واما النظر في المعقولات الاول وهي التي تجريدها قريب فليست كذلك
لانها خيالية وصور المحسوس حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه

فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم

من الغريب الواقع ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم
العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم
العربي في نسبه فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع ان الملة عربية وصاحب شريعتها عربي
والسبب في ذلك ان الملة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة
والبداوة وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله تعالى ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم
وعرفوا ماخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصحابه والقوم يومئذ
عرب لم يعرفوا امر التعليم والتاليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة
وجرى الامر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك
ونقله القراء اي الذين يقرؤن الكتاب وليسوا اميين لان الامية يومئذ صفة عامة
في الصحابة بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء اشارة الى هذا فهم قراء الكتاب
الله والسنة الماثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي
هو غالب موارده تفسير له وشرح قال صلى الله عليه وسلم تركت فيكم امرين لن تضلوا
ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج الى وضع
التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج الى معرفة الاسانيد وتعديل
الرواة للتمييز بين الصحيح من الاسناد وما دونه ثم كثر استخراج احكام الواقعات من الكتاب
والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت
العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم

اخرى وهي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس
والذب عن العقايد الايمانية بالادلة لكثرة البدع والالحاد فصارت هذه الامور
كلها علوما ذوات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنايع وقد كنا قدمنا
ان الصنايع من منتحل الحضر وان العرب ابعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك
حضرية وبعد العرب عنها وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم او من في معناهم من الموالي
واهل الحضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة واحوالها من الصنايع والحرف
لانهم اقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو
سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في انسابهم وانما ربوا في اللسان
العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم وكذلك
حملة الحديث الذين حفظوه على اهل الاسلام اكثرهم عجم او مستعجمون باللغة والمربى لاتساع
الفن بالعراق وكان علماء اصول الفقه كلهم عجما كما تعرف وكذا حملة علم الكلام وكذا اكثر
المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم
لو تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من فارس واما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة
وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا
اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا اهل الدولة وحاميتها
واولي سياستها مع ما يلحقهم من الانفة من انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنايع والرؤساء
ابدا يستنكفون عن الصنايع والمهن وما يجر اليها ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين
وما زالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار
حتى اذا خرج الامر من العرب جملة وصارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند اهل
الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها وامتهن حملتها بما يرون انهم بعداء عنهم مشتغلون
بما لا يجدي عليهم في الملك والسياسة كما ذكرناه في فصل المراتب الدينية فهذا الذي
قررناه هو السبب في ان كان حملة الشريعة او اكثرهم عجما واما العلوم العقلية ايضا
فلم تظهر في الملة الا بعد ان تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم
وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا المعربون من العجم شان الصنايع كما قلناه
اولا ولم يزل ذلك في الامصار الاسلامية ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق
وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الامصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله
في حصول العلم والصنايع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالامصار
الموفورة الحضارة ولا اوفر اليوم حضارة من مصر فهي ام العالم وايوان الاسلام وينبوع
العلم والصنايع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هناك بالدولة التي فيها فلهم

بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد وقفنا على ذلك كلام بعض علمائهم في تواليف وصلت الى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني واما غيره من العجم فلم نر لهم من بعد الامام ابن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في الاجادة فاعتبر ذلك وتأمله ترى عجائب في احوال الخليقة والله يخلق ما يشاء لا اله الا هو

فصل في ان العجمة اذا سبقت الى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن اهل اللسان العربي

والسر في ذلك ان مباحث العلوم كلها انما هي في المعاني الذهنية والخيالية من بين العلوم الشرعية التي اكثر مباحثها في الالفاظ وموادها من الاحكام المتلقاة من الكتاب والسنة ولغاتها المؤدية لها وهي كلها في الخيال وبين العلوم العقلية وهي في الذهن واللغات انما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني يؤديها بعض الى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم لتحصيل ملكاتها بطول المران على ذلك والالفاظ واللغات وسائط وحجب بين الروابط وختام على المعاني ولا بد في اقتناص تلك المعاني من الفاظها بمعرفة دلالاتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها والا فيعتاص عليه اقتناصها زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاعتياص واذا كانت ملكته في تلك الدلالات راسخة بحيث تتبادر المعاني الى ذهنه من تلك الالفاظ عند استعمالها شأن البديهي الجبلي زال ذلك بالجملة بين المعاني والفهم او خف ولم يبق الا معاناة ما في المعاني من المباحث فقط هذا كله اذا كان التعليم تلقينا وبالخطاب والعبارة واما ان احتاج المتعلم الى الدراسة والتقييد بالكتاب ومشافهة الرسوم الخطية من الدواوين بمسائل العلوم كان هنا حجاب اخر بين الخط ورسومه في الكتاب وبين الالفاظ المقولة في الخيال لان رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الالفاظ المقولة وما لم تعرف تلك الدلالة تعذرت معرفة العبارة وان عرفت بملكة قاصرة كانت معرفتها منها ايضا قاصرة ويزداد على الناظر والمتعلم بذلك حجاب اخر بينه وبين مطلوبه من تحصيل ملكات العلوم اعوص من الحجاب الاول واذا كانت ملكته في اللفظية والخطية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني وصار انما يعاني فهم مباحثها فقط هذا شان المعاني مع الالفاظ والخط بالنسبة الى كل لغة والمتعلمون لذلك في الصغر اشد استحكاما لملكاتهم ثم ان الملة الاسلامية لما اتسع ملكها واندرجت الامم في طيها ودرست علوم الاولين بنبوتها وكتابها وكانت امية النزعة والشعار فاخذ الملك والعزة وسخرية الامم لهم بالحضارة والتهذيب وصيروا علومهم الشرعية صناعة بعد ان كانت نقلا فحدثت فيها الملكات وكثرت الدواوين والتواليف وتشوفوا الى علوم الامم فنقلوها بالترجمة الى علومهم وافرغوها في قالب انظارهم وجردوها من تلك اللغات

الاعجمية الى لسانهم واربوا فيها على مداركهم وبقيت تلك الدفاتر التي بلغتهم الاعجمية نسيا منسيا وطللا مهجورا وهباء منثورا واصبحت العلوم كلها بلغة العرب ودواوينها المسطرة بخطهم واحتاج القائمون بالعلوم الى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الالسن لدروسها وذهاب العناية بها وقد تقدم لنا ان اللغة ملكة في اللسان وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد فاذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة صار مقصرا في اللغة العربية لما قدمناه من ان الملكة اذا تقدمت في صناعة بمحل فقل ان يجيد صاحبها صناعة اخرى وهو ظاهر واذا كان مقصرا في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر الا ان تكون ملكة العجمة السابقة لم تستحكم حين انتقل منها الى العربية كاصاغر ابناء العجم الذين يربون مع العرب قبل ان تستحكم عجمتهم فتكون اللغة العربية كانها السابقة لهم ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من اللغة العربية وكذا ايضا شأن من سبق له تعلم الخط الاعجمي قبل العربي ولهذا نجد الكثير من علماء الاعاجم في دروسهم ومجالس تعليمهم يعدلون عن نقل التفاسير من الكتب الى قراءتها ظاهرا يخففون بذلك عن انفسهم مؤنة بعض الحجب ليقرب عليهم تناول المعاني وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغن عن ذلك لتمام ملكته وانه صار له فهم الاقوال من الخط والمعاني من الاقوال كالجبلة الراسخة وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني وربما تكون تلك الدربة على التعلم والمران على اللغة وممارسة الخط يفضيان بصاحبها الى تمكن الملكة كما نجد الكثير من علماء الاعاجم الا انه في النادر واذا قرن بنظيره من علماء العرب واهل طبقته منهم كان باع العربي اطول وملكته اقوى لما عند المستعجم من الفتور بالعجمة السابقة التي تؤثر القصور بالضرورة ولا يعترض ذلك بما تقدم من ان علماء الاسلام اكثرهم العجم لان المراد بالعجم هنالك عجم النسب لتداول الحضارة فيهم التي قررنا انها سبب لانتحال الصنائع والملكات ومن جملتها العلوم واما عجمة اللغة فليست من ذلك وهي المرادة هنا ولا يعترض ايضا بما كان لليونانيين في علومهم من رسوخ القدم فانهم انما تعلموها من لغتهم السابقة لهم وخطهم المتعارف بينهم والاعجمي المتعلم للعلم في الملة الاسلامية ياخذ العلم بغير لسانه الذي سبق اليه ومن غير خطه الذي يعرف ملكته فلهذا يكون ذلك حجابا له كما قلناه وهذا عام في جميع اصناف اهل اللسان الاعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج وسائر من ليس من اهل اللسان العربي وفي ذلك آيات للمومنين

فصل في علوم اللسان العربي واركانه اربعة وهي اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفتها ضرورية على اهل الشريعة اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهما بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب

عرب وشرح مشكلاتها من لغتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن اراد
علم الشريعة وتتفاوت في التاكيد بتفاوت مراتبها في التوفية بمقصود الكلام حسبما
تتبين في الكلام عليها فنا فنا والذي يتحصل ان الاهم في ان المقصود منها المقدم هو
النحو اذ به يتبين اصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتداء والخبر
ولولاه لجهل اصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقديم لولا ان اكثر الاوضاع
باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الاعراب الدال على المسند والمسند اليه فانه تغير
بالجملة ولم يبق له اثر فلذلك كان علم النحو اهم من اللغة اذ به في جهله الاخلال بالتفاهم
جملة وليست كذلك اللغة والله اعلم **النحو** اعلم ان اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم
عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بافادة الكلام فلا بد ان تصير
ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل امة بحسب اصطلاحهم وكانت
الملكة الحاصلة من ذلك للعرب احسن الملكات واوضحها ابانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات
فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرورات اعني المضاف
ومثل الحروف التي تفضي بالافعال الى الحركات الى الذوات من غير تكلف الفاظ اخرى وليس
يوجد ذلك الا في لغة العرب واما غيرها من اللغات فكل معنى او حال لا بد له من الفاظ تخصه
بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم اطول مما نقدره بكلام العرب وهذا هو معنى
قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا فصار للحروف
في لغتهم والحركات والاوضاع اي الهيئات اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفين
فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها انما هي ملكة في السنتهم ياخذها الاخر من الاول
كما ياخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك
الذي كان في ايدي الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما القى اليها السمع
من المخالفات التي للمتعربين من العجم والسمع ابو الملكات اللسانية ففسدت بما القي
ما يغايرها لجنوحها اليه باعتياد السمع وخشي اهل الحلوم منهم ان تفسد تلك الملكة راسا
ويطول العهد بها فينغلق القران والحديث على الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم
قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر انواع الكلام
ويلحقون الاشباه منها بالاشباه مثل ان الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتداء
مرفوع ثم راوا تغير الدلالة بتغير هذه الحركات فاصطلحوا على تسميته اعرابا وتسمية الموجب
لذلك التغير عاملا وامثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتا
بالكتاب وجعلوها صناعة مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو واول من كتب فيها
ابو الاسود الدولي من بني كنانة ويقال باشارة علي رضي الله عنه لانه راى تغير الملكة فاشار

عليه بحفظها ففزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقراة ثم كتب فيها الناس من بعده
الى ان انتهت الى الخليل بن احمد الفراهيدي ايام الرشيد احوج ما كان الناس اليها لذهاب
تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل ابوابها واخذها عنه سيبويه فكمل تفاريعها
واستكثر من ادلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي كان اماما لكل ما كتب فيها
من بعده ثم وضع ابو علي الفارسي وابو القاسم الزجاجي كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون
فيها حذو الامام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين اهلها في الكوفة
والبصرة المصرين القديمين للعرب وكثرت الادلة والحجاج بينهم وتباينت الطرق
في التعليم وكثر الاختلاف في اعراب كثير من اي القران باختلافهم في تلك القواعد وطال
ذلك على المتعلمين وجاء المتاخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك
الطول مع استيفائهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل واقتصارهم على المبادي
للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة وربما نظموا ذلك نظما
كما فعله ابن مالك في الارجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الارجوزة الالفية
وبالجملة فالتاليف في هذا الفن اكثر من ان تحصى او يحاط بها وطرق التعليم فيها مختلفة فطريقة
المتقدمين مغايرة لطريقة المتاخرين والكوفيون والبصريون والبغداديون
والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه الصناعة ان تؤذن بالذهاب
لما راينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران ووصل الينا بالمغرب
لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى
فيه احكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل وحذف ما في الصناعة
من المتكرر في اكثر ابوابها وسماه بالمغني في الاعراب واشار الى نكت اعراب القران
كلها وضبطها بابواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم يشهد
بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها وكانه ينحو في طريقته منحاة اهل
الموصل فاقتفوا اثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فاتى من ذلك بشيء عجيب دال
دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء **علم اللغة** وهذا العلم
هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك انه لما فسدت ملكة اللسان العربي
في الحركات المسماة عند اهل النحو بالاعراب واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه
ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تادى الفساد الى موضوعات
الالفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين
في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب
والتدوين خشية الدروس وما ينشا عنه من الجهل بالقران والحديث فشمر كثير

من ائمة اللسان لذلك واملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك
الخليل بن احمد الفراهيدي الف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي
والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان العربي وتأتى له
ذلك بوجوه عددية حاصرة وذلك ان جملة الكلمات الثنائية تخرج من جمع الاعداد
على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لان الحرف
الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فيكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية
ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع
والعشرين مع الثامن والعشرين فيكون واحدا فيكون كلها اعدادا على توالي العدد
من واحد الى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند اهل الحساب وهو ان تجمع
الاول مع الاخير وتضرب المجموع في نصف العدة ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم
والتاخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج الثلاثيات
من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين على التوالي لان كل ثنائية
تزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف
الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين على توالي
العدد لان كل ثنائية تزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع
كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فتجمع من واحد الى ستة وعشرين
على توالي العدد وتضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جملة تقاليب
الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت
له التراكيب بهذا الوجه ورتب ابوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد
فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من حروف الحنك ثم الاضراس
ثم الشفة وجعل حروف العلة آخرا وهي الحروف الهوائية وبدأ من حروف الحلق
بالعين لان المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته
باول ما يقع من الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها والمستعمل وكان المهمل في الخماسي والرباعي
اكثر لقلة استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال
في الثلاثي اغلب فكانت اوضاعه اكثر لدورانه وضمن الخليل ذلك كله كتاب العين
واستوعبه احسن استيعاب واوفاه وجاء ابو بكر الزبيدي فكتب لهشام المؤيد بالاندلس
في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيرا
من شواهد المستعمل ولخصه للحفظ احسن تلخيص والف الجوهري من المشارقة كتاب
الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها بالهمزة وجعل الترجمة

بالحروف

بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس في الاكثر الى اواخر الكلم فيجعل ذلك بابا
ثم ياتي بالحروف اول الكلمة على ترتيب حروف المعجم ايضا ويترجم عليها بالفصول الى اخرها وحصر
اللغة اقتداء بحصر الخليل ثم الف فيها من الاندلسيين ابن سيده من اهل دانية في دولة علي بن
مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين
وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من احسن الدواوين ولخصه محمد بن ابي
الحسين المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح
في اعتبار اواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توامي رحم وسليلي ابوة ولكراع من ائمة اللغة
كتاب المنجد ولابن دريد كتاب الجمهرة ولابن الانباري كتاب الزاهر هذه اصول
كتب اللغة فيما علمناه وهنالك مختصرات مختصة بصنف من الكلمات ومستوعبة لبعض
الابواب او لكلها الا ان وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب
كما علمت ومن الكتب الموضوعة ايضا في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز وسماه اساس
البلاغة بين فيه كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات
وهو كتاب شريف كثير الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء لمعنى على العموم ثم تستعمل
في الامور الخاصة الفاظا اخرى خاصة بها فرق ذلك بين الوضع والاستعمال عندنا
واحتاج الى فقه في اللغة عزيز الماخذ كما وضع الابيض لكل ما فيه بياض ثم اختص الابيض
من الخيل بالاشهب ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاملح حتى صار استعمال الابيض
في هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب واختص بالتاليف في هذا المنحى الثعالبي وافرده
في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من اكد ما ياخذ به اللغوي نفسه ان يحرف استعمال العرب
عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاول بكاف في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب واكثر
ما يحتاج الى ذلك الاديب في فني نظمه ونثره حذرا ان يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية
في مفرداتها وتراكيبها وهو اشد من اللحن في الاعراب وافحش وكذا الف بعض المتاخرين
في الالفاظ المشتركة وتكلف لحصرها وان لم يبلغ الى النهاية في ذلك فهو مستوعب
للاكثر واما المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال
تسهيلا لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما
وبعضها اقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الاهم على الطالب للحفظ والله الخلاق
العليم **فصل** واعلم ان النقل الذي تثبت به اللغة انما هو النقل عن العرب انهم
استعملوا هذه الالفاظ لهذه المعاني لا بنقل انهم وضعوها لانه متعذر وبعيد
ولم يعرف لاحد منهم وكذلك لا تثبت اللغة بقياس ما لم يعرف استعماله على ما عرف
استعماله لجامع يشهد باعتباره في الاول كاثبات القياس الغضبية فيثبت الخمر للنبيذ باستعماله في ماء

العرب باعتبار الاستقراء الجامع لان شهادة الاعتبار في باب القياس انما مدركها
الشرع الدال على صحة القياس من اصله وليس لنا مثله في اللغة الا باعتبار العقل وهو تحكم وعلى هذا
جمهور اهل اللغة الائمة وان مال الى القياس فيها القاضي وابن سريج وغيرهم لكن القول
بنفيه ارجح ولا تتوهمن ان اثبات اللغة من باب الحدود اللفظية لان الحد راجع
الى المعاني ببيان ان مدلول اللفظ المجهول الخفي هو مدلول الواضح المشهور واللغة
اثبات ان لفظ كذا لمعنى كذا والفرق في غاية الظهور **علم البيان** هذا العلم حادث
في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق بالالفاظ وما تفيده
ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك لان الامور التي يقصد بها المتكلم افادة
السامع من كلامه هي اما تصور مفردات تسند ويسند اليها ويفضي بعضها الى بعض
والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال والحروف واما تمييز المسندات من المسند
اليها والازمنة ويدل عليها بتغير الحركات وهو الاعراب وابنية الكلمات وهذه كلها صناعة
النحو ويبقى من الامور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة احوال المتخاطبين والفاعلين
وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت للمتكلم
فقد بلغ غاية الافادة في كلامه واذا لم يشتمل منها على شيء فليس من جنس كلام العرب
فان كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة الا ترى ان قولهم
زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل ان المقدم منهما هو الاهم عند المتكلم فمن قال جاءني
زيد افاد ان اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني افاد ان اهتمامه
بالشخص قبل المجيء المسند وكذا التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة
وكذا تاكيد الاسناد في الجملة كقولهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متغايرة كلها في الدلالة
وان استوت في الاعراب فان الاول العاري عن التاكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني
المؤكد بان يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل
وكذا ثم تقول مكانه جاءني الرجل اذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وانه رجل لا يعاد
له احد من الرجال ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه او لا تطابقه
او لا وانشائية وهي التي لا خارج لها كالطلب وانواعه ثم قد يتعين ترك العاطف
بين الجملتين اذا كان للثانية محل من الاعراب فينزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتا
او توكيدا او بدلا فلا عطف او يتعين العطف اذا كان للثانية محل من الاعراب
ثم يقتضي المحل الاطناب والايجاز فيورد الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يريد
منطوقه ويريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيد اسد فلا تريد حقيقة
الاسد المنطوقة وانما تريد شجاعته اللازمة وتسندها الى زيد وتسمى

استعارة

استعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير رماد القدر وتريد
به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيوف لان كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالة عليهما
وهذه كلها دلالات زائدة على دلالة الالفاظ المفرد والمركب وانما هي هيئات واحوال
للواقعات جعلت للدلالة عليها احوال وهيئات في الالفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه
فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والاحوال
في المقامات وجعل على ثلاثة اصناف الصنف الاول يبحث فيه عن هذه الهيئات والاحوال
حتى يطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه
عن الدلالة عن لازم اللفظ او ملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان
والحقوا بهما صنفا اخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق اما بسجع
يفصله او تجنيس يشابه بين الفاظه او ترصيع يقطع اوزانه او تورية عن المعنى المقصود
بايهام معنى اخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما او طباق بالتقابل بين الاضداد وامثال
ذلك ويسمى عندهم علم البديع واطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان
وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين اول ما تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن
واحدة بعد اخرى وكتب فيها جعفر بن يحيى والجاحظ وقدامة وامثالهم املاءات غير
وافية بها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى ان محض السكاكي زبدته وهذب مسائله
ورتب ابوابه على نحو ما ذكرناه انفا من الترتيب والف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو
والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض اجزائه واخذه المتاخرون من كتابه ولخصوا
منه امهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب البيان وابن مالك
في كتاب المصباح وجلال الدين القزويني في كتاب الايضاح وفي كتاب التلخيص وهو
اصغر حجما من الايضاح والعناية لهذا العهد به عند اهل المشرق في الشرح والتعليم
منه اكثر من غيره وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن اقوم من المغاربة وسببه والله اعلم
انه كمالي في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد في وفور العمران والمشرق اوفر
عمرانا من المغرب كما ذكرناه او نقول لعناية العجم وهم معظم اهل المشرق بتفسير الزمخشري
وهو كله مبني على هذا الفن بل اصله وانما اختص باهل المغرب من اصنافه علم البديع خاصة
وجعلوه من جملة علوم الادب الشعرية وفرعوا له القابا وعددوا ابوابا ونوعوا انواعا
وزعموا انهم احصوها من لسان العرب وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وان علم
البديع سهل الماخذ وصعبت عليهم ماخذ البلاغة والبيان لدقة انظارهما وغموض معانيهما
فتجافوا عنهما وممن الف في البديع من اهل افريقية ابن رشيق وكتاب العمدة له مشهور
وجرى كثير من اهل افريقية والاندلس على منحاه واعلم ان ثمرة هذا الفن انما هي في فهم الاعجاز

من القرآن لان اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة ومفهومة
وهي اعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالالفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها
وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه وانما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق
بمخالطة اللسان وحصول ملكته فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه فلهذا كانت مدارك العرب
الذين سمعوه من مبلغه اعلى مقاما في ذلك لانهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم
موجود باوفر ما يكون واصحه واحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون واكثر تفاسير المتقدمين
غفل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن باحكام
هذا الفن بما يبدي البعض من اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا انه
يؤيد عقائد اهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ولاجل هذا اتحاماه
كثير من اهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة فمن احكم عقائد السنة وشارك
في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه او يعلم انها بدعة فيعرض
عنها ولا تضره في معتقده فانه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من غرايب
الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء الى سواء السبيل

علم الادب هذا العلم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه او نفيها وانما المقصود منه
عند اهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب
ومناحيهم فيجمعون لذلك من حفظ كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة
وسجع متساو في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة اثناء ذلك يستقري
منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض ايام من العرب يفهم به
ما يقع في اشعارهم منها وكذا ذكر المهم من الانساب الشهيرة والاخبار العامة
والمقصود بذلك كله ان لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب واساليبهم ومناحي
بلاغتهم اذا تصفحه لانه لا تحصل له الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج الى تقديم
جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا ارادوا حد هذا الفن قالوا الادب هو حفظ
اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان
او العلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك
من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتاخرون عند كلفهم بصناعة البديع
من التورية في اشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب
هذا الفن ح الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها وسمعنا من شيوخنا
في مجالس التعليم ان اصول هذا الفن واركانه اربعة دواوين وهي ادب الكاتب
لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب

النوادر

النوادر لابي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الاربعة ففروع لها وتبع عنها وكتب
المحدثين في ذلك كثيرة **وقد كان الغناء** في الصدر الاول من اجزاء هذا الفن
لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو تلحينه وقد كان الكتاب والفضلاء من الخواص
في الدولة ياخذون انفسهم به حرصا على تحصيل اساليب العرب وفنونهم فلم يكن انتحاله
قادحا في العدالة والمروة وقد كان سلف اهل الحجاز بالمدينة وغيرها ينتحلون ذلك
وهم الحجة على من سواهم وقد الف القاضي ابو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه في الاغاني
فيه اخبار العرب واشعار انسابهم وايامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت
التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك اتم استيعاب واوفاه
ولعمري انه ديوان العرب وجامع اشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون
الشعر والتاريخ والغناء وساير الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو
الغاية التي يسمو اليها الاديب ويقف عندها وانى له بها ونحن الان نرجع بالتحقيق
على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

فصل
في ان اللغة ملكة صناعية اعلم ان اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي
ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة او نقصانها
وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة
في تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التاليف الذي يطبق
الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم ح الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى
البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع اولا وتعود منه للذات
صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال انها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة
اي صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع
كلام اهل جيله واساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي
استعمال المفردات في معانيها فيلقنها اولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك
ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى ان يصير ذلك
ملكة وصفة راسخة ويكون كاحدهم هكذا تصيرت الالسن واللغات من جيل الى جيل
وتعلمها العجم والاطفال وهذا معنى ما تقوله العامة من ان اللغة للعرب بالطبع اي بالملكة
الاولى التي اخذت عنهم ولم ياخذوها من غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم
الاعاجم وسبب فسادها ان الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات
اخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب
من غيرهم ويسمع كيفيات العرب ايضا فاختلط عليه الامر واخذ من هذه وهذه فاستحدث

ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني اسد وبني تميم واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم وعلى نسبة بعدهم عن قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند اهل صناعة العربية والله اعلم

فصل في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير

وذلك انا نجدها في بيان المقاصد والوفا بالدلالة على سنن اللسان المضري ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتاخير وبقراين تدل على خصوصيات المقاصد الا ان البيان والبلاغة في اللسان المضري اكثر واعرف لان الالفاظ باعيانها دالة على المعاني باعيانها ويبقى ما تقتضيه الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وان تكتنفه احوال تخصه فيجب ان تعتبر تلك الاحوال في تادية المقصود لانها صفاته وتلك الاحوال في جميع الالسن اكثر ما يدل عليها باحوال كيفيات في تراكيب الالفاظ وتاليفها من تقديم او تاخير او حذف او حركة اعراب وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك اوجز واقل الفاظا وعبارة من جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه اوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة اني اجد في كلام العرب تكرارا في قولهم زيد قايم وان زيدا قايم وان زيدا لقايم والمعنى واحد فقال له ان معانيها مختلفة فالاول افادته لخالي الذهن عن قيام زيد والثاني لمن سمعه فانكره والثالث لمن عرف بالاصرار على انكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذاهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك الى خرفشة النحاة اهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت وان اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع اواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والقاها القصور في افيدتهم والا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم لهذا العهد واساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم الخطيب

المصقع

المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على اساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من احوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في اواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا وهو الاعراب وهو بعض من احكام اللسان وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت اولا فانقلب لغة اخرى وكان القران متنزلا به واللسان والحديث النبوي منقولا بلغته وهما اصل الدين والملة فخشي تناسيهما وانغلاق الافهام عنهما بفقدان اللسان الذي تنزلا به فاحتيج الى تدوين احكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علما ذا فصول وابواب ومقدمات ومسائل سماه اهله بعلم النحو وصناعة العربية واصبح فنا محفوظا وعلما مكتوبا وسلما الى فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية التي فسدت في دلالتها بامور اخرى وكيفيات موجودة فتكون لها قوانين تخصها او لعلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغات مضر فليست اللغات وملكاتها مجانا ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بهذه المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد بذلك الانقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الا ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة كما قلناه حمل على ذلك الاستقراء والاستنباط وليس عندنا نحن لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا اليه ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار شانهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند اهل الامصار كما هو مذكور في كتب العربية انه من اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى وما ينطقون بها ايضا من مخرج الكاف وان كان اسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الاعلى كما هي بل يجيئون بها متوسطة بين القاف والكاف وهذا موجود للجيل اجمع حيث كانوا من غرب او شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم والاجيال ومختصا بهم لا يشاركهم فيه غيرهم حتى ان من يريد التعرب والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم انه انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر من ذلك انها لغة مضر بعينها فان الجيل الباقين معظمهم ورياستهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة بن خصفة بن

هذا

قيس بن عيلان من سليم ابن منصور ومن بني عامر ابن صعصعة بن معوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد اكثر الامم في المعمور واغلبهم وهم من اعقاب مضر وسائر الجيل معهم من بني كهلان في النطق بهذه القاف اسوة وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك انها لغة مضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى فقهاء اهل البيت وزعموا ان من قرأ في ام القران الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وافسد صلوته ولم ادر من اين جاء هذا فان لغة اهل الامصار ايضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها ايضا من لدن سلفهم وكان اكثرهم من مضر بانزلوا الامصار من لدن الفتح واهل الجيل ايضا لم يستحدثوها الا انهم ابعد عن مخالطة الاعاجم من اهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق اهل الجيل كلهم شرقا وغربا في النطق بها انها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجين والحضري والظاهر ان هذه القاف التي ينطق بها اهل الجيل العربي البدوي هو من مخرج القاف عند اوليهم من اهل اللغة وان مخرج القاف متسع فاوله من اعلى الحنك واخره مما يلي الكاف فالنطق بها من اعلى الحنك هو لغة الامصار والنطق بها مما يلي الكاف هي لغة هذا الجيل البدوي وبهذا يندفع ما قاله اهل البيت من فساد الصلوة بتركها في ام القران فان فقهاء الامصار كلهم على خلاف ذلك وبعيد ان يكونوا اهملوا ذلك فوجهه ما قلناه نعم نقول ان الارجح والاولى ما ينطق به اهل الجيل البدوي لان تواترها فيهم كما قلناه شاهد بانها لغة الجيل الاول من سلفهم وانها لغة النبي صلى الله عليه وسلم ويرجح ذلك ايضا ادغامهم لها في الكاف لتقارب المخرجين ولو كانت كما ينطق بها اهل الامصار من اصل الحنك لما كانت قريبة المخرج من الكاف ولم تدغم ثم ان اهل العربية قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف وهي التي ينطق بها اهل الجيل البدوي من العرب لهذا العهد متوسطة بين مخرجي القاف والكاف على انها حرف مستقل وهو بعيد والظاهر انها من اخر مخرج القاف لاتساعه كما قلناه ثم انهم يصرحون باستهجانه واستقباحه كانهم لم يصح عندهم انها لغة الجيل الاول وفيما ذكرناه من اتصال نطقهم بها لانهم انما ورثوها من سلفهم جيلا بعد جيل وانها شعارهم الخاص بهم دليل على انها لغة ذلك الجيل الاول ولغة النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم ذلك كله وقد يزعم زاعم ان هذه القاف التي ينطق بها اهل الامصار ليست من هذا الحرف وانها انما جاءت من مخالطتهم للعجم وانهم ينطقون بها كذلك فليست من لغة العرب لكن الاقيس ما قدمناه من انها حرف واحد متسع المخرج فتفهم ذلك والله الهادي المبين

فصل في ان لغة الحضر والامصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر

اعلم ان عرف التخاطب في الامصار وبين

الحضر

الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة اهل الجيل بل هي لغة اخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر ابعد فاما انها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي يعد عند اهل صناعة النحو لحنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة اهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة اهل المغرب وكذا اهل الاندلس معهما وكل منهم متوصل بلغته الى تادية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما انها ابعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجيل فلان البعد عن اللسان انما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم اكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلي ابعد لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب والملكة الثانية التي كانت للعجم فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى واعتبر ذلك في امصار افريقية والمغرب والاندلس والمشرق اما افريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة اخرى ممتزجة والعجمة فيها اغلب لما ذكرناه فهي عن اللسان الاول ابعد وكذا المشرق لما غلب العرب على اممه من فارس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الاكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات واظآرا ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة اخرى وكذا اهل الاندلس مع عجم الجلالقة والافرنجة وصار اهل الامصار كلهم من هذه الاقاليم اهل لغة اخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مضر ويخالف ايضا بعضها بعضا كما نذكره وكانها لغة اخرى لاستحكام ملكتها في اجيالهم والله يخلق ما يشاء

فصل في تعليم اللسان المضري

اعلم ان ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة اهل الجيل كلهم مغايرة للغة مضر التي نزل بها القران وانما هي لغة اخرى من امتزاج العجمة بها كما قدمناه لان اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها ممكنا شان الملكات ووجه التعلم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها ان ياخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على اساليبهم من القران والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في اسجاعهم واشعارهم وكلمات المولدين ايضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشا بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم وتاليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من اساليبهم وترتيب الفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال وتزداد بقوتهما رسوخا وقوة ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن

المنازع العرب واساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الاحوال والذوق يشهد لذلك وهو ينشا من هذه الملكة والطبع السليم فيهما كما نذكر بعد وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المولف نظما ونثرا ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا يكون تعلمها والله يهدي من يشاء

فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها

والسبب في ذلك ان صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لا نفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا مثل ان يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض انواعها الخياطة هي ان تدخل الخيط في خرت الابرة ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين وتخرجها من الجانب الاخر بمقدار كذا ثم تردها الى حيث ابتدات وتخرجها قدام منفذها الاول بمطرح ما بين الثقبين الاولين ثم تتمادى على وصفه الى اخر العمل ويعطي صورة الحبك والتنبيت والتفتيح وسائر انواع الخياطة واعمالها وهو اذا طولب ان يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا وكذا اذا سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب فيقول هو ان تضع المنشار على راس الخشبة وتمسك بطرفه الاخر ويعاقبانه بينكما واطرافه المضرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية الى ان تنتهي الى اسفل الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل او شيء منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذي مودته او شكوى ظلامة او قصد من قصوده اخطا فيها عن الصواب واكثر من اللحن ولم يجد تاليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على اساليب اللسان العربي وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية فمن هنا تعلم ان تلك الملكة هي غير صناعة العربية وانها مستغنية عنها بالجملة وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل من اتفاقي واكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل ملا كتابه من امثال العرب وشواهد اشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظه في اماكنه ومفاصل حاجاته وتنبه به لشان الملكة فاستوفى تعليمها فكان ابلغ في الافادة ومن هولاء المخالطين لكتاب سيبويه من يغفل عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة واما المخالطون لكتب

المتاخرين

المتاخرين العارية من ذلك الا من القوانين النحوية مجردة عن اشعار العرب وكلامهم فقل ما يشعرون لذلك بامر هذه الملكة او ينتبهون لشانها فتجدهم يحسبون انهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم ابعد الناس عنه واهل صناعة العربية بالاندلس ومعلموها اقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وامثالهم والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدي كثير من الملكة اثناء التعليم فتنطبع النفس بها وتستعد الى تحصيلها وقبولها واما من سواهم من اهل المغرب وافريقية وغيرهم فاجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب الا ان اعربوا شاهدا او رجحوا مذهبا من جهة الاقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه فاصبحت صناعة العربية عندهم كانها من جملة قوانين المنطق العقلية عندهم والجدل وبعدت عن مناحي اللسان وملكته وافاد ذلك حملتها في هذه الافاق وامصارها البعد عن الملكة بالكلية وكانهم لا ينظرون في كلام العرب وما ذلك الا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز اساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو احسن ما تفيده الملكة في اللسان وتلك القوانين انما هي وسائل للتعليم لكنهم اجروها على غير ما قصد بها واصاروها علما بحتا وبعدوا عن ثمرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب ان حصول ملكة اللسان العربي انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك منزلة من نشا معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم والله مقدر الامور

فصل في تفسير لفظة الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناها وبيان انها لا تحصل غالبا للمستعربين من العجم

اعلم ان لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان وقد مر تفسير البلاغة وانها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتركيب في افادة ذلك فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا اتصلت مقاماته لذلك بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه وسهل عليه امر التركيب حتى لا يكاد يخطئ فيه عن منحى البلاغة التي للعرب وان سمع تركيبا غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بادنى فكر بل وبغير فكر الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كانها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شان الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعرابا وبلاغة امر طبيعي ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت

فظهر في بادي الرأي انها جبلة وطبع وهذه الملكة انما تحصل بممارسة كلام العرب
وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية
في ذلك التي استنبطها اهل صناعة البيان فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك
اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها وقد مر ذلك واذا تقرر ذلك فملكة
البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب
في لغتهم ونظم كلامهم ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب
المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لانه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته
الراسخة عنده واذا عرض عليه الكلام حائدا عن اسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم
اعرض عنه ومجه وعلم انه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك
كما يصنع اهل القوانين البيانية والنحوية فان ذلك استدلالي بما حصل من القوانين
المفادة بالاستقراء وهذا امر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم
ومثاله لو فرضنا ان صبيا من صبيانهم نشأ وربي في جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن
الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو
بحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ
كلامهم واشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث تحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ
في جيلهم وربي بين اجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا واستعير لهذه الملكة عندما تحصل
وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه اهل البيان والذوق انما هو موضوع لادراك الطعوم
لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لادراك الطعوم
استعير لها اسمه وايضا فهو وجداني للسان كما ان الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق
واذا تبين لك ذلك علمت منه ان الاعاجم الداخلين في اللسان العربي الطارئين عليه
المضطرين الى النطق به لمخالطة اهله كالفرس والروم والترك بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه
لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة التي قررنا امرها لان قصاراهم بعد
طائفة من العمر وسبق ملكة اخرى الى لسانهم وهي لغاتهم ان يعتنوا بما يتداوله اهل المصر بينهم
في المحاورة من مفرد ومركب لما يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل
الامصار وبعدوا عنها كما تقدم وانما لهم في ذلك ملكة اخرى وليست هي ملكة اللسان
المطلوبة ومن عرف احكام تلك الملكة من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة
في شيء انما حصل احكامها كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرار
لكلام العرب فان عرض لك ما تسمعه من ان سيبويه والفارسي والزمخشري وامثالهم
من فرسان الكلام كانوا اعجاما مع حصول الملكة لهم فاعلم ان اولئك القوم الذين

تسمع

تسمع عنهم انما كانوا عجما في نسبهم فقط واما المربى والنشأة فكانت بين اهل هذه الملكة
من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها وكانهم في اول نشأتهم
بمنزلة الاصاغر من العرب الذين نشأوا في اجيالهم حتى ادركوا كنه اللغة وصاروا
من اهلها فهم وان كانوا عجما في النسب فليسوا باعجام في اللغة والكلام لانهم ادركوا الملة
في عنفوانها واللغة في شبابها ولم تذهب آثار الملكة منها ولا من اهل الامصار ثم
عكفوا على المدارسة والممارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته والواحد اليوم من العجم
اذا خالط اهل اللسان العربي بالامصار فاول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان
العربي ممتحية الآثار ويجد ملكتهم الخاصة بهم ملكة اخرى مخالفة لملكة اللسان العربي ثم اذا فرضنا
انه اقبل على الممارسة لكلام العرب واشعارهم بالمدارسة والحفظ يستفيد تحصيلها فقل ان
يحصل له لما قدمناه من ان الملكة اذا سبقتها ملكة اخرى في المحل فلا تحصل الا ناقصة مخدوشة
وان فرضنا ان عجميا في النسب سلم من مخالطة اللسان الاعجمي بالكلية وذهب الى تعلم هذه
الملكة بالحفظ والمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر لطة
وربما يدعي كثير ممن ينظر في هذه القوانين البيانية حصول هذا الذوق له بها وهو غالط او مغالط
وانما حصلت له الملكة ان حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة العبارة في شيء
والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

فصل في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها عليه اصعب

والسبب في ذلك ما يسبق الى المتعلم
من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما سبق اليه من اللسان الحضري الذي افادته
العجمة حتى نزل بها اللسان عن ملكته الاولى الى ملكة اخرى هي لغة الحضر لهذا العهد
ولهذا نجد المعلمين يذهبون الى المسابقة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة ان هذه
المسابقة بصناعتهم وليس كذلك وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب
نعم صناعة النحو اقرب الى مخالطة ذلك وما كان من لغات اهل الامصار اعرق في العجمة
وابعد عن لسان مضر قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها لتمكن المنافاة
ح واعتبر ذلك في اهل الاقطار فاهل افريقية والمغرب لما كانوا اعرق في العجمة وابعد
عن اللسان الاول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ولقد نقل ابن الرقيق
ان بعض كتاب القيروان كتب الى صاحب له يا اخي ومن لا عدمت فقده اعلمني ابو سعيد كلاما
انك كنت ذكرت له انك تكون مع الذين تاتي وعاقنا اليوم فلم يتهيا لنا الخروج واما اهل
المنزل الكلاب من امر الشين فقد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا وكتابي اليك
وانا مشتاق اليك وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضري وشبيه ما ذكرناه وكذلك

اشعارهم كانت بعيدة من الملكة نازلة عن الطبقة ولم تزل كذلك ولهذا العهد وما كانوا
بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف واكثر ما يكون فيها الشعراء
طارئين عليها ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الان مائلة الى القصور واهل الاندلس
اقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتها وامتلائهم من المحفوظات اللغوية
نظما ونثرا وكان فيهم ابن حيان المورخ امام اهل الصناعة في هذه الملكة لهم ورافع
الراية لهم فيها وابن عبد ربه والقسطلي وامثالهم من شعراء ملوك الطوائف
لما زخرت فيها بحار اللسان والادب وتداول ذلك فيهم مئين من السنين حتى
الانفضاض والجلاء ايام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك وتناقص لذلك
شان الصنائع كلها فقصرت الملكة فيهم عن شانها حتى بلغت الحضيض وكان من اخرهم
صالح بن شريف ومالك بن المرحل تلميذ الطبقة الاولى الاشبيليين بسبتة وكانت
دولة بني الاحمر فرادا لها والقت الاندلس افلاذ كبدها من اهل تلك الملكة بالجلاء الى العدوة
من اشبيلية الى سبتة ومن شرق الاندلس الى افريقية ثم لم يلبثوا ان انقرضوا وانقطع
سند تعليمهم في هذه الصناعة لعسر قبول اهل العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج
السنتهم ورسوخهم في العجمة البربرية وهي منافية لما قلناه ثم عادت الملكة بعد ذلك
الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشرين وابن جابر وابن الجياب وطبقتهم ثم ابراهيم الساحلي
الطويجن وطبقتهم وقفاهم ابن الخطيب الهالك لهذا العهد شهيدا بسعاية اعدائه وكان
له في اللسان ملكة لا تدرك واتبع اثره تلميذه من بعده وبالجملة فان هذه الملكة بالاندلس
اكثر وتعليمها اسهل وايسر بما هم عليه لهذا العهد كما قدمناه من معاناة علوم اللسان
ومحافظتهم عليها وعلى علوم الادب وسند تعليمها ولان اهل اللسان الذي يفقد
ملكتهم انما هم طارئون عليهم وليست عجمتهم اصلا للغة اهل الاندلس والبربر في هذه العدوة
هم اهلها ولسانهم لسانها الا في الامصار فقط وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم
البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف اهل الاندلس وعلى ما المشرق
لعهد الاموية والعباسية فكان شانه شان الاندلس في تمام هذه الملكة واجادتها لبعدهم
لذلك العهد عن الاعاجم ومخالطتهم الا في القليل فكان امر هذه الملكة لذلك العهد
اقوم وكان فحول الشعراء والكتاب لعهدهم اوفر لتوفر العرب وابنائهم بالمشرق
وانظر ما اشتمل عليه كتاب الاغاني من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب هو كتاب
العرب وديوانهم فيه لغتهم واخبارهم وايامهم وملتهم العربية وسيرتهم واثار خلفائهم
وملوكهم واشعارهم وغناؤهم وسائر احوالهم فلا كتاب اوعب منه لاحوال العرب
وبقي امر هذه الملكة مستحكما بالمشرق في الدولتين وربما كانت فيهم ابلغ ممن سواهم ممن كان

في الجاهلية كما نذكره حتى تلاشى امر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى امرهم
ودولهم وصار الامر للاعاجم والملك في ايديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم
والسلجوقية وخالطوا اهل الامصار وكثروهم وامتلات الارض بلغاتهم واستولت
العجمة على اهل الامصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملكته وصار متعلموا
منهم مقصرا عن تحصيلها وعلى ذلك تجد لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور وان كانوا
مكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار

فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر

اعلم ان لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون
المقفى ومعناه الذي تكون اوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو
الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام فاما الشعر
فمنه المدح والهجاء والرثاء واما النثر فمنه المسجع وهو الذي يؤتى به قطعا قطعا
ويلتزم فيه او في كل كلمتين منه قافية واحدة تسمى سجعا ومنه المرسل وهو الذي
يطلق فيه الكلام اطلاقا ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالا من غير تقييد بقافية
ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم واما القران وان كان
من المنثور الا انه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسلا مطلقا ولا مسجعا بل هو مفصل
بل هو مفصل ايات تنتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام
في الاية الاخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية وهو معنى قوله تعالى
الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم
وقال قد فصلنا الايات ويسمى اخر الايات فيه فواصل اذ ليست اسجاعا ولا التزم
فيها ما يلتزم في السجع ولا هي ايضا قواف واطلق اسم المثاني على ايات القران كلها
على العموم لما ذكرناه واختص بام القران للغلبة فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع
المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق
برجحان ما قلناه واعلم ان لكل واحد من هذه الفنون الشعرية اساليب تختص به عند
اهله ولا تصلح للفن الاخر ولا تستعمل فيه مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص
بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وامثال ذلك وقد استعمل المتاخرون اساليب
الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين
يدي الاغراض وصار هذا المنثور اذا تاملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن
واستمر المتاخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية
وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه
وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية

لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه وهو غير صواب لما اشرنا اليه من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتاخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تباح اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو لذلك كله ضرورة في الخطاب والتزام التقفية ايضا من اللوذعية والتزيين وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك ويباينه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسيل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب وايجاز وحذف واثبات او تصريح او اشارة او كناية واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده في البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ويغفلون عما وراء ذلك واكثر من اخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر انحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان معها فيرجحون ذلك الجنس من التصنيف ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس فتامل ذلك وانتقد بما قدمناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق

فصل في انه لا معول للاجادة في فني المنظوم معا الا للاقل والسبب في ذلك انه كما بيناه ملكة في اللسان فاذا سبقت الى محله ملكة اخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة لان قبول الملكات وحصولها للطباع التي على الفطرة الاولى اسهل وايسر واذا تقدمتها ملكات اخرى كانت منازعة لها في المادة القابلة وعائقة عن سرعة القبول فوقعت المنافاة وتعذر التمام في الملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهنا عليه في موضعه بنحو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شيء من العجمة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي ابدا فالاعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي

ولا يزال

ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي قل ان تجد احدا منهم محكما لملكة اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى السنتهم من ملكة اللسان الاخر حتى ان طالب العلم من اهل هذه الالسن اذا طلبه بين اهل اللسان العربي ومن كتبهم جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما اتى الا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل ان الالسن واللغات شبيهة بالصنائع وتقدم لك ان الصنائع وملكاتها لا تزدحم وان من سبقت اجادته لملكة فقل ان يجيد اخرى ويستولي فيها على الغاية والله خلقكم وما تعملون

فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات الا انا انما نتكلم الان في الشعر الذي للعرب فان امكن ان يجد اهل الالسن الاخرى من مقصودهم من كلامهم والا فلكل لسان احكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام يفصل قطعا قطعا متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه رويا وقافية ويسمى جملة الكلام الى اخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه في افادته وتراكيبه حتى كانه كلام وحده مستقل عما قبله وبعده واذا افرد كان تاما في بابه في مدح او نسيب او رثاء فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل به في افادته ثم يستانف في البيت الاخر كلاما اخر كذلك ويستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بان يوطئ المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من النسيب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب او الخيل او الطيف ومن وصف الممدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء الى التابين وامثال ذلك ويراعي فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذرا من ان يتساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يخفى ذلك من اجل المقاربة على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط واحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هذا الفن وانما هي اوزان مخصوصة تسميها اهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر بحرا بمعنى انهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظما **واعلم** ان فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطائهم واصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شان ملكاتهم كلها والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والارتياض في الكلام حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب الماخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتاخرين لاستقلال كل بيت منه بانه كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون ما سواه فيحتاج من اجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرغ الكلام

الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنحى من شعر العرب ويبرزه مستقلا بنفسه
ثم يأتي ببيت آخر كذلك ثم ببيت آخر ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده
ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في
القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكا للقرائح في استجادة أساليبه وشحذ
الأفكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكفي فيه ملكة الكلام على الإطلاق بل يحتاج بخصوصه
إلى تلطف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها فيه
ولنذكر هنا مدلول لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم
فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الذي ترص
فيه ولا ترجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ولا باعتبار
إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار
الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة
خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار
انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب
وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار
الإعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب والنساج في المنوال
حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة
باعتبار ملكة اللسان العربي فيه فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه
على أنحاء مختلفة فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول كقوله يا دار مية
بالعلياء فالسند ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله قفا نسأل
الدار التي خف أهلها أو باستبكاء الصحب على الطلل كقوله قفا نبك من ذكرى حبيب
ومنزل أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله ألم تسأل فتخبرك الرسوم
ومثل تحية الطلول بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله حي الديار بجانب الغزل
أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله أسقى طلولهم أجش هزيم وغدت عليهم روضة ونعيم
أو بسؤال السقيا لها من البرق كقوله يا برق طالع منزلا بالأبرق واحد السحاب
له حداء الأينق ومثل التفجع في الرثاء باستدعاء البكاء كقوله كذا فليجل الخطب
وليفدح الأمر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر أو باستعظام الحادث كقوله أرأيت
من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي أو بالتسجيل على الأكوان
بالمصيبة لفقده كقوله منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع
أو بالإنكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية أيا شجر الخابور ما لك مورقا

كأنك

كأنك لم تجزع على ابن طريف أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله ألق الرماح
ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار وأمثال ذلك كثير في سائر فنون
الكلام ومذاهبه وتنتظم التراكيب فيه بالجمل وغير الجمل إنشائية وخبرية اسمية أو فعلية
متفقة وغير متفقة مفصولة وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل
كلمة من الأخرى يعرفك به ما تستفيده بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي
المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فإن مؤلف الكلام
هو كالبناء أو كالنساج والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال
الذي ينسج عليه فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقولن
إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك لأنا نقول قوانين البلاغة إنما هي قواعد علمية
قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئاتها الخاصة بالقياس وهو قياس علمي صحيح مطرد كما هو
قياس القوانين الإعرابية وهذه الأساليب التي نقررها نحن ليست من القياس في شيء إنما هي
هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها
فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام
بإطلاق وإن القوانين العلمية من الإعراب والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وليس كل ما يصح في
قياس كلام العرب وقوانينه العلمية استعملوه وإنما المستعمل عندهم من ذلك أنحاء معروفة
يطلع عليها الحافظ لكلامهم وتندرج صورها تحت تلك القوانين القياسية فإذا نظرت
في شعر العرب على هذا النحو وبهذه الأساليب الذهنية التي تصير كالقوالب كان نظرا في المستعمل
من تراكيبهم لا فيما يقتضيه القياس ولهذا قلنا إن المحصل لهذه القوالب في الذهن إنما هو
حفظ أشعار العرب وكلامهم وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المنثور فإن العرب
استعملوا كلامهم في الفنين وجاؤوا به مفصلا في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي
المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالبا
وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وقوالب كل واحد منهما معروفة في لسان العرب
والمستعمل منها عندهم هو الذي يبني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم
حتى يتجرد له في ذهنه من القوالب المعينة الشخصية قالب كلي مطلق يحذو حذوه في التأليف كما يحذو
البناء على القالب والنساج على المنوال فلهذا كان فن تأليف الكلام منفردا عن نظر النحوي
والبياني والعروضي نعم إن مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه لا يتم بدونها فإذا تحصلت
هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظر لطيف في هذه القوالب التي يسمونها
أساليب ولا يفيده إلا حفظ كلام العرب نظما ونثرا وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو
فلنذكر بعده حدا أو رسما للشعر يفهمنا حقيقته على صعوبة هذا الغرض فإنا لم نقف عليه

لأحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول العروضيين في حده انه الكلام الموزون المقفى ليس
ليس بحد لهذا الشعر الذي نحن بصدده ولا رسم له وصناعتهم انما تنظر في الشعر من حيث اتفاق
ابياته وعدد المتحركات والسواكن على التوالي ومماثلة عروض الشعر لضربها وذلك نظر
في وزن مجرد عن الالفاظ ودلالتها فناسب ان يكون حدا عندهم ونحن ننظر في الشعر
باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصة فلا جرم ان حدهم ذلك
لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ
المبني على الاستعارة والاوصاف المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء
منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة به فقولنا الكلام
البليغ كالجنس وقولنا المبني على الاستعارة والاوصاف فصل له عما يخلو من هذه فانه في الغالب
ليس بشعر وقولنا المفصل باجزاء متفقة الوزن والروي فصل له عن الكلام المنثور الذي
ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة
لان الشعر لا تكون ابياته الا كذلك ولم يفصل به شيء وقولنا الجاري على الاساليب المخصوصة
به فصل له عما لم يجر منه على اساليب الشعر المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم
لان الشعر له اساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا المنثور اساليب تخصه لا تكون للشعر فما كان
من الكلام منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يسمى شعرا وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه
من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لانهما
لم يجريا على اساليب العرب وقولنا في الحد الجاري على اساليب العرب فصل له عن شعر غير العرب
من الامم عند من يرى ان الشعر يوجد للعرب ولغيرهم ومن يرى انه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج
الى ذلك ويقول مكانه الجاري على الاساليب المخصوصة به واذ فرغنا من الكلام
على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام في كيفية عمله فنقول اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته
شروطا اولها الحفظ من جنسه اي من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها
ويتخير المحفوظ من الحر النقي الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار اقل ما يكفي فيه شعر شاعر
من الفحول الاسلاميين مثل ابن ابي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وابي نواس وحبيب
والبحتري والرضي وابي فراس واكثره شعر كتاب الاغاني لانه جمع شعر اهل الطبقة الاسلامية
كله والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء ولا يعطيه الرونق
والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه او عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط واجتناب
الشعر اولى بمن لم يكن له محفوظ ثم بعد الامتلاء من المحفوظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال
يقبل على النظم وبالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك
المحفوظ لتمحي رسومه الحرفية الظاهرة اذ هي صادرة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها

وقد

وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كانه منوال يأخذ بالنسج عليه بامثالها
من كلمات اخرى ضرورة ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار
وكذلك من المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور ثم مع هذا
كله فشرطه ان يكون على جمام ونشاط فذلك اجمع له وانشط للقريحة ان تأتي بمثل ذلك
المنوال الذي في حفظه قالوا وخير الاوقات لذلك اوقات البكر عند الهبوب من النوم
وفراغ المعدة ونشاط الفكر وهواء الحمام وربما قالوا ان من بواعثه العشق
والانتشاء ذكر ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة
واعطى حقها ولم يكتب احد فيها قبله ولا بعده قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله
فليتركه الى وقت اخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بناء البيت على القافية من اول صوغه
ونسجه يضعها ويبني عليها الكلام الى اخره لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه
وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقة واذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده فليتركه
الى موضعه اللائق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم يبق الا المناسبة فليتخير فيها كما يشاء
وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يضن به على الترك اذا لم يبلغ الاجادة
فان الانسان مفتون بشعره اذ هو بنات فكره واختراع قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام
الا الافصح من التراكيب والخالص من الضرورات اللسانية اذ هو قصور في الملكة اللسانية
فليهجرها فانها تنزل الكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر ائمة اللسان على المولد ارتكاب الضرورة
اذ هو في سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة المثلى من الملكة ويجتنب ايضا المعقد من التراكيب
جهده وانما يقصد منها ما كانت معانيه تسابق الفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت
الواحد فان فيه نوع تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت الفاظه طبقا على معانيه
او اوفى منها فان كانت معانيه كثيرة كان حشوا واشتغل الذهن بالغوص عليها فمنع
الذوق عن استيفاء مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه
تسابق الفاظه الى الذهن ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر ابن خفاجة شاعر
شرق الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعر المتنبي
والمعري بعدم النسج على الاساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاما منظوما نازلا عن طبقة
الشعر والحاكم في ذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر ايضا الحوشي من الالفاظ والمقعر
وكذلك السوقي المبتذل بالتداول في الاستعمال فانه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة
وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فان الكلام ينزل بها عن البلاغة ايضا فيصير مبتذلا ويقرب
من عدم الافادة كقولهم النار حارة والسماء فوقنا وبمقدار ما يقرب من طبقة عدم
الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما طرفان ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات

قبيل الاجادة في الغالب ولا يجيد فيها الا الفحول من الفحول على العسر لان معانيها متداولة بين الجمهور فهي مبتذلة لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذه كلها فليراوضه ويعاوده فان القريحة مثل الضرع يدر بالامتراء ويجف ويغرز بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن اراد استيفاء ذلك فعليه بالكتاب المذكور ففيه البغية وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في امر هذه الصناعة الشعرية وما يجب فيها ومن احسن ما قيل في ذلك واظنه لابن رشيق

لعن الله صنعة الشعر ماذا … من صنوف الجهال فيها لقينا

يؤثرون الغريب منه على ما … كان سهلا للسامعين مبينا

ويرون المحال معنى صحيحا … وخسيس الكلام شيئا ثمينا

يجهلون الصواب منه ولا يدرون … للجهل انهم يجهلونا

فهم عند من سوانا يلامون … وفي الحق عندنا يعذرونا

انما الشعر ما تناسب في النظم … وان كان في الصفات فنونا

فاتى بعضه يشاكل بعضا … واقامت له الصدور المتونا

كل معنى اتاك منه على ما … تتمنى لو لم يكن ان يكونا

فتناهى من البيان الى ان كاد … حسنا يبين للناظرينا

فكان الالفاظ منه وجوه … والمعاني ركبن فيه عيونا

فايا في المرام حسب الاماني … يتحلى بحسنه المنشدونا

فاذا ما مدحت بالشعر حرا … رمت فيه مذاهب المشتهينا

فجعلت النسيب سهلا قريبا … وجعلت المديح صدقا مبينا

وتنكبت ما تهجن في السمع … وان كان لفظه موزونا

واذا ما قرضته بهجاء … عبت فيه مذاهب المرفثينا

فجعلت التصريح منه دواء … وجعلت التعريض داء دفينا

واذا ما بكيت فيه على الغادين … يوما للبين والظاعنينا

جعلت دون الاسى ذلك ما كان … من الدمع في العيون مصونا

ثم ان كنت عاتبا شبت بالوعد … وعيدا وبالصعوبة لينا

فتركت الذي عتبت عليه … حذرا امنا عزيزا مهينا

واصح القريض ما فات في النظم … وان كان واضحا مستبينا

فاذا قيل اطمع الناس طرا … واذا ريم اعجز المعجزينا

ومن ذلك قول العضهم وهو الناشي

الشعر ما قومت زيغ صدوره … وشددت بالتهذيب اس متونه

ورابت بالاطناب شعب صدوعه … وفتحت بالايجاز عور عيونه

وجمعت بين قريبه وبعيده … ووصلت بين مجمه ومعينه

وعمدت منه لكل امر يقتضي … شبها به فقرنته بقرينه

واذا مدحت به جوادا ماجدا … وقضيته في الشكر حق ديونه

اصفيته بنفيسه ورصينه … وخصصته بخطيره وثمينه

فيكون جزلا في مساق صنوفه … ويكون سهلا في اتفاق فنونه

واذا بكيت به الديار واهلها … اجريت للمحزون ماء شؤونه

واذا اردت كناية عن ريبة … باينت بين ظهوره وبطونه

فجعلت سامعه يشوب شكوكه … بثباته وظنونه بيقينه

واذا عتبت على اخ في زلة … ادمجت شدته له في لينه

فتركته مستانسا بدماثة … مستاما من حزونه وسهوله

واذا نبذت الى التي علقتها … اذ صار منك بغايبات شؤونه

تيمتها بلطيفه ورقيقه … وشغفتها بخفيه وكمينه

واذا اعتذرت لسقطة اسقطتها … واشكت بين مخيله ومبينه

فيحول ذنبك عند من يعتده … عتبا عليه مطالبا بيمينه

فصل في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني

اعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي اصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ امثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من العجمة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشا في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبي حتى يصير كانه واحد منهم في لسانهم وذلك انا قدمنا ان اللسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل شان الملكات والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ واما المعاني فهي في الضمائر وايضا فالمعاني موجودة عند كل احد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى تكلف صناعة في تاليفها وتاليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها انية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه وتختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تاليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتاليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض فلا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ

قد قدمنا انه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ فمن كان محفوظه من اشعار العرب الاسلاميين اكثر او شعر حبيب والعتابي وابن المعتز وابن هانئ والشريف الرضي ورسائل ابن المقفع وسهل بن هارون وابن الزيات والبديع والصابي تكون ملكته اجود واعلى مقاما ورتبة في البلاغة ممن يحفظ اشعار المتاخرين مثل شعر ابن سهل وابن النبيه او ترسيل البيساني او العماد الاصفهاني لنزول طبقة هؤلاء عن اولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى مقدار جودة المسموع او المحفوظ تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من بعدهما فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتنمو قوى الملكة بتغذيتها وذلك

ان النفس ان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف
في الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان
التي تكيفها من خارج فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات
التي تحصل لها انما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشا بحفظ الشعر وملكة
الكتابة بحفظ الاسجاع والترسيل والعلمية بمخالطة العلوم والادراكات والابحاث
والانظار والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الاصول على الفروع
والتصوفية الربانية بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد
عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه وينقلب ربانيا
وكذا سائرها وللنفس من كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب ما نشات الملكة عليه
من جودة او رداءة تكون تلك الملكة في نفسها فملكة البلاغة العالية الطبقة
في جنسها انما تحصل بحفظ العالي من طبقة ولهذا كان الفقهاء واهل العلم كلهم قاصرين
في البلاغة وما ذاك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلئ به من القوانين العلمية والعبارات
الفقهية الخارجة عن اسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات عن القوانين
والعلوم لا حظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثر وتلونت به النفس
جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن اساليب العرب
في كلامهم وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن يمتلئ من حفظ
النقي الحر من كلام العرب اخبرني صاحبنا الفاضل ابو القاسم ابن رضوان كاتب العلامة
بالدولة المرينية قال ذاكرت يوما صاحبنا ابا العباس بن شعيب كاتب السلطان
ابي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فانشدته مطلع قصيدة ابن النحوي
ولم انسبها له وهو لم ادر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين جديدها والبالي
فقال على البديهة هذا شعر فقيه فقلت له ومن اين لك ذلك فقال من قوله ما الفرق
اذ هي من عبارات الفقهاء وليست من اساليب كلام العرب فقلت له لله ابوك انه
ابن النحوي واما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخيرهم في محفوظهم ومخالطتهم كلام
العرب واساليبهم في الترسيل وانتقائهم له الجيد من الكلام ذاكرت يوما الوزير ابا عبد
الله ابن الخطيب وزير الملوك بالاندلس وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة فقلت
له اجد استصعابا علي في نظم الشعر متى رمته مع بصري به وحفظي للجيد من الكلام من القران
والحديث وفنون من كلام العرب وان كان محفوظي قليلا وانما اتيت والله اعلم من قبل
ما حصل في محفوظي من الاشعار العلمية والقوانين التاليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي
الكبرى والصغرى في القراءات والرسم واستظهرتهما وتدارست كتابي ابن الحاجب في الفقه

والاصول وجمل الخونجي في المنطق وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس فامتلا محفوظي
من ذلك وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القران والحديث وكلام
العرب فعاق القريحة عن بلوغها فنظر الي ساعة متعجبا ثم قال لله انت وهل يقول هذا الا مثلك
ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر اخر وهو اعطاء السبب في ان كلام الاسلاميين
من العرب اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فانا نجد
شعر حسان بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان
ذي الرمة والاحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدر من الدولة
العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك ارفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر
النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة ابن العبد ومن كلام الجاهلية
في منثورهم ومحاوراتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك للناقد البصير
بالبلاغة والسبب في ذلك ان هولاء الذين ادركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية
من الكلام في القران والحديث الذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما ولجت قلوبهم ونشات
على اساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات
من قبلهم من اهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشا عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم
احسن ديباجة واصفى رونقا من اولئك وارصف مبنى واعدل تثقيفا بما استفادوه
من الكلام العالي الطبقة وتامل ذلك يشهد لك به ذوقك ان كنت من اهل الذوق
والبصر بالبلاغة ولقد سالت يوما شيخنا الشريف ابا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا وكان
شيخ هذه الصناعة اخذ بسبتة عن مشيختها من تلميذ الشلوبين واستبحر في علم اللسان
وجاء من وراء الغاية فيه فسالته يوما ما بال العرب الاسلاميين اعلى طبقة من الجاهليين
ولم يكن ليستنكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما ادري فقلت اعرض
عليك شيئا ظهر لي في ذلك ولعله السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت
معجبا ثم قال لي يا فقيه هذا كلام من حقه ان يكتب بالذهب وكان من بعدها يؤثر محلي ويصيخ
في مجالس التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعلمه
البيان

فصل في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع وكيف جودة المصنوع او قصوره

اعلم ان الكلام الذي هو العبارة والخطاب انما سره
وروحه في افادة المعنى واما اذا كان مهملا فهو كالموات الذي لا عبرة به وكمال الافادة
هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند اهل البيان لانهم يقولون هي مطابقة الكلام
لمقتضى الحال ومعرفة الشروط والاحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى
الحال هو فن البلاغة وتلك الشروط والاحكام للتراكيب في المطابقة استقريت

من لغة العرب وصارت كالقوانين فالتراكيب بوضعها تفيد الاسناد بين المسندين
بشروط واحكام هي جل قوانين العربية واحوال هذه التراكيب من تقديم وتاخير وتعريف
وتنكير واضمار واظهار وتقييد واطلاق وغيرها يفيد الاحوال المكتنفة من خارج بالاسناد
وبالمتخاطبين حال التخاطب بشروط واحكام هي قوانين لفن يسمونه علم المعاني من فنون
البلاغة فتندرج قوانين العربية لذلك في قوانين علم المعاني لان افادتها الاسناد جزء
من افادتها للاحوال المكتنفة للاسناد وما قصر من هذه التراكيب عن افادة مقتضى الحال لخلل
في قوانين الاعراب او قوانين المعاني كان قاصرا عن المطابقة لمقتضى الحال ولحق بالمهمل الذي
هو في عداد الموات ثم يتبع هذه الافادة المطابقة لمقتضى الحال التفنن في انتقال الذهن
بين المعاني باصناف الدلالات لان التركيب يدل بالوضع على معنى ثم ينتقل الذهن
الى لازمه او ملزومه او شبهه فيكون فيها مجازا اما باستعارة او كناية كما هو مقرر في مواضعه
ويحصل للفكر بذلك الانتقال لذة كما تحصل من الافادة واشد لان في جميعها ظفرا بالمدلول
من دليله والظفر من اسباب اللذة كما علمت ثم لهذه الانتقالات ايضا شروط واحكام
كالقوانين صيروها صناعة وسموها بالبيان وهي شقيقة علم المعاني المفيد لمقتضى الحال
لانها راجعة الى معاني التراكيب ومدلولاتها وقوانين علم المعاني راجعة الى احوال التراكيب
انفسها من حيث الدلالة واللفظ والمعنى متلازمان متضايفان كما علمت فاذا علم المعاني
وعلم البيان هما جزء البلاغة وبهما كمال الافادة والمطابقة لمقتضى الحال فما قصر من هذه
التراكيب عن المطابقة وكمال الافادة فهو مقصر عن البلاغة ويلتحق عند البلغاء باصوات
الحيوانات العجم واجدر به ان لا يكون عربيا لان العربي هو الذي يطابق بافادته مقتضى
الحال فالبلاغة على هذا هي اصل الكلام العربي وسجيته وروحه وطبيعته ثم اعلم انهم اذا قالوا
المطبوع فانهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته من افادة مدلوله المقصود
منه لانه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط بل المتكلم يقصد به ان يفيد سامعه
ما في ضميره افادة تامة ويدل عليه دلالة وثيقة ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجية
التي له بالاصالة ضروب من التحسين والتزيين بعد كمال الافادة وكانها تعطيها رونق
الفصاحة من تنميق الاسجاع والموازنة بين جمل الكلام وتقسيمه بالاقسام المختلفة
الاحكام والتورية باللفظ المشترك عن الخفي من معانيه والمطابقة بين المتضادات ليقع
التجانس بين الالفاظ والمعاني فيحصل للكلام رونق ولذة في الاسماع وحلاوة وجمال
كلها زائدة على الافادة وهذه الصنعة موجودة في الكلام المعجز في مواضع متعددة مثل والليل
اذا يغشى والنهار اذا تجلى ومثل فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى الى اخر التقسيم في الاية
وكذا فاما من طغى وآثر الحيوة الدنيا الى اخر الاية وكذا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا

وامثاله

وامثاله كثير وذلك بعد كمال الافادة في اصل هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها
وكذا وقع في كلام الجاهلية منه لكن عفوا من غير قصد ولا تعمد ويقال انه وقع في شعر زهير
واما الاسلاميون فوقع لهم عفوا وقصدا واتوا منه بالعجائب واول من احكم
طريقته حبيب بن اوس والبحتري ومسلم بن الوليد فقد كانوا مولعين بالصنعة وياتون
منها بالعجب وقيل ان اول من ذهب الى معاناتها بشار بن برد وابن هرمة وكانا اخر
من يستشهد بشعره في اللسان العربي ثم اتبعهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري
ومسلم بن الوليد وابو نواس وجاء على اثارهم حبيب والبحتري ثم ظهر ابن المعتز فختم على البديع
والصناعة اجمع **ولنذكر** مثالا من المطبوع الخالي من الصنعة لتفقهه مثل قول قيس بن ذريح

واخرج من بين البيوت لعلني احدث عنك النفس في السر خاليا

وقول كثير

واني وتهيامي بعزة بعدما تخليت عما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

فتامل هذا المطبوع الفقيد الصنعة في احكام تاليفه وثقافة تراكيبه فلو جاءت فيه الصنعة
من بعد هذا الاصل زادته حسنا **واما المصنوع** فكثير من لدن بشار ثم حبيب وطبقتهما ثم
ابن المعتز خاتم الصنعة الذين جرى المتاخرون بعدهم في ميدانهم ونسجوا على منوالهم وقد تعددت
اصناف هذه الصنعة عند اهلها واختلفت اصطلاحاتهم في القابها وكثير منهم يجعلها مندرجة
في البلاغة على انها غير داخلة في الافادة وانها هي تعطي التحسين والرونق والمتقدمون
من اهل البديع فهي عندهم خارجة عن البلاغة وهي ولذلك يذكرونها في الفنون الادبية
التي لا موضوع لها وهو راي ابن رشيق في كتاب العمدة له وادباء الاندلس وذكروا
في استعمال هذه الصنعة شروطا منها ان تقع من غير تكلف ولا اكتراث فيما يقصد منها
واما العفو فلا كلام فيه لانها اذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان
لان تكلفها ومعاناتها يصير الى الغفلة عن التراكيب الاصلية للكلام فتخل بالافادة من اصلها
وتذهب بالبلاغة راسا ولا يبقى في الكلام الا تلك التحسينات وهذا هو الغالب اليوم
على اهل العصر واصحاب الاذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون ويعدون
ذلك من القصور عن سواه وسمعت شيخنا الاستاذ ابا البركات البلفيقي وكان من اهل
البصر باللسان والقريحة في ذوقه يقول ان من اشهى ما تقترحه على نفسي ان اشاهد بعض
الايام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه او نثره وقد عوقب باشد العقوبة ونودي عليه
يحذر بذلك تلميذه ان يتعاطوا هذه الصنعة فيكلفون بها ويتناسون البلاغة ثم
من شروط استعمالها عندهم الاقلال منها وان تكون في بيتين او ثلاثة من القصيد فتكفي
في زينة الشعر ورونقه والاكثار منها عيب قاله ابن رشيق وغيره وكان شيخنا ابو
القاسم الشريف السبتي منفق اللسان العربي لوقته يقول هذه الفنون البديعية اذا

وقعت

للشاعر والكاتب فيقبح ان يستكثر منها لانها من محسنات الكلام ومن زيناته فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين منها ويقبح بتعددها وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنثور في الجاهلية والاسلام كان اولا مرسلا معتبرا الموازنة بين جمله وتراكيبه شاهدة موازنته بفواصله من غير التزام سجع ولا التفات بصنعة حتى نبغ ابراهيم بن هلال الصابي كاتب بني بويه فتعاطى الصنعة والتقفية واتى من ذلك بالعجب وعاب الناس عليه كلفه بذلك في المخاطبات السلطانية وانما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة الخلافة المنفقة لسوق البلاغة ثم انتشرت الصناعة بعده في منثور المتاخرين ونسي عهد الترسيل وتشابهت السلطانيات بالاخوانيات والعربيات بالسوقيات واختلط المرعي بالهمل وهذا كله يدلك على ان الكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف قاصر عن الكلام المطبوع لقلة الاكتراث فيه باصل البلاغة والحاكم في ذلك الذوق والله خلقكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

فصل في ترفع اهل المراتب عن انتحال الشعر

اعلم ان الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم واخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب متنافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشان واهل البصر لتمييز حوكه حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق اشعارهم باركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابيهم ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر الكندي والنابغة الذبياني وزهير بن ابي سلمى وعنترة ابن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع فانه انما كان يتوصل الى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما ادهشهم من اسلوب القران ونظمه فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك واونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره بل سمعه النبي صلى الله عليه وسلم واثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه وكان لعمر بن ابي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجبا به ثم جاء من بعد ذلك الملك الفحل والدولة العزيزة فتقرب اليهم العرب باشعارهم يمدحونهم بها ويجيزهم الخلفاء باعظم الجوائز على نسبة الجودة في اشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء اشعارهم يطلعون منها على الاثار والاخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون ولدهم بحفظها ولم يزل الشان هذا ايام بني امية وصدرا من دولة بني العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في مسامرة الرشيد للاصمعي في باب الشعر والشعراء تجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتحاله والبصر بجيد الكلام ورديه وكثرة محفوظه منه ثم جاء خلف من بعدهم لم يكن اللسان

لسانهم

لسانهم من اجل العجمة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا باشعارهم امراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هانئ ومن بعدهم الى هلم جرا فصار غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين كما ذكرناه وانف منه لذلك اهل الهمم والمراتب من المتاخرين وتغير الحال فيه واصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

فصل في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد

اعلم ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق اوميروس الشاعر واثنى عليه وكان في حمير ايضا شعراء متقدمون ولما فسدت لسان مضر ولغتهم التي دونت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعدهم بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة فكانت لجيل العرب بانفسهم لغة خالفت لغة سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات وكذلك الحضر اهل الامصار نشات فيهم لغة اخرى خالفت لسان مضر في الاعراب واكثر الاوضاع والتصاريف وخالفت ايضا لغة الجيل من العرب لهذا العهد واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات اهل الافاق فلاهل المشرق وامصاره لغة غير لغة اهل المغرب وامصاره وتخالفهما ايضا لغة اهل الاندلس وامصاره ثم لما كان الشعر بالطبع موجودا في اهل لسان لان الموازنة على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي لغة مضر الذين كانوا فحوله وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين اهل الخليقة بل كل جيل واهل كل لغة من العرب المستعجمين يحاولون كلامهم فاما العرب اهل هذا الجيل المستعجمين عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض على ما كانت عليه لسلفهم المستعربين وياتون منها بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم واكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم من بعد ذلك ينسبون فاهل المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات نسبة الى الاصمعي راوية العرب في اشعارهم واهل المشرق يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوي والحوراني والقيسي وربما يلحنون فيه الحانا بسيطة لا على طريق الصنعة الموسيقارية ثم يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة الى حوران من اطراف الشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم الى هذا العهد ولهم فن اخر كثير التداول في نظمهم يجيئون به مغصنا على اربعة اجزاء يخالف اخرها الثلاثة الاول في رويه ويلتزمون

القافية الرابعة في كل بيت الى اخر القصيدة شبيها بالمربع والمخمس الذي احدثه المولدون
من المتاخرين ولهولاء العرب في هذا الشعر بلاغة فايقة وفيهم الفحول المتاخرون عن ذلك
والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علوم اللسان يستنكرون هذه الفنون التي
لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا انشد ويعتقد ان ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان
الاعراب منها وهذا انما اتى من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد
له ذوقه وطبعه ببلاغتها ان كان سليما من الافات في فطرته ونظره والا فالاعراب
لامدخل له في البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود
فيه سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول او بالعكس وانما يدل
على ذلك قراين الكلام كما هو في لغتهم هذه فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه اهل الملكة فاذا عرف
اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى
الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك واساليب الشعر وفنونه موجودة
في اشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في اخر الكلمات فان غالب كلماتهم موقوفة
الاخر ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدا من الخبر بقراين الكلام لا بحركات الاعراب
فمن اشعارهم على لسان الشريف بن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان ويذكر ظعنها مع قومها
الى المغرب للشريف بن هاشم على الى طراكبد شكت من زفيرها تقد للاعلام ابن مارات
مارات خاطر يرد علام البدو يلوي عصيرها وماذا شكات الروح مما طرالها غدات
وزايغ تلف الله خبيرها تحسن قطاعا مازي صميرها بشر طنوا هندا وصافي ذكيرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل على شوكت الطلح عنفوا اسيرها تجابد وهاذا البين جر الفرع
بينهم على شوكو لغد والبقا يا جريرها وجات دموعي وارفات لكنها بيدين ذوات
السواني يديرها تدارك منها الجم حدرا وزادها مزون تجي من الكباء صبيرها تصب
من القيعان من جانب الصفا عيون فادتجاز البرق في غزيرها هذا الغني منى تا بيب
غزوة ناصت من بغدادي حتى فقيرها وناوى المنادي بالرحيل وشوروا وعرج عاريها
على مستعيرها وشد لها الان يا ذياب بن غانم على ايدين ماضي من مغرب بنيرها وقال
لهم حسن بن سرحان غربوا وسوقوا النجوع ان كان انا هو غفيرها ويركض وبنده بينها
يا التايج ويا اليمن لا تجوا في مغيرها غدرني زيان السميح ابن عابس وما كان يرضى
زين حمير وميرها غدرني وهو زعما صديقي وصاحبي وانا ليه مامن درقبي ماندبرها
ورجع يقول لهم ملاد بن هاشم بحجر البلاد المعطا بخيرها واما علياباب بغداد
وارضها واخرم لاعاد وركيزي نغيرها تصدق روحي عن ملاد بن هاشم على الشمس
اونزل القضا من يحيرها وباتت نيران العذارى قوادح يلوذ بحر جانه شدة

وانيرها ومن قولهم في رثاء امير زناتة ابي سعدى اليفرني مقارعهم بافريقية وارض الزاب
ورثاهم له على طريقة التهكم تقول الفتاة الحد سعدى وما ضها لهاء الظعون الباكرين
عويل يا سايلني عن قبر الزناتي خليفة خذا النعت مني لاتكون هبيل اراه بعالي وادران
وفوقه من الريط عيلوي بناه طويل اراه يميل العود من شارع النقا به الواد شرقا
والبراع دليل يا لهف كبداه الزناتي خليفة وقد كان لاعقاب الجياد سليل
قتيل فتى الهيجاء ذياب بن غانم جراحا كافواه المزاد تسيل يا جاز يا مات الزناتي خليفة
لا ترحل الا ان تريد رحيل الا وايش رحلنا ثلثين حرة وعشرا وستا في النهار قليل
ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى المغرب وغلبهم زناتة عليه واي جميل ضاع لي في ابن هاشم
واي رجال ضاع قبلي جميلها لقد كنت انا وايك في زهو بيننا عنا في نجه ما غبابي دليلها
وعدت لكي شاربا من مدامة من الخمر فهو ما قدر من يميلها او مثل شمطامات
مضنون كبدها غريبا وهي مدوحا عن قبيلها اتاها زمان السو حتى تدوحت وهي
بين عربا غافلا عن نزيلها كذلك انا مما وجالي من الوجا شكى بكبدا باديا من عليلها
وامرت قومي بالرحيل من بكرا وقوا وشدا دالجوا يا حميلها فقعدنا سبعة ايام محبوس نجعنا
والبدو ما ترفع عمود ابقي لها تظل على اجداب البنايا نوازي تظل الحجا فوق النضا وتشيلها
ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الذواودة احدى بطون رياح علج وناقع
بها كل مرضع بلسياف تتناش العدا من رقابها فان كانت الاملاك نعت عرايس
علينا باطراف القنا اختطابها ولا نقدها الا رهاف وذبل وزرق كالسنة الحناش
المنايا انيابها بني عمنا ما ترتضي الذل عزمة تسير المطايا والمطايا ركابها وهي على الماء نانه
تنغلها بلا شك والدنيا سريع انقلابها ومنها في وصف الظعائن بظعن
قطوع البيد لاتخشى العدا فتون لجوبات مخوف جنابها ترى العين بها قبل
لشبن عرايف وكل مهاة مختطفها ربابها ترى هدبها غطا الصباح ان يقلها بكر
خلوب الجوف يا شحذ نابها لها كل يوم في الاراما قتائل من الغانج الممزوج عنبر ضبابها
ومن قولهم شين بكرانت بالكعوب الي ترجم الشيب وشبان الى اولا وترجم
جميع البرايا تشتكي من ضادها ومن قولهم في الامثال الحكمية وطلبك في الممنوع منك
سفاهة وصدك عمن صد عنك صواب الا ريت ناسا يغلقوا عنك
بابهم ظهور المطايا يفتح الله باب ومن قول خالد يعاتب اخوانه في امولاة شيخ الموحدين
ابي محمد بن تافراكين المستبد بتونس على سلطانها مكفوله ابي اسحق بن السلطان ابي يحيى
وذلك فيما قرب من عصرنا يقول بلا جهل فتح الجود خالد مقالة قوال وقال صواب
مقالة حبر ذات ذهن ولم يكن هرجا ولا فيها يقول ذياب تهجست معني قافها لا الحاجه

ولا بهرجا ينقاد منه معاب وكنت بها كندى وهى نعم صاحبة خزينة فكر والحزين
يصاب تفوهت بادى شرحها عن مارب جرب من رجال في القبيل فراب بنى كعب
ادنى الاقربين لدمنا بنى عم منهم شايب وشباب جرى عند فتح الوطن منا لبعضهم
مصافاة ودوانسياغ جناب وبعضهم ملنا له عن خصيمه كما يعلموا اقولى بقينه
صاب وبعضهم موهوب من بعض ملكنا جاءهم نا وخذا لتطهير كتاب وبعضهم
جانا حين تسمحت خواطر منا للجزيل وهاب وبعضهم بطار فينا بسوء تفهناه
حتى ما عنانه صاب رجع ينتهى تمانفهنا قبيحه وارادوفى بعض المرار يهاب
وبعضهم سالمنا سن وعاو قنا ودر على عنه في احكام السقايف باب فصمناه عنه
واقتضا منه مورد علا كره معلى لها التقى ورباب ونحن على فرانى هدى نطلب
العلى لهم ما حطهنا للفخور نقاب ومن ناحيتنا وطن تر شيش بعد ما اتفقنا عليها سبقا
ورقاب ومهد من الاملاك ما كان خارج عن احكام والى امر باله ناب برد وروم
من قوم قبيلنا بنى كعب لا واها العزيم وطاب جزينا بهم عن كل نا ليف في العدى
وقمنا بهم عن كل قيد متاب الى عاد من لا كان فيهم بهم رفنها وخيرا توا عليه حطاب
وركبوا السبايا المثمنات من اهلها ولبسوا من انواع الحرير ثياب وساقوا المطايا
بالشقر الاشول جماهيرا يغلو نها لجلاب وكسوا من اصناف السعايا فخار مختام
لخزات الزمان نصاب وعادوا نظير البرمكيين قبل فراو الاهلا لاقى زمان ذباب
وكانوا النادر على الكل منهم الى بان من نار العدو شهاب خلوا الدار في جنح الظلام
ولا اتقوا ملامه ولا دار الكرام عتاب كسوا الى جلبا البهيم لستره وهم لو دروا البسوا
قبيح جباب كذلك منهم حابن لى ورا النبا فهل حكمى له ان عقله غاب يظن ظنونا
يس نحن من اهلها تمنى يكن له في اسماع شعاب خطاهو ومن وانا في سوء ظنه بالاثبات
من ظن القبايح عاب نوا عزو في ان الفتا بو محمد وهو ب لا لاب بغير جباب
وبرحت الا وعاد منه ويحسبوا امروجه يا لحى بروج سحاب جروا يطلبوا الحث السحاب
شرايع لقوا الكل ما بستاملوه سراب وهو لو عطا ما كان للراى عارف ولكن في قلة عطاه
صواب وان نحن ما نستاملوا عنه راحة وانه بسهام التلاف مصاب وان طاتر
شيش بغبار وسعوا عليه وتمسى القروع كراب وانه منها من قريب مفاصل خلوج
عنانه هو لها وقباب وعن فاتنات الطرف ببض غرائج ربوا خلف استار وخلف
حجاب بنيه اذا تاهوا ويصبوا اذا اصبوا لحن قوانين وصوت رباب يضلوه
من عدم اليقين وربا يطارح حتى مالكنه شاب بهم جازله زمنا وطوع اوامر ولذة ما كول
وطيب وشراب حرام على ابن نادا كين ما مضى من الود الا بابد الخراب وان كان له

عقلا رجيحا وفطنة تلج في البحر الغريق غراب واما البدالا بدلها من ميا طى كبار الى تبقى
الرجال كتاب ويحمى بها سوق علينا سلاعه ويحيا رمغضوب القنا وجعات ويمشى
غلبا لها طالب ربح ملكنا ندوما ولا يمشى صحيح بناب باو اكلين الخبز تبغوا ادامه علطوا
او متوا في السموم لباب ومن شعر على بن ابراهيم من رو سا رنانه بنى عامر لهذا العهد احدى
بطون زغبه يعاتب بنى عمه المنطاولين الى رياسة بيته ابا يات غدبه من قريض كلام
محبره كالدر في يدين صائغ ليا كان في سلك الحرير نظام اناجى بها منى تا بيت ما طرا
وبينا عليها بدا تركت الظعون قام غدا منه لام الى حبيب وانقطعت عصا ما ولا
عليه حكام لكن ضميرى يوم بان بهم النيا تبرم على سوك القتاد هرام والا كما ابراص
البهاى قوا دح لهم بين عوج الكانفات ضرام والا كنى القلب في يدين قابض ما هم
بمنشار القطيع غشام ليا قلت نقضا من شقا البين زارنى اذاه ينادى بالفراق حمام
الا يا ربوعا كان بالامس عامر يحى وحله والقطين لمام وغيما انذا في للخطا في ملاعب
وجا الليل فيهم ساهرا وتيام وثم يشوق الناظرين النامه ليا ما بدا من مهرق وكظام
ما غدف وياسمها بر وعوا مربها واطلاو من سرب المها ونعام واليوم ما بيها سوا
البوم حولها ينوحوا على اطلال لها وحمام وقفت بها طورا وطويلات لها بعين سخيفا
والدموع جام ولا صح لى منها سوى وحش خاطرى وسقمى من اسباب عرفت وهام
ومن بعد ذا اهدى لمنصور بو على سلام ومن بعد السلام سلام وقولوا لو يا بوا لوفا كلح رايكم
وخلتم بحورا غامقات دهام زواخر ما تو قاس بالعود وانما لها سيلات على الفضا والاكام
ولا تستوا فيها قياسا يدلكم وليس البحور الطاميات تعام وعانوا على ما حلكا نكم في رو دها
من الناس عدمان العقول ليام ياعزو تاركبوا الضلالها ولا لهم قرار ولا دينا لهن
دوام الا عناهم لو ترى كيف رايهم مثل سد ورفلا مالهن تمام خلوا الغبا وبغاو من قبب
العلى مواضع ما هيا لهم بمقام وحق النبى والبيت واركانه الذى ومازارها في كل عهد
وعام لبد الليالى بينه ان طالت الحياة وقوتها حمط الشكاع مدام وان بدنا
تتلى الليالى عجايف بكل ردينى مطرب وحام وكل مشاقا كالشذايا ده عابر عليها
من اولاد الكرام غلام وكل كميتى مكتفض ناته يطن يصارع في العنان لجام وتحبل بنا
الارض العقيمة مده وتولدنا من مشق كضام بالابطال القو والهجان وبالقنى لها
وقت وجيات العدو زحام نحن ما وانا عقيه نقودها وفرسن زحى للحروب
علام ونحنا كما اصراش البراقى اثر نجعكم حتى تقاضوا منه ويوم غرام متى كان يوم
الفحص ما ميربو على يلقا سعا باصايدين قرام كذلك بو حمو اشترى نعت داخص
وخلا الجيا والغاليات كسلم وخلا رجالا يرى الضيم جارهم ولا تخنعوا برجى

العدو ذمام الا انقيموها ويقد يوشورهم وبهم عز رغبة دايما ودوام كم ثار طعنها
على البدو سابق بين صحاصيح وبين حشام فهي اثار قطاع الصوابو مباعلى لها ناض
تركت الطاعنين رمام وكم ذا يحيبون من غنيمه حليف الثنا سيحاج كل غمام وان جاد يحفو
الملوك ويبتغوا عد اطعنه يجذى عليه فتام عليكم سلام الله من لسن فانهم ما غنت
ورقا وناح حمام ومن شعر عرب البرية بالشام ثم نواحي حوران لامراة قتل زوجها بعثت
الى احلافه من قيس تغريهم بطلب ثاره فتقول فتاة الحي ام سلامة بعين اراع الله من لا رثا لها
بنات طوال الليل ما تالف الكرى موجعة كن الشقا في مجالها على ما جرى في دارها وعيالها
بلحظة عين غير الله حالها فقد تو اشهاب الدين يا قيس كلكم ونمتوا عن اخذ الثار ما ذا اولها
لها
انا قلت اذا ورد الكتاب يسرني ويبرد من نيران قلبي فتيالها ايا حين تسريح الذوائب
واللحى وبيض العذارى ما حميتوا جمالها ولبعض الحذاميين من اعراب مصر من قبيلة يهلبها
منهم يقول لرديني الرديني صادق يهدي بيوتا محكمات طرايف الا ايها
الغادي على ابرهيه جالية ملوا اللساع اللطايف عليها غلام لا يرى النوم مغنم
عظيم الغنا ندب بالاخبار عارف اذا جيتم من حي هلبا جماعة بران به انزاف للحب
زايف وقومي بني منظور لا ذقت فقدهم لغوف الورى ملقا ضعيف وخايف
ولي من بني رداوكل مجرب كفاهم الاهي معظمات التلايف الا في مع المطار علم مطوح وتقربي
بنات وراي محالف وكيف اقر الضيم وانتم جماعة على كل صهال طويل المعارف
او يا لوان رايا يلكم لوان فيه المال الروح تالف ولي من ذراعليا عبيد بن مالك
بها شرف عال على الناس شارف وخلان صدق من ذرى ال مسلم وانا ذرى قومي
كثير العجارف وامثال هذا الشعر عندهم كثير بينهم متداول من احيانهم من ينتحله ومنهم
من يستنكف عنه كما بيناه في فصل الشعر مثل الكثير من رؤسا رياح لهذا العهد وامثالهم
الموشحات والازجال للاندلس واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت
مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتاخرون منهم فنا منه سموه بالموشح
ينظمونه اسماطا اسماطا واغصانا اغصانا يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ويسمون
المتعدد منها بيتا واحدا ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان واوزانها متتاليا
فيما بعد الى اخر القطعة واكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات ويشتمل كل بيت على اغصان
عددها بحسب الاغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصايد وتجاروا
في ذلك الى الغاية واستظرفه الناس وجمله الكافة والعامة لسهولة تناوله وقرب
طريقه وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر القبريري من شعرا الامير عبد
الله بن المرواني واخذ عنه ذلك عبد الله ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر

لهما مع المتاخرين ذكر وكسدت موشحاتهما وكان اول من برع في هذه الصناعة بعدهما
عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد ذكر الاعلم البطليوسي انه سمع
ابا بكر بن زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله بدر تم
شمس ضحى غصن نقا مسك شم ما اتم ما اوضحا ما اورقا ما انم لا جرم من لمحا
قد عشقا قد حرم وزعموا انه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن
الطوايف وجاء مصليا خلفه منهم ابن رافع راسه شاعر المامون بن ذي النون صاحب
طليطلة قالوا وقد احسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول العود قد ترنم
بابدع تلحين وسقت المذانب رياض البساتين وفي انتهائه حيث يقول تخطر ولا تسلم
عسى اكرا المامون مروع الكتايب يحيى بن ذي النون ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة
الملثمين فظهرت لهم البدايع وفرسان حلبتهم الاعمى التطيلي ويحيى بن بقي وللتطيلي من
الموشحات المذهبة قوله كيف السبيل الى صبري وفي المعالم اشجان والركب وسط الفلا
بالخرد النواعم قد بانوا وذكر غير واحد من المشايخ ان اهل هذا الشان بالاندلس يذكرون
ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة
وتانق فيها فتقدم الاعمى التطيلي للانشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله ضاحك
عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري خرق ابن بقي موشحته وتبعه
الباقون وذكر الاعلم البطليوسي انه سمع ابن زهير يقول ما حسدت قط وشاحا على قول
الا ابن بقي حين وقع له اما ترى احمد في مجده العالي لا يلحق
اطلعه الغرب فارنا مثله يا مشرق
وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين ابو بكر الابيض وكان في عصرهما ايضا الحكيم ابو بكر
بن باجه صاحب التلاحين المعروفة ومن الحكايات المشهورة انه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت
صاحب سرقسطة فالقى على بعض قيناته موشحته التي اولها جرر الذيل ايما جر وصل
السكر منك بالسكر فطرب الممدوح لذلك فلما ختمها بقوله عقد الله راية النصر لامير العلى
ابي بكر وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت فصاح واطرباه وشق ثيابه وقال
ما احسن ما بدات وما ختمت وحلف بالايمان المغلظة لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب
فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهبا في نعله ومشى عليه وذكر ابو الخطاب
بن زهر انه جرى في مجلس ابي بكر بن زهر ذكر ابي بكر الابيض الوشاح المتقدم الذكر فغض
منه احد الحاضرين فقال تغض ممن يقول ما لذ لي شرب راح على رياض الاقاح لولا هضيم
الوشاح اذا انثنى في الصباح او في الاصيل اضحى يقول ما للشمول لطمت خدي
وللشمال هبت فمال غصن اعتدال ضمه بردي مما اباد القلوبا يمشي لنا مستريبا

يا لحظه زد ذنوبا وبالماء الشنيبا برد غليل صب عليل لا يستحيل فيه عن عهده
ولا يزال في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد واشتهر بعد هولاء في صدر دولة
الموحدين محمد بن ابي الفضل بن شرف قال الحسن بن دويريده رأيت حاتم ابن سعيد
على هذا الافتتاح شمس قارنت بدرا راح ونديم وابن هردوس الذي له يا ليلة
الوصل والسعود بالله عودي وابن موهل الذي له ما العيد في حلة وطاق وشم
طيب وانما العيد في التلاقي مع الحبيب وابو اسحق الدويني قال ابن سعيد سمعت
ابا الحسن سهل بن مالك يقول انه دخل على ابن زهر وقد اسن وعليه زي البادية اذ كان
يسكن بحصن استبة فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة فانشد لنفسه
موشحة وفيها كحل الدجا يجري من مقلة الفجر على الصباح ومعصم النهر في حلل خضر
من البطاح فتحرك ابن زهر وقال انت تقول هذا قال اختبر قال ومن تكون فعرفه فقال
ارتفع فوالله ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي ادركت هولاء ابو بكر بن
زهر وقد شرقت موشحاته وغربت قال وسمعت ابا الحسن سهل ابن مالك يقول قيل
لابن زهر لو قيل لك ما ابدع ما وقع لك في التوشيح قال كنت اقول ما للموله من سكره
لا يفيق يا له سكران هل تستعاد ايامنا بالخليج وليالينا اذ يستفاد من النسيم
الاريج مسك دارينا واذ يكاد حسن المكان البهيج ان يحيينا نهر اظله دوح
عليه انيق مورق فينان والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان واشتهر
بعده ابن حيون الذي له الزجل المشهور وهو قوله يفوق سهم كل حين بما نشت
من يد وعين وينشد في القصتين خلقت مليح علمت رامي فليس تخلو ساع من قتال
وتعمل بدي لعينين مثل ما تعمل انا بالنبال واشتهر معهما يومئذ بغرناطة المهر ابن
الفرس قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهر قوله لله ما كان من يوم بهيج بنهر حمص على تلك
المروج ثم انعطفنا على فم الخليج نفض مسك الختام عن عسجدي المدام ورداء الاصيل
تطويه كف الظلام قال اين كنا نحن عن هذا الرداء وكان معه في بلده مطرف اخبر ابن
سعيد عن والده ان مطرفا هذا دخل على ابن الفرس فقام له واكرمه فقال لا تفعل فقال
كيف لا اقوم لمن يقول قلوب تصاب بالحاظ تصيب فقل كيف تبقى بلا وجد
وبعد هولاء ابن حزمون بمرسية ذكر ابن الرايس ان يحيى الخزرجي دخل عليه
في مجلسه فانشده موشحة لنفسه فقال ابن حزمون ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا
عن التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولي يا هاجري هل الى الوصال منك سبيل
او هل ترى عن هواك سالي قلب العليل وابو الحسن سهل بن مالك بغرناطة قال ابن
سعيد كان والدي يعجب بقوله ان سيل الصباح في الشرق عاد بحرا في اجمع الافق

فتداعت

فتداعت نوادب الورق اتراها خافت من الغرق فبكت سحرا على الورق
واشتهر باشبيلية لذلك العهد ابو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت
سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك واحسرتا
لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى وافردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات
الغضا اعانق بالفكر تلك الطلول والثم بالوهم تلك الرسوم قال وسمعت ابا بكر
بن الصابوني ينشد الاستاذ ابا الحسن الدباج موشحاته غير مرة فما سمعته يقول لله
درك الا في قوله قسما بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر جمد الصبح ليس يطرد ما لليل
فيما اظن غد صح يا ليل انك الابد او قصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسري
ومن محاسن موشحات ابن الصابوني قوله ما حال صب ذي ضنى واكتئاب امرضه يا ويلتاه
الطبيب عامله محبوبه باجتناب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب جفا جفوني النوم
لكنني لم ابكه الا لفقد الخيال وذا الوصال اليوم قد غرني منه كما شاء وشا الوصال
فلست بالايام من صدني بصورة الحق ولا بالمحال واشتهر بين العدوة ابن خلف
الجزائري صاحب الموشحة المشهورة يد الاصباح قدحت زناد الانوار في مجامر الزهر
وابن خزر البجائي وله من موشحة ثغر الزمان موافق حياك منه بابتسام ومن محاسن
الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبتة من بعدها وهي قوله هل
دري ظبي الحمى ان قد حمى قلب صب حله عن مكنس فهو في نار وخفق مثل ما لعبت ريح الصبا
بالقبس وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير ابو عبد الله بن الخطيب شاعر
الاندلس والمغرب لعصره وقد مر ذكره فقال جادك الغيث اذا الغيث همى يا زمان
الوصل بالاندلس لم يكن وصلك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس اذ يقود الدهر
اشتات المنى تنقل الخطو على ما يرسم زمرا بين فرادى وثنى مثل ما يدعو الوفود
الموسم والحيا قد جلل الروض سنا فثنا الازهار فيه تبسم وروى النعمان
عن ماء السماء كيف يروي مالك عن انس فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهي
منه بابهى ملبس في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر مال نجم الكاس
فيها وهوى مستقيم السير سعد الاثر وطر ما فيه من عيب سوى انه مر كلمح البصر
حين لذ الانس شيئا او كما هجم الصبح هجوم الحرس غارت الشهب بنا او ربما اثرت
فينا عيون النرجس اي شيء لامرء قد خلصا فيكون الدهر قد مكن فيه تنهب
الازهار فيه الفرصا امنت من مكره ما تتقيه فاذا الماء تناجي والحصى وخلا كل
خليل باخيه تبصر الورد غيورا برما يكتسي من غيظه ما يكتسي وترى الاس لبيبا فهما
يسرق السمع باذني فرس يا اهيل الحي من وادي الغضا وبقلبي مسكن انتم به

ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه فأعيدوا عهد أنس قد مضى
تعتقوا عانيكم من كربه واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفسا في نفس حبس القلب
عليكم كرما أفترضون عفاء الحبس وبقلبي منكم مقترب بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به وهو سعيد قد تساوى محسن ومذنب
في هواه بين وعد ووعيد ساحر المقلة معسول اللما جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى ففؤادي نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب فهو للنفس حبيب أول
ليس في الحب لمحبوب ذنوب أمره معتمل ممتثل في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب في ضعاف الأنفس منصف المظلوم ممن ظلما ومجازي
البر منها والمسي ما لقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد كان في اللوح
له مكتتبا قوله إن عذابي لشديد جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان في جهد جهيد
لاعج في أضلعي قد أضرما فهو نار في هشيم اليبس لم يدع من مهجتي إلا الذما كبقاء الصبح
بعد الغلس سلمي يا نفس في حكم القضا واعمري الوقت برجعى ومتاب دعك من ذكرى
زمان قد مضى بين عتبى قد تقضت وعتاب واصرف القول إلى المولى الرضا ملهم
التوفيق في أم الكتاب الكريم المنتهى والمنتمى أسد السرح وبدر المجلس ينزل النصر
عليه مثل ما ينزل الوحي بروح القدس وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه
من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري اشتهرت
شرقا وغربا وأولها حبيبي ارفع حجاب النور عن العذار تنظر المسك على كافور
في جلنار كللي يا سحب تيجان الربا بالحلي واجعلي سوارها منعطف الجدول
ولما شاع التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع
أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير
أن يلتزموا فيه إعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم
لهذا العهد فجاؤوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة وأول
من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان وإن كانت قد قيلت قبله بالأندلس
لكن لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه وكان
لعهد الملثمين وهو إمام الزجالين على الإطلاق قال ابن سعيد ورأيت أزجاله مروية
ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب قال وسمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبيلي إمام
الزجالين في عصرنا يقول ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة
وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام

يصب

يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر متدرجة فقال وعريش قد قام على دكان بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق وفتح فمه بحال إنسان به الفواق
وانطلق من ثم على الصفاح وألقى الصياح وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيرا
ما يتردد إلى إشبيلية وينتاب نهرها فاتفق يوما أن اجتمع ذات يوم جماعة من أعلام
هذا الشأن وقد ركبوا في النهر للنزهة ومعهم غلام جميل الصورة من ثروة أهل البلد
وبيوتهم وكانوا مجتمعين في زورق للصيد فنظموا في وصف الحال وبدأ منهم عيسى البليد
فقال يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو وقد ضمني عشقو لشهماتو تراه قد حصل مسكين
حملاتو يقلق وكذاك أمر عظيم صاباتو توحش الجفون الكحل إن غابوا وبكات الجفون
الكحل إلماتو ثم قال أبو عمرو بن الزاهد الإشبيلي نشب والهوى من لج فيه ينشب ترى
أش كان دعاه يشقى ويتعذب مع العشق قام في بالعورة بألوان يلعب وخلق
كثير من ذا اللعب ماتوا ثم قال أبو الحسن المقري الداني نهار مليح تعجبوا أو صافوا اشرب
وملاح من حولي قد طافوا والمقلين يقول من فوق صفصافو والبوري في منقلاتو
ثم قال أبو بكر بن مرتين الحق تريد حديث بقالي عاد في الوادي النزيه والبوري
والصياد لشنه حتار ويك الذي تصطاد وقلوب الورى هي في شبيكاتو ثم قال أبو بكر
بن قزمان إذا شمر أكمامو يرميها ترى البوري يرشق لذاك إليها وليس مرادو يقع
فيها إلا أن يقبل يداتو وكان في عصرهم بشرق الأندلس مخلف الأسود وله محاسن
من الزجل منها قوله قد كنت منشوب واختشيت النشب ورد في الشقوق لأمر صعب
حين تنظر الخد الشريق البهي تشتهي في الخمر الما تنتهي يا طالب الكيميا في عيني هي تنظر بها
الفضة وترجع ذهب وجاءت من بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس وقعت له العجائب
في هذه الطريقة فمن قوله في زجله المشهور ورذاذ دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص
وتطرب ومن محاسن أزجاله قوله لاح الضيا والنجوم حيارى فقم بنا ننزع الكسل
شريب ممزوج من قراعا احلا هي عندي من العسل يا من يلمني كما تقلد قلدك الله بما تقول
يقول بأن الذنوب تولد وأنه يفسد العقول لأرض الحجاز مر يكون لك أرشد
أش ساقك معي فذا الفضول مر انت في الحج والزيارا ودعني في الشرب ننهمك
من ليس له قدرة ولا استطاعة النية أبلغ من العمل وظهر أيضا من بعد هؤلاء في إشبيلية
ابن جحدر الذي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي أوله من عاند التوحيد
بالسيف يمحق أنا بري ممن يعاند الحق قال ابن سعيد لقيته ولقيت تلميذه المعيع
صاحب الزجل المشهور الذي أوله بالنبي إن رأيت حبيبي افتل أذنو بالرسيلة

اخذ عنق الغزيل وسرق فم الجيلا ثم جاء من بعدهم ابو الحسن سهل بن مالك امام الادا
ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير ابو عبد الله بن الخطيب امام النظم والنثر
في الملة الاسلامية غير مدافع فمن محاسنه في هذه الطريقة امزج الاكواس واملالي نجدد
ما خلق المال الا ليبدد ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششتري منهم بين
طلوع وبين نزول اختلطت الغزول ومضى من لم يكن وبقي من لم يزول ومن محاسنه
ايضا في ذلك المعنى البعد عنك يا بني اعظم مصايبي وحين حصل لي قربك نسيت
قاربي وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظيم من اهل
وادي اش وكان اماما في هذه الطريقة وله من جل يعارض به مدغليس في قوله
لاح الضيا والنجوم حيارى بقوله حل المجون يا اهل الشطارا مذ حلت الشمس
في الحمل مجددوا كل يوم خلاعا لا تجعلوا بينها تمل ليها تخلعوا في شنيل
على حضوره وبك النبات وخل بغداد واخبار النيل احسن هي عندي ذيك
الجهات وطا فيها اصلح من اربعين ميل ان مرت الريح عليه وجات
لم تلتقي للغبار امارا ولا بمقدار ما يكحل وكيف ولش فيه رقاعا الا وتسرح فيه النحل
وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد فني العامة بالاندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى انهم
لينظمون بها في ساير البحور الخمسة عشر لكن بلغتهم العامية ويسمونه الشعر الزجلي
مثل قول شاعرهم دهر لي نعشق جفونك وسنين وانت لا شفقا ولا قلب
يلين حتى ترى قلبي من اجلك كيف رجع صنعة السكة بين الحدادين الدموع ترش
والنار تلتهم والمطارق من شمال ومن يمين خلق الله النصارى للغزو وانت تغزو
قلوب العاشقين وكان من المجيدين في هذه الطريقة لاول هذه المائة الاديب
ابو عبد الله اللوشي وله فيها من قصيدة يمدح السلطان ابن الاحمر طل الصباح قم
يا نديم نشربوا ونضحكو من بعد ما نطربو سبيكة الفجر احكت شفق فيه مبيق فقم
قلبوا ترى عيارا خالص ابيض نقي فضة هو لكن الشفق ذهبو فتنفق سكتو
عند البشر نور الجفون من نورها يكسبو والليل رضا للقبول والعناق على هجر الوصل
نتقلبو جاد الزمان من بعد ما كن بخيل ولش كيفلت من يديه عقربو كما جرحتوا
فيما قد مضى يشرب بنينو او بكل طيبو قال الرقيب يا ادب باش فاني العشق والنشو
ترى تنجبو واتجبوا اعدا اي من ذا الخير فقلت يا قوم من ذا تعجبوا يعشق مليح الا رقيق
الطباع علاش كنقرو باسه او نكتبوا لش يربح الحب الا شاعر اديب يقتنص بكرو
ويدع ثيبو واما الكاس فحرام هو حرام على الذي لش يدري كيف يشربوا
واهل العقل والحنكا والمجون تغفر ذنوبهم هذا ان اذنبوا وفا الذي نحلبو

حسنوا

حسنوا ولم نقدر نحصي الفاظ ان نحلبو صبي هي بهتان تنطفي الجمر وقلبي في جمر
الغضا نلهبو غزال هي تنظر قلوب الاسود وبالوهم قبل النظر يذهبوا
وثم نجيبهم اذ تبتسم فيضحكو من ما ينديوا فيهم كالخاتم وثغرا انتي خطيب الا انه
للقبل يخطبو جوهر في مرجان اي عقد يا فلان صففوا الناظم ولم يثقبوا
وشارب اخضر يريد لش يريد من شبهو بالمسك قد عيبو نسبل لال امش جناح
الغراب ليالي هجري منو يستغربو على بدن ابيض فلو نرا الحليب لم قطر اعي في الغنم
يحلبو وزوج نهيدات علمت قبلها ذيك الصلا يا ربت ما اصلبوا تحت الغلائل
معها خصر ارقيق من رقتو يخفي اذا نطلبو ارق هو من ديني فيما نقول خذ ترى عبدك
تستبي ما اكذبوا اي دين يبقالي معك او اي عقل من يتبعك من فاو ذاتسلبو وتحل
اردافا ثقال كالرقيب حين ينظر العاشق وحين يرقبوا ان لم ينفس غيرا هـ
وينقشع في طرف ديننا والنبي نصلبو فقد نصير ليك المكان حين نجي وحين
تغيب يرجع في عيني قبو محاسنك مثل خصال الامير او الرمل من هوا الذي
يحسبو عاد الامصار وفصيح العرب فمن فصاحة لفظ تتعربوا بجلة العلم
اتفردوا العمل ومن بديع الشعر ما كتبو ففي الصدور بالرمح ما اطعنوا وفي الرقاب
بالسيف ما اضربوا من السماء يحه في اربع صفات ممن نعدو وقلي او تحسبوا
الشمس نغررو والقمر بهمتو والغيث جودو والنجم منصبو يركب جوادا لجود ويطلق
عنان الاعنا والجد حين يركبو من خلعتو يلبس كل يوم بطيب ثناه العالي
نطيبو نعمتو تظهر على من يرتجيه قاصد ووارد فقط ما خيبو قد اظهر الحق وقد كان
في حجاب لش يقدر الباطل بعد يحجبو وقد نبا بالتقى ركن التقا من بعد ما كان
الزمان خربو تخافوا حين تلقاه لكما ترتجيه فمع سماحة وجهو ما يهيبو يلقى الحرب
ضاحك وهي عابسا غالب هو لش في الدنيا من يغلبو اذا جبد سيفو يابس
الرود وفلش يثني على الذين يضربوا وهو سمي المصطفى والاله للسلطنا اختاره
واستنجبو تراه خليفة امير المسلمين يقود جيوش من زين موكبو لذي الامار
تخضع الرؤوس نعم وفي تقبيل يديه يرغبوا بيت بني نصر بدور الزمان يطلعوا
في المجد ولا يغربوا وفي المعالي والشرف يبعدوا وفي التواضع والحيا يقربوا
فالله يبقيهم ما دار الفلك واشرقت شمسو ولاح كوكبو وما يغني في القصيد
في عروض يا شمس خدر ما لها مغرب ثم استحدث اهل الامصار بالمغرب
فنا اخر من الشعر في اعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية ايضا وسموه
عروض البلد وكان اول من استحدثه فيهم رجل من اهل الاندلس نزل بفاس يعرف

يا ابن عمير فنظم قطعة على طريق الموشح ولم يخرج عن الاعراب الا قليلا مطلعها ابكانی
بشاطی النهر نوح الحمام على الغصن في البستان قريب الصباح وكف السحر
يمحو مداد الظلام وماء الندى يجري بثغر الاقاح باكرت الرياض والطل فيه افترق
كنثر الجواهر في رقاب الجوار ودمع النواعير ينهرق انهراق بحال الثعابين
حلقت بالثمار لووا بالغصون خلخال على كل ساق ودار الجميع بالروض دور
السوار وايدي الندى تخرق جيوب الكمام وتحمل نسيم المسك عنها رياح
وعاج الضيا يطلي بمسك الغمام وجر النسيم ذيله عليها وفاح رايت الحمام بين
الورق في القضيب قد ابتلت ارياشه بقطر الندى ينوح مثل ما اك المستهام
الغريب قد التف من ثوبه الجديد في ردى ولكن بمنقاره احمر وساق خضيب
ينظم سلوك جوهر ويتقلدا جلس بين الاغصان جلسة المستهام جناح
توسد والتوى في جناح وضاق اشتكى ما في الفؤاد من غرام منها ضم منقار لصدر
وصاح فقلت حمام احرمت عيني الهجوع اذی تزال تبكي بدمع سفوح
قال قد بكيت حتى صفا لي الدموع بلا دمع نبقى طول حياتي ننوح على فرخ طار
لي لم يكن لو رجوع الفت البكا والحزن من عهد نوح كذا هو الوفا كذا هو الزمام
انظر للجفون صارت بحال الجراح وانتم من بلا منكم اذا تم عام يقول قد عياني
ذا البكا والنواح فقلت حمام لو خضت بحر الضنا كان تبكي وترثي لي بدمع
هتون ولو كان بقلبك ما بقلبي انا رماد كان تصير بحال فروع الغصون اليوم
لي نقاسي الهجر كم من سنا حتى للسبين حالة ترا في العيون وما بقا حتى النحول
والسقام اخفاني نحولي عن عيون اللواح لو جتني المنايا كان تموت في المقام
ومن مات بعد يا قوم لقد استراح تالله لو زرت الاوداب الرياض من جفوني
عليه رقت النفس للفؤاد والخضبت من دمعي وذاك البياض طوق العهد
في دمعي ليوم التناد واما طرف منقاري حد سوا استفاض بحال طرف سعد وجسمي
رماد ونبكي وترثي لي صنوف الحمام ومن ضاق بحال الصد والهجر باح فيا بهجة
الدنيا عليك السلام اذا لم نجد راحة فيك ولا استراح فاستحسنه اهل فاس
وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذي ليس من شانهم وكثر
شياعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا الى المزدوج والكازي والملعبة
والغزل واختلفت من المزدوج ما قاله ابن شجاع من فحولهم وهو من اهل تازى المال
زينة الدنيا وعز النفوس يبهي وجوها ليس هي باهيا فها من هو كثير الفلوس
الوه الكلام والرتبة العاليا يكبر من كثر ماله ولو كان صغير ويصغر عزيز القوم

اذ يفتقر من ذا ينطبق صدري ومن ذا التغير وكاد ينفقع لولا الرجوع للقدر اذ
يلتجي من هو في قومه الكبير من لا اصل عنده ولا له خطر لقد ينبغي نحزن على ذي العكوس
ونضع على ثوبي فراش خابيا اذ صارت الاذناب امام الروس وصار يستفيد
الواو من لاقيا ضعف الناس من افا اوف والزمان ما ندري علي من نكثره
وذا العتاب اذ صار فلان اليوم يصبح بو فلان ولو ريت وكف يرد الجواب
عنا والسلام حتى راينا عيان انفاس السلاطين في جلود الكلاب كبار النفوس
جدا ضعاف الاسوس هم في ناحيا والمجد في ناحيا يروا انهم والناس تراهم نيوس
وجوه البلد والعمدة الراسيا ومن مذاهبهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته
تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان اهمك يا فلان لا يلعب الحسن بيك ما منهم مليح
عاهد الا وخان قليل من عليه تحبس وتحبس عليك يتنزهوا على العشاق ويتمنعوا
ويستعمدوا التقطيع قلوب الرجال وان واصلوا من جنبهم يقطعوا وان عاهدوا
خانوا على كل حال ملح كن هويت ونشبت قلبي معوا وصيرت من خدي لقدمو نعال
ومهدت لو وسط قلبي مكان قلت اكرم اقلبي لمن حل بيك وسوف عليك ما يعز بيك
من هوان فلا بد من هول الهوى يعتريك حكمتو عليا وارتضيت به امير فلو كان ترى
حالي اذ نبصرو نرجع مثل رجلي في وجه القديم ندريه ونتعطن بحال الجرو وتعلمت
من ساعات الضمير ونفهم مرادو وقبل ان يذكرو ونخشى في مطلوبو ولو ان كان عصر
في الربيع او في الليالي فريك ونمشي نشوقوا لو يكون في اصبهان واش ما يقل يحتاج نعز
لو يجيك حتى اتى على اخره وكان منهم علي بن المؤذن بتلمسان وكان لهذه العصور
القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف ابدع في مذاهب
هذا الفن ومن احسن ما علق بمحفوظي قوله في رحلة السلطان ابي الحسن وبني مرين الى
افريقية يصف هزيمتهم بالقيروان ويعزيهم عنها ويؤنسهم بما وقع لغيرهم بعد
ان عنتهم على غزاتهم الى افريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول في مفتتحها وهو
من ابدع مذاهب البراعة في الاشعار بالمقصد في مطلع الكلام وافتتاحه ويسمى براعة
الاستهلال سبحان مالك خواطر الامرا بنواصيها في كل حين وزمان ان طعناه
اعطانا نصرا وان عصيناه عاقبت بكل هوان الى ان يقول انفتح جيوش المغرب
بعد التخلص كن مرعي ولا تكن راعي فالراعي عن رعيتو مسؤول واستفتح بالصلوة
على الداعي للاسلام والرضا السني المكمول للخلفاء الراشدين والاتباع
واذكر بعدهم اذا تحب وقول اجاجا حللوا الصحرا وردوا شرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المنيرة الغرا لمن سارت به عزايم السلطان اجاج بالنبي الذي

زرتم وقطعتم لو كلا كل البيدا عن جيش الغرب جيت نسلكم المتلوف في فريقية السود
ومن كان بالعطا يزودكم ويدع بريته الى زغدا قام قتل كالسد صادف الحدرا وتنجبر
شوط بعد ما يجان وترف كردم وبهت في الغبرا ادى صار ازغر لهم سجان
لو كان ما بين تونس القربا وبلاد الغرب ردلسكندر يبني من شرقها الى غربها
طبقا بجد ووثانيا يصفر لابد للطير كن بجيث نبا اويات الريح عنهم بفرد خبر معوضها
من امور وما نهرا لو تقرا فالفول مع الويدان لجرت بالدم وانصدع حجرا وسوت
لجراف وجفت القولان ادرى لي بعقلك الغياص وتفكرلي في خاطرك جمعا
ان كان تعلم حام ولا رقاص عن السلطان شهر وقتل سبعا بظهير عبد المهيمن الغواص
وعلامات تنشر على الصمعا الا قوم عاربن بلا سترا مجهولين لا مكان ولا امكان
ما يد ريوا كيف يصور والكرا وكف دخلوا مدينة القيروان امولى بو الحجر
خطينا الباب فقصته سير الى تونس فغنا كنا عن الجريد والزاب واش لك
في اعراب افريقيا الغويس ما بلغك عن عمر بن الخطاب الفاروق فاتح القرى المونس
ملك الشام والحجاز وتاج كسرا وفتح من افريقيا دكان كان ذا ذو كرت الوكره
ذكرا ويقل فيها تفرق لا اخوان هذا الفاروق زمرد الاكوان صرح في افريقيا بذا
التصريح وبقت حالي زمن عثمان وفتحها ابن الزبير عن تصحيح لمن وخلت
غنايم الديوان مات عثمان وانقلب علينا الريح وافترق الناس عن ثلث
امر وبقا ما هو السكوت عنوا ايمان فاذا كان ذا في مدة البررا اش نعمل في اواخر
الازمان واصحاب الجفر في كتبنا ما وفي تاريخ كاتبنا وكيوانا يذكر في صحفها وابياتا
شق وسطيح وابن حرانا ان حرين اذا اتكت برايانا لجدار تونس فقد سقط
شانا وذكرنا بسيد الوزرا عيسى بن الحسن الرفيع الشان قال لي ربنا وانا بدا
ادرا لكن يا جا القدر عميت الاجفان ونقول لك ما رما المر بنا من حضرة فاس
الى عرب دياب راو المولى بو يحيا سلطان تونس صاحب العتاب
ثم اخذ في ترحيل السلطان وجيوشه الى اخر رحلته ومنتهى امره مع اعراب افريقيه
واتى فيها بكل غريبة من الابداع واما اهل تونس فاستحدثوا فن الملعبة ايضا على لغتهم
الحضرية الا ان اكثره ردى ولم يعلق بحفظي شيء منه لرداءته وكان لعامة بغداد ايضا
فن من الشعر يسمونه المواليا وتحته فنون كثيرة يسمون منها القوما وكان وكان
وذو بيتين على اختلاف الموازين المعتبرة عندهم في كل فن منها وغالبها مزدوجة
من اربعة اغصان وتبعهم في ذلك اهل مصر والقاهرة واتوا فيها بالعجايب والغرايب
وتجاوزوا فيها في اساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاوا بالعجايب ورايت

في ديوان الصفي الحلي من كلامه ان المواليا من بحر البسيط وهو ذو اربعة اغصان
واربع قوافي ويسمى صوتا وبيتين وانه من مخترعات اهل واسط وان كان وكان
وهو قافية واحدة واوزان مختلفة في اشطاره والشطر الاول من البيت اطول
من الشطر الثاني ولا تكون قافيته الا مردفة بحرف العلة وانه من مخترعات البغادده
وانشد لنا بغمز الحواجب حديث تفسيره ومنو وبو وام الاحدب بلغة الاخرسا
انتهى كلام الصفي ومن اعجب ما علق بحفظي من المواليا قول شاعرهم هذي جراحي
طريا والدما تنضح وقاتلي يا اخيا في الفلا يمرح قالوا فناخذ بثارك قلت
ذا اقبح اذى جرحني يداويني يكون اصلح **ولغيره** طرقت باب الخبا
قالت من الطارق فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق تبسمت لاح لي
من ثغرها بارق رجعت حيران في بحر ادمعي غارق **غيره** عهدي بها وهي
لا تامن على البين وان شكوت الهوى قالت فدتك العين لما تعاين لها غيري
غلام زين ذكرتها العهد قالت لك علينا دين **غيره في وصف الحشيش**
خمرة سرى وهي التي عهدي بها باتي تغني عن الخمر والخمار والساقي تحيا ومن تحييها تعمل
على اخراقي خبيتها في الحشا طلت من احداقي **غيره** راني ابتسم سبقت
سحب ادمعي برقوا ما طالت الشام بتبدا بدر في شرقوا اسبل دجا الشعر تاه
القلب في طرقوا رجع هدانا بخيط الصبح من فرقوا **غيره** يا حادي العيس
برجوعنا المطايا زجر اقف على منزل احبابي قبيل الفجر وصيح في حيهم يا من يريد الاجر
ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر **غيره** عيني التي كنت تنظركم بها بانت
ترعى النجوم وبالتسهيد افتانت واسهم البين صابتني ولا فاتت وسلوتي
اعظم الله اجركم ماتت **غيره** قال الحمام الى البر دار ستر حيني ما لي عليك ادية
كم تلوحني وترسل الباز بجلا بو يجرحني وبعد صبري على الالام تذبحني
ومن الذي يسمونه دوبيتين قد اقسم من احبه بالباري ان يبعث
طيفه مع الاسحار يا نار تشوقي اليه اتقدي ليلا فعساه يهتدي بالساري
اعلم ان الاذواق في معرفة البلاغة منها كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة
وكثر استعماله لها ومخاطبته بين اجيالها حتى تحصل ملكتها كما قلناه في اللغة العربية
فلا يشعر الاندلسي بالبلاغة التي في شعر اهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي
في شعر اهل المشرق والاندلس ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر اهل الاندلس والمغرب
لان اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك بلاغة لغته
وذايق محاسن الشعر من اهل جلدته وقد ذكرنا ان نخرج عن الغرض من هنا ان نقبض

العنان عن القول في هذا الكتاب الاول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه
فقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية له ولعل من ياتي من بعدنا ممن يويده الله
بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على اكثر مما كتبناه فليس على مستنبط الفن احصاء
مسائله وانما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه والمتاخرون
يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا الى ان يكمل والله يعلم وانتم لا تعلمون قال
مولف الكتاب عفا الله عنه اتممت هذا الجزء الاول بالوضع والتاليف قبل
التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر اخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع
مائة ثم نقحته بعد ذلك وهذبته والحقت به تواريخ الامم كما ذكرته في اوله وشرطته
وما العلم الا من عند الله العزيز الحكيم تم الكتاب الاول بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
ووافق الفراغ منه في يوم الاربعاء المبارك ٩ من شعبان المكرم سنة ستة وتسعين
مائة احسن الله ختامها بخير في عافية بمنه وكرمه على يد الفقير الى رحمة ربه الراجي عفوه
بفضله الجزيل ابرهيم بن خليل السعدي نسبا الشافعي مذهبا المصري مولدا غفر الله
له ولمولفه ولمستكتبه ولكاتبه وللناظر فيه ولجميع
المسلمين والحمد لله رب العالمين وصلوته
على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى اله
وصحبه اجمعين وحسبنا
الله ونعم الوكيل
تم